

من انقلاب بشير الجميل إلى حرب المخيمات الفلسطينية



الطبعة الثالثة

Librairie
Internationale

ألان مينارغ

أسرار حرب لبنان

من انقلاب بشير الجميّل
إلى مجازر المخيمات الفلسطينية

طبعة ثانية
مزيدة ومنقحة

المكتبة الدولية
Librairie Internationale
بيروت
Beyrouth

المؤلف: الان مينارغ
عنوان الكتاب: أسرار حرب لبنان: من انقلاب بشير الجميّل إلى مجازر المخيمات الفلسطينية
التعريب: لمجموعة من المترجمين، بتنسيق غازي برو
التنفيذ والإخراج الفني: جبران مصطفى

ISBN 9953-00-571-0

Titre original
Alain Ménargues
LES SECRETS DE LA GUERRE DU LIBAN
Du coup d'État de Bachir Gémayel
aux massacres des camps palestiniens

التنفيذ الطباعي:
دار الفنون للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت – بئر العبد – البازار – الطابق الأرضي ت: ٠١/٥٤٣١٢٠ – دير قانون النهر – ٠٧/٤٠٠٢٨٧

المكتبة الدولية - بيروت
(Librairie Internationale - Beyrouth)
الطبعة الأولى: يناير - كانون الثاني 2006
الطبعة الثانية: مارس - آذار 2006
الطبعة الثالثة: ابريل - نيسان 2009

شارع كليمانصو مبنى جفينور القسم D
ص ب 8018 -11 بيروت لبنان
بريد إلكتروني: Libinter@cyberia.net.lb
تلفون: + 961 1 743285/6 - + 961 1 751910 - + 961 3 740020
فاكس: +961 1 751911

الإهــداء

إلى

إيمريك وكاتيا ولينا

وهبيل وناتالي وبيتر وتارا وترايسي

" التاريخ أخطر نتاج أتيح لكيمياء العقل تحضيره. وهذه الخاصية معروفة جيّداً. يدفعنا التاريخ إلى الحلم، وهو يُثمل الشعوب ويولّد لديها ذكريات زائفة، ويثير لديها ردود أفعال مبالغ فيها، ويبقي على جراحها القديمة حيّة، ويعذبها في استراحتها، ويقودها إلى جنون العظمة أو إلى جنون الاضطهاد ويحوّل الأمم إلى كيانات عنيفة، ورائعة، وغير محتملة وتافهة.

بول فاليري

التمهيد

اعتبر لبنان حتّى نهاية الستينات، سويسرا الشرق الأوسط، وملجأ لكلّ كبار القوم في العالم العربي يقضون عطلتهم الصيفية في ربوعه. يضاف إلى عذوبة مناخ جباله المخضوضرة وإلى ضيافة البلد الأسطورية، أمر آخر لا يقل أهمية، ألا وهو نظام سرية مصرفية صارم، وأكبر كازينو في المنطقة، وحركة ليلية مطلقة العنان بمقدار ما هي متكتمة، وإمكانية للاستمتاع بملذات الحياة أيضاً، بدءاً بالكحول، المستنكر والمحظور في البيئات الإسلامية المحيطة. وثمة حرية تعبير حقيقية قد جعلت منه كذلك ملجأ حصيناً يأوي إليه المعارضون السياسيون الوافدون من العواصم المجاورة. وبالإضافة إلى ذلك كانت بيروت، المركز السرّي للمال العربي، وللتبادل والصفقات من كل نوع.

غير أنّ الواجهة اللبنانية الفخمة هذه أصبحت هشة، لافتقارها إلى أساسات متينة. فالبلد، قبل كل شيء فسيفساء من العائلات الروحية[1]. فأن يكون المرء لبنانياً، يعني التماهي – وما زال الأمر كذلك على كل حال – من الناحية الطائفية مع إحدى هذه الطوائف، والانتماء إلى منطقة، ثم إلى "عائلة". أما الانتماء الوطني فيأتي بعد ذلك، بعيداً جداً.

عقب أربعمائة سنة من السيطرة العثمانية ونيّف وعشرين سنة من الانتداب الفرنسي، توصّل لبنان إلى توازن سياسي داخلي هشّ؛ ونصّبت كل هذه الجماعات على نفسها زعامات تقاسمت فيما بينها السلطة وأمجادها، عقب سلسلة طويلة من المساومات. إنه توازن دقيق غير مستقر دام خمسين عاماً.

في سبتمبر – أيلول 1970، عقب عدة محاولات اغتيال مدبرة من قبل الفلسطينيين ضد الملك حسين، ملك الأردن، الذي كان معارضاً لعملياتهم ضد الإسرائيليين، عمد فيلق البدو في الجيش الأردني، بواسطة حمّام من الدم، إلى طرد الميليشيات المسلحة والحركات السياسية التي تشكلت منها منظمة التحرير الفلسطينية (م ت ف). ومنذ حرب

---

(1) اثنتا عشرة مسيحية وأربع مسلمة.

الغفران (أكتوبر – تشرين الأول)، كانت البلاد العربية، وخصوصاً بلدان المواجهة، تخشى سياساً المنظمة الفلسطينية التي أخذت على تلك البلدان تهاونها في محاربة إسرائيل. فلم يقبل أحد بإيوائهم على أرضه. وتلافياً لقول "لا" لعرفات، اتخذت إحدى القمم العربية المنعقدة في القاهرة عام 1969، القرار الذي بقي سراً لفترة طويلة، والذي فرض على لبنان ليس استقبال الفلسطينيين على أرضه فحسب، إنما أكثر من ذلك، السماح لهم بقواعد ينطلقون منها لمحاربة "الصهيونية". فاتخذت م ت ف قواعد لها بأسلحتها وعتادها وعائلاتها، في جنوب لبنان، وفي المخيمات المحيطة ببيروت، بجانب اللاجئين الذين نزحوا إليه عام 1948، عقب طردهم من فلسطين أثناء "عملية داليت"، التي نظمتها القوات اليهودية، حسبما يروي وليد الخالدي في مقالته "The Master Plan for the Conquest of Palestine"[1]، وإلياس صنبر مؤخراً في كتابه Palestine 1948. L'expulsion[2]. وقد انهار التوازن اللبناني السياسي الهش مثل قصر من رمال.

وسريعاً، أنشأت مختلف التنظيمات المكوِّنة لـ م ت ف إمارات حقيقية داخل البلد؛ فقد كان كل تنظيم فلسطيني عازماً على فرض احترام استقلاليته، أوّلاً في وجه المنظمة التي يقودها عرفات، ثم في وجه السلطة اللبنانية؛ فضاعف الفدائيون من هجماتهم ضد الدولة العبرية ورد الطيران الإسرائيلي بشن غارات قاتلة تسببت بأضرار ملازمة مهمة وسط السكان المدنيين. فتشكلت عقب ذلك معارضة لبنانية للوجود الفلسطيني، من القوى اليمينية المسيحية المتمحورة حول ثلاث قوى عائلية نافذة: آل فرنجية في الشمال، وآل شمعون في الشوف، جنوبي بيروت، وآل الجميّل في المتن، إلى الشمال من العاصمة وكان هذان الأخيران قد أعادا تجميع مناصريهم في حزب الكتائب المجهز بميليشيا مسلحة قوية.

وجدت م ت ف دعماً فعالاً لدى أحزاب عربية يسارية (قادتها غالباً شخصيات مسيحية) باسم كفاح الشعوب والروابط مع البلاد العربية التي تدور في فلك موسكو، وكذلك لدى التنظيمات اللبنانية الإسلامية باسم القومية والوحدة العربية. وسرعان ما تحول التوتر إلى دورات عنف. بدأت الأولى يوم الأحد 13 أبريل – نيسان 1975. حيث قتلت عناصر من

(1) In *Middle East Forum*, novembre 1961, republié avec un nouveau commentaire par le *Journal of Palestine Studies*, Beyrouth, vol. XVIII, 1988.

ميدل إيست فوروم، نوفمبر – تشرين الثاني 1961، أعيد نشرها مع تعليق جديد بمجلة دراسات فلسطينية، بيروت، المجلد 18، 1988.

(2) Elias Sanbar, *Palestine* 1948. *L'expulsion, les livres de la Revue d'études palestiniennes*, Paris, 1984.

إلياس صنبر، فلسطين 1948. عملية الطرد، منشورات مجلة دراسات فلسطينية، باريس، 1984.

ميليشيا الكتائب، المسيحية، 31 فدائياً جراء إطلاق نيران رشاشاتها على حافلة تقل فلسطينيين بين مخيمين للاجئين، رداً على نيران أسلحة أطلقها الفلسطينيون على حشد كان يحضر حفلة تدشين كنيسة في حيّ عين الرمانة في ضاحية بيروت.

وبعيد ذلك حصلت، على التوالي، معركة وسط المدينة، ومعركة الفنادق، ومعركة المخيمات الفلسطينية، ومعركة الجبل. سورية المجاورة، التي كانت ترفض دائماً أن يكون لبنان مستقلاً عن سلطتها[1]، دخلت سريعاً جداً في اللعبة؛ وانفجر الجيش اللبناني الذي كان ملغماً بالخلافات الطائفية. إذ إن "جيش لبنان العربي" الموالي لسوريا قد وقف وجهاً لوجه مع "جيش لبنان الجنوبي" الموالي لإسرائيل، وبقي "جيش الشرعية" موالياً للسلطة. لقد انقسم البلد وتجمد في أقاليم ذات طابع طائفي تفصل فيما بينها خطوط تماس حقيقية.

وتطور الفريقان اللبنانيان مع الوقت بطريقتين مختلفتين، فوقف فريق مسانداً م ت ف، وغالباً برعاية بلد عربي، سورية بالدرجة الأولى، يجابه الصراعات الفلسطينية الداخلية والتنافس السياسي بين م ت ف ودمشق، وارتضى الوقوف "إلى جانب" الفلسطينيين الذين كثيراً ما كانوا يلبون حاجة لديهم.

في الجانب المسيحي، دفع جمود الحالة السياسية الشباب إلى التنديد بعدم فعالية الأقدمين من السياسيين. ودارت مواجهات بين العائلات الثلاث الكبرى من أجل زعامة مسيحية وحيدة؛ فوحَّد بشير الجميل، الابن الثاني لآل الجميّل، على رأس مجموعة من الشبان الجامعيين، "البندقية المسيحية" بالدم، في 7 يوليو – تموز 1980، من أجل أن يكون المحاور الوحيد للإسرائيليين. وقد طلب المساعدة من تل أبيب في نزاعه مع الفلسطينيين.

واستجابت الدولة العبرية، مشجعة، لا سيما وأن رئيس حكومتها، مناحيم بغين ووزير دفاعه أريل شارون، حاولا منذ سنوات طويلة تصفية م ت ف. لقد أعطت الولايات المتحدة الأميركية إشارة الانطلاق، إذ كانت ترى في ذلك، ليس فرصة لمقاومة الوجود السوفياتي في المنطقة فحسب، إنما أيضاً إمكانية أن توقع إسرائيل معاهدة سلام ثانية بعد توقيعها المعاهدة مع مصر. فتضافرت كل هذه العوامل وراء الدافع لاجتياح لبنان في 6 يونيو – حزيران 1982.

أثناء الحروب التي غَطيتها، دائماً كان يعتريني شعور مثبط للغاية في أنني لا أرى سوى قسم بسيط من البازل (اللغز) أمامي، وبأنني لا أعرف سوى جزء بسيط جداً من الأحداث. وكان هذا صحيحاً على وجه الخصوص في هذا النزاع اللبناني حَيث انهّ، ومفارقةً، لم يكن في وسعي أن ألتقي بجميع الفرقاء المتواجدين على الساحة. ذات مساء، على العشاء، كان أحد اللاعبين في الحرب يتبادل الذكريات مع رفاقه في القتال، فأخذت تتجلى أمامي معاني

(1) لم يوجد أبداً أي تمثيل دبلوماسي سوري في بيروت والعكس بالعكس.

عشرات قطع البازل وتتجمع وتتداخل وتجر الأسئلة وتنكشف آفاق أخرى مبرزة حقائق أخرى . . .

وبعيد ذلك، تسنى لي فجأة النفاذ إلى المئات من الوثائق المحفوظة. ما يناهز طناً من الأوراق، ومحاضر الاجتماعات والقصص والتقارير وملاحظات الدراسات والتقويمات والخطط العسكرية أو السياسية والفواتير وعشرات الصور والخرائط وأفلام الفيديو والتسجيلات. فكانت هذه الصفحات الجافة، الخام، المكتوبة بالإنجليزية والعربية والعبرية والفرنسية، صفحات مثيرة وبمثابة لعبة نارية حقيقية تعجّ بالتفاصيل التي ملأت لي أخيراً الثغرات التاريخية.

واستطعت بعد ذلك أن ألتقي ممثلي الحرب، من أصحاب الأدوار الرئيسية إلى أصحاب الأدوار النكرة، وجنوداً أو جنرالات، ولبنانيين وإسرائيليين، وفلسطينيين وسوريين، ومسيحيين ودروزاً، وسنّةً وشيعة ويهوداً. أجريت 166 مقابلة في لبنان وإسرائيل وتونس والعراق وفرنسا والولايات المتحدة الأميركية. كُثُر هم الذين فتحوا لي ذاكرتهم ومفكراتهم، بغالبيتهم تقريباً. فكل الشكر لهم! وفضّل آخرون التزام الصمت. وحاولت طيلة خمس سنوات من الاستقصاء والتدقيق، أن أفهم كل ذلك ومطابقته، لكي أقدم وصفاً تفصيلياً.

إنه وصف لتلك الفترة التاريخية، الواقعة بين 26 سبتمبر – أيلول 1980 – التاريخ الذي قرر فيه بشير الجميل الاستيلاء على السلطة بمساعدة الإسرائيليين أو بانقلاب –، و26 فبراير – شباط 1984، يوم وطأت فيه قدما أمين الجميل مطار دمشق، بعد ما أصبح رئيساً عقب مقتل أخيه.

وهو وصف لأولئك المقاتلين، الذين أصبحوا شيوخاً لأنهم قاتلوا في سن الشباب، وبقوا سذّجاً لأنهم كانوا صغار السن للغاية في مواجهة سياسيين دهاة ومَهَرة في مجال اللعب بالناس، ومنتفخين بالطموحات الشخصية.

وكذلك، وصفُ حالات الموت العبثي، وما أخفته الأوراق وحالات العمى والحقارات والحماقات التي لطالما كلفت الكثير من الأرواح البشرية.

هذه السيرة غير المكتملة بقيت سنوات طويلة مخفية في أحد الأدراج. عدد كبير من الأمور التي كُشف عنها، ومن الأسماء والتفاصيل. لم تكن المسألة مسألة صمت القبور، إنما صمت المحفوظات. لقد جرت هذه الأحداث منذ عشرين سنة. كان ذلك بالأمس. إلاّ أن نمط الحرب الدائرة اليوم لا يزال هو هو.

الان مينارغ

1

ستة عشر رجلاً لتنفيذ انقلاب

السبت في 27 سبتمبر – أيلول 1980. ما إن يجتاز المرء بوابة باحة "دير سيدة البير" الواقع على مرتفعات بلدة الذوق، حتى تجتاحه هبّات رائحة أشجار الصنوبر وصرير الجُدْجُد عبر نافذة السيارة المفتوحة. كانت الساعة لم تتجاوز الثامنة والنصف صباحاً، والطقس حاراً ورطباً، منذ الصباح الباكر: 31 درجة مئوية، بالرغم من الجو الغائم. كان بشير وراء مقود سيارته "الهوندا" الرمادية اللون، يقودها مسرعاً على ممر الباحة، ويجلس بقربه حارسه الخاص. كان قد دعا أنصاره إلى اجتماع سرّي لتحديد الإستراتيجية الواجب اتباعها بعدما "توحدت الميليشيات المسيحية" قبيل شهرين.

"في اليوم الخامس من الحرب الإيرانية العراقية، دارت معارك عنيفة على طول شط العرب. وكان القصف المكثف قد طاول مدينتي عبدان وخورمشهر الإيرانيتين. . ." وكان راديو السيارة قد انطفأ بمجرد أن قطع بشير التيار بالمفتاح. صعد الدرجات المعدودة التي تودي إلى مدخل المبنى الأبيض المشاد بالباطون. في القاعة الكبرى للطابق الأرضي، كان خمسة عشر رجلاً في انتظاره. وكان قد اختار دير راهبات الصليب في سيدة البير المشرفة على جل الديب، لأسباب سرّية واضحة. ولكن أيضاً لأن شقيقته أرزة كانت راهبة في هذا الدير. تقول أسطورة العائلة إنها نذرت نفسها للرهبنة في عام 1970 أمام سرير والدها بيار الجميل في المستشفى، إذا شفي من الإصابة البليغة التي تسببت له بها شاحنة في إحدى الورش. ولم تلقَ هذه الأسطورة يوماً، ما يؤكدها.

وبشكل طبيعي، جلس بشير على مقعد الشرف في صدارة الطاولات التي وزِّعت على شكل "U"؛ عيَّن الكرسي إلى يمينه، وطلب باحترام من عميد السن، شارل مالك، أن يرأس الجلسة. ومالك، الأرثوذكسي من منطقة الكورة في لبنان الشمالي، المشهورة بزيتونها، خريج كلية الفلسفة في جامعة هارفارد، وتبوأ عدة مرّات في لبنان منصب وزير، خصوصاً في الشؤون الخارجية. وقد ساهم في إعداد ميثاق الأمم المتحدة الذي وقّعه هو نفسه، نيابة عن بلده، على كل حال، عام 1945. ورأس شارل مالك بعد ذلك الجمعية

العامة لمنظمة الأمم المتحدة، وكان، بهامته المهيبة ووجهه الممدد بأنف بارز، يرتدي دائماً زياً مفصّلاً على الطريقة الأميركية القديمة. وكان، بسنواته التي ناهزت السبعين وبصوته الجهوري، ومازجاً في كل أحاديثه العربية بالانكليزية، بمثابة الضمير ومرجع الزعيم المسيحي الشاب في الشؤون الدولية.

اجتمعت حول بشير، لجنة الدراسات الإستراتيجية التي أنشأها على هامش الميليشيا المسيحية التي يقودها، وعلى هامش حزب الكتائب الذي أسّسه والده. فضمّت اللجنة، مجموعة من الخبراء الخلّص، متنوعي الاختصاصات، يُستشارون حسب كفاءاتهم واحتياجات الساعة. ومارس البعض منهم وظائف رسمية متسترين بأسماء مستعارة. تلك كانت حالتي أنور و ميشال سان أندريه.

وأنور، اسم زاهي بستاني، المفوض في الأمن العام اللبناني. كلّف في عام 1975، بمتابعة ملف بشير بعد أن اندهش أولاً بأطروحاته ثم افتتن بها، فانتهى الأمر بالالتحاق به سرياً، ومنذ ذلك الحين ربطته صداقة دائمة به؛ وقد قدم زاهي سرياً، المشورة التقنية لبشير، أثناء بناء جهازي أمن الميليشيا واستخباراتها. كان أنور، ابن دير القمر، البلدة المسيحية الواقعة في الشوف الدرزي، متعذراً اختراقه ويتمتع بميل مفرط لمفهوم الـ "سرية". وقد رفض الانتماء إلى الكتائب رفضاً قاطعاً كما رفض أن تؤخذ له صور على حد سواء. ونادراً ما ظهر في الاجتماعات العلنية. وقد حمى المعلومات التي بحوزته، حتى البسيطة منها، حمايته لأسرار الدولة. لقد مثّل زاهي صورة نقية للدماغ المفكر.

تخفّى سليم الجاهل، رئيس محكمة التمييز في بيروت، خلف اسم ميشال سان أندريه المستعار. وهو أيضاً من دير القمر، ينتمي إلى طائفة الروم الكاثوليك. كان ميشال سان أندريه، الخمسيني، والأصلع، والخفيض الصوت، والسريع الكلام وكثيره، فرانكوفونياً، محبذاً ونصيراً للثقافة الفرنسية ومؤمناً بها. ينتفض إذا ما تحدث أحد أمامه بالانكليزية، ويطلب فوراً ترجمة لقوله وبنوع من الإلحاح. في عام 1976، عندما كان أستاذ القانون في جامعة القديس يوسف للآباء اليسوعيين، قُتل اثنان من تلامذته المسيحيين في معركة بوسط المدينة. قرر عندئذ الانضمام شخصياً إلى الكتائب فاتصل ببشير هاتفياً. لكنه طرح شرطاً وحيداً هو المحافظة على سرّية اسمه. واختار اسماً مستعاراً مركباً من اسمَيْ ولديه ميشال وأندريه موصولَيْن بعبارة "سان" حتى يتوافق الاسم مع أسماء "ثوار 1792"؛ فانخرط ضمن فريق المستشارين، وكانت المفاجأة أن التقى فيها ابن عمه بالمصاهرة، زاهي بستاني.

طلب بشير من لجنة الدراسات الإستراتيجية، التفكير في إمكانية تطوير عمله السياسي. فعُقد أول اجتماع سري في 6 أغسطس – آب 1980، في إحدى شقق مجمع "هوليداي

بيتش" السياحي، عند مصب نهر الكلب، شمالي بيروت. كانت النقاشات، يومها، قد أوضحت بصورة جلية استحالة القيام بأي عمل خارج الحدود المفروضة في صيغة 43"[1]، وهي صيغة شددت على "المساومات والصفقات" التي كرّستها ممارسات السلطة السياسية؛ فكانت النتيجة في نظر اللجنة أن أنكرت حتى فكرة المواطنة، بما أن المواطن مضطر لتأكيد وجوده من خلال هويته الدينية، واستنتجت من ذلك أن هناك حلاً واحداً فقط لا غير، ألا وهو الثورة من أجل تغيير الأنظمة والقواعد المعمول بها؛ يومها، قرر بشير "الانتقال "للاستيلاء" على الدولة"، وفي أقصى حد، في عام 1982، عام الانتخابات الرئاسية المقبلة. إلا أن ما بقي مجهولاً، هو معرفة كيفية حصول ذلك؛ لذا كلّف بشير اثنين من أعضاء لجنة الدراسات الإستراتيجية، نبتون، أستاذ في الفلسفة، وجبرايل، عسكري محترف، أن يدرسا في جو من السرّية الفائقة جميع إمكانيات الوصول إلى السلطة. فطيلة خمسين يوماً، أمضى الرجّلان فترات بعد الظهر وأمسياتهما، في عزلة بين جدران مكتب نبتون. وتوصّلا بجهد متواصل ومعزَّز بالقهوة والسجائر إلى وضع الخطوط العريضة، ثم التفاصيل، للتقرير الذي حمل عنوان "دراسة لقيام بشير بالاستيلاء على السلطة"[2].

كان نبتون – اسمه الحقيقي أنطوان نجم – من الأعضاء الأوائل في حزب الكتائب. وكان مسؤولاً عن الإيديولوجيا فيه، وهو الذي صاغ عقيدته؛ وهو من أبناء طرابلس، في لبنان الشمالي. عاش فترة شبابه مثل أي ماروني ضمن محيط سني غالب، وقد انطبعت طفولته "بعقدة الإسلام"، وكأنها اكتوت بالحديد الحامي؛ فكان نصيراً شرساً لنظرية "كل في بيته"، وهو صاحب شعار "لن نكون ذمّيين". وهو الذي أوحى على كل حال بشخصية المسيحي الذي يعيش في جو يخشى فيه بصورة دائمة "محمود" و"محمد" اللذين يحيطان به من كل الجهات، والتي وصفها زياد الرحباني، ابن المطربة فيروز، في مسرحيته "فيلم أميركي طويل". في عام 1975، ترك أنطوان نجم الحزب صافقاً الباب وراءه. فقد لام بيار الجميل الأب، والد بشير، ليس لأنه "ديكتاتور" فحسب، إنما أيضاً لأنه بالغ في تعلقه بالتعايش مع المسلمين، وهو تعايش منصوص عنه في ميثاق 1943. كان أنطوان نجم يفضل للبنان نظاماً فدرالياً يفصل تماماً بين المسلمين والمسيحيين. لذا التحق ببشير لتأسيس تيار ثوري يناضل من أجل التقارب مع الدولة العبرية التي كان يرى، في ما

(1) اتفاق غير مكتوب متمم للدستور اللبناني، يحدد توزيع الوظائف في الدولة بين الجماعات الدينية المختلفة. ينبغي أن يكون رئيس الجمهورية مارونياً ورئيس الوزراء سنياً، ورئيس مجلس النواب شيعياً؛ وتوزع الوظائف العليا توزيعاً طائفياً تبعاً لنظام من الحصص.

(2) انظر الوثيقة كاملة في الملحق 1.

اعتمدته من منهج مثالاً يحتذى. ولقبه بشير بـ "نبتون" لأنه سقط في البحر أثناء أحد اللقاءات السرّية على متن زورق إسرائيلي كان راسياً في عرض البحر قبالة جونيه، ذات ليلة من ليالي شهر مارس – آذار 1977.

أما جبرايل الشريك الآخر في إعداد التقرير، فكان الليوتنان كولونيل ميشال عون. كان بشير مذهولاً بفعالية المقاومة التي أبدتها الوحدة التي قادها ميشال عون أثناء معركة خاضها ضد الفلسطينيين في خلدة عام 1973. كما واستقبله بكل ترحاب بعيد سنتين عندما اتصل به عون لحظة انفجار الجيش. كان الضابط سرياً جداً في علاقاته ببشير. وأنطوان نجم هو صلة الوصل بينهما، إذ إن جبرايل قد وثّق معه صداقة متينة بالرغم من اختلافهما العميق حول نقطة إنشاء كيان مسيحي، فكلاهما العضوان الأولان في لجنة الدراسات الإستراتيجية.

في 27 سبتمبر / أيلول 1980، اجتمع الستة عشر رجلاً لمناقشة تقريرهما المكتوب باليد بنسخة واحدة، تلافياً لأي تسريب.

فبالرغم من أنهم ينتمون الى أجيال مختلفة جداً، إلاّ أنهم يعرفون بعضهم بعضاً، ويلتقون على صداقتهم مع بشير الجميل. وكان هناك على جانب من الطاولة، سبعة "ذئاب شابة" رافقت الـ "باش"[1] عن كثب، منذ 1975. لقد مثّل هؤلاء دائرته العسكرية الأولى. وجميعهم ممن خاضوا قتال الأزقة في الوسط التجاري للمدينة أو على جبهات الجَبَل المسيحي، ثم تقلدوا شيئاً فشيئاً المسؤوليات في تنظيم الميليشيا. تولّى فادي أفرام (هورس) منصب نائب رئيس الأركان، وكان معاون الباش؛ ورافق فؤاد أبو ناصر، رئيس المكتب الثالث (العمليات)، أسعد سعيد (هابّي) وإيلي الزايك؛ وتولى إيلي حبيقة (إتش كا HK) قيادة جهاز المخابرات؛ وتولى سمير جعجع (الحكيم) قيادة الجبهة الشمالية؛ وتولى بطرس خوند رئاسة المراكز الإقليمية الثابتة لمجلس الأمن الكتائبي.

أما على الجانب الآخر من الطاولة، فجلس "الشيوخ": جوزيف أبو خليل الذي كان يناديه بشير، بعطف، بلقب "عمّو"، نظراً لصداقته الوثيقة بآل الجميل. وهو رجل وضع فيه بيار الجميل الأب كل الثقة. وقد ضمّه بشير إلى الفريق ليطمئن والده. فمثّل "عمّو" "ضمانة الوفاء" لحزب الكتائب. ولكن، سرعان ما تحوّل إعجاب أبي خليل بالأب نحو الابن، فأصبح بالتالي من أكثر أنصار الزعيم الشاب تطرفاً. وجلس بجانب أبي خليل، جان ناضر (جينو)، رجل في العقد الخامس، ذو شعر أبيض فضي اللون، مدخن كبير، ترتسم على شفته العليا حركة عصبية. وكان جان ناضر بصفته مسؤولاً عن مركز كتائب الأشرفية، هو الذي سجّل انضمام بشير إلى الحزب وتابعه في خطواته الأولى في السياسة. وكان يحب

(1) هكذا لقب بشير الجميل من قبل المقاتلين المسيحيين.

الباش إلى حد العبادة، ويعتبره بمثابة الابن الذي لم يرزق هو بواحد مثله. وقد تدخّل جان ناضر مراراً لتهدئة روع الأب أو الحزب ضد محميّه. وآخر شخص من الجالسين في الاجتماع، هو جورج فريحة الذي اشتهر بشدة ارتعابه من القصف. أستاذ في علم الأحياء الاستوائية في الجامعة الأميركية في بيروت، متزوج من ابنة عمة بشير، ومستشاره الموثوق في الشؤون الاجتماعية. وهو الذي أنشأ على كل حال اللجان الشعبية والتعاونيات والميليشيا، فضلاً عن أنه كان يديرها.

بدأ أنطوان نجم بقراءة التقرير، وبعد استعراضه للحالة السياسية والعسكرية اللبنانية، راح يفصّل الخيارين الممكنين للاستيلاء على السلطة: فإما تدبير انقلاب باستخدام القوة، وإما الانصياع للعبة الدستورية للوصول إلى الرئاسة الأولى. وعلى الفور، وضعت المجموعة خيار الانقلاب كخيار احتياطي. إذ رأت فيه مغامرة في المجهول. كان ضرورياً أن يجري التأكد من الحصول على دعم افتراضي تماماً من بلد يتمتع بحق الفيتو في مجلس الأمن الدولي، أو الحصول على دعم إسرائيل؛ ولكن الدولة العبرية قد تطلب وعداً بتوقيع اتفاق سلام، بما في ذلك الاعتراف بها، وكذلك توقيع معاهدة دفاع مشترك؛ وقد يستلزم هذا الشرط حتماً، إنشاء دولة مسيحية مطوقة من العالم الإسلامي.

فيكون الانقلاب عندئذ مجازفة تؤدي إلى تقسيم لبنان. مع ذلك لم يكن مصير هذا الخيار سوى بقائه كخيار احتياطي نهائي يُلجأ إليه في حال...

بقي إذاً الحل الدستوري. فاستناداً إلى هذه الفرضية رسم المشروع خطتين، إما مع دعم رئيس الجمهورية الممارس وإما بدونه. لقد نوقشت هذه النقطة، التاسعة، في تقرير نجم – عون، والتي حملت عنوان "الاستيلاء على السلطة بالتعاون والتحالف مع الرئيس إلياس سركيس"، مناقشة طويلة. ولوحظ أن ثمة تقارباً في الأفكار حصل سابقاً، منذ بضعة شهور، بين بشير الجميّل وإلياس سركيس. إذ كان الرجلان قد رفضا، بالشدة نفسها، الحديث عن توطين الفلسطينيين النهائي في لبنان[1]، كما وأنهما اتفقا على "عدم الجدوى وغياب الجدية" في تعاطي الدول العربية في شأن إيجاد حلّ للمشكلة اللبنانية. ومع ذلك، فقد كان ثمة اختلاف بين الرجلين في التحليل لا يستهان به. أهمه، اختلافهما حول الميثاق الوطني لسنة 43. فإلياس سركيس، الاقتصادي والحاكم السابق للبنك المركزي، من المحبذين للحل الوسط وللتعايش بين الطوائف. أما بشير فكان يرى أن لبنان لا يمكن أن

(1) في مطلع عام 1975، سجل وجود 14 مخيماً للاجئين الفلسطينيين مفتوحين بين عامي 1948 و1971؛ وحسب إحصاءات الأونروا المولجة بإدارتها، كان يسكن فيها زهاء 360000 لاجئ مسجلين. أما في الحقيقة فكان يعيش في لبنان ما يناهز الـ 450000 لاجئ.

يعيش إلا بغلبة مسيحية، وفي حال تعذر ذلك، كان يطالب بكانتون مسيحي في إطار فدرالي أو كونفدرالي.

قال بشير مبتسماً: "سيتصرف الرئيس سركيس تبعاً لما درج كل الرؤساء عليه في تصرفهم في الأشهر الستة الأخيرة من ولاياتهم". ودائماً ما ردد أن الرؤساء الموارنة، يعتمدون بصورة منهجية في السنوات الست الأولى من رئاستهم سياسة موالية للمسلمين ولا يتورعون عن اتخاذ مواقف "مناهضة للمسيحيين" استرضاء للمعسكر المقابل"، بينما تنطبع الأشهر الستة الأخيرة بمواقف "مغالية في انحيازها للمسيحيين"، لأنهم سيعودون فيما بعد إلى صفوفهم. لم يحترم إلياس سركيس تقويم أسلافه من الرؤساء، فقد قام بالاتصال ببشير قبيل سنتين من الانتخابات؛ فوافق الرجال الستة عشر على ضرورة أن يستفيدوا من حسن استعدادات رئيس الجمهورية لتحريك ما قد يكون في صالحهم تحريكه من "أحجار". فاقترح أحدهم بذل المساعي من أجل تعيين ضباط موالين لبشير في المراكز الرئيسية في الجيش. ووافق الحضور على الاقتراح:

– ان الاستيلاء على السلطة السياسية لا يقتصر على تولّي سدّة الرئاسة، إنما ينبغي التحكم التدريجي بإدارات الدولة أيضاً، هذا ما لفت اليه جوزيف أبو خليل، فلا أرى بديلاً إذاً عن التعاون مع الدروز والشيعة، أقله في المرحلة الأولى، ويستحيل الاستيلاء على السلطة من دون قلب التوازن القائم؛ لا بد من إنشاء فريق يتولى هذه المهمة.

– وردّ جورج فريحة بشيء من الحدّة قائلاً: لماذا استبعدت إمكانية الاستعانة بالإسرائيليين؟

– لا أستبعد ذلك، إنما هي وسيلة من بين وسائل أخرى.

رفع إيلي حبيقة رأسه ليحيد نظراته للمرة الأولى عن الورقة التي كان يرسم عليها أشكالاً هندسية، وقال:

– إذا استولينا على السلطة، لا مفرّ من الحرب. سينضم الدروز والشيعة إلى كل من سيأتي إلى سدة الرئاسة. ينبغي أن تكون سنة 1982 سنة حاسمة. لدينا سنتان لتجهيز أنفسنا. علينا أن نضعف سائر الأفرقاء الآخرين. يجب مناقشة تحرير البلاد عسكرياً وترقب قيام تحالفات داخلية وخارجية.

استغلّ بشير الفرصة المؤاتية فقال:

– بالضبط، هل المطلوب تحرير البلد من الاحتلالين السوري والفلسطيني، ثم الاستيلاء على السلطة، أم الاستيلاء على السلطة أولاً ومن ثم تحرير البلد؟

ولفت ميشال عون قائلاً:

– ستبقى السلطة الشرعية معزولة ومحاصرة كما هي عليه الآن، حتى لو كانت بيد بشير. وليس سركيس اليوم سوى سلطة شكلية بحتة، ولن يتم تحرير البلد إلاّ إذا انقلب ميزان القوى على الأرض. فطالما أن هذا التوازن مستديم، لن تتمكن أي حكومة من تحرير البلد لأنها ستكون محايدة ومشلولة.

وافق بشير بإيماءة من الرأس، غير أن ثمة حاجة لمساعدة أجنبية حتى يصبح ذلك ممكناً. هذا ما كان يراه الجميع وبدت الظروف الدُّوَلية مؤاتية لذلك.

ذلك أن ملامح وضع جديد بدأت تلوح في الأفق داخل الولايات المتحدة الأميركية. كانت استطلاعات الرأي فيها، التي سبقت الانتخابات الرئاسية، أشارت إلى تقدم رونالد ريغان على منافسه، الديمقراطي جيمي كارتر. إذا فاز الجمهوريون، كما كانت تشير إليه كل الدلائل، ستبعد ظاهرة التبديل الإداري في يناير – كانون الثاني كل الرؤوس السياسية في الإدارة الأميركية، ثم إن بشير وأعضاء فريقه كانوا مقتنعين بأن قضية احتجاز الرهائن الـ 52 في السفارة الأميركية في طهران ستثير الارتياب، لدى الإدارة الجديدة، من كل ما هو إسلامي على الأقل؛ وسوف يجد المسيحيون اللبنانيون عندئذ أصدقاء لهم في أوساطها. ولا يتطلب الأمر سوى شيء من الصبر. إذ سبق لفوز اليمين الإسرائيلي بزعامة مناحيم بيغن قبيل بضعة شهور أن انعكس إيجابياً على نوعية الاتصالات التي أجرتها الميليشيات المسيحية مع الموساد. إلى ذلك، ثمة عامل دُوَلي آخر جذب الانتباه، ألا وهو النزاع العراقي الإيراني الذي أشعل منذ بداية الأسبوع منطقة شط العرب بأسرها. وكانت تلك هي المرة الأولى التي تقحَم فيها الدولة العبرية في حرب، منذ عام 1948، لا بل إن المواجهة الإسرائيلية العربية كانت تسير في اتجاه لا تعود تشكل فيه سوى انهماك ثانوي بالنسبة للدول العربية. فضلاً عن ذلك، لئن كانت الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي يتدخلان أثناء المعارك الإسرائيلية العربية في ساعات المعركة الأولى ليؤازر كل منهما حليفه، فالحاصل هنا أن العراقيين والإيرانيين كانوا متروكين وحيدين يواجه واحدهما الآخر. ولم يكن أي منهما يلقى رعاية رسمية من قوة عظمى. فقد تلقى العراق دعماً عسكرياً خارجياً كافياً، كي لا يخسر، إنما غير متناسب مع مستلزمات الربح؛ طيلة خمسة أيام، دوّى صوت المدفع ولم يحرك أحد ساكناً. ولا شيء كان ينبئ بحدوث العكس.

لقد قرر المجتمعون الستة عشر سلسلة من الإجراءات الفورية تهدف إلى إرساء أسس خطتهم للاستيلاء على السلطة. ومن أجل حرية حركتهم، قرروا بادئ ذي بدء، أن يمارسوا "ضغوطاً" على الأشخاص المسؤولين في الدولة لـ"إقناعهم" بالامتناع عن وضع العصي

في الدواليب طيلة الفتـرة التي ستـسبق الانتـخابات، وخططوا لشل الجيش، في حال الضرورة، معتمدين على إخلاص الضباط الموالين لهم، وعلى تحييد أولئك الذين قد يسببون العراقيل، وذلك "بتهديدهم مباشرة" إن اقتضى الأمر. لذا توجب عليهم "تمهيد الأجواء". ولدى خروجهم من خلوتهم علموا أن انفجاراً وقع في إحدى الحافلات، في حيّ الدورة المكتظ وأودى بحياة مصري وفتاة في الحادية عشرة من عمرها. خبئت العبوة في محفظة نسائية وضعت تحت أحد مقاعد الحافلة.

هرع بشير على الفور إلى مقرّ صوت لبنان، إذاعة حزب الكتائب، وهدد عبر المذياع: "على الفلسطيني أن يعرف أنه سيحمَّل المسؤولية عن حياة كل لبناني يُقتل بسبب جرائمه، وسوف يأتي يوم يحاسب فيه عن كل ما ارتكبه بحق كل لبناني مسالم".

في شهر أغسطس – آب 1980، نفذت على كل الأراضي اللبنانية 49 عملية تفجير كلفت حياة أكثر من 100 شخص. كان شهراً أقل دموياً بما لا يقاس من شهر يوليو – تموز الذي أحصت فيه قوى الأمن 363 قتيلاً و64 انفجاراً. كان بشير يجهل أنه سيقتل بُعَيْد 717 يوماً.

2

الجارة سورية

رغم عدم التطرق إلا لماماً، في اجتماعهم، بدير سيدة البير، إلى العقبة الكبرى التي تعترض مشروعهم، والمتمثّلة بسوريا، كان أعضاء لجنة الدراسات الإستراتيجية متنبّهين تماماً للأمر. إذ إنهم كانوا مدركين بالتحديد ما يمثله الرجل الذي يقودها بقبضة حديدية ألا وهو الفريق الطيار حافظ الأسد. كان هناك 20000 جندي من جيشه منتشرين على نصف الأراضي اللبنانية تقريباً، ولم تكن دمشق تخفي طموحها بأن تتحكّم بالسلطة السياسية في لبنان؛ إذ كان قد سبق أن أمسك الأسد بيديه عدة أحزاب أو حركات سياسية، وتحولت عاصمته إلى نقطة العبور الإلزامية التي يتعيَّن على كل رجل سياسي طَموح أن يمر بها.

لقد تميَّز حافظ الأسد بكونه صاحب "جبين رياضية، ضخمة، منهمكاً دائماً في تركيب سيل من المعادلات السياسية وحلها"[1]. وتظهره صوره التي زُيّنت بها المخازن، والإدارات ونقاط التفتيش على الطرق، رجلاً أنيقاً، ولكن بدون مسعى لذلك، وبدون ابتسامة ولكن من دون أن يكون منغلقاً أيضاً، وتذكِّر حلاقة شعره بماضيه العسكري، نظراته شاخصة في الأفق، كما هو حال القادة عموماً؛ وقال فيه كل من قاربه إنه ذو حيوية، وداهية، وماكر كما يكون الفلاحون الذين تحدّر منهم. لا يظهر أفراد عائلته في أي مكان – متزوج وأب لخمسة أولاد[2]– دون أن يعني ذلك أنهم منزوون؛ كان شخصه وكل ما يتعلق به أموراً مقدّسة. وكل الأخطاء في سورية – وفي لبنان – مغفورة، باستثناء شتم الرئيس. فكانت هي بمثابة الخطيئة المميتة التي لا تغتفر ويعاقب عليها دائماً.

ولد حافظ الأسد في زمن الانتداب الفرنسي، في السادس من أكتوبر – تشرين الأول 1928، في القرداحة، القرية الصغيرة الجبلية الواقعة على بعد ثلاثين كيلومتراً تقريباً من اللاذقية، وأمضى أولى سنوات حياته في بيت مبني بحجر عارٍ مؤلف من غرفتين مطلتين على

(1) Jean-Paul Mari, dans *Le Nouvel Observateur*, 30 mai 1996.

(2) زوجته، أنيسة، وأولاده بشرى وباسل (توفي في حادث سيارة في يناير – كانون الثاني 1994)، وبشار (الذي خلفه على رأس الدولة في يونيو – حزيران 2000)، مجد وماهر.

باحة من طين مسوّرة بأشجار الزيتون والكرمة والتين. ووالده أحد أعيان عشيرة القالبية العلوية.

والعلويون من أنصار ملة باطنية أسسها محمد بن نصير قرب بغداد، عقب انفصال عن الإسلام الشيعي. و"النصيريون" في نظر الإسلام السنّي أكثر كفراً من اليهود والمسيحيين وأكثر كفراً من كثير من المشركين"[1]. في اللغة الدارجة، لا تزال عبارة نصيرية مرادفة في بعض المناطق لعبارة منبوذ. كان العلويون مطاردين طيلة تاريخهم مطاردة شرسة من قبل الشيعة والسنة، الفريقين الإسلاميين المتناحرين أيضاً فيما بينهما؛ وعلى مرّ السنين، ارتحلوا غرباً واستقروا في حلب. ثمّ استوطنوا نهائياً في الخبايا الجبلية المحاذية لساحل المتوسط شمال لبنان. وقد التقى حافظ الأسد، القليل الانفتاح، وهو في سن السادسة عشرة أحد رفاقه في المدرسة الثانوية، والعضو في حزب البعث العربي الذي أسَّسه حديثاً، ميشال عفلق، الأرثوذكسي، وصلاح البيطار، السني. ودعت هذه الحركة إلى توحيد العرب ضمن نظام مساواة علماني.

كانت الفكرة، بالنسبة للأسد الشاب المتأثر بعقدة الأقليات، فكرة مغرية، فانتمى إلى هذا الحزب الذي كان لا يزال لا يضم سوى خمسمائة ألف عضو نشط، معظمهم من الطلاب، المنظمين في خلايا سرية؛ لقد التقى حافظ الأسد، في أحد هذه الاجتماعات، بعبد الحليم خدام وأصبح صديقه ثم فيما بعد وزير الخارجية في عهده.

في 14 مايو – أيار 1948، بعيد بضع ساعات من إعلان دافيد بن غوريون استقلال إسرائيل، سارع حافظ الأسد للتطوع في القتال ضد "الصهيونية". فأعيد بأسلوب جاف إلى دراسته، وذهب إلى البيت، والغيظ يملأ قلبه. وبعد ذلك، انخرط في العمل السياسي. وفي عام 1951، ترأس مؤتمر اتحاد طلبة سورية. وفي السنة التالية، تطوع في "قوات الشرق الخاصة". لم يكن لدى الشبان السوريين، خصوصاً منهم الذين ينتمون إلى الأقليات، سوى الجيش لضمان مستقبلهم آنذاك. دخل إلى المدرسة العسكرية في حمص وأصبح طياراً مقاتلاً ممتازاً. حتى أنه فاز ببطولة للبهلوانات الجوية. في 1955، رقّي إلى رتبة ملازم أول، وبعيد سنتين إلى رئيس سرب، إلا أنه استمر في ارتياد الخلايا البعثية ارتياداً سرّياً. لقد بين له هذا التكتم، الضروري في محيطه العسكري، أهمية التخفي، وزرع فيه حب السرية التي رفعها فيما بعد إلى مرتبة فضيلة سياسية أساسية.

لقد عاد حافظ الأسد إلى دمشق عقب دورة دامت أحد عشر شهراً في الاتحاد السوفياتي للتدرب على طائرات الميغ التي كان الجيش السوري مجهزاً بها. ثم غادر ليلتحق بمركز في

(1) ابن تيمية، إمام وعلاّمة سنّي في القرن السادس عشر الميلادي.

القاهرة في إطار التبادل العسكري الذي نصّت عليه اتفاقية الوحدة بين مصر وسوريا في إطار الجمهورية العربية المتحدة، بتاريخ الأول من فبراير – شباط 1958. وعندما فشلت الوحدة عام 1961، سجن الأسد أثناء الشهرين اللذين كانا ضروريين لإزالة الصعوبات الناجمة عن القطيعة بين البلدين. فعاد إلى دمشق ممتعضاً امتعاضاً شديداً، وقد عيّن مديراً للنقل البحري في وزارة النقل، واستعاد نشاطه السياسي ودائماً بالتكتم نفسه. لقد ساهم الأسد بانقلاب في مارس – آذار 1962، فكان إخفاقاً ذريعاً. وهرباً من حملة الاعتقالات، وجد ملجأً في لبنان لدى سليمان فرنجية، الزعيم الماروني الشمالي.

كان الرجلان قد تعارفا عام 1957، بالقرب من اللاذقية، حيث اضطر فرنجية أن "يهاجر" بعد أن قاد، بقوة السلاح، عملاً انتقامياً ضد فريق من أخصامه، أثناء قداس في كنيسة مزيارة. وبالرغم من وجود الأسد في المنفى، بقي على اتصال وثيق ببعض الضباط من أمثال صلاح جديد ومصطفى طلاس وحكمت الشهابي، وشارك في السنة التالية، بتاريخ 8 آذار 1963، بانقلاب عسكري ثان (وهو الانقلاب رقم 21 منذ زوال الانتداب الفرنسي) أوصل صلاح جديد إلى سدة الحكم. تمكن الأسد من العودة إلى سورية والدخول إلى الجيش مجدداً. فعيّن في ديسمبر – كانون الأول 1964، جنرال فرقة وأصبح قائد القوات الجوية السورية. وأصبح بعيد سنتين وزيراً للدفاع مع احتفاظه بقيادة سلاح الجو.

منذ ذلك الحين، لم يفوّت أي فرصة لإبعاد خصومه الحقيقيين أو المحتملين وتعيين أنصاره العلويين في المراكز السياسية في الجيش وفي الحزب، وقد ساعدته الظروف في ذلك. في سبتمبر – أيلول 1966، دعا الكولونيل الدرزي سليم حاطوم قائد وحدات الفدائيين المظليين، رئيس الدولة وأعضاء الحكومة، وقائد الأركان، إلى وليمة كبيرة على بعد 150 كم من دمشق، كما دعا إليها جميع كبار الضباط العاملين في المنطقة. كان حافظ الأسد المتغيّب الوحيد. كان يكره مثل هذه اللقاءات الاجتماعية. أثناء الوليمة، أحاط العقيد حاطوم ضيوفه بالمظليين وطلب منهم تشكيل حكومة جديدة برئاسته مقابل تحريرهم. وفور تبلّغ الأسد الخبر أمر بعض المطاردات القاذفة بالإقلاع والتوجّه إلى مكان الوليمة، فحلّقت على ارتفاع منخفض في إشارة إنذار. فهم الضابط الدرزي الرسالة وفرّ إلى لبنان. لكنه استُرجع وأعدم؛ وفجأة تعززت هيبة حافظ الأسد جراء ذلك، واستفاد من ذلك لإجراء حملة تبديلات وتعيينات واسعة في الجيش باسم الأمن، مما عزز قبضته على الجهاز العسكري إلى حد كبير. واستلم علويون كثر مراكز عملياتية.

لم تدم حرب الأيام الستة مع إسرائيل، في العام 1967، بالنسبة لحافظ الأسد، سوى الوقت الكافي لتدمير طائراته المسمّرة إلى الأرض وفي الدقائق الأولى، وهو يشاهدها، عاجزاً

عن الإتيان بأي حركة. كانت فترة ما بعد الحرب فرصة بالنسبة إليه لاستكمال وضع اليد على أجهزة الأمن الداخلي. في عام 1968، تحكّم بالتشكيلات شبه العسكرية تحكماً تاماً؛ وفي عام 1969، رُبطت أجهزة الأمن بوزارته، بينما كان شقيقه أسد يجند "الفهود الزهرية"، ميليشيا حقيقية سُميت بهذا الاسم بسبب طغيان اللون الزهري على الزيّ المرقط الذي كانت ترتديه العناصر؛ وفي عام 1970، قُيّدت حركة التنظيمات الفلسطينية الموجودة في سورية والتي لا يمكن تجاهل وزنها. إذ إنه لم يكن مطروحاً بالنسبة لحافظ الأسد أن يسمح بإنشاء دولة ضمن دولة على غرار ما فعل الفلسطينيون في الأردن؛ وكما جاء في تصريح للجنرال حكمت الشهابي، قائد الأركان الجديد، المخلص لوزيره، إنه "من غير المسموح لغير الجيش السوري أن يعمل على الأرض السورية"، رداً على مشروع ياسر عرفات بإنشاء ثلاثة ألوية لفتح في سوريا؛ وبموازاة ذلك، كانت دمشق تحرض منظمة التحرير (م ت ف) على تثبيت وجودها في لبنان موضحة أن ذلك يمثل امتيازاً للفدائيين لا جدال فيه. إذ إن التكوين الجغرافي لجنوب لبنان مؤات لخوض حرب عصابات ضد الإسرائيليين، من جهة، ومن جهة أخرى لم يكن من شأن حالة ضعف الجيش في بلد الأرز إلا تيسير عسكرة الوحدات الفلسطينية. كان السوريون يدعمون حججهم بالاستناد إلى اتفاقية القاهرة.

في 3 نوفمبر – تشرين الثاني 1969، منح هذا الاتفاق، الذي بقي محتواه طي الكتمان، الفلسطينيين الحق في العمل العسكري انطلاقاً من بعض النقاط في الأراضي اللبنانية، إضافة إلى تولي الأمن داخل مخيمات اللاجئين"؛ كما وأنه اشترط ضرورة الحفاظ على سيادة الدولة اللبنانية واحترامها، وأن تكون الأنشطة الفلسطينية منسقة مع سلطات البلد". والواقع هو أن اتفاقية القاهرة كان من شأنها، بالرغم من هذا التحفظ الشكلي، أن تحدّ بوضوح من السيادة اللبنانية. وبالفعل، فإن التخلي عن المسؤوليات الأمنية داخل مخيمات اللاجئين، والإجازات الممنوحة، بشروط غير محددة، لتنفيذ عمليات ضد إسرائيل انطلاقاً من الأراضي اللبنانية، قاد بكل بساطة إلى التنازل عن سيادة الدولة على جزء من أرضها والتفاوض مع طرف آخر في شأن سلطتها. وبناءً عليه، لئن كانت غلطة لبنان الأولى هي توقيعه على هذا النص، فقد كانت الثانية اعتقاده بأن في الإمكان تطبيقه. وكان حافظ الأسد متنبهاً، منذ البداية، للعواقب التي يمكن أن تنجم عنه.

انقسم الزعماء السوريون حول المساعدة المطلوبة للفلسطينيين. وكان هناك من دعا، على غرار الرئيس صلاح جديد، إلى مساعدة الفلسطينيين بالسلاح، باسم القضية العربية، وهناك، آخرون من آثر، مثل حافظ الأسد، اتخاذ الموقف الحيادي المترقِّب. وقد تجاوز هذا الخلاف مرحلة النقاشات البسيطة، في سبتمبر – أيلول 1970، عندما انفجرت المواجهة

بين النظام الأردني والتنظيمات الفلسطينية المسلّحة. فأرسل صلاح جديد وحدات مدرعة لنجدة م ت ف. واستنفرت إسرائيل، وهددت بالتدخل إذا تعرض العرش الهاشمي للخطر. وأخطرت واشنطن دمشق أن الإسرائيليين قد لا يتوانون عن تنفيذ تهديداتهم. وبصفته وزيراً للدفاع، وأمانة منه لقناعاته، رفض حافظ الأسد السماح لطائراته أن تقلع لتأمين تغطية جوية للقوات التي أرسلها صلاح جديد، فصُدّت المدرعات السورية بقسوة من قبل فيلق البدو التابع للملك حسين، وطردت التنظيمات الفلسطينية المسلحة من المملكة، مما استثار شرخاً عميقاً داخل السلطة السورية.

ومؤتمر حزب البعث، انعقد في الشهر التالي، وتعمقت الخلافات؛ وقد وجهت أصابع الاتهام من قبل قسم مهم من المؤتمرين إلى حافظ الأسد الذي نعت بالخائن للقضية؛ وفي الفاتح من نوفمبر – تشرين الثاني، أعلنت وفاة الرئيس المصري جمال عبد الناصر، رائد "القومية العربية" المعادية لإسرائيل، أثناء انعقاد الجلسة العامة للمؤتمر. فكانت موجة التأثر عارمة. أعلن العالم العربي الحداد. وبلغ الهيجان الذي أثاره رحيل الرجل العظيم وأفكاره الذروة في كل مكان؛ وفي الوقت نفسه، كان الذين تتهددهم هذه الأفكار، مدركين أن الرومانسية العاطفية المشرقية سوف تهمد مع مرور الوقت. ولكن حافظ الأسد كان على عجالة من أمره. إذ كان مدركاً أنه يمثل أقلية وأن الهيجان المحيط لم يعد يسمح له بأن يعكس الحالة في صالحه. فعمد في فجر 16 نوفمبر – تشرين الثاني 1970، بمساعدة قائد الأركان العامة لجيشه، اللواء مصطفى طلاس، إلى تطويق مقر الرئاسة، والمباني الرسمية والقاعة التي كان المؤتمر منعقداً فيها، بواسطة الوحدات الأكثر إخلاصاً له. واستولى في غضون ساعات قليلة، على السلطة من دون إراقة أي نقطة دم. أُوقف صلاح جديد وسُجن[1]. وكان الأسد قد أطلق على هذا الانقلاب اسم "الحركة التصحيحية".

كانت هذه هي المرة الأولى التي يتبوأ فيها علويٌ منصب الرئاسة؛ فسارع إلى طمأنة السنة بأن أضفى الطابع الإسلامي على قَسَم الرئيس، وبأن أدخل بنداً في الدستور ينص على أن يكون رئيس الدولة مسلماً. وقد اختار معاونيه من بين السنة الذين قبلوا منح الغطاء لنظام علوي مقابل بعض المناصب والامتيازات. فعيَّن مصطفى طلاس وزيراً للدفاع لطمأنة الجيش تماماً؛ وأسند إلى عبدالحليم خدام، رفيقه القديم في الحزب نفسه، حقيبة الخارجية، وقد احتفظ طلاس وخدام بمنصبيهما دائماً.

وعبد الحليم خدام، الرجل القصير القامة، والرياضي المظهر، وذو العينين الزرقاوين، هو أحد القادة السوريين النادرين الذين لا يحتفظون بشاربين؛ مهنته المحاماة، وعمره أكثر

(1) أطلق سراحه، بعيد أربع وعشرين سنة، وخرج من السجن مريضاً، وقد توفي بعيد ستة شهور.

مما يوحي به مظهره ككادر شاب ديناميكي وأنيق، وهو مؤمن ملتزم بطقوس دينه، ويمقت تبديد وقته، ويكرِّس أوقات فراغه لأسرته، وللصيد والفيديو. ويحمل دائماً مسدساً، إثر تعرضه مراراً وتكراراً لمحاولات اغتيال، وهو من أنصار الدبلوماسية "الصارمة"، يتصرف كالجنرالات في ساحة المعركة، ويستعمل لغة تلوح فيها الإيديولوجية البعثية وحجج الحرب الباردة، وموازين القوى؛ وكان وزير الخارجية السوري، الجديد، جريئاً، وإجاباته سريعة، ومتغطرساً أحياناً، وصاحب خطاب مباشر وقاطع، يترك صدى في الأوساط السياسية العربية.

عزز حافظ الأسد سلطته، بعيد ذلك، بتسليم زمام الأمور في الدولة إلى علويين، وفي المرتبة الأولى منهم أفراد من عائلته؛ عين اثنين من إخوانه واثنين من أنسبائه، العقيد عدنان مخلوف والجنرال شفيق فياض، في مراكز أساسية في الجيش والمخابرات والإدارة والحزب. وكان يعيّن نائباً علوياً مع كل موظف سنّي يحمل مسؤوليات رفيعة، حتى أن قائد الأركان، اللواء حكمت الشهابي، المشهود له إخلاصه الشديد، عُيِّن له نائباً هو العميد علي أصلان. والعشرون ألف "فهد زهري"، وهم في غالبيتهم من العلويين، جمّعهم رفعت الأسد رسمياً تحت تسمية سرايا الدفاع التي شكّلت النواة الصلبة التي اعتمد عليها الأمن الداخلي.

كان النظام الذي بناه الرئيس الجديد لضمان بقاء حكمه، قد بني على ركيزتين: حزب البعث من جهة وطائفته العلوية من جهة ثانية. وقد أعطى دمج الاثنين معاً أداة بالغة الفعالية. وكانت إيديولوجية الحزب وثيقة القربى مع إيديولوجية الأحزاب الماركسية الاشتراكية التي استُمدت منها مبادئ البعث، وكذلك أسلوب التسلسلية الهرمية، مع ميول لفرض أمن داخلي عالي المستوى، بالإضافة إلى انضباط صارم. وكان الحزب يتدخَّل في كل مناحي الحياة، وقياداته مقربة من الرئيس. كانت الطائفة العلوية التي يبلغ تعدادها 1500000 نسمة[1] والمحتقرة تقليدياً من الأغلبية السنِّية، كناية عن تركيبة عائلات محتشدة في منطقة واحدة من البلاد، مع ما تتمتع به من حسٍّ وحدوي مؤكّد يحرك كل الأقليات؛ والضباط الذين ينتمون إليها أبدوا لحافظ الأسد إخلاصاً مطلقاً.

ويضاف إلى ذلك "منهج الأسد"، إذ إنه كان بارعاً في استعمال الأسلوب الليبرالي تارة والأسلوب القمعي تارة أخرى، كلما استدعى الأمر ذلك؛ وغالباً ما كان الساطور يضرب في السراي، فكلما فكّر ضابط صاحب مقام رفيع في النظام أنه لا يستغنى عنه، كان يرسل في "زيارة صداقة" إلى بلد صديق، مع الرجاء "من الإخوان الكوبيين" (أو التشكسلوفاكيين)"

(1) 12% من السكان.

أن يستضيفوه بضعة أسابيع، بل بضعة شهور، أي ما يكفي ليتعلم كيف يلتزم حدّه. حتى رفعت، شقيق الرئيس، الذي كان محظياً، فقد خضع لهذه التقنية من النفي المؤقت؛ وما إن تنتهي "العقوبة"، أو ما إن يزول الخطر الذي يمثله الضابط أو الوجيه، حتى يعاد توظيفه حسبما تقتضيه الحاجة.

غير أن سر نجاح حافظ الأسد الداخلي كان يكمن في دبلوماسية لا تشوبها شائبة تجاه العنصر الأكثري المتمثل بالطائفة السنّية في البلد؛ كان يرفع بثبات، مشعل الكفاح من أجل الوحدة العربية، وإعادة توحيد "سوريا" ضد "العدو الصهيوني".

وكان المثال الأوضح في هذا الخصوص، هو المفاوضات التي قادها في شهر مايو – أيار 1974 مع وزير الخارجية الأميركية، هنري كيسنجر، لإنشاء منطقة منزوعة السلاح في الجولان المحتل من قبل الإسرائيليين منذ عام 1967.

لقد استقبل الأسد الوزير كيسنجر في قصر الضيافة، في قاعة ضخمة باردة مجهزة بكراسي ضخمة ذات ذراعين، وباللون البيج، وكانت القاعة مجردة من كل ما هو ثانوي وغير نافع. فلا طاولة ولا أوراقاً فيها لتدوين الملاحظات.

كان يلزم زواره بأن يلجؤوا إلى استخدام ذاكرتهم. إذ اتصفت ذاكرته بأنها خارقة. وبرهن على أنه محاور ومجادل خطر، يستنزف محاوريه ساعات طوال في النقاشات، محتفظاً دائماً باللباقة والكياسة، لا يرفع الصوت أبداً، ويعرض الصعوبات، واضعاً إياها في سياق تاريخي هو تاريخه الخاص. كان كيسنجر مأسوراً. ودخل الأميركي في النقاشات من باب ردّ التحدي. لقد استمع إليه الأسد بأناة تاركاً إياه يغرق في استطرادات كان يستثيرها بحذق، إما بالطعن بما يقوله محاوره وإما بافتتانه، مستعملاً الكذب برباطة جأش مذهلة. وقد كتب الوزير فيما بعد في مذكَّراته، "إنه محاور خطر"، في معرض الإشادة بما يتصف به محاوره من حب لـ "إخفاء الأسرار"، و"استعمال المكر" و"الأهمية المتروكة للتفكير قبل اتخاذ أي قرار". والنتيجة من هذه المفاوضات أقتصرها الأسد ببساطة على إنشاء منطقة مجرَّدة من السلاح بين سورية وإسرائيل، مدركاً أنه لا يستطيع وهو المنتسب إلى أقلية عربية، أن يتجاوز هذا الحد في سيره على درب السلام مع الدولة العبرية. ولو فعل العكس لفرط بالشرعية الهشَّة التي كان يتمتع بها، وفضلاً عن ذلك، استعاض عن الموقف العسكري في الجولان بسيل من التصريحات الاستعدائية وأبقى على حركة المقاومة المسلّحة ضد إسرائيل في لبنان الجنوبي.

وقد طرح نفسه، منذ وصوله إلى السلطة، المدافع عن القضية الفلسطينية، فكانت هذه المواقف العلنية تخفي بالكاد هدفه الرئيسي، ألا وهو أن يصبح عاملاً طاغياً في كل

تسوية سلمية في الشرق الأدنى؛ كان مقتنعاً بأن سورية حصن الدفاع الأخير للـ "أمة العربية" وبأن كل حل يطرح دون موافقة دمشق سيكون على حساب هذه "الأمة". وكان لشدة تعلقه بالتاريخ، لا يستطيع أن ينسى أن في زمن الباب العالي، أي في 1919، كان اللبنانيون، والفلسطينيون والأردنيون والسوريون يشكّلون "شعب سورية التاريخي في حدودها الطبيعية، من جبال طوروس حتى سيناء، ومن السهب العراقية حتى البحر المتوسط"؛ وقد اعتبر الأسد أنه يمتلك حق الوصاية على هذا الكيان، وأن لا مجال للبنانيين، والفلسطينيين أو الأردنيين اكتساب مكانة دولية كافية ليصبحوا أطرافاً محاورة شرعيّة من دون المرور عبره.

وفي موازاة ذلك حاول أن يثبت للأميركيين أنه قادر، لو أراد، أن يكون عنصر استقرار في المنطقة، متبعاً في ذلك خطا جمال عبد الناصر، وغالباً مع حظوظ أفضل، وبذل جهود كبيرة لتقديم نفسه باستمرار على أنه قابل للاسترداد من قبل واشنطن، إلا أن ذلك من دون تحديد وتوضيح المقابل بدقة، تاركاً الولايات المتحدة تتقدم صوبه، فتقدم له هي التنازلات إذن.

وفي الوقت نفسه، "حاول إقناع" الأردن، الذي لم يكن قادراً على التأثير عليه كثيراً، والفلسطينيين، الذين أراد أن يتحكم بمركز القرار السياسي عندهم، ولبنان، الذي أصبح هاجساً لنظامه.

لقد رأى حافظ الأسد، أن هذا البلد الصغير، يشكل الخاصرة التي يمكن عبرها أن يتهدد سورية بعض الأخطار؛ على المستوى الاستراتيجي، كان هناك الثغرة الهامّة لوادي البقاع الممتد من شمال إسرائيل بمحاذاة حدود سورية الغربية ومرتفعات الباروك وصنين، المطلّة بالعين المجردة على العاصمة السورية. على المستوى السياسي، كان لبنان الملجأ والملاذ لكل المعارضين السوريين، إذ كانت تصل، كلما حدث انقلاب في سوريا، موجة فجائية من الهاربين إلى العاصمة اللبنانية التي تبعد 60 كلم فقط، أي ما يكفي من بعد حتى لا "يحاكم المرء" وما يكفي من قرب حتى تستمر الإرادة في لعب دور سياسي؛ إذ إنه ابتداءً من عام 1949 إلى عام 1970، كانت كل التغييرات العنيفة للنظام تحاك انطلاقاً من لبنان، ولم يكن ذلك خافياً على الأسد، إذ تلك كانت حالته في فترة سابقة؛ "شكّلت سورية ولبنان، في حقبة من التاريخ، بلداً واحداً وشعباً واحداً [...] مما استتبع أمناً مشتركاً حقيقياً"؛ وهذا ما كان قد أعلنه، دون أن يحدد ما إذا كان المقصود بالأمن المشترك، قبل كل شيء، "الأمن الداخلي".

كانت بيروت ترفض دائماً تسليم المعارضين السوريين الذين التجؤوا إلى أراضيها وقد اغتيل عدد منهم[1]، أو اختطفوا[2] فيها.

وثمة موضوع آخر خلافي بين دمشق وبيروت، وهو حرية الصحافة. كان إعلام الشرق الأوسط بأكمله ينطلق من بيروت الغربية، في شارع الحمراء وفي الشوارع المتفرعة: 37 وكالة أنباء، 448 اسم جريدة مطبوعة، 102 منها سياسية مقيمة فيها؛ كان كل نظام عربي مع معارضته يموّل صحيفة، وقد أسس فيها حافظ الأسد نفسه جريدة الشرق، في عام 1977. كانت دمشق تعرف أن مساعيها لدى الدولة اللبنانية من أجل إسكات الانتقادات الموجهة ضدها تذهب سدىً. ولم يكن لدى بيروت أي وسيلة ضغط على وسائل الإعلام. كما وأن جميع الصحافيين "الذين يتهجمون على سوريا، يعرّضون أمن سورية وجيشها للخطر"، حسبما أكّده سابقاً، في يونيو - حزيران 1973، القائد الأعلى للجيش السوري، الجنرال حكمت الشهابي، كانوا يستدعون في خطوة أولى، بلطف، لتناول فنجان قهوة فـ "ينصحون" بالاعتدال في كتاباتهم، وإلا لن يكون هناك إنذار آخر، في حال التكرار.

كان لبنان "ممسوكاً" إذن، وما إن تحرر حافظ الأسد من الضغوط العسكرية الإسرائيلية المباشرة بواسطة اتفاق فصل القوات في الجولان، حتى تفرغ للبنان. وكانت النزاعات بين الميليشيات، والعمليات العسكرية الفلسطينية ضد إسرائيل، تسهل له الأمور. وبدأ الرئيس السوري "يركّز نفوذه السياسي فيه"، فشجّع بادئ ذي بدء، وبصورة مكشوفة، الحزب الشعبي السوري، اللبناني؛ تأسس الحزب في بيروت، عام 1932، تحت الانتداب الفرنسي، على يد أنطون سعادة، من طائفة الروم الأرثوذكس، وكان يناضل بنشاط لخلق سورية الكبرى التي تضم لبنان. كان الاستقلال قد همّشه بعد ذلك، فانتشلته مساعدة الرجل الأول في سورية من النسيان شبه الكامل الذي كان قابعاً فيه. فبدّل الحزب اسمه ليصبح الحزب السوري القومي الاجتماعي. فقد اقتفى الحزب السوري القومي الاجتماعي أثر حزب البعث فجنّد عناصر من الأقليات العلوية والكردية والروم الأرثوذكس فصارت له سريعاً قاعدة صلبة متعددة الطوائف؛ غير أنه مع مرور الشهور، وتحت تأثير دمشق، قدم نفسه كناطق بلسان المسيحيين الذين يعيشون في المناطق الواقعة تحت هيمنة الكتائب. سجّل حافظ الأسد أول نقطة في صالحه، إذ تمكن من خلق تمثيل سياسي مسيحي آخر باللعب على الفصل الطائفي القائم بين الموارنة والروم الأرثوذكس.

---

(1) سامي حناوي رئيس الجمهورية الأسبق (1950)، وغسان جديد، نائب (1957)، والمقدم العلوي، محمد عمران (1972).

(2) الكاتب زهير شلق (1970) وضابط المخابرات الأسبق خليل برايز (1976).

وبعد ذلك، في 17 يناير – كانون الثاني 1975، عبر حافظ الأسد للمرة الأولى الحدود السورية اللبنانية ليلتقي رسمياً الرئيس سليمان فرنجية في فندق "بارك أوتيل"، في شتورا، وأثناء خلوة طويلة جمعته مع نظيره اللبناني، صرفه فيها عن عزمه الاستنجاد بمجلس الأمن التابع للأمم المتحدة في ما يتعلق بجنوب لبنان، حيث انحرفت المواجهة بين الفلسطينيين والإسرائيليين في اتجاه حرب حقيقية؛ أثار الأسد القضية العربية مركِّزاً على أنه ينبغي على بيروت ألا تتعرض للفلسطينيين بصفتهم هذه، إنما عليها مواجهة تجاوزاتهم. وأكد أن سورية مستعدّة للمساعدة على ضبطهم. لم يكن الرئيس السوري يريد في أي حالة من الحالات أن يدوِّل الوضع فيستتبع ذلك بطبيعة الحال، الحد من دور يمكن أن يلعبه، وقد أثار بالمناسبة النتائج التي يمكن أن تسفر عن مثل هذا القرار، إذا اتخذ من قبل مسيحي أقلي في عالم عربي، وقدم نفسه مثالاً على ما يقول. واستغلّ الأسد المناسبة ليتعامل مع فرنجية كـ"صديق حقيقي"، مذكراً إياه بالضيافة التي لقيها في سوريا، عندما اضطر للجوء إليها، لاعباً بلباقة على الوتر الأقلي لمحاوره، الماروني، وهي حال يتماثل معه فيها كعلوي؛ فقد اقترح عليه لا أكثر ولا أقل من أن يقسّم لبنان وأن يربط الجزء المسيحي منه بسوريا.

قبل فرنجية على مضض بألا يلجأ إلى مجلس الأمن وبقي متملصاً من الالتزام بالنقطة الثانية.

التفت الأسد بعد ذلك نحو الفلسطينيين، وفي 8 مارس – آذار 1975، أثناء خطاب مجلجل، أطلق دعوة رسمية لتوحيد القيادة السياسية والعسكرية بين الفلسطينيين والسوريين. فقد ووجهت دعوته بصمت بارد، إذ إن توقيع دمشق لاتفاق فصل القوات في الجولان قد أضعف صورته في نظر م ت ف.

وبعيد شهر، في 13 أبريل – نيسان، وأثناء خروج الزعماء المسيحيين من قداس احتفالي لتدشين كنيسة في حيّ عين الرمانة في ضاحية بيروت، تعرضوا لإطلاق النار من سيارة كانت تمر بالقرب من المكان. فقتل على أثر ذلك الحارس الخاص لبيار الجميل على الفور. وفي غضون أقل من ساعة بعيد ذلك، تعرضت حافلة لنيران أسلحة أوتوماتيكية على بعد بضع مئات من الأمتار من الكنيسة؛ كانت الحافلة تقل فلسطينيين عائدين إلى مخيّم تل الزعتر عقب احتفال تكريمي للفدائيين الشهداء الذين سقطوا قبيل أربعة أيام في عملية "الخالصة" في كريات شمونة داخل الأراضي الإسرائيلية. فكانت حصيلة الاعتداء على الحافلة 31 قتيلاً و5 جرحى، إصاباتهم خطرة. وخرج الفلسطينيون على أثر ذلك من مخيماتهم بأسلحتهم واحتلوا شوارع بيروت. فردّ الكتائبيون. وكانت تلك بداية الحرب اللبنانية.

وقفت الأحزاب اليسارية والطوائف الإسلامية اللبنانية موقفاً متضامناً مع الفلسطينيين

ومسانداً لهم باسم التضامن العربي ضد الميليشيات والأحزاب المسيحية المتلطية رسمياً وراء موقف الدفاع عن الدولة، لكنّها المتمسكة أيضاً بالامتيازات التي كانت تتمتع بها.

فتدخلت دمشق على الفور في النزاع مستوحية الطرق السوفياتية في زعزعة الأمن متخذة بلا تردد جانب "القوى الإسلامية – التقدمية". استعملت سورية كوكبة من المجموعات المسلحة اللبنانية التي تلاقت مصالحها مع مصالح سوريا، حتى أن بعض هذه المجموعات استُحدثت للمناسبة، كألوية الأسد، وهي ميليشيا صغيرة لحزب بعثي موالٍ لسوريا بقيادة عاصم قانصو، مهندس شيعي من الهرمل. وطيلة شهور عديدة، كان دور هذه المجموعات المسلحة الأساسي "تسخين" خطوط التماس التي تفصل بيروت إلى شطرين اثنين منذ إطلاق النار على الحافلة من الأسلحة الأوتوماتيكية؛ وكان حافظ الأسد يتابع تطور الوضع عن كثب، وبالتفاصيل، عبر أجهزة مخابراته البالغ عددها خمسة. لقد قال فيه كمال جنبلاط، الزعيم الدرزي، في كتاب – ذكريات: "كان يعرف ماذا يريد وكيف يبلغ هدفه بحذق، وباستخدام السرية استخداماً بارعاً، بالخداع والطموح. كان مزيجاً من الحس السليم والنزاهة والإخلاص لأصدقائه، والبهلوانية، والحذاقة في معالجة التعارض [...] وفي الوقت نفسه الازدواجية والقسوة؛ الهراوة دائماً حاضرة"(1).

نجحت منظمة التحرير الفلسطينية وحلفاؤها في خلق انشقاق ضمن الجيش اللبناني: جيش لبنان العربي، بقيادة الملازم أول أحمد الخطيب، واحتلت منطقة البنوك التي أوت أكثر من 150 مؤسسة مزدهرة – إذ كانت بيروت "سويسرا الشرق الأوسط" –، بالتعاقب، من قبل الأفرقاء الذين حققوا أكبر عملية كسر ونهب في القرن على الإطلاق؛ خلعت كل الخزائن بواسطة التفجير، ونهبت الأسواق التجارية في وسط البلد وأشعلت فيها النيران فاضطر رجال الإطفاء اللبنانيون أن يستنجدوا بنظرائهم السوريين للسيطرة على الكوارث. فاستنفرت جميع الزعامات المسيحية. وفي نهاية أحد الاجتماعات، في 6 يناير – كانون الثاني 1976، أثار وزير الداخلية، كميل شمعون، ورئيس الكتائب، بيار الجميّل، ورئيس الجمهورية، سليمان فرنجية، ورئيس الأساقفة الموارنة، الآباتي شربل قسيس، مسألة تقسيم البلاد لحماية طائفتهم ومقاومة ضغط الفلسطينيين وحلفائهم اللبنانيين؛ ولم تتأخر ردة الفعل السورية. فمنذ الصباح التالي، صرح وزير الخارجية، عبد الحليم خدام أنه "في حال تفكك [بلد الأرز] لن تتردد سورية في ضم لبنان الذي لا يشكل سوى جزء منها".

---

(1) Kamal Joumblatt et Philippe Lapousterle, *Pour le Liban*, Stock, 1978.
وصدر الكتاب بالعربية تحت عنوان "هذه وصيتي".

قبيل بضعة أيام، كانت أجهزة المخابرات السورية قد زوّدت حافظ الأسد بالبرهان الدامغ على وجود نشاط للموساد وعن اتصالات منتظمة[1] معه من قبل المسيحيين. وبدأ يتضح أن هناك حركة التفاف من الغرب وعبر لبنان، طالما كانت تخشاها دمشق. فكان لا بد لها من التصدي لتنامي قوّة الموارنة وخصوصاً الكتائب؛ وبالمقابل كان لا غنى عن التصدي، في مرحلة أولى على الأقل، لقوة الفلسطينيين، وهذا ما راح يحققه ميدانياً.

كان خط التماس، الذي يفصل العاصمة إلى قسمين قد استقر، وكانت بيروت الغربية في أيادي القوى "الإسلامية – التقدمية"، والمناطق المسيحية، الواقعة شرق العاصمة، محاطة بمخيمات فلسطينية محصنة للغاية ومسلحة تسليحاً كثيفاً. في عام 1950، كانت السلطات اللبنانية قد سمحت عمداً بإقامتها على مداخل المدن لكي توفر للاجئين إمكانية أن يجدوا عملاً بسهولة أكثر، ولكي لا يعزلوا. وهكذا أقيم في محيط بيروت، بادئ ذي بدء، معسكرات سكنية بالخيم ثم سريعاً بالحجر، وكانت كناية عن مدن – أحياء حقيقية، تحمل أسماء، مار إلياس وصبرا وشاتيلا وبرج البراجنة وجسر الباشا وتل الزعتر والكرنتينا.

كان مخيم تل الزعتر، الذي بني على تلة، يشرف على حيّ الأشرفية، قلب بيروت المسيحية، وعلى ساحل المتن الشمالي السكني، حيث تمر الطرقات التي توصل بيروت بالجبل المسيحي. في غضون سبع سنوات انتقلت مساحة مخيّم تل الزعتر من 2 إلى 10 كلم^2. لقد جهز المخيم عسكرياً بملاجئ تحت الأرض بما يسمح بالصمود طويلاً في وجه أي حصار، فأصبح قلعة حصينة خطرة.

لقد قررت الميليشيات المسيحية التخلص من الطوق الذي يحيط بمناطقها والذي تشكله المخيمات الفلسطينية، فهاجمت مخيّم الكرنتينا – الذي بني في الأصل حول مستشفى، بالقرب من مرفأ بيروت في القرن التاسع عشر، حيث كان على المسافرين الوافدين إلى لبنان، أن يمكثوا أربعين يوماً للتطهر من الأوبئة التي كانت مستشرية في تركيا آنذاك.

دارت معارك عنيفة حول المخيم، وتقدمت الميليشيا المسيحية عسكرياً. وروى حافظ الأسد نفسه بقية الأحداث والدور الذي لعبته سوريا: "بالرغم من جهودنا السياسية وبالرغم من جهودنا العسكرية في ما يتعلق بإمداد التموين بكميات كبيرة وبتشكيلة متنوعة من الأسلحة والذخائر، انهارت "الحركة الوطنية" [اللبنانية] وكذلك حركة المقاومة الفلسطينية. [. . .] لم يستطيعوا الصمود. وأطلقوا صرخات الاستنجاد لتزويدهم بمزيد من

(1) انظر الفصل الخامس: "الصديق الإسرائيلي".

المساعدات لتضاف إلى ما كنا قد قدمناه في السابق. [. . .] في أواسط يناير – كانون الثاني [. . .] التمسوا من وزير الخارجية [عبد الحليم خدام] أن يسألني التدخل لدى الرئيس سليمان فرنجية ليعمل على وقف المعارك، لأن الحالة كانت سيئة للغاية. وأجبت أنني لن أفعل وأن عليهم أن يصمدوا [. . .]. فقد استغربت مساعيهم لأنني كنت أعرف، وكنا نعرف من خلال طبيعة الأشياء، أن المقاومة والأحزاب الوطنية كانت تملك من الأسلحة والذخائر أكثر مما يملك الجيش اللبناني الذي لم يكن فضلاً عن ذلك مشاركاً في القتال"[1].

لقد دقق الزعيم الدرزي، كمال جنبلاط بهذه الرواية للأحداث، بصفته قائداً للحركة الوطنية[2] المناهضة للميليشيات المسيحية قائلاً: "أما المساعدة العسكرية، فلم نستلم منها شيئاً تقريباً، أقولها بصراحة. لقد اشترينا أسلحتنا بأنفسنا، إنما مرّت هذه الأسلحة عبر سورية فقط. [. . .] كانت القيادة السورية تعرقل وصول الأسلحة والذخائر المخزنة لحسابنا في سوريا. فكانت هذه طريقة للضغط علينا بشكل غير مباشر، طريقة لتوجيه حركتنا. كان واضحاً أنهم يريدون إطالة أمد الحرب [. . .] وكان واضحاً أن السوريين مصممون على إبقاء التوازن بين القوى المتصارعة في لبنان".

سقط مخيم الكرنتينا في 16 يناير – كانون الثاني 1976، وطرد سكانه من قبل الميليشيات المسيحية باتجاه القطاع الغربي من المدينة. وروى حافظ الأسد: "لقد اتصلت فوراً [بالرئيس] سليمان فرنجية، من دون أي نتيجة سوى تصعيد المعارك. فانكشف أن الجهد السياسي والإمداد بالأسلحة كانا متماثلين في عدم فاعليتهما. [. . .] ولم يكن لدى قادة الأحزاب الوطنية شيئاً يفعلونه أفضل من التوجه إلى دمشق طلباً للمساعدة. كان واضحاً للعيان أن جنبلاط مثبط العزيمة. فطمأنتهم جميعاً. ولم يبق أمامنا سوى التدخل مباشرة. وإذا لم نتدخل ستنهار المقاومة، وإذا تدخلنا سننقذها إنما مع خطر نشوب حرب مع

(1) في خطاب ألقي في دمشق في 20 يوليو – تموز 1976.

(2) وجدت تحت أشكال مختلفة منذ 1964 وضمت 15 منظمة ومجموعة سياسية يسارية: الحزب التقدمي الاشتراكي (كمال جنبلاط)؛ الحزب الشيوعي اللبناني (جورج حاوي)؛ منظمة العمل الشيوعي في لبنان (محسن إبراهيم)؛ الحزب السوري القومي الاجتماعي (إنعام رعد)؛ حزب البعث الموالي للعراق (عبد المجيد الرافعي)؛ حركة الناصريين المستقلين (إبراهيم قليلات)؛ حزب البعث الموالي لسوريا (عاصم قانصو)؛ الحركة الديمقراطية اللبنانية (كمال شاتيلا)؛ الإتحاد الاشتراكي العربي (أحمد مراد)؛ التنظيم الشعبي الناصري (مصطفى سعد)؛ الإتحاد الاشتراكي العربي – التنظيم الناصري (منير الصياد)؛ الإتحاد الاشتراكي العربي – الأفواج العربية (خالد شهاب)؛ إتحاد قوى الشعب العامل – قوات ناصر (عصام عرب)؛ منظمة الحزب الديمقراطي الكردي – التيار اليساري (محمد جمعة)؛ حزب العمل الاشتراكي العربي (حسين حمدان)؛ جبهة المسيحيين الوطنيين (س. ليمان).

إسرائيل. لقد تم تجاوز الصعوبة بالقيام بعمل تحت غطاء جيش التحرير الفلسطيني[1]. [. . .] أدخلنا جيش التحرير الفلسطيني إضافة إلى قوات أخرى إلى لبنان دون أن يدري أحد على الإطلاق".

ولم تكن "القوات الأخرى" التي ذكرها حافظ الأسد، سوى لواء اليرموك، وهو عنصر من جيش التحرير الفلسطيني المرابط في سوريا، والخاضع بالكامل للنظام السوري، ومعه 8000 جندي سوري مموهين تحت لباس الصاعقة[2]. بعد اجتياز الحدود، توجهت هذه القوات نحو ثلاث مدن مسيحية: الدامور إلى الجنوب من بيروت، وزحلة في البقاع، وزغرتا إلى الشمال من لبنان، وكذلك نحو مخيم تل الزعتر للاجئين. سقطت الدامور بين أيدي "الفلسطينيين" ودمرت عن بكرة أبيها، في 20 يناير – كانون الثاني، عقب معارك عنيفة سقط فيها قرابة 900 قتيل، أغلبيتهم من السكان المدنيين. على الطريق المؤدية إليها ثمة يد حانقة كتبت على اللوحة المركزة عند مدخل المدينة عبارة "المدمَّرة"، وحوصرت زحلة فقاومت رغم القصف التي تعرضت له، وكذلك فعلت زغرتا، منطقة نفوذ سليمان فرنجية، بفضل المردة، ميليشيا الرئيس.

لقد طالبت أحزاب اليسار بنوع من إعادة توزيع للسلطة يكون أكثر إنصافاً لهم وأكثر تمثيلاً للمسلمين، وفي معرض الهجوم على "وضع اليد المارونية" على السلطة، وهم الوحيدون القادرون على الوصول إلى الرئاسة الأولى بموجب ميثاق 1943، قال جنبلاط مستنكراً: "مهما كانت ميِّزاتي، وميِّزات ابني، أو أحفادي، لن يكون بمقدورنا تبوّء سدة الرئاسة، لأننا ببساطة دروز". في فبراير – شباط 1976، اقترح حافظ الأسد بإلحاح، على سبيل تبني هذه المطالب، على سليمان فرنجية أن يعدِّل الدستور اللبناني في هذا الاتجاه. فرفض الرئيس اللبناني ذلك. بعدما اغتاظ جنبلاط من الأمر، قرر إنشاء جيش فخرالدين الأول[3] والانتقال إلى الهجوم. وفي 27 مارس – آذار، قابل الرئيس السوري ليعلن له شارحاً أن "هذا الجيش سيضم جميع المسلمين والقوى اليسارية وسيخوض حرباً شاملة لا رجعة فيها ضد المسيحيين"؛ رفض الأسد المشروع، معتبراً إياه "ضرباً من الجنون" الذي سيستثير بلا ريب التدخل الإسرائيلي، مما يعرض سورية للخطر. دام الاجتماع بين الاثنين زهاء سبع ساعات من المحادثات التي كانت عاصفة أحياناً.

(1) جيش التحرير الفلسطيني (ج ت ف)، لواء فلسطيني أنشأته الجامعة العربية عام 1964 ووضع تحت إمرة القيادات العسكرية للدول المضيفة.

(2) "الصاعقة"، منظمة فلسطينية ذات اتجاه بعثي يقودها زهير محسن، أنشئت في 1967 بدمشق لاختراق منظمة التحرير الفلسطينية.

(3) بطل درزي من القرن السابع عشر.

– لماذا تريد التصعيد طالما حصلت على 90% من مطالبك بموجب الوثيقة الدستورية؟

هذا ما أجابه به الأسد.

فرد الزعيم الدرزي قائلاً:

– أريد أن أكتسح المسيحيين الذين يحكموننا منذ 140 سنة.

كان الأسد يعرف أن جنبلاط صديق الفلسطينيين منذ زمن طويل، وأنه يقيم علاقات مباشرة وودّية على أرفع المستويات مع موسكو وأنه يقيم علاقات وثيقة، منذ الستينيات مع القوميين العرب، فبالتالي يستطيع أن يحصل على الدعم والمساعدة.

نقل الأسد بعد ذلك بندقيته وطرح نفسه كوسيط. وبدأ حواراً مع الزعماء المسيحيين دون أن يحاول وضع حدٍّ للمواجهة المستمرة، خصوصاً حول مخيم تل الزعتر، وشيئاً فشيئاً سوف تقنع سورية المسيحيين، برزانة، بأنهم في خطر فيطرح نفسه عوناً لهم؛ وفي خطاب ألقاه في جامعة دمشق، في 12 أبريل – نيسان 1976، صرح الأسد علانية أنه سيكون جاهزاً لنجدة المسيحيين: "سوريا جاهزة للتحرك نحو لبنان للدفاع عن المقهورين فيه دون تمييز بين الطوائف".

بعد زوال وقع المفاجأة، تردد المسيحيون، وصرح كميل شمعون أنه يحبذ أكثر تدخلاً لقوة عسكرية مختلطة عربية – غربية. كان بيار الجميل أكثر ميلاً للانفتاح على سوريا: "لا اعتراض لي على تكليف القوات السورية بالحفاظ على الأمن في لبنان، لفترة مؤقتة، شريطة أن تساندها قوات عربية وصديقة". واعتبرت هذه الجملة بمثابة نداء موجهاً لدمشق. وعشية الاقتراح الذي تقدم به حافظ الأسد في11 أبريل – نيسان، استقبل رفائيل جدعون، السفير الإسرائيلي في بريطانيا، الملك حسين، سراً في إنكلترا، أثناء توقفه في لندن، فأعلمه العاهل الهاشمي، في معرض دور الوساطة الذي كان يلعبه بين دمشق وتل أبيب، عن نيّة سورية "الدخول عسكرياً إلى لبنان"، و"وعد" الملك محاوره "باسم الرئيس الأسد، أن الجيش السوري لن ينتشر في جنوب لبنان وسوف لن يقترب من حدود الدولة العبرية". وطمأن الملك أيضاً، الإسرائيليين، بأن العملية السورية موجهة ضد منظمة التحرير فقط، وأن الجيش السوري لن يدخل المناطق المسيحية فحسب، إنما أيضاً سوف ينسحب ما أن تعود الحالة إلى الهدوء".

لقد أعطى رئيس الوزراء الإسرائيلي، اسحق رابين إشارة الانطلاق لتدخل سورية في رسالة مكتوبة سلّمها في 28 أبريل – نيسان في لندن إلى الملك حسين، ملك الأردن، بواسطة رفائيل جدعون[1].

(1) تسريبات إلى جريدة هآرتس.

وبعد أحد عشر يوماً، شجّع حافظ الأسد انتخاب حاكم مصرف لبنان آنذاك، إلياس سركيس البالغ 52 عاماً من العمر، رئيساً للجمهورية: صوّت لصالحه 66 نائباً، من أصل الـ 69 نائباً المجتمعين في 8 مايو – أيار، في فندق الكارلتون في بيروت؛ وقاطع 28 من البرلمانيين المسيحيين الاقتراع. وما إن أعلنت النتيجة حتى انهال على المبنى سيل من القذائف وأمضى سركيس الساعات الأولى لانتخابه رئيساً مختبئاً في ملجأ. كان رجلاً لطيفاً، صادقاً للغاية، تحركه أفضل النوايا في العالم، غير أنه قليلاً ما كان يدرك الحقائق السياسية. لقد أخذ موقفاً يسمو فيه عن المعمعة، وأطلق، مساء ذلك اليوم نفسه، نداءً لوقف المعارك فوراً. وكان ذلك سدى، فلم يبق له سوى انتظار مراسم تسلُّم مقاليد الرئاسة بعد خمسة شهور، في 23 أيلول – سبتمبر 1976:

لقد بذل حافظ الأسد ما في وسعه لإقناع كمال جنبلاط بالاعتدال في مشاريعه ضد المسيحيين. استقبله مدة طويلة في أواسط شهر أيار – مايو 1976 وقال له الرئيس السوري مفسراً:

– لدي فرصة تاريخية لتوجيه الموارنة نحو سوريا، وكسب ثقتهم وجعلهم يدركون أن فرنسا لم تعد هي ولا الغرب الحاميين لهم؛ ينبغي مساعدتهم على عدم طلب الحماية الأجنبية بعد الآن، وسوف لن أقبل أن تنتصر على الفريق المسيحي في لبنان: من شأن ذلك خلق إحساس بالحقد لديهم؛ فرد جنبلاط قائلاً:

– غير أن المقصود ليس الفريق المسيحي. لا تنسَ، سيادة الرئيس، أن طائفة الروم الأرثوذكس، والأرمن، وثلاثة أرباع الروم الكاثوليك، وثلث الموارنة أنفسهم يعارضون مواقف المتطرفين الموارنة الانعزاليين. فيشكل أولئك ثلثي مسيحيي لبنان. يجب إنقاذهم من نير الفاشية. فلا يمثل كل هؤلاء الانعزاليون أكثر من 25% من المسيحيين.

– بالرغم من ذلك، لا أستطيع أن أسمح لكم بالتغلب على المسيحيين الانعزاليين، ولا أريد أن يشعروا بأنهم مهزومون.

كانت القبيات وعندقت، البلدتان المسيحيتان، محاصرتين وتتعرضان للقصف منذ شهر يناير – كانون الثاني 1976، من قبل وحدة من جيش لبنان العربي. في 29 مايو – أيار، أجرى نائب المنطقة، المسيحي، مخايل الضاهر، اتصالاً هاتفياً بحافظ الأسد ليطلب منه التدخل لوقف إراقة الدماء. وفي اليوم ذاته، ثمة "تجمع أهالي القبيات" غامض، قد بعث برسالة مماثلة إلى دمشق "يناشد فيها الرئيس الأسد والشعب السوري الصديق إنقاذهم".

في فجر 9 يونيو – حزيران، دخل الجيش السوري، بصورة شرعية تماماً، وبقوة إلى لبنان؛ وعبر 6000 جندي و260 مدرعة، الحدود "من أجل فك الحصار عن بلدتي القبيات

وعندقت المحاصرتين، واحتلال وادي البقاع، ومساعدة الميليشيات المسيحية في مواجهة الأحزاب اليسارية والفلسطينيين". وفي غضون بضعة أيام هبّ الجنود السوريون لنجدة زغرتا وزحلة، فيما كانت إذاعة دمشق "تذيع نداءات المئات من أبناء هاتين البلدتين التواقين إلى السلام".

فأرسل سليمان فرنجية الذي كان لا يزال يمارس صلاحياته الرئاسية، فوراً رسالة إلى رؤساء الدول العربية لتبرير التدخل السوري. شجب ياسر عرفات "خطة تصفية الشعب والمقاومة الفلسطينية"، وطالب بانعقاد قمة لرؤساء الدول العربية. لقد ساندت دمشق بدورها هذه الدعوة. وأثناء هذه القمة، التي عقدت في الرياض في أكتوبر – تشرين الأول 1976، طالب الرئيس اللبناني الجديد، بأن توضع القوات السورية المرابطة في لبنان، تحت أوامر السلطات اللبنانية، وأن تحظى بتكليف من الجامعة العربية، اعتقاداً منه بأن في ذلك وسيلة لضبطها. دافعت سورية عن هذا الاقتراح وصارت القوات السورية "قوات الردع العربية". فعيِّن اللواء سامي الخطيب رسمياً على رأس هذه القوات، وبما أنها مؤلفة من الجنود السوريين وحدهم، فستكون خاضعة فعلياً لدمشق. كانت كل براعة حافظ الأسد تكمن في أنه احتل لبنان من دون أن يعلن عليه الحرب وعن طريق البرهان بأنه يؤدي له خدمة.

ركّزت الميليشيات المسيحية عملياتها، وقد دبت فيها الحمية، على مخيّم تل الزعتر الفلسطيني، الذي صمد طيلة 50 يوماً بعد أن صدّ 70 هجوماً قبل أن يسقط في 13 آب 1976 في حمام دم حقيقي؛ وقبيل بضعة أيام من سقوطه، سمحت الميليشيات للعناصر السورية من الصاعقة بأن تلتحق بأسلحتها وعتادها بالجيش السوري المرابط في البقاع. وأخلت منظمة الصليب الأحمر السكان الـ 12000 الناجين في المخيّم باتجاه المنطقة الغربية؛ ورفع الطوق الذي كان مفروضاً على المناطق المسيحية.

ترك حافظ الأسد الأمور تسير على ما هي عليه؛ ولأنه كان يعرف حقاً أنه من المستحيل ضم لبنان، لسبب أولى متمثل برفض سكانه، اضطر إلى تشجيع قيام حكم موال لدمشق، أو على الأقل حكم صديق، وكانت دمشق تعرف أيضاً أنه كان يكفيها أن تحصل على ولاء المسيحيين لبلوغ ذلك الهدف. إذ كانت الجماعات الأخرى موالية لها حكماً؛ وإن تعذر عليها الأمر، فلن يثير التعرض للمعترضين أي ردة فعل ضدها من قبل الغرب المنهمك حصراً بمصير المسيحيين. كانت سورية متأهبة لتضمن لهم ما يهمهم أكثر ألا وهو استمرار المؤسسات، مع إعادة تعديل خفيفة لها، شكلية الطابع، لصالح المسلمين، والاقتصاد الحر، والإبقاء على الانفتاح السياسي على الغرب – ولم تطلب دمشق يوماً من بيروت أن

تنضم إلى الكتلة السوفياتية، معتبرة أن لبنان قادر على لعب دور الواسطة في حوار مع الأميركيين.

غير أنه قد أطيح بالمحافظة على العلاقات الودية، فجأة في 17 فبراير – شباط 1978، أثناء مناورات جرت في محيط المدرسة الحربية في الفياضية، في ضاحية بيروت الكبرى، حيث اعترض جنود سوريون فصيلة من المجندين اللبنانيين الجدد، فتحول الأمر إلى مواجهة عنيفة مسلّحة مع وصول تعزيزات من دمشق ضربت حصاراً حول المدرسة الحربية. اتخذ أعضاء الميليشيات المسيحية موقفاً إلى جانب جيشهم، وأطلقوا النار على المهاجمين، فكانت الحصيلة خسائر كبيرة: أكثر من 30 قتيلاً، أغلبهم من السوريين. وفي اليوم التالي، امتدّت المعارك إلى القطاع المسيحي من العاصمة. واتصل حافظ الأسد بإلياس سركيس وطلب على الفور اعتقال الضباط اللبنانيين المسؤولين عن رجاله ومحاكمتهم بالعقوبة القصوى. فعمد الرئيس سركيس حرصاً منه على تهدئة روع الرئيس السوري، إلى الطلب من بيار الجميّل وكميل شمعون أن يصدرا بياناً يؤكدان فيه على "ثقتهما بالسياسة السورية". وطلب منهما بعد ذلك الذهاب إلى دمشق لتدعيم مبادرتهما. فلم يكن ذلك كافياً بالنسبة للأسد الذي تمسك بمطلب إعدام الضباط اللبنانيين المتورطين في الصدامات. ووافق سركيس على تشكيل محكمة استثنائية لبنانية – سورية لمحاكمة المذنبين. تفاقم الوضع وصار قابلاً للانفجار. حصلت الشرارة الأولى عندما أوقف بشير، في نهاية يوليو – تموز، على حاجز سوري في الأشرفية واحتجز لبضع ساعات. فبلغت الأمور نقطة اللاعودة. أعلنت الكتائب التعبئة العامة، وما إن أطلق سراح بشير حتى شن الهجوم على جميع مراكز القوات السورية في المنطقة المسيحية. فكان الرد رداً فورياً: حوصر حيّ الأشرفية وقصف طيلة مئة يوم خلال صيف 1978. فوقعت القطيعة النهائية: لن تكون سورية حليفة الموازنة للبنانيين.

3

عملية "ألتالينا"

لم يكن قرار استيلاء بشير على السلطة بالقوة، الذي اتخذ في "دير سيدة البير" في 27 سبتمبر – أيلول 1980 ممكناً إلا لأن كل منافسة قد زالت من قبل، في الوسط المسيحي اللبناني. فقبيل أربعة شهور، كان مثل هذا الهدف ضرباً من ضروب الخيال، لكثرة ما كان هذا الوسط مقسّماً. يوم اندلعت الحرب، في 15 أبريل – نيسان 1975، كان ميزان القوى المسيحية "العسكري بسيطاً ومعقداً في آن. بسيطاً، لأن كل مجموعة سياسية كانت تملك عملياً ميليشياتها. ومركّبة، لأن هذه الميليشيات تداخلت ميدانياً وتحالفت قياداتها وتعارضت حسبما كانت تقتضي أحداث الساعة، مع كل المضاعفات التي يمكن أن تنجم عن ذلك. كان هناك ثلاث ميليشيات مهمة. المردة، في شمال لبنان، يقودها طوني، نجل الرئيس سليمان فرنجية؛ والأحرار، وقد نشأت في الشوف ثم انكفأت إلى المنطقة المسيحية، وأشرف عليها داني، النجل الأصغر للرئيس الأسبق كميل شمعون، وكانت الذراع المسلح لحزبه السياسي، حزب الوطنيين الأحرار؛ وقوات المجلس الحربي الكتائبي المتواجدة في كل مكان في المنطقة المسيحية؛ ميليشيا حزب الكتائب، تحت إمرة وليام حاوي إنما في الواقع تحت سلطة بيار الجميّل. ثم إن التوتر السياسي والمعارك الأولى في لبنان، قد فرّخت قرابة عشر مجموعات مسيحية مسلحة أخرى. وهي قد زرعت في فضاءات نادرة تركت حرّة، أو نمت في حيٍّ أو في شارع، ملتحقة بزعيم. تلك كانت حالة تنظيم حراس الأرز، الذي أنشأه إتيان صقر الملقب بـ "أبو أرز"، للدفاع عن الأطروحات الداعية للتقارب الكلي والفوري مع إسرائيل في وجه "الخطر العربي"؛ أو حالة "التنظيم" ذي الإيديولوجية القومية، الذي أسسه في أواخر الستينيات الدكتور فؤاد الشمالي، والذي له حضوره القوي في أوساط ضباط الجيش اللبناني المسيحيين.

قسمت ميليشيا الكتائب إلى مجالس إقليمية. كان الشباب ينتسبون إلى الأقسام في قراهم ويشكلون وحدات إقليمية، تأتمر محلياً وملزمة بالدفاع عن مناطقها. قسمان من

عناصر النخبة، الـ ب ج[1]، الصغار والكبار، وكلاهما يضمان حوالى ثلاثين شاباً ذوي خبرة عالية في القتال، وكانوا تحت إمرة سامي خويري. ويأتمرون مباشرة بأمر القيادة المركزية للحزب ومهمتهم التدخل للدعم حيثما اقتضت الحاجة.

لم يكن لبشير الجميل، في مطلع عام 1975، أي وجود أو يكاد، سواء على الصعيد السياسي أم على الصعيد العسكري؛ كانت له شهرة، إنما لا يزال بلا اسم. بالرغم من أن عائلة الجميّل لا تنتمي إلى كبار ملاكي الأراضي ولا إلى العشائر المحلية الكبرى (الزعماء)، التي تشكّل طبقة الوجهاء الإقطاعيين للمجتمع الماروني، كان رجال آل الجميّل يحملون لقب "شيخ" أباً عن جد، إذ كان الأمير بشير أحمد أبو اللمع، الأمير الحاكم آنذاك، قد منح جدّ بيار الجميّل هذا اللقب لقاء "خدمات أسداها" له، حوالى عام 1855. وآل الجميّل مثال معياري لأسرة من البورجوازية يرفضها الإقطاعيون لأنها تمثل الطبقة الوسطى التي يعتبرها السياسيون التقليديون بمثابة ظاهرة عارضة، لأنها لا تتمتع بثروة كبيرة وليس لها تابعية عائلية، لذا قد انطوت على نفسها وواجهت الآخرين بإظهار تماسك داخلي كبير.

كان بشير، متوسط القامة، يرتدي عموماً سروالاً من نوع الخيش وقميصاً ذات كمين قصيرين، مستدير الوجه، بنّي العينين يعلوهما حاجبان كثّان، وذو لحية قاسية تضفي على وجنتيه مسحة ازرقاق عند الضحى. في عام 1975، وفي سن الـ 27 عاماً، (ولد في نوفمبر - تشرين الثاني 1947)، بالرغم من مظهره الساذج ومقدرته على الظهور مندهشاً بكل ما يقال على مسمعه، كانت له سمعة محب للشجار، ومارق، وانفعالي متهوّر، وزيرِ نساء. على أثر دراسة ثانوية مشوشة وإجازة في الحقوق متعثرة، في جامعة القديس يوسف، وصل إلى المحاماة. أمضى بضعة شهور في التدرج في مدينة دالاس في الولايات المتحدة الأميركية لكن حيث لم تلطف إقامته هذه من الإشاعات حول طيشه الطلابي. وانتمى - بحكم تقليد عائلي - إلى قسم الطلاب الكتائبيين، فاضطر للتعارك مع الطلاب اليساريين، لكن مع قوى الأمن الداخلي أيضاً. وكان يكنّ للفلسطينيين كراهية حقيقية منذ أن خطف في 1969 واقتيد إلى مخيم تل الزعتر وتعرض فيه للضرب. وقد تطلب الأمر آنذاك من كمال جنبلاط، إذ كان وزيراً للداخلية، أن يتدخل لدى ياسر عرفات شخصياً للإفراج عنه. وكان بشير رغم حيازته على بطاقة الحزب منذ عمر الـ 12 سنة، مدركاً أن ثمة مساراً سياسياً طويلاً ينتظره. وكان والده يتمنى له اتّباع طريق كلاسيكي، والمرور في النيابة، ليتدرج في التكوين السياسي. وتبعاً للتقليد، كانت الأولوية دائماً وبقيت حقاً لشقيقه أمين الذي يكبره بسبع سنوات. وكان

(1) الأحرف الأولى لاسم بيار الجميل.

أمين قد انتخب نائباً عن المتن في العام 1970 (بديلاً عن عمّه المتوفى موريس)، ثم أعيد انتخابه عام 1972.

كان بشير يرى أن الوسط السياسي المسيحي - وشقيقه - مفرطين في ميلهم للمساومة والتسويات، فأراد حرية حركة سياسية أكبر ليتصرف على طريقته. غير أنه لم يستطع أبداً أن يكوِّن مجموعة منظمة خارج الحزب، إذ كان والده حجر عثرة أمام ذلك. فاستعمل طريقة بسيطة لبلوغ هذا الهدف: أي أن يكون في التيار التقليدي وخارجه في آن. فبينما كان عضواً في حزب الكتائب[1] الذي يقوده والده بقبضة حديدية - وهو لم يكن في وسعه أن يتصرف خلاف ذلك على كل حال -، وحّد مجموعة من الشباب حوله، في 1975، في بداية الحرب بطريقة عرضية، وأطلقوا على أنفسهم اسم أصدقاء الكتائب. كانوا جميعاً يشاطرونه رفضه التسويات، ويشاطرونه تعصبه الوطني، ويرفضون مواقف والده الحزبية غالب الأحيان. وبفضل التواطؤ الودّي لرئيس القسم الكتائبي في الأشرفية، جان ناضر، استطاع نجل آل الجميّل الأصغر أن يحوّل هذا الحي من بيروت إلى منطقته الخاصة، ويجعل من المقر الدائم للكتائب فيه مركز قيادته؛ فقد فرز غرفتين في المبنى لإيواء مجموعته ومن هناك انطلق ليخوض قتال شوارع ضد الذين اعتبرهم أعداء لبنان، أو غرباء، وبصورة رئيسية المناضلين اليساريين والفلسطينيين.

لقد منحته مجموعة أصدقاء الكتائب هامشاً للحركة مهماً ووفّرت له خصوصاً إمكانية العمل والنشاط خارج تحكم الحزب، دون الاكتراث بمشيئة التقليديين، وكان بشير يتمتع أيضاً بدعم رهبان الكسليك الموارنة. إذ إن اثنين من مسؤوليهم، الآباتي شربل قسيس والآباتي بولس نعمان، قد أعلنا تأييدهما لقيام "فضاء حيوي مسيحي" وطرد "الغرباء والعناصر المعادية للوطن"، وكانا متوافقين معه في ذلك.

كان الموساد، الذي دخل في اتصالات مع المسيحيين اللبنانيين[2]، يبحث عن معلومات تتعلق بمنظمة التحرير الفلسطينية. وكان بشير عاجزاً يومها عن أن يجيب على أسئلتهم؛ لقد اعتبر الفلسطينيين آنذاك، بالإجمال، أعداءً له، غير آبه بمن يكونون، وأين يقطنون، وماذا يفعل أبو جهاد، أو أبو الزعيم أو حتى ياسر عرفات نفسه. وأمام إلحاح عملاء الموساد، قرر أن يستعلم وأن يكلف ميشال يارد، أحد الأعضاء في مجموعة

(1) الكتائب اسم حركة الشباب التي أسسها بيار الجميّل عام 1936، عقب عودته من ألعاب برلين الأولمبية. وقد استهواه التنظيم والروح الوطنية اللذان كانا سائدين في ألمانيا. وكان الكتائبيون الإسبان قد ساعدوه بواسطة اليسوعيين في مجال النظرية.

(2) انظر الفصل الخامس: "الصديق الإسرائيلي".

"أصدقاء الكتائب" بالأمر. وسرعان ما تشكّلت نواة لفريق عمل. لقد وفّر لهم جان ناضر مكتباً وخطاً هاتفياً يحمل رقم 08، فحملوا هذا الرقم رمزاً يُعرفون به. بعيد فترة قصيرة أجرى زاهي البستاني، المفوض في الأمن العام، الذي أقلقه النشاط المكثف لمجموعة أصدقاء الكتائب من الناحية المهنية، اتصالاً ببشير والتقاه. كان مبهوراً بعمله، مما دفعه لأن "يقترح" عليه بعض الأفكار لجعل الـ 08، نواة جهاز الاستخبارات التي كان يديرها ميشال يارد، أكثر فعالية. وانتهى به الأمر بأن أعجب به بتكتم شديد.

عيّن جان ناضر، رسمياً، بشيراً مساعداً له في عام 1975، من دون العودة إلى هيئات الحزب العليا؛ فقد أدى ذلك إلى إحداث تململ واحتج عدد من الكوادر الكتائبيين، الذين اعتبروا الأمر فضيحة، وأثاروا مسألة عدم الالتزام بالأصول الإجرائية وعدم احترامها. وغضب بيار الجميّل للأمر وأخذ على نجله استغلال "صلة القربى برئيس الحزب" ليفرض نفسه في الحزب. فهدد بكسر القرار متخذاً "تدابير تأديبية" ورفض مقابلة ابنه. تدخل عندها صهر بيار الجميل، جورج فريحة، لصالح ابن عمه شقيق زوجته. فاستلزم الأمر ساعات طويلة من النقاشات لإقناع الرئيس بقبول خيار جان ناضر. فكان ذلك الانتصار الأول لبشير في وجه الحزب وبخاصة في وجه والده.

لقد بدأت "الحرب ضد الفلسطينيين"، بخسارة النقطة الرابعة في بيروت، منطقة الفنادق الكبرى التي سمحت من الناحية الإستراتيجية بالتحكم بالوسط التجاري للمدينة. وقد اتخذ بشير له موقعاً أقرب ما يكون من المعارك، في مقر إحدى وكالات الشحن على بعد مبنيين من مركز قيادة وحدات الـ ب ج (بيار الجميّل). وكان يتردد على مقاتلي هذه الوحدات العاملة في الأسواق ووثّق صداقات قوية مع عدد كبير بينهم. في تلك الفترة، كانت ثمة خلافات في التقدير بينهم وبين رئيسهم سامي خويري. فأصبح اثنا عشرة من هؤلاء، لا ينفصلون، في جوٍّ عابق برائحة البارود وفي ضراوة معارك الوسط التجاري للمدينة، وأطلقوا على أنفسهم القذرين الاثني عشر[1]. أسماء بعضهم، فادي أفرام، وفؤاد أبو ناضر، وأنطوان بريدي، وإيلي الزايك، وإيلي حبيقة، ستكون متداولة بعد ذلك طيلة فترة الحرب اللبنانية.

فادي أفرام، المتوسط القامة، ذو الشعر المموّج والمائل بوضوح إلى اللمعان، وصاحب الجهاز العضلي المكتنز المحمي من البدانة بفضل نشاطه الرياضي والذي كان في أصل لقبه هورس (حصان)، كان ابناً لتاجر. وبدا عليه أنه الأقل اندفاعاً من كل رفاقه. فقد كان صاحب مظهر خجول، ويفكّر ملياً قبل أن يتصرف. يتحدث بصوت خفيض، دون نغمة

(1) وهو اسم مستوحى من فيلم القذرين الاثني عشر.

مرتفعة، وكان مسموعاً أكثر مما كان مطاعاً. وعندما شكلت مجموعة القذرين الاثني عشر، كان لتوه قد تلقى تدريباً في الهندسة الحربية، (تدمير وتفكيك).

أما حبيقة، فكان من أبناء بسكنتا في المتن الأعلى، وابن سائق شاحنة نقل، درس التجارة في كلية القلبين الأقدسين في الجميزة. جذبه إلى حزب الكتائب في تلك الفترة استعراض للشبيبة الكتائبية نظم في عام 1973. وقد خضع لكل الدورات التدريبية شبه العسكرية فيه، بحيث انخرط في الـ ب ج بعد سنتين، عندما اندلعت الحرب، وحمل لقب "HK" لأنه من الأشخاص النادرين الذين حملوا بندقية الهجوم الرشاشة المهيبة Heckler und Koch، من عيار NATO 7/62، ومن صنع ألماني.

كان القذرون الـ 12، مع بقائهم متخصّصين في المعارك بالنقاط الساخنة، قد ابتعدوا شيئاً فشيئاً عن الـ ب ج واقتربوا من بشير الجميل، حتى أنهم سريعاً ما أنشؤوا فريق التدخل الخاص به. وفي الأسابيع التي تلت نهاية المواجهات في الأسواق، تمكن بشير من الحصول على تعيينه مساعداً لوليام حاوي، قائد الميليشيا الكتائبية، بعدما نجح في تثمير النتائج التي سجلت على الأرض بفضل القذرين الـ 12 على وجه الخصوص، والاستفادة من التناقضات بين التيارات المختلفة داخل الحزب. لقد أحاط بشير نفسه على الفور بجميع عناصر القذرين الـ 12، وبأولئك المقربين منه جداً سواء كانوا من "أصدقاء الكتائب" أم من الزمر الصغيرة التابعة، فطلب من الجميع بإلحاح الانخراط في الحزب، والتكتل حوله، وعمل سريعاً على اختراق المجلس الحربي الكتائبي، أي قيادة الميليشيا. وعندما قتل وليام حاوي في يونيو - حزيران 1976، برصاصة قناصٍ فلسطيني، في نهاية حصار تل الزعتر، خلفه بشير بصورة تلقائية.

وبدأ يستخلص العبر، من حرب السنتين. لقد قتل الكثير من المقاتلين المسيحيين بسبب تعدد مراكز القيادة التي كانت غارقة في حالة من الجهل المتبادل بعملها، وفي المنافسة بين المجموعات. وكان هذا الاختلال الوظيفي في الدفاع المسيحي في أصل الصعوبات والنكسات العسكرية المهمة في هذا الصدد. وشكل حصار تل الزعتر علامة مميِّزة على هذا الصعيد. كان هناك ثلاثة مراكز قيادة منفصلة حول المخيم الفلسطيني: أحرار داني شمعون، وميليشيا الكتائب في المتن بقيادة أمين الجميّل الذي لم يكن يتبع بالضرورة تعليمات المجلس الحربي، والوحدات التي يقودها وليام حاوي ثم بشير بعده، دون أن نذكر المجموعات من أمثال حرّاس الأرز أو التنظيم اللذين كانا ربّما أقل عدداً إنما شاركا في المعارك مشاركة نشطة. لقد ذهب الجميع إلى القتال متناثري الصفوف، يقتسمون أجزاء من الجبهة، بعضهم يهاجم والبعض الآخر يتلكأ، يتنافسون على القيام بعمليات مثيرة أكثر مما

هي فعالة، لكنّها كانت دائماً قاتلة، إذ كان كل طرف منهمكاً بالتموضع بصورة أكثر ملائمة له، مقارنة مع جاره. لذلك قرر بشير أن يقوم بعمل تنسيقي للمستقبل. فكانت العوائق السياسية أولى العوائق التي واجهته. فبينما اعتبر داني أن الحرب "ضد الفلسطينيين" انتهت وأن هذا التنسيق غير ذي نفع، كان بشير من جهته يريد الإبقاء على الضغط السياسي، وبالتالي العسكري؛ فقبل حزب الوطنيين الأحرار في نهاية الأمر بمبدأ التنسيق واحتفظ بقناعته بأنه لن يجدي نفعاً؛ أما الميليشيات الأخرى، فالتحقت بالركب بفعل قوة الأشياء. في 31 أغسطس – آب 1976، أنشئت بنية قيادية موحّدة ألا وهي القوات اللبنانية. كانت مؤلّفة من مجلس قيادة يضمّ ممثلين عن كل ميليشيا، يرأسه بشير الجميل.

في أقل من ستة أشهر، اعتمر بشير قبعتين: قبعة قيادة المجلس الحربي الكتائبي وقبعة قيادة تنسيق عمليات كل الميليشيات المسيحية؛ ففي مرحلة أولى، ومن أجل الفصل تماماً بين الوظيفتين، ركّب مكتب القوات اللبنانية الضاج بالحركة، في مبنى الإلكترولوكس، بالسيوفي، حيث كان مكتبه للمحاماة، بينما كان مقر المجلس الحربي الكتائبي بالكرنتينا، في مبنى قديم لمستشفى، في قسم من مرفأ بيروت.

وطيلة سنتين، انصرف بشير الجميّل لتنظيم وتركيب المجلس الحربي، وفرض نفسه فيه بعناد وإصرار ودون أي وجل، تاركاً القوات تراوح مكانها وتعيش بالتقتير. ولم تكن الأركان تضم سوى إيلي حبيقة كمتفرغ، يشغل وظيفة رئيس العمليات، وهي كناية عن مكتب ثالث بقياس مصغر. فقد كان بشير يفتقر إلى عناصر تملأ الوظائف في البنية الجديدة.

كان متعذراً عليه سحب عناصر من ميليشيا الكتائب التي تراجع عديدها مع انتهاء المعارك. لقد أدى استئناف التدريس في الجامعات والمدارس إلى تصفية صفوف الميليشيا إلى حدٍّ كبير. إذ كانت أكثرية الشباب قد قايضت كلاشينكوفاتها بكتب. وكان سمير جعجع، أحد قادة الوحدات في لبنان الشمالي، قبل الحرب، في السنة الرابعة من دراسة الطبّ في الجامعة الأميركية، الواقعة في الجزء الغربي من بيروت، الذي يسيطر عليه الفلسطينيون والتنظيمات اللبنانية اليسارية. الأمر الذي اضطره إلى تحويل ملفه إلى جامعة القديس يوسف، في القطاع الشرقي من المدينة، لاعتبارات أمنية واضحة. ونظراً لغياب المعادلة بين الجامعتين، فقد أجبر على الخضوع لامتحانات السنوات الثلاث الأولى حتى يصبح بإمكانه متابعة دراسته عند الآباء اليسوعيين. صار سمير جعجع "الحكيم" في نظر الجميع، وكان على غرار الآخرين يمرّ من وقت لآخر إلى الكرنتينا، ويكرّس عطله للتدريبات العسكرية.

حتى لو أراد بشير أن يحتفظ ببعض المقاتلين حوله فلم يكن في مقدوره ذلك، إذ كان

صندوقه فارغاً. وفي حرب السنتين، كانت الحاجة إلى المال قد دفعت بالشباب في المراكز المحلية إلى "طلب" مساعدات مالية من جيرانهم التجار على ركن الشارع. وسرعان ما تحولت هذه الطلبات إلى خوّات حقيقية باسم القضية"، تجبى بواسطة زمر مسلحة. خلقت الفوضى والتجاوزات حالة من الاستياء بين السكان وأحياناً ما تسببت بصدامات معهم. وقد تدخلت الجبهة اللبنانية، وهي أعلى سلطة سياسية مسيحية، لتنظيم "ضريبة الحرب". كان عائد هذه الجباية يقسّم بعد ذلك بين الكتائب والأحرار. كما وأن هذه "المساهمات" الإلزامية كانت تجبى في كل المناطق المسيحية على شكل ضريبة مرور عند نقاط العبور إلى داخل المناطق، واقتطاع ضريبة 4% على مداخيل المطاعم والتجار ومحطات الوقود. وكانت دُور السينما ملزمة بدفع 25% من ثمن البطاقات. وتلا ذلك الخدمات التي لم تكن الدولة قادرة على تأمينها، وغالباً بسبب وجود الميليشيات نفسها على كل حال. أنشئت خطوط للنقل المشترك وجمع النفايات وشرطة بلدية وخدمة بريدية، وكان كل ذلك مترافقاً مع فرض "رسم" متلازم. وفرضت رسوم كذلك على المعاملات العقارية. وكان حزب الكتائب بدوره يعيد جزءاً مما كان يجبيه إلى المجلس الحربي. وعليه فقد رأى بشير أن هذه المبالغ ليست غير كافية فحسب، إنما هي فضلاً عن ذلك طريقة للتمويل تجعله خاضعاً خضوعاً كاملاً للحزب، وتقيِّد إذاً حرية حركته، فتحرر بالتالي منه بفتح مرفأ غير شرعي خاص به، في "الحوض الخامس"، الكائن خلف الكرنتينا، على مدخل مرفأ بيروت، وذلك فقط لتغذية ماليته. فكانت السفن، هرباً من دفع رسوم جمركية، شبه معدومة على كل حال، وخصوصاً هرباً من اللصوص (وكانوا غالباً من أعضاء الميليشيات) الذين يسيطرون على أرصفة المرفأ اللبناني، ترسو فيها لتفرغ حمولتها من البضائع بطريقة غير شرعية إنما بصورة آمنة تماماً، مقابل دفع مبلغ مقطوع وقدره 3000 دولار أميركي عن كل مستوعب. وبعد بضعة أسابيع طبق الشيء نفسه في مرفأ جونيه. وبعد مضي سنة بلغت الميزانيات المصرح عنها من قبل الجبهة اللبنانية والكتائب بضعة مئات من ملايين الدولارات. وقد قدرتها بعض المرجعيات المصرفية بـ300 مليون دولار.

قام بشير اعتماداً على هذه المداخيل بإعادة بناء ميليشيا الكتائب. فبدأ بشراء الأسلحة، إذ إن الأسلحة، التي كانت تزوده بها الدولة العبرية[1] مجاناً، أسلحة من الطراز القديم. لقد أنشأ ثكنات وعزز الوحدات القائمة بتطويع عناصر متفرغة وغالباً حتى من خارج صفوف الحزب؛ وقد أرسل رجاله إلى إسرائيل في دورات تأهيل كفاءة وتطويرها. عين إيلي وزّان الملقب بعباس قائداً لأوّل وحدة نخبة مؤلّفة من أعضاء ميليشيات محترفين وتمركز في مبنى

(1) انظر الفصل الخامس: "الصديق الإسرائيلي".

لمصنع مغلق في منطقة أدونيس. وكان أنطوان بريدي، الملقب بتوتو (رمزه في الاتصالات اللاسلكية أثناء معارك الأسواق)، ما إن أنهى دراسته في الاقتصاد بجامعة القديس يوسف، ورغم أنه ليس عضواً في الحزب، قد عيّن مسؤولاً عن المدفعية. وتولى جوزيف إلياس قيادة الوحدة المدرعة المكوّنة من دبابات سوبر شيرمان[1] قديمة قدمتها تل أبيب مجاناً. لقد نظمت استعراضات عسكرية لتحميس الشباب. ومع مرور الشهور، بدأت الميليشيا أكثر فأكثر تأخذ مظهر جيش صغير. في مطلع فصل الصيف 1978، بلغ عديده ما يناهز الـ 3000 رجل مجهزين تجهيزاً كاملاً.

لقد طبعت فترة أعادة الهيكلة هذه حادثتان دمويتان دفعاً أصغر أبناء آل الجميّل إلى قيادة "المقاومة المسيحية".

وقع الأول على تلال لبنان الشمالي. لم يرق، على الإطلاق، لسليمان فرنجية، الرئيس اللبناني الأسبق، صعود قوة الكتائب التي كان لها ثلاثة مراكز في تلك المنطقة التي كان يعتبرها منطقة نفوذه الخاص، فأرسل لبشير عدة رسائل تنبيه، وأمر ميليشيته الخاصة، المردة، باتخاذ التدابير لصده. أصرّ بشير وثابر في خطته، معتبراً أنه من غير المقبول أن يكون أي جزء من لبنان محظوراً عليه. وبسرعة، تغلّب في تلك المنطقة منطق الثأر العشائري بالسلاح. فتكررت عمليات الخطف والخطف المضاد، والانتقام والاغتيالات. وفي مطلع شهر يونيو – حزيران 1978، اغتال المردة جود البايع، وهو موظف في بنك، ومختار قرية كفرخالوص وزعيم كتائبي محلي. وكان الحادث بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير.

أمر بشير سمير جعجع بتدمير قصر فرنجية الصيفي في إهدن. وكان بشير يقدر صفات القائد العسكري للطالب في الطب، غير أن استقلاليته الفكرية استثارت ارتيابه. وسمير جعجع من بلدة بشري الجبلية المشرفة على وادي قاديشا[2]. والده عازف في جوقة البواقين في الجيش اللبناني ووالدته عاملة في إدارة حصر التبغ والتنباك اللبنانية. كان سمير جعجع طويل القامة، نحيلاً وعظمياً، لون بشرته باهتاً، وجهه مزوّى وصارماً يرتسم عليه شاربان دقيقان، وعريض الجبين وعارياً تماماً، قصير الشعر متفرقاً ويشكل دائرة محلوقة في قمة الرأس كالمترهب تقريباً، ولا يحمل ساعة ولا حلياً أبداً، ومظهره مظهر الرجل التقي الزاهد. كان شديد التديّن مجبولاً بالتاريخ الماروني، يتماهى مع الرهبان الجنود المزارعين الذين كانوا في أصل الطائفة. وكان قارئاً مثابراً لإمانويل مونييه وهيغل. ولم يخف أبداً نفوره

(1) دبابات من صنع أميركي، كان لها أمجاد في الجيش الإسرائيلي أثناء حرب الأيام الستة.
(2) واد سحيق لجأ إليه الموارنة الأوائل الملاحقون من المسلمين. ويعتبر قلب تاريخ هذه الطائفة.

من كل "العائلات الكبرى" اللبنانية، بما فيها آل الجميّل، وينظر إلى بشير على أنه طير يغرد خارج سربه، لكنه يبقى في الأساس عضواً من آل الجميل.

وعندما أعطى بشير أوامره إلى سمير جعجع، ألحّ على الحاجة المطلقة للتصرف في غياب سليمان فرنجية وابنه طوني. وأُجلت العملية مرة أولى، إذ لم يكن هذا الشرط متوافراً. كان المسؤول الكتائبي عن زغرتا قد أكّد أثناء التحضير للعملية، أن أهل إهدن متأهبون للانتفاضة ضد آل فرنجية إذا حاصروا المدينة. فبالاستناد إلى هذه المعلومة غيّر سمير جعجع أهدافه ووضع بعض الخطط ليس لتدمير مكان الإقامة وحسب، ولكن أيضاً للاستيلاء على البرج وعدم الانسحاب منه إلا مقابل تسليم قتلة جود البايع. في يوم العملية، احتبس طوني فرنجية وزوجته وابنته البالغة من العمر ثلاث سنوات في منزلهم بسبب عطل في سيارتهم، فقتلوا أثناء الغارة. كما وأن أعضاء في ميليشيا المردة ممن توافدوا لنجدة قائدهم، قتلوا في كمين نصب لهم بواسطة تعزيزات وصلت إلى المكان بقيادة إيلي حبيقة. وقد أصيب سمير جعجع إصابة بليغة في يده. لقد صدم بشير حين علم بنبأ مقتل أسرة طوني فرنجية، لكنه بقي متضامناً مع رجاله. وحدد سليمان فرنجية مكافأة مقابل رأس جعجع. فاختفى هذا الأخير لبضعة أيام مختبئاً في مستشفى أوتيل ديو الفرنسي في الأشرفية، حيث كان طالباً معاوناً. ثم نقل بعد ذلك سراً إلى مؤسسة استشفائية في نانسي بفرنسا، ومن ثم إلى إسرائيل. لم يكن متبقياً له سوى سنة دراسية واحدة ليحصل على شهادته، فلم يتمكن من أن ينهيها أبداً. ولم يحتفظ من دراسته سوى بلقبه: "الحكيم". لقد أحدث مقتل طوني فرنجية شرخاً عميقاً ونهائياً داخل الطائفة المارونية اللبنانية.

كانت ردة فعل بيار الجميّل قوية وراح ينسب فقدان طوني فرنجية إلى القضاء والقدر. وبعد أن ساءت علاقته بنجله الأصغر، عادت للتحسن تدريجياً فارتدت شكل تواطؤ يحفظ حرية حركة الشاب تجاه أخيه الأكبر سناً وتجاه حزب الكتائب على حد سواء. كان بشير يُعلم دائماً والده بأنشطته وأهدافه. وكان يذهب إلى منزله ويثير بطريقة عرضية في جلسات تناول فنجان القهوة مواضيع الساعة: كان بشير يستمد من هذه النقاشات "العائلية" موافقة أخلاقية ضمنية للتصرف، فحين كان الابن يشعر برفض، أو ببساطة بخطر أن يرى نفسه مفروضاً عليه بعض الشروط، كان يتصرف بطريقة يضع فيها والده أمام الأمر الواقع، ويسارع بعد ذلك، يسارع بعناية خاصة، لمقابلة الرئيس ليعرض عليه الأمور على طريقته.

وكان الحادث الدامي الثاني الذي دفع بشير إلى المرتبة الأولى في المقاومة المسيحية معركة الأشرفية في صيف 1978[1]. أثناء الحصار الذي دام مئة يوم، وأثناء القصف

(1) انظر الفصل 2: "الجارة سورية".

السوري، كرّر بشير ما كان قد نجح فيه جيداً أثناء حرب السنتين: أن يكون دائماً حاضراً في كل مكان. كان يقود العمليات العسكرية متنقلاً باستمرار من نقطة إلى أخرى على الجبهة، يعبئ المقاتلين، ويدعم السكان. وعندما توجب على القوات السورية أن تنسحب لتحل محلها وحدات سعودية مولجة بإعادة الأمن والهدوء، أحرز بشير نصراً عسكرياً، وبالنسبة للسكان وللمقاتلين، كان قد لوى ذراع السوريين. لقد جعل منه هذا النصر بطلاً للمقاومة المسيحية. عندها زينت صورته، بالزي العسكري وبنظارتيه الشمسيتين على الأنف وبندقية الهجوم خاصته من طراز أم 16 الأميركية، جدران الأشرفية، فلم ترق هذه الشعبية للتقليديين من أعضاء حزب الكتائب وخصوصاً لشقيقه أمين الذي بقي أثناء المعارك بعيداً عن مسارح العمليات، في المتن، دائرة نفوذه. ومن أجل المحافظة على الهدوء في دائرته الانتخابية، كان ابن آل الجميّل البكر قد فاوض على اتفاق، ووقّع عليه، مع العقيد السوري إبراهيم حويجي المسؤول العسكري في جبل لبنان الذي ارتبط اسمه قبيل ستة عشر شهراً بجريمة اغتيال كمال جنبلاط[1]. وقضى هذا الاتفاق بأن يبقى الجنود السوريون على الحياد، شريطة ألاّ يتعرضوا لأي اعتداء.

وقرر أمين الجميل، إدراكاً منه للقوة التي بدأ يتمتع بها شقيقه الأصغر ولما يمكن لشعبيته أن تشكله من خطر عليه، أن يواجه شقيقه بالاستناد إلى الحزب، وارتفعت أصوات، قريبة من النائب الشاب لتشير إلى "أن أمين كان قد نجح بالوسيلة السياسية ما كان بشير قد حصل عليه بتكلفة بلغت تدمير حوالي 4000 مبنى وكل البنية التحتية الإدارية" وبدأت خلافاتهما تظهر إلى العلن رغم محاولات حجبها الخجولة. لعب بيار الجميل، الوسيط المرغم بين الخلافات، دور القاضي والحكم ووقف على مسافة واحدة من الاثنين.

كان أمين المثال المعياري للابن البكر الشرقي. كان مطيعاً ومجتهداً في الدراسة، فأنهى دراسة الحقوق بتألق وتعاطى بصورة طبيعية مهنة المحاماة؛ فكان أمين واعياً بدوره كوريث وعياً واضحاً، وكان موقفه منذ مراهقته موقف "الأوائل في صفوفهم" المعتد في النفس، مما أضفى عليه مظهر الواثق من نفسه. شجاعته الجسدية يشهد لها الجميع (فهو قد تعمد بالنار بجانب رفاقه)، إلا أنه قدم نفسه خصوصاً كمفاوض ماهر تبعاً للتقليد اللبناني العريق في هذا المضمار، الذي يؤثر حلاً وسطاً سيئاً دائماً على حرب جيدة. فهو قد تماهى تماماً مع أفكار أبيه السياسية، وفي عام 1970، ما إن انتخب حتى انبرى يعزز موقعه في دائرته الانتخابية، فبدأ بذلك عن طريق التحكم بمجلس إقليم المتن الكتائبي، وبقيادة الميليشيا المحلية، فعمل على أن يعيّن الحزب رجالاً موالين له فيها. وهكذا أصبح سامي خويري، القائد الأسبق للـ ب ج، قائداً لها، وقد

(1) انظر الفصل 2: "الجارة سورية".

حاول أمين، دون نجاح، أن يجتذب إليه بعض كوادر الميليشيا مثل فادي أفرام، فتمكنت هذه الوحدة الإقليمية شيئاً فشيئاً أن تستقل نظرياً عن سلطة المجلس الحربي، أي عن سلطة بشير. ولتلبية احتياجاته المالية، أنشأ أمين بناه الخاصة، ومنها الـ ASU (جمعية الخدمات المدنية) وهي بمثابة مؤسسة تتقاضى من التجار بدلات مقابل ما تقدمه من خدمات وحماية لهم. وسرعان ما أطلق عليها اسم وحدات أمين الخاصة.

غير أن المنافسة المسيحية الأقوى التي اضطر بشير أن يواجهها كانت الميليشيا التي يرأسها داني شمعون. وأثناء الأشهر الستة الأولى من عام 1980، استثار الوجود الكلي لأعضاء ميليشيا الكتائب احتكاكات مع قوات حزب الوطنيين الأحرار. كان هناك بعض الصعوبات في توزيع الأسلحة المرسلة من إسرائيل. لقد جرى التوافق في إطار القوات اللبنانية، على أن يوزع العتاد العسكري المقدم من قبل تل أبيب بالتساوي بين الميليشيتين الاثنتين. انفجرت بعض المشاكل عندما وصلت قطع السلاح بحراً وكانت بأعداد مفردة فاتُهم بشير بأنه شجّع رجاله على حساب الأحرار. واتهم رجال الميليشيا الكتائبيين، بدورهم، رجال شمعون بأنهم يبيعون جزءاً من أسلحتهم للبنانيين من المتحالفين مع الفلسطينيين. وقد زاد الشعور الكتائبي بالقوة، الأمور تعقيداً بعد انتصار الأشرفية. وتحولت التوترات المتكررة باضطراد إلى "حوادث"، فلم يتوان الأحرار، في مناطق نفوذهم، عن محاصرة مقرات الكتائب، ونسفها بعد طرد عناصرها منها. ولم تطل فترة الانتظار ليأتي الرد على هذه الأعمال. وبذل «البطريركان» بيار الجميّل وكميل شمعون جهوداً جمة بلا طائل لوضع نهاية لدورة العنف شبه الدائم.

كان الإسرائيليون، عن وعي أو عن غير وعي يصبّون الزيت على النار. فكلف مناحيم بيغن الموساد باستدعاء بشير وداني إلى القدس، وهددهما رئيس الوزراء، بعد أن طلب منهما توحيد صفوفهما "وإلاّ تعذر على إسرائيل الاستمرار في مساعدتكما"، وبعيد أسبوع، في 22 فبراير - شباط 1980، رجع الرجلان إلى القدس ليعرضا خطة مشتركة أمام الإسرائيليين. وسريعاً جداً لاحظ محاوروهما أنهما لم يتشاورا حتى فيما بينهما لإعداد تلك الخطة. فعادا إلى بيروت بحراً. في صبيحة اليوم التالي، لم يستطع بشير مرافقة ابنته مايا البالغة من العمر 20 شهراً، إلى بيت جدتها كما درجت العادة كل يوم سبت، إذ كان مريضاً (لم يعد يستطيع تحمل السفر بحراً أو جواً)، فطلب من مدبرة المنزل ومن حرّاسه أن يأخذوا سيارته وأن يقودوا الطفلة إلى جدتها. على بعد أقل من كيلومتر واحد من المنزل، دمر انفجار دبّره الفلسطينيون، السيارة فأودى بحياة مايا والمدبِّرة والحراس.

وذات يوم من أيام شهر مايو - أيار 1980، صرّح بشير "نحن حركة مقاومة ولسنا مجرد

شبكة استخبارات"، أمام محيطه مشيراً إلى الروابط القائمة بين تل أبيب وبعض التنظيمات المسيحية، إذ كان الإسرائيليون قد أبقوا على اتصالاتهم مع كل المجموعات المسيحية وضاعفوها، وحاولت هذه الأخيرة الاستفادة من ذلك إلى أقصى الحدود. لذلك، كان المفتش السابق في الأمن العام إتيان صقر (أبو أرز)، الذي يقود حراس الأرز، قد فاوض مع الإسرائيليين أن يأخذوا على عاتقهم أجور جهازه الأمني. إتيان صقر من بلدة عين إبل في لبنان الجنوبي. وكان يرجع الصداقة التي يدعو إليها بين المسيحيين اللبنانيين واليهود إلى عهد الكنعانيين[1]. وكان يصرح دائماً لتبرير الإعانات التي تأتيه من إسرائيل بالقول إن "على الطائفتين أن تتساعدا وتتآزرا بحكم علاقات القربى الوثيقة بينهما"، وكان توفير المعلومات للإسرائيليين بالنسبة لبشير الجميّل أمراً طبيعياً، إنما شريطة أن يتم التحكم بدفقها، والحصول في مقابل ذلك على تعويض سياسي. لم يكن التعاون الذي توخّى قيامه مع تل أبيب ممكناً له أن يندرج في نظره إلا في إطار المساعدة المتبادلة: المعلومات مقابل الأسلحة. ولفرض وجهة نظره، لم يعد يرى سوى أن يصبح محاور الإسرائيليين الوحيد عن المسيحيين، وكان هذا الحل مستحيلاً بوجود حزب الوطنيين الأحرار، فتدهورت العلاقات إلى حد كبير بين الكتائب والأحرار في النصف الثاني من شهر يونيو - حزيران 1980. حصلت عملياً اشتباكات شبه يومية. وحاول كميل شمعون وبيار الجميّل أن يجدا بعض "الترتيبات". وكانت ما إن تعلن، تصبح غير ناجعة. وسرعان ما فقدت السيطرة على الوضع. وشكل التداخل بين الميليشيات على الأرض، في بعض الأماكن، شبكة كثيفة محبوكة حتى أصبح عسيراً تهدئة النفوس. قرر بشير الانتقال إلى الفعل والحسم. وفي أقصى السرّية، استعد ليضرب ضربته.

وقبيل شهرين من اجتماع سيدة البير، عصر السادس من يوليو - تموز، كان "البطريركان" قد التقيا ثانية على شرفة مظللة من مكان إقامة رئيس الكتائب في بكفيا، وعندما فرغت الجعبة من الحلول، اقترحا انصهار الحزبين آملين أن يتمكنا بهذه الطريقة من إعادة السلام بإلغاء الازدواجية؛ لكن بشير وجّه ضربته فجر اليوم التالي، فشنّ في الوقت نفسه، في المنطقة المسيحية من بيروت، الهجوم على مراكز حزب الوطنيين الأحرار وثكناتهم مع الأمر بتدميرها بالقوة ومن دون أي تردد في حال المقاومة. غير أنه طلب احترام أمرٍ واحد، احتراماً مطلقاً، ألا وهو حماية حياة كميل شمعون، وحياة ابنه داني، وحياة أسرتيهما، إذ بقي شبح طوني فرنجية يلازمه. كانت مغادرة داني لمنزله في الصفرا من أجل

(1) سكان بلاد كنعان (جنوب لبنان، شرق صور). هزمهم العبرانيون في القرن الحادي عشر قبل الميلاد، وتبنوا جزءاً من ثقافتهم.

تفقد ورشة المجمّع السياحي الذي كان يبنيه، إشارة الانطلاق. ودرجاً على عادته، في مثل هذا النوع من العمليات، ينعزل بشير ويرفض أي اتصال طيلة مجريات العملية، حتى مع والده. لقد سقط في غضون أقل من يوم واحد، قرابة السبعين قتيلاً وحوالي 100 جريح. وفي نهاية فترة ما بعد الظهر، ما إن سيطر على الوضع، استدعى قادة الكتائب والشمعونيين إلى اجتماع. ومر بيار الجميّل لاصطحاب الرئيس الأسبق من منزله إلى مكان الاجتماع المقرر في كنيسة القديس أنطونيوس المواجهة للمقر الرئيسي لحزب الوطنيين الأحرار، في حي السوديكو. عبرت سيارتهما شوارع الأشرفية المقفرة، حيث ساد جو انقلاب حقيقي: لقد اتخذت عناصر الميليشيا على مفترقات الطرق، وعربات محترقة وبقايا زجاج متناثر على الأرض. طلب بشير من كميل شمعون أن يرأس الجلسة التي لم يحضرها، لا داني ولا أمين. فقد اقترح توحيد "البندقية المسيحية" بدمج الميليشيتين في القوات اللبنانية، وهي بنية بقيت حتى الآن حبراً على ورق تقريباً، ولم يكن بحاجة أن يوضح أنه سيتولى هو القيادة، فالجميع فهموه. وفي اليوم التالي اختار داني المنفى ورحل. كانت عملية "ألتالينا[1]" قد نجحت.

وقد اهتدى بشير إلى اسم "ألتالينا" أثناء قراءته لكتاب دومينيك لابيير ولاري كولينز بعنوان "آه يا قدس"، الذي يروي قصة ولادة إسرائيل. وكان قد تأثر بالإرادة التي تحلى بها مناحيم بيغن، زعيم الإرغون آنذاك، معارضاً وقف إطلاق النار الذي قبله بن غوريون، في يونيو - حزيران 1948، لوضع نهاية للحرب الدائرة بين الدولة العبرية الشابة والبلاد العربية، وهي إرادة كانت قد دفعت بيغن لأن يطرح مسألة إطاحة الحكومة الإسرائيلية الأولى عن طريق محاصرة تل أبيب عسكرياً.

في 20 يونيو - حزيران 1948، أمر بن غوريون قصف سفينة تنقل أسلحة، وهي سفينة ألتالينا، وكان ينتظرها بيغن للانتقال إلى العمل وقد أرسل جيشه الفتي ضد مواقع الإرغون. وكانت هذه الحرب الأهلية الإسرائيلية الوحيدة والفريدة قد دامت 24 ساعة وسقط فيها 83 قتيلاً.

في عام 1981، روى مناحيم بيغن لبشير، أثناء مقابلة معه، تفاصيل عملية السابع من تموز 1980 وكشف له النقاب بابتسامة عريضة عن اسم العملية موضحاً:

- فأنت أيضاً قمت بعملية "ألتالينا" الخاصة بك.

لم يكن الزعيم المسيحي الشاب يدرك أن محاوره قد هزم في 1948. بقي بيغن فاغراً فاه.

(1) اللقب الأدبي لزئيف جابوتينسكي، الناشط الصهيوني الذي تبنت منظمة بيتار إيديولوجيته.

بعد أن أصبح بشير سيِّد المقاومة المسيحية، قام بدمج ميليشيا الكتائب بالقوات اللبنانية، وطلب من الميليشيات الأخرى أن تندمج أيضاً في التنظيم الجديد، ونقل مكاتب القوات اللبنانية من مبنى الإلكترولكس إلى مبنى الكرنتينا. وقد حافظ "شكلاً" على مجلس قيادة القوات اللبنانية الذي ضم ممثِّلَيْن عن كل ميليشيا، والذي كان يرأسه مع شارل غوسطين (حزب الوطنيين الأحرار) كتائب له. غير أن السلطة العسكرية الحقيقية، كانت في يد الأركان الجديدة التي تولى هو نفسه رئاستها أيضاً. وقد عين فادي أفرام الذي قد أنهى لتوّه دراسته في الولايات المتحدة، الرجل الثاني فيها؛ وعيِّن جوزيف شاوول، شمعوني آخر ينتمي إلى الأحرار، لقيادة المكتب الأول (المولج بالعديد والتدريب). وكُلِّف فؤاد أبو ناضر، كتائبي، بقيادة المكتب الثالث (العمليات)؛ وأوكلت قيادة المكتب الخامس (الدعاية والإعلام) إلى فادي حايك من التنظيم؛ وأمانة سر هيئة الأركان إلى كيروز بركات، أحد مسؤولي تنظيم "حراس الأرز"[1].

لكن هذه العملية لم تكن تحظى برضا الجميع. فقد رفض أمين ضم قواته إلى القوات اللبنانية. وتتطلب الأمر من بيار الجميّل أن يتدخل بشدة لفرض نوع من التنسيق – لتعذر الدمج – بين قواته وتلك التي يقودها شقيقه. وقد استلزم عدة أسابيع من النقاشات بين بشير ووالده حتى يصدر هذا الأخير الأمر لـ"مختلف المكاتب الإقليمية في الحزب" – أي في الواقع تلك التي تأتمر بأوامر أمين – أن تسلم الأسلحة الثقيلة إلى القوات اللبنانية. كان التعارض بين الشقيقين واسعاً إلى درجة أن أدنى نقاش بينهما قد يتحول بمفاعيله إلى قضية تخص الحزب. ولا شيء يرشح رسمياً، فكان إنقاذ مظاهر لحمة العشيرة ضرورياً. لم يكن بشير يبوح بهذه المشاكل إلاّ لحفنة من المقربين ويرفض كلياً أي مسعى توفيقي بالرد على صاحب المسعى قائلاً:

– أنت لا تعرف أخي، أنا أعرفه!

ثمة عدد كبير من الأحرار سلموا أسلحتهم ولزموا منازلهم. وثمة آخرون، ما إن مرت الصدمة حتى أعادوا تنظيم أنفسهم سراً للتصدي لـ"هيمنة آل الجميل". فانطلق أوّل إنذار قبل شهر من الاجتماع في "دير سيدة البير"، حيث أطلق بعض عناصر ميليشيا الأحرار النار على سفير الولايات المتحدة الأميركية للطعن بمصداقية القوات اللبنانية[2]. في 10 نوفمبر – تشرين الثاني، هزّ انفجار سيارتين مفخختين الأشرفية، معقل بشير الجميل، بفاصل زمني لم

(1) قتل في المعركة في سبتمبر – أيلول 1983.
(2) أنظر الفصل 5: "الصديق الإسرائيلي".

يتعد بضع دقائق، فأوقع 10 قتلى و62 جريحاً. وبعيد عشرة أيام، أطلق قائد القوات اللبنانية وحدات النخبة لاقتحام عين الرمانة.

وكانت هذه المنطقة الجنوبية من بيروت المسيحية، المحاذية لخطوط التماس، تدين بالولاء دائماً الشديد للشمعونيين. إنها حصن من حصون الأحرار، يلجأ إليه كل الذين يرفضون مشيئة الابن الأصغر لآل الجميل. وقد تزعمهم إلياس حنّوش الملقب بالحنش. اضطرت القوات اللبنانية للقتال طيلة 48 ساعة قبل أن تتمكن من اقتحام المنطقة والسيطرة عليها سيطرة نهائية. لقد فرّ الحنش وعبر بصحبة عدد كبير من رجاله إلى الجهة الأخرى ووضع نفسه تحت الحماية السورية في بيروت الغربية. في نهاية هذا القتال، اعتبر بشير أن توحيد "البندقية المسيحية" قد أُنجز حقاً، فأمر جميع عناصر القوات اللبنانية بنزع شارات ميليشياتهم الأصلية وأن يضعوا مكانها فوق الجعب اليسرى لستراتهم شريطاً من القماش كتب عليه، بأحرف ذهبية، عبارة "القوات اللبنانية". وأمام سخط عناصر ميليشيا الكتائب، اضطر للقيام بجولة على الثكنات ليفسر لهم أن "زمن الميليشيات قد ولى"، إنما وجد صعوبة في إقناع الشباب لشدة ما تعزز ولاؤهم للحزب جراء عملية "ألتالينا". بعضهم، من أمثال إيلي الزايك، احتفظوا بالشارتين معاً طيلة سنتين.

عارض أمين، من جهته، هذا التدبير معارضة شديدة. وقام من أجل التأكيد على استقلاليته تأكيداً صريحاً، بتنظيم استعراض ضم حوالي 3000 رجل علقوا جميعاً على بذلتهم العسكرية الجديدة شارة الكتائب، فتجاهل بشير الحادث حتى لا يضطر لإبداء أي رد

الخلافات داخل الصف المسيحي. كان ذلك صحيحاً إذا ما أسقط إلياس حنّوش من الحسابات. ففي 20 ديسمبر – كانون الأول 1980، في ساعات الصباح الأولى، اتخذ هذا الأخير موقعاً له بالقوة، مدعوماً من القوات السورية، في زحلة، المدينة المسيحية الواقعة في سهل البقاع. ثم قام باقتحام المقر السابق لحزب الوطنيين الأحرار في المدينة وتمترس فيه على رأس 40 عنصراً. حاول رجال ميليشيا القوات اللبنانية المحلية طيلة ساعة ونصف، تنحيتهم دون جدوى. تدخل الجنود السوريون للفصل بين الفريقين. وأردي أحد رجال القوات اللبنانية قتيلاً ببرودة، ففتح رفاقه النار بعد ذلك على الجنود السوريين. وسرعان ما دارت معارك بالصواريخ والرشاشات الثقيلة ومدافع الهاون، وعمت وسط المدينة. توقفت الاشتباكات حوالي الساعة 11 مساءً مع انسحاب الجنود السوريين ورجال حنّوش. لم تنجح عملية الزرع الموالية لسوريا، غير أن زحلة شكلت مادة العناوين الأولى للصحف، بما فيها الصحافة الدولية طيلة عدة شهور.

4

السلطة الشرعية

كتبت جريدة لوريان لوجور مقالاً على خمسة أعمدة في عددها الصادر في 27 سبتمبر –
أيلول 1980 حمل عنوان: "قبل رئيس الوزراء سليم الحص أن يستمر في تصريف الأعمال
الجارية". كانت الأزمة الوزارية على وشك أن تضرب الرقم القياسي في طول مدتها، إذ كان
سليم الحص قد قدم استقالته في مارس – آذار 1980.

في عام 1976، عيَّن إلياس سركيس، عقب انتخابه رئيساً جديداً، من أجل إجراء
إصلاحات، حكومة لا سياسية مؤلفة من تقنوقراط برئاسة سليم الحص، (51 سنة). وهو ابن
صيدلي، درس الاقتصاد في الجامعة الأميركية ثم في جامعة إنديانا دراسة متمكنة ثم التحق
بالجامعة الاميركية في بيروت. وعمل الحص عقب ذلك محاسباً في مشروع كبير محلي قبل أن
يصبح مستشاراً مالياً في الصندوق الكويتي للتنمية العربية. وكان إلياس سركيس آنذاك حاكماً
لمصرف لبنان، فتعرف إليه بعيد عدة سنوات بينما كان الحص يزاول أعمال رئيس لجنة
المصارف. فهو بالتالي ثمَّن فيه التقنوقراطي البارد، والفعال، مع هذا الاكتناز الخفيف الذي
يميّز الخبراء الماليين في العالم العربي، يطل باستمرار بوجه حزين تميّز به الاقتصاديون.
رشحته جديته ونزاهته وكفاءته وخصوصاً عدم التزامه السياسي، لأن يكون الرجل المثالي
للأهداف التي اعتزم إلياس سركيس تكليفه بتحقيقها. وفي منحى متناقض نجح الحص في
كسب تأييد منظمة التحرير الفلسطينية – التي كانت تبحث هي أيضاً عن دعم سياسي – ولعب
تماماً لعبة سورية – التي تمنت إيجاد توازن مقابل الرئاسة – وجمد المؤسسات عن طريق
تطييف ملف الجيش، وقد عارض اتخاذ عقوبات بحق ضباط مسلمين انشقوا تأييداً لـ م ت ف،
وطالب، باسم الحفاظ على التوازن الطائفي، بطرد العدد نفسه من الضباط المسيحيين ممن
يشتبه بأنهم ساندوا بشير الجميّل. رفض سركيس هذه المعادلة قائلاً:

نحن لا نستطيع مقارنة اللبنانيين الذين دافعوا عن أرضهم وكرامتهم بأولئك الذين قاتلوا
إلى جانب الفلسطينيين ضد الجمهورية،[1] ولم يكن ذلك هو اختلافهم الوحيد. فمن أجل

(1) كريم بقردوني، السلام المفقود، عبر الشرق للمنشورات 1984.

تمكين الجيش من التصدي للوجود الفلسطيني، اقترح سركيس مشروع قانون لتحديثه وإعادة تنظيمه. فانتهز الحص الفرصة بواسطة بعض التعديلات لتقليص صلاحيات قائد الجيش الذي يعيَّن تقليدياً من بين الموارنة. لقد جرى التخلي عن المشروع. فقد عطّل بعد ذلك، كل منهما مشروع الآخر، فاضطر رئيس الحكومة إلى الاستقالة. وتعذر مذّاك على سركيس إيجاد خلف يحظى بموافقة دمشق. وذكرت صحيفة لوريان لوجور في عددها الصادر في 27 سبتمبر – أيلول 1980 أن "على الشرعية انتظار عودة نائب رئيس مجلس الوزراء وزير خارجية سورية، الموجود في نيويورك للمشاركة في أعمال الجمعية العامة للأمم المتحدة"؛ وتستعمل عبارة "الشرعية" لتعيين السلطة الرئاسية في مقابل سلطات أكثر أهمية أحياناً تتمتع بها التشكيلات السياسية المختلفة وميليشياتها. إن الرئيس سركيس، المنتخب بطريقة قانونية، لم يكن يمارس سلطته في الواقع إلا على قصره، وإدارة الدولة المنخورة بالخلافات الطائفية لم يكن حضورها إلا للذكرى، كما وأن الجيش الذي حاول الرئيس إعادة تنظيمه لم يكن أشفى حالاً. وكان مجلس الوزراء يصرِّف الأعمال، والدولة غائبة. وقد سبق الانفتاح السياسي للرئيس سركيس، الذي سبق أن ذكره الرجال الستة عشر المجتمعون في دير "سيدة البير"، حرب مواقع حقيقية، بين الـ "شرعية" التي حاولت فرض سلطتها وبين السلطة الحقيقية لبشير الجميل. كان سركيس مرشحاً رئاسياً تدعمه دمشق دعماً قوياً. وكان بشير على يقين أن الحاكم السابق لمصرف لبنان لم يكن سوى حصان طروادة سورياً يسمح لدمشق أن تحصل سياسياً على ما لم يسع التحالف بين قوى اليسار والفلسطينيين، الحصول عليه بالسلاح منذ 1973. في تلك الفترة، في عام 1976، سبق لقائد المجلس الحربي الكتائبي الحديث العهد جداً أن نظر بجدية في أمر تنظيم انقلاب يحول دون إجراء انتخابات رئاسية. وقبل الاقتراع حتى، كانت العلاقات بين الرجلين الاثنين خلافية؛ إذ إن ميليشيا الكتائب مثّلت، في نظر الرئيس العتيد، نفياً للدولة التي سعى إلى تجسيدها هو نفسه. وقد اعتبرها العائق الأكبر أمام المصالحة الإسلامية المسيحية التي جعلها واحدة من أهداف ولايته. وفضلاً عن ذلك، مثل بشير الجميل، في نظر سركيس، أكثر ما كان يكره ألا وهو العنف.

أقسم الرئيس الجديد اليمين الدستوري في 23 سبتمبر – أيلول 1976. وبعد 10 نوفمبر – تشرين الثاني التالي، تطبيقاً لاتفاق عُقد فيما بين الدول العربية في الرياض بطلب منه، دخلت القوات السورية، التي سميت للمناسبة "قوات الردع العربية"، بيروت "لإجبار الفلسطينيين على احترام اتفاق القاهرة"[1] وانتشرت في المناطق المسيحية بهدف

(1) وقعت م ت ف والدولة اللبنانية، بمبادرة من الرئيس المصري جمال عبد الناصر، اتفاقاً، بقيت بنوده سرية لفترة طويلة، نظَّم بموجبه الوجود الفلسطيني في لبنان.

"حمايتها". وأراد سركيس أن يستوحي من طرق فؤاد شهاب[1]، الذي خدم في عهده ست سنوات بكل إخلاص، وتشرب من فكره السياسي بصورة عميقة؛ فقد اعتاد فؤاد شهاب على القول بأنه "ينبغي على الدولة أن تكون قوية". وقد رأى سركيس أن هذه القوة لا بد أن ترتكز، من بين ما يجب أن ترتكز إليه، إلى جهاز أمني صلب وفعال. لقد أسس فؤاد شهاب مكتباً ثانياً[2] وشرطة، الفرقة 16، وهي جميعها أجهزة توصلت إلى أن تكون مهابة من الجميع إلى درجة دفعت خلفاءه لسحب كل صلاحية منها من بعده، ما إن أصبح ذلك ممكناً. كان سركيس عازماً على تفعيلها وإعادتها إلى ما كانت عليه في ما مضى؛ فأوكل مسؤولية المكتب الثاني إلى مقدم في الجيش أمضى معظم حياته المهنية في الاستخبارات ألا وهو جوني عبدو.

لقد عرفه أعضاء ميليشيا الكتائب معرفة جيدة، إذ إنه انخرط سراً في حرب الأسواق عن طريق خلق نواة لجهاز استخبارات عسكرية لصالح المقاتلين المسيحيين، اتخذ مقراً له في مبنى سوكومكس (socomex) حيث مقر بشير الجميل. وبعد تعيينه على رأس المكتب الثاني، لعب لعبة الشرعية بأمانة وسرعان ما أصبح أحد الرجال الثقاة للرئيس. ولد جوني عبدو، "اللبناني ذي الأصل الفلسطيني"، عام 1940 في قرية إبل القمح الصغيرة التي تبعد 12 كلم عن مدينة المطلة. في عام 1916 ضمت اتفاقات سايكس بيكو إبل القمح إلى الأراضي السورية تحت الانتداب الفرنسي. وبفضل طلب لتعديل الحدود كانت قد تقدمت به الوكالة اليهودية في عام 1922، وقبلته فرنسا، ضمت إبل القمح إلى فلسطين تحت الانتداب الانكليزي. في عام 1948، غادر آل عبدو قريتهم، بعد إنشاء دولة إسرائيل، للاستقرار في بيروت.

كان جوني عبدو واسع الاطلاع على متاهات السياسة اللبنانية. وفي الأشهر التي أعقبت تعيينه، أنشأ وحدة المكافحة العسكرية، التابعة مباشرة له، ومهمتها الرسمية حماية وزارة الدفاع. ففي الواقع كان قد شكل وحدته الخاصة للتدخل.

حاول إلياس سركيس أن يعزز مؤسسات الدولة. كان النزاع مع ميليشيا الكتائب محتوماً. بعد أن أرهق الرئيس بالتهجم الكلامي من قبل النجل الأصغر لآل الجميّل ضد شخصه بالذات والمنصب الذي يشغله، تدخل بادئ ذي بدء لدى والده، فوعده بيار الجميّل

(1) رئيس الجمهورية من 1958 إلى 1964. خلف كميل شمعون، وسبق شارل حلو.

(2) جهاز استخبارات عسكرية توسعت وظائفه لتشمل أيضاً مديرية أمن الدولة والمخابرات العامة المؤهلة في الحقلين المدني والعسكري.

أن يرد ابنه إلى الصواب، ولكن هباءً؛ قررت الشرعية عندئذ أن تفرض وجودها. استناداً إلى رفضه أن يسهم موظفيه في تنمية وتقوية الميليشيا طلب سركيس، في ديسمبر – كانون الأول 1977، إلى مدير الأمن العام الأمير فاروق أبي اللمع، "نفي" المفوض زاهي البستاني على سبيل المثال، وهو الذي أصبح دوره معروفاً بالرغم من الاحتياطات التي قد اتخذها. نفي البستاني نفسه إلى فرنسا حيث سبق له أن درس فيها بمدرسة مفوضي الشرطة في ليون – سان – سير في المون دور عام 1972 – 1973. نفّذ الأمر. وتضاعف غيظ بشير، ورئيس المكتب الثاني الذي خشي خشية مرعبة رد فعل قائد الميليشيا، حبس نفسه في مكتبه ومكان إقامته في وزارة الدفاع، في اليرزة.

أثناء العام 1978، وقع حادثان انعكسا مباشرة على العلاقات بين الرئيس سركيس وبشير الجميل. كان الأول قضية الفياضية، والثاني كان اعتقال بشير من قبل السوريين ومعركة الأشرفية التي أعقبته[1]. وقد أراح عجز الرئيس عن احتواء عمل السوريين، بشير الجميّل وعزز لديه القناعة بأن إلياس سركيس لم يكن إطلاقاً رجل الساعة. انتقده بحدة، فاتهمه بكل الآلام. عزل الرئيس نفسه في أحد أقبية قصر بعبدا حيث طلب نقل مكتبه وسريره للاحتماء من القصفين السوري والمسيحي على السواء. أصرت دمشق بأي ثمن على أن يبرر سركيس تدخلها، بينما عاب المسيحيون عليه "غيابه". لقد رفض الرئيس التخلي عن منصبه وأمضى أوقات فراغه بلعبة البوكر أو البيليار مع من أحاطوا به، فيما كان محروماً من المياه والكهرباء، وبلا اتصالات هاتفية عملياً ولا زوار – إذ إن الطريق إلى القصر كانت محفوفة بالخطر.

بعد أن عاد الهدوء، بلغ خلاف سركيس – بشير الزبى عندما أمر جوني عبدو المكافحة بوقف إيلي حبيقة، المتهم بإطلاق النار على مروحية السفير السعودي أثناء إحدى تنقلاته في مرتفعات كسروان. ولتفادي كل تدخل مسلح من الميليشيا لتحرير حبيقة، نقل هذا الأخير بالمروحية إلى مقر القيادة العامة للجيش في اليرزة. وكرد فعل، أمر بشير رجاله بخطف حوالي مئة ضابط من الجيش، ثم اقترح تحريرهم مقابل تحرير حبيقة. جرى التبادل بعيد أسابيع ثلاثة.

في مارس – آذار 1979، أعلن السعوديون عن نيتهم الانسحاب من قوات الردع العربية، وأنهم سيتركون مواقعهم للجيش اللبناني. ثم أصبحت المواجهة بين رجال ميليشيا الجميّل والجيش محتومة. قرر جوني عبدو أن يضع حداً للنزاع المكشوف بين الطرفين، فخابر بشير الجميّل بشأن رجل احتجز على "الأرجح" من قبل الميليشيا، وقال رئيس المكتب الثاني قبل أن يقفل الخط:

(1) انظر الفصل الثاني: "الجارة سورية"

– أرسل إليك مذكرة بيد المراسل حول هذا الموضوع. وبعد ساعة تلقى بشير المذكرة التي حررها عبدو بخط يده بالفرنسية والتي جاء فيها: "تطورت الحالة بوضوح. أصبح الحوار بيننا كلينا ضرورياً لتعذر إمكانية انتقالنا بحرية، هلا عينت وسيطاً؟" وانطلاقاً من معرفته بأن خطوط الميليشيات الهاتفية كانت مراقبة من السوريين، اخترع جوني عبدو قصة الخطف، وهو أمر كان شيئاً عادياً آنذاك. لم يغتظ بشير من الأمر، وأراد اختبار رغبة الانفتاح لدى رئيس المكتب الثاني فأرسل رداً إلى المرسل تضمن كلمة وحيدة: "زاهي". فهمت الرسالة وتمكن زاهي البستاني من العودة من منفاه الباريسي حيث كان قد تزوج من "المفوضة" هيام سعد.

مر تيار التعاطف بين عبدو وبستاني منذ الاجتماع الأول، وانعكس حتماً على العلاقات بين بشير الجميّل وإلياس سركيس. في 4 يونيو – حزيران، 1980، أجرى الرجلان مقابلة سريّة. رحب الرئيس بلطف وهمس بالعربية، إلى ضيفه:

– أقاوم بطريقتي أيضاً، بقدر ما تقاوم أنت. الفرق، أنه في وسعك أن تطلق مكبوتاتك، وأن تقول أو أن تفعل ما تريد، فيما هذا متعذر عليَّ. بحوزتك الدور الجميل.

أجاب بشير بابتسامة. ثم طلب منه التدخل لدى الأميركيين لصالحه. كانت صحافة ما وراء الأطلسي قد لقبته بـ"كارلوس غير السري"، الأمر الذي كان قد أثر عليه تأثيراً عميقاً، وخصوصاً أن ذلك قد منعه من إجراء أي نقاش مباشر أو غير مباشر مع واشنطن. لقد وعد سركيس بإجراء "ما في استطاعته". وما إن ذهب زائره، التفت الرئيس نحو جوني عبدو وأسرّ إليه قائلاً:

– لن أسأل بشير أن يغيّر موقعه، لأنه لا يريد ذلك، ولا يمكنه ذلك وربما لا ينبغي أن يفعل ذلك. وبعيد شهر، أعطت عملية "ألتالينا" في 7 يوليو-تموز 1980، بشيراً مدى سياسياً لم يستطع سركيس إلا أن يدخله في حسبانه. وقد تعززت روابطهما بعد ذلك سريعاً بمقدار ما انكشف لرئيس الجمهورية، بمرارة، على مر الأيام، بعض "الحقائق الأولية" للمأساة اللبنانية: ازدواجية الدبلوماسية الأميركية الموالية إلى حد كبير لإسرائيل والغامضة إلى درجة عدم تناسقها، التدخل السوري المتزايد في اللعبة السياسية اللبنانية، ورفض منظمة التحرير احترام اتفاقية القاهرة، وإهمال البلاد العربية، المرتابة من لبنان المشتبه بأنه يتلاقى مع عملية اتفاقات كامب دافيد المصرية الأميركية. فضلاً عن ذلك، اقتراب استحقاق الانتخابات الرئاسية لعام 1982.

أراد سركيس أن يستودع بلده "بأيدٍ أمينة" وخاصة، أن الرئيس شاهد عاجزاً، انحلالاً إجمالياً للدولة وعناصرها. طلب إلياس سركيس من جوني عبدو في بداية أكتوبر – تشرين الأول 1980، متجاهلاً اجتماع دير سيدة البير، أن يسبر نوايا زعماء القوات في ما يتعلق

بالرئاسيات. أخطره زاهي "أنهم سيتواجدون وبكثافة عند انتهاء ولاية إلياس سركيس".
وقد سعى بشير أن يحسن علاقاته مع الشرعية بصورة ملموسة، فتوافرت الفرصة مع تشكيل حكومة جديدة. قرر سركيس إثر أزمة وزارية شلت المؤسسات منذ شهور، أن يعلم السوريين أنه عازم على اختيار تقي الدين الصلح أحد أفراد عائلة سنية كبيرة لتكليفه برئاسة الحكومة. رفضت دمشق الاقتراح رفضاً قاطعاً، باعتبار أنه "غير منفتح كفاية على علاقات الصداقة اللبنانية السورية"، واقترحت على الرئيس ثلاثة أسماء، ومن بينها اسم الحص. لم يتقيد سركيس بتوصيات دمشق، إنما نظراً لعدم تمكنه من الإبقاء على تسمية الصلح بسبب رفض اسمه سابقاً، فقد كلف بصورة مفاجئة شفيق الوزان. وكان الوزان، ذا الشعر المموج، وابن تاجر سني بيروتي، محام سابق، قد انتخب نائباً لأول مرة في العام 1968. وقد تولى في العام الذي تلا بصورة مؤقتة منصب وزير للعدل بين أزمتين سياسيتين. وقد عرف خصوصاً بأنه مؤمن بالحوار. فللمرة الأولى منذ ولايته، كان الرئيس قد رفض أن يأخذ بـ "بنصائح" الجارة سورية، وفضلاً عن ذلك فقد اقترح على سليم الجاهل، صاحب اسم ميشال سان أندريه الحاضر في اجتماع سيدة البير، أخذاً باقتراح الثنائي عبدو - بستاني، حقيبة الإسكان والتعاونيات. علم أمين بالأمر بواسطة والده فتدخل بحزم لدى إلياس سركيس ليتمثل "تياره" في الحكومة أيضاً مقترحاً سامي مارون.

استشير بشير في الأمر، فكانت ردة فعله صارمة: هذا أو ذاك، وليس كلاهما، مع ما يمكن أن ينجم عن ذلك". "لم يتردد سركيس لحظة واحدة، فعيّن سليم الجاهل، وازدادت عزلة أمين سياسياً. وكان سليم الجاهل، القاضي، وأستاذ القانون، هو الذي يكتب مراسلات بشير وأهم خطاباته بالفرنسية. وقد نظم له، بدعم الأميرة فرانسواز دي لوبكوفيتش زوجة سفير دولة أخوية مالطة في بيروت، مقابلة سرية مع ريمون بار، رئيس الوزراء الفرنسي آنذاك، في 19 يناير - كانون الثاني 1978. وبعد أن دخل إلى قصر ماتينيون من الباب الخفي، قدم النجل الأصغر لآل الجميّل بحماسة وصفاً لحالة المسيحيين اللبنانيين. التزم ريمون بار موقفاً بارداً ومتحفظاً.

كانت التقارير التي طلبها من أجهزة المخابرات الفرنسية قبل اللقاء قد وصفت الكتائب كعصابة مارقين. وقد استعاد وزير الخارجية الفرنسية، لوي دي غيرينغو، هذه السمعة علانية في أحد تصريحاته، الصيف اللاحق، أثناء حصار الأشرفية. فقد ألقى هذا الأخير مسؤولية المعارك والقصف على الميليشيات المسيحية. أثارت هذه القضية ضجة اضطر معها لوي دي غيرينغو إلى تقديم استقالته بعيد عدة أسابيع.

لقد وثّق تعيين سليم الجاهل تحالفاً ضمنياً وطيداً وسرّياً على حد سواء بين بشير

وسركيس. استغل قائد القوات ذلك ليقدم حجراً آخر. كان يسعى منذ وقت طويل إلى إرساء تعاون أوثق بين ميليشياه وبين الجيش اللبناني من أجل تيسير دخول وحداته إلى الجبهات من دون تصادم مع القيادة العسكرية. اقترح جوني عبدو على زاهي البستاني تعيين ضابط قريب من القوات اللبنانية لقيادة القطاع الذي يشمل خطوط التماس التي تفصل بيروت إلى اثنتين، أي من المرفأ إلى كفرشيما. وافق زاهي البستاني بحماسة، إنما أصر على أن يمسك هذا الضابط بكل الصلاحيات، وخاصة الوسائل الضرورية "لتحقيق أهداف المقاومة اللبنانية"، وبعبارة أخرى من أجل تنفيذ قرارات بشير. وافق عبدو. في المساء نفسه، توجه المقدم ميشال عون (جبرايل)، الذي حضر اجتماع "دير سيدة البير"، إلى عند أنطوان نجم يرافقه إيلي حبيقة الرئيس الجديد لجهاز الأمن، جهاز استخبارات القوات. وضع الرجال الثلاثة قائمة بالضباط الذين يفترض فيهم معاونة المقدم في حال تم تعيينه؛ وقد استبعدوا سلفاً الضباط الذين حسبوهم قليلي الصدقية.

في 9 ديسمبر - كانون الأول، اقترح زاهي البستاني اسم عون على جوني عبدو.

- ميشال عون! هل فكرت مليّاً؟ سأله جوني عبدو. على كامل مسؤوليتك! إنه غير كفؤ على الإطلاق.

لئن كان زاهي البستاني لا يزال يشك بالنفور القائم بين الضابطين، فقد تأكد من الأمر الآن:

لن يحصل التعيين الرسمي قبل أواسط يناير - كانون الثاني، هذا ما صرح به رئيس المكتب الثاني بلهجة متأثرة. ينبغي انتظار عودة فيكتور خوري.

كان قائد الجيش في رحلة إلى الخارج وتوقيعه ضروري. اقترح جوني عبدو، تغييراً للموضوع، أن تتوضح إستراتيجية بشير كتابة بوثيقة سرية تعرض على إلياس سركيس:

- يمكن للرئيس استلهامه في المناقشات التي ستجري قريباً مع حافظ الأسد، هذا ما أضافه.

على الفور طلب بشير من كريم بقردوني أن يكتب مسودة مشروع، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يلجأ فيها مستعيناً بهذا المحامي الأرمني الذي مثل لفترة طويلة عدوه اللدود داخل حزب الكتائب.

لم ينخرط بقردوني أبداً في القتال، وكان باستمرار هو المستشار الشخصي لإلياس سركيس في الشؤون المتعلقة بسورية. عضو في المكتب السياسي لحزب الكتائب، رئيس سابق للطلاب الكتائبيين في جامعة القديس يوسف، ومثّل في الحزب الجناح المنفتح على السوريين، وقد برر موقفه هذا، تمكنه من الملفين الفلسطيني والسوري وعلاقاته الحسنة

بقادتهم. حتى عام 1976، كان أحد المقربين من أمين الجميل. وهذان سببان كافيان لينصب عليه جام غضب بشير الذي كان يرفض أن يتوجه إليه بالحديث. وقد ساءت علاقاتهما كلياً في مايو – أيار 1977، عقب قضية قرية دير بلاّ المسيحية في شمال لبنان، حيث وقع حادث بين السوريين وعناصر الميليشيات بقيادة سمير جعجع تدعمهم قوات مرسلة من قبل بشير، أودت بحياة قرابة عشرين جندياً سورياً. كانت ردة فعل الحزب سيئة مما دفع ببقردوني، الذي يدعو إلى حماية المسيحيين من خلال علاقة مميزة مع سورية، لتزعم معارضة ضد بشير. وعلى سبيل التحذير كان الزعيم الشاب قد فخخ سيارته وأخضع هاتفه للتنصت علناً.

مع أن بشير قد اعتبره "حيواناً سياسياً" ذكياً ونشيطاً، فإنه خشيه بسبب ما أسماه بـ"ولائه" لدمشق. لم يخف تحسن العلاقات بين بشير وسركيس على المحامي الأرمني. إن دخول سليم الجاهل إلى الحكومة قد أكد له أن الأشياء تتغير. بعد فترة قصيرة رفع بقردوني هاتفه واتصل مباشرة بالقائد العام للقوات يلتمس منه مقابلة. حصلت في اليوم نفسه. استفاض المحامي بالكلام، فيما محاوره أجابه بكلمات أحادية المقطع. في نهاية المناقشة، طلب بشير من مساعده فادي أفرام، قائد أركان القوات الحضور إلى مكتبه. ومن دون أخذ وجود بقردوني في الاعتبار أمره:

– ينبغي إلغاء قرار تصفية كريم بقردوني فوراً.

بقي مستشار الرئيس مخطوف الصوت. بعيد عدة أسابيع أعلن بشير لفريقه أنه عازم على إشراك كريم بقردوني في المجموعة. أثار هذا القرار موجة احتجاج عارمة من قبل الحرس القديم: سليم الجاهل وأنطوان نجم وجان ناضر وجورج فريحة.

– ولكن كيف يمكنك أن تعرض علينا ذلك؟ هذا ما قاله سليم الجاهل، إنه سمسار سياسي موال لسورية.

بعد ذلك، مال الوزير الجديد نحو حبيقة وهمس في أذن رئيس جهاز الأمن:

– ألا تستطيع أن ترتب له قدره وننتهي منه[1]؟

بصبر وإقناع استطاع بشير، الذي كان مصراً على الاستفادة من الملف السوري، أن يفرض كريم بقردوني. كانت المذكرة السرية هي أول عمل يطلبه بشير منه داخل القوات. أدخل أنطوان نجم عليها بعض التعديلات الطفيفة[2].

انطلق هذا النص من المعاينة التالية: "يمثل الوجود الفلسطيني الآن وسيمثل مستقبلاً القطب الجاذب لكل التدخلات الأجنبية، الإقليمية والدولية. لذلك، فإن الوجود

(1) سليم الجاهل إلى ألان مينارغ، نوفمبر – تشرين الثاني 1982.
(2) انظر النص في الملحق 2.

الفلسطيني ذريعة للعمليات العسكرية الإسرائيلية، وللتدخل السوري في لبنان". لذا، اقترح كريم بقردوني جعل المقاومة متعددة الطوائف "عن طريق ضم عناصر من غير المسيحيين أو بقيام تحالف عميق معها"، وهو هدف "يدخل بشكل طبيعي في الدور التاريخي للشرعية [...] الوحيدة القادرة على تبني المقاومة المسيحية، وأن تحولها إلى مقاومة لبنانية"، مما يتطلب "إدخال عقلية ثورية إلى الشرعية".

وانطلاقاً من ذلك فإن الإستراتيجية المقترحة تتمثل "في إيجاد صيغة جديدة للبنان فيدرالي تستبدل دستور 1926، وفي تحرير البلد من الاحتلال السوري، [ثم] لجم التنظيمات الفلسطينية في خطوة أولى وتصفيتها في خطوة ثانية". ينبغي لهذه الإستراتيجية وفقاً لنص المحامي الأرمني، "أن تطبق بمبادرة من الشرعية مع دعم المقاومة، أو العكس".

لتحقيق هذا الهدف، أوصت الوثيقة التي سلمت للرئيس "تنظيم انقلاب عسكري" بمشاركة الجيش اللبناني لكي تعلن صيغة فيدرالية. واقترح "حتى ينجح هذا الانقلاب ضرورة أن تضمن الشرعية تعاون مجموعة من الضباط المسلمين، وأن تعين قائداً جديداً للجيش يوافق على مثل هذه الخطة، وأن يعيَّن ضباط موالون للقضية في المراكز الأساسية، بالإضافة إلى تأمين تغطية أميركية وعربية". وينبغي تنفيذ كل ذلك قبل الانتخابات الرئاسية لعام 1982. النقطة العاشرة والأخيرة في النص تضمنت تحذيراً واحداً ولا أوضح: "في حال امتنعت الشرعية، لأي سبب من الأسباب، عن التعاون في سياق هذه الإستراتيجية لإخراج لبنان من أزمته، ستجد المقاومة نفسها مجبرة على متابعة الطريق وحدها تبعاً لاستراتيجية مناسبة أياً تكن العواقب. وعلى الشرعية أن تتحمل المسؤولية الناجمة عن ذلك".

في 12 ديسمبر – كانون الأول 1980، بعد إرسال الوثيقة إلى إلياس سركيس توجه بشير إلى قصر بعبدا لمناقشة الأمر. اقتاده جوني عبدو إلى المكتب الرئاسي وحضر المقابلة. وكعادته، اختصر التحيات، دخل مباشرة في صلب الموضوع وسأل الرئيس:

– هل تعتبر أن صيغة الـ 43 لا تزال قابلة للعيش؟

– غير وارد، قال سركيس في معرض الرد.

اطمأن بشير، واقترح على الفور تشكيل فريق عمل مولج بدراسة هذه النقطة قبل أن يسأل محاوره حول الخطة التي طرحها عليه. أجاب الرئيس مستخدماً شيئاً من التهكم:

بإيجاز، أنت تقترح عليّ: إما أن تنظم انقلاباً، بموافقتي، وإما أقوم بضربة سياسية بدعم منك.

توقف عن أن يبتسم ليضيف:

- اقتراحك ليس بسيطاً ولا مريحاً، دعني أفكر قليلاً بالموضوع.
- بعضاً من التعقل من جانبكم يا فخامة الرئيس، وبعضاً من الجنون من جانبي، والأمور ستسوّى.
- العكس هو الصحيح يا شيخ بشير، أجاب جوني عبدو قائلاً. شيئاً من الجنون من طرفنا وشيئاً من التعقل من طرفكم.

انفجر الثلاثة بالضحك. لم يجب سركيس على هذا الاقتراح أبداً بصورة مباشرة. ولم يطلب بشير جواباً أبداً.

5

الصديق الإسرائيلي

يوم الاجتماع في دير سيدة البير، في 27 سبتمبر - أيلول 1980، حمل بشير الجميل في جعبته رسالة تلقاها من رئيس مكتب الموساد في لبنان[1]. تضمنت الرسالة، المؤرخة في 18 سبتمبر - أيلول، والمكتوبة بالانكليزية، استفسارات بلهجة لطيفة إنما حازمة:

"[. . .] كما يفترض أن تعرف، فإن الولايات المتحدة الأميركية شديدة الحساسية في كل ما يتعلق بوجهة استخدام الأسلحة التي تصنعها.

"استنتج تحقيق أميركي أن سلاحاً أميركياً قد استخدم في المحاولة الفاشلة لاغتيال السيد غونتر دين، السفير الأميركي في لبنان، في 27 أغسطس - آب 1980، وهو كناية عن صاروخ LAW[2]، أطلق باتجاه سيارته، حمل رقماً مماثلاً لرقم صاروخ قد سلم إلينا في ما مضى.

"في عام 1976، كنا قد حولنا إلى قواتكم كمية من هذا الصنف. هل ثمة احتمال أن أحد أعضاء ميلشياتكم قد اشترك في هذه العملية؟ وفي حال النفي هل باستطاعتكم إثبات من كان وراء هذا الاعتداء؟

"بسبب هذه القضية الدقيقة، اتصلت بنا السلطات الأميركية على أعلى المستويات ونحن مجبرون لإجراء تحقيق بطرفكم بأقصى السرية.

[. . .] على أمل سماعكم، وإن أمكن، لقاءكم عما قريب.

منديّ".

في 27 أغسطس - آب، السابق، في بداية المساء، لحظة خروج جون غونتر دين من

(1) موساد Mossad: اختصار لـ "ها-موساد له مودئين أوله تافكديم ميوهاديم" (ha-Mossad le-Modiin ule-Tafkidim Meyuhadim) (معهد الاستخبارات والمهمات الخاصة).

(2) سلاح خفيف مضاد للدروع. صاروخ مضاد للدبابات من صنع أميركي، تعليبه مستهلك عقب الاستعمال، يستخدم كقاذف.

منزله متوجهاً إلى حفل عشاء، وقع انفجار على بعد بضعة أمتار من سيارته من طراز كرايزلر إمبريال سوداء اللون.

بعد ذلك مباشرة، وقعت السيارة وعربتا الحماية والمدرعات الثلاث تحت نيران غزيرة من الأسلحة الأوتوماتيكية. لم تقع أي إصابة. أعلنت جهة مجهولة تماماً، وبقيت كذلك حتى الساعة، أطلقت على نفسها اسم "جبهة تحرير لبنان من الغرباء"، مسؤوليتها عن العملية في اتصال هاتفي بوكالة أنباء رويتر. كانت الجرائد قد ذكرت أن الانفجار ناجم عن استعمال قذيفة إنيرغا[1]، غير أن المحققين كانوا قد استردوا الغلاف القاذف لصاروخ LAW مضاد للدروع.

تذكر بشير تماماً تسليم هذه الأسلحة. وكانت قد وصلت في الأيام الأخيرة من عام 1979، في الغسق، على متن زورق يرفع علم غانا، في خليج صغير قرب طبرجا. تحركت حفنة من المراقبين السوريين مسرعين إلى المكان، قرابة منتصف الليل، لمنع عملية تفريغ الشحنة، إذ كانوا لا يزالون في المنطقة المسيحية، يرعون فيها وقفاً للنار بين المسيحيين والفلسطينيين، وأرادوا احتجاز الشحنة. تصدت لهم عناصر الميليشيا المتفوقة عديداً، وأُخطر بشير بالأمر. أوشك الحادث أن يتحول إلى مواجهة. أمر قائد القوات كل الكنائس بقرع الأجراس. قلق السكان وحاروا للأمر، وجرياً على عادتهم تهافتوا على ترانزستوراتهم ليسمعوا الزعيم الشاب يشرح من استوديوهات صوت لبنان[2]: "... إنهم يمنعون عنا الإمدادات بالأسلحة بينما الفلسطينيون يستلمون منها كل يوم"؛ وأنهى كلمته بإطلاق نداء للمساعدة، فهرع مئات من السكان نحو الخليج الصغير لمنع السوريين من القيام بأي إجراء عسكري. وفي حالة الإرباك والمعمعة، أنزلت الأسلحة بعد ذلك ووزعت مناصفة بين حزب الوطنيين الأحرار وميليشيا الكتائب. احتوت بعض الصناديق، الصواريخ المضادة للدروع الشهيرة.

كان لقضية الصاروخ هذه وقعاً ولا أسوء على العلاقات الإسرائيلية الأميركية. قبيل الهجوم الفاشل ضد جون غونتر دين، كان المندوب الأميركي قد امتنع عن التصويت في جلسة لمجلس الأمن للأمم المتحدة، جرى فيها التصويت على قرار إدانة ضمّ مدينة القدس الى الدولة العبرية. فقد استفاد مناحيم بيغن بطبيعة الحال من الحملة الانتخابية الأميركية ليوجه انتقاداً عنيفاً لجيمي كارتر. من جانبهم، كان الأميركيون قد "سخطوا بالغ السخط" من افرائيم إفرون، السفير الإسرائيلي في واشنطن. في اليوم التالي للغارة الجوية التي شنها

(1) قنبلة يدوية (رمانة) تطلق بواسطة بندقية.
(2) أسسها حزب الكتائب عام 1958.

الطيران الإسرائيلي على جنوب لبنان، وبينما كان السفير نفسه مغادراً مقر وزارة الخارجية الأميركية - حيث قدم لتقديم طلب المساعدة السنوية لعام 1982 (حوالي 3 مليار دولار) -، اعترف أمام الصحافيين بكل بساطة "أن القوات الإسرائيلية استعملت أسلحة أميركية في الغارة وأنها تحتفظ بحقها في أن تستخدمها في المستقبل". بموجب بنود معاهدة الدفاع المشترك الإسرائيلية - الأميركية حظَّر على إسرائيل استعمالها إلا في حالة الدفاع. ردت وزارة الخارجية على الفور بالإعلان عن تشكيل لجنة تحقيق. يجدر القول إن صاروخاً مضاداً للدروع زودت به واشنطن إسرائيل، واستخدم في لبنان ضد سفير أميركي، لم يكن من شأنه أن يحسِّن الأمور. قادت التحقيقات إلى الكشف عن أن الاعتداء من تدبير إلياس حنّوش، قائد الأحرار، مستخدماً صاروخ LAW أعطي لحزب الوطنيين الأحرار.

وتعود الاتصالات الأولى بين الإسرائيليين والمسيحيين في لبنان إلى عام 1951. طلب حزب الكتائب آنذاك مساعدة مالية لحملته الانتخابية التشريعية، زاعماً أنه يضم 20 إلى 30000 عضو. سأل موشيه شاريت، وزير الخارجية الموساد حول الموضوع. جاءت التقارير تفيد بوضوح: "أن هذا الحزب يضم 5000 عضو، وليس لديه أي حظ في الفوز بأي مقعد". بالرغم من ذلك، وافق موشيه شاريت على منحهم مبلغاً متواضعاً وقدره 3000 دولار أميركي، اعترافاً لهم بجميل المساعدة التي كان بعض المسيحيين قد قدموها بصفة فردية ليهود سورية الذين أرادوا "الرحيل" إلى إسرائيل عندما تأسست الدولة العبرية. لم يفز حزب الكتائب بأي مقعد في انتخابات 15 أبريل - نيسان 1951 تلك. إلا أن مبادرة الوزير، بالرغم من طابعها الرمزي، لم تكن خالية من خلفية سياسية. كان لبنان آنذاك البلد العربي الوحيد الذي يتمتع بحدود حقيقية مع إسرائيل (كانت حدود الدولة العبرية الأخرى، خطوطاً لوقف إطلاق النار) وقد أولاه القادة الإسرائيليون اهتماماً خاصاً.

بعيد ثلاث سنوات، في 27 فبراير - شباط 1954، كتب رئيس الوزراء، دافيد بن غوريون يقول: "إن إنشاء دولة مسيحية [في لبنان] شيء طبيعي، وله جذور تاريخية وقد تدعمه قوة مهمة في العالم المسيحي، الكاثوليكي والبروتستانتي على حد سواء. [...] في الوقت العادي، يستحيل تحقيق ذلك تقريباً، بسبب غياب المبادرة والشجاعة لدى المسيحيين، قبل كل شيء. ولكن الأمور يمكن أن تتبدّل في حالات الإرباك، والاضطراب، والثورة أو الحرب الأهلية، فيحسب الضعيف نفسه بطلاً. [...] إنني أرى أن ذلك يشكل مهمتنا الأساسية حالياً، أو إحدى المهام الأساسية لسياستنا الخارجية في أقل تقدير"[1].

أخذت الفكرة تشق طريقها. وفي 16 مايو - أيار 1954، بعيد ثلاثة أشهر تقريباً، ويوماً

(1) مقتطف من يوميات موشيه شاريت، في صحيفة لو موند دبلوماتيك، ديسمبر - كانون الأول 1983.

بيوم، أثناء اجتماع لمسؤولي الدفاع والشؤون الخارجية، قدّر موشيه دايان، قائد الأركان الإسرائيلية "أنه يكفي لذلك إيجاد ضابط، حتى ولو كان نقيباً، نستطيع كسب ودّه، أو نستطيع شراءه لينصّب نفسه منقذاً للموارنة؛ عندئذ، سيدخل الجيش الإسرائيلي إلى لبنان، ليحتل الأرض الضرورية لإقامة حكم مسيحيّ حليف لإسرائيل. ستضم إسرائيل كل الأراضي الواقعة جنوب الليطاني، فتصبح الأمور على أحسن حال"[1]؛ وهذا ما حدث تماماً بعيد خمس عشرة سنة مع جيش لبنان الجنوبي بقيادة سعد حداد.

في عام 1956، قبيل أسابيع من حملة السويس، صرح دافيد بن غوريون لزميله الفرنسي: "سنفكك لبنان، ونخضعه، وسيكون دولة يمكن أن نوقع معها بعض المعاهدات".

يعود أول اتصال حقيقي بين الدولة العبرية والمسيحيين اللبنانيين، إلى الحرب الأهلية التي أشعلت بيروت في 1958. طلب رئيس الجمهورية آنذاك، كميل شمعون من جنرال في الجيش الإسرائيلي، اسمه اسحق رابين، قائد االجبهة الشمالية لإسرائيل، حمولة شاحنة من 500 بندقية هجومية وحصل عليها. وقد عزل شمعون، آنذاك، عقب مسعاه الاستمرار في رئاسة الجمهورية، ووضعت العلاقات مع تل أبيب على الرف.

استعادت هذه الصلة بعض الحيوية ابتداءً من سبتمبر – أيلول 1975، إثر هجوم على قريتين في الجليل، كريات شمونة ومعالوت، نفذه فدائي فلسطيني متسلل. فتوجه جورج عدوان، زعيم مجموعة التنظيم المسيحية القومية إلى سفارة إسرائيل في باريس، الكائنة في شارع رابليه، وطلب بعد التعريف عن نفسه، مقابلة "شخص مسؤول" فوجد نفسه بحضور دافيد كمحي الذي عرّف عن نفسه كأحد أفراد البعثة[2]. قال له جورج عدوان على الفور:

– نقاتل العدو نفسه: الفلسطينيين. زودونا ببعض الأسلحة!

بعيد أيام معدودة، توجه دافيد كمحي والمقدم بنيامين بن أليعازر إلى لبنان في مهمة غرضها الاتصال بالتنظيمات المسيحية. وصل كلاهما بالزي المدني مسلحين بمسدس من طراز سميث أند ويسن، على متن زورق "دبور"[3] إسرائيلي، رسا ليلاً في عرض البحر قبالة ساحل جونيه. كان بن أليعازر[4] معروفاً أكثر بلقبه العقيد فؤاد، ويقود الوحدة 300، المؤلفة

(1) م ن.
(2) كان دافيد كمحي أحد المسؤولين في الموساد، ومرّ في العاصمة الفرنسية وقتها.
(3) دبور بالعبرية كما بالعربية: زورق صغير سريع من صنع إسرائيلي مجهز في الجهة الأمامية والخلفية بمدفعين م ط من عيار 20 مم. إن زوارق البحرية الإسرائيلية مجهزة عموماً بصواريخ بحر – بحر – من طراز غبريال.
(4) كان وزيراً للإسكان بين يونيو – حزيران 1992 وشهر مايو – أيار 1996 في حكومة رابين وبعد ذلك في حكومة شيمون بيريز.

من "الأقليات المتحدرة من البلاد المحيطة"، والتابعة لجهاز الاستخبارات العسكرية. قابلهما داني شمعون وبشير الجميل على قارب "كريس – كرافت" وقاداهما إلى ميناء الكسليك السياحي، قرب جونيه، وقد التقيا، أثناء الساعات الإثنتي عشرة لإقامتهما في لبنان، بيار الجميّل ونجليه أمين وبشير؛ حاول بشير احتكار النقاشات في ما يتعلق بالحالة العسكرية ميدانياً، فألحّ دافيد كمحي[1] عندئذ، مبتسماً إنما حازماً: "أتمنى لو أن شقيقك أمين يتكلم أيضاً" تجهم وجه اللبناني الشاب وفهم رجل الموساد أن طلبه لم يرق لمحاوره إطلاقاً. فقد رأى الإسرائيليان أنه من الأهمية بمكان أن يجريا النقاش مع جميع القادة المسيحيين أياً كانوا. وللهدف نفسه، التقيا كميل شمعون ونجله داني. وعادا إلى إسرائيل تعتريهما مشاعر ملتبسة. بدا لهما بشير (الذي أصيب بدوار البحر أثناء ذهابه لملاقاتهما في عرض البحر) صبيانياً. أما أمين فقد بدا لهم شخصية بلا حماسة وغير جدير بالثقة. ولكن "في هذا البلد حيث كلمة سياسة مرادفة لفساد، ولنظام إقطاعي بال، كان بشير مع ذلك بسيطاً ومباشراً وصادقاً"، هذا ما كتبه دافيد كمحي[2]. فكانت زيارتهً الأولى هذه إلى لبنان نقطة الانطلاق للدعم الثابت للمسيحيين بصورة عامة ولبشير بشكل خاص، طيلة عشر سنوات تقريباً.

ويتحدر كمحي من عائلة على جانب من البحبوحة، وقادمة من أوروبا الشرقية، وقد درس في سويسرا، حيث تعلم الفرنسية، وفي بريطانيا حيث اكتسب لهجة انكليزية لم يتمكن التخلص منها أبداً. ذهب إلى فلسطين عام 1946 ودخل إلى الموساد عام 1953. وهو رقيق الوجه، مبتسماً، خفيف الشعر، ويتميز في كل الظروف بأناقة ولطف بريطانيّ الطابع حقاً. في 1967، وبعد احتلال الضفة الغربية مباشرة، طلب التسلل إلى العالم السياسي الفلسطيني ليحدد نُخبه وتياراته الفكرية الكبرى. وبعيد ثلاث سنوات، أصبح "الركيزة الأساس للموساد في أفريقيا"، حاملاً صفة دبلوماسية باسم دافيد شارون، وحيث كان يشبع حشرية الصحافيين بما لديه من "أسرار" عن الأنظمة الأفريقية.

وقد تبع الزيارة التي قام بها إلى لبنان برفقة بن أليعازر، لقاء سرّي لكميل شمعون وبيار الجميل مع اسحق رابين (رئيس الوزراء آنذاك) على متن زورق "دبور" في عرض البحر قبالة الساحل اللبناني، أواسط شهر سبتمبر – أيلول 1975. فقد جددوا الاتفاق المعقود عام 1958. كان رابين حاسماً في مسألة واحدة: ستزودهم إسرائيل بالأسلحة مجاناً وتدرب الميليشيات المسيحية، غير أنه لم يكن مطروحاً أن تتدخل إسرائيل مباشرة في النزاع

(1) دافيد كمحي إلى ألان مينارغ أكتوبر – تشرين الأول 1992.
(2) دافيد كمحي، **الخيار الأخير**، مكميلان، 1991، ص 133.

اللبناني. "سنساعدكم على أن تساعدوا أنفسكم". وأصبحت هذه العبارة لازمته السياسية في ما يتعلق بلبنان. كانت أولى شحنات الأسلحة، بالأساس، كناية عن عتاد وذخائر استولت عليها إسرائيل من الجيوش العربية أثناء حربي 1967 و1973. غير أن الكميات التي وصلت لم تكن كافية، وافتقدت إليها الميليشيات المسيحية افتقاداً فادحاً أثناء المعارك التي دارت في الأسواق، وسط البلد. في 11 مارس – آذار 1976، تأمل بشير من على شرفة مبنى سوكومكس، بشيء من القلق، مجموعة من الشباب جلست على الرصيف أمام المبنى ودلّ جوزيف أبي خليل إليهم بالأصبع:

– انظر إليهم! يرفضون القتال، وإنهم على حق، يفتقدون إلى الذخائر.

– ماذا لو حاولنا الاتصال بإسرائيل للحصول على ذلك؟

حدق بشير إليه مقطب الحاجبين. لا أحد يعلم أفضل منه أن بيار الجميّل، بالرغم من لقائه بكمحي وبن أليعازر، ومناقشته مع رابين، كان متحفظاً إلى أقصى حد في كل ما يتعلق بالإسرائيليين؛ وكان يفضل محاورة المسلمين اللبنانيين. فقد أجابه بحذر:

– لم لا، إن كان ذلك ممكناً!

وبعبارة أخرى: إذا سمح أبوه بمثل هذا المسعى. توجه أبو خليل، متحمساً على الفور، لمقابلة "بطريرك" حزب الكتائب؛ فكان الجواب، ما خشيه بشير، ألا وهو الرفض! وأمام إلحاح أبي خليل، وخشية من عواقب الانتقار إلى الذخائر، لان موقف بيار الجميل فوافق، إنما بشرط، مشدداً على أن تبقى الرحلة إلى إسرائيل سرية وإلا أدانها علانية. في 12 مارس – آذار 1976، ركب أبو خليل وسامي خويري (قائد الـ ب ج) وفؤاد روكز (القائد العسكري لكتائب بيروت) في زورق سريع بسيط واتجهوا جنوباً محاذين السواحل اللبنانية.

وكانت مهنة روكز الذي لقبه الشباب بـ "بيجار"، عميلاً بحرياً. في بداية المعارك عبر أزقة الأسواق، واجهت المجموعة التي يقودها قصفاً عنيفاً في عتمة الليل، ما دفعه إلى خلع أبواب إحدى المكتبات ليحتمي فيها. وبانتظار توقف القصف، كان قد أنهى استعراض الرفوف كلها، واستوقفه كتاب يروي سيرة الجنرال الفرنسي، فقال: "أعجبني هذا الكتاب سأحمله معي". وأمام نظرات رفاقه المستنكرة، رفع الهاتف وأيقظ صاحب المكتبة:

– يا سيد نوفل، معك على الخط فؤاد روكز، قائد الكتائب في منطقة بيروت. أنا الآن داخل مخزنك. وجدت كتاباً أثار إعجابي، سأحمله معي وأدفع لك ثمنه غداً صباحاً.

لم يكن صاحب المكتبة، الذي صعقه نبأ دخول مقاتلين إليها، يملك سوى الموافقة. بعيد رحيل المجموعة، وفي الليلة نفسها، نهبت المكتبة من محتوياتها عن بكرة أبيها. وطيلة سنوات، طالب المكتبي روكز بثمن جميع الكتب التي سرقت. لقد انتمى "بيجار"

إلى حزب الكتائب وانخرط في القتال كرد فعل على عملية سلب البضائع التي تعرض لها مرفأ بيروت.

اعترض زورق سريع قاذف صواريخ، يرفع علماً أزرق وأبيض مدموغاً بنجمة داود، الرجال اللبنانيين الثلاثة، حتى قبل دخولهم المياه الإقليمية الإسرائيلية. بعد إخضاعهم لتفتيش وتدقيق طويلين، اقتيدوا إلى حيفا يرافقهم الزورق الإسرائيلي عن مسافة قريبة جداً. طلب أبو خليل مقابلة وزير الدفاع شيمون بيريز. فاقتيدوا إلى تل أبيب واستضيفوا في شقة سكنية فخمة داخل مجمع كونتري كلوب السياحي، شمال المدينة. كانوا يجهلون أن مقر الموساد يقع على الجانب الآخر من الطريق السريعة، وأنه رسمياً مقر رئيس الوزراء الصيفي. قدم شيمون بيريز لزيارتهم وقال لهم:

– نحن هنا للاستماع إلى شكواكم.

فأجابه أبو خليل بالقول:

– جئنا ببساطة نسألك يا سيادة الوزير تزويدنا بالسلاح والذخائر؛ ثم أضاف: ليس لدينا ما نبادله معكم. سمه تسولاً إن شئت... نحن حقاً متسولون[1].

كانت المقابلة ودية. عاد اللبنانيون، صباح اليوم التالي من الطريق نفسها. بعيد بضعة أيام، لحقتهم قوارب محملة بالأسلحة والذخائر.

في بداية الحصار المسيحي لمخيم تل الزعتر الفلسطيني، عاد العقيد بنيامين بن أليعازر، الملقب بفؤاد، مراراً إلى لبنان، على رأس مجموعة من أربعة ضباط من جهاز آمان[2]، دائماً بالبحر، ليتفقد حاجاتهم. وفؤاد يهودي من أصل عراقي، مظهره مظهر شرقي حقاً، إلى درجة كان يبدو عليه وكأنه لبناني في شوارع بيروت. وهو النموذج الصافي للعسكري الذي يعيش بالقرب من رجاله، مبتعداً عن مظاهر الحياة الاجتماعية؛ وقد حظي في إسرائيل بالسمعة نفسها التي حظي بها مارسيل بيجار في فرنسا. طيلة أربعة أيام، عاين الإسرائيليون "الشباب" في المعركة، والتقوا "ضباطهم" وتابعوا بمناظيرهم مختلف مراحل الهجوم المسيحي ضد المخيّم المحصن. وكتبوا في تقاريرهم عن شرذمة الميليشيات وافتقارها إلى التدريب العسكري، غير أنهم ركزوا على مشاعر العداء المتأصلة فيهم ضد منظمة التحرير. لقد أوصى بنيامين بن أليعازر بزيادة جوهرية في إمدادهم بالأسلحة وبالمساعدة الفنية. عقب هذه الزيارة، قدم روفن مرحاف، مساعد كمحي في الموساد، تحت اسم روبير المستعار، إلى لبنان لتنظيم بعثة دائمة لدراسة تطور المعارك وسلوك الميليشيات عن كثب. وقد التحق به العقيد شاخان ملاّ الذي زود

(1) جوزيف أبوخليل، الموارنة في حرب لبنان، EDIFRA، 1992.

(2) "جناح الاستخبارات"، تابع للجيش الإسرائيلي، بمثابة المكتب الثاني.

وحدات القوات بالنصح والإرشادات. عقب سقوط تل الزعتر، جال على الجبهات لتحديد المواقع التي تحتاج إلى تعزيز، وكيفية إجراء ذلك وحمايتها بحقول الغام. أثناء حصار المخيم الفلسطيني، نظم الإسرائيليون جسراً بحرياً حقيقياً لمساعدة أعضاء الميليشيات. كان حجم هذا الإمداد من الاتساع بحيث استوجب تولي وزارة الدفاع وليس الموساد المسؤولية عنها. وقد احتفظ الموساد بعد ذلك، بإشراف دافيد كمحي وروفن مرحاف، إدارة كل ملف العلاقات مع المسيحيين اللبنانيين. وقد أمّن التنسيق مع الإدارات أو الهيئات الإسرائيلية المولجة بالتدريب العسكري وبالإمداد بالأسلحة والعتاد.

قاد الجنرال اسحق حوفي الموساد منذ عام 1974، وقد لقب في وسط مقربيه بـ "حاقة". ولد في اسرائيل عام 1927، وهو أول صبرة[1] يقود جهاز الاستخبارات والعمليات هذا. من قدماء البلماخ أثناء حرب الاستقلال، وكان حاكم منطقة إسرائيل الشمالية. فقاد بصفته هذه، في 1967، عملية احتلال جبل الشيخ ومرتفعات الجولان السورية. وهو مناصر متحمس للعلاقات مع من يسمّون "الملاحق" أو الأطراف" أي العلاقة مع المقهورين في البلدان العربية. وقد اعتبر حوفي المسيحيين في لبنان إحدى هذه الأقليات. وبدفع منه أصبح الموساد أبرز المدافعين عن تحالف كامل مع "الفلانغو"[2]. كما كان الإسرائيليون يسمونهم.

الجهاز الاستخباراتي الآخر، كان الآمان التابع لوزارة الدفاع. لم يكن يتمتع بالحماسة نفسها تجاه الأقلية المسيحية اللبنانية. "مكتب لبنان" (Desk Liban)[3] الخاص به، الملحق بقسم الإنتاج، وكان مكلفاً بتلقي المعلومات الواردة من هذا البلد، وتحليلها. ويوزع بانتظام على المقررين السياسيين خلاصات تؤكد على تجاوزات أعضاء الميليشيات المسيحيين وعدم كفاءة زعمائهم.

أعطى فوز الليكود في الانتخابات البرلمانية لشهر مايو - أيار 1977، اسحق حوفي حليفاً مهماً. فقد أثار رئيس الوزراء الجديد، مناحيم بيغن، بعد أيام من تنصيبه، مسألة التزام إسرائيل "التاريخي" بحماية المسيحيين من أي إبادة جماعية في لبنان. رغم أن الآمان استمر في إغراقه بتقارير حول مسؤولية الكتائب عن لولب العنف الذي عصف ببيروت، سمح مناحيم بيغن لحوفي بأن يوطد روابط الموساد ببشير الجميل. فقد بنى دافيد كمحي شيئاً فشيئاً أواصر صداقة مع الزعيم المسيحي الشاب. غير أنه عيّن الشخصية الثانية في الموساد

(1) يهودي مولود في إسرائيل. تعني حرفياً ثمرة "الصبّار".

(2) الكتائب.

(3) جهاز، قسم لبنان.

وتعاطى من بعد ذلك بملفات أخرى أبعدته عن لبنان. بالتالي فقد شارك دافيد كمحي، بفضل العاهل الشريف الحسن الثاني، في أول لقاء بين اسحق حوفي واللواء كمال حسن علي، رئيس أجهزة الاستخبارات المصرية في القصر الملكي في عفران، في الأطلس المغربي. وفي 17 سبتمبر - أيلول 1977 حضر أيضاً النقاشات بين موشيه دايان وحسن التهامي، وزير الخارجية الجديد ونائب رئيس الوزراء المصري، وهما اللذان وضعا أسس رحلة أنور السادات إلى القدس، وأسس مفاوضات السلام في كمب دافيد ومعاهدة السلام الإسرائيلية المصرية. وقد رافق البعثات الإسرائيلية التي حضرت إلى لبنان كلما تسنى له ذلك. والتقى في إسرائيل بالمقاتلين المسيحيين الذين تابعوا دورات عسكرية فيها. في هذا الوقت تأسس في الأشرفية أحد أطول أسرار الحرب اللبنانية ألا وهو المكتب 04.

في العام 1977، ومن أجل تسهيل اتصالات بشير بتل أبيب، زوّده الموساد بجهاز إرسال واستقبال SSB ياباني الصنع موصولاً بجهاز تلكس. وقد وضع الجهاز في إحدى الغرف الثلاث للشقة التي كان قد استأجرها جان ناضر، في الطبقة الأولى من المبنى الصغير الرمادي اللون الواقع خلف مركز كتائب الأشرفية تماماً. وقد وُصلت الشقة بخط هاتفي من الشبكة الداخلية للميليشيا رقمه 04. وبهذا الرقم كان على العارفين أن يذكروا هذا المركز للاتصال اللاسلكي. في بداية الحصار السوري للأشرفية، صيف العام 1978، تم نقل الجهاز على وجه السرعة عن طريق البحر إلى فيلاّ كبيرة صودرت في الكفور يملكها لوسيان دحداح، شقيق صهر سليمان فرنجية. كان الرئيس الأسبق قد شغلها كمركز إقامة في نهاية ولايته، حين أجبر على مغادرة قصر بعبدا بسبب القصف الذي تعرض له آنذاك. استقر المكتب 04 نهائياً في ما بعد بالسيوفي، في شقة كائنة في الطبقة نفسها لمكتب المحاماة الخاص ببشير الجميل، وهي السادسة من مبنى الإلكترولوكس الذي أوى مقر القوات اللبنانية في الأشهر الأولى من تشكيلها. وأصبح مركز اتصال احتياطياً، عندما أنشأ الموساد في العام 1981 هوائياً، بإمكاناته الخاصة، في مبنى السفارة السنغالية المهجور في أدونيس. واليوم جُمعت الشقة التي وجد فيها المكتب 04 وتلك التي استخدمها بشير كمكتب محاماة له، فصار مقر مؤسسة بشير الجميل.

بعيد عشرة أيام تماماً من اجتماع دير سيدة البير في صباح الثامن من أكتوبر - تشرين الأول 1980، وصل الرئيس السوري حافظ الأسد إلى موسكو لتوقيع معاهدة صداقة وتعاون، وهذا ما كان يرفضه دائماً، بالرغم من الاقتراحات السوفياتية. كان الرئيس السوري يجهل أن رحلته ستثير مباشرة تعزيزاً هاماً للعلاقات المباشرة بين إسرائيل والمسيحيين في لبنان. لقد أذن هذا التوقيع تنفيذ خطة الاستيلاء على السلطة، التي وضعها الرجال الستة

عشر أثناء الاجتماع الشهير ذاك. رغم أن الاتفاق عُرض من قبل ليونيد بريجنيف، رئيس مجلس السوفيات الأعلى، كمجرد معاهدة سلام، فإن التضمينات العسكرية في النص الموقع في موسكو أشّرت على عودة السوفيات بقوة إلى الشرق الأوسط؛ وقد أثارت تل أبيب وواشنطن بقوة، لاسيما أن بريجنيف قدم المعاهدة، أثناء تبادل الأنخاب في حفل العشاء الذي أعقب التوقيع، كـ "ضمانة ضد إسرائيل، ستسهم في كفاح العرب ضد مؤامرة كمب دافيد". فاستغل مناحيم بيغن الفرصة ليستجيب لطلبات "الفالانغو".

لقد مثل لبنان، في العلاقات الإسرائيلية السورية، موضوعاً يتألف من مجموعة من الأمور غير مصرح عنها. ثمة مجموعة كاملة من الترتيبات الضمنية جرى اتخاذها بين البلدين منذ أن غزت سورية لبنان عام 1976. كان المبدأ بسيطاً: هناك بعض الحدود ينبغي عدم تخطيها من قبل الطرفين. وقد نجحت إسرائيل، ليس في فرض قواعد اللعبة في لبنان فحسب، إنما أيضاً بفرضها على سوريا. لذلك، لم تكن الأجواء اللبنانية مخترقة إلا من قبل الطائرات الإسرائيلية. ولم تتخطَّ السفن الحربية السورية أبداً جنوب طرابلس. وتوقيع الاتفاق في موسكو قد عزز إلى حد كبير موقع دمشق. من أجل التصدي لهذا التقدم فقد قدرت إسرائيل أن الوقت حان من أجل تثبيت مواقعها بصورة أعمق في لبنان.

ومباشرة بعد زيارة حافظ الأسد لموسكو، نظم الموساد زيارة لوفد "عسكري" من القوات اللبنانية إلى إسرائيل. وعاد الوفد ولديه القناعة بأن ثمة تغيير قد حصل في موقف المسؤولين الإسرائيليين من المقاومة اللبنانية. فقد عبروا صراحة عن رغبتهم في التعامل مع القوات اللبنانية تعامل الـ "بلد الصديق"، حتى أنهم أثاروا، بشكل متكرر، أمام قادة الميليشيات المسيحية الذين قابلوهم، رغبتهم في استكمال خطة عسكرية دفاعية. أثناء استماع بشير إلى تقريرهم، استطاع تمييز النداء الذي وجهوه إليه، فطلب من الموساد أن ينظم زيارة لمجموعة "سياسة" من ميليشياه، بأسرع وقت ممكن، إلى تل أبيب. فمنح كل عضو في المجموعة، اسماً رمزياً احتفظوا به فيما بعد في الاتصالات اللاسلكية. اسم الرمز لجوزيف أبي خليل هو ألبير، وزاهي بستاني، مارلون، وسليم الجاهل احتفظ باسمه العسكري ميشال سان أندريه، وأنطوان نجم نبتون، وأسعد شفتري، الرجل الثاني في جهاز الأمن، غي. في 13 أكتوبر - تشرين الأول 1980، عند الساعة الثانية والنصف ظهراً، صعدوا، في ميناء الكسليك السياحي، على متن الزورق السريع الوحيد التابع للجمارك اللبنانية الذي "صادرته" القوات اللبنانية. وصلوا إلى حيفا حوالى الساعة الثامنة مساء بعد فترة انتظار دامت نصف ساعة في المرسى تحت مراقبة النظرات المتوعدة لمدفعين منصوبين على متن زورق سريع إسرائيلي.

في القدس، حفل ذلك اليوم بمناقشة عاصفة في الكنيست حول جدوى ضم الجولان السوري المحتل عام 1967. فكانت المجموعات السياسية منقسمة. ومارس البرلمانيون الدينيون ضغوطاً هائلة، متأرجحين من مقعد إلى مقعد، للحصول على عدد الأصوات الضرورية لطرح مشروع قانون يجيز الضم. وثمة عدد كبير من نواب الليكود قد عارضوه، حتى أن رئيس الكتلة البرلمانية للائتلاف اليميني صرخ من على المنبر:

- في تقديري، إن هذا الضم خطأ سياسي سيتسبب لإسرائيل بالضرر الكبير.

منذ وصولهم إلى تل أبيب، اقتيد اللبنانيون الخمسة إلى مناحيم نافوت، المسؤول في الموساد عن "مكتب لبنان"، في منزله الكائن بالضاحية الشمالية. وهو شخصية معروفة من قادة الميليشيا المسيحية باسمه المستعار "مندي". وقد دعاهم هذا الأخير إلى عشاء بحضور بعض المحللين من جهازه. أثناء اللقاء، دارت مناقشة عرضية حول خطة القوات اللبنانية منذ عملية ألتالينا. عرض جوزيف أبو خليل الملامح العريضة لمخطط الاستيلاء على السلطة السياسية، الذي نوقش في خلوة دير سيدة البير. فقد استوعب مناحيم نافوت وزملاؤه كلماته حرفياً. فشجع هذا الأمر الوفد على تغيير تكتيكه؛ وبينما قدم الوفد إلى إسرائيل لمجرد التأكيد على ما ورد من كلام أمام "العسكريين"، قرر أن يعرض بالتفصيل خطته السياسية، وخصوصاً إرادته في الاستيلاء على السلطة.

وصبيحة اليوم التالي، التقى اللبنانيون الخمسة للمرة الأولى مدير الموساد. كان هذا الأخير، على غرار مناحيم نافوت، ومثله في ذلك مثل كبار مسؤولي هذا الجهاز على كل حال، يذيّل برقياته باسم يوليوس، قدم نفسه باسمه الحقيقي اسحق حوفي. لم يدم الاجتماع الذي كان متوقعاً معه، بداية، وقتاً طويلاً لإشباع فضوله. وبعد غداء سريع خضع المسيحيون الخمسة لـ "استجواب" حقيقي. اضطر جوزيف أبو خليل معه للإدلاء ببعض التفاصيل، وتقديم بعض التوضيحات. فكانت هذه هي المرة الأولى التي يقابل فيها الإسرائيليون لبنانيين يعرضون عليهم إستراتيجية واضحة. وافق اسحق حوفي على خطتهم وحاول أن يعرف كيف ينظر الوفد إلى المساعدات والدعم الذي يمكن أن تقدمه تل أبيب لتمكين هذه الخطة من بلوغ أهدافها. في نهاية المقابلة، اقترح عليهم تمديد إقامتهم في إسرائيل مدة 24 ساعة، لمقابلة "شخصية" من وزارة الخارجية. فقابلوا الوزير اسحق شامير. استقبلهم، في مكتبه لتناول فنجان قهوة، وقد أحاط به رئيس قسم الشرق الأوسط، دافيد سلطان، ومستشاره اسحق ليفانون، ودافيد كمحي. وعندما رأى اللبنانيون دافيد كمحي، أدركوا أنه غادر الموساد. فقد قدم استقالته عام 1980، ليتولى منصب مدير عام الشؤون الخارجية، بعد أن عاكسه اسحق حوفي في حلمه أن يصبح يوماً ما على رأس جهاز

الاستخبارات. عرض جوزيف أبو خليل مشروع القوات اللبنانية بطلاقة داعية معمداني، وختم عرضه مؤكداً بقوة:

– في الحالة التي وجد فيها لبنان، كانت الطريقة الوحيدة لطرد الفلسطينيين منه هي تثبيت نظام قوي يمنح المسيحيين والآخرين الأمن والحرية في وطنهم. ليس أمام المقاومة اللبنانية من خيار سوى الاستيلاء على السلطة. فإذا تعذر هذا الاستيلاء بالوسائل الديمقراطية التقليدية، ينبغي أن يتخذ شكل عمل سياسي عسكري. وفي حال تعذر قيام تحالف مع الدروز والشيعة ستبقى حركتنا حركة مسيحية. ومن شأن ذلك أن يزيد من خطر الفشل. وحتى في تلك الحالة، فإن النتيجة ستكون قيام دولة مسيحية قد لا توافق عليها الولايات المتحدة الأميركية وبعض البلدان الأخرى في العالم. سأل اسحق شامير الذي كان يستمع بصمت، ورأسه مائل قليلاً إلى جانب، جرياً على عادته، بعض الأسئلة حول إمكانيات أن يرى انضمام وليد جنبلاط إلى المقاومة اللبنانية، وحول الدور الذي يمكن لإسرائيل أن تلعبه لتسهيل الوصول إلى هذا التقارب. ونصح محاوريه تجنب أي عمل عسكري يستتبع رداً سورياً سريعاً، واقترح عليهم الاستفادة من الهدوء الذي خيم على الوضع في لبنان لتعزيز قدراتهم العسكرية ومواقعهم السياسية. وقال لهم:

– تستطيع إسرائيل أن تساعدكم في هذين الميدانين. عليكم أن تقنعوا الأميركيين أيضاً بأن أهدافكم بناءة.

ألح وزير الخارجية طويلاً على الحاجة المطلقة لبذل كل الجهود الممكنة لدى السفارة الأميركية في لبنان لتغيير الصورة التي كونتها واشنطن عن بشير الجميل والقوات اللبنانية. التحقيقات المتلفزة والروايات عن المعارك في الأسواق، ووسط بيروت، والاستيلاء على مخيمي الكرنتينا وتل الزعتر، ومقتل طوني فرنجية، وعملية ألتالينا الأخيرة ضد حزب الوطنيين الأحرار، قد أقنعت القادة الأميركيين بأن (بشير) ليس سوى مارق بلا روادع ورئيس عصابة وإرهابي. وأوحى لهم اسحق شامير بأن:

– ثمة حاجة لإقناع الأميركيين بأنكم عامل استقرار في لبنان والشرق الأوسط. أعدكم ببذل كل ما في وسعي لمساعدتكم في هذا الاتجاه.

في معرض الحديث عن سوريا، وضح الوزير بعد ذلك، للبنانيين الخمسة، بأنه يفضل أن يدوم نظام حافظ الأسد العلوي، والمعزول في العالم العربي والضعيف إذن على الصعيد الداخلي، والعاجز حسب تقديره عن القيام بأي عمل عدواني ضد إسرائيل. من المحتمل جداً أن يكون خلفه سنياً، وبالتالي صلباً، ومتطرفاً، وحليفاً للعراق ومدعوماً عربياً، وكل ذلك من العوامل التي تشكل خطر اندلاع نزاع جديد. وأكد لهم شامير:

– لا تخشى إسرائيل الحرب، إنما تفضل أن تتفاداها.

– بماذا توصينا أن نفعل على الفور؟ هذا ما سأله جوزيف أبو خليل.

– الاستمرار في عملكم. عندما ألتقي بكم، أشعر بأنني ألتقي بأصدقاء لي. احرصوا على أن يكون لبنان قوياً ومستقلاً وليبرالياً.

عاد اللبنانيون عن طريق البحر في اليوم ذاته، تغمرهم البهجة والنشوة. وكانت نتائج مهمتهم قد فاقت أكثر آمالهم جنوناً. إذ إن إسرائيل وافقت ليس على مشاريعهم فحسب، إنما وعدتهم، فضلاً عن ذلك، بأن تساعدهم. طلب بشير أن تروى له مجريات كل المباحثات مراراً وتكراراً، بالتفصيل، وقرر بعد ذلك أن يضرب الحديد وهو حام. اقترح على الموساد أن ينظم زيارة لوفد إسرائيلي رفيع المستوى إلى لبنان. أفادت تل أبيب على وجه السرعة بأن الجنرال رفائيل إيتان، رئيس هيئة أركان الجيش الإسرائيلي، سيقوم بهذه الزيارة في 17 ديسمبر – كانون الأول 1980. اقتصرت المعرفة بالأمر على حفنة صغيرة من الخلّص. عشية ذلك التاريخ، توجه أنطوان نجم إلى مكتب المقدم ميشال عون واقترح عليه أن يدعى في الوقت نفسه النقيب فؤاد أشقر لتناول القهوة. كان هذا الضابط الشخص المسؤول عن المكتب الثاني في منطقة الزوق، حيث سيصل الإسرائيليون. أخطرهم أنطوان نجم، بنبرة محايدة، عن وصول "شخصية" إسرائيلية دون أن يعطي تفاصيل إضافية. وقال لهم:

– يريد بشير أن يعلم جوني عبدو بالأمر أيضاً.

– لا أنصحك بذلك، إنه غير جدير بالثقة، هذا ما قاله ميشال عون معترضاً.

لئن كان رئيس المكتب الثاني لا يكنّ لميشال عون أي محبة، فقد بادله هذا الأخير حقاً مشاعر مماثلة.

أقلعت المروحية التابعة لسرب السمتيات الأولى في القوات الجوية الإسرائيلية، المكلفة بالمهمات الحكومية، وهي من طراز سيكورسكي CH-53، وكانت أنوارها مطفأة بالكامل، محلقة على ارتفاع منخفض جداً على شفير الأمواج، بعيداً عن الشواطئ اللبنانية، متجهة شمالاً، وعندما رأى الطيّار، المجهز بخوذة كاشفة للرؤية الليلية، الوماضتين الحمراوين المؤشرتين على المدخنتين العاليتين لمعمل الزوق الحراري لتوليد الطاقة الكهربائية، انحرفت المروحية الثقيلة شرقاً تماماً. وبعيد بضعة دقائق، حطت في المنطقة مثيرة لدى هبوطها سحابة من الغبار فوق مدرج الهبوط الذي كانت القوات اللبنانية قد أعدته تبعاً لإرشادات عملاء الموساد، بين المبنى المركزي والبحر. كانت الساعة الثالثة فجراً، عندما وطئت قدما رفائيل إيتان أرض المكان، يتبعه الجنرال أهارون ياريف والعقيد شاخان

ملاّ الذي راقب القوات اللبنانية أثناء حصار تل الزعتر، وروفن مرحاف، ضابط الموساد الذي عرفته القوات تحت اسم مستعار روبير، عندما كان يزور لبنان برفقة دافيد كمحي. كانوا جميعاً بلباسهم المدني. أقلعت المروحية من جديد على الفور. عندما سمع أحد ضباط الجيش اللبناني، القاطن بالقرب من المكان، هدير محركات المروحية اتصل هاتفياً بفؤاد الأشقر:

– هبطت مروحية هليكوبتر لتوها في الزوق.

– يبدو أنك حلمت، إنها سيارة على الأرجح، هذا ما أجاب النقيب من المكتب الثاني.

لم يكن اختيار رفائيل إيتان للقيام بهذه الرحلة مجرد صدفة. فقد كان معروفاً فضلاً عن وظيفته، بأنه الضابط الأكثر حيازة على أوسمة والأكثر شعبية في الجيش الإسرائيلي. وعرف أيضاً بنفوره من العرب عموماً ومن الفلسطينيين بشكل خاص. وقد استمد شهرته من قيادته للفرقة 890 للمظليين، أثناء معركة ممر ميتلة في أكتوبر – تشرين الأول 1956. قتلت هذه الوحدة في تلك المعارك، 35 أسيراً مصرياً. وبعيد أسبوعين، شرح للمحققين العسكريين قائلاً: "إن الجيش المصري كان سيجدنا ويصفينا، إنه أمر يغضب[1]". لم تكن تلك هي المرة الأولى التي يتوغل فيها رفول، كما كان يلقبه الجنود الإسرائيليون، داخل الأراضي اللبنانية. لاثنتي عشرة سنة خلت تقريباً، يوماً بيوم، في 28 ديسمبر – كانون الأول 1968، قاد مجموعة كوماندوس من الوحدة 269، في عملية "هبة"، وهي هجوم بالطوافات على مطار بيروت حوالي الساعة التاسعة مساءً. فقد دمر إيتان ورجاله 13 طائرة مدنية تابعة لشركة طيران الشرق الأوسط وشركات طيران عربية أخرى. وكانت تلك الغارة الإسرائيلية هي الغارة الأولى، انتقاماً من الفلسطينيين. وقد تمت بعيد 48 ساعة من عملية فدائية في مطار أثينا نفذها فدائيون قدموا من لبنان. بينما كان رجاله يلغمون الطائرات جلس رفول في مقصف المطار وطلب فنجاناً من الشاي دفع ثمنه بقطعة 10 ليرات إسرائيلية. أثارت هذه العملية الانتقامية موجة عارمة من الإدانة في الرأي الدولي. أمر الجنرال ديغول في اليوم التالي بفرض حظر كامل على كل إمداد بالعتاد العسكري الفرنسي لإسرائيل.

ما إن أقلعت الحوامة، حتى أدى حارس شرف من القوات، ببذلته التامة، التحية طبقاً لأعرق التقاليد الرسمية بين الدول. وقد رفع العلم اللبناني، والإسرائيلي أيضاً، تحت أضواء المصابيح الكاشفة. كانت تلك المرة الأولى التي ترفرف فيها نجمة داود في سماء لبنان. مع اقتراب الليل من نهايته، وزعت بعض مكبرات الصوت النشيد العبري (هاتيكفا)،

(1) اكتشافات موتي غولاني، بحاثة في جامعة حيفا، أكتوبر – تشرين الثاني 1995.

ونشيد (كلنا للوطن) نشيد بلاد الأرز. بدا على وجه الجنرال الإسرائيلي المنحوت شدة تأثره. ثمة صداقة قد ولدت. وبانتظار الشروق، اقتيد الزوار إلى ثكنة أدونيس، مقر وحدة النخبة للقوات اللبنانية التي يقودها إيلي وزّان، حيث كانت تنتظرهم وجبة فطور عامرة. أكد رفول لبشير وهو ممسك بفنجان الشاي أن زيارته رسمية وأنها إشارة لولادة "علاقة دولة إلى دولة". وقد أفاد أن العمليات ضد الفلسطينيين في لبنان ستستمر حتى إنهاكهم وتحطيم قدراتهم العسكرية". وشرح للبنانيين أن الفلسطينيين في الأراضي المحتلة غير مسموح لهم الخروج من منازلهم بعد الساعة العاشرة مساءً، والتنقل بالسيارة.

تفقد رفول، يرافقه المسؤولون الرئيسيون في القوات اللبنانية، مرتدياً سروالاً أسود وكنزة تزلج، ومعتمراً طاقية من الصوف الأحمر، المواقع المسيحية واستعرض الإسرائيليون، مستعينين بمناظير وخرائط، المواقع المتقدمة التي يعرفها المقدم شاخان ملاّ حق المعرفة لكونه درسها في العام 1977. صعدوا إلى أسطح البنايات المشرفة على خطوط التماس، وجالوا في أزقة وسط المدينة. وعاينوا مواقع السوريين والفلسطينيين في عيون السيمان على جبل صنين، وفي المناطق الواقعة شمال المنطقة المسيحية. لقد فوجئ رفائيل إيتان بسرعة تطور تنظيم الميليشيا وبناها العسكرية. فقد احتفظ في ذاكرته بصورة المقاتلين المسيحيين في عام 1975-1976 كما عرفهم فيها عندما كان قائد الجبهة الشمالية للدولة العبرية أو أثناء تدريبهم في المعسكرات داخل إسرائيل. أثناء العشاء، هنأ رئيس هيئة أركان الجيش الإسرائيلي بشير، ونصحه بتكثيف تدريب رجاله. ووعده بمساعدة عسكرية لإتمام تجهيز وحدات القوات اللبنانية، وتعهد بتسليمهم في أقرب وقت ممكن 36 دبابة من طراز T54 السوفياتية الصنع، كان الجيش الإسرائيلي قد استولى عليها من الجيوش العربية أثناء الحروب المختلفة ضد إسرائيل.

– كان جزء منها بمقابل، والبقية مجانية، هذا ما وضّحه تاركاً أمر تحديد الجانب المالي للمفاوضات اللاحقة.

أثناء مرافقته إلى مطار الحوامات المستحدث سريعاً في الزوق، اقترح بشير الذي كان دائماً مستحوذاً بصورته في الولايات المتحدة الأميركية، على رفول أن يثير ما كان قد رآه مع رئيس هيئة الأركان الأميركية الذي كان مفترضاً أن يزوره في تل أبيب. هبطت الحوامة CH-53 حوالي الساعة الحادية عشرة مساء لتعود مباشرة متجهة نحو عرض البحر. لدى عودته إلى منزله، اتصل إيتان هاتفياً بأحد الضباط الذين اقترحوا إقامة علاقات وثيقة مع المسيحيين اللبنانيين، واعترف له قائلاً:

– كنت على حق، بدؤوا يماثلون جيشاً.

في اليوم التالي، في 18 ديسمبر – كانون الأول 1980، عرض الزعماء الإسرائيليون كافة، ابتسامات متوهجة. كان الجنرال السابق ألكسندر هيغ قد عين وزيراً للخارجية. وهو معروف لتشدده، فقد أكد في 1979، على "الأهمية الإستراتيجية لإسرائيل على الجانب الجنوبي من منظمة حلف شمال الأطلسي في مواجهة الاتحاد السوفياتي". كانت التقديرات تقول في أروقة وزارتي الدفاع والخارجية الإسرائيليتين، أنه مع وجود ريتشارد ألن، رجل من الجناح اليميني للحزب الجمهوري، في منصب مستشار الرئيس الأميركي لشؤون الأمن القومي، وألكسندر هيغ في وزارة الخارجية، وريغان في الرئاسة، لا يمكن إلا أن تكون السياسة الأميركية مؤاتية للدولة العبرية.

6

المحور الدرزي-المسيحي الأسطوري

في أواخر ربيع عام 1980، قبل بضعة أسابيع من عملية "ألتالينا"، وبسعي حثيث
للتوصل إلى مبادرة تفسح المجال أمام تحريك الوضع السياسي المصاب بجمود كلي، في
هذه الظروف فكّر إلياس سركيس بتقارب درزي مسيحي. وبعد تحرٍّ سرّي، تبين له أن الفكرة
لم تكن مرفوضة من قبل شخصيات كسليمان فرنجية ووليد جنبلاط. وكلف سركيس جوني
عبدو باستمزاج رأي بشير. وتعجب عبدو عندما تبين له عدم اعتراض قائد القوات اللبنانية
على هذا الاتجاه. بل بالعكس. في الخامس من تموز 1980، أعطى بشير الضوء الأخضر
لاتصال مباشر. فكان أن زار زاهي البستاني، وهو أصلاً من دير القمر – المدينة المسيحية في
الجبل – وليد جنبلاط وتناول الغذاء على مائدته، في المختارة حيث للأمراء الدروز من آل
جنبلاط قصرهم منذ القرن السابع عشر. قصر المختارة نموذج كلاسيكي بديع الشكل
لمسكن النبلاء التقليدي المعمم بالقرميد الأحمر. عش نسر بكل معنى الكلمة. بني فوق
القرية على كتف أرضٍ في وادٍ أخضر. دار النقاش بين البستاني وجنبلاط طيلة أربع ساعات
حول موضوع المحورِ الدرزيّ – المسيحي. بدا في هذا اللقاء أن الزعيم الدرزي كان متقبلاً
للفكرة. ولكن عملية ألتالينا، التي حصلت في السابع من تموز، أدّت إلى نفي داني
شمعون، صديق رئيس الحزب التقدمي الاشتراكي الذي شجبها بشدة بعد ثلاثة أيام، وإلى
توقف الحوار الذي ابتدأه زاهي البستاني عند هذا الحد.

يعود نشوء الطائفة الدرزية إلى أوائل القرن الحادي عشر بتأثير من الخليفة الفاطمي
الحكيم. فقد ولدت هذه الطائفة من انقسام داخل الطائفة الشيعية، والدروز طائفة تتميز
بالباطنية، تقتصر فيها معرفة العقائد على عدد ضئيل من المتمرسين يدعون "العقال".
وهي تتميز عن فروع الإسلام التقليدية، بمعتقداتها كما في ممارساتها الإيمانية (التقمص
مثلاً أو قلة المظاهر الخارجية بل صلوات وتأملات). زد على ذلك أنه بالتقليد الدرزي
يمنع تعدد الزوجات. في لبنان ومنذ حكم الأمير منصور شهاب 1763 – 1770، أنقسم
الدروز إلى حزبين: الجنبلاطيون وهم أنصار آل جنبلاط، واليزبكيون وهم أنصار آل

يزبك. وابتداء من القرن السابع عشر سيطر آل جنبلاط في جبال الشوف ومنحهم الباب العالي لقب "شيخ".

ويوم اغتيال كمال جنبلاط في 17 مارس - آذار من عام 1977، وضع شيخ العقل الدرزي أبو شقرا على كتفي وليد عباءة والده السوداء، وذلك قبل أن يدفن جثمان المرحوم. بهذا الرمز التقليدي والإقطاعي العائد إلى القرن الثامن عشر، أراد شيخ العقل نقل مسؤولية الطائفة الدرزية على عاتقه، وسلمه جميع السلطات السياسية التي كانت لوالده. وبهذا أصبح وليد جنبلاط رئيس الحزب التقدمي الاشتراكي ورئيس الحركة الوطنية التي كانت تضم جميع الأحزاب والتنظيمات اليسارية اللبنانية[1]، ولم يكن وليد قد بلغ الثلاثين من عمره بعد. كانت طفولة وليد، طفولة الولد الذي لم يكن لوالده الوقت للاعتناء به كونه كان مأخوذاً بما يقوم به. ورغم كونه الولد الوحيد لعائلة كبيرة وثرية وقادرة، كان قد ربّي على الشدة. وفي بلد يعبِّر جلياً عن الموقع الاجتماعي، كان المال الموضوع بتصرف وليد لا يتعدى ما يحتاج إليه للذهاب والإياب من الجامعة، بينما كان الآخرون - دون أن يكون لهم "موقعه" - لهم سيارتهم أو سائقهم. فكانت ردة فعله أنه يتذوق التحديات والانفعالات اللاذعة من صلب نمط حياته. كانت علاقاته مع والده باردة للغاية ولم يكن محضراً إطلاقاً عندما ورث أعباء العائلة والطائفة والسياسة.

مخلع المشية، طويل القامة، كله ذراعين وساقين، ودائماً بمنتهى الرشاقة بالنسبة لزيه، مقلعاً عن اللباس الكلاسيكي، البذلة مع ربطة العنق، مفضلاً على ذلك الجينز و"البلوزون" الأسود، أجلح الرأس قبل الآوان، واليدان طويلتان ورقيقتان، والعينان جاحظتان بعض الشيء، والنظر متحرك دافعاً البعض أن ينعتوه بالمتهرب، هذا ويتكلم وليد جنبلاط بطلاقة كلية باللغة العربية، والفرنسية، والإنكليزية والإيطالية. كان وليد مغرماً بالسيارات ومحباً لمجموعات السلاح، كما كان يعشق التاريخ. ومنذ حداثته كانت تزعجه اللغة السياسية العربية، الثقيلة والعقيمة في كثير من الأحيان، فأخذ الاتجاه المعاكس متبنياً اللغة المباشرة كي يكون "صحيحاً". ولكن التغيير المفاجئ في المواقف كان يحيّر العديد من أصدقائه، حتى المقربين منه.

يحمل وليد جنبلاط أفكاراً يمينية ناتجة عن التقليد الإقطاعي علماً بأنه عضو بالاشتراكية الدولية. وليد جنبلاط على غرار والده أعلن عن موقفه المناهض لميثاق 1943، إذ كان يعتبره مسؤولاً عن تهميش طائفته. وقال ملاحظاً: "كوني درزياً، وأولادي كذلك حتماً، لا يمكن لنا

(1) الحركة الوطنية الموجودة منذ العام 1964، ضمت بعد أن أعيد تنظيمها منذ 22 يوليو - تموز 1976، 15 منظمة وحزباً أو مجموعة سياسية.

أن نصل إلى سدة رئاسة الجمهورية، بينما بإمكان أي ماروني، حتى التافه بينهم، أن يصل إلى الرئاسة، فقط لأنه ماروني"[1]. ومن جراء هذا الشعور بالإجحاف كان وليد جنبلاط معادياً لكل ما يمت بصلة إلى المارونية السياسية. وبالتالي في أكتوبر - تشرين الأول 1980 تعجب جوني عبدو عندما قبل وليد جنبلاط دون أي تردد الاقتراح الذي حمله إليه، المتعلق بلقاء بشير الجميّل. وبهذا كان قائد القوات اللبنانية يحاول أن يبعث فكرة المحور الدرزي - المسيحي.

وقد عرض عبدو الفكرة على إلياس سركيس فاستهوته وقرر أن يسهل مهمة قائد القوات منتدباً رئيس المكتب الثاني جوني عبدو كي يناقش وليد جنبلاط بذلك. وبما أنه كان يريد أن يحيط هذه المفاوضات بمنتهى السرية، فقد نظم في مقره باليرزة لقاءً بين جنبلاط وجوزيف أبو خليل في الرابع من سبتمبر - تشرين الثاني، عشية الانتخابات الرئاسية الأميركية.

تجالس الجميع في كراسٍ مريحة على الشرفة الزجاجية المطلة على بيروت المشعة بأنوارها وقدم عبدو أبو خليل إلى جنبلاط قائلاً له إنه موفد من قبل بشير الجميل. وأفاد من الظرف كي يذكر كلا الرجلين بأن إلياس سركيس يتمنى كثيراً نجاح هذا التقارب بين الطائفتين ويود أن يكون عرّاباً لهذا التقارب، واستطرد عبدو قائلاً:

- يعتبر الرئيس أن بشير الجميّل ووليد جنبلاط هما ركني لبنان وأن تعاونهما من شأنه خلق دينامية جديدة. إن رئيس الدولة موافق مسبقاً على كل حل تتوافقان عليه[2].

وطأطأ وليد جنبلاط برأسه موافقاً ولكنه قطب حاجبيه باحتراس وطرح سؤالاً على جوزيف أبو خليل:

- ما هي الضمانات التي تقدمونها لي، على أي قوة تتكلون: إسرائيل، أم الولايات المتحدة، أم الغرب، أم سورية؟

وسكت بضع ثوان مضيفاً بحذر:

- إن سورية تناصركم أكثر مما تناصرنا. في العام 1978 أوقف السوريون بشير الجميّل على حاجز ثم أفرجوا عنه، ولكنهم قبل سنة من ذلك قتلوا والدي.

- ليس لدينا من يناصرنا، وعلينا الاتكال على أنفسنا، ونريد أن نتحالف معكم لنتساعد على تحسين قوانا. نحن نعتبر أن هذا التحالف طبيعي.

- طبعاً! ولكن الآن فقط تستفيقون؟ في العام 1943، فرطوا بنا بغية أن تتحالفوا مع السنة.

وهنا تدخل عبدو مشيراً إلى أن ما يسعى إليه الآن هو تحالف نوعيّ وليس تحالفاً كمياً.

(1) وليد جنبلاط لألان مينارغ، سبتمبر - أيلول 1982.
(2) كريم بقردوني، السلام المفقود، م س، ص 221.

- نودّ التوصل إلى نتائج دستورية، هذا ما أوضحه أبو خليل.

ثم اقترح أن ينظم سريعاً لقاء بين بشير ووليد بك، فقبل هذا الأخير بشرط أن يكون هذا اللقاء لا في لبنان ولا في فرنسا، مشيراً بأنه:

- لا يمكن أن يبقى شيئاً سرياً، لا هنا ولا هناك.

هنا أكد رئيس المكتب الثاني أنه يضمن سرية هذه اللقاءات مقترحاً منزله كمكان لهذه الاجتماعات، وقرر الطرفان متابعة النقاشات بين موفدي بشير وجنبلاط في الفترة الأولى. وبعد هذا اللقاء تابع الرجال الثلاثة على شاشة التلفزيون نتائج الانتخابات في الولايات المتحدة والتي كانت تشير إلى فوز الجمهوري رونالد ريغن بوضوح على الرئيس الديمقراطي جيمي كارتر.

بعد هذا أطلع أبو خليل بشير الجميّل على خيبة أمله بما يتعلق بوليد جنبلاط: "الرجل الذي قابلته عادي للغاية، ولا يعطي الانطباع بأنه واثق من نفسه. إنه متحفظ ومتوجس. كنت أعتقده أكثر صلابة. إن منطقه مختلف عن منطقنا، وهو وحلفاؤه يعتقدون بأننا نريد صهينة لبنان، وهم يظنوننا أقوى مما نحن عليه وبالتالي أعتقد أنهم يهابوننا. لذا أرى أن وضعنا جيد لإنجاح هذه المفاوضات".

لم يكن مسؤولو القوات السياسيون يشاطرونه هذا الرأي على الإطلاق؛ فالبعض، من أمثال أنطوان نجم، كانوا مقتنعين بأن وليد جنبلاط أكثر دهاءً مما يبدو عليه، والمفاوضات معه يصعب أن تنجح. ولكنهم قبلوا جميعاً كي يبرهنوا للرئيس إلياس سركيس أنهم يقومون بكل شيء كي يقتربوا من الدروز. لم يكن بوسع القوات تحمّل مسؤولية الإخفاق في هذا التقارب، وكان مسؤولوها على استعداد للوصول إلى أبعد ما يمكن، كي يؤكدوا ما يفكره الكثيرون بينهم ألا وهو "أن وليد جنبلاط هو في يد السوريين منذ مقتل والده".

وبعد مضي ما يقارب الشهر، في 28 نوفمبر تحديداً، وبنيما كانت وحدات القوات اللبنانية تنهي وجود آخر حصن لإلياس حنوش في عين الرمانة، التقت الوفود الدرزية والمسيحية، عصراً، في منزل جوني عبدو. كانت بيروت محجوبة بضباب الدخان المتصاعد من القصف والحرائق. وكانت تسمع من بعيد أصوات الأسلحة الأوتوماتيكية، وبريق الانفجارات مع تصاعد الدخان الأسود الكثيف من مناطق القتال، في هذه الأثناء ابتدأ النقاش بشكل مثير للغرابة. إذ إن هذا النقاش كان قد توقف بسبب مسيحي محض: عملية "ألتالينا". ثم إن المتواجدين في منزل رئيس المكتب الثاني - جوزيف أبو خليل و زاهي البستاني وأنطوان نجم عن القوات اللبنانية، وجوني عبدو عن "الشرعية" وسمير فرنجية الموفد من قبل وليد جنبلاط - كانوا جميعهم من الموارنة. لم يكن بين الحضور أي درزي. وسمير فرنجية الذي يمثل

الدروز في هذا الاجتماع هو ابن حميد فرنجية شقيق سليمان فرنجية، رئيس الجمهورية السابق. إنه صحافي يساري، وعضو في الحركة الوطنية، اختاره وليد جنبلاط لأنه كان من أصدقاء جوني عبدو أولاً ومن جهة ثانية كان بإمكان وليد، في حال "تسريب" أنباء حول هذا اللقاء، أن يؤكد بأنه غير معني بالأمر إذ لم يكن هنالك أي درزي في هذا اللقاء.

وبعد أن علق عبدو على المواجهات الدائرة أمام أعينهم على بعد 3 الى 4 كلم على خط مستقيم، ابتدأ النقاش كما يلي:

- توافقت مع وليد بك على ضرورة الاحتفاظ بسرية قصوى لهذه المفاوضات. أنا أعتقد كما هو يعتقد أن وضع المنطقة ملائم اليوم لتجسيد هذا الوفاق، خصوصاً وأن العرب منهمكون بالحرب العراقية الإيرانية. إن الدولة موافقة مسبقاً على الحل الذي تتفقون عليه.

وصرح سمير فرنجية قائلاً:

- علينا أن نعد وثيقة تحضيرية للمحادثات بين وليد وبشير. وعلى هذه الوثيقة أن تحدد علاقات لبنان مع محيطه العربي والإسرائيلي، كما عليها أن تتطرق أيضاً إلى الشكل القانوني الذي سيأخذه النظام الجديد. كما علينا أن نوضح كل نقاط الخلاف بيننا. وليد يعترض على كل إمكانية مشاركة لكريم بقردوني كما يجب أيضاً عدم إعلامه بوجود هذه المحادثات.

لم يكن بين وليد جنبلاط والمحامي الأرمني، أي تعاطف فحسب، بل أكثر من ذلك كان لا يثق به إذ إنه كان على علم بعلاقاته مع دمشق بموجب موقعه كمستشار للرئيس إلياس سركيس، وبالتالي كان جنبلاط يعتبره صانع التحالف السوري المسيحي الذي نتج عنه دخول الجنود السوريين إلى لبنان في عام 1976 والذي كان نتيجته اغتيال والده[1]. وأضاف عبدو:

- يتساءل وليد حول ما يريده فعلاً بشير كي يتفاوض معه؛ فسألني لماذا انتظر ثلاثة أسابيع قبل أن ينظم هذا اللقاء، أو لعل قضية حنوش أكثر أهمية من الاجتماع معه؟

أجاب جوزيف أبوخليل:

- نريد أن نكون واضحين مع أنفسنا، نريد إلغاء جميع الصعوبات التي قد تطرح من جانبنا.

أوضح سمير فرنجية بدوره قائلاً:

- لدينا صعوباتنا أيضاً، فالوضع القائم هو بمنتهى التحرك والضغوط على وليد كبيرة للغاية. إذا لم يقم السوريون حتى الآن بإقصائه، ذلك يعود إلى انهماكهم بقضايا أخرى. يقوم وليد بمجازفة كبرى بقبوله هذه الاجتماعات.

(1) محادثة مع ألان مينارغ، ديسمبر - كانون الأول 1992.

- من شأن تحالفنا أن يسمح لنا بأن ندافع عن بعضنا البعض، هذا ما أشار إليه أبو خليل.

أومأ ابن شقيق الرئيس الأسبق برأسه قائلاً:

- إذا توصلنا إلى اتفاق سرّي على مختلف النقاط، يجدر أن لا يفصح عن هذا الاتفاق إلا في الوقت المناسب.

وبعده التفت إلى الضابط مستطرداً:

- دورك يا جوني بمنتهى الأهمية بما يخص الضمانات.

تبع هذا الاجتماع أربعة اجتماعات أخرى في منزل العقيد عبدو ولكن هذه المرة مع ممثل عن الطائفة الدرزية بشخص العميد الركن في الجيش اللبناني، رياض تقي الدين. أتاح الاجتماع الأول في 15 ديسمبر - كانون الأول المجال للوفدين أن يحددا أهداف كل منهما؛ وأول نقطة أجمع عليها هي المسألة الفلسطينية. فأشار رياض تقي الدين قائلاً:

- إن انقساماتنا سمحت للفلسطينيين أن يعززوا مواقعهم. أراد كمال جنبلاط أن يتخلص منهم بمساعدتهم. وأراد بيار الجميّل أن يتخلص منهم بطردهم. يكمن الخطأ في محاولة عمل كل منهما دون أن يستشير الآخر. علينا أن نتفق لكي نواجههم بعزم وتصميم.

زاد عبدو قائلاً:

- إن ما تقوله يا رياض صحيح، لا يجدر أن نضع جانباً وبشكل مسبق كل حل عسكري مهما كان ضعيف الحظ بالنجاح. من الحماقة أن نؤكد أن حل المسألة الفلسطينية لا يمكن أن يكون إلا سياسياً. إنهم مقتنعون الآن أننا لن نستخدم السلاح ضدهم وعلينا أن نتمكن من الضغط عليهم. لماذا لا يتسرب الفلسطينيون إلى مناطق الشوف؟ لأن وليد يواجههم بالقوة. لماذا لا يذهبون إلى كسروان، لأن بشير يستعمل الطريقة نفسها. نحن العسكريون، منطقتنا هي كل الأراضي اللبنانية. إذاً، لماذا نمنع من استعمال إمكانياتنا؟

- إن السياسة اللبنانية هي تقليدياً سياسة تسوية، قالها سمير فرنجية متأسفاً. إنها تسوية أصحاب حوانيت. إن العصبية الوطنية هي الوحيدة التي من شأنها خلق إرادة لبنانية واحدة. والملك حسين ارتكز على عصبية كهذه كي يتمكن من سحق الفلسطينيين عام 1970. هذا ما افتقرنا له عام 1973. أنا لا أضع جانباً الحل العسكري، وقد يدخل هذا الحل في صلب الاتفاق الذي نناقشه وقد يكون على الأرجح هو ما نتوقف عنده.

- أتستطيع يا سمير، أن تشرح لي لماذا يفرق الفلسطينيون في تعاملهم، بين السنة والشيعة؟ هذا ما تساءل حوله رئيس المكتب الثاني.

- بسبب الثورة الإيرانية شعر الشيعة بأنهم أصبحوا أقل انعزالاً وبالتالي أقوى مما كانوا

عليه، وفي جنوب لبنان حيث هم الأكثر عدداً، يحملون مباشرة إزر الوجود الفلسطيني، ومن هنا المواجهات بينهم، وكي يتصدوا لهم تحاول منظمة التحرير الفلسطينية إيجاد دعم في الأوساط السنية التي أصبح لها أهمية بسبب التوسع العربي. إن الفلسطينيين سوف لن يقاتلونا أو يقاتلوكم بل سيدفعون حلفاءهم المحليين للقيام بذلك.

وافق الجميع على ضرورة تطوير حس وطني قوي وخلق قوة عسكرية بإمكانها أن تتصدى "لكل قوة أجنبية". وبعد الانتقال إلى الاقتراحات العملية اقترح جوني عبدو تشكيل حكومة من عشرة أعضاء بينهم بشير، ووليد وممثلين عن الشيعة والسنة كي يصار لاحقاً إلى إدخال القوات اللبنانية والجيش الشعبي التابع للحزب التقدمي الاشتراكي، في الإطار المؤسساتي، ثم قال عبدو:

- ليس من المنطق أن ينزع سلاح اللبنانيين قبل أن ينزع سلاح الفلسطينيين.

- وإذا رفض السوريون أن ينسحبوا، تساءل سمير فرنجية، فقد يرفض الطرف الفلسطيني الانسحاب.

ثم التفت إلى جوزيف أبو خليل الذي كان ما يزال ساكتاً منذ بداية الاجتماع، وسأله:

- جوزيف، كيف ترى الموقف الموحد بين وليد وبشير؟ أقبل دون تردد الحل الذي ستقترحه.

- أنتكلم نحن باسم جميع الطوائف أم أننا نبحث عن تحالف بين زعيمين؟ هذا ما أجابه أبو خليل تهرباً من السؤال. وتابع قائلاً، مشروعنا لا يعني سوى بشير ووليد فلنترك إذاً المشاكل الأخرى إلى مرحلة لاحقة ونحن لا يمكن لنا أن نحرر لبنان بكامله بمحاولة واحدة فلنهتم أولاً بجبلنا. وكون السلطة تلعب دور العرّاب لاتفاقنا، هذا من شأنه أن يثبت الوضع ويهدئه حول هذا الاتفاق مما يساهم بخلق توازن قوى لمصلحتنا.

واعترف تقي الدين قائلاً:

- إن هذه الفكرة تستهوي، على الصعيد النظري.

- إن هذا التحالف الدرزي المسيحي سيحصل على حساب الطوائف الأخرى، أفاد فرنجية بذلك على سبيل الملاحظة.

- كلا. البلد لن يستعيد استقراره إلا حول توازن داخلي، وعلينا أن نخترع هذا التوازن، والصيغة الجديدة، علينا أن نبنيها تدريجياً.

عند هذا، طلب ممثلا جنبلاط مهلة للتفكير والمذاكرة، وأثناء الاجتماعين التاليين، اقترح أنطوان نجم مشروعاً مفصلاً[1] أخذ بعين الاعتبار فكرة تشكيل حكومة من ستة

(1) انظر الملحق 3.

أعضاء: ثلاثة أعضاء مسيحيين – واحد روم كاثوليك، واحد روم أرثوذكس وبشير عن الموارنة، وكان مشروع نجم يلحظ أيضاً حل مجلس النواب، وتعليق الدستور، وتجميد كل تدخل أجنبي (بواسطة الأميركيين)، وخاصة التدخل السوري، وبيان وزاري يؤكد بقوة على السيادة اللبنانية، وأخيراً الإعلان عن استحداث نظام جديد.

علق فرنجيه قائلاً:

– أنا متأثر إيجابياً بمشروعك، ولكنني مع هذا أتمنى إعادة النظر بـ "بعض التفاصيل" في نص نجم.

في المضمون والشكل، قد تحقق عملياً الاتفاق بين الدروز والموارنة.

وبمخطوطة مكتوبة بخط اليد، بتاريخ 30 ديسمبر – كانون الأول 1980، وموقعة من قبل الضابط الدرزي[1]، عاد ابن أخ الرئيس فرنجية إلى اقتراحات نجم. ولكن بإرادة واضحة لعدم الاصطدام بحساسية دمشق، أوضح أن الحكومة الجديدة تلتزم "بمنع استعمال لبنان كقاعدة انطلاق أعمال عدوانية ضد البلدان العربية [وأن] تؤمن علاقة سليمة مع سورية ترتكز على ضرورة حماية المصالح المشتركة للبلدين. وهذا النص يلحظ أيضاً أن "تعمل الحكومة لإنهاء النزاع بين زغرتا والكتائب"، وهو تلميح مباشر للخلاف بين سليمان فرنجية وبشير على أثر اغتيال، طوني فرنجية، ابن عمه. وقرر المتفاوضون انتظار عودة وليد جنبلاط، الموجود في الخارج، كي يحصلوا على موافقته.

ورغم كل الاحتياطات، علم السوريون بوجود هذه النقاشات بينما كانوا يسعون لزرع انشقاق مسيحي جديد بواسطة إلياس حنوش. وفور عودة وليد جنبلاط استدعاه الرئيس الأسد إلى دمشق وبعد أن انتظر مدة ساعات دخل إلى قاعة الاستقبال الكبرى حيث المقاعد باللون البيج، اطمأن حافظ الأسد على صحة زائره وصحة عائلته. بعد هذا وببعض التعابير "الناشفة" رفض حافظ الأسد كل فكرة تقارب بين الدروز والقوات اللبنانية. وبدون أي تمهيد، تغير لونه وبصوت، وكأنه حزين، نظر إلى وليد متأملاً:

يا للعجب كم أنت تشبه والدك. أراه جالساً مثلك أنت وفي المقعد الذي تشغله، كان هذا قبل أربعة أيام من وفاته. لماذا لم يصغ لنصحي، يا لشؤم ما حصل!

ومن هذا الحين لم يعد وليد جنبلاط يريد أن يسمع أي كلام عن تحالف مع المسيحيين.

(1) انظر الملحق الرابع.

7

التردد الأميركي

دعي شارل مالك إلى واشنطن في ديسمبر – كانون الثاني عام 1981، بصفته رئيساً أسبقاً للجمعية العمومية للأمم المتحدة، لحضور الاحتفالات الرسمية بمناسبة مراسم تسلّم وتسليم السلطة بين جيمي كارتر ورونالد ريغن. وقبل ذهابه ببضعة أيام، مرَّ شارل مالك على بشير الجميّل الذي كان أسير الفراش بسبب إصابته بزكام قوي، وشرح للزعيم الشاب بصوته الخشن أنه خلال المحادثات الهاتفية مع بعض الأصدقاء في الولايات المتحدة علم بأن ثمة تفكير بحل الأزمة اللبنانية داخل الإدارة الجديدة.

– منذ خمس سنوات ونصف السنة، مباشرة بعد انتخابه، طلب جيمي كارتر إلى زبيغنيو برجنسكي الذي أصبح فيما بعد مستشاره لقضايا الأمن القومي، أن يقوم بصوغ مشروع سلام في الشرق الأوسط. كانت نتيجة هذا المشروع كمب دافيد. واليوم يبدو أن الأميركيين يعملون على مشروع ينجز بسنة واحدة. الخطر المحدق بلبنان هو أن نكون خارج المفاوضات والنقاشات. لا تزال هذه الدراسة سرية حتى هذا الحين، وعلى ما يبدو أن معهد المبادرات الأميركية (AEI) هو بين الذين استشيروا في الأمر.

وعلى رأس هذا المعهد بيل بارودي، أميركي من الروم الكاثوليك ومن أصل لبناني وله مداخله في العالم العربي. كان بيل بارودي يحضر مؤتمراً بعنوان: لبنان بلد عربي وعليه أن ينجح في العالم العربي. طلب بشير إلى مالك أن يقوم بجميع الاتصالات الممكنة. وكان أول اتصال أجراه مع ألفرد ماضي، رئيس مكتب تمثيل القوات اللبنانية في واشنطن.

ألفرد ماضي، مهندس لبناني أميركي نجل أحد ضباط المخابرات في الجيش الأميركي، كان في العام 1977 ولبضعة سنوات قد عمل في أجهزة مخابرات الكتائب وأرسله بشير إلى واشنطن كي ينظم الجماعات الضاغطة لمصلحة القوات اللبنانية. اعتمد ماضي على الأميركيين المتحدرين من أصل لبناني وجمع حوله بعض موظفي البنك العالمي[1]،

(1) عبدالله أبو حبيب ووديع حداد.

وأستاذ جامعي[1] وحتى بعض مستشاري البنتاغون ووزارة الدفاع الأميركية[2]. كان عليهم أن يبذلوا جهوداً ضخمة كي "يكسروا" رأي مختلف المسؤولين الأميركيين بالنسبة لمسيحيي لبنان، إذ إنهم كانوا يعتبرون القوات "انفصاليين" يهددون استقرار النظام، بينما كان موقف واشنطن المبدئي يقوم منذ سنوات على حماية الدولة اللبنانية والمحافظة عليها دون التدخل بشؤون البلد.

وكان مسؤولو وزارة الخارجية أكثر المعارضين لسياسة بشير الجميّل. وسيطر موظفون لا يحلمون إلا بالذهاب أو العودة إلى هذه المنطقة، على قطاع الشرق الأوسط والأدنى، علماً بأن بعضهم كان قد تابع دروساً لغوية في جامعة بيروت الأميركية في غرب العاصمة، حيث عاشروا بعض السنّة والروم الأرثوذكس وبعض المثقفين الفلسطينيين. كانوا قد عايشوا دخول الإيدلوجية اليسارية وحتى الشيوعية في هذه البيئة وهم على اقتناع بأن التصدي لهذه الإيديولوجية يكمن في الانفتاح المتعدد الوجوه والعميق باتجاه العالم العربي. هذه الأطروحة أدخلها هنري كيسنجر وقد أثر كثيراً على أجواء هذه الوزارة، ليس فقط لأنه كان مسؤولاً عنها بصفته وزيراً أو ناظراً للخارجية ولكن أيضاً كان أستاذاً بارعاً تتلمذ على يديه الكثيرون من موظفي هذه الوزارة في هارفارد. لقبوا بال "المستعربين"، ولم يساندوا يوماً الدولة العبرية وكانوا لا يحبون الموارنة.

أما وزارة الدفاع من جهتها، فقد رفضت أن تسمع بقضية لبنان منذ عام 1973. في ذلك العام، وعدت الولايات المتحدة بيروت بتقديم مساعدة عسكرية كبيرة إذا كان الهدف إنهاء وجود منظمة التحرير، وكان أن سليمان فرنجية بعد أن تردد، رفض أن يلتزم هذا الخط مما سبَّب خيبة أمل لدى هنري كيسنجر كما عند باقي المسؤولين الأميركيين. في السنة التالية، حصلت "قضية الكلاب"، وفحواها أن فرنجية ذهب في العام 1973 لحضور اجتماعات الجمعية العمومية للأمم المتحدة، وكان من السلطات الأميركية أن أوقفت طائرة الرئيس اللبناني في مكان معزول ـ للوكالة الأميركية لمكافحة المخدرات، وكانت قد أعلمت الإدارة بأن طائرة الرئيس اللبناني تنقل أيضاً بعض أكياس الحشيش، وكان لبنان في تلك الفترة بين الدول المنتجة بكميات كبيرة وكان معلوماً أن بعض الشخصيات السياسية تتاجر بالمخدرات. ففتشت الطائرة برمتها واستعملت الكلاب المدربة خصيصاً لهذه الغاية "وشمت" كل الأمتعة دون الاهتمام بصفة ركاب الطائرة. لم يعثر على أية بضاعة غير قانونية ولكن العلاقات بين بيروت وواشنطن جمدت تقريباً إلى حد أنه في

(1) إدوار عازار.
(2) روبير وجاك باسيل وبول جريديني.

عام 1975، في الأيام الأولى للحرب، أرادت وزارة الدفاع أن تؤمن دعماً للجيش اللبناني ضد منظمة التحرير الفلسطينية وقد أرسل بوب موراي، أمين السر المساعد للشؤون الخارجية أحد مستشاريه، بول جريديني، بمهمة سرية مزدوجة إلى بيروت: أولاً وضع اللبنانيين بأجواء المساعدات السورية والعربية لمصلحة الفلسطينيين، وثانياً ليعرض عليهم المساعدة بالتجهيزات والعتاد والسلاح والذخائر وسمِّي هذا العرض TO and E[1].
استقبل جريديني على الرحب والسعة من قبل العماد إسكندر غانم، أحد مسؤولي الجيش اللبناني آنذاك وحصلت المقابلة في مكتب العقيد أنطوان دحداح، مدير الأمن العام، وبحضور المفوض الشاب زاهي البستاني الذي كان يقابله للمرة الأولى. وقال دحداح صهر الرئيس فرنجية:

– أنتم الأميركيون، لن تتخلوا عن الديمقراطية العربية الوحيدة.

– إذا كنتم لا تريدون أن تتحركوا، سوف لن نحارب عنكم. هذا ما أجابه الأميركي مبتسماً قبل أن يتقدم إليه بعرض واشنطن. ولم يفلح لا العماد غانم ولا العقيد دحداح في إقناع فرنجية بالقبول.

ومنذ شهر نوفمبر 1980، كان ألفرد ماضي قد "شعر" بتطور في مواقف الاستخبارات المركزية. أمست هذه الاستخبارات وكأنها أكثر تحسساً لما كان يجري على الأرض اللبنانية. يجدر بنا أن ننوه بما قاله ريغن أثناء حملته الانتخابية، إذ عبّر دون مواربة عن أنه لا يثق إطلاقاً بسورية واصفاً إياها بـ "مركز متقدم للاتحاد السوفياتي".
وفور وصول شارل مالك إلى واشنطن، كانت هناك رسالة بانتظاره، مصدرها ريتشارد ألن المستشار الجديد للأمن القومي، القريب من الجناح اليميني للحزب الجمهوري وكان يريد مقابلته. وكان ألن قد عين في الإدارة الجديدة على رأس مجلس الأمن القومي. وكان يجلس في هذا المجلس باستثناء رئيس جمهورية الولايات المتحدة، رونالد ريغن، كبار مسؤولي السياسة الخارجية الأميركية: أي نائب الرئيس جورج بوش ومسؤولي شؤون الخارجية والدفاع، ألكسندر هيغ وكسبار واينبرغر. وكان لرؤساء أركان الجيوش الثلاثة، ولوليم كاسي، مدير الاستخبارات المركزية، دوراً استشارياً في هذه الهيئة. وكم دهش الدبلوماسي اللبناني من مدى المعرفة التي كان يتمتع بها ريتشارد ألن بالنسبة للمسألة اللبنانية عامة وبشكل خاص أمنيات مسيحيي لبنان. ولم يشك الوزير السابق إطلاقاً بمدى إسهام الإسرائيليين بإعداد هذه المعرفة.

– ماذا تأملون من الولايات المتحدة؟ هذا ما سأله الأميركي.

(1) Table of Organization and Equipment.

- أن يخلصونا من الفلسطينيين والسوريين.

- لو اعتبرنا لهنيهة أننا أخذنا هكذا قرار، هل يمكن لك أن تحضر مشروعاً عملانياً جداً وترسله إليّ مباشرة.

فهم مباشرة شارل مالك، كدبلوماسي محنك، أن ألن يطلب إليه تحاشي وزارة الخارجية. وفهم مالك أن البيت الأبيض الذي كان مخاطبه تابعاً له، كان يود الاحتفاظ بالمبادرة. وعد بالطبع بإرسال النص المطلوب، مسجلاً أن المشاحنات بين السلطات آخذة مكانها قبل تعيين مسؤوليها.

- أنجز سريعاً، ما قلناه، سألتقي الرئيس ريغن قريباً حول هذا الموضوع وسأعلمه بالنقاش الذي أجريناه.

ومباشرة بعد عودته إلى لبنان، في 25 فبراير - شباط، اتصل مالك ببشير. ومساءً وصل بشير، قائد القوات اللبنانية، بصحبة زاهي البستاني وأنطوان نجم الى دارة الوزير السابق شارل مالك في الرابية حيث عرض له مالك بالتفاصيل اجتماعاته في أميركا، وبحماسة بالغة اقترح عليهم أن يعدوا مشروعاً من شأنه تشجيع الإدارة الأميركية والاتحاد الأوروبي على أن يقوما مشتركين بتصريح يؤكد على حرصهما على استقلال لبنان وحق تقرير المصير لجميع الطوائف التي تعيش على أرضه.

- بالمقابل يمكن للبنان أن يقدم للأميركيين حلاً جذرياً لإنهاء الإرهاب الدولي الذي ينطلق من أرضه باستحداث قاعدة إستراتيجية على الشاطئ أو في الجبل، هذا ما اقترحه عليهم.

استمع زاهي البستاني بانتباه كلي مقترحاً بالنهاية ما يلي:

- قد يكون مستحسناً أن ننتظر بعض الشيء قبل أن نقدم مشروعاً عملانياً لريتشارد ألن. إن إسحق شامير قد وعدنا في الخامس عشر من ديسمبر - كانون الأول بأنه سيبذل ما في وسعه كي يقربنا من الولايات المتحدة. يجدر بنا أن ننتظر نتائج مساعيه كي لا نخرجه من العملية.

وتناقش الرجال الأربعة طيلة ساعتين ونصف الساعة حول فحوى الجواب الذي سيعطونه لريتشارد ألن واتفقوا على أن يتريثوا قبل كشف أوراقهم لواشنطن.

ووصلتهم نتائج مساعي الوزير الإسرائيلي بشكل غير مباشر، إذ دعي بشير في الثالث عشر من شهر مارس - آذار 1981 للاجتماع بجون غونتر دين، سفير الولايات المتحدة في لبنان. وكان الرجلان قد التقيا (عرضة) قبل ذلك فخاطبه الدبلوماسي قائلاً بشكل مباشر:

- أعلمت واشنطن بأنه من المستحيل تجنب وجودك بالنسبة لكل عمل رصين في هذا

البلد، ومنذ شهر تقريباً نحن نتبادل الملاحظات للتوصل إلى مستند رسمي يكون لنا بمثابة قاعدة للحوار والنقاش بيننا. وصلني هذا الصباح هذه البرقية المحضرة خصيصاً لك.

واحتفظ السفير لعدة ثوان بالورقتين التي كان بشير يستعد لأخذها وكرر بنظرة بين أربع أعين:

- صيغت هذه البرقية خصيصاً لك.

كانت الوثيقة المصاغة بالإنكليزية تحمل إشارة "سرّي" فوق العنوان وهو: "تعليمات حول لبنان".

كان بشير يجهل رمزية التصنيفات عبر الأطلسي للمعلومات المهمة في المضمار العسكري، والاستخباراتي كما في المضمار السياسي. وهذا يعني أن الإفشاء بهذه المعلومات من شأنه أن يلحق ضرراً خطيراً بالمواقف الأميركية. جلس في مقعده وقرأ النص بانتباه. وكان ينص، بعد بعض الأمور العامة، على ما يلي:

"[...] تعترف الولايات المتحدة الأميركية بأن هناك مؤيدين لإعادة النظر بالبنى الحكومية والدستورية. و[هي] ليس لها رأي محدد في مجال التغييرات المحددة. على اللبنانيين أنفسهم اتخاذ القرار. ونحن نعتبر أن كل تغيير، عليه أن يحصل بسياق سلمي. وبالتالي فالولايات المتحدة سوف تتقبل بحماسة كل إنجاز باتجاه إجماع سياسي وطني حول شكل لبنان الجديد. [...] نحن نعترف أن الجماعات الفلسطينية التي تعيش على أرضه تشكل مشكلة اللبنانيين. نعتقد أنه بوسعنا معالجة [هذا] الموضوع [...] بعده اللبناني وذلك بإحلال السلم الإسرائيلي العربي الكامل. نحن نسير باتجاه هذا السلام من خلال مسيرة كمب دافيد [...]؛ فكل حلٍّ شاملٍ للمشكلة الفلسطينية لا يمكنه أن يؤثر سلباً على المصالح الوطنية اللبنانية. [...] إن الولايات المتحدة تقف بحزم ضد الإرهاب كما أنها تقف ضد الهجمات على إسرائيل، التي تنطلق من الأراضي اللبنانية. [...] وتساند الولايات المتحدة الانسحاب التدريجي والكامل للقوات السورية من لبنان [...]. هذا الانسحاب لا يجدر به أن يبعث الحرب الأهلية أو ينشط العداءات بين مختلف الميليشيات والفدائيين الفلسطينيين".

وحدد السفير الذي كان يراقب بشير ما يلي:

- إن عبارة "كتائب" تعني القوات اللبنانية. ليس بإمكاننا بعد أن نتوجه مباشرة إليكم.

لم يحمل هذا، بشير إلى رفع نظره إلى خارج النص.

- "نأمل أن يتحلى حزب الكتائب بالصبر وضبط النفس حيال الاستفزازات السورية والفلسطينية الممكنة. نحن نشجع الجهود من أجل القيام بحوار بين الزعامة المسيحية وباقي

الطوائف الإسلامية والدرزية. نعتقد أن الكتائب وبعض التنظيمات المسيحية الأخرى بوسعها أن تؤثر على المسار المستقبلي لتاريخ لبنان. كما نأمل من الكتائب أن تستعمل طرقاً سياسية وسلمية للوصول إلى الأهداف المنشودة كما نأمل منها أن تتعاون مع الحكومة المركزية والجيش الوطني".

كانت هذه الوثيقة تحمل تاريخ 9 آذار 1981.

– سلمت نسخة من هذه الوثيقة الى الرئيس سركيس، هذا ما قد أفاده السفير. وعليه قال لي أن ليس لديه أي مانع أن نناقش ونتشاور معك، وبالتالي ليس لدينا أي اعتراض على استحداث لجنة تنسيق بيننا بالنسبة للمواضيع المتعلقة بمستقبل هذا البلد.

بعد هذا قال السفير لقائد القوات اللبنانية إنه مقتنع بأن القوات اللبنانية لا دخل لها بمحاولة الاغتيال التي تعرض لها عند خروجه من منزله، ولم يجب بشير إطلاقاً، إذ إنه كان يتساءل إذا ما قاله السفير هو جزم دبلوماسي أم هذا نتيجة التقرير الذي أرسله إلى مندي والذي وصل إلى المرسل إليه وذلك بالنسبة لاستعمال حنش لصاروخ LAW المضاد للدبابات والآتي من حصة أسلحة (الوطنيون الأحرار).

– قد يكون من الممكن أن أغادر لبنان بعد التغييرات التي حصلت في واشنطن ولكن كن متأكداً أنه بمعزل عن الشخص الذي سيخلفني، إن هدفنا يبقى على ما هو وعليك أن تعلم أنني عندما أقابل وليد جنبلاط أو رشيد كرامي إنما أقوم بذلك لمساعدتك وأود بالمناسبة أن أوجه لك سؤالاً: لماذا يطرح الرئيس شمعون، وأنت أيضاً، صيغة فدرالية.

– نحن ندعو خصوصاً إلى تحرير البلد، وعلى اللبنانيين أن يختاروا سوية الصيغة التي يريدونها.

طأطأ السفير رأسه طالباً إلى بشير أن يوافيه بجواب خطي على البرقية التي سلمه إياها وخرج بشير من مقر السفير والبسمة على شفتيه إذ إن الخارجية الأميركية لم تعد تعتبره كنوع من "كارلوس غير خفي".

عند عودته كان معاونوه[1] بانتظاره طالبين إليه عرض ما حصل في المباحثات. نفذ بشير هذه المهمة بكل طيبة خاطر منهياً حديثه بما يلي:

– والآن إلى العمل، على كل منا أن يتحمل مسؤولياته إذ إن الوثيقة التي قرأتها لكم استغرقت شهراً من العمل في أوساط الإدارة الأميركية فينبغي إذاً أن نجيب على هذه الوثيقة بالمستوى اللائق.

(1) كريم بقردوني، فادي أفرام، إيلي الزايك، الوزير سليم الجاهل، زاهي بستاني، جان ناضر، إيلي حايك وأنطوان نجم.

كان يوم 13 مارس – آذار هذا يوماً مظللاً بالعلم الأميركي. فما لبث بشير أن وصل إلى منزله حتى رن الهاتف وكانت المكالمة مع ألبير لحّام المحامي الذي تدرج عنده بشير عام 1973 في شارع الحمراء في بيروت. طلب إليه لحّام أن يقابل خالد خضر آغا، ولكن بشير اتصل بمنتهى الحذر بإيلي حبيقة طالباً إليه تنظيم هذا اللقاء في اليوم الثاني.

خالد خضر آغا من كبار تجار طرابلس في شمالي لبنان، كان وثيق الصلة بالقيادات السعودية، ولم يكن يخفي إطلاقاً علاقاته مع الاستخبارات الأميركية المركزية وقيل عنه بأن هناك قضية إرث غامضة. وحسب المعلومات التي أعطاها كريم بقردوني إلى بشير، فإن هذه المعلومات تفيد بأن آغا قام بدور الوسيط بين العائلة المالكة السعودية والرئيس صائب سلام، الزعيم السني في بيروت، وخصوصاً ببعض التحويلات المالية. في عام 1976 وحسب معلومات بقردوني قام آغا بتسليم كامل الأسعد مليون وخمسمائة ألف ليرة لبنانية من قبل السعودية لتسهيل انتخاب إلياس سركيس على سدة الرئاسة. خالد خضر آغا بمنتهى الذكاء وهو خصوصاً مطلع على كل شاردة وواردة وكان قبل كل شيء صديقاً للأمير السعودي فهد وعلى علاقة مميزة ووثيقة بمحمد غانم، رئيس أجهزة الاستخبارات العسكرية السورية، والجنرال حكمت الشهابي، رئيس أركان الجيش السوري، وكان له أيضاً صلات جيدة بالفلسطينيين.

التقى الرجلان في شقة خالية مصادرة من قبل إيلي حبيقة. تجاهل خالد خضر آغا التصرفات الأمنية المحيطة ببشير فذهب تواً إلى الهدف قائلاً:

– نحن مستعدون لمساعدتكم على تحقيق أهدافكم بقدر الإمكانيات المتوافرة لدينا. نريد للبنان رئيساً للجمهورية مارونياً، قوياً، منزهاً وقادراً على اتخاذ القرارات الضرورية.

طلب بشير إلى مخاطبه متجاهلاً ما قاله الآغا ومتردداً وحذراً أن يحدد هويته فأجابه التاجر الطرابلسي بوضوح وكأن شيئاً لم يكن:

– أنا مكلف من قبل أجهزة الاستخبارات الأميركية ومن قبل المملكة العربية السعودية للقيام بصلة معكم كي نقدم لكم المساعدات التي تحتاجون إليها. كان لي سابقاً صلات بشقيقك أمين وبداني شمعون وبعد انتخاب إلياس سركيس رئيساً حاولنا أن نلعب ورقته ولكنها باتت خاسرة. سوف يذهب الأمير فهد إلى أميركا ويقترح مشروع حل لأزمة الشرق الأوسط وهذا المشروع يطالب منظمة التحرير بالاعتراف بإسرائيل، وبانسحاب الجيش الإسرائيلي من الضفة الغربية التي ستشكل عندئذ مع الأردن كونفدرالية من دولتين، كما يقترح مشروع الأمير فهد رحيل 300000 فلسطيني منّ لبنان؛ وعلى الذين سيبقون في لبنان أن يسلموا سلاحهم،

وأن يحتفظوا بهويتهم وأن يتوزعوا على مجمل الأراضي اللبنانية . إذا نجحت مبادرة الأمير فهد، ستحل المشكلة الفلسطينية وإلا سيتحمل العرب عواقب ذلك .

فأجاب بشير :

– إن مشكلتي مع الفلسطينيين كلبناني ليست عسكرية فقط، بل هي أيضاً وخاصة ديموغرافية . أنا أرفض أن يبقى الفلسطينيون في لبنان . ولا تعتقدوا أننا نقبل بالإبقاء على قسم منهم . أنا أرفض .

ثم أضاف، متحدياً :

– من جهة ثانية سألتقي قريباً السفير السوفياتي، وهي سياسة دفعتنا إليها سياسة كارتر .

– أنت على حق ولكن السياسة تغيرت الآن ونحن اتصلنا بكم بغية فتح الأبواب لكم باتجاه العالم العربي وعليك أن تمضي اليه . أنا متجه إلى أميركا وإلى السعودية وسأقول لهم أنني قابلتك .

– أود أن أقول لك بأنك لا تفاوض مع شخص بشير الجميل، ولكنك تفاوض من خلالي مع حزب الكتائب، ومن جهتي سأضع الشيخ بيار بأجواء لقائنا .

وقبل أن يغادر المكان أضاف خالد خضر آغا :

– قررنا حل مشكلتكم "المستعصية"[1]. أود أن أتكلم عن سليمان فرنجية الذي تمنى أن ينقل مكاتبه إلى بيروت الغربية، فنصحناه بأن لا يفعل وأن يبقى حيث هو . لن نسمح بتدمير البلد بسبب نعش[2] . والله ولي التوفيق .

ارتبك المقربون من بشير الجميل من تصرف رجل الاستخبارات المركزية وتساءلوا حول الأسباب التي حملت الأميركيين أن يتصلوا بهم عبر قناتين مختلفتين : السفارة وجهاز الاستخبارات . ولم يكونوا بعد على اطلاع بأن الحكومة الأميركية لها العديد من أجهزة استشراف المستقبل، ولم يكونوا على علم بأن الخارجية الأميركية والاستخبارات في لانغلي كي لا نسمي سوى هذين الموقعين، يعملان منفصلين وكانت الحصيلة تتم على مستوى البيت الأبيض، عندما كانت تحصل الأمور على هذا المنوال .

أحاط ألفرد ماضي، ممثل القوات اللبنانية في واشنطن، لدى مروره في بيروت، بشير علماً بأن الموقف الأميركي يتغير وتساءل قائد القوات اللبنانية ما إذا كان ينبغي الاستعجال بالرد على تلكس السفير غونتر دين، وكان قد اتصل لكل احتمال ممكن بالأستاذ إيلي سالم من أساتذة الجامعة الأميركية في بيروت كي يترجم نص المشروع الأميركي الذي كان يحضره

---

(6) Incurable نطقت بالفرنسية .

(7) إشارة إلى نعش طوني فرنجية الذي كان سليمان يرفض دفنه قبل الأخذ بالثأر .

جورج فريحة . في هذه الأثناء قام ألفرد ماضي لمصلحة بشير الجميل بمحاضرات كانت بمثابة دراسة حول الحق الدستوري في أميركا وهذا ما شرحه ماضي حول سير عمل السلطة الإجرائية في أميركا . وركز ماضي بأن الشخصيات التي تتمتع بإمكانية القرار بالنسبة للبنان ثلاث :

ألكسندر هيغ، وزير الخارجية؛ وريتشارد ألن، رئيس مجلس الأمن القومي؛ ووليام كاسي، رئيس الاستخبارات المركزية . وأضاف ماضي :

– الثلاثة كاثوليك .

بالنسبة للأميركيين هناك ثلاثة مراكز قوى في لبنان : منظمة التحرير الفلسطينية والجيش السوري والقوات اللبنانية . في هذه الحالة اعتبر بشير أنه من المستحيل ألا يكونوا متعاطفين معه . وكان أحد كبار المسؤولين في وزارة الخارجية قد أكد هذا لألفرد ماضي .

– لو أن الدولة تحركت منذ اندلاع الحرب، لما كنا الآن بما نحن عليه اليوم . أصبح الجيش غير قادر على القيام وحده بأي مهمة، فهو مضطر إلى الحصول على موافقة الفلسطينيين أو السوريين . نحن نعارض وجود الجيش السوري في لبنان وعليه أن ينسحب . ولكن وبكل تأكيد لم يكن الوقت قد حان لأن تعلن الولايات المتحدة عن موقفها السياسي علانية . وبانتظار تبلور هذا الواقع، كان بشير مقتنعاً بأنه يتوجب عليه أن يلعب مع واشنطن لعبة واضحة .

8

زحلة المعارك الأولى

كانت مدينةُ زحلة المتكورة من شدة تأثير البرد بين شفتي حَزّة عميقة، عند قدم جبل صنين والمفرشخة فوق سيل نهر البردوني، تشهر مسيحيتها بعمود ضخم يعلوهُ تمثال عذراء حارسة، وجهها إلى الشرق. تطل هذه الضيعة الكبيرة بخجل على وادي البقاع ذي الأكثرية المسلمة. وكان السوريون يسيطرون على كل الطرقات المرتسمة، الآتية من الجبل المسيحي. وكانت القادوميّاتُ، دروب البغال الأكثر تخفياً، التي تنحدر من القمم نحو المدينة، غير قابلة للاستعمال في الشتاء بسبب الثلج. على كل حال كان حنوش يعتمد على هذه العزلة عندما حاول في ديسمبر - كانون الأول أن ينزرع عنوة في المدينة. وكانت تلك المجابهات قد لفتت القوات اللبنانية إلى وجود هذه الحاضرة الفريدة في الشرق الأدنى، من حيث أهمية سكانها الروم الكاثوليك وطابعهم المنسجم. فكان حضور القوات اللبنانية خارج "الفيتو الماروني" رمزياً أكثر منه استراتيجياً.

كما كانت زحلة تتميز بكونها "النقطة السوداء" لجهاز دمشق الدفاعي في البقاع، إذ كان اللواء حكمت الشهابي، رئيس أركان القوات السورية، يعتبر أن هذا الوادي، الذي كان مولوداً في سهل المطلة ومحاذياً لمعظم الحدود اللبنانية ـ السورية، يشكل بالنسبة لإسرائيل ممراً استراتيجياً ملتفاً حول العائق الطبيعي لهضبة الجولان. يبدو الوادي كنوع من ممر مسطح ضخم، يمكن أن تجري فيه بسهولة الوحدات المدرّعة التي يحتمل أن تنقض من الخلف على الأراضي السورية. لوقف هجوم محتمل من هذا النوع، بواسطة وحدة متفرعة من الفرقة 85 المؤللة ومن الفرقة 78 المدرعة التابعة للوحدة السابعة، كان اللواء الشهابي قد أقام "سدَّة"[1] على كل عرض البقاع الجنوبي، من حواضر جبل لبنان، إلى مرتفعات جزين، حتى قمم جبل حرمون. وكان قد عزز هذه السدّة بالسماح لمنظمة التحرير الفلسطينية (م ت ف) بأخذ مواقع لها بين نهري الليطاني والزهراني، فتواجدت هناك الألوية

(1) مجموعة خطوط دفاعية تغلق ممراً أو درباً.

الفلسطينية الثلاثة: اليرموك والقسطل وعين جالوت. وكان السوريون قد جهزوها بكمية كبيرة من العتاد. منها 47 دبابة ت 54، وراجمات صواريخ وآليات ومدفعية.

لكنَّ زحلة كانت عقب آخيل في هذا المخطط الدفاعي. فهي تقع خلف هذا الجهاز، وكان يمكن لهذه المدينة المسيحية أن تستخدم كرأس جسر لـ "جيب" المسيحي، الذي يمكنه أن يكون بدوره حاضناً لقوات إسرائيلية. هذه الفرضية كانت بنظر اللواء الشهابي تتجاوز مسألة عادية مطروحة أمام الأركان برسم الحل، عندما أخبرته أجهزة مخابرته، تماماً قبل الشتاء، عن استئناف مهم للاتصالات بين القوات اللبنانية وتل أبيب. كان الإسرائيليون سيستولون، مروراً بزحلة، على الدفاعات السورية من خلف ويقطعون وادي البقاع إلى اثنين. زدْ على ذلك أنهم من هذه المدينة سيكونون على بعد 6 كيلومترات من المقر العام السوري الكبير في لبنان، ومن موقع قيادة الوحدة الخامسة، المتمركزين في شتورا، وعلى بعد 14 كيلومتراً من الحدود السورية، وعلى مسافة 50 كيلومتراً من دمشق، فكان الشهابي لا يستطيع في أي حال السماح بتوسيع حدود الـ "جيب" المسيحي نحو زحلة. فذلك سيكون خطراً جدياً يتهدد دمشق بنحو خاص، إبّان الحرب العراقية ـ الإيرانية حين استنفرت قوات بغداد على جبهتها الشرقية، وأزالت التهديد المحتمل لوحدات صدام ضد إسرائيل.

يوم 22 ديسمبر - كانون الأول 1980، قتل خمسة جنود سوريين في كمين داخل زحلة بالذات، وعلى الفور قُصفت المدينة ست ساعات متوالية لإقناعها بتسليم الفاعلين. وأدى رفضها إلى 48 ساعة من القصف المتواصل. ولم يتوقف القصف إلاّ بعدما رأت واشنطن أن "الموقف السوري مؤسف في زحلة". وكالعادة، ناورت دمشق إلى أبعد مدى حتى لا توقف القصف إلاّ عندما يصير الضغط الدولي مزعجاً. وما إن يتراخى هذا الضغط، كانت سورية تقوم بقفزة جديدة إلى الأمام. وكان ذلك تطبيقاً دقيقاً للشعار الماركسي: "ما لي هو لي، وما لك قابل للمساومة"، إذْ إنَّ المسار كان يستأنف، ما إن ينتهي التفاوض.

انتهز بشير الجميل فرصة الهدنة لإرسال فؤاد أبو ناضر إلى زحلة في مهمة استطلاعية. على الرغم من الثلوج، سلك فؤاد "درب" الجبل على قدميه، ذهاباً وإياباً. استعمل دروب البغالين التي كانت تتلوى في الوادي البري والمحرَّج الذي كان نهر البردوني يجري في أعماقه، محصوراً بين جرفين صخريين. كان تقريره خطيراً بقدر ما كان قصيراً: "إنهم يفتقرون إلى كل شيء ـ أسلحة وذخائر وشبكات اتصال وأدوية ومخزونات غذائية"، كما أنه قد لاحظ، أثناء استطلاعه، أن السوريين يسيطرون على مداخل زحلة الشمالية، ولكن في المقابل، كانت المداخل الجنوبية، لا سيما الطريق الآتية من شتورة، مفتوحة أمام السير بشكل طبيعي. فاستفاد منها حتى يُوصلَ إلى مقاتلي المدينة أسلحة ومدافع 106مم غير

الارتدادية المضادة للدروع، وذخائر، في شاحنات محملة قمحاً، وطحيناً أو خضاراً. لم يكن الكابل التليفوني تحت الأرض الذي يربط زحلة ببيروت، قد لحظه السوريون - ولن يلحظوه طيلة الحرب-، فحولت القوات عدة خطوط لمصلحتها وحدها. فكانت تنتهي في غرفة عمليات، في مقر الكرنتينا العام وفي أقبية كنيسة بروتستانتية في الأشرفية[1]، استولت القوات اللبنانية عليها لتقيم فيها مركزاً للإحداثيات المدفعية ومركزاً للدراسة والبحث العسكري.

كان البحر رمادياً. وكانت زخات المطر تسيل فوق شاطئ تل أبيب المقفر قبل أن تضرب زجاج فندق لاروم (Laromme). كان الشتاء عامراً تماماً في تلك الأيام الأولى من فبراير - شباط 1981. في صالون المبنى، كان هناك عشرة رجال - سبعة لبنانيين جاؤوا سراً إلى إسرائيل وثلاثة أعضاء من الموساد - جالسين بأناقة خلف الكوى المزججة، يتناقشون وهم مسترخون أمام كؤوسهم. هذه المرة، لم يقم مناحيم نافوت بدعوتهم إلى منزله. كانت إقامتهم قصيرة جداً، لبضع ساعات.

كان نافوت، الذي كان يُعرف باسم مندي لدى كل المتصلين به في لبنان على الرغم من معرفتهم باسمه الحقيقي، قد قضى عدة أشهر لدى الأكراد، عند الحدود بين تركيا وإيران والعراق. كانت مهمته أن يساعدهم على الثبات في مواجهة الحكومات الثلاث التي كانت تضطهدهم. وتندرج في إطار سياسة الموساد التي قامت على "مساندة" الأقليات "الطرفية"، أي في البلدان المجاورة، التي من شأنها إثارة المتاعب وحتى إثارة القلاقل في وجه الحكومات المعادية لإسرائيل. كان مندي قد اكتسب طوال هذه الإقامة صفاء رجال الجبل وصبرهم. جلس إلى جانبه روفن مرحاف الذي يعرف لدى اللبنانيين باسم روبير. طويل القامة، أسمر، شعره رمادي، وكان بلا انقطاع يحرك نظارتيه فوق أنفه بحركات لا واعية. كان مرحاف قد أقام في أثيوبيا. وقد ظهر مجدداً في لبنان أثناء زيارة رفّول. أما الإسرائيلي الثالث فلم يكن سوى شموليك أفياتار، الملقب بأليكس. كانوا من أولئك الذين غالباً ما يقومون بمهمات في لبنان في الفترة ما بين 1977 و1987. كان أليكس قد اختفى عن الأنظار طيلة عامين تقريباً. لم يكن أحد من لدن قادة القوات اللبنانية قد نسي وجهه المبتسم وعينيه الزرقاوين ولا أفكاره القريبة جداً من أفكارهم.

في مواجهتهم، كان الوفد اللبناني مؤلفاً من مستشارين سياسيين لبشير الجميّل ومن وزير في الخدمة.

شرح وفد القوات اللبنانية مطولاً هدفه لبلوغ السلطة، بأية طريقة. فصّل بدقة تطور

(1) Voir Alain Ménargues, *Les Larmes de la colère*, presse de la Renaissance, 1991.

علاقات القوات بالرئيس سركيس والمفاوضات مع الدروز بلا طائل. كان الموساد قد علم أن السوريين كانوا يعارضون إبرام الاتفاق الذي جرى التفاوض عليه مع ممثلي وليد جنبلاط لأنه كان يجري برعاية ناشطة من الرئيس اللبناني. عرض [هؤلاء] اللبنانيون صدامات شهر ديسمبر - كانون الأول في زحلة والوضع الراهن:

- يجب أن تُمارس ضغوط خارجية على دمشق لإرغامها على أخذنا في الاعتبار، هذا ما قاله أحد اللبنانيين الحاضرين.

- ينبغي إضعاف سورية سياسياً وليس عسكرياً. هكذا ختم مندي. فالأميركيون يعتبرونها قاعدةَ سوفياتية. تحلوا بالصبر.

كان الصبر بالذات هو ما ينقصهم أكثر من سواه. فمنذ ثمانية أشهر كانت القوات هي الربّان الوحيد على متن المركب المسيحي، ولم تكن قد تمكنت من خرق اللامبالاة، إن لم نقل بمواجهة عداء العالم الغربي لها. كان الفرنسيون، الغارقون في السجال الرئاسي بين ميتران وجيسكار، يقاطعونهم. ولم يكن لدى الأميركيين بعدُ سياسة محددة، وهم مشغولون في تغيير إدارتهم. صحيح أن الصورة المميزة للميليشيا المسيحية كانت من أبشع الصور. وكانت اتصالاتهم الخارجية الوحيدة هي تلك التي كانوا يجرونها مع الإسرائيليين. كان عليهم أن يكسروا جدار الصمت هذا. يوم 2 مارس - آذار 1981، خلال اجتماع في منزل زاهي البستاني، في مبنى صرّاف في الأشرفية، اقترح جوزيف أبو خليل، المولع بلجان الدراسات، إنشاء فريق تفكير حول هذا الموضوع. فأبدى الجميع ضحكة هادئة.

صحيح أن إلياس سركيس كان يساندهم، لكن وسائله كانت محدودة جداً. فكروا في فترة أن يعاندوا القدر بإنشاء أمة مسيحية "مثل اليهود الذين كانوا قد فرضوا بلدهم سنة 1948". وسرعان ما أدركوا أن من المستحيل عليهم اتخاذ قرارات جذرية. فهم في الواقع لم يكونوا سوى أقلية معيقة، لكن لا أكثر. إنهم لا يزالون موجودين على الساحة الدولية بالوكالة.

ضاعف بشير الجميّل "العلاقات العامة". لكن على غرار السفير السوفياتي الذي تناول معه الغداء يوم 12 مارس - آذار لدى محامٍ من أصدقائه، جرى الاستماع لقائد القوات اللبنانية والنظر إليه كظاهرة طريفة، لا أكثر.

أما الإسرائيليون فكانوا، من جهتهم، ناشطين جداً. جاء الجنرال إسحاق حوفي لقضاء دزينة من الساعات في المنطقة المسيحية المحصورة، يوم 16 مارس - آذار. فقام بجولة مماثلة تماماً للجولة التي كان رفائيل إيتان قد قام بها في ديسمبر - كانون الأول. شعر بشير ومعاونوه أن رئيس الموساد قد جاء لإتمام التقرير العسكري الذي كان يفترض برئيس أركان

الجيش الإسرائيلي أن يضعه. بعد أسبوعين، زودهم الموساد بزورقين سريعين من طراز دفورا[1]، من صنع إسرائيلي، في مرفأ الكسليك السياحي، وكان مندي قد جاء لإلقاء خطاب بالفرنسية، احتفاءً بالحدث. وكان ثمنهما قد دفع نقداً وعداً كاملاً، ثلاثة ملايين دولار أميركي دفعها مليارديْر لبناني.

كانت قساوة الشتاء قد أسكتت الأسلحة في زحلة طيلة ثلاثة أشهر. وكان بشير الجميّل، الذي لا يستطيع أن يتصور سلطة مسيحية أخرى سوى مرجعيته في هذه البقعة المحصورة، يعلم أن الصمت سيتبدد مع ذوبان الثلوج. كان كل معسكر قد استفاد من تلك الفترة، لتعزيزه وتحضير نفسه. فكانت القوات اللبنانية قد نقلت تعزيزات بالرجال عن طريق الجبل، وكان السوريون قد احتلوا الميدان بطريقة تمكنهم من مراقبة المداخل الشمالية. فباشروا بأعمال تموضع، حافرين حفراً ومرابض للمدرعات، ومتمركزين على الأرض بطريقة تجعلهم يسيطرون بنيرانهم على دروب الاتصال بين المسيحيين. وكانت مواجهات ديسمبر – كانون الأول قد جعلت بشيراً يقدر مخاطر نقص الوصول المباشر إلى المدينة. فأقامت القوات بواسطة الجرافات، تحصينات على التلال لحماية الأشغال التي كان يفترض أن تبدأ في الربيع. وفي أثناء ذلك كشفت القوات اللبنانية للسوريين جزءاً من خارطة الطريق التي يفترض بها وصل زحلة. كانت تلك هي الخطوط الأولى لصفحة من الصفحات السود للحرب اللبنانية.

يوم 31 مارس – آذار، بينما كانت أنظار العالم بأسره متجهة نحو واشنطن حيث كان رونالد ريغن قد جرح بطلقات مسدس جون هينكلي، كان السوريون يقصفون جرافة تعمل في موقع للقوات اللبنانية. على الفور، رد رجال الميليشيا على قذيفة سورية. عندها، حاول جنود دمشق الانقضاض على موقع رئيسي للقوات اللبنانية؛ لكنهم لم يفلحوا. في اليوم التالي، أخذت الأسلحة الأوتوماتيكية تفرقع حول المدينة، وعقب اليوم التالي ذاك كان الاضطرام العام. قصفت المدفعية السورية الثقيلة زحلة، وكذلك المنطقة المسيحية في شمال بيروت، موقعة 50 قتيلاً وأكثر من 200 جريح. وفي بضع ساعات استولى المقاتلون المسيحيون، الذين كان بضع عشرات منهم قد تسللوا [إلى زحلة] خلال الشتاء، على المتاريس التي كانت قوات الردع العربية قد أقامتها على المحاور الرئيسية الكبرى لزحلة. وكانت نقطة اللارجوع قد جرى تجاوزها.

إن السهولة التي تمكنت بها القوات اللبنانية من إزالة المتاريس، أقنعت الأركان السورية بأن بعض الإسرائيليين كانوا يقاتلون إلى جانب مسيحيي زحلة. هناك عنصران عززا تحليلهم هذا. أولهما، وجود دبابات ت 54 يشغلها رجال ميليشيا القوات على جبل صنين. كان رفائيل

(1) وهو طراز معدل للدبور.

إيتان قد وعد بها، فجرى تسليمها قبل عدة أسابيع. وقد شكل ظهورها مفاجأة للسوريين. والعنصر الثاني كشفه جهاز التنصت لدى المخابرات العسكرية في دمشق. فكانوا قد لاحظوا أن أحد المتدخلين على شبكة راديو القوات اللبنانية يدعى شلومو. وبالفعل كان هذا الاسم الرمزي لأحد المسؤولين العسكريين المسيحيين، سليمان صوايا، الملقب بهذا اللقب من قبل رجاله بعد تدريب له في إسرائيل. على كل حال قتل في أثناء الحصار، ولم تكشف جثته إلا بعد ذوبان الثلوج. وظل السوريون مقتنعين بأن الأمر كان يتعلق بإسرائيلي.

بعد مناورات زحلة الأولى والمناقشات التي دارت مع رفّول في كانون الأول، كان بشير الجميّل مقتنعاً بأن هذه المعركة، التي لم يكن قد أضرمها، جاءت في الوقت المناسب. فمن الممكن أن تكون تماماً ذريعة لتدخل إسرائيلي محتمل، نظراً لاشتداد الاستياء الدولي من دمشق. عبر المكتب 04، أرسل رسالة تلو الأخرى إلى تل أبيب، مستعجلاً الإسرائيليين للقيام بـ "شيء ما"، بكلام آخر، للتحرك عسكرياً. لقد صار الأمر طارئاً، الآن وقد غرقت زحلة في النار والدّم.

سرعان ما ارتدت المعارك رداء حرب شاملة وامتدت إلى مجمل المنطقة المسيحية. كانت الشوارع خالية أو تكاد، فالسيارات النادرة التي كانت تجري، كانت تسير بسرعة هائلة، وكانت آذان الأهالي المختبئين في الملاجىء، ملتصقةً بالترانزستورات. وكانت الأصوات الوحيدة الممكن التقاطها هي صفارات الإسعافات وتمزقات العذابات.

حطت المروحية من طراز "بل" التابعة لسلاح الجو الإسرائيلي أمام محطة الزوق وسط غيمة غبارية. خرج منها مناحيم نافوت بوجهه المتصلب تحت فروته الشقراء. وكان ناحيك، كما يدعوه زملاؤه، متبوعاً بضباط ارتباط من جهازه، كانت ذقنه المتأنقة جداً وكذلك هيئته تجعلانه يشبه بوبّي شبهاً غريباً. كان إريتز ك[1] (Erez C.)، الملقب بتومي أثناء تحركاته في لبنان، يحمل محفظة في يده. جرى نقلهم إلى ثكنة أدونيس حيث انضم إليهم بشير ومساعدوه. بلا تورية، أخبرهم مندي أن إسرائيل قد لا تتدخل في معركة زحلة. كانت المناقشة حادّة؛ إذ كان بشير قد رأى آماله تنهار. وكان نافوت قاطعاً:

– كنا قد حذرناكم من تحدي السوريين عسكرياً. هاجموهم سياسياً، ولسوف نساعدكم على ذلك! لكن أبداً عسكرياً. فليس أنتم الذين ستفرضون علينا تاريخ ومكان معركة مع سورية. هذا يتوقف على قرارنا وحده.

– لكنها الفرصة المناسبة، أو أبداً؛ عبثاً حاول بشير تسويغ وجهة نظره.

– نحن لسنا من هذا الرأي. لقد ارتكبتم خطأ جسيماً جداً.

(1) الذي لا يزال يخدم في الموساد.

ثم أضاف بصوتٍ أكثر هدوءاً.

– رغم كل شيء، سندعمكم. سنرسل لكم الذخائر التي تحتاجون إليها. كما سنزودكم بالصور الجوية الملتقطة يومياً. وإليكم الهدية الأولى منها. فتح تومي محفظته، أخرج منها باقة صور، وضعها على الطاولة. كانت الكليشهات ذات وضوح مدهش. كانت تتميز فيها حتى الأسلحة التي يمسكها الجنود السوريون في أيديهم. لقد قامت بالتقاطها طائرات استطلاع بلا طيار، من طراز RVP Drone (بالعبرية: Ma'zla't)، من صنع إسرائيلي. إن هذه الأجهزة، السهلة الاستعمال، كانت عصية على الرصد، نظراً لضآلة حجمها الذي كان يضلل الرادار من على علوٍ منخفض. عموماً، كانت هذه الطائرات مجهزة بكاميرتي تلفزيون، مركبة في أنبوب مصنوع من نوع من البلاستيك تحت هيكل الطائرة. كما كان على متنها عدة أعتدة إلكترونية مضادة، أعتدة رصد ما دون الأشعة الحمراء (FLIR) وتحديد / تسجيل بالليزر. كان مندي قد طلب نسخاً عن هذه الصور من شعبة (NCO) المختصة في جهاز أمان الذي كان يستثمر الصور الذكية (Photint)[1]. كان ينبغي الآن أن يتولى بشير بنفسه إدارة وضع زحلة والتصف الذي تتعرض له المناطق المسيحية.

في المساء ذاته، كان قد جمع في مقره العام في الكرنتينا، مجموعة الكسليك، بإدارة الآباتي بولس نعمان. كان بولس نعمان، أستاذ تاريخ في جامعة الروح القدس – الكسليك، رئيس الرهبانية المارونية. كان قد عرض ذات يوم، مجلة تصدر في إمارات الخليج، تظهر فيها صورة له مزيّحة بعبارة "نعمان: بيدي ذبحت فلسطينياً". وهو قول باطل تماماً، لكنه كان يكشف سمعة هذا الراهب من بلدة رشميا في عاليه. منذ خطوات بشير الجميّل الأولى في مجالات العمل العسكري والسياسي، كان يمده بعونٍ ودعم قويين. فبمبادرةٍ منه، كان الرهبان الموارنة قد جمعوا حولهم مثقفين راديكاليين، طلب منهم "التفكير في القضية المسيحية": مجموعة الكسليك. وكانت شخصيات قد انضمت إليهم، مثل نائب جزين إدمون رزق، والأمين العام لحزب الكتائب، جوزيف سعادة، ورئيس محكمة التمييز، روبير عبدو غانم، وانضم إليهم ضباط أمثال العقيد منير من زحلة أو طارق نجيم، وسياسيون مثل جورج عدوان، رئيس التنظيم. بالطبع كانت زحلة هي الموضوع الوحيد لمناقشتهم. وكان كميل شمعون قد أعطاهم وثيقة يطالب فيها، بين مطالب أخرى، باللجوء إلى مجلس أمن هيئة الأمم المتحدة ونداءً وجهه البطريرك الماروني خريش إلى مسيحيي العالم الحر لإرسال قوة دولية حتى تحمي المدينة المحاصرة.

(1) تُصنف مصادر المعلومات حسب التقنيات المستعملة للحصول عليها. فوتينت: صور ذكية، هومينت: ذكاء بشري: إلينت: ذكاء الكتروني: فيزينت: ذكاء بصري، سيغينت: إشارة ذكية، كومينت: اتصال ذكي.

– ينبغي بوجه خاص أن يندد الرئيس سركيس بقوة الردع العربية التي تهاجم زحلة، وأن يطلب سحبها، وهذا ما صاح الآباتي نعمان به. بموجب مقررات قمة الرياض، كان الجنود السوريون الذين يهاجمون زحلة ويقصفون المنطقة المسيحية، يشكلون دوماً قوات الردع العربية، الموضوعة رسمياً في إمرة الرئيس سركيس وقيادة اللواء سامي الخطيب، اللبناني.

– حسب وزير الدفاع، يُشن هجوم شديد جداً على فندق القادري وباتجاه حي الحمّار، هذا ما قاله الآباتي نعمان. أمامنا قضيتان للمعالجة، وقف المعارك في زحلة و"لا شرعية" وجود قوات الردع العربية في لبنان. يجب طلب ذلك من سركيس. فهو الذي طلبها وهو قائدها.

– أطلبوا من الرئيس أن يمهل حافظ الأسد ساعة واحدة لوقف المعارك، وإلا سيسحب الغطاء الشرعي عن قوات الردع العربية، هذا ما اقترحه جان ناضر كعادته.

فسقط الاقتراح. ليس فقط لأن الرئيس السوري لم يكن رجلاً قابلاً للابتزاز، بل فوق ذلك، كان إلياس سركيس يخشى أن يجد نفسه في عزلة، بعد ذلك. في ذهن الجميع، كانت زحلة قد صارت الأشرفية لعام 1978 الثانية. وبالغ بشير في مأساوية الوضع حين صور زحلة وكأنها دامور ثانية، تلك المدينة المسيحية المدمرة عام 1976، والتي ذبح سكانها بأيدي الفلسطينيين. اقترح الآباتي نعمان فتح جبهات أخرى لتخفيف الضغط عن زحلة، فأثار اقتراحه جدلاً طويلاً. لم تكن القوات اللبنانية تملك الوسائل لذلك. فقرروا الاتصال بالفرنسيين والأميركيين والألمان. وعد الآباتي نعمان بأن يهاتف الكاردينال كوك النافذ في الولايات المتحدة. لكن بدون أوهام كثيرة قال:

– المعادلة بسيطة، إما نحن وإما حافظ الأسد، ولن يفضّلنا أحد على حافظ الأسد، حتى إسرائيل.

– كنت أحبذ سياسة معتدلة، فأنا أعي المخاطر التي يمكن أن تؤدي إليها مجابهة مع السوريين، هذا ما أكده النائب إدمون رزق. لكننا إذا وافقنا اليوم على مبدأ التفاوض مع الأسد، فمن شأن ذلك أن يحطنا إلى مرتبة الذمّي[1].

– لنعِ تماماً ما نقوم به، هذا ما شدد بشير الجميّل عليه. فمن شأن هذا الأمر أن تكون له انعكاساتٌ على مسيحيي لبنان والمشرق. فردة الفعل الدولية ستكون مشروطة بالموقف الذي سنتخذه في الداخل. نريد هيمنة مسيحية على السلطة. فلنطلب من الرئيس سركيس أن يتحمل مسؤولياته بالفعل.

(1) مرتبة المسيحيين الذين يعيشون تحت حكم المسلمين، باعتبارهم مواطنين من الدرجة الثانية.

– إذا لم يفعل الرئيس ذلك بمحض إرادته، فلا بد أن نجبره على فعله. خذوا قراراً بهذا الاتجاه، كان هذا ما طالب به النائب.

قرر بشير فجأة:

– أنا موافق على رأي إدمون. سنتناقش في هذا الأمر مع سركيس.

كان قد نال ما كان يتمنى: الضوء الأخضر من المجتمع المسيحي المدني والديني. وفي الوقت نفسه، كان بيار الجميّل في المكتب الرئاسي في بعبدا. طلب منه سركيس قائلاً:

– تحملوا مسؤولية العمل الميداني. ولا تعتمدوا على الإفادة من ردود الفعل الدولية. أنا من جهتي مستعد للمضي إلى أبعد حد ممكن.

لم يعلق رئيس حزب الكتائب بكلمة. كان يدرك تماماً إمكانيات الرئيس سركيس المحدودة. كان هناك نقطة قطعية لا يستطيع تجاوزها: اتخاذ موقف حاسم جداً، قريب من موقف القوات اللبنانية، أو بكل بساطة اعتبار الحال كما هو، وإمكان تقسيم البلد إلى قسمين: المسيحيون من جهة وحلفاء دمشق، عملياً جميع المسلمين، من جهة ثانية. ذلك كان السبب الجوهري الذي كان يحول دون طلبه سحب قوات الردع العربية المفروضة من قبل رؤساء الدول العربية. في اليوم التالي، علم سركيس من جهاز التنصت في المكتب الثاني أن هيئة الأركان السورية كانت قد أعطت الأمر لجيش التحرير الفلسطيني بقصف الجيش اللبناني. منذهلاً، تصور الرئيس في لحظة أن يعلن هذا الخبر على الملأ. لكنه لم يفعل شيئاً.

"لن تظل إسرائيل مكتوفة اليدين أمام أحداث لبنان"، كان ذلك ما صرّح به شامير، يوم 5 أبريل – نيسان، وهو يخرج من اجتماع للحكومة الإسرائيلية، مخصص بكليته عملياً للوضع اللبناني. كان الوزراء قد استمعوا مطولاً لشروحات رفائيل إيتان والجنرال يهوشع ساغي، رئيس جهاز آمان منذ فبراير – شباط 1979. كان ساغي قد أمضى كل حياته المهنية في الاستخبارات العسكرية، وكانت الرسائل التي تلقاها من الكتائبيين حول الوضع في زحلة، تبدو له مشبوهة، نظراً لأن تقارير جهازه كانت أقل تشاؤماً. أفهم الحاضرين أن هذه القضية لفّقها بشير الجميّل لجر إسرائيل إلى صراع مع سورية. فكان يخشى من عملية تضليل إعلامي، كما قال للحكومة. لكن بيغن لم يكن مقتنعاً بما يقوله. فقد كان متأثراً جداً بما كان يعيشه مسيحيو زحلة وقارن وضعهم، "معزولين وينتظرون الذبح"، بوضع مقاتلي المقاومة اليهودية الذين كانوا يأملون بلا طائل، عوناً من الحلفاء، إبّان انتفاضة غيتو فرصوفيا، سنة 1943. فطلب مزيداً من المعلومات. بعد عدّة ساعات، حط ألكسندر هيغ في القدس. كانت هذه زيارته الرسمية الأولى كوزير خارجية. دارت مباحثات رئيس الدبلوماسية الأميركية ورئيس الوزراء الإسرائيلي في معظمها حول لبنان. صارحه هيغ بأن الولايات المتحدة كانت تحاول بلا جدوى

إقناع دمشق بوقف المعارك. وقدّر الرجلان ضرورة التوصل إلى حل طارئ. أسرّ الرئيس السابق للحلف الأطلسي لرئيس الوزراء الإسرائيلي عن نيته الضغط علّى المملكة العربية السعودية، المحطة المقبلة لجولته، حتى تتدخل بفعالية أكبر.

للرد السريع على طلب المعلومات من جانب مناحيم بيغن، أرسل الموساد محللين في مهمة إلى لبنان. كانت المجموعة بقيادة رجل شديد البدانة، ذي شعر شائب مسرّح بفرشاة: إيغال كارمون[1]. منذ وصولهم، قرابة نصف ليل يوم 5 أبريل-نيسان هذا نفسه، مضوا على التوّ إلى الهوائي (الأنتين) الدائم للموساد، المقام بالقرب من مطار المروحيات في محطة الزوق للكهرباء. كان ذلك دارة (فيلا) لشخص من آل مطر، تقع في زاروب في منطقة أدونيس، تقيم فيها عادة سفارة السنغال. وبما أن الدبلوماسي قد عاد فجأة إلى بلده لأسباب أمنية، فقد صادرته القوات اللبنانية. كان المشرف على الأنتين شموليك آفياتار، الملقب بأليكس[2]. وكان من أصل روسيّ، متدين جداً، قصير القامة، ضامراً، ذا نظرة زرقاء صافية، تنضحُ مكراً وذكاء. كان بشير قد زارهم زيارة مجاملة قبل أنْ يفتحوا حقائبهم. تلاقوا في صباح اليوم التالي عند الساعة التاسعة. سلّم إيغال كارمون لقائد القوات رسالتي تشجيع بالانكليزية. كانت إحداها تحمل توقيع مندي، مناحيم نافوت، والثانية، حملت توقيع فؤاد، بنيامين بن أليعازر.

منذ الفجر، كانت زحلة تخضع لقصف شديد. حسب المعلومات الواردة من بشير الجميل، كانت الحصيلة عشرين قتيلاً. سأله إيغال كارمون عمّا يمكنُ فعله بالملموس لأجل المدينة:

– لم يعد الأمر متعلقاً الآن بزحلة. لم يكن معتاداً على إثارة المواضيع السياسية. ترك بشير الإسرائيليين في رفقة مسؤولي أركانه وأجهزة مخابراته. أمضوا اليوم في النقاش واستكشاف الخرائط وتقدير الأوضاع العسكرية، وكان اللبنانيون يشرحون ورجال الموساد يسجلون الملاحظات. على متن المروحية سوبر-فرلون التي جاءت لـ "سحبهم" قرابة الساعة السابعة مساءً، كان هناك الجنرال بن غال، الملقب يانوش، قائد الجبهة الشمالية لإسرائيل. أعطى القوات اللبنانية عدة عشرات من وحدات الدم، ونقل إلى بشير رسالة شفهية من رفول: "لا تقلقوا، لن ندعكم تتساقطون". كانت هذه العبارة القصيرة قد أثّرت

(1) سيغدو لاحقاً مستشاراً في موضوع مكافحة الإرهاب، لدى رئيس الوزراء شامير وعضو مجلس الدفاع القومي.

(2) سيغدو لاحقاً المعاون المكلف بمشاريع التوطين في الضفّة الغربية، لدى آرييل شارون، ووزير الإسكان في حكومة شامير.

فيه مثل ضربة سوط حقيقية. فقد جرى تفسيرها بمثابة وعد أو ما يشبهه. كان ألكسندر هيغ منذ هبوطه في الرياض في الصباح ذاته، قد أدان بشدة القصف السوري واتهم موسكو بالوقوف وراء هذا العمل. ولتبيان عزمه القاطع على التدخل دبلوماسياً، كان وزير الخارجية الأميركيةَ قد طلب من سفيري الولايات المتحدة في دمشق وعمّان، ومن جون غونتر دين أن يلتحقوا به في المملكة العربية السعودية. في اليوم التالي، كانت جريدة لوريان - لوجور قد عنونت على خمسة أعمدة، في إطار أسود: "واشنطن لا تستبعدُ تدخل إسرائيل". وكان التوتر الدبلوماسي قد ارتفع عدَّة درجات.

عند منتصف النهار، جمع بشير فريقه في مكتبه في الكرنتينا، وأعلن بشيء من الصراحة:

- لا بد من اتخاذ قرار. لقد رمي الزهرُ. يجب إكراه إسرائيل على تلبية ندائنا. هذا المساء، سأذهب إلى تل أبيب لأقول لهم إذا لم يساعدونا، فنحن مستعدون لمسّادا[1] جديدة. آخر الدواء الكيّ.

- تضاعف عنف القصف على زحلة. كانت المدينة شبه مُحاصَرة. كان ثمة طريق واحدة تسمح ليلاً بالوصول إليها مشياً، وهي طريق معبر الزعرور غير البعيدة من بلدة قاع الريم. فؤاد بطرس، وزير الخارجية اللبنانية، قام بمسعى لدى ألكسندر سولداتوف، سفير الاتحاد السوفياتي. بلا طائل. التوقعات، المستخلصة استناداً إلى رصد مركز الدراسات والأبحاث العسكرية للقوات، الذي كان يديره فرنسي، جورج حداد[2]، كانت تتحدث عن هجوم وشيك نهائي على المدينة.

حاول نائب زحلة، الياس الهراوي، محاولة أخيرة لدى دمشق، لوقف إطلاق النَّار. فعاد منها بشروط تعجيزية: وحدة الجيش اللبناني التي كان يفترض بها الانتشار في المدينة لا يمكن لها أن تكون إلا وحدة ثكنة أبلح، وهي كتيبة استطلاع تُدعى جيش الطلائع. وكانت من القائد إلى أبسط جندي، موالية تماماً للسوريين. فوق ذلك، هذه الكتيبة بعد انتشارها، يجب أنْ تُوضع تحت قيادة دمشق مباشرة. كان المقصود طلب استسلام تام، رفضه بشير، وهو يحاول أنْ يُناور لكسب الوقت. جهد ضائع؛ فقد أوقع ذلك اليوم ثلاثين قتيلاً و 150 جريحاً.

يوم 8 أبريل - نيسان، بعد معارك شوارع ضارية، سقط حيُّ المعلَّقة في زحلة بأيدي جنود دمشق. في اليوم ذاته، دبَّ الذُّعر في القيادة العامة للقوات اللبنانية بسبب التقاط مخابرة بالروسية، على الشبكة السورية. جرى إعداد رسالة طارئة لإعلام تل أبيب بذلك.

---

(1) هو اسم المدينة حيث آثرت جماعة يهودية الانتحار الجماعي على الاستسلام للألوية الرومانية.

(2) Alain Ménargues, *Les Larmes de la colère*, op.cit.

كشف تحقيق أخير أن جهاز التنصت كان في الواقع قد التقط . . . اتصال راديو، بالعبرية، بين وحدتين إسرائيليتين في الجولان. هذا الأمر لم يضحك بشيراً. كان السوريون قد استنفروا جميع القوات المرابطة في لبنان. حتى المأذونين جرى استدعاؤهم. كانت زحلة غارقة في طوفان نارٍ حقيقي. إنما كانت المعلومة المطمئنة الوحيدة هي وصول تعزيزات إلى المدينة. حفنة من الرجال بقيادة إيلي الزايك وسمير جعجع، كانت قد تمكنت من المرور بطريق جبل صنين. كانوا قد مشوا طيلة ساعات على طبقة ثلجية كانت تصل إلى قامتهم. وكان هذا الخبر قد رفع معنويات أركان القوات اللبنانية. رغم أنه لم يكن من شأنه قلب الوضع العسكري. مرر ياسر عرفات، من طريق كريم بقردوني، رسالةً شفوية إلى بشير، لكي يخبره أن السوريين كانوا مصممين على المضي حتى النهاية وأن كل الممكن الوحيد كان في تهدئة اللعبة والحصول على وساطة عربية. هز قائد القوات اللبنانية كتفيه من دون أن يرد. كان أنطوان نجم هو الوحيد الذي لم يكن يرى كل شيء أسود، فأكد بلهجة أستاذية:

- إننا نكسب حتى الآن! فقد تمكنا من منع السوريين من العودة إلى زحلة. ولقد انتقل لبنان في أخبار الـ (BBC) من المرتبة 17 إلى المرتبة 5. ويستعد الأميركيون لإعادة النظر في الوجود السوري في لبنان. فوق ذلك استطعنا إطلاق ديناميكية كونية لصالحنا، يجب الاستمرار! علينا الاتصال بالبلدان المناوئة لسورية، كالعراق مثلاً.

- آه! لو كنا نستطيع الاعتماد فقط على أولئك الذين وعدونا بمساعدتهم، هذا ما رد به بشير بصوت خافت. كان قد أرسل الرسالة تلو الرسالة إلى رفول، وبيغن، ورئيس الموساد. فجاءه الرّد يوم 9 أبريل - نيسان: حطَّ مناحيم نافوت، بصحبة بعض المحللين من جهاز المخابرات الإسرائيلية، في الزوق عند منتصف الليل. بعد عشرين دقيقة، اجتمعوا مع بشير ومعاونيه الرئيسيين، وشرح رئيس شعبة لبنان في الموساد قائلاً:

- زحلة لا تبرر حرباً بيننا وبين السوريين، لقد ضغطنا على الأميركيين حتى يتدخلوا بقوة لدى السعوديين الذين هم، لديهم الوسائل المالية للضغط على دمشق، نحن مستعدون لمساعدتكم دبلوماسياً ولمدكم بالسلاح. أؤكد لكم أن ألكسندر هيغ جاهز لإعادة النظر في السياسة الأميركية بخصوص الوجود السوري في لبنان.

إنها المرة الأولى التي يجري فيها الحديث عن مسألة الإستراتيجية الدبلوماسية، ما بين القوات اللبنانية والموساد. كان بشير وجماعته واعين لذلك. ولكنهم لم يلحظوا أن بعض المحللين الحاضرين ما كانوا يرفعون عيونهم عنهم. ففي الواقع، يتعلق الأمر بعلماء نفس وبنفسانيين مولجين برسم صور جانبية لكل منهم. هذه "الملاحظات" كان لا بد أن تتكرر في غير مناسبة خلال الأشهر التالية. أبداً لم ينتبه بشير ولا محيطه لذلك. وهكذا كان

الموساد قد حلل بصورة منهجية استجابات جميع محاوريه . كما كان يستعين أحياناً بعلماء نفس " مدنيين " لرسم صور الشخصيات[1] . عموماً، كان تحرك هذا الجهاز المتخصص ميدانياً، محصوراً بالملفات المهمة فقط . إذ كان الإسرائيليون يدرسون بنحو خاص الاستجابات والقدرات التحليلية لقادة القوات اللبنانية في فترة الأزمة الحادة، وهي معطيات يمكن أن تكون حاسمة ومحددة لاحقاً، هذا ما قد رآه مسؤولو " مكتب لبنان " .

في ذلك اليوم لم يكن الإسرائيليون الزوار الوحيدين للبنان . إذ كانت الخارجية الأميركية قد أرسلت أيضاً مبعوثاً رسمياً خاصاً إلى بيروت : موريس درابر . فبعدما التقى الرئيس سركيس ورئيس الحكومة شفيق الوزان، استقبل بشيراً في مقر إقامة سفير الولايات المتحدة . كان قائد القوات اللبنانية ينتظر أن يتلقى، بنحو أو بآخر، تأكيداً لما قاله له، قبل ساعات، مناحيم نافوت، بخصوص التغير في السياسة الأميركية تجاه الوجود السوري . ولكن ما حدث كان دوشاً بارداً . تحدث ممثل ألكسندر هيغ حديثاً مطولاً وذاتياً عن دعم واشنطن للسلطة الشرعية ولم يذكر زحلة إلا بعبارة واحدة!

– على رجال الميليشيا أن ينسحبوا من المدينة .

انفجر بشير الجميّل :

– لقد ضيعت وقتي . فزحلة اليوم مسألة تجاوزها الزمن . إذ يجب إنقاذ كل لبنان . سيقوم السوري بضربنا مجدداً وأنتم تريدون " سورنة " لبنان . إنكم مجرمون! لا تعرفون ماذا ترتكبون! نحن من حقنا أن نعيش بأمان في مناطقنا . تريدون من الشباب أن يغادروا زحلة . لكن من ينبغي له أن يرحل؟ سكان المدينة الذين يقاومون أم السوريون؟

طلب موريس درابر من بشير، متجاهلاً الإهانة، أن يوافق على نشر الجيش اللبناني في المدينة وعلى التلال المجاورة . أكد جون غونتر دين، مستبقاً جواب بشير، أن هذا الحل يثير " عدداً معيناً من المشكلات " . أولها وليس أقلها، كانت مشكلة القطيعة التي أثارها رئيس الحكومة اللبنانية .

– إنكم تتعاملون مع السوريين، وهم بدائيون، كما كنتم تتعاملون مع السويديين! قال بشير بقوة . إنهم يعرفون استجاباتكم (ردود أفعالكم) تماماً . لقد اعتمدوا نهج الخطى الصغيرة لاحتلال لبنان بأسره . زحلة هي المدينة المسيحية في البقاع . السوريون يريدون تدميرها .

– لكن هناك دير الأحمر، والقاع . . .

– يتوقف بقاء هذه القرى على بقاء زحلة . تريدون أن يكون مصيرنا مماثلاً لمصير أقباط مصر . ليس الأمر كذلك ولن يكون هكذا أبداً .

(1) كان الحال كذلك لاحقاً، لاسيما بخصوص أمين الجميّل، مع عالم يهودي أميركي مشهور .

فَجْر العاشر من أبريل – نيسان، فيما كانت عملية قصف تشعل خط التماس الذي يشطر بيروت إلى شطرين، كان مظليو القوات السورية الخاصة ينزلون من المروحيات على التلال المحيطة بزحلة . بسرعة سقطت مرتفعات قلعة عرمتى ودير شرفة؛ عملياً كان المدافعون عن زحلة محاصرين، إذ إن الدروب الأخيرة التي كانت تسمح بتموين المدينة على ظهر الرجال قد صارت تحت نار السوريين المباشرة . لم يكن قد بقي أمامهم سوى الاستيلاء على بلدة قاع الريم، على طريق تل الزعرور، لإغلاق المنافذ كلياً . تلفن بشير إلى جو إده، قائد المحاصرين : أمامكم ساعة لاتخاذ قرار تاريخي! إما أن تبقوا في مكانكم وإما أن تنسحبوا . إذا انسحبتم فسوف تنجون، لكن سقوط المدينة أكيد . وإذا بقيتم، فلن أتمكن من إمدادكم بالذخائر ولا بالأدوية . سيكون عليكم الصمود بما عندكم من وسائل . اتخذ القرار الذي تراه الأنسب . إنما إذا بقيتم فاعلم أن الحرس يموت ولا يستسلم . هاتفني عندما تقرر .

جاء الجواب على الفور :

– سنبقى .

درس قائد القوات اللبنانية، مع فادي أفرام وفؤاد، الخرائط والصور الجوية التي زودهم بها الإسرائيليون . كان حصارُ المدينة مطبقاً . وكان من المستحيل إدخال قطعة خبز إليها .

– لا نستطيع السماح لأنفسنا بأن تصبح زحلة دامور ثانية . فلنصمد قدر المستطاع عند خطوطنا الدفاعية الحالية . إذا أجبرنا الوضع على التراجع، فسوف ينبغي الانسحاب إلى مواقع داخل المدينة، وترك المطارنة، وإلياس الهراوي، الأهالي والبطريرك، يعملون لإنقاذها . لا يجوز أن نسقط!

أعطى التعليمات لتوجيه نداءات جديدة إلى القدس :

– عظموا الوضع المأساوي! اصرخوا بالويل والثبور وعظائم الأمور! ضخموا الوقائع والأرقام، افعلوا ما تشاؤون، لكن تصرفوا على نحو يجعلهم يتحركون .

بعد عدة ساعات، وصلت الرسائل إلى مكاتب المسؤولين الإسرائيليين العسكريين والسياسيين . الجنرال يهوشع ساغي، الارتيابي، قرأها مراراً وتكراراً وهو يعلك غليونه . بدا له أنها رسائل مريبة . فالمواقف والملاحظات التي رصدها جهازه لا تذكر مذبحة ولا مجزرة . كان يعرف أن هذه الكلمات ستثير بيغن . فذهب إلى رئيس الوزراء لتحذيره . طلب بيغن أن تذهب بعثة استطلاع إلى الميدان .

وهذا ما قام به بنيامين بن أليعازر . بالرغم أو ربما بفضل العلاقات التي كانت تربطه ببشير، لم يكن فؤاد منخدعاً بالقناع التراجيدي الذي كان قائد القوات اللبنانية يرتديه . فقد أدرك بسرعة شديدة أن الوضع لم يكن ممتعاً أبداً، فهو لا يزال بعيداً جداً من الدراماتيكية

التي كانت رسائل القوات اللبنانية تتحدث عنها. خلال إقامته، كان وقف إطلاق النار قد أسكت المدافع في بيروت. وجرى كنس نثارات الزجاج واستأنفت الحياة وتيرتها العادية. لقد صدم فؤاد خصوصاً بالهدوء العميق الذي كان سائداً في كسروان وفي منطقة جونية. وكما هو الحال دوماً في لبنان، كانت المناطق غير المصابة مباشرة بالمعارك، تعيش حياة طبيعية. وكانت الحياة الليلية فيها شديدة الحراك، فالمطاعم مفتوحة، والاقتصاد ناشط جداً كما لو أن شيئاً لم يحدث من جهة الجبل الثانية على بعد 60 كلم من هنا. في إسرائيل، من شأن أقل مناوشة أن تستنفر كل السكان. كان تقريره يؤكد ما كان يفكر به رئيس جهاز الآمان.

يوم 18 أبريل ـ نيسان، طلب عطا الله عبد الوهاب، المستشار الأول للسفارة الجزائرية، مقابلة بشير. كان يروم سبر موقفه من قرار محتمل بقطع كل علاقة بإسرائيل:

– نحن مستعدون لذلك، ولكن بعد ضمان أمننا، رد بشير. نريد أن نعقد مع السوريين اتفاقاً مماثلاً للاتفاق الذي عقدتموه مع الفرنسيين في إفيان.

في السياق، كان ذلك رفضاً قاطعاً. في اليوم التالي، أقام جوني عبدو، رئيس المكتب الثاني اللبناني، غداءً في منزله، حتى يسمح لبشير الجميل بأن يلتقي السفير الأميركي سراً. ألغى جون غونتر دين التزاماً سابقاً، لكي يحضر الغداء. تواجد الثلاثة، أمام كأس، وعلى الشرفة المزججة المطلة على بيروت. قبل الانتقال إلى المائدة، فصّل بشير للدبلوّماسي، معارك زحلة ومقاومة رجاله بمواجهة السوريين. إنكم توشكون على جر مليون مسيحي نحو الموت، هذا ما اتهمه به السفير.

– سندمر الهيكل على رؤوسنا ورؤوس أعدائنا، هذا ما كان رد به بعنجهية قائد القوات اللبنانية. لقد هوجمنا وأُبدنا بينما العالم كله لا يكترث بنا. أتجدون هذا طبيعياً؟ أستطيع أن أؤكد لكم شيئاً: إذا كنا لا نستطيع استعمال المطار، فلن يستعمله أحد. وإذا كان أطفالنا لا يمكنهم الذهاب إلى المدرسة بسبب القصف، فسوف نقصف مدارس الآخرين. ستبقى الجامعة الأميركية مغلقة.

– شيخ بشير، نحن متفقون معكم تماماً حول الجوهر، هذا ما قاله له غونتر دين؛ لكننا نختلف معكم حول التوقيت.

– نرفض رفضاً قاطعاً حرب الاستنزاف المفروضة علينا. في ديسمبر – كانون الأول، بعد الاشتباكات الأولى، كنتم قد حصلتم على وقف لإطلاق النار في زحلة. ومنذ ذلك الحين، صار لدينا عدد من القتلى أكثر مما كان عندنا قبل تدخلكم. إننا لا نفهم لماذا تعاملوننا هكذا. إذا كنتم تريدوننا أن نرتمي في أحضان الشيوعيين، فقولوا ذلك بوضوح. ربما سنستطيع اختيار هذا الخيار، من دون أن ترغمونا عليه، هدد بشير. انتفض جون غونتر دين:

– هذه هي المرة الأولى التي تؤكدون فيها رغبتكم في الانتماء إلى العالم الحر.

– سنة 1958، كان لبنان موالياً لأميركا. لكن سياستكم قذفت به إلى أحضان العرب.

– لست مخطئاً تماماً.

سكت السفير لبضع ثوانٍ وأضاف بلطافة:

– لماذا لا تقبلون أن تنتموا إلى الإستراتيجية الأميركية؟

فتح محفظته وجعل بشيراً يقرأ بعض البرقيات التي كان قد أرسلها، بخصوصه، إلى واشنطن. إنها نصوص، على الأقل، مواتية لشخصه ولسياسته أيضاً. ثم قال:

– شيخ بشير، أنت شخص نظيف ونزيه. يجب أن تذهب بسرعة إلى الولايات المتحدة لعرض وجهة نظرك. سوف تحظى بالقبول الحسن. أستطيع ترتيب مقابلة مع هيغ. أنتم جماعة فعالة. اعملوا معنا. لن تكونوا عملاءنا. ستشاركون في سياستنا. سنتعاون معاً للدفاع عن مصالحنا المشتركة. تعلمون أن ليس هناك مشروع حل للمسألة الفلسطينية. اذهبوا إلى الولايات المتحدة! ستستطيعون مقابلة هيغ، وألن وكاسي. سوف تكونون فكرتكم الخاصة عن الوضع. وبعدئذٍ سيكون من الأسهل عليكم اتخاذ القرارات.

تجنب بشير الاقتراح مرتعشاً:

– لا أدري إن كنتم تعون خطورة وضعنا. ليس فقط على الصعيد الأمني، بل أيضاً على الصعيد السياسي.

– اذهبوا واشرحوا هذا كله في الولايات المتحدة، هذا ما قاله غونتر دين بإلحاح.

– لقد منع السوريون تدويل، وتعريب وحتى لبننة قضية زحلة. عندما قصفوا مناطقنا، يوم 2 أبريل – نيسان، لم نرد بقصف المناطق المسلمة. لأن بعض الأصوات في هذه المناطق ارتفعت ضد دمشق. ماذا ستكون نتائج زيارتي للولايات المتحدة؟ ماذا سيكون موقف الإسرائيليين؟

ـ لا تتماه خصوصاً مع الموقف الإسرائيلي، هذا ما نصحه به السفير؛ لكن لا تبولوا عليه!

– لن أفاجئكم إن قلت لكم إننا نواجه مشكلة ذخائر كبيرة. لقد استعملنا 200 قذيفة في زحلة وأنا مدين لإسرائيل. أيمكن لكم أن تلبوا حاجاتنا في هذا المجال؟

– سنرتب ذلك سراً مع وكالة المخابرات المركزية (CIA). لن يرد العرب إن حصلتم على أسلحتكم من الولايات المتحدة، بينما لن يتقبلوا الحصول عليها من إسرائيل، هذا ما قاله جون غونتر دين مؤكداً عليه وهو يهز رأسه. هل لديكم المال؟

– ولا قرش!

– عندما تذهبون إلى الولايات المتحدة، اطلبوا أيضاً أن يتمكن رجالكم من التدرب هناك. فأنا لا أضمن لكم شيئاً. لكن سيكون في مستطاعكم أن تشرحوا وضعكم. قولوا لهم إنكم جزء من العالم الحر.

– وإذا، شن السوريون هجوماً محدثاً عدة ثغرات في خطوطنا غداً في زحلة؟

– على هذا الصعيد، لا أستطيع أن أضمن لكم شيئاً، لهذا السبب أقول لكم اذهبوا بسرعة إلى واشنطن.

بواسطة المكتب 04، كان بشير قد تلقى رسالة من إسرائيل تنصحه كثيراً بأن يذهب إلى الولايات المتحدة. هذه الرسالة أوضحت أن الرأي العام الأميركي بدأ يتطور تطوراً مؤاتياً بشأنه، لا سيما بعد بث برنامج 20/ 20 الذي كان مخصصاً له، من قبل بربارة نيومان وجرالدو ريفيرا، على قناة (ABC). عندما كانت الصحافية قد اتصلت به لأجل التصوير، كان عدد من أفراد طاقمها قد رأوا فيه تأثير الموساد. على الفور، لم يُعرْ ذلك أي انتباه. والآن، بات على يقينٍ من ذلك. عملياً، كان دافيد كمحي قد "أوحى" بقوة، الريبورتاج، على الصحافية الأميركية، قبل عدة أشهر[1].

بعدما تشاور مطولاً مع فريقه، قرر عدم اطلاع الأميركيين ولا الإسرائيليين على المناقشات التي دارت بينه وبين كل منهم حتى يبقى طليق اليدين.

بعد أربعة أيام، يوم 22 أبريل – نيسان، كان الآباتي بولس نعمان "مخولاً" بالذهاب إلى دمشق. ذهب إليها بمواكبة عربة جيب محشوة بمغاوير الجيش اللبناني، فاستقبله عبد الحليم خدام، وزير الخارجية السورية، ولكنه خصوصاً الصديق المخلص للرئيس حافظ الأسد. في حوار مطول، عرض له خدام لائحة مآخذ دمشق: ولاؤكم للطوائف الدينية وليس للدولة. وفي هذا الإطار، أفرط الموارنة في استغلال لبنان منذ 1943.

ثم اتهم الآباتي بالهجوم "الغادر" على الجنود السوريين في الفياضية سنة 1978[2]، وكون الرئيس سركيس كان يعامل سورية على قدم المساواة مع الكويت.

ألح الآباتي نعمان على رغبة المسيحيين في عدم الوصول إلى نقطة اللاعودة، موضحاً بصوته الجهوري:

– كشعب قررنا أن نموت إذا كان ذلك ضرورياً، وهذا سبب تفوقنا. كما تعلمون، نحن

(1) ما قاله دافيد كمحي لألان مينارغ.
(2) انظر الفصل الثاني: "الجارة سورية".

جماعة صغيرة في الشرق؛ لكننا قادرون على إفشال كل مخطط لا نشارك فيه. لقد أكرهتمونا على التعاون مع إسرائيل للدفاع عن بقائنا. ونحن لا نطلب أكثر من القدرة على المشاركة في القرارات الأساسية بخصوص لبنان، ونحن نعي تماماً بأن هذه الخيارات لا يمكنها أن تسير بعكس المصالح العربية. ففي وضع كهذا لا يمكن احتواء بشير.

على مدى ثلاث ساعات، تبادل الرجلان الذرائع والأدلة لينتهوا إلى وضع لائحة بـ "المشاكل" الواجب علاجها، ومنها، بلا ترتيب، وقف إطلاق النار، بدء المفاوضات مع الكتائب، تسوية الخلاف بين القوات اللبنانية والرئيس فرنجية، إمداد زحلة بالتموين، الوجود الفلسطيني، الدور المنوط بالحركة الوطنية. وكان المسؤولون السوريون يطبقون المخطط الكلاسيكي القائم على خلق نقطة حساسة – مثلاً، الحصار التمويني لزحلة – وجعلها محور تفاوضٍ ينتهي إلى تغييب البقية كلها. في المناسبة، كان حصار المدينة نفسها قد صار أمراً واقعاً. واللائحة التي وضعها عبد الحليم خدام كانت حلولاً ينبغي البحث عنها، بقدر ما كانت تستبعد نقطة لا يريد السوريون الخوض فيها إطلاقاً: نهاية مهمة قوات الردع العربية التي لم يجرِ تناولها، أصلاً، في المقابلة بين الوزير السوري والآباتي.

بينما كان الرجلان يتناقشان، تطايرت شظايا وقف إطلاق النار. وقع 140 قتيلاً وجريحاً في بيروت خلال بضع ساعات. فرد بشير الجميل آمراً بقصف المطار الدولي. وكانت أخباراً مرعبة قد وصلت من زحلة. إذ ظهرت خلافات بين قسم من الأهالي والمدافعين غير الزحلاويين الذين استقدموا إلى المدينة؛ وكان الأهالي يتهمونهم بأنهم يطيلون أمد المعارك. ولم تهدئ النفوس الشائعات عن هجوم نهائي، التي كانت تنتشر بانتظام.

كانت مدفعية القوات، المتمركزة على جبل صنين، تضيق حياة جنود دمشق الذين كانوا يحاصرون المدينة. كان امتياز هذا الموقع أنه في مكان مرتفع (على علو 2000 متر تقريباً) يجعله بمنأى عن طلقات البطاريات المضادة أو عن هجوم أرضي مفاجئ. في المقابل، كانت نقطة ضعفه عزلته بالذات. فقد كان شديد التعرض لعملية مجوقلة مماثلة لتلك التي سمحت للسوريين بالاستيلاء على التلال المحيطة بزحلة. يوماً بعد يوم، كانت تتعاظم مخاطر رؤية اللواء حكمت الشهابي يشن عملية كهذه. فمن شأن الاستيلاء على قمة صنين أن يسمح للسوريين بالهيمنة على كل المنطقة المسيحية حتى البحر.

سأل بشير فؤاد أبو ناصر، رئيس المكتب الثالث:

– ما هي إمكانات الدفاع عن "الغرفة الفرنسية"[1]؟

(1) موقع عسكري استراتيجي في رأس الجبل، يُطل على السفحين الشرقي والغربي لجبل لبنان، ويقع على ارتفاع 2678 متراً، بناه الفرنسيون سنة 1939.

– هذا يتوقف على طريقة شن العملية السورية. الأمثل بالسبة إلينا سيكون في إيجاد صيغة دفاعية تضم وحدات من الجيش اللبناني.

أنت على حق، سأطلب من جوني عبدو أن يرسل بعضهـا إلى القمم. يجب سحب مدافعنا.

9

"البعض يفكر مثلكم..."

لم يكن لدى الجيش اللبناني الوقت اللازم للتموضع على ذرى جبل صنين. عند الساعة الخامسة والنصف من صباح 24 أبريل – نيسان، قامت موجة أولى من المروحيَّات السوريّة بقصف صاروخي لمواقع القوّات على القمم. وأنزلتْ موجة ثانية عليها مغاوير من الوحدات الخاصة، من الكتيبة 83 من الفرقة 41 النخبوية، قادمين من حرستا في سورية، بقيادة اللواء علي عبَّاس حيدر. استطاع بعضهم فقط من الخمسة عشر شاباً الباقين في الميدان، أنْ يلتحقوا بقواعدهم الخلفية. لقد سقطت النقطة الإستراتيجية لـ "الغرفة الفرنسية" في أقل من ساعتين.

عند العصر، طلب السفير جون غونتر دين من بشير أنْ يأتي لرؤيته في مقرِّ إقامته. أعلمه الدبلوماسي:

– منذ الآن، يشكّل مسيحيو لبنان جزءاً من الإستراتيجية الأميركية في المنطقة. إني أطلبُ منك ألاّ تكون عصبياً بعد الآن. إننا نعرض عليكم تحالفاً وسنقدّم لكم تغطية البلدان العربية المعتدلة. يجب أنْ تبقوا في العالم العربي. سوف نحميكم وأنتم ستدافعون عن الثقافة ونمط الحياة والقيم التي تؤمنون بها. عليكم بالذهاب الى الولايات المتحدة لشرح وجهة نظركم. لدينا تعليمات شخصية من رونالد ريغن. نحن نعتبركم قوة قيادية تتوطد بقدْر ما تكونون متوافقين مع الشرعية. لكنْ رجاءً، لا تُحدثوا تفجيرات. تصرَّفوا بهدوء! لا صراخ. يرى الرأي العام الأميركي أن المسيحي طيب وأنَّ السوري سيئ، وأن الإسرائيلي طيّب والفلسطيني سيئ. من المهم أنْ نساندكم في مواجهة اليسار اللبناني، لكنْ ثمَّة أمر رئيسي هو أن تبقى الحكومة شرعيةً في لبنان.

التقى بشير، بعد ثلاثة أيام، بواسطة سركيس، محمد الخولي رئيس جهاز مخابرات سلاح الجو السوري في قصر بعبدا الرئاسي. رجل ثقة لدى حافظ الأسد، مبتسم الوجه دائماً، يحبّ المزاح، ومع ذلك كان رجل المهمّات الصعبة عند الرئيس السوري. قال بوجه مكتئب:

– نأسفُ لما يحدث، ويجب التّمكن من طيّ الصفحة. سنة 1976، جئنا لإنقاذكم، خصوصاً أنتم المسيحيين؛ لكنَّ الوضع بيننا تدهور لاحقاً.

– فعلتم كلَّ شيء لضربنا، هذا ما كان ردَّ بشير عليه. نرفض أن تجرونا من طرف الأنف. لن تستطيعوا الاستيلاء على زحلة بغير القوّة، غير أنكم ستخسرون الكثير من الرِّجال والعتاد. إني أرفض سماع الكلام عن وقف لإطلاق النار. فلتتواصل المعارك! في حدود الممكن، لا يمكنُ للاتفاق إلاّ أن يكون كاملاً وشاملاً. أريد دولةً وليس بيت دعارة. أنا عندي هذه الدولة. أريد حليفاً في المنطقة. ليكنْ السوري، ليكنْ الإسرائيلي، ليكنْ الأميركي، ليكن السوفياتي. لكنّي لن أقبل بأقل من معاملة نديّة. في هذه الظروف نستطيع التفاوض. أريد الشمال، وزحلة والشوف. وقف إطلاق النار والطحين لزحلة، لا أهمية لهما أبداً.

– عملياً، كيف يمكنُ لهذا أنْ يتم؟

– نحن هنا وألفتكم إلى أن القصف المدفعي الذي تسمعونه، يتساقطُ على بيروت.

– إنهم المرابطون! (ميليشيا سنّية).

هيّا إذن! أنا أراقب كل شيء في منطقتي. يمكنكم إسكات هذه المدافع إذا شئتم. إذا كنتم غير مؤهّلين للتفاوض باسم المسلمين، فنحن قادرون على ذلك!

كانت المقابلة قصيرة. لم يكن أحدُهما يُريد التنازل. كان السوريون يعتقدون أن من شأن خسارة القمم أن تحبط معنويات القوات اللبنانية. لكنَّ هذه المقابلة كانت أولية، بنظر بشير. فهذه هي المرَّة الأولى التي كانت فيها دمشق تخاطبه مباشرةً.

كانت عدوانية بشير الجميّل اللفظية في مواجهة محمّد الخولي تكشف الصّدمة المعنوية والنفسية التي كانت القوات اللبنانية قد مُنيت بها. كان السوريون قد ربحوا ميدانياً. فمن المواقع المفتوحة، كان يمكنهم القصف المكشوف لمعظم المنطقة المسيحية.

كُلِّف جوزيف أبو خليل وجان ناضر وأنطوان نجم بمسعى أخير في إسرائيل. برفقة أليكس، رئيس هوائيِّ الموساد في أدونيس، ركبوا المركب في الكسليك. بعد خمس ساعات في البحر، رسوا عصر 24 أبريل - نيسان 1981 في حيفا. وفي المساء ذاته، تناولوا العشاء على مائدة مناحيم نافوت (مندي) في الضاحية الشمالية لتل أبيب، مساعده، بول[1]، ضخم، أنيق الملابس، يُجيد الفرنسية بطلاقة، انضم إليهم. كان جو المأدبة بالغ الكآبة. أعرب اللبنانيّون الثلاثة عن إحباطهم:

– لم نعد قادرين على الصمود. نعتقد أننا خسرنا الحرب. تتمتّع سورية بحرية حركة

(1) سيجري فقط استعمال اسمه الترميزي. لا يزال في الخدمة.

كبيرة. السوريون يستعملون المروحيّات. وضعنا يتدهور من ساعة لساعة. قادتنا العسكريون منهارو المعنويات، هذا ما شرحه جان ناضر.

– عملياً، الوضع جدّي، لكن لا يمكن القول إن كل شيء قد انتهى، هذا ما قاله مندي معترضاً.

أوضح جوزيف أبو خليل قائلاً:

– نحن لم نأتِ للتباكي، إننا هنا فقط لشكركم على كل ما فعلتم لأجلنا. والآن ليس أمامنا خيار آخر سوى التنازل. فالآن جاء دور المسيحيين الذين يريدون التفاهم مع السوريين والفلسطينيين.

في اليوم التالي، قرابة الساعة العاشرة، جاء مناحيم نافوت وشموليك أفياتار لرؤيتهم في جناح فندق "حياة" (Hyatt)، على شاطئ تل أبيب، الذي كان الموساد قد استأجره لهم. كانت الأخبار الآتية من بيروت سيئة جداً، إذ كان القصف قد شمل كلّ المناطق المسيحية. وكون الولايات المتحدة قد "قدَّرت" أن وجود السوريين على جبل صنّين قد قلبَ الأمر الواقع رأساً على عقب، لم يغيّر شيئاً في الوضع الدقيق.

– إننا مندهشون من مجرى الأحداث، أسرَّ مناحيم نافوت. لقد انتقدت الحكومة جهازنا. الواقع أننا نحاول عبثاً فهم الوضع وتفسيره. يجب أن نعرف ماذا حدث. . .

قاطعه جوزيف أبو خليل قائلاً بجفاء:

– من المدهش ألا تكونوا قد فهمتم. فأنتم على علم أكيد بأن إلياس حنّوش يقف وراء أحداث زحلة في ديسمبر - كانون الأول الأخير. بعد ذلك اضطررنا لتعزيز قوتنا العسكرية فيها، لمواجهة السوريين. مع ذلك غلبونا أو كادوا. غداً، سيربحون المعركة السياسية. وعندها سيكون لبنان تحت سيطرتهم وسينتقل إلى المدار السوفياتي. الغربُ لا يردُّ بالفعل، على كل حال. كان مشروعنا، مثل مشروعكم، جعل لبنان دولة حليفة لإسرائيل، دولة من العالم الحر. والآن، وضعنا ميئوس منه. إن السؤال الحقيقي الوحيد الذي يثار هو الآتي: ماذا يمكنُ أن نفعل أيضاً؟

– من الواضح أن أخطاءً قد ارتكبت. هذا ما اعترف به مندي.

– تعلمون، شرح جان ناضر، أنّ هذه الحرب التي شنّتها سورية، كانت في آن حرباً وقائية وحرباً تأديبية. إنها وقائية لأنّ ظهور القوات اللبنانية غير مرفوض من شريحة كبيرة من المسلمين، ولأنّ علاقاتنا مع الشرعية قد تحسّنت وصارت وسائل الإعلان الأوروبية تتحدَّث عنا في هذه الفترة بشكل إيجابي أكثر. أضيفوا إلى هذا كلّه أن بعض بلدان الجامعة العربية كانت تتصوّر بجديّة عدم تجديد ولاية قوات الردع العربية، إذاً تتصوّر سحب الغطاء

السياسي الذي كانت قد أعطته للوجود السوري في لبنان . كما كانت هذه الحرب تأديبية، بكل بساطة، لأننا تجاسرنا على إقامة علاقات مع إسرائيل . إننا ندفع ثمن الزيارات التي يقوم بها جنرالاتكم . ندفع الثمن اللوجستي والتدريب والدعم السياسي الذي تقدّمونه لنا . ولقد أعلم السوريّون، العرب، بذلك، العرب الذين يطالبون الآن بأن نقطع كلّ الجسور معكم .

تزحزح جان ناصر عن سند كرسيه وأضاف :

– باختصار، هذه الحرب لم نردها نحن . لقد فرضها السوريون علينا . فقد هاجموا زحلة وبيروت معاً، وهذه المرّة كانت نيرانهم أدقّ بكثير من المعتاد، مما يعني أنّهم أعدّوا هجومهم إعداداً جيّداً .

– هل يستطيع الرئيس سركيس التنديد بالقوّات السورية بوصفها قوات احتلال؟ هذا ما سأله مندي .

فأكّد أبو خليل بقوة :

– إنّه مستعدّ للقيام بذلك! بشرط أن يلقى الدّعم والمؤازرة منكم ومن الأميركيّين .

– لا يحقّ لسركيس أن يغامر بلا طائل بورقة الشرعية التي يمسكها، هذا ما قاله نجم مزايداً . يجب أن يتأكّد، تأكداً مطلقاً، من دعمكم له . فإذا وجّه نداءه، وكانت إسرائيل لسبب أو لآخر غير قادرة على التجاوب معه، سيكون قد حرق كلّ أوراقه . وهذه ستكون النهاية .

طلب اللبنانيّون من محاورهم أن يجد وسيلةً لوقف الكارثة في مرحلة أولى، والاهتمام بعد ذلك بالوضع السياسي .

قرابة العاشرة والنصف، تسلّل إلى الجناح رجل صغير القامة . كان الجنرال أهرون يعاريف[1] صديق آريبل شارون ومستشاره . كان قد قاد جهاز الآمان من 1962 حتى 1972 . حين تسلّم مهامه، كان أحد قراراته الأولى مكننة جهاز المخابرات العسكرية . فجمع فيه كل المعلومات المتوافرة عن الجيوش العربية . وكان هذا العمل الضخم قد أتاح للدولة العبرية، سنة 1967، بكسب حربٍ في ستّة أيام . عندما تقاعد يعاريف، في نوفمبر – تشرين الثاني 1972، كانت غولدا مئير، رئيسة الوزراء آنذاك، مندهلة لمجزرة ميونيخ[2] التي كانت قد وقعت قبل شهرين، فاستعادته إلى جانبها كـ "مستشار في مجال مكافحة الإرهاب" وكلّفته

(1) أدار أهارون يعاريف مركز الدراسات الإستراتيجية في يافا . توفّي سنة 1995 .

(2) في 5 سبتمبر – أيلول 1972، خلال الألعاب الأولمبية في ميونيخ، قام كومندوس مؤلف من ثمانية أعضاء في منظمة أيلول الأسود، بمهاجمة الجناح الإسرائيلي في القرية الأولمبية، فقتل ملاكمان وأخذ تسعة آخرون رهائن . أمرت الشرطة الألمانية بالهجوم لإطلاق سراحهم . قُتل جميع الرهائن في العملية . بعد سنوات، سيكشف تقرير ألماني أن ثلاثة منهم فقط قتلوا برصاص الإرهابيين . وأن جميع الآخرين قتلوا بنيران الشرطة الألمانية، وهذا ما رفضت بون الكشف عنه لاعتبارات سياسية .

بمعاقبة قتلة الملاكمين . وأنشأ لجنة X السرية جداً، التي أمرت باغتيال كل إرهابيي أيلول الأسود المتورطين مباشرة أو مُداورة في العملية .

قبلَ أهارون يعاريف تناول فنجان قهوة . وسأل :

– ما هو الوضع بوجه عام؟ إننا لا نفهم العلاقة القائمة بين النوايا الحقيقية للسوريين وبين أعمالهم على الأرض . لم نلاحظ أنّهم كانوا يحضرون لعملية واسعة النطاق كهذه . ربّما توجّب عليهم، في عدّة دفعات، استقدام تعزيزات من سوريّة . لقد استخدموا المروحيّات . ماذا يفعلون؟ أيمارسون ضغطاً سياسياً بواسطة الضغط العسكري، لأنّ من المحتمل جداً أن يسعوا إلى اتفاق سياسيّ أو، وهذا محتمل عموماً، يريدون مواصلة عملهم العسكري حتى ولو كلّفهم ذلك غالياً جداً .

– الواقع هو أنّ مصير لبنان على المحكّ، هذا ما أكّده أبو خليل . فهل سيبقى بلداً موالياً للغرب، يشكّل جزءاً من العالم الحرّ، ويكون صديقاً لإسرائيل؟ أم أنّه سيسقط في المعسكر المعادي؟ اليوم، نحن نقاتل وحدنا ضد المسلمين، الفلسطينيين، الشيوعيين والسوريين المدعومين من السوفيات . إنّ دعم الغرب غير فعال . صحيح أنكم تساعدوننا، لكن ذلك غير كافٍ، لأنكم ميدانياً لستم إلى جانبنا . إلى ذلك، نحن لا نستطيع الكلام عن دعمكم . حين احتلّ السوريّون المرتفعات قلبوا ميزان القوى دراماتيكياً . هناك مسيحيون قد يضطرون للتوقيع معهم على اتفاقية سلمية من شأنها السماح لهم بوضع اليد على السلطة المركزية .

– ما تقولونه في غاية الأهمية والفائدة، هذا ما ذكره الجنرال الإسرائيلي؛ لكنّ معركة زحلة هي الآن في غير موضعها .

قفز جان ناصر من كرسيه :

– لكن دمشق هي التي اختارت التوقيت والمكان! وليس نحن! كيف كان يمكننا شنّ معركة مع 20 متراً من الثلج على طرقات تموينا!

– كيف تفسّرون التدهور الذي حدث؟ سأل يعاريف .

– يجب معرفة السوريين وأساليبهم، قال جان ناصر متابعاً . بدؤوا بإرسال حنّوش وهم يعرفون أننا سنردّ على ذلك . ميدانياً، أعلم ضبّاطهم رؤساءهم بقدراتهم على إحراز نصر سريع، فقط بما لديهم من وسائل . في البداية، ظننا أن الأمر يتعلّق بنزاع مسيحي داخلي فتدخّلنا . لقد فاجأتهم مقاومتنا . بعد ذلك صار شرف الجيش السوري على المحك . وها نحن الآن محاصرون على كل الجبهات .

– لا بد أن تفهموا أنتم الإسرائيليين، أمراً ما، فهماً جيداً، أضاف جوزيف أبو خليل . ليس مسيحيو لبنان كياناً دينياً وحسب . هناك بنحو خاص عقلية، حضارة، حرية . فعندما

نتحدّث عن مذبحة، تظنّون أنّنا نبالغ. إنكم مخطئون! بالنسبة إلينا، لا تعني المذبحة الموت الجسدي. إنّه موت حرية مسيحيي الشرق. إنه يعني أن نصير مثل مسيحيي سورية أو مصر، مواطنين من الدرجة الثانية.

– ألخّص ما فهمت، استأنف أهارون يعاريف، لقد اختار السوريّون لحظة هجومهم لأنهم كانوا هم الأقوى ولأن الوضع الدولي كان مؤاتياً لهم. لم نفهم ذلك في السابق. مع ذلك، فقد جازفوا مجازفات كبرى، فوضعهم الداخلي لم يكن مستقراً جداً بسبب مشكلة الإخوان المسلمين. لقد تردّدوا في فصل بعض الوحدات لإرسالها كتعزيزات إلى لبنان، فأرغموا على الاستعانة بالمروحيّات. لكنّي أشكّ كثيراً في عزمهم على توسيع المعارك.

منذ محاولة اغتياله شخصياً، في 26 يونيو – حزيران 1980[1]، كان حافظ الأسد معرضاً لمعارضة طائفية شديدة يقودها الإخوان المسلمون الذين كانوا يستخدمون كبدل لكل تحرّك مضاد للعلويّين. منذ بضعة أسابيع، كان الأسد عرضةً أيضاً، لمعارضة علمانيّة، يسارية تشكّلت في الخارج.

– ما هي المساعدات التي يمكننا ارتقابها من الولايات المتحدة وإسرائيل؟ سأل أبو خليل.

أكّد مناحيم نافوت متجنّباً السؤال، أن أموراً كثيرةً قد توضّحت واقترح على اللبنانيين أن يمكثوا 24 ساعة إضافية، فلربّما التقوا برئيس الوزراء. رافقوا الجنرال يعاريف حتى باب الفندق، ومضوا إلى تناول الغداء في قاعة الطعام الكبرى المطلّة على البحر. في أوّل العصر، إنضمّ إليهم إسحق حوفي، رئيس الموساد، أعلمهم أن القوات السورية المنتشرة على المرتفعات، كانت محدودة نسبياً وفي كل حال غير كافية لشنّ هجوم على منطقة جونية.

– لقد خسرنا ما هو أساسي: زحلة والقمم، لفت جان ناضر. فهذا سيسدّد ضربةً لمعنويات الأهالي.

– أقدم السوريّون على قلب الأمر الواقع لصالحهم. إنهم يريدون إرغامنا على التفاوض معهم. إذاً، مشروعنا بخصوص السلطة سقط في الماء، ندب أبو خليل حظّه المنكود.

– بفضل ضغوطنا، دفع الأميركيّون السوريين للانسحاب من القمم، أوضح رئيس الموساد. لكن أنتم، فلا يتوجّب عليكم الانسحاب من زحلة! بنظر الولايات المتحدة، السوريّون هم جيش تهدئة سلمية، وليسوا جيش احتلال. صحيح أن السياسة الأميركية الجديدة لمّا تتبلور تماماً. عليكم الحفاظ على قوّتكم العسكرية والسياسيّة. فإذا فقدتم الأمل، فسوف تكون لذلك عواقب وخيمة.

(1) الفصل الثاني: "الجارة سورية".

من الظاهر تماماً أن الإسرائيليين كانوا يعتبرون أن وجود قوّات دمشق على القمم لم يكن ذا طبيعة يمكنها أنْ تقلب جذرياً معطيات المسألة اللبنانيّة. كما أنهم كانوا مقتنعين بأن سورية ما كانت مستعدّة لفتح جبهات جديدة.

– المهمّ هو الإبقاء على اتصالٍ دائم بيننا. يجب إحداث تغيير في موقف الأميركيين، نصح إسحق حوفي قبل أن يغادر.

عملياً كان اللبنانيون على موعد في اليوم التالي مع رفائيل إيتان. قادهم شموليك أفياتار ومناحيم نافوت، فتوغّلوا عبر بوّابة داود في حرم المدينة العسكرية الحقيقية، التي كانت وزارة الدفاع. فوجئوا بعدد النساء المجنّدات، المرتديات بزّات خضراء زيتونية، اللواتي كنّ يجرين بين المباني. عند ظهورهم أمام المبنى الضخم، كان الجندي القابع خلف المكتب قد سألهم عمّا إذا كانوا مسلّحين. ردّوا بالنفي وسلكوا السلّم الكبير المزدان بصور مطاردات – مقاتلات وهي في الجو. في الطابق الأول، كان هناك مكتب رفّول. بعد التحيّات المألوفة، طلب منهم رئيس أركان الجيش الإسرائيلي أن يخبروه عن تطوّر الوضع ميدانياً. كان يهتمّ خصوصاً بالتحرّكات العملانيّة للمروحيّات. كان يرى أن استعمال هذه الأجهزة قد أدخل عنصراً جديداً، رجّح ميزان القوى وقلبه حين أعطى للسوريين تفوقاً استراتيجياً أكيداً. اعتبر رفائيل إيتان أن دمشق إذ استقرت على قمة جبل صنّين، إنّما كانت تحدّ عسكرياً من هامش المناورة الإسرائيلية بعدما سيطرت على المنطقة المسيحية. بنظره، كانت العملية المجوقلة عملاً معادياً للقدس. وكان رئيس الوزراء قد أخبره هاتفياً أن الأميركيين، سيتّخذون، للمرة الأولى منذ 1976، موقفاً متشدّداً جداً تجاه سورية، على كل حال، سينعقد غداً اجتماع للحكومة لمناقشة هذا الموضوع.

– أيمكنكم أن تنقلوا أمراً إلى رئيس الوزراء؟ سأل جان ناضر، قبل أن يكرّر على مسمعه عرضه للحرب الوقائية والعقابية. لم يتراجع السوريّون، أضاف. إننا لا نتخيّل أنكم ستتخلّون عنّا. فإذا كنتم لا تستطيعون أن تساعدونا، فسنعتبر أنكم لعبتم ورقةً وخسرتموها، لكننا في كل الأحوال، نشكركم.

– كونوا متأكّدين أني سأنقل كلّ ما قلتموه لي، كلمة كلمة، إلى مجلس الوزراء. سنتابع باهتمام ما سيجري بعد الإنذار الأميركي.

– ماذا تنتظرون منا بالضبط؟ سأل أحد الجنرالات الحاضرين. هل تفكّرون بعمل محدَّد؟

– نأمل بتدخل الطيران الإسرائيلي ضد المواقع السورية على جبل صنّين وحول زحلة. فهذا لن يعارضه أحد، ولا يمكن اعتباره إعلان حرب على سورية.

- فهمت، صاح رفول بقوّة. البعض في هذا المكتب يفكّر مثلكم...

بلهجة اتهامية، أطلق أحد الضباط الحاضرين عبارة بالعبرية. كان اللبنانيون قد فهموا أن رفول كان يعبّر من وراء "البعض" عن وجهة نظره الخاصة. تابع رئيس الأركان الإسرائيلي حتى من دون تقديم المداخلة:

- سنقوِّم المعطيات. أظنّ أننا، بين يوم أو يومين، سنعرف ما ينبغي فعله. بالنسبة إلى إسرائيل، المسألة سياسية وليست عسكرية. الوقت ليس وقت الاستسلام. ستبقى إسرائيل بالنسبة إليكم ما كانته دائماً.

- نحتاج إلى انتصار عسكري من شأنه ترميم قاعدتنا الشعبية ورفع معنويات قواتنا، ظنّ أبو خليل أنّ عليه المزيد من الإلحاح.

- فهمت، قاطعه إيتان. الآن، ليس عندي جواب. فالأميركيون ليسوا أولاداً. حافظوا دوماً على اتّصال مباشرٍ بهم.

مساء اليوم ذاته، ركب الوفد اللبناني البحر مجدداً. كان بشير الجميّل وفادي أفرام ينتظرونهم على رصيف مرفأ الكسليك السياحي. منذ أن ظهر المركب في ضوء المصابيح واستطاع بشير أن يستبين الوجوه، فكّ يديه المعقودتين عند الصدر، ليصوغ السؤال: "إذاً، ماذا؟"

- مهمة ناجحة، صاح نجم وهو مغتبط.

ما إن رسا الموفدون الثلاثة حتى أطلعوه على جملة رفول القصيرة، وأكدوا له أنّهم على يقين بأنه لم ينطق بها جزافاً. لم يقتنع بشير البتة. في اليوم التالي، في 28 أبريل - نيسان، في أول الصباح، طلب هوائيّ الموساد في أدونيس، بشكل طارئ جداً، إحداثيات المواقع السورية حول زحلة. لم تكن تل أبيب قد طلبت أبداً مثل هذا الطلب. عندها، بدأ بشير يأمل بأن المهمة في إسرائيل كانت قد نجحت حقاً. على الفور طلب إرسال الرسالة إلى جو إدّه، "معلم" المدافعين عن زحلة، وحرص على أنْ تكون الإحداثيات قد أرسلت إلى تل أبيب. كان رفول قد طلب هذه المعلومات العسكرية، وهو يعلم بحصافة أنها لن تفيده من دون موافقة سياسية من الحكومة. بدأ مجلس الوزراء عند التاسعة صباحاً. كان من أكثر الاجتماعات الحكومية صخباً. ابتداءً، اقترح رفائيل إيتان شنّ هجوم جويّ على جبل صنين. فأعرب يهوشع ساغي، مدير الآمان، عن "تحفظات صارمة". وكرّر تحذيراته، مذكّراً بالاحتمال الشديد لفخ نصبه المسيحيون لتوريط إسرائيل في النزاع اللبناني. شدّد ساغي على خطر الردود العسكرية السورية الممكن تصورها، ومنها نشر صواريخ جوية مضادة في لبنان، من شأنها الحدّ من القدرات الإسرائيلية للاستطلاعات الجوية. كان عدة

وزراء من الرأي نفسه. إلا أن إسحق حوفي ظلّ صامتاً، مع أنه، لمرّة واحدة، لم يكنْ بعيداً عن مشاطرة هذه المخاوف. أخذ مناحيم نافوت الكلام، مؤيداً الدخول. حسم بيغن:

- لنْ نسمح لهم بتكرار مذبحة في لبنان.

على الفور، أمر إيتان بالتدخل. أُعلم بشير بالأمر عند الحادية عشرة صباحاً. نحو الظهر. أسقطت طائرات الـ إف 15، مروحية سورية من طراز M.18، ناقلة عملاقة، من صنع سوفياتي، تحمل تمويناً للوحدات المرابطة على جبل صنّين، وذلك بعد قليل من إقلاعها من قاعدة رياق. في الدقائق التالية، شنّت المقاتلات الإسرائيلية القاصفة هجوماً على مواقع قوّات الردع العربية، المتمركزة على تلال الفرزل ومنحدرات صنين والمرتفعات المحيطة بالـ "غرفة الفرنسية". في آخر العصر، أسقطت مروحية سورية ثانية، من طراز "آلويت"، صنع فرنسا. مساء اليوم ذاته، أكّد نائب وزير الدفاع الإسرائيلي، موردخاي تزيبوري، في مداخلة تلفزيونية أن "تعهد إسرائيل تجاه المسيحيين اللبنانيين ما كان يتعلّق بغير "الجيب" الحدودي. [وحين استعمل السوريون المروحيات] أضافوا بعداً آخر في حربهم ضد المسيحيين، بحيث إن هؤلاء الأخيرين ما عادوا قادرين على الدفاع عن أنفسهم [...] ولقد تكبّدوا خسائر كبيرة [...]. بعد اليوم، لن يكون هناك نشاط جويّ سوري في المجال الجويّ اللبناني"[1].

كانت المرّة الأولى في تاريخها، التي تتدخّل فيها إسرائيل في بلد لم تكن أيّ حياة يهودية مهدّدة فيه. وفي الكرنتينا، كانت أركان القوات اللبنانية تحتفل بالحدث.

كما كان يخشى مدير جهاز الآمان، ردّ السوريون في اليوم التالي بنصب صواريخ أرض جو، من طراز سام 6 وسام 2، في وادي البقاع. كان رفائيل إيتان لا يزال يجهل الأمر، عندما استقبل، قرابة الساعة الخامسة والنصف، رئيس الأركان ومسؤول مدفعية القوات اللبنانية، مصحوبين بثلاثة أعضاء من الموساد، مناحيم نافوت، أفنير أزولاي (المدعو فيليب) وشموليك أفياتار الذين كانوا قد نظّموا رحلتهم. جاء اللبنانيان لتقديم لائحة بالأعتدة والذخائر التي كانوا يحتاجون إليها بشكل طارئ. طلب رفّول من بعض جنرالات أركانه[2] أن ينضمّوا إليه في مكتبه. قدّم لهم مسؤولا القوات اللبنانية عَرْضاً مفصلاً عن الوضع العسكري، قبل أن يختما:

- بعد هجماتكم الجوية، ارتفعت معنويات قوّاتنا. فقد بدأ السوريون يشقّون طريقاً

---

(1) يوم 13/ 10/ 1990، استفاد السوريون من التوتّر الناشئ عن حرب الخليج، فاستعملوا مجدّداً طيرانهم ضد الجنرال ميشال عون في قصر بعبدا.

(2) يكوتيل آدم (عمليّات)، أوري سمخوني (لوجيستيك) ياوري (آمان) وعاموس يارون (قوّات خاصة).

بالجرّافة نحو جبل صنّين. حالياً، نعمل على مشروع تعبئة 8000 طالب.

– هل ستستسلمون؟ سأل رفّول بلهجة براءة زائفة.

– أبداً!

– لا تحاولوا أنْ تقاتلوا السوريّين عسكرياً، نصح رفائيل إيتان بلهجة جدّية مجدّداً. فأنتم لا تملكون قوّتهم النارية ولا عديدهم. عليكم أنْ تحاولوا خلق وضع مضطرب، وحتى خلق اختلال أمني، بشن هجمات كومندوس ضدهم. إذا احتجتم إلى طوّافات، سنتناقش في الأمر. سنحاول تحديد نمط الجهاز الذي يمكن أن يناسبكم ولسوف نزوّدكم به. يمكن لكم شراؤه بواسطتنا. إذ من الصعب علينا تزويدكم بعتاد أميركي؛ لكنّي شخصياً أعطيت موافقتي على تلبية احتياجاتكم اللوجستية. اعلموا أن مساعداتنا صادرة عن مخزون احتياطات الجيش الإسرائيلي.

بينما كانت هذه المقابلة جارية في وزارة الدفاع في تل أبيب، كان جوني عبدو في بيروت قد أعلم بشيراً أن محمّد الخولي، رئيس أجهزة استخبارات سلاح الجو السوري، قد عاد في 30 أبريل – نيسان وأنّه كان راغباً في لقائه في قصر بعبدا الرئاسي.

حصلت المقابلة عند الساعة السابعة مساء. حيّا الضابط السوري بشيراً بلياقة، وهو يبتسم، كما لو أنّ زحلة والهجوم الجوّي الإسرائيلي لم يكونا سوى أوهام. متجاهلاً بمكر الشروط التي اقترحها، قبل عدّة أيام، عبد الحليم خدّام على الآباتي نعمان، أراد [الخولي] أن يعرف ما إذا كان لدى بشير مقترحات ملموسة، يتقدم بها. لفته قائد القوّات اللبنانية، قبل مناقشته بالأمر، إلى أنّ من الواجب، أوّلاً، الاتفاق على مبدأ التفاوض ذاته. فكرّر جوهرياً ما كان قد قال له، قبل أربعة أيام، حول ضرورة حل شامل:

– أريد دولة قويّة لكل لبنان. ما عدت راغباً في دفع أي شيء، كلما ضرب الرئيس ماركوس في الفليبين المسلمين، أو كلما تضرّر مسلمون في العالم. أريد ضمانات.

– بخصوص النظام السياسي، نحن مستعدون للنقاش. تنازل محمّد الخولي. لكنّنا نريد أن تكون سورية حليفة لبنان! فإذا لبّينا مطلبكم، من يستطيع أن يضمن لنا ألاّ تنقلبوا ضدنا ذات يوم؟

– هل تقبلون ضمانة سوفياتية ـ أميركية؟

– عندما توجد الثقة، لا لزوم لضمانات.

– هل يمكننا الالتقاء بالرئيس الأسد عند الحدود اللبنانية السورية؟

– لا أعرف، سأطلب منه ذلك. كيف سيتم تركيب النظام الجديد؟

– سنتناقش في ذلك لاحقاً. اريد كلّ لبنان أولاً.

– لقد شرحت للرئيس الأسد أنك[1] شاب نزيه، وأننا نستطيع وضع أيدينا في يديك. كما قلت له إنّكم كنتم قد تقاربتم مع إسرائيل، لأنكم شعرتم أنّكم محشورون.

نظر بشير إلى ساعته، أخذ موعداً للثالث من مايو – أيار وغادر فجأةً. مرّ سريعاً بالكرنتينا، طالباً من جوزيف أبو خليل وأنطوان نجم وزاهي البستاني لكي يعدّوا ورقةً للقاء المقبل مع محمّد الخولي، وأسرع نحو الزوق حيث كانت مروحية إسرائيلية تبحث عنه، لنقله إلى مقر مناحيم بيغن.

أزاح بشير غطاء نافذة الـ CH 53 التي كان ينظر منها إلى أضواء الساحل اللبناني وهي تبتعد. خلال عدّة دقائق كان قد لمح انعكاسات القمر على سطح البحر الهادئ الذي كان يسري تحت الطائرة. انصبّ نظره على كميل شمعون الجالس قبالته، مرتدياً سترة إنقاذ برتقالية فاقعة، وعلى رأسه قبّعة مخفّفة للضجيج. كان شعاع الإنارة الأمنية الباهت يمحو التجاعيد التي رسمتها السنون. كان بشير يكنّ حباً شديداً لهذا الأسد الكهل ذي اللبدة البيضاء. كانت المرّة الثانية التي يذهبان فيها معاً، إلى القدس. عاودت ذاكرته صور رحلتهما الأولى في أغسطس – آب 1978. كانا قد ذهبا لرؤية مناحيم بيغن الذي كان قد فاز قبل شهرين في الانتخابات التشريعية وتولّى مهامه كرئيس وزراء. كان بشير معجباً، منسحراً بزهادة منزل رئيس الحكومة الإسرائيلية وتواضعه. خلافاً لسلفه، العمّالي إسحق رابين، الذي ما كان يرغب في الإصغاء لكلام عن تدخّل مباشر أو غير مباشر في لبنان، كان بيغن قد أكّد لهم أن إسرائيل في عهده ستدعم الطائفة المسيحية. مبتسماً، استذكر بشير أن كميل شمعون، كلاعب سياسي محنّك، كان، عند الاستئذان، قد توقّف بضع ثوان أمام عتبة الباب، مبدياً تردداً كبيراً أو تفكيراً عميقاً، ثمّ استدار نحو مناحيم بيغن الذي كان يرافقهما ثانية، وكان يقول له، ملمحاً إلى الضفة الغربية: "كان الفرنسيون قد فرضوا علينا لبنان الكبير. وعندما نلنا استقلالنا، ضمّوا إلينا الأراضي المأهولة بالمسلمين. لقد كان ذلك سبب كل العلل والشرور. لا تحتفظوا بأراضٍ مأهولة بمسلمين؛ تجنبوا هذا الوضع، وإلا ستبتلون بالمشاكل عينها".

كان كميل شمعون، المولود في مطلع القرن [العشرين]، يعرف المسلمين جيّداً. كان حذره الوراثيّ تجاههم، يُولّد لديه حاجة الهيمنة عليهم لاحتوائهم على نحو أفضل. هذا الرئيس السابق للجمهورية، ذو التأهيل الأنجلوساكسوني، كان يعتبر منذ أمد بعيد "رجل الإنكليز"، بعدما كان سفير لبنان في لندن حيث صار مناصراً مقتنعاً بسياسة الولاء للغرب، على الطريقة البريطانية. بعد الحرب العالمية الثانية، كان المدافع الأغرّ عن جامعة عربية

(1) لا توجد في اللسان العربي المخاطبة بـ «أنتم».

متينة، على طريقة لورنس العرب، أي على خطى الفورين أوفيس (الخارجية البريطانية)، والمعارضة لطريقة الكي دورسيه (الخارجية الفرنسية). عموماً، لم يكن الفلسطينيون والعرب قد نسوا أبداً أنّه كان الممثل العربي الوحيد في الأمم المتحدة الذي صوّت عام 1947 ضد تقسيم فلسطين إلى دولتين، إحداهما يهودية والثانية عربية. ومنذ ذلك الحين، صار بمثابة المنسّق الأكبر للعلاقات بين اللبنانيين المسيحيين والإسرائيليين. خلال ولايته الرئاسية، كان قد اعتمد، وهو من مؤيدي ليبرالية متوحشة، سياسة متطرّفة في تمييز الفئات المسيحية، على حساب المواطنين الذين انقلبوا، منذ ذلك الحين، نحو العروبة الناصريّة المناهضة للغرب. لقد انسحر بشير عندما كان شاباً بالحكاية التي تصف كميل شمعون فوق سطح قصر الرئاسة سنة 1958، وهو يطلق النار مع حرسه على حركة تظاهر ناصرية، ناجمة عن قراره بالتماس ولاية رئاسية ثانية، يمنعها الدستور. لقد تطلّب نزول 5000 جندي أميركي على شواطئ بيروت لإعادة الهدوء وجعله يتخلّى عن مشروعه.

إنّ هذا الرجل ذا اللسان السليط، الخطيب المرموق، المثقّف، السياسي الماهر، كان يخلط، عمداً، السخرية والجرأة والاستفزاز مع صلافة محنكة. في أثناء حصار الأشرفية، سنة 1978، كان بشير وهو قد تعلّما أن يتعارفا. عندها كانا يريان بعضهما بانتظام، فولد بينهما احترام متبادل لدرجة أنّ عملية "ألتالينا" يوم 7 يوليو - تمّوز 1980 لم تتمكن من المسّ به.

عند منتصف الليل تقريباً، وصلا إلى المسكن الرسمي لرئيس الوزراء، في شارع بلفور في القدس. كان مناحيم بيغن محاطاً بإسحق شامير وحوفي ورفول وقائد سلاح الجو، الجنرال موردخاي غور، ومناحيم نافوت. كان القومندان يورام، مرافق مناحيم بيغن، الجالس في زاوية يسجّل الملاحظات. جلس كميل شمعون ورئيس الحكومة الإسرائيلية وجهاً لوجه. طوال ساعة، كان النقاش يدور في جو وديّ. أوضح بيغن أن نصب الصواريخ السورية في البقاع كان يمثّل اعتداء مباشراً على القوة الإستراتيجية الإسرائيلية. وباعتبار أن مصر قد حجمت بمعاهدة السلام، وأن العراق كان مشغولاً بحربه مع إيران، فلم يبق إذاً سوى سورية، البلد العربي الوحيد القادر سياسياً وعسكرياً على التدخل ضد إسرائيل.

- إن لم يسحبوا صواريخهم (سام) من البقاع، سنكون مضطرّين للردّ، صارحهم رئيس الحكومة. عندها سيكونون مكرهين على مغادرة قمم صنّين.

كان المسؤولون الإسرائيليون قد رغبوا في لقائهما معاً حتى يكونوا على بيّنة، بأنفسهم، من حالة العلاقات بينهم. فالتقارير التي كان الموساد يزوّدهم بها، بعد عملية "ألتالينا"، كانت تدلّ على أن الرجلين قد توزّعا الأدوار. فبشير الجميل، منذ تسلّقه على حزب الكتائب

يشتدّ أكثر فأكثر، كان قد ترك للأسد الكهل الزعامة السياسية المسيحية الداخلية. وكانت ملاحظات جهاز المخابرات تقول إنهما، عندما يكونان معاً، كان الشّاب يحرص تماماً على عدم وضع نفسه في المقدّمة، وكان يقف من "البطريرك" هذا، كما من أبيه، موقفاً في غاية الاحترام وكان ذلك قد تأكد. خارج مسألة الصواريخ الشائكة، لم يجر تناول أي موضوع. ظلّ النقاش عاماً. أصغى بشير من دون أن يتدخّل كثيراً. مع ذلك ألفت إلى أن أيّ حل لن يكون ممكناً من دون تدمير البنية التحتية لمنظمة التحرير الفلسطينية في لبنان.

- بدأت تفكّر مثلي، ابتسم بيغن وهو ينظر إلى عينيه.

منذ انتهاء المقابلة، عاد قائد القوات اللبنانية إلى لبنان تاركاً كميل شمعون الذي أراد قضاء بضعة أيام في إسرائيل، كانت سرية هذا التحرك تستلزم أن يغيب أقلّ وقت ممكن.

- ما زلت لا أعلم لماذا دعانا الإسرائيليون إليهم، قبل الأمس، كميل شمعون وأنا. لم أفهم سبب هذه الرحلة، صارح بشير الجميّل جون غونتر دين الذي جاء لزيارته في الأشرفية، يوم 2 مايو - أيار 1981.

كان السفير الأميركي، الجالس بارتياح في مقعد عميق في الصالون، يصغي باهتمام للحكاية التي حكاها له قائد القوّات. كان يهزّ رأسه، حين أخرج الدبلوماسي بضع وريقات من حقيبة الوثائق السوداء التي كان قد وضعها إلى جانبه على المنضدة. ألقى عليها نظرةً سريعة وهو يوضح أنها برقيّات مرسلة من نظيره في تل أبيب:

- إننا مقتنعون أكثر فأكثر بأنك رجل نزيه. بيغن معجب بكم كثيراً. قال، في معرض الحديث عنكم (قرأ غونتر دين النص الذي كان بين يديه)... بأنكم في غاية التهذيب واللياقة الاجتماعية. ثم أضاف، حين رفع رأسه: كان بيغن قد فوجئ كثيراً من واقعة وقوفكم باحترام عندما ذهب الرئيس شمعون ليبول (كذا) بينما بقي كلّ الآخرين جالسين. والحال، ما هي إذاً هذه الطريق التي ذكرتموها عندما قلتم إن السوريين كانوا قد شقّوها في صنّين حتى لا يضطرّوا لاستعمال مروحيّاتهم؟ وهل لديكم الإحداثيّات؟

هزّ بشير حاجبيه من المفاجأة. لقد كان سفير الولايات المتحدة في تل أبيب شديد الاطّلاع، حتى على كل ما يقال لدى رئيس الوزراء الإسرائيلي. كان قد نسي تماماً هذا القسم من النقاش مع بيغن. انعطف نحو فادي أفرام الذي كان حاضراً في المقابلة وطلب منه خريطة الأركان. تفحّصها الرجال الثلاثة وهم يفسّرون معنى الأشغال السورية على السفح الشرقي لجبل لبنان. دوّن غونتر دين بعض الملاحظات، ثم جمع أوراقه.

- كانت زيارتكم للقدس دعماً معنوياً لبيغن قبل الانتخابات أضاف السفير، وهذا ليس عملاً سيئاً. لكن، انتبهوا! إذا تحوّلت مسألة الصواريخ إلى نزاع بين إسرائيل وسورية، ابقوا

خارج المعمعة. نحن ضد كل نزاع مع سورية. فإذا لم تضرب إسرائيل السام، سيكون حافظ الأسد "مقروطاً" (كذا)! وإذا شنّ الإسرائيليون هجوماً، فإن ذلك سيكون فقط بمقتضى مصالحهم، لا بمقتضى مصالحكم.

كان جون غونتر دين يقدّر أنّ حرباً بين القدس ودمشق ستكون كارثة على لبنان لأنّها ستدور على أرضه. لم يكن بشير يشاطره هذا الرأي أبداً؛ لكنّه حرص تماماً على عدم مناقضته.

– كان كميل شمعون قد بقي في إسرائيل لصبّ الزيت على النار، تابع غونتر دين. كان الأمر سهلاً عليه. فلا أحد من رجاله يقاتل في زحلة. أفهم أن تكونوا أكثر اتزاناً، فأنتم لديكم شباب يموتون هناك.

– أجل لدينا شباب يموتون هناك! لا أحد يساعدنا، حتى بالسلاح. مع ذلك، كنتم قد وعدتمونا بذلك، ردّ بشير.

– لا مشكلة بخصوص الذخائر وتدريب رجالكم. عليكم الآن أن تلعبوا دوركم وأن تقولوا لنا ما تحتاجون إليه. لكن، أقول لكم مجدّداً، إذا نشبت مواجهة تجنّبوا كلّ مسؤولية في صدام محتمل بين السوريين والإسرائيليّين! أتعلمون أنّ لبنان هو، للمرّة الأولى منذ 1958، أولوية مجدّداً بالنسبة للولايات المتحدة؟ إنكم تتمتّعون شخصياً بتيار مؤيّد، تجهلون حجمه. اعرفوا كيف تناورون من دون أن تتبلّلوا. ستعطي لهيغ انتصاره الدبلوماسي الأوّل. وسيكون معترفاً لكم بالجميل! تذكروا أنكم جزء من سياستنا في الشرق الأوسط.

– لا يمكن أن يكون خلاف بيننا، فنحن غير ممثّلين في الحكومة، لفت بشير "متناسياً" بوعي وجود سليم الجاهل. لو كنا في السلطة لكنّا بالنسبة إليكم إسرائيل ثانية مع كل المكاسب والامتيازات، لكن من دون العوائق.

– يجب أن تدخلوا الحكومة، نصحه غونتر دين. وقتذاك سأستطيع التعاطي معكم بتكافؤ. سأستطيع أن أمدّكم بمساعدة كل العرب المعتدلين. سأستطيع مساعدتكم كما نساعد إسرائيل حالياً.

اقترح السفير عليه أن يزور واشنطن يوم 22 مايو – أيّار لمقابلة ألكسندر هيغ فيها. وافق بشير بإلحاح وسرعة. وسأل الدبلوماسي عما إذا كانت الولايات المتحدة قادرة على أن يفتح له باب المملكة العربية السعودية، التي كان يحتاج إليها، لإيجاد حل لقضية زحلة.

– في هذه الفترة، إنهم حذرون جداً حتى يتبللوا، تأسف السفير.

كان سحب قوات دمشق والفلسطينيين من لبنان هو الموضوع الأساسي للنقاش في واشنطن. لكن أحداً، ما كان يعرف كيف التوصّل إلى ذلك. في المقام الأوّل، كان الحلّ

العسكري مستبعداً. حتى أن رونالد ريغن قد طلب من مناحيم بيغن أن "يثبت ضبط النفس"؟ إذاً، كانت الطريق الدبلوماسية هي الوحيدة الممكن تصورها، وكان ثمة فرصة مناسبة ستُتاح مع نهاية مدّة قوات الردع العربية، في تموز 1981. كان ينبغي التصرف بحيث لا يُرغم إلياس سركيس ولا الجامعة العربية على القبول بولاية جديدة لها. كما كان القادة الأميركيون واعين إلى أن سياسة الرئيس السوري في لبنان كانت، في المدى القصير وتناقضياً، تناسب تماماً حملة الليكود الانتخابية. إذْ إن عملاً عسكرياً إسرائيلياً عشيّة الاقتراع لا يمكنه إلا أن يكون مؤاتياً لإعادة انتخاب مناحيم بيغن.

ألقى رونالد ريغن بكل ثقله في الميزان للحؤول دون تصعيد لا يمكنه إلا أن يُفضي إلى الحرب. فأعلن عن إرسال مبعوث خاص إلى الشرق الأوسط، فيليب حبيب، مكلّف بمهمة "استطلاع إمكانيات الحد من التوتّرات في المنطقة". ردّ بيغن إن "معجزة" تستطيع وحدها السماح له بالنجاح. كانت النبرة قد تحددت. لدى الإعلان عن مجيء فيليب حبيب، انكبّت القوات اللبنانية أكثر على ملفّ القوات اللبنانية. كانت تقدِّر أن واشنطن لم تكن قد حدّدت بعدُ، كلياً، سياستها المتعلقة بلبنان. كان يجب تزويدها بكلّ المعطيات اللازمة ليس فقط لجعلها تشاطرها تحليلاتها، بل أيضاً لتظهير صورة جيّدة لبشير الجميّل. كانت القوات ترمي إلى إقناع واشنطن بأن البلد لا يمكنُ أن يقوده سوى زعيم مسيحي، إن كان للمسلمين دور يلعبونه في لبنان. وهذا ما كان يستحيل تحقيقه نظراً للوجودين السوري والفلسطيني.

طوال يوم الأول من مايو – أيار 1981، عاشت الأركان الإسرائيلية على الجمر المتّقد. كان مناحيم بيغن قد أمر الجنرال موردخاي غور بتدمير مواقع صواريخ سام، في البقاع مطاردة ـ قاذفة. وقائياً وُضع الجيش في حالة تأهب حمراء لمواجهة أي رد من دمشق. قبل ساعة الصفر بساعتين، أعلن جهاز الطقس في الجيش الإسرائيلي عن وصول طبقة كثيفة من الغيوم إلى المنطقة، مما يحول دون أي هجوم على علوٍ منخفض: إذاً، جرى تأجيل الهجوم الجويّ لمدة 24 ساعة. في المساء نفسه، اتصل صموئيل لويس، سفير الولايات المتحدة في تل أبيب، على عجلٍ بمناحيم بيغن ليعلمه بوصول المبعوث الأميركي الخاص من قبل رونالد ريغن، فيليب حبيب، إلى العاصمة السورية غداً.

– لدى واشنطن، أوضح السفير، أسباب وجيهة للاعتقاد بأن وزارة الخارجية قادرة على إقناع دمشق بسحب صواريخها. إننا نطلب منكم صراحة عدم القيام بأي شيء يمكنه الإضرار بمهمة فيليب حبيب.

ألغى بيغن العملية الجوية على مضض. رفض السوريون طلبات فيليب حبيب.

أثار أفقُ رحلة بشير إلى الولايات المتحدة نشاطاً كثيفاً في طاقمه. استدعي على عجل

ألفرد ماضي، ممثل القوّات في العاصمة الفدرالية، تحضيراً للزيارة. فقد دأب منذ بضعة أشهر على أن يشرح لكل مسؤولي الإدارة الجديدة الذين التقاهم، أنَّ لبنان يمكن له أن يكون الخطوة الأولى نحو حلّ أزمة الشرق الأوسط. فكان يعرضُ لبنان كأنّه ملتقى كل مشكلات المنطقة.

منذ وصول ألفرد ماضي إلى بيروت، فصّل للفريق الذي يقود القوات اللبنانية، المسار الذي ينبغي أن يسلكه اتّخاذ قرار في متاهة السلطة، ووزن البيروقراطية، ولعبة مواقع النفوذ، والحساسيّات التي يجب مراعاتها، والرأي العام الواجب تحضيره. حسب الأيام، صارت زحلة الموضوع الثاني أو الثالث في الأخبار المتلفزة. كان المشاهدون الأميركيون قد أخذوا يتعاطفون مع المُحاصَرين وراحت الانتقادات تظهرُ ضد السوريين، حتى في الحلقات المقربَّة من الفلسطينيين، أكَّد لهم. فقد بدأت الإدارة الأميركية تسلّم بأن على دمشق أنْ تنسحب من بيروت. وكان مكتب القوات اللبنانية في واشنطن قد أخذ يعبّئ صفوف المغتربين اللبنانيين لشنّ حملة. فأخذت تصل إلى البيت الأبيض ألوف البرقيات والاتصالات الهاتفية والرسائل. لكنَّ نقطة ضعف تنظيم المسيحيين اللبنانيين في الولايات المتحدة كانت ضحالة اتصالاتهم بلبنان. إذ كانت المعلومات حول ما يجري فيه تصلُ متأخّرة جداً، حتى يمكن "استثمارها". موريس درابر، نائب وزير الخارجية لشؤون الشرق الأدنى، كان قد نصح ألفرد ماضي بقوة، أن يسد هذه الثغرة. بنحو خاص، كانت القوّات اللبنانية بحاجة إلى ناطق باسمها في العاصمة الأميركية.

اقترح ممثّل القوات في الولايات المتحدة أن توضح في وثيقة الأعمال المختلفة التي يمكنها أنْ تؤدي إلى رحيل السوريين. سمحت له اتصالات مع بعض ممثلي وكالة المخابرات المركزية بأن يلاحظ أنَّ هؤلاء لم يكونوا مستائين تماماً من مجرى الأحداث. كان المسؤولون الأميركيون الأكثر "انفتاحاً" على أطروحات القوّات اللبنانية موجودين في مجلس الأمن القومي وفي وكالة المخابرات المركزية. عملياً، كان هناك رجلان يلعبان دوراً مهماً على هذا الصعيد: هوارد تيشر، يهودي أميركي، مستشار شؤون الشرق الأوسط لدى ريتشارد ألن في مجلس الأمن القومي، ووليام كاسي، مدير المخابرات المركزية، الشديد العداء للسوفيات والسوريين. فسرعان ما اعتبر المحلّلون لدى هذا الأخير أنَّ القوات كانت مصدر معلومات بالغ الأهمية وأنَّ لديها طاقة فعّالة لا يمكن إنكارها. اقترحوا مراراً وضع القوات تحت السيطرة. وعدم ترك فرنسا، وخصوصاً أن إسرائيل، تضع يدها عليها. لكن وكالة المخابرات المركزية لم تتمكن أبداً، بمفردها، من تغيير السياسة الأميركية بضربة واحدة. كان هناك عدد من قادة البلد معادين لكل دعم للموارنة.

10

الإعتراف العربي

مع نصب صواريخ سام، السورية في البقاع، جاء دور منطق الحرب. ذاك أن تل أبيب حين تدخّلت في جبل صنّين وأسقطت مروحيّتين، كانت قد أبرزت ذراعها الحديدية لدمشق. وكانت القوّات اللبنانية مقتنعة بأن إسرائيل لن تتراجع، طالما أن واشنطن لم تقم بأي تعليق حول الهجوم الجوّي. إلى ذلك، كان موقف الدولة العبرية شديد الوضوح: "في لبنان، صار السوريّون قوّةً سلبية. كل عمل عسكري يتوقّف على سلوكهم"، كان مناحيم نافوت قد أكد لوفد من القوات اللبنانية، زار تل أبيب في 3 مايو- أيّار 1981. "نحن لا نستطيع القبول بالصواريخ في البقاع ولا بوجودهم على قمم الجبل".

في اليوم التالي، أُعلم بشير الجميّل بالأمر، قبل ذهابه مع زاهي البستاني إلى منزل جوني عبدو للالتقاء هناك بمحمد الخولي.

كان يمكن للقاء مع رئيس جهاز مخابرات سلاح الجوي السوري ألا يتمّ بسبب مبادرة من أمين الجميّل. إذ كان هذا الأخير راغباً في تلبية مطلب دمشق، فاقترح على المكتب السياسي لحزب الكتائب إذاعة بيان يستنكر "تحرّشات إسرائيل". بالنسبة إلى بشير، هذا النص لن يلبّي فقط مطلباً سورياً بلا مقابل، بل فوق ذلك - وهذا الأهم بالنسبة إليه - كان هذا البيان يندّد بعمله ويخشى منه أن يهمّشه هو، بينما يقدّم أخوه كمحاور محتمل في مواجهة السوريين. سارع بشير إلى والده غاضباً. احتوى غضبه بصعوبة، وهو يذكّر بيار الجميّل بأنّ رجاله يقتلون في زحلة لأجل الحزب، وأن "من غير المقبول أن تخونهم الكتائب". فأيّده الشيخ بيار وألغى البيان في آخر دقيقة.

كان في جيب القائد الأعلى للقوات اللبنانية الخطوط الكبرى لما يمكن أن يغدو أساساً لتفاوض محتمل مع دمشق. كان فريقه قد نصحه بعدم تقديم نص مكتوب؛ فكان أنطوان نجم قد سجّل شخصياً مختلف النقاط على المفكرة السوداء لقائده، حتى لا يتوجّب عليه أن يقدم وثيقة[1]. ما إن جلس بشير حتى فتحها على تاريخ 4 مايو - أيار وبدأ قراءتها.

(1) النص الكامل في الملحق 6.

– للوصول إلى ثقة متبادلة، لا مناص من حلول الجيش اللبناني محل القوات المسلحة الموجود في زحلة، على قمم جبل صنّين وعند خط التماس في العاصمة.

– هل تعتقدون أن الطرف الآخر يثق بالجيش؟ قاطعه محمّد الخولي، مُلمّحاً إلى اليسار اللبناني.

– ماذا يريدون إذن؟ من المفترض أنكم تعرفون ما يجري في بيروت الغربية! عملياً، مثل المسيحيين تماماً، ما عاد المسلمون والدروز يريدونكم ويقبلون بانتشار الجيش ليروكم ترحلون، تهكّم بشير قبل أن يتابع مصعّداً جداً سقف مطالبه.

– على سورية أن تجسّد الأمر الواقع الجديد بقبولها الخيارات السياسية لمسيحيي لبنان. بانتظار أن يغدو الجيش اللبناني قادراً من جديد على ضمان الأمن، ستتولاه القوّات اللبنانية بنفسها في المنطقة التي تُسيطر عليها. ستمتنع سورية عن معارضة ذلك. ويجب إعفاء لبنان من كل مسؤولية عسكرية تجاه القضية الفلسطينية. لا بد من منع الوجود الفلسطيني المسلّح في العاصمة وضواحيها، في المدن والأماكن المأهولة. كذلك سيتوجّب اتّخاذ كل التدابير اللازمة للحؤول دون أن تكون الأراضي اللبنانية مصدر خطر على سورية. ختم، أخيراً، أطلب إقامة تمثيل دبلوماسي متبادل بين سورية ولبنان[1].

وضع محمّد الخولي الذي كان يدوّن ملاحظات، قلمه:

– كم سيقع من القتلى لتنفيذ هذا المشروع؟

– أتعرفون كم سيقع من القتلى إذا أردتم اجتياح جونيه؟

– هذا صحيح! وافق الممثل السوري. مشروعكم ضخم. ماذا تقترحون عليّ في المقابل؟

– قولوا لنا ماذا تريدون؟ أرضاً؟ معاهدة؟ تمثالاً؟ عصّب بشير. قولوا ماذا تريدون؟ لو طلبتم مني أن أحملكم على ظهري إلى دمشق، فسأفعل ذلك! قولوا لي إنكم تريدون لبنان حراً، سيّداً ومستقلاً واخرجوا من لبنان. مسألة إسرائيل ثانوية.

– سأعود إلى دمشق لأناقش الأمر مع الرئيس الأسد. مقاربتكم خطيرة جداً.

– أنا لا أفاوض على وقف إطلاق النار. لا أفاوض على التلال أو على الطحين لزحلة. أنا أعرض قضيّتي في العمق. والآن، إذا أردتم أن تناقشوا وقف إطلاق النار أو الطحين، فإنّي أنسحب. سترسل لكم الكتائب شخصاً ما. نحن نلعب لعبة الكلّ لأجل الكل.

– لقد قرّرنا أن نتناقش معكم. يجب عليّ الرجوع إلى قيادتي. كانت اللهجة جافّة.

(1) عارضت دمشق على الدوام قيام علاقات دبلوماسية مع لبنان، لم يكنْ هناك أبداً سفارة للبنان في دمشق، ولا سفارة سورية في بيروت.

تبيّن لاحقاً أنّ الخولي فسّر مقترحات بشير، بوصفها الخطوة الأولى نحو تقسيم لبنان، تاركاً الجنوب للإسرائيليين والشمال والغرب لحلفاء دمشق، والبقية للمسيحيّين.

في الخامس من مايو – أيّار 1981، جاء وزير الخارجية السوري، عبد الحليم خدّام، شخصياً إلى قصر بعبدا الرئاسي لمقابلة إلياس سركيس ورئيس الوزراء شفيق الوزّان. اقترح عليهما "تسوية سياسية للأزمة اللبنانية" وأخرج من جيبه خمس وريقات مكتوبة بالعربية، بعنوان "وثيقة عمل من شأنها إرضاء الجميع". لم تكن سوى معاهدة مؤسسية، سياسية، اقتصادية، ثقافية بين لبنان وسورية، لا أكثر ولا أقل. كانت تنصّ على كل شيء، من البرامج التعليمية إلى تاريخ مشترك بين البلدين وتدريب ضبّاط لبنانيين في الأكاديميّات العسكرية السورية، مروراً باللجان الوزارية المشتركة التي تحدّد الخيارات السياسية للحكومتين[1].

طلب عبد الحليم خدّام لقاءً مع الكتلة البرلمانية الكتائبية ليعرض الوثيقة عليها. أصغى إليه بيار الجميّل، باهتمام وصمت كلّيين، ورفض الاقتراح بتهكّم.

– أنتم السوريون مسؤولون عن كل ما يجري. اسألوا رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة عمّا إذا كانا قادرين على تحمل مسؤولياتها.

تبادل المسيحيّون والسوريون الأسس المتقابلة لتفاوضهم. كانوا قد تحدثوا، لكنهم لم يباشروا أيّ حوار. بالأحرى كانوا في مأزق. إذ كان القصف قد استؤنف على زحلة بشكل فظيع.

حصل اللقاء الأول بين فيليب حبيب، موريس درابر – الذي كان يرافقه في جولته الشرق أوسطية – وبشير الجميّل، في منزل جون غونتر دين خلال عشاء يوم 8 مايو – أيار 1981.

– لا تنسوا أن تقولوا لحبيب إن حرباً بين إسرائيل وسورية لن تكون مفيدة لكم، هذا ما كان السفير الأميركي قد نصح به قائد القوات اللبنانية، حين دعاه.

فمنذ عدة أسابيع و"بصفة شخصية"، كان جون غونتر دين يضاعف توصياته للشاب حتى يحسّن علاقاته مع الإدارة الأميركية.

كان فيليب حبيب الباسم سعيداً بلقاء نجل آل الجميل الأصغر وهو يراه، في المناسبة، خالعاً بزّته العسكرية، ومرتدياً طقماً غامقاً. شدّ على يده مطوّلاً.

(1) مع بعض المتغيّرات، سيجري اقتراح النص نفسه للتوقيع من قبل قادة الميليشيات الرئيسية: وليد جنبلاط (الحزب التقدمي الاشتراكي). نبيه بري (أمل) وإيلي حبيقة (القوات اللبنانية) يوم 28/ 12/ 1985، تحت عنوان الاتفاق الثلاثي. سيشكل هذا الاتفاق الموقّع بدمشق، في أكتوبر – تشرين الأول 1989 الهيكل المفصّل للشقّ "الداخلي" من اتفاق الطائف الذي تبنّاه اللبنانيون بإشراف المملكة العربية السعودية والولايات المتحدة.

كان فيليب حبيب دبلوماسياً محترفاً، بديناً، وجهه منتفخ الصّدغين الخاصيّن بالرجال المرحين، عينان متوقدّتان فضولاً وذكاء خلف نظارتين سميكتين، يحب إظهار، وحتى إبراز، المظهر الشرقي الذي كان ينمّ عن أصوله. ابن بقّال لبناني ماروني من البرامية، بالقرب من صيدا، هاجر إلى حي بروكلن في نيويورك، وكان قد دخل إلى وزارة الخارجية في آخر الحرب العالمية الثانية، بعد دراسات في جامعة بركلي، في كاليفورنيا. كان قد اصطنع لنفسه فيها صورة "أب هادئ للدبلوماسية الأميركية". براغماتيكي من المدرسة القديمة، إذ كان يحكم على الحكومات الأجنبية وفقاً للخدمات الإستراتيجية التي كان يمكنها تأديتها للولايات المتحدة، أكثر مما يحكم عليها بحسب مآثرها الأخلاقية؛ شغل عدّة مناصب في كندا، في نيوزيلندا، ترينيداد، كوريا الجنوبية، وبنحو خاص في سايغون حيث كان الذراع اليمنى للسفير النافذ هنري كابوت - لودج. ناهيك بأنّ هذا الأخير كان قد اقترحه، عام 1969، على ريتشارد نيكسون ليتولى رئاسة الوفد الأميركي للمفاوضات السلمية في فييتنام الشمالية. في أثناء تلك المناقشات، كان فيليب حبيب قد اخترع نظرية التقدم "بخطى صغيرة". فهو إذ يعالج تفاصيل تافهة ومتنافرة في الظاهر، إنما كان ينسج بصبر لوحة كاملة من المطابقات الصغيرة التي سيظهر مجموعها بأنّه يشكل حلاً للمشكلة الإجمالية. شغّيل لا يكلّ (من 15 إلى 16 ساعة يومياً)، كان مشهوراً بتخويف السفراء الأميركيين الذين، كان يحل ضيفاً إلزامياً عليهم.

انبهر جيمي كارتر بتكتمه وحصافته، فاستدعاه إلى جانبه سنة 1978، لتحضير لقاء كمب دافيد بين أنور السادات ومناحيم بيغن. ذلك العام، عيّن نائباً لوزير الخارجية للشؤون السياسية، فكان فيليب حبيب قد أرغم، إثر نوبة قلبيّة، على تقاعده بعد ذلك بعدّة أشهر. ثمّ استعاده رونالد ريغن وعيّنه مستشاراً خاصاً له.

في مكتب السفير حيث كان قد جلس الرجال الأربعة، كان الجوّ جوّ تفكير ونقاش ودّي. أصابعه مشبوكة عند بطنه، كما هي عادته المألوفة، أعلن فيليب حبيب أنه جاء لحل مشكلات الصواريخ سام، وجبل صنين وزحلة والبقاع. سأل محاوره اللبناني إن كان يتصوّر حلاً:

- سنة 1976 قبلنا بدخول قوات الردع العربية إلى منطقتنا، وكان ذلك فشلاً، أوضح اللبناني. ثم وافقنا على نشر قوات الطوارئ الدولية[1] (FINUL) في الجنوب: وتكسّرت أسنانها هناك. فلا تتأملوا إذاً بأن تتمكن أية قوة طوارىء للأمم المتحدة، من النجاح في مناطق أخرى من لبنان. إن الترتيبات السياسية لا تستطيع أن تفضي إلى تسويات نهائية، فهي لا تحلّ شيئاً. لا يمكن وجود حل جزئي للبقاع.

(1) قوّة فصل من الأمم المتحدة لأجل لبنان. نُشرت في الجنوب...

- إذا رفضت سورية سحب صواريخ سام، يعلم اللّه وحده أيّ زلزال سيضرب الشرق الأدنى، قال مستشار الرئيس الأميركي.

بالأمس، في القدس، وأثناء احتفالات الذكرى 33 لإنشاء الدولة العبرية، كان بيغن، الذي يتولّى أيضاً مهام وزير الدفاع، قد أكّد على أن "جولة فيليب حبيب هي مهمة الفرصة الأخيرة". في الوقت نفسه، قام 7000 جندي سوري، فرقتان مع مدرّعات مدفعية ثقيلة، بتحرك نحو جنوب البقاع، وتمركزوا عند "الخط الأحمر" بين قريتي سحمر ويحمر، بينما كان نائب وزير الخارجية السوفياتية، جيورجي كورنينكو، قد وصل إلى دمشق.

- ستكون هذه كارثة بالنسبة إلينا جميعاً، زايد بشير وهو ينظر إلى جون غونتر دين، قبل أن يقدّم تقريراً مفصلاً لثلاثة اجتماعات عقدها مع محمّد الخولي. ثم أضاف: إنهم يحرّكون الأحزاب اليسارية بجعلها تراقب بعضها البعض. لماذا لا يمكنكم أن تروا غداً وليد جنبلاط على حدة؟ لماذا يجب حضور ألبير منصور[1]؟ حاولوا إذاً الحصول على شيء ملموس من السوريين، طلب بشير من حبيب. اطلبوا إعادة فتح المطار للجميع أو حاولوا إعادة الهدوء والحياة الطبيعية!

نهض واقتاد الأميركيين الثلاثة إلى الشرفة. كان الدّوي الأهم لانفجارات قذائف المدفعية الثقيلة يلفّ بيروت. وكانت بروق بيضاء تثقب بشهبها الليل وتنوّر بعض واجهات المباني في منطقة بدارو وكورنيش النهر. كان القصف قد استمرّ طوال النهار وكان فيليب حبيب يعرف شيئاً ما عن ذلك: كان قد لوحق تماماً بالانفجارات طيلة النهار، وكان بيار الجميّل، الذي جاء لرؤيته في آخر الصبيحة، يقود سيارته المبروزة بالانفجارات. وكانت أجهزة السفارة الأميركية قد نقلت إليه عدد الضحايا لليوم هذا: 21 قتيلاً و98 جريحاً.

- انظروا واسمعوا! ماذا ينبغي العمل؟ سأل بشير.

- على الرغم من بعض القذائف هذه، الوضع هادئ هذا المساء، شدّد غونتر دين.

- ماذا يريد السوريّون إذن؟ سأل فيليب حبيب من دون أن تغادر عيناه المدينة.

- يريدون السيطرة على كل شيء، وفرض سياستهم علينا. لكنّها مجرّد ألعاب نارية، أكّد بشير. فهم منذ هزيمتهم سنة 1967، يعملون على زعزعة استقرار المنطقة حتى يصيحوا بعد ذلك: إنه الانتصار.

عندما رجع إلى الصالون، أوضح قائد القوّات اللبنانية أنّ من الواجب اعتبار المسيحيين كتلةً موحّدة وأنّ كل محاولة لذكر أو لخلق انقسامات في صفوفهم ستكون جهداً ضائعاً.

- الرئيس سركيس على علم بكل ما نقوم به وهو مؤيّد لنا تماماً. فعندما تناقشت مع

(1) نائب مسيحي من رأس بعلبك (مقرّب سياسياً من دمشق).

محمّد الخولي، قمت بذلك باسمي، ولكن باسمه أيضاً. أعرب له السوريون عن تذمّرهم من تمرّدي. فردّ عليهم بأن مقترحاتي كانت مقترحاته هو أيضاً. عندها أعلمته دمشق أنها كانت تعتبر الجيش اللبناني بمثابة جيشٍ معاد. لماذا؟ ألأن الجنود المسيحيين والمسلمين، المندمجين من كل المناطق، يقومون أيضاً بواجبهم وهم يقاتلون قوات منظمة التحرير الفلسطينية؟ ستذهبون إلى دمشق غداً، اسألوهم إذاً عن إعادة زحلة لنا، والبترون وكذلك خط التماس في بيروت.

– هل تقبلون وساطتنا؟ سأل فيليب حبيب.

– نعم.

– ما هو الوضع في المطار؟ سأل المبعوث الخاص للرئيس الأميركي، الذي كان قد اضطر مساء الأمس للمجيء عن طريق البر من دمشق، بسبب إغلاق مطار بيروت الدولي.

– يُمنع علينا استعماله. أوقف فيه السوريون، أبا كمال، الرجل الثاني في القوّات اللبنانية. هذا ليس طبيعياً!

– معكم حق، وافق حبيب.

– كذلك أتجدون أنَّ من الطبيعي أنْ تُقصف مدارسنا وأنْ يموت أطفالنا فيها؟

- أكرِّر، معكم حق.

- لكنَّ السياق الإقليمي يظلُّ أهمّ من الوضع الميداني، تدخّل غونتر دين.

- هذا صحيح! اعترف بشير الجميّل، نظراً لأن الحرب، إذا كان لا بد أن تقع، فسوف تدور رُحاها عندنا. هل تظنّون أنّ عملية عسكرية ضد سورية من شأنها إغضاب العرب؟ ربما، طيلة شهر. وبعد ذلك، سيكونون بنحو خاص مبهورين بالتخلص من الديماغوجيا السورية ومن الإرهاب الفلسطيني. ناهيك بأن هزيمة الجيش السوري ستقع في غضون خمس أو ست ساعات وعندها سينتهي كلُّ شيء.

سأل حبيب قائد القوات اللبنانية، مركِّزاً على البحث عن حلول، ماذا يمكن أن تكون ردّة فعله إذا استتبَّ في زحلة وقف لإطلاق النار وسيطر رجال قوى الأمن الداخلي على المدينة.

– أنا مستعدّ لقبول أن تضمنوا شخصياً نجاحه، أكّد بشير. ويمكنكم الاعتماد علينا بالنسبة إلى كلٍّ ما يسهّل مهمّتكم، على أن لا يلحق شيء ضرراً ببلدنا وبكرامتنا.

– وبخصوص السام، ماذا يمكننا أن نفعل لخفض التوتر؟

– لا تكمن المشكلة في وجود صواريخ في البقاع. في الأصل، حنّوش هو رئيس عصابة، أضرم النّار في البارود في زحلة. إن لبنان يشبه مختبراً وضع فيه خليط من كل أنواع المتفجرات وتريدونه ألا ينفجر؟ هذا مستحيل! هل تصرّون على سحب السام 6؟ طمئنّي

على وضعي ومستقبلي. تصرّفوا بحيث يذهب الفلسطينيّون وعندها يغدو التحالف مع القدس غير ضروري، وسيفقد السوريون كلّ ذريعة تبرّر وجودهم ووجود صواريخهم. أنا لست مسؤولاً عن القرارات التي يمكن أن يتّخذها الإسرائيليون؛ لكن، من المؤكّد أن ما سيقومون به سيتوقّف على تطورّ الوضع عندنا.

انتقل الرّجال الأربعة إلى المائدة، وتداولوا موضوعاتٍ أخرى. بينما كان بشير يستأذن، أخذه حبيب على حدة وهمس له:

– زيارتكم للولايات المتحدة بالغة الأهمية. ستتغيّر أمور كثيرة في الأسابيع القادمة. نتمنّى ألا تقع خضّات كبرى في لبنان حتى لا تؤخّر العمل الذي يجب علينا أن ننجزه معاً.

كان القصف المجنون الذي كان "يدوّي منذ منتصف العصر، قد أفرغ الشوارع التي سلكها قائد القوّات اللبنانية لبلوغ مقرّه العام. روى لفريقه المناقشات التي أجراها مع الأميركيّين، ثمّ كلف جان ناضر بالذهاب إلى أدونيس لتقديم ملخّص عن ذلك إلى أليكس.

كانت قرقعات الجزمات تطرق النّفوس بقوةٍ متزايدة. طلب وليد جنبلاط مقابلة زاهي البستاني، صبيحة 9 مايو – أيار ليعرب له عن مخاوفه من رؤية جبل الشّوف يستخدم كساحة قتال. أوضح الزّعيم الدرزي أنّه كان يحاول نشر قوّاتٍ على كل الطرقات الممتدّة من الساحل إلى الجبل للحؤول دون مدٍّ فلسطيني محتمل في حال وقوع هجوم إسرائيلي. كان يتمنّى أن تشهد مدينة جزّين المسيحية، التي تسدّ المنفذ الجنوبي للشوف، حياداً كاملاً بحيث يمكن تجنّب ردّة فعل الفدائيين. لم يكن وليد جنبلاط يريد أن يقع بين نارين وأكّد عدم ارتباطه:

– المهمّ هو أن يرجع السوريون إلى حمص. فإذا ظلّوا في البقاع، فعندها تقع المصيبة! صارح محاوره.

كانت تصريحات عرض العضلات المتتالية، سواءً على لسان الإسرائيليين أم في الصحافة السورية، تنذر بإمكانية انفجار وشيك. فتل أبيب كانت تبدو مصمّمة على حل نهائي لمشكلة اضطراب أمن حدودها الشمالية، باللجوء إلى القوّة. تكاثرت الاتصالات اللبنانية – اللبنانية لتستعرض كل الفرضيّات. زعيم الطائفة السنية، رئيس الحكومة الأسبق صائب سلام، صارح جوني عبدو:

– إذا خلّصنا الإسرائيليون من السوريين، فأهلاً وسهلاً بهم.

أما القوّات اللبنانية فقد قرّرت من جانبها أن تستفيد من كل الفرص والمناسبات المتاحة. لكنّها كانت لا تزال تجهل ما إذا كان العلم العسكري المرتسم في الأفق، يرمي إلى تغيير إستراتيجي إقليمي كامل أم أنه كان يشكّل مجرّد عملية ضد السام 6. عقد بشير عدّة

اجتماعات للشغل على كل الفرضيّات. كان أليكس قد أخبره أن تنسيقاً بين الإسرائيليين والقوّات اللبنانية، قد جرى درسه في تل أبيب، وربّما ستدور مناقشات حول هذا الموضوع. طلب قائد القوّات اللبنانية من فريقه أن يضع خططاً لعملياتٍ مناسبةٍ لقدرتهم العسكرية، مثل القيام بعمل في زحلة أو في المتن الأعلى.

بعض ضبّاط الجيش اللبناني، المقرّبين من القوات اللبنانية والمقتنعين بوشوك هجوم إسرائيلي واسع النّطاق، ألحّوا على بشير حتى يستعدّ للعمل. خلال اجتماعين مطوّلين مع العقيدين نسيب عيد وعامر شهاب، يومي 6، و11 مايو – أيّار 1981، في مدرسة الفياضية العسكرية. درس أنطوان نجم الأشكال الممكنة للتنسيق بين الجيش والقوّات اللبنانية في حال النزاع، وفي أفق انسحاب كامل للسوريين من لبنان وتدمير الجهاز العسكري الفلسطيني بعدما قدّروا أن أيّ عمل من جانبهم غير ممكن تصوره قبل نهاية العملية الإسرائيلية، وضعوا تفاصيل القيام بانقلاب عسكري. ينبغي أن تقوم به القوّات اللبنانية وبعض وحدات الجيش، بدعم من الرئيس إلياس سركيس. فهذا يفترض به استدعاء بشير الجميّل لترؤس حكومة وحل المجلس النيابي وتعليق الدستور، وشرح شرعية انقلابٍ كهذا، أمام المجتمع الدّولي.

حتى الآن، كان الرئيس سركيس يسعى للحصول على وقف لإطلاق النّار، أو على الأقل، لجعل الأحياء السكنية في منأى عن القصف. كان الساحل المسيحي كله خاضعاً لموجات قصف متتالية. إلى ذلك يضاف وجود حاملة الطوّافات، موسكوفا، وعشر وحدات مواكبة سوفياتية، كانت تجوب البحر بين قبرص ولبنان. على الفور أرسل الأسطول الأميركي السادس حاملة الطائرات، فورستال، وخمس عشرة بارجة حربية. في أثناء ذلك، وجّه مناحيم بيغن إنذاراً إلى حافظ الأسد بخصوص الصواريخ. "ستبقى هناك حيث هي"، ردّت الصحافة السورية. حزمت العائلات الأجنبية المقيمة في لبنان حقائبها. سراً، تولّت السفارة الأميركية والأمم المتحدة ترحيل النساء والأطفال. انتشر الخبر كالنّار في الهشيم وأدّت موجة من الهلع إلى فقدان الليرة اللبنانية أكثر من 6% من قيمتها.

يوم 11 مايو – أيار 1981، طلب جون غونتر دين من ألفرد ماضي تسهيل مهمّة فيليب حبيب:

– يجب السماح بمعاودة فتح المطار. أعرف الأسباب التي تقصفونه لأجلها؛ لكنّ الآن هذا لم يعد مفيداً؛ إنه يضركم. سيكون في إمكانكم دائماً إعادة إغلاقه عندما تريدون، بإطلاق عدّة قذائف. على كل حال، إذا اندلعت حرب بين إسرائيل وسورية، سيغلق مطار بيروت الدّولي من جديد. عليكم القيام بحركة لخفض التوتّر. هذا سيساعد فيليب حبيب. سيذهب إلى دمشق لمعالجة قضية صواريخ السام وجبل صنّين وزحلة. فإذا أعدتم فتح

المطار سأرسل رسالة إلى وزارة الخارجية لكي أخبرهم أن بشيراً هو الذي اتّخذ القرار بذلك، الأمر الذي سيعطيه رصيداً لدى واشنطن لا تنسوا أن علاقتكم ما زالت في بداياتها.

– ماذا سنقول لجماعتنا؟

– عندما سيعلم المسيحيّون أن الأميركيّين يدعمون بشيراً، ستبقى شعبيته كما هي. أنا مستعد للذهاب إلى الشمال لأتحدث في الأمر مع سمير جعجع. حتى إني مستعد للقيام بجولة على كل القرى لإعلام السكان أننا نحن، الأميركيين، قد طلبنا إعادة فتح المطار. فمن مصلحتكم أن ينجح حبيب في مهمّته حتى نستطيع لاحقاً أن نؤمّن لكم غطاءً عربياً. فإذا فشل حبيب واندلعت الحرب بين إسرائيل وسورية، سيدعم العرب دمشق وستظهرون، خطأ أو صواباً، في مظهر حلفاء الإسرائيليين. عندها سيكون من الصعب علينا أن نواصل مساندتكم.

في المساء ذاته، أعلنت القوات اللبنانية، في بيان، أنها لم تعد تمانع في إعادة فتح المطار. بعد يومين، وبينما كان العالم المنذهل يعلم أن شاباً تركياً في الثالثة والعشرين يدعى محمد علي أقجا، قد أطلق النّار من مسدس على يوحنا بولس الثاني، كان السفير الأميركي يطلب من بشير أن يحزم حقائبه. فقد جرى تقديم المواعيد التي أخذت له في واشنطن من 22 إلى 18 مايو – أيار.

عند السابعة والنصف من صباح السبت 16 أيار وصل بشير الجميل وفادي أفرام بالطقم وربطة العنق إلى قاعدة جونيه البحرية. كانت رئاسة الجمهورية قد وضعت في تصرّفه طوّافة للجيش، حتى يتمكّن من الانتقال إلى مطار لارنكا في قبرص، على بعد 106 أميال بحرية، حيث كانت تنتظره طائرة خاصة، يُفترض أن تنقله إلى فرانكفورت في ألمانيا. من هناك، ينبغي عليهما السفر إلى الولايات المتحدة بواسطة الرحلة العادية للبان آم. بعد ساعة، كانا لا يزالان ينتظران أمام مطار جونيه: الطائرة لم تأت على الموعد. هاتف بشير جوني عبدو الذي كان قد نظّم القسم الأول من الرحلة.

– هناك مشكلة، اعترف له رئيس المكتب الثاني. تلقينا معلومات عن استنفار الطيران السوري لرصد الطوافة وإسقاطها، منذ إقلاعها من جونيه.

– هذا أمر جدّي؟

– من المستحيل أن نعرف حقيقة الأمر. يمكن أن يكون ذلك مكيدةً لإلغاء الرحلة، كما يمكنه أن يكون صحيحاً تماماً.

قبل يومين، كان صاروخ سام، قد أسقط طائرة استطلاع درون (بلا طيار) فوق وادي البقاع. وبداعي الشك، جرى إلغاء الانطلاق. أعلم غونتر دين بالأمر، وبعد 48 ساعة

أكّدت أجهزة المخابرات الأميركية صحة استنفار الطيران السوري. أعرب الإسرائيليّون عن استعدادهم لوضع طائرة في تصرّف بشير، تنطلق من تل أبيب؛ لكنّ واشنطن رفضت الاقتراح. ففي السياق الإقليمي، لا ينبغي للعلاقات بين القوات اللبنانية والولايات المتحدة أن تمرّ عبر تل أبيب، ولو حتى بالنسبة إلى مسألة نقل.

– لا تنزعج. لقد أبلغت حكومتي. هاك، اقرأ البرقية التي سأرسلها إلى واشنطن وقل لي إن كنت موافقاً.

أخذ بشير الورقة التي ناولها الدبلوماسي له. دون دخول في تفاصيل أسباب إلغاء الرحلة، شرح جون غونتر دين أنها "أسباب جدية" وأنّ قائد القوات اللبنانية كان في عمله "يعطي الأولوية لمهمة حبيب" وأنه "برهن على أنّه كان يأخذ في الحسبان المصالح الأميركية، وقد أظهر نضجاً سياسياً" حين سهّل إعادة فتح مطار بيروت الدولي، على الرغم من الضغوط التي كان عُرضة لها. أعاد بشير الورقة إليه وسأله:

– طيّب. والآن؟

– لا أحد يعلم إلى أين تسير الأمور. الجميع يتمنّون حلاً سلمياً ما عدا الإسرائيليين الذين لا يفكّرون بغير تدمير صواريخ سام. نحن لا نستطيع أن نتركهم. المعجزة وحدها يمكنها تجنيبنا الحرب.

– بالنسبة إلينا، هذه الحكاية ثانوية. فنحن نريد أن نتعايش مع المسلمين؛ لكن، خارج صيغة 1943. يجب أنْ نتخلص من الفساد وأن نبني دولة وليس مزرعة[1].

– لبنان بلد يحتضر. إعمل أولاً على حفظه ومن ثمّ قم بالعملية التي تريد.

– صارحنا أحدُ مساعديك بأن رغبتكم في تهدئة اللعبة ما هي إلا ذريعة لتحييدي وللتخلّص مني، وبعد ذلك، ستواصلون المفاوضات مع شخصٍ آخر. لا تنخدعوا! فالمقاومة التي أمثّلها سياسية وعسكرية معاً.

– على الإطلاق. إنّي أحسب حساباً لنتائج 7 يوليو – تموز[2]، اعترض دين، لقد أنشأ الشيخ بيار ماكينة وحتى لئن كان عليك أن تساعده، فقد توصلت إلى إتقانها. إنها الجهاز السياسي الأقوى في لبنان. إني أكلمك وكأني واحد من عائلتك، كأخ أكبر. لا أعرف منْ هو المساعد الذي قال لكم هذه الأقوال؛ لكنّي أستطيع أن أطمئنك إلى أنّه لم يفهم شيئاً من الأمر. في الماضي، كنت، قد حاولت تحسين صورة القوات اللبنانية في الولايات المتحدة.

(1) تعبيرٌ غالباً ما كان بشير الجميّل يستعمله للدّلالة على "لبنان 43": فساد، إقطاع، استزلام، تسوية وتواطؤ، وهي مفاهيم أدّت، برأيه، إلى جرّ البلد نحو الحرب الأهلية.

(2) 7 يوليو – تموز 1980: عملية "ألتالينا" "Altalena" [الصفرا ـ الآكوامارينا].

وكنا قد حاربناك. آنذاك، عندما كانت وزارة الخارجية قد سألتني من هو المحاور في لبنان، كنت قد أجبت: أمين الجميّل. لقد حاولنا أن نكسرك. ودعونا أخاك لنعاكسك. عرفت كيف تمانع، مبرهناً عن نضج سياسيّ يجهله الكثيرون. واليوم، يطلب ريغن تقريراً يومياً، من صفحة، حول لبنان. وهناك، تلقائياً، سطران عنك في هذه التقارير. بالنسبة إلينا، أنت وأخوك متكاملان. فهو نجح في السياسة وأنت في العسكر. هذا لا يعني أنك لا تستطيع أن تنجح في مجال المفاضلة على أخيك. اليوم، لا يستطيع كميل شمعون ولا الشيخ بيار التحدّث باسم المسيحيين في لبنان. ما زلنا نجهل من يستطيع التحدّث باسمهم. لكنْ، ثمة أمر أكيد هو أننا إذا توصّلنا إلى حل سياسي فلسوف تجني منه مكاسب كبرى، وبالعكس، لك دورٌ تضطلع به في حال الحلِّ العسكري.

– لا مستقبل لنا إلا في لبنان. فكل أركاني مكوّنة من أطباء ومحامين ومهندسين. إنهم نخبة الشباب اللبناني ولهم مثال واحد.

– هناك شعوب أخرى فكّرت مثلك وتصرّفت بالطريقة نفسها. ومع ذلك خسرت.

– بلا شك! منْ يعشْ يَرَ؛ لكنّنا لن نتحرّك من هنا.

كان الإسرائيليون يراقبون بدقة حركات القوّات والأعتدة السورية في البقاع. كان جهاز فوتينت[1] لدى آمان مستنفراً باستمرار. لكنْ سلامة طائراتهم الاستطلاعية، بلا طيّار، صارت في دائرة الخطر، تستهدفها صواريخ سام 6: إنها سلسلة سوداء حقيقية. يوم 14 مايو – أيار، أسقطت طائرة استطلاع بلا طيار من نوع درون فوق البقاع. بعد خمسة أيام أُصيبت طائرة أخرى، لكن هذه المرّة، فوق سورية، عند اللاذقية. يوم 22، انفجرت في الجو طائرتا درون، بعدما أصابتها الصواريخ في سماء البقاع؛ وفي يوم 25 أيضاً، أصيبت طائرة خامسة في الجو وتحطمت أيضاً في مكان غير بعيد عن الزبداني داخل سورية[2]. لقد بلغ التوتر بين دمشق وتل أبيب مستوى قريباً من الانفجار. كانت "قضية السام" قد صارت موضوعاً للحملة الانتخابية في إسرائيل. ضاعفت واشنطن الدّعوات لضبط النّفس وقدّرت أن مخاطر التدهور آخذة في التعاظم أكثر فأكثر. بنظر الأميركيين، كانت قضية الصواريخ مرتبطة مباشرةً بحصار زحلة. وكان من شأن تسهيل تسوية هذا الملف أن يؤدي بالضرورة إلى خفض التوتّر. ناشدوا الرياض بقوّة. فجرى بشكل طارئ إحياء لجنة الرقابة، المكوّنة من المملكة

(1) Photinet: الصور الذكية. نقل معطيات استخبارية، في زمن حقيقي، لصور فيديو تلتقطها طائرات بلا طيار، من طراز RVP Drone.

(2) يوم 13 يونيو – حزيران 1981، أنزلت طائرتان أخريان، إسرائيليتان، من طراز (RVP Drone) بصواريخ سام سورية في مكان غير بعيد عن دمشق، وفي يوم 7 يوليو – تموز 1981، فوق البقاع، في لبنان.

العربية السعودية والكويت وسورية والجامعة العربية. يوم 28 مايو – أيار 1981، التقى بشير السفير السعودي، العائد على عَجَلٍ إلى بيروت التي كان قد غادرها من قبل لدواعٍ أمنية. جنرال في الجيش السعودي، [الفريق] علي الشاعر كان مصحوباً برجل وكالة المخابرات المركزية، خضر علي آغا. كان بشير حازماً، في بزة خضراء زيتية مرقطة، الزّي الذي ما عاد يخلعه منذ بدء معركة زحلة، فقال:

– هناك ثلاثة حلول: إما أنْ نتفاهم، وإما أنْ أعود إلى إسرائيل، وإما أنْ أنقلب إلى الإرهاب مثل جورج حبش. فهل المبادرة العربية جدية، أم أنكم جئتم فقط لأجل السياحة؟ إذا جئتم فقط لأجل الثرثرة، فهذا الأمر لا يعنينا؛ لكن لا تلومونا إذا اخترنا إسرائيل. أما إذا كنتم جدّيين فأنا مستعد للسير معكم حتى النهاية.

– لقد عدنا لمساعدتكم، ردّ عليّ الشاعر. كنا قد قدّمنا غطاءً رسمياً للسوريين للجم الفلسطينيين ووقف المعارك وتعزيز "الشرعية". فلم يفعلوا شيئاً! واليوم، إنهم يحتلّون لبنان. حتى إنهم يريدون اغتيالي، أضاف وهو يبتسم. يبقى أنَّ هناك مشكلة بيننا وبين الرئيس سركيس. فقد ذكّرناه بأنّنا نموّل قوات الردع العربية بمبلغ 80 مليون دولار. في البداية، كان يشارك فيها 15000 جندي سوري. حالياً، صاروا 30000. اقترحنا على الرئيس تقاسم هذا المبلغ بينه وبين قوات الردع العربية، لتجهيز الجيش اللبناني. لكنّه رفض.

– المشكلة ليست هنا. إذا أعلن الرئيس سركيس ضرورة حلّ قوات الردع العربي، ماذا ستفعلون لمنع السوريين من سحقنا؟

– ليس عندي جواب. ما هي المواقف التي تريدون أن ترونا ندافع عنها؟

– سعادة أبو طلال، ردّ بشير، ليس عندي ردّ فوري. خلال 48 ساعة، سأنقل لكم اقتراحاً مكتوباً بشأن تحالف استراتيجي بين الأطراف الثلاثة، أنتم والأميركيين ونحن، سيسمح لي بالنقاش مع السوريين باسمكم وفي مصلحتنا المتبادلة. كذلك سأزوّدكم بالعناصر العملية لتطبيق هذا الحلف.

– بالأحرى هل يمكنني أن أطلب منكم أن تكتبوا إلى الوزير سعود الفيصل رسالة تحددون فيها مشروعكم؟ وأنا سأنقلها إليه.

كلف بشير بكتابة الرسالة[1] صديقه الصحافي سجعان قزي الذي كان يستعين به عادةً لكتابة خطبه بالعربية، كان قزي الموهوب بحسٍ بياني مذهل، وراء عدّة شعارات أطلقها زعيم القوات اللبنانية، ومنها: "لسنا قدّيسي الشرق ولا شياطينه. دعونا نعمل وسَيزدهر الشرق، لكن حاولوا حرق أصابعنا وسنحرق الشرق."

(1) انظر النص الكامل في الملحق 7.

من أصلٍ متواضع جداً، ابن صيّاد سمك في العقيبة، كان قزّي يعلن ثأره من الحياة وهو يركب سيّارة أميركية ويدخّن سيجاراً. رجل أنيق، حريص على لياقته، كان قد دفع بشيراً إلى إنشاء إذاعته الخاصة، إذاعة لبنان الحرّ، التي تولّى إدارتها. كانت محطة الإرسال الأولى قد أقيمت في ضيعة عذراء، في مايو – أيار 1978. منذ الإرسالات الأولى، قامت شرطة حزب الكتائب بقطع الهوائي في ثلاث مناسبات، وسُجن سجعان قزّي بأمرٍ من بيار الجميّل. فقد كان الرئيس، الذي أنذره أبنه أمين، معارضاً لـ "تعدد الأنتينات الذي لا يمكن تبريره إلا بالتعبير عن تيّار منشق" داخل الكتائب. وفي كل مرة، كان بشير يتدخل لإطلاق سراح قزّي وانتهى الأمر به إلى كسب قضيته أثناء حصار الأشرفيّة.

كان فيليب حبيب يضاعف تنقّلاته بين القدس وعمّان والرياض ودمشق وبيروت، محاولاً بـ "خطواته الصغيرة" الحدّ من التوتر الإسرائيلي – السوري، عرضياً، خفض التوتر ما بين سورية ولبنان. بناءً لطلب إلياس سركيس، اقترح قائد القوات اللبنانية على جون غونتر دين أن ينقل إلى مبعوث الرئيس ريغن، في إطار مناقشاته في دمشق، إلى القادة السوريين بأنه قد سمع من لسان بشير الجميل تأكيده على عدم وجود علاقات بين المسيحيين اللبنانيين وإسرائيل. ولو كان غونتر دين يحبّذ ذلك لكان في مستطاعه تمرير الرسالة نفسها عن طريق المملكة العربية السعودية. تبنّى الدبلوماسي الاقتراح الذي كان من شأنه، حسب تقديره، أن يعطي وزناً إضافياً لمهمة حبيب.

– من الواضح أنّ هناك تواطؤاً بينك وبيني، أسرَّ السفير الأميركي لبشير على حدة؛ لكنّه لم يوضحْ إذا كان هذا التواطؤ موجهاً ضد دمشق، ضد القدس أو ضد فيليب حبيب.

ساند إلياس سركيس مساعي القائد الشاب، فقدّم بنفسه مذكّرة إلى المبعوث الأميركي الخاص، موقّعة من بشير الجميّل وموجهّة إلى الرئيس السوري، تقول إن القوات اللبنانية "لا تريد تقسيم لبنان وليست مؤيدة لإنشاء دولة مسيحية". وبقدر ما يمكن تبلور اتفاق بين دمشق والقوات اللبنانية، يقول النص، "سنستطيع العمل حتى لا يصبح لبنان قاعدة للهجوم على سورية"، لكن كان من الضروري "تحديد التدابير الآيلة إلى ترميم سيادة لبنان وأمنه". تعهد فيليب حبيب بنقل النص إلى محاوره السوري والدّفاع عنه. غير أنّه طلب من القوّات اللبنانية عدم القيام بعمل عسكري والتعهد بأن تعمل فقط في سياق سلمي.

لمجابهة المبادرة العربية أو على الأقل لمحاولة إفراغها من كل جوهر، سمحت دمشق بفتح باب التفاوض بين غابي صايغ، رئيس فرع كتائب زحلة، وإبراهيم حويجي، العقيد السوري المسؤول عن جبل لبنان، الذي كان اسمه قد ارتبط باغتيال كمال جنبلاط[1]. هذه

(1) انظر الفصل الثاني: "الجارة سورية".

المناقشات سمحت للقوات بمعرفة مطالب دمشق لإنهاء حصار زحلة. كان السوريون يطالبون بسحب المقاتلين المسيحيين غير الزحليّين، مقابل سحب قوّات دمشق من التلال ومن الحيّ الصناعي؛ انتشار وحدة من الجيش أو من رجال قوى الأمن الداخلي في مواقعهم. وكانوا يسمحون لكلٍّ الأحزاب، ومن ضمنها الكتائب بممارسة نشاط سياسي، وتجربة تنقل السكان.

– ما إن يعطي الرئيس الأسد موافقته، أنا مستعد بنفسي لمواكبة الشباب الذين يتعيّن عليهم أن يغادروا المدينة، أكّد العقيد السوري.

طلب بشير من غابي صايغ أن يحصل بالضرورة على انسحاب الجيش السوري من جبل صنّين:

ـ لكنْ اجعلهم يفهمون تماماً أننا نفصل زحلة عن صنّين، أوصاه. يجب خفض التوتّر حتى يسمح للأهالي بأن يتنفسوا.

لم يأت اقتراح دمشق على ذكر أي تعهد متعلّق بما سيحصل في زحلة بعد رحيل المقاتلين المسيحيّين. كان من الممكن أن يجتاحها السوريون، "للبحث فيها عن متّهمين"، لإخضاعها لمشيئتهم أو لإرادة حزب لبناني يكون مقرّباً منهم. حول هذا الموضوع، يمكن لسفراء لجنة الرقابة (الرعاية) وحدهم أن يحصلوا على ضمانات.

بعد ثلاثة أيام، أعلم شموليك أفيتار (أليكس)، رجل الموساد المقيم في لبنان، بشير الجميِّل أن مناحيم بيغن قرَّر الكلام علانية عن وجود علاقات بين الدولة العبرية والمسيحيين اللبنانيين. فدعا بشير فريقه إلى اجتماع طارئ في المقرّ العام للقيادة في الكرنتينا. إنه الوجوم. فقد اتخذت القوات تدابير مهمة لإبقائها سرية، أو على الأقل لإحاطتها بغلاف كثيف. إلى ذلك، يأتي قرار رئيس الوزراء الإسرائيلي في لحظة سيئة جداً. فمنذ بداية أزمة زحلة، حرصت القوّات اللبنانية على تكذيب اتهامات دمشق بهذا الموضوع. حتى أن بشيراً كان، في نهاية مايو – أيار، قد دفع فيليب حبيب إلى الكذب، حين أفاد حافظ الأسد بعدم وجود علاقات جدية بين القوات اللبنانية وتل أبيب. ماذا سيكشف رئيس الوزراء الإسرائيلي؟ كانت صحافة تل أبيب قد أعطت تفاصيل كثيرة جداً. فوق ذلك، كان هناك هذه العادة المؤسفة التي كان السياسيّون الإسرائيليون قد اعتادوها، وهي تدعيم خطبهم أو تصريحاتهم بكثير من المعلومات التي تسترجعها الصحافة اللبنانية. والآن، جاء دور مناحيم بيغن ذاته لكشف ما كان بشير يحرص على إخفائه، وذلك لكسب أصوات في الانتخابات التشريعية.

– لسنا مستعدين لدفع الفواتير الانتخابية لأحد، صرخ غاضباً.

درسوا احتمال إرسال رسالة إلى رئيس الوزراء الإسرائيلي لتنبيهه إلى أن أقواله من شأنها أن تكلّفهم دماً كثيراً وأن عليه أن يأخذ ذلك في حسبانه. كان النقاش محتدماً عندما رنّ الهاتف. رفع بشير السمّاعة، أصغى بصمت ورد:

– موافق.

أمام نظرة زاهي البستاني المتسائلة، شرح قائد القوّات اللبنانية:

– لقد كان توتو. علم للتو أن هناك تجمّع مقاتلين فلسطينيّين في مدرسة أسعد الأسعد في الشيّاح. طلب منهم قصفهم بالمدفعية.

لفت زاهي البستاني، بصوته الهادئ، انتباهه إلى العواقب السياسية التي يمكن لهذا القصف أن يرتّبها. حتى أنه اقترح تغيير التكتيك على هذا الصعيد:

– في إمكاننا، فوق ذلك، أن نذهب بعيداً، معلنين أننا من الآن وصاعداً لن نردّ على القصف الآتي من الغربية. فمن جهة، هذا الموقف سينظر إليه نظرة حسنة دولياً، ومن جهة ثانية، الشعب بحاجة إلى الرّاحة.

رفع بشير سمّاعة هاتفه وطلب أنطوان بريدي (توتو).

– ستوب! أوقف القصف. لا قصف بدون موافقتي الصريحة.

ثم استدار نحو أبو خليل:

– اهتمّ بكتابة البيان. أنا موافق. هذه مبادرة، خصوصاً في هذه المرحلة. ستُباع للأميركيين بثمن باهظ جداً.

في بداية شهر يونيو – حزيران 1981 هذه، كانت القوّات اللبنانية تشعر بأنها تتحرك فوق رمال متحركة. فمن الجانب العربي، كان أعضاء لجنة الرعاية، من السعوديين والكويتيين، يصغون إليهم وحتى كان يبدو أنهم يشاطرونهم نظريّتهم حول دور دمشق. لكن إمكانيات عملهم وفعاليتهم كانت متناسبة، عكسياً، مع إرادتهم وعزمهم على حلّ المشاكل. كانت سورية قد قبلت النقاش مع اللجنة من دون إخفاء رغبتها في الحصول على تجديد ولاية قوات الردع العربية التي كان يفترض بالجامعة العربية أن تنظر فيها يوم 27 يوليو – تموز. أما من جهة الأصدقاء، فكان الغموض الأشمل والأكمل. كانت الولايات المتحدة قد وافقت، من خلال سفيرها، على أن تخطو خطوة، وحتى خطوة كبيرة، نحوهم. إلا أن شيئاً ملموساً لم يتبلور. فعلى الرغم من الوعود، لم يكن بشير قد ذهب بعدُ إلى واشنطن. حتى أن الاتصالات السريّة مع الأميركيين كانت تتعثّر. في آخر شهر مايو – أيار، جرى إلغاء موعد في روما مع مسؤولين من وكالة المخابرات المركزية، بلا تفسير. وأما الدولة العبرية، المنشغلة بانتخاباتها التشريعية، فكانت قد أخذت بعض المسافات. وفوق ذلك، إذا خسر

الليكود[1] مناحيم بيغن خلال هذا الانتخاب، فإن الحلف الموعود الذي ارتسم بين تل أبيب والقوّات اللبنانية يُخشى عليه أن يتأثّر من جرّاء ذلك. فالعمّال لا "يقرؤون" أحداث لبنان بطريقة ائتلاف اليمين الإسرائيلي ذاتها.

إلى ذلك كله، كانت تنضافُ قضيّة زحلة. فقد دخل حصار المدينة في شهره الثالث، من دون أي حل حقيقي، مع أن الأميركيين والسعوديين استمرّوا في التصريح أن "الأمور تتقدّم". عملياً، كان الوضع جامداً. فالسفراء الغربيون العاملون في لبنان، كافحوا بمبادرة من الفرنسي لوي دولمار، للحصول من السوريين على إذن بإدخال التموين إلى المدينة ولإجلاء الجرحى منها. كانت راهبة مُسعفة في الصليب الأحمر، الأخت ماري-صوفيا، قد قتلت وراء مقود سيّارتها بينما كانت تحاول البحث عن المحتضرين. إنها أسطورة حيّة حقيقية، فقد عبرت كل الجبهات منذ بداية الحرب. حتى الآن، كان حضورها، وحده، يسمح غالباً بوقف القصف لوقت كاف لإجلاء الجرحى. كان على رجال الميليشيا المسيحيين أن يخوضوا معارك ضارية، طيلة 12 ساعة، لاستعادة جثّتها. كان جرّاحو مشفى ريفي مقام في أقبية مبنى قيد البناء، يعملون على ضوء مصباح كاز. وكان الأهالي لا يغادرون الملاجئ.

- يجب أن نواصل التفكير. يجب ابتكار حلول، قال بشير لفريقه.

- هل يمكن لمقاومة أن تغطس في السرية؟ سأل جوزيف أبو خليل على الفور. سنعمل في لبنان. سننشئ عليه تعديلات جذرية. شيخ بشير، عمرك يسمح لك بالعمل على هذا النحو. فَقُمْ به.

كانت مشكلة زحلة هي المشكلة الأكثر إلحاحاً، الواجب حلّها. كان المدافعون يشعرون بإحباط عميق. فقد تكاثرت الصّدامات مع الأهالي. لم تعدْ زحلة مشكلة عسكرية، بل صارت قضيّة إرادة نفسية لدى أولئك الذين كانوا يتقاتلون فيها. يمكن أن يكون سحب المقاتلين من غير سكان المدينة حلاً، لكن ماذا بعد ذلك؟ سأل بشير وزير الأشغال العامة، نائب زحلة، إلياس الهراوي[2]، الذي كان قد جاء لاستنطاقه حول هذا الموضوع:

- وإذا صارت زحلة دامور ثانية، هل تكون مستعداً لتحمّل مسؤولياتها؟

- لا! لا! لا أتحمّل أي مسؤولية.

لم يكن أيّ قائد لبناني راغباً في التورط في أية تسوية. لقد كانت القوات قد قامت بهذه

(1) ليكود (يعني بالعبرية "إتحاد"). ائتلاف أحزاب يمينية أسسه مناحيم بيغن سنة 1969 ويضمُّ الحزب الليبرالي، حيروت، و LAAM (اللائحة الاتحادية لأجل السيادة القومية).

(2) سيغدو إلياس الهراوي رئيساً للجمهورية من 1989 الى 1995.

المغامرة، وعليها وحدها أن تخرج منها. رأى بشير أن يدعو وزراء زحلة، ثم الوزراء المسيحيين، لكي يشرح لهم الوضع، وفي حال الموافقة على انسحاب مقاتلي القوات اللبنانية، سيتحمّل الجميع مسؤولية القرار، ومن ضمنهم بيار الجميّل وكميل شمعون. مثل هذا الاجتماع لم ينعقد أبداً، إذ كان الجميع مُتنصلين.

كشف مناحيم بيغن عن فحوى العهود "الشفهية" التي كان قد عقدها مع مسيحيي لبنان، يوم 4 يونيو - حزيران، أثناء مناقشة في الكنيست. اعترف بأنّه التقى "وفداً" يوم 28 أغسطس - آب 1978، وأنّه "كلّف مبعوثاً"، يوم 2 أبريل - نيسان 1981، بأن يجدّد لهم، شفهياً على الدوام، وعوده بالمساعدة. في بيروت، كانت صيحة الاستنكار. المسؤولون السياسيون في الغربية "أدانوا" واستنكروا، الواحد تلو الآخر. وندّدت دمشق بـ "التحالف مع العدو". دُعيت لجنة الرعاية إلى المقرّ الصيفي لرئيس الجمهورية في بيت الدين، في الشوف.

قبل شهر، كان إلياس سركيس قد أكّد لبشير أن أبواب القصر الرئاسي ستكون دائماً مفتوحة له، تسهيلاً لاتصالاته المباشرة مع الدبلوماسيين كائناً من كانوا، إذ إن بعضهم لا يستطيع زيارته في الكرنتينا. فاستفاد قائد القوّات اللبنانية من ذلك. طلب مقابلةً مع سفيري السعودية والكويت، قبل ساعات من انعقاد اللجنة. قابلهما ببذلة الميدان. كان الدبلوماسيان، المعتمران كوفيّة بيضاء، قد اقترحا عليه أن يدلي في أسرع وقت ممكن بتصريح علني يُفترض أن يُعلن فيه عن قطع كلّ العلاقات مع إسرائيل.

- أعطوني ضمانات وسأعطيكم التصريح. ردَّ عليهما.

توصّل بشير إلى إيجاد مفتاح ملفّ زحلة، من دون أن يكون قد أعدَّ العدّة لذلك. حين خرج من القصر الرئاسي، تلقّى الشاب رسالة من مناحيم بيغن تدعوه إلى ملاقاته في القدس. اتّصل بشير بجون غونتر دين، عند منتصف الليل، ليخبره عن مناقشاته مع السفيرين العربيين، وعن دعوة بيغن. وشرح للأميركي أنّه كان يحتاج إلى وقتٍ لكتابة التصريح المطلوب منه.

- أنتم اللبنانيون، من المؤكد أنكم أشدّاء جداً، تعجّب سفير الولايات المتحدة. وتابع وهو يخاطبه بصيغة "أنت": وصل فيليب حبيب إلى بيروت. سأرتّب لقاءً بينكما. وهكذا، سيكون لديك عذرٌ صالح لتجنّب الذهاب إلى إسرائيل. نحن وراء المبادرة العربية. لو كنت قد استمعت إلى نشرة الأخبار، هذا المساء، لعملت أن الرئيس ريغن تحدَّث عن "معجزة" في الشرق الأوسط. المملكة العربية السعودية راجعة إلى لبنان لتوازن الوجود السوري.

إنّه توازن لا يمكنُ أن يكون طموحه الوحيد سوى السعي لوقف إطلاق النّار.

كانت القوّات اللبنانية قد أخذت تتصوّر علاقاتها بالبلدان العربية وإسرائيل في سياق أشمل. كان يبدو واضحاً لها، حتى وإنْ كان أيُّ عنصر لا يسمح حالياً بتوقّع تاريخه، أنّ سلاماً سيوقع بينهم، في يوم أو في آخر. فكانت تقدِّر، كما قال جوزيف أبو خليل، أن "لا شيء يحمي المسيحين سوى بلد قوي، يكونون هم أسياده".

– هل يمكننا أن نفوِّض أمرنا للعرب؟ كلا! هل يمكننا إعلان الحرب على إسرائيل؟ كلا! كان قد قال أثناء اجتماع للقيادة. يجب علينا اتّخاذ موقف وسيط من شأنه أن يرضي البعض والبعض الآخر في آن.

كان الإعلان، يوم 7 يونيو – حزيران 1981، في آخر العصر، عن القصف الإسرائيلي لمُفاعل تمّوز النووي في ضاحية بغداد الجنوبية، قد أذهل القادة العرب، لبضع ثوان. إذ كانت هذه المرّة الأولى التي تنفّذ إسرائيل فيها عمليّة بمثل هذا العمق، في أرض "معاديَة". فعلى الأقل، جرى انتهاك أجواء ثلاثة بلدان عربية، في وضح النهار، من دون أن يعمل أي جهاز إنذار. وبنحو خاص، كانت المرة الأولى، في سياق عملاني كهذا، حيثُ ظهر انفلات إسرائيل من القصاص مفضوحاً إلى هذا الحدّ.

كانت فرنسا قد زوّدت العراق بالمفاعل النووي (OSIRAK)، على الرغم من اعتراضات الدولة العبرية التي كانت تؤكّد أن هدف بغداد كان استخدام اليورانيوم المُخَصّب لصنع أسلحة نووية. قبل ذلك بعدّة أشهر، كان الإسرائيليون قد تدخّلوا في مرفأ مرسيليا، فحطّموا فعلاً وسرّاً أسطوانة المفاعل قبل إبحاره. صباح 7 يونيو – حزيران، عُقِد اجتماع سرّي للحكومة الإسرائيلية وأُعطي الضوء الأخضر لعملية "بابل" ضد تمّوز. كان يهوشع ساغي، رئيس جهاز الآمان قد أعدّها طوال أشهر، مع أركان سلاح الجو. لقد جرى إرجاء تدمير المُفاعل عدّة مرات. المرة الأخيرة، كانت قبل ذلك بثلاثة أيام، حتى لا يُلحق ضرراً بقمة بيغن – السّادات التي انعقدت في شرم الشيخ. في آخر الضحى، عبرت 8 طائرات قاصفة إف 16، محمية من قبل 8 مطاردات إف 15، أجواء المملكة العربية السعودية، وهي مموّهة كطائرات أردنية، قبل أن تتوجّه نحو هدفها في عمق الشمال. هاجمته بعد انتهاء يوم العمل. قُتل عدّة عمال صيانة، بقوا في الموقع، ومنهم فنّي فرنسي، داميان شوسبيه. كانت الغارة قد دامت ثلاث ساعات وعادت جميع الطائرات إلى قواعدها. احتجّ المجتمع الدولي بقوّة. وقرّرت الولايات المتحدة حظراً على شحن أربع طائرات إف 16، حتى 17 يوليو – تموز. لكنّ هذه الغارة الجوية التي قرّرها مناحيم بيغن، كان لها صدى هائل في إسرائيل، قبل الانتخابات التشريعية بعدّة أيام.

لم ير بشير الجميّل فيليب حبيب مجدّداً إلا في 15 يونيو – حزيران، إذ كان مشغولاً تماماً

بالمناقشات مع السفيرين علي الشاعر وعبد الحميد البعيجان، وبالوضع في زحلة. خلال الوجبة، المكوّنة من ملوخيّة[1]، كان فيليب حبيب الذي لا يتحدّث في "الأعمال" أثناء الأكل، قد روى كيف كان أبوه قد استقدم، سنة 1916، من مصر بزور الملوخية، وكيف زرعها في نيويورك وأمّن توزيعها في كل السوق الأميركية. بصوت مرح، وفيٍّ لصورته كرجل مرح وذواقة مرهف، ذكر العزيزة الطيبة، الخمور اللطيفة[2]، النسّاء والورود، التي كان مغرماً بها غراماً شديداً. لم ينتقلوا إلى الأمور الجديّة إلا بعد تناول القهوة.

– ستصبر إسرائيل ما دمت أنا هنا، أكد ممثل رونالد ريغن. لكنّي لا أستطيع أن أبقى في المنطقة إلى ما لا نهاية. إن قصف المفاعل العراقي يعقّد الأمور. لا بد من انتظار نتيجة المساعي التي سيقوم بها سعودُ الفيصل لدى حافظ الأسد.

– وإذا لم يتجاوب حافظ الأسد؟ سأل بشير.

– سيكون ذلك غير منطقي. للسعوديين تأثيرٌ شديد فيه، ردّ الأميركي وهو يلمّح إلى الوزن المالي للمملكة العربية السعودية.

ثم ذكر قائد القوات البيان الذي طلبه سفيرا السعودية والكويت حول قطع علاقاته بإسرائيل:

– إنّ بياناً كهذا من جانبي يستوجب تعويضات على غرار التعويضات التي نالتها مصر. سأطلب منكم أن تدفعوا لي ثمنه، ذخائر وأعتدة وإمكانات تدريبية لرجالي.

– موافق، قبل فيليب حبيب وهو يهزّ برأسه.

– نريد أسلحة من كل العيارات، بدلات عسكرية، ومدافع من عيار 175 ملم. كما أنكم ستفتحون لنا رصيداً للتدريب والتجهيزات.

– أية تجهيزات؟ تساءل موريس درابر الذي ظلّ صامتاً حتى الآن.

– من الكل!

– كم عندكم جنود؟ سأل فيليب حبيب.

– 15000! بالغ قائد القوات اللبنانية الذي لم يكنْ لديه في الحقيقة سوى عشرة آلاف ونيف.

– طيّب اذهبوا إلى أوروبا واشتروا ما تحتاجون إليه، وافق المبعوث الأميركي.

(1) طبق مصري مكوّن من الأرز والدجاج ولحم الغنم، مع حساء رخو كثيف مصنوع من نبتة خضراء، تسمّى ملوخية (من هنا اسم الوجبة)، يضافُ إلى ذلك صلصة خل وبصل.

(2) أصيب فيليب حبيب بأزمة قلبيّة وهو في الثانية والسبعين من عمره، يوم 26 مايو – أيار 1992، في بورغوني (Bourgogne) حيث كانَ يقومُ بجولة على الأقبية الكبرى، وهي منطقة فرنسية اشتهرت بنبيذها الفاخر.

– لن أشتري شيئاً، أريد أن أستلم كلَّ شيء هنا، أوضح بشير، بشيء من العدوانية.
مدّ! فيليب حبيب يديه إلى الأمام وكأنّه يحاول احتواء عنف الشباب، وابتسم:
– أوكي! أوكي!
هذه الوجبة كانت العشاء الوداعي لجون غونتر دين. خلفه روبرت ديلون (Robert Dillon).
بعد عدّة أيام أعلن مناحيم بيغن في الكنيست أن تصريحاته العنيفة بخصوص وجود صواريخ سام 6 في البقاع، كانت ترمي فقط إلى صرف الانتباه عن الاستعدادات الجارية، آنذاك، لعملية "بابل" ضد المحطة العراقية، لا سيما لدى موظفي القواعد الجوية.
عملياً لم تؤثّر صواريخ سام 6 في عمليّات الاستطلاع الإسرائيلية فوق البقاع، كان قد أوضح للنوّاب. إنّ هذه الصواريخ يمكن تدميرها بسهولة، وفي أقل من ساعتين، من قبل أجهزتنا، ومن دون أية خسائر في صفوفنا.
أثارت هذه العبارة الصغيرة ارتياحاً في السفارات. لقد تلاشت التوتّرات ومخاطر الحرب بين إسرائيل وسورية، بسحر ساحر. فعلى الرغم من التهديدات المبطنة، اعتبرت أقوال رئيس الحكومة بمثابة اعتراف بأمر واقع. وبعدما استبعدت إمكانية انفجار الوضع، صار في الإمكان حل المشاكل الأخرى، ومنها مشكلة زحلة.
كان الأميركيون مستائين من الروابط التي نسجت بين تل أبيب والقوّات اللبنانية. كان الأميركيون والإسرائيليون يختلفون بعمق حول التطور التكتيكي لتطبيق المحاور السياسية لواشنطن والقدس، على الرغم من اندراجها في استراتيجية واحدة. كانت الولايات المتحدة تريد مواصلة الديناميكية الناشئة عن كمب دافيد، وكانت تراهن على انضمام دمشق في المدى الطويل. لم يكن الإسرائيليون، رغم جهودهم، قد تمكّنوا من إقناع الأميركيين بشكوكهم حول صحّة هذه المقاربة. بما أنهم كانوا منغمسين في حملتهم الانتخابية، كانوا يكتفون حالياً بمعارضة فولاذية لكل فكرة خطة سلمية تتصوّر ظل إنشاء كيان فلسطيني.
أبلغ بشير جوهر فكرته إلى وكالة المخابرات المركزية خلال اجتماع عقده، في منتصف حزيران، مع خضر علي آغا. كان قد لقّبه Projecteur (يلفظه برجكتور Berjector)، لأن التاجر الطرابلسي كان خلال لقائهما الأول قد أكّد له "أن الوضع سيتحسّن وأن بشيراً سيرى أخيراً ضوءاً، قوياً مثل برجكتور". كان رجل الوكالة الأميركية قد نصحه بأن يدلي بتصريحه، شرط أن يحصل على تعهّد صارم من العرب بأن يحلّوا محل الإسرائيليين. كان من الصعب جداً إقناع ملك المملكة العربية السعودية بقبول المساعدة وضمانها. ظلَّ بشير جامداً:
– لن أدلي بهذا التصريح إلا مقابل زحلة والتلال المحيطة بها، وجبل صنين والمرفأ ومطار بيروت وخطوط التّماس. وإلا، فلا تصريح!

– في نهاية الأمر، هذا حقكم. سأنقل اقتراحكم إلى السفير علي الشّاعر، قبل الاتصال بسعود الفيصل.
بينما كان خضر علي آغا يهمّ بالنهوض، سأله بشير فجأة:
– تريدون تصريحاً حقيقياً أم مزيّفاً؟
استرخى برجكتور في مقعده. نظر إليه لعدّة ثوان بصمت وتمتم:
– تصريح مزيّف؟... فقط لأجل الصورة، إرضاءً للعرب؟... صحيح أنهم لا يطلبون سوى تصريح وليس قطع علاقاتكم. حافظوا على الاتصال بإسرائيل.
قبل كل شيء، كان بشير الجميّل يريد أن يضع حداً لما كان يسمّيه "الخطر الفوري": زحلة. فمنذ بداية هذه القضية، جرى تجميد مسار الاستيلاء على السلطة، المقرّر في أيلول 1980. فقد كانت المناقشات والاتصالات المتنوعة تسير سيراً حسناً، وتدور حول نقطتين: التصريح العلني الشهير، وشروط سحب المقاتلين غير الزحليين من المدينة المحاصرة.
كان السوريون قد تراجعوا عن عدّة نقاط تقبّلها العقيد إبراهيم الحويجي في مناقشاته مع مسؤول كتائب زحلة، غابي الصايغ. فهم يطالبون الآن بتسليم الأسلحة الثقيلة إلى قوات الردع العربية وإغلاق مكاتب الأحزاب السياسية في المدينة. رفضت القوّات اللبنانية هذه النقطة الأخيرة بقوة. إلى ذلك، كانت دمشق قد جعلت من التصريح مدخلاً إلى كل اتفاق حول إنهاء حصار المدينة. كان هذا الأمر قد قضى تماماً على مفاوضات لجنة الرعاية التي كانت قد بدأت حول انسحاب سوري من بعض المناطق. وكالعادة في مثل هذه الحالات، تضاعف القصف على زحلة. فقرّر إلياس سركيس أن يتدخل علناً في السجال، مؤكداً من جهة على يقينه من أنّ بشير الجميّل سيعلن تصريحه في اللحظة المطلوبة، وأن القانون اللبناني يسمح من جهة ثانية، بنشاط الأحزاب السياسية، وبالتالي لا يمكن منعها في أي مكان من الأراضي اللبنانية. وبما أن دمشق لا تستطيع أن تجابه رسمياً ذاك الذي كانت تظنّ أنها تدافع عنه، قبل بضعة أيام من تجديد مدة قوات الردع العربية، فإن حصار المدينة كان يمكن فكّه.

يوم 30 يونيو – حزيران 1981، دخلت إلى زحلة نصف كتيبة من قوى الأمن الداخلي – 600 دركي بلباس رمادي، بالقبعة على الرأس والسلاح في النّجاد – مهمتها الانتشار فوراً في مواقع المدافعين. بعد ثلاثة أيام، كان على قوى الأمن الداخلي أن تنتشر في مواقع المحاصرين. كان ذلك همروجة لا توصف. إذ كان كلّ الأهالي في الشارع، يلوّحون بالأعلام وهم يبكون، ويعانقون الدّرك، ويرشّون عليهم الأزهار والعطور والملبّس. هدأت هذه الهمروجة قليلاً، عندما تحرّك موكب الأوتوبيسات المجهزة لنقل 95 مقاتلاً غير

زحلاوي، لمغادرة المدينة. كان القلق يقرأ على وجوههم. حتى يصلوا إلى المنطقة المسيحية، كان عليهم أن يسلكوا طريقاً جبلياً مقفراً، كانت القيادة السورية قد نشرت عليه جنوداً لـ "حماية" الموكب. كانت لا تغادر جانبي الطريق، وكان الكلاشينكوف في اليد، مذخّراً وجاهزاً للإطلاق. على طول الطريق، كان جو إدّه المزوّد بجهاز - إرسال - استقبال محمول، يحدّد موقع الناقلات لمركز تسديد مدفعية القوّات اللبنانية الذي كان يصله بالعاملين على المدافع البعيدة المدى الخاصة بالقوّات اللبنانية، والذين لديهم أوامر بفتح النّار حول الموكب إذا ما تعرّض لهجوم. المدافعون الخمسة والتسعون عن زحلة، المتّسخون، الضامرون، الشاحبون، بلباس الميدان، المغمضون عيونهم أمام ضوء الصيف الباهر، استقبلهم بشير الجميّل وجمهور جذلان استقبال الأبطال في سن الفيل. في ساحة القيادة العامة للقوّات في الكرنتينا، حيّاهم كميل شمعون وهو يرتدي سترة وقميصاً مفتوحاً. ويضع فوطة على رأسه اتقاءً لضربة الشمس وبيار الجميّل في بدلة سوداء مقلمة مع ربطة عنق وشعرٍ مُموّه. سلّم بشير عليهم فرداً فرداً، قبل أن يؤكّد لهم:

- بفضلكم، أخذت قضيّة المقاومة بعداً آخر. فقد صارت دولية بقدر ما هي لبنانية. في كل العالم، تشكّلت أركان أزمة، وتكاثرت الوفود، ونظّم الرهبان اعتصامات وصلّى البابا، ونشرت بطاريات صواريخ، واستنفرت أساطيل، ونحن ميّزنا الحلفاء من الأعداء. لولاكم لما تمكّنت الشرعية من دخول زحلة من الباب الواسع.

لم يوضح لهم أنه هو استفاد من ذلك سياسياً، ومباشرة على الصعيدين الدولي والوطني. إذ كان حصار زحلة قد فرضه نهائياً على حزب الكتائب، وكانت الشعبية التي جناها وراء ذلك قد أبعدت أخاه أميناً بلا رجعة. خلال ثلاثة أشهر من المواجهات والقصف، كان حصار زحلة قد أدّى إلى 200 قتيل وأكثر من 200 جريح.

بينما الأهالي المبتهجون يحيّون دخول الدرك إلى زحلة، كان الإسرائيليون ملتصقين، من جهتهم بتلفزيوناتهم ومذياعاتهم. لم يحدث في تاريخ الدولة العبرية السياسي، أن كانت النتائج الانتخابية متقاربة كما كانت عليه في هذا اليوم، 30 يونيو - حزيران 1981. كان حساب الأصوات على الطريقة النسبية قد أعطى 47 مقعداً لليكود، و47 مقعداً للعمال، ولحلفائهم على التوالي. وفي بعض مكاتب الاقتراع، جرى فرز جديد لأوراق الاقتراع، نظراً لأن الفارق كان ضئيلاً. إذ كان من شأن أي خطأ في الحساب أن يعطي نتائج عكسية. لم يكن أي من الحزبين قادراً على تشكيل حكومة لكن نائباً دينياً متشدّداً، كان قد خاض المعركة مع العمال، غيّر معسكره وضمن الأكثرية لليكود. والحال، عاد الرئيس الإسرائيلي، إسحق نافوت، وسمى مناحيم بيغن لتشكيل الحكومة وسرت الشائعات القائلة إن آرييل شارون،

وزير الزراعة السابق، سيتولى حقيبة الدفاع. كان ذلك يعني معارضةً عامة. فقد ارتفعت انتقادات حادّة حتى في داخل الليكود. وكان موردخاي تزيبوري، نائب وزير الدفاع السابق، قد صرّح علانية بأنّ "تعييناً كهذا سيكون كارثةً وطنيّة"[1].

كانت أسطورة مناحيم بيغن الشخصيّة تنطوي على حدث وقع قبل مولده بعشر سنوات، وكانت، بنظر البعض، قد طبعت بعمق، رئيس الحكومة المعيّن. كان والده، ديف زئيف بيغن، بمساعدة أحد جيرانه، شينرمان، قد اقتحم عنوةً أبواب كنيس برست-ليتوفسك الكبير في بولونيا، للاحتفال بذكرى تيودور هرتزل[2]، الذي كان الحاخام يعتبره مهرطقاً. لم يكن شينرمان سوى جدّ آرييل شارون لأبيه. ولد آرييل، حاملاً اسم جده شينرمان، سنة 1938 في مزرعة شمال تل أبيب، وكان آريك، كما كان يناديه أقرباؤه، شخصاً متهمكاً ذا ملامح بنيوية قوية جداً، كأنه جرّافة ذات أفكار عنفوانية جداً، منذ أن رأى أنّ أمن الدولة العبرية، كما كان يفهمه، مهدّد. سنة 1953، قاد الوحدة 101 الشهيرة، جدّة الكوماندوس سايريت، المكوّنة من 45 رجلاً "قادرين على الردّ"[3] على الإرهاب العربي. كانوا قد اشتهروا بسمعة الرجال القساة، المسحورين كليّاً بقائدهم. بعد حل هذه الوحدة[4]، إثر غارة فتاكة بنحو خاص، عيّن آرييل شارون قائداً لكتيبة مظلّيين، لم يكن طبعه العنيد يفسح في المجال أمام لامبالاة المرء، فإما أن يُحب وإما أن يُكره. كانت العداوات التي ولدها حتى في داخل الجيش الإسرائيلي أشدّ بكثير من الصداقات التي كان قد أقامها. فلم يتمكّن أبداً، على الرغم من مهنة عسكرية برّاقة، إشباع طموحه المعلن إلى أن يكون رئيس أركان الجيش الإسرائيلي. إلى ذلك، كان هذا المنصب يعطى دائماً، منذ إنشاء إسرائيل، إلى جنرالات من حزب العمال، وكان شارون يعلن ميوله اليمينية، بلا مواربة، كان الاستثناء الوحيد هو رفائيل إيتان، الذي كان آنذاك في هذا المنصب، وكان قد عيّن وهو الذي ما كان قد أفصح أبداً عن ميوله السياسية قبل تعيينه، مع العلم أنّ عائلته كانت "متجذّرة تماماً" في اليسار. بعدما خلع البزّة العسكرية، كان آرييل شارون قد انغمس في السياسية، منتسباً بالطبع إلى الليكود حيث ترأس الصقور، وهو مصمّم، في حال نجاحه، على تولّي وزارة الدفاع. كان عليه أن يصبر طوال حكومة بيغن الأولى. وصار ثأره في متناول يده، فكان مصمّماً تماماً على الأخذ به.

أثار خبر إعادة تكليف مناحيم بيغن ارتياحاً شديداً في القيادة العامة للقوات اللبنانية.

---

(1) يديعوت أحرونوت، 8 يوليو - تموز 1981.

(2) تيودور هرتزل، مؤسس الصهيونية.

(3) آرييل شارون، مذكرات، ترجمة فرنسية، ستوك [باريس] 1990.

(4) قامت الوحدة 101 بتفجير 150 منزلاً في قرية قيبيّة الأردنية، يوم 14 أكتوبر - تشرين الأول 1953، وأوقعت 60 قتيلاً بين الأطفال والنساء، رداً على مصرع إسرائيلية وولديها.

إسرائيل لن تغيّر من سياستها. لكنّه ارتياح لم تتح له الفرصة للتعبير عن نفسه: كان الجميع أو كادوا "يراهنون" على بيان قطع علاقات القوّات مع الإسرائيليين. إذ كانت لجنة الرعاية (المساعي الحميدة) التي يفترض بها أن تواصل رسمياً أعمالها لمساعدة الرئيس سركيس على إيجاد حلّ للأزمة اللبنانية، قد أعلنت أنها ستعقد اجتماعاً يوم 4 يوليو – تموز في بيت الدين. فقرّرت القوّات اللبنانية أن تقوم بحركة شعبية للتعبير، قبل هذا الاجتماع، عن الوحدة المسيحية حول رفض الاحتلال السوري. توالت مؤتمرات صحافية، اعتصامات لرجال الدين، وإضرابات عامة.

كان فؤاد بطرس، وزير الخارجية اللبنانية، قد زار دمشق ليبحث مع الرئيس السوري في موضوع إرسال الأسلحة إلى مختلف الفصائل اللبنانية.

– إذا قطع بشير الجميّل اتصالاته مع الإسرائيليين فسوف يتوقّف عن تلقي السلاح، كان قد قال للرئيس حافظ الأسد، حرفياً، ولكنّ الليبيّين وسواهم سيواصلون، إرسال السلاح إلى الفلسطينيين.

– عندما نتأكّد أن بشير الجميّل ما عاد يتلقّى سلاحاً، سنفرض حصاراً برياً وبحرياً على الآخرين، كان الرئيس السوري، قد طمأنه بلهجة واثقة.

كان سفير الولايات المتحدة، المطّلع على نوايا بشير الحقيقيّة، قد أعلمه بأن على إسرائيل أن تفهم المناورة. لكنه أوضح بأنه لا يستطيع أن ينصحه بهذا الصّدد، إذ ليس لديه تعليمات من حكومته. كان رأي الشيخ بيار أكثر تطابقاً مع خط السياسة اللبنانية التقليدية:

– ليقل لنا سركيس ما الذي يجب أن يتضمّنه البيان، وسنرى لاحقاً.

كان شموليك أفياتار، الممثل الدائم للموساد في لبنان، هو الأكثر تضايقاً. فقد زاره بشير في أدونيس، في مقر الهوائيّ، ليشرح له أن الأمر المقصود هو مناورة سياسية:

– إنّه بيان كاذب. فنحن لا نريد قطع الجسور معكم.

– إنّي أفهمك! ردّ أليكس، لكنّ تل أبيب قد تردّ بشكل سيئ جداً وقد تضع حدّاً لكل علاقة معك. لا بد أن يتمكّن مندي من لقاء إلياس سركيس للحصول منه على تأكيد، أو أن تذهب أنت بنفسك إلى إسحق نافون، رئيس الدولة.

أمضى المقرّبون من بشير يوم 3 يوليو – تمّوز في تقليب الأمور على وجهيها. عند الظهر وضع ميشال عون على الطاولة ورقة مغطّاة بكتابته المتعثرة والمائلة إلى اليمين. كانت بمثابة لوحة تقارن بين الحسنات وبين المساوئ التي يمكن أن يمثلها البيان[1]. فبنظره، كانت

(1) انظر الملحق 8، النص الكامل.

النقاط الإيجابية لهذا المسعى تكمن في "توضيح النوايا السورية، والعربية والأميركية، ووضع حد للتلاعبات على الصعيد الداخلي، وإزالة العوائق التي كانت تحدّ من الاتصالات مع العرب والفلسطينيين، وأخيراً الاستفادة من هدنة عسكرية ولو لأمد قصير من الزّمن". وذكر في باب المساوىء، "احتمال وقف التموين العسكري الإسرائيلي، مع كل العواقب السلبية التي ينطوي عليها، خطر الاضطرار للقبول بتنازلات أكبر إثر ذلك، ونظراً لأنّ القوات اللبنانيّة ستتولى مسؤولية كل المجابهات، الأمر الذي من شأنه تبرئة السوريين من جرّاء ذلك". في فقرة ثالثة، ذكر ميشال عون عواقب "عدم التصدي": "من الممكن الحفاظ على المكاسب، كان قد كتب؛ لكن ينبغي عندئذ تصوّر خطر غزو سوري، بشكل جدّي جداً. وفوق ذلك، يمكن لهذا الأمر أن ينظر إليه من جانبنا كأنّه مبادرات سلمية عربية، وينبغي علينا أن نتحمّل مسؤوليته".

في أثناء ذلك، كان السوريون والإسرائيليون يمارسون، كل على طريقته، أقصى أنواع الضغوط. كان الجنود السوريون يرفضون أن يسلموا للدرك مواقعهم على رابية تل شيحا، وعلى طريق كسارة، وعند المخرج الشمالي للمدينة، كما كان ينصّ على ذلك الاتفاق، وكانوا يريدون إغلاق مكاتب الأحزاب. وفي الوقت نفسه، تلقّى قائد القوات اللبنانية رسالة شخصية من مناحيم بيغن يعلمه فيها أن إسرائيل لا تنظر بعين الرّضا إلى تصريح من جانبه يُعلن فيه قطع علاقاته بالدولة العبرية.

نحو الساعة العاشرة من صباح الرابع من يوليو – تموز 1981، كان سفير السعودية والكويت، الفريق علي الشاعر وعبد الحميد البعيجان، المرتديان الدشداشة، والكوفية البيضاء، يصعدان أدراج قصر بيت الدين، للانضمام إلى ممثل الجامعة العربية وعبد الحليم خدام، وزير الخارجية السورية. كان لدى الرجلين فكرة واضحة عن الوضع اللبناني. كانت الفوضى في ذروتها: كان ثمة إضراب عام يشل المناطق المسيحية، احتجاجاً على الاحتلال السوري؛ وكان قد انفجر مستودع ذخائر، لمنظمة العمل الشيوعي، في أقبية مبنى في الطريق الجديدة، في بيروت الغربية، نجم عنه 7 قتلى و 51 جريحاً؛ وكان خطّ التماس الذي يشطر المدينة إلى شطرين، قد "حمّي مجدداً" بفعل القنّاصة.

منذ بدء الجلسة، أكّد إلياس سركيس للجنة الرعاية أن مشكلة التصريح في طريقها إلى التسوية، إذْ جرى إعداد النص.

وأعلن سركيس أن المهم الآن هو أن ندرس الإجراءات التي تسمح للدولة باستعادة سلطتها.

كانت المناقشات حول هذا الموضوع طويلة بقدر ما كانت عميقة. فالكل، باستثناء عبد

الحليم خدّام، كان يعرف حدوده تمام المعرفة. في غضون رفع الجلسة، توجّه جوني عبدو إلى الوزير السوري:

– بشير الجميّل كان يعتمد على اتفاق بخصوص زحلة. كان يعتقد أن في إمكانه الوثوق في الضمانات العربية.

– من الصعب علينا عقد اتفاق معه، فنحن دولة!

– المؤسف أنّ مساعي التفاوض معه لم تكنْ مشجعة، ردَّ السوري وهو يلمّح إلى المناقشات مع محمّد الخولي.

– لم تعرفوا كيف تستفيدون من الوضع. اليوم، ما عاد بشير يعرف كيف يتعامل معكم.

– أعطونا قليلاً من الوقت، وليستفد هو أيضاً من الوقت، نصح خدّام، بلطف، الضابط اللبناني، منهياً المحاورة. لقد حلَّتْ مشكلة زحلة كما كانت دمشق تتمنّى، وبالتالي كان يمكن سدّ باب الانفتاح على القوات اللبنانية مجدّداً.

لمّا عاد بشير الجميل بهذه المحاورة، حاول عبثاً الحصول على مهلة إضافية حين حاول إقناع السفيرين العربيين أنّ دمشق ما كانت تريد تطبيق كل شروط الاتفاقية الخاصة بزحلة.

في اليوم التالي مساءً، في ليل 5ـ6 يوليو ـ تموز 1981، ذهب بشير الجميّل إلى إسرائيل. شرح مطوّلاً لمناحيم بيغن ما كان يتخفّى وراء التصريح المشهور:

– إن كان هذا يمكن له إنقاذ أرواح بشرية، فأنا لا أستطيع إلا أن أوافق، أجابه رئيس الوزراء الإسرائيلي. مع ذلك هذا يقلقني.

غير أن بيغن سمح بإرسال الكولونيل شاخان ملاّ، المستشار العسكري، بمهمة في المناطق المسيحية، لمساعدة القوّات اللبنانية على تعزيز خطوطها الدفاعية. بلباس مدني، عبر الضابط، خلال عدة أسابيع، كلّ الجبهات لكي يحدّد بأدقّ التفاصيل المواقع الواجب تعزيزها.

كان شاخان ملاّ صارماً جداً في سلوكه كما في كلامه، وكان يتابع دراساته الفندقية قبل دخوله الجيش، قد أصبح مهذاراً كلما أخذ يتناول هوايتيه – الطيران الذي كان يمارسه بصفة خاصة، وصيد السمك.

قدّم جوزيف أبو خليل لبشير مشروع نص، جرى فيما بعد طبعه على آلة كاتبة، تتولاها آني، سكرتيرة قائد القوات اللبنانية. وقّعه، وسلّمه شخصياً إلى جوني عبدو. كانت الرسالة المحرَّرة بالعربية، بتاريخ 6 يوليو – تموز 1981، تحمل في أعلاها شعار القوات اللبنانية (أرزة خضراء في دائرة حمراء) واسمها بالعربية (القوّات اللبنانية). كانت موجهة إلى رئيس الجمهورية إلياس سركيس:

"فخامة رئيس الجمهورية.

تعلمون مدى رغبتنا في حل هذه الأزمة التي يتخبط فيها لبنان، وتعرفون استعدادنا للتضحية عندما يتعلق الأمر بأمن هذا الوطن ورفاه شعبه. في كل الأحوال، ظلّت مقاومتنا من أنبل المقاومات في دفاعها. ويشهد على ذلك الخمسة آلاف مقاتل الذين سقطوا شهداء لأجل هذا البلد وما يمثّل من قيم. هذا، دون ذكر الألوف من المعوقين، هؤلاء المشوهين جسداً ونفساً، الذين ينضمّون كل يوم إلى عذاب وطنهم.

"لقد قدّمنا لفخامتكم نظرتنا الكاملة إلى الأزمة اللبنانية والحلول الممكنة والمقبولة. كما أعربنا لكم عن استعداد تام للتعاون في سبيل حل من شأنه أن يساعد على إنقاذ البلد والتخفيف من آلام شعبه. "تبيّن من خلال مبادرة البحث عن حل، شاركت فيها البلدان العربية الشقيقة، أنّ قضية تعاوننا مع إسرائيل قد أثيرت، وكذلك ضرورة اتخاذ موقف بهذا الموضوع، بُغية التمكن من الإسهام في هذا الحل. والحالة، فإن هذا التعاون، في السياق الحالي، لا يمكن اعتباره خطيئة. لقد دُهشنا من ذلك؛ ولكننا نعتبر أن لبنان يستحق أن نؤكد لفخامتكم تعهّدنا بعدم تجديد التعاون مع إسرائيل. فإذا كان في إمكان تعهدنا إنقاذ لبنان أو فتح طريق الخلاص، فإننا نناشد فخامتكم أن تأخذوا علماً بذلك. بكل ثقة، نضع هذا التعهد بين يديكم. ولا يمكن الإعلان عنه إلا في سبيل لبنان، وفي سبيله فقط.

بتقدير واحترام.

قائد القوات اللبنانية

بشير الجميّل."

هذا النص لم ينشره إلياس سركيس أبداً. إنما أعلم أعضاء اللجنة بتلقيه، وأكد أن بشير الجميّل قد تعهّد بقطع علاقاته بإسرائيل، لا غير. فشنّت سورية، مع حلفائها اللبنانيين، حملة إعلامية حقيقية تشكّك في آن بوجود الرسالة وبنوايا موقعها، وتندّد بتواطؤ "الشرعية" مع القوّات اللبنانية. ذكرت الصحف وجود الرسالة، من دون الإتيان على مضمونها. مما سمح لمناحيم بيغن، الذي استجاب في اليوم التالي حول نوايا بشير الجميّل، بأن يردّ:

– الوضع في لبنان دقيق جداً، فاسمحوا لي بعدم الردّ عليكم.

أُصيب علي الشاعر بالخيبة، لأن الرسالة لم تُوجّه إليه. كاشف جوني عبدو بالأمر، حين لفته إلى أن قائد القوات، بموقفه هذا، ما كان يعير اهتماماً للجنة الرعاية. وهذا ما لم يكن خاطئاً تماماً. فعلى الأقل، كان بشير يشكك كثيراً في فعاليتها. لتهدئة غضب السفير، دعاه رئيس المكتب الثاني إلى لقاء بالزعيم الشاب في منزله. هذا الأخير الذي ما كان يرغب كثيراً في إغضاب ممثل السعودية، وافق على أن يقرأ له النص الذي كان قد أرسله إلى الرئيس اللبناني، ولكن من دون أن يعطيه نسخة عنه.

– هذا النص ممتاز، قال السفير مستحسناً بعدما أصغى إليه باهتمام. إنه مقبول تماماً من جانبنا وكذلك من جانب الكويتيين. إننا نتبنّاه! وإذا لم يمش خدّام، فعليه أن يتحمل المسؤولية. فالدولة اللبنانية تطلب منّا قبوله، ونحن ندعم طلبها.

في ثلاثة أشهر، من أول أبريل - نيسان حتى أول يوليو - تموز 1981، حصدت المجابهات وأعمال القصف 1121 قتيلاً و 4499 جريحاً في كل الأراضي اللبنانية. عند الساعة التاسعة من صباح 16 أغسطس - آب، قامتْ مرسيدس حمراء بمحاصرة رانج روفر في أحد زواريب الحمرا في بيروت الغربية. خرج منها أربعة رجال وأفرغوا مخزنين من كلاشنيكوف كل منهم على راكبي الرانج، قبل أن يتواروا عن الأنظار. داخل الرانج كانت أجسادهم مثقوبة بالرصاص: أجساد إلياس حنّوش، الملقّب بـ "حنش"، وابنته مايا (9 سنوات)، وابنه ألان (7 سنوات) وحارسِه.

11

اللعبة الأميركيّة

بعدما سويّت قضية زحلة، انطلق صغير آل الجميّل بمشروع آخر: رحلته إلى الولايات المتحدة. كان هذا الموضوع الأساسي للقائه الأول مع سفير الولايات المتحدة الجديد في لبنان، روبرت ديلون، يوم 7 يوليو - تمّوز 1981.

– سنتفاهم جيداً، أكّد له الدبلوماسي.

كان يبدو أن ديلون كادر شاب ديناميكي، فهو يرتدي بدلة بيضاء، مع ابتسامة عريضة، يشبه تانتان بغرابة، وذلك بلا شك بسبب خصلة من شعره الأبيض، مسرّحة إلى الخلف، يضعها فوق الجبهة تماماً. كان جوني عبدو، الذي التقاه قبل ذلك ببضع ساعات، قد طلب منه أن يحصل لبشير على مقابلة مع نائب الرئيس الأميركي، جورج بوش (الأب آنذاك).

– سيكون ذلك صعباً جداً؟ كان ردّ الدبلوماسي. فلن يستقبله بوش ولا وزير الخارجية ألكسندر هيغ. سيكون ذلك بثمابة اعتراف بالقوّات اللبنانية.

بدوره، ألحّ بشير الجميّل:

– كان السفير دين قد أعلمني بأني سأرى ألكسندر هيغ ووليام كاسي.

– مقابلتكم مع نيقولا فليوتس، أحد معاوني هيغ، ستكون غطاءً لاجتماعكم مع وكالة المخابرات المركزية.

هنا بالذات تكمن مشكلة بشير. فعلاقاته مع إسرائيل كانت تمرّ عبر الموساد، وكان يخشى لأن تنحصر العلاقات التي كان يعمل على نسجها مع الولايات المتحدة، بوكالة المخابرات المركزية. لم يعد راغباً في هذه العلاقات السرية نسبيّاً، وصار يسعى وراء اتصالات سياسية رسمية. فإذا بقيت هذه الاتصالات صعبة مع تل أبيب بسبب المحيط العربي، فليس الحال كذلك مع واشنطن.

– بعد كل ما فعلته لأجلكم، يحقّ لي أن ألتقي شخصية أهمّ من نيقولا فليوتس، حاجج بشير.

– لا تستطيع الولايات المتحدة أن تلتزم معكم أكثر، ردّ روبرت ديلون. فعليها أن تأخذ

في الحسبان حلفاءها الطبيعيين. كما ينبغي عليكم أن تعتمدوا على أنفسكم في فتح الأبواب. أرسل لي سفيرنا في إسرائيل رسالتين بخصوص زيارتكم الأخيرة لمناحيم بيغن.

- هل تريدون أن أطلعكم على زياراتي لإسرائيل واتصالاتي هناك؟

- لستم مضطرّين لأن تقولوا لي كلّ شيء. إنّما إعلامي سيسمح لي بأن أساعدكم على نحو أفضل، لكن انتبه، فمن واجبي نقل كل ما أعلمه إلى حكومتي. لا تقولوا لي ما لا تريدون أن تعرفه.

يوم 9 يوليو - تمّوز 1981، عاود قائد القوات اللبنانية حزم حقيبته متّجهاً إلى الولايات المتحدة. لتجنّب مطبّات الرحلة الأولى المخفقة، جرى التكتّم الشديد حول تنظيم عملية مماثلة لعملية 16 مايو - أيّار، غير أنّ الرحلة ألغيت مجدّداً في آخر دقيقة، بسبب معلومات عن تدخل المطاردة السورية ضد المروحية التي كان يفترض بها أن تنقله إلى لارنكا.

في اليوم التالي، اشتعل جنوب لبنان. أدّت غارتان إسرائيليّتان على منشآت للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين (بقيادة نايف حواتمة) في قرية حبّوش بالقرب من النبطية والغازية، غير البعيدة من صيدا، إلى سقوط 6 قتلى و209 جرحى. فكان الردّ فورياً. ففي المساء نفسه، انهمرت الكاتيوشا الفلسطينية على كريات شمونة، جارحة 14 شخصاً. يوم 12 يوليو - تمّوز، ضربت المطاردات - القاذفات الدامور والناعمة. وأغلق لساعتين، طيلة الغارة، مطار بيروت، الواقع على مسافة 5 كلم من المكان الذي استهدف. بعد يومين حاول الطيران السوري مطاردة طائرات إسرائيلية مقاتلة فوق جنوب لبنان، وأسقطت طائرة ميغ بالقرب من كفرفالوس. يوم 16 يوليو - تموز، انفجرت قذائف فلسطينية فوق نهاريا وكريات شمونة، موقعة قتيلين و18 جريحاً من السكان.

- لن يكون قصف على الجليل بعد اليوم، توعّد مناحيم بيغن وتهدّد.

أدانت واشنطن وطلبت وقف الغارات الجوية. وقام الأميركيون بتأجيل جديد لتسليم 4 مقاتلات إف 16 مجمّدة بفعل الحظر حتى 17 يوليو - تمّوز، عقاباً على الغارة ضد مفاعل تمّوز النووي. احتجّت تل أبيب وطالبت بتسليمها، مؤكّدة على أن هذه الطائرات قد دفع ثمنها، كما دفع جزئياً ثمن طلبية أخرى مكوّنة من عشر طائرات من الطراز نفسه. إن تسليم طائرات إف 16 هذه، أثناء الغارات الإسرائيلية، لا يمكن له إلا أن يكون مصدراً للإحراج أمام بعض البلدان العربية، في وقت يدأب فيه الأميركيّون على لعب درر الوسطاء في الشرق الأدنى. رفعت واشنطن نبرتها وأعلنت إعادة النظر في الصفقة المقصودة.

في هذا الجوّ المتوتّر كان بشير الجميّل يحاول للمرّة الثالثة، يوم 16 يوليو - تمّوز، الذهاب إلى الولايات المتحدة. هذه المرّة، أقلعت مروحية الجيش اللبناني من جونيه في

الساعة المحدّدة، بينما كانت سلسلة من الغارات الجوية تدمّر في جنوب لبنان الجسور الستة التي كانت تسمح بعبور نهري الأولي والليطاني. في لارنكا، لم يتمكّن قائد القوّات اللبنانية من الصعود إلى الطائرة الخاصة التي كانت تنتظره. فالسلطات القبرصية تنازلت أمام ضغوط سورية وخصوصاً فلسطينية، إذ كانت المنظمّات الفلسطينية مزروعة في الجزيرة، ورفضت الإذن له بأن يتنقل من طيران عسكري إلى طيران خاص. عبثاً كان تدخل السفير اللبناني في نيقوسيا طيلة النهار، مع وزير الخارجية فكان على بشير الجميّل الغاضب الرجوع من حيث أتى، عند الساعة الخامسة عصراً بعد خمسين دقيقة من وصوله، علم أن الفلسطينيين كانوا قد ردّوا بإطلاق 2000 قذيفة وصاروخ على نهاريا وكريات شمونة، انتقاماً لتدمير الجسور. وفي اليوم التالي، يوم 17 يوليو - تمّوز 1981، كان الإعصار المدمّر.

في ثلاث موجات لمقاتلات إف 16 وإف 15 الإسرائيلية جرى استهداف مباني منظمة التحرير الفلسطينية في حي الفاكهاني وفي قلب بيروت الغربية الشعبية. طول النهار، وفي قسم كبير من الليل، كانت الإسعافات تطلق صفّاراتها وهي تعبر الشوارع المتحوّلة إلى ميادين دمار، مكتظّة بسيارات محترقة، جرّاء الانفجارات، بينما كان المسعفون يبذلون قصارى جهدهم داخل المباني المبقورة. فوجئ سكّان الأحياء المسيحيّة في شرق العاصمة، بعنف الهجوم وفجائيته، فلاذوا بالملاجئ خوفاً من قصف انتقامي.

كانت المرّة الأولى التي تقصف فيها تل أبيب، قلب حي من بيروت التي لم تعد تشهد قصفاً جوياً منذ الحرب العالمية الثانية. سقط فيها 191 قتيلاً وأكثر من 730 جريحاً. وطاول القصف الانتقامي نهاريا وكريات شمونة، وهذه المرّة، المطلّة.

بطلب من رونالد ريغن، ألغى فيليب حبيب الذي كان في الرّياض، زيارة كان يفترض أن يقوم بها إلى دمشق، وسارع إلى القدس. على الرغم من تكذيب واشنطن الرسمي، كان المبعوث الخاص للرئيس الأميركي قد وضع صفقة إف 16 مع تل أبيب، مقابل وقف إطلاق النّار في بيروت، وذلك وفقاً لتوجيه رسمي واضح جداً. عند وصوله إلى إسرائيل. كان موردخاي تزيبوري، نائب وزير الدفاع، يعلن من إذاعة الجيش: "إذا كان ما فعلناه لا يهدّئ الفلسطينيّين، فإننا سنختار طرقاً جديدة ستسمح لنا بحرق الأرض، وسنضع حدّاً للقصف على إسرائيل. سنفعل ذلك حتى وإن كان هناك أصدقاء في المنطقة".

هذا الردّ الاستباقي على مطالب فيليب حبيب حدّد مدى الصعوبات التي سيواجهها. وكانت تبدو مهمّته صعبةً على قدر ما كانت الدولة العبرية تمركز قوّات ومدرّعات على طول حدودها الشمالية. كانت عملية عسكرية بريّة تبدو وشيكة. وبما أن فيليب حبيب لا يحق له أن

يلتقي القادة الفلسطينيين، فقد كان يحاورهم بواسطة مساعد الأمين العام للأمم المتحدة، بريان أوركهارت. إن هذه المناقشات، رغم أنها غير مباشرة، كانت عملياً تمنح عرفات اعترافاً بوجوده السياسي. فوق ذلك، أجاز رئيس م ت ف لنفسه أن يتهكّم من خلال القناة التلفزيونية الأميركية (ABC): "على بيغن أن يعترف بوجود حوار من خلال هذه المجابهة[1]". اشتاط رئيس الوزراء الإسرائيلي غضباً من جرّاء ذلك. يوم 2 يوليو – تمّوز، غضب رونالد ريغن من عصيان بيغن وضرب بقبضته على الطاولة. علّق لمدّة غير محدّدة تسليم طائرات إف 16 وهدّد بسلاح أكبر هو احتمال تأخير درس الكونغرس وإقراره لمساعدة عسكرية أميركية لإسرائيل. في اليوم نفسه، صوّت مجلس أمن الأمم المتحدة بالإجماع على قرار يدعو المتحاربين إلى وقف فوري لإطلاق النار، الذي وافق عليه ياسر عرفات فوراً. يوم 24 يوليو – تموز، توصّل فيليب حبيب إلى انتزاع ركائز لاتفاق سوري – فلسطيني – إسرائيلي، غير مأمول، ولو في حدوده الدنيا: يمكن لسورية إبقاء صواريخها في البقاع، لكنّها لن تستعملها؛ تستطيع إسرائيل مواصلة تحليق طائراتها فوق لبنان لكن من دون ضرب السوريّين؛ يجب على الفلسطينيين والإسرائيليين وقف المعارك على الحدود.

عند الساعة الثالثة فجراً، بعد يومين، اتصل المبعوث الخاص لريغن من القدس، لإعلام بريان أوركهارت بمطلب إسرائيلي أخير: لا يجوز لوقف إطلاق النار أن ينحصر بجنوب لبنان، بل يجب أن يشمل كلّ الأراضي الإسرائيلية! بكلمة، على م ت ف أن تكفّ عن محاربة إسرائيل. انفجر أوركهارت ورفض إبلاغ هذا المطلب إلى م ت ف. فهذا يتنافى مع حقّ مقاومة الاحتلال المنصوص عنه في ميثاق منظمة الأمم المتحدة. خلال اجتماع صاخب، تمكّن حبيب من جعل بيغن يتراجع. لدى خروجه من عند رئيس الوزراء الإسرائيلي، أعلن الأميركي بنفسه للصحافة أن إسرائيل وافقت على وقف إطلاق النار، وهذا ما أكّده بعد ثوان مناحيم بيغن وهو مكفهر.

إن الاتفاق الذي حُصّل مع فيليب حبيب، فتح باب الدبلوماسية أمام منظمة التحرير الفلسطينية. في إسرائيل، كان يعتبر احتمال أي تفاوض بين الفلسطينيّين والأميركيّين بمثابة كارثة حقيقيّة.

في أغسطس ـ آب 1981، وبسريّة تامة، استقبل عرفات، جون مروز، مدير الدراسات في الأكاديمية الدولية للسلام، وهي مؤسسة نيويوركية، شبه رسمية، يوجد مثلها العشرات في الولايات المتحدة. كان قسماً مهماً من المحيط القريب من ريغن، قد قدّر، إبّان معارك يوليو – تمّوز، أن ياسر عرفات قد برهن على أنّه قادر على ضبط رجاله وأنّه كان مستعداً

(1) Rémi Favret, Arafat, *Un destin pour la Palestine*, Renaudot, 1990.

للتفاوض. حتى أن بعضهم كان يفكّر أن من الضروري التعامل مع القيادة الفلسطينية، عاجلاً أو آجلاً. جرت لقاءات عرفات – مروز بمبادرة من جايمس بيكر، إدوين ميس ومايكل دافر، المستشارين الخاصّين للرئيس الأميركي، وبموافقة هذا الأخير[1]. كان ألكسندر هيغ يسمي هذا الثلاثي "الوحش المثلّث الرؤوس". قدّم جون مروز تقريراً عن كل مقابلة، إلى نيقولا فليوتس، مساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأوسط. بالإجمال نحو 400 ساعة نقاش حول مسودّة مشروع لاعتراف متبادل بين م ت ف وإسرائيل، دارت كلها ما بين أغسطس – آب 1981 ومايو – أيار 1982. كان هذ الحوار في غاية السرية لدرجة أنّه خفي على يقظة أجهزة المخابرات الإسرائيلية. كان يفترض به أن يصبّ في خطة ريغن التي سيقدّمها الأميركيّون إلى بيغن في أول سبتمبر ـ أيلول 1982.

بعد ما حدث في جنوب لبنان، اجتمع في تونس ممثلو الجامعة العربية، ولم يستطيعوا أن يجددوا ولاية القوّات العربية إلا لستّة أشهر، على الرغم من أنّ بعض البلدان العربية، كالكويت والسعودية، كانت قد أعربت عن تحفظّات شديدة حول هذا التجديد، وذلك قبل عدّة أسابيع.

ترتّب على وقف إطلاق النار الذي حصّله حبيب، نتيجة غير مباشرة هي تغيير مكان هوائي الموساد في لبنان. فبعدما عاد الهدوء، عاد الدبلوماسيّون، وطالب ممثلو السنغال باستعادة مكاتبهم في أدونيس. كان على طاقم الموساد أن يغادر الفيلا (الدّارة) التي أمضى فيها أكثر من خمسة أشهر. المقيم شموليك أفياتار (أليكس) وحارساه ومفكّك الرموز، الإسرائيليّون الذين يحميهم سرّاً بعض المقاتلين المسيحيّين، كانوا قد استفادوا من حديقة معرّشة ومن مسبح ذي قاع أزرق. دائماً بملابس مدنيّة، كانوا قد اندمجوا تماماً في حياة الحيّ؛ فكانوا يتحرّكون بسريّة تامة، إلا مساء عيد ميلاد (أليكس) الذي كان موسيقياً بارعاً، فراح يعزف على البيانو، ألحاناً شعبية إسرائيلية، كان زملاؤه يردّدونها وهم يغنّون بأعلى صوتهم، فيما كانت النوافذ مشرّعة بسبب الحرّ. بادئ الأمر، شكّ الجيران باللغة التي كانوا لا يعرفونها، ثم ارتابوا كثيراً، فأنذروا... القوّات اللبنانية.

مؤقتاً، جرى وضع الهوائي (الأنتين) في الطابق الأول من دير القديس يوحنا الصغير في عجلتون، في الجبل، فوق الزوق. لم يرتح أي من أعضاء الفريق في هذا المبنى الحجري المصقول، ذي السقف القرميدي، المعزول على قمة تلة، وسط غابة صنوبر، بعيداً عن المدينة. استعانت القوّات برجل أعمال، ريمون عرب، الملقّب بموني، لكي يبني على شط

(1) نيويورك تايمز، فبراير – شباط، 1984.

البحر فيللا ومهبطاً للمروحيّات في طبرجا، شمال خليج جونيه. هناك، ومنذ سنوات، كانت مراكب الناتاك[1] الإسرائيلية تُنزل السلاح والذخائر والأعتدة للميليشيات المسيحية.

موني عرب، روم كاثوليك، أصله من لبنان الشمالي، منظّم رائع، كان في المقام الأول صديقاً شخصياً لبشير الجميّل. كان هذا الأخير يستعين بكفاءاته كلما كان هناك مشاكل عملانية يجب أنْ تعالج. أثناء حصار الأشرفية سنة 1978 أو حصار زحلة، كان موني قد اهتم بكل تموين أركان الميليشيا المسيحية بالغذاء والأدوية. بين أعمال أخرى، كان قد أنشأ وأدار مطعم القيادة العامة [للقوّات] في الكرنتينا. وبما أن بشير كان قد شدّد على الحاجة الملحّة إلى هذا المبنى، فقد تشارط وإيّاه على صندوق ويسكي، إن تجاوز بناء فيللا طبرجا العشرين يوماً. كسب رهانه، وذلك بتشغيل فوجين من العمال، ليلاً نهاراً.

المحاولة الرابعة لسفر بشير الجميّل إلى الولايات المتحدة، يوم 30 يوليو – تمّوز 1981، كانت هي الثابتة. فجراً، بصحبة زوجته صولانج، صعد قائد القوات اللبنانية على متن الزورق السريع الذي كان رجاله قد "صادروه" من الجمارك. بقيادة ملازم من البحرية الوطنية اللبنانية، أرسله جوني عبدو، وبمساعدة مسؤول بحرية القوات، بدأت الرحلة الصغيرة في موعدها المحدد، بصحبة بارجة حربية لوجستية من الأسطول السادس الأميركي، على مسافة 18 كلم، غرب جونيه، خارج المياه الإقليمية، وعلى الفور، لدى رؤية البارجة الرمادية الضخمة، وطبقاً للتعليمات الواردة منها، خفّف المركب سرعة محرّكاته، ناصباً رشيشه من عيار 12,7 مم نحو السماء، ثم توقف على بعد مئة متر من البارجة الأميركية التي أنزلت زورق إنقاذ الى المياه لنقل بشير وزوجته.

كانت الثماني والأربعون ساعة ملاحة التي استغرقتها الرحلة، جُلجلة بالنسبة إلى الشاب، الذي يصاب بالمرض من مجرّد فكرة الصعود إلى متن باخرة. ثم نقلت مروحيّة من البارجة الزوجين من آل الجميّل إلى قاعدة أميركية في إيطاليا، حيث كانت تنتظرهما طائرة خاصّة، قادتهما إلى فرانكفورت. وصلا إلى واشنطن على متن طائرة بان أم في رحلة عادية.

استقبلهما في المطار، ألفرد ماضي وأميركي من أصل لبناني، روبير باسيل، الملقب بوب، باسيل، مستشار لشؤون الشرق الأوسط في وزارة الدفاع، وعضو في مكتب القوّات اللبنانية في واشنطن. كان لبوب، العضو في الرابطة الأميركية – اللبنانية، صيته في ممارسة تأثير معيّن على عدّة أعضاء في مجلس الأمن القومي. ما إن وصلوا إلى ماديسون هوتيل، حتى قضى الرجال الثلاثة عدّة ساعات في درس أفضل طريقة لعرض معركتهم أمام

(1) NATAKS: مراكب إنزال، ذات قاع مسطح، كان الإسرائيليون يستعملونها لإنزال السلاح والمعدات والذخائر على الشواطىء.

المسؤولين الأميركيين. أوصى ألفرد ماضي باقتراح تحالف بين الولايات المتحدة والقوّات اللبنانية لمكافحة كل ما كان جميع قادة الإدارة الأميركية الريغنية يتخوفون منه: التغلغل السوفياتي. فجرى تبنّي الفكرة.

يوم 13 أغسطس – آب، عرض بشير الجميّل مطوّلاً لمحلّل في وكالة المخابرات المركزية، الوضع اللبناني والضغوط السورية، المباشرة وغير المباشرة، على حلفائهم اللبنانيين. في بداية بعد الظهر، كانت مفاجأة مجيء موريس درابر إلى ماديسون هوتيل. أخبره نائب وزير الخارجية لشؤون الشرق الأوسط أنه لن يتمكن من مقابلة ألكسندر هيغ، كما كان ذلك مُتصوراً في وقت ما. فردّ ألفرد ماضي بعنف:

– ليس وارداً أنْ يذهب بشير الجميّل إلى وزارة الخارجية، إن لم يجتمع بوزير الخارجية، قال للدبلوماسي. ذكّره بلهجة حادّة بأنّ لبنان كان جزءاً لا يتجزّأ من سياسة التقارب التي كانت الولايات المتحدة ترغب في تطويرها مع البلدان العربية لمواجهة الهيمنة السوفياتية. ترك درابر العاصفة تمرّ، وشرح مطوّلاً للبنانيين بأن الطابع العلني، بالضرورة، لهذه الزيارة يمكن أن تكون له عواقب مهمة بالنسبة إلى الدور الذي تنوي واشنطن أن تلعبه في العالم العربي، ولا سيما مع دمشق. عصّب بشير وقطع الحديث:

– جئت حاملاً رسالة إلى الأميركيين، ولا يهمّني من يتلقّاها.

صباح اليوم التالي، كان لقائد القوات اللبنانية لقاء قصير مع الأميرال بوبي راي إينمان، المدير المساعد لوكالة المخابرات المركزية. على الرغم من عمره الخمسيني، كان يبدو الأميركي كأنه طفل عبقري كان قد كبر بسرعة فائقة، لا شك بسبب قامته الممشوقة ورأسه النّامي كثيراً بالمقارنة مع جسمه، وبسمته البريئة ونظرته المنذهلة تحت نظارتين سميكتين.

حامل أرفع رتبة في سلاح البحرية الأميركية، كان بوبي راي إينمان مسؤولاً عن جهاز مخابرات البحرية من 1974 حتى 1976، ثم صار الرجل الثاني في جهاز استخبارات وزارة الدفاع طيلة عام، قبل أن يتخصص في الاستخبارات العلمية كمدير للنازا، في عهد الرئيس جيمي كارتر. كان يعتبر بشيراً قاتلاً دموياً، وكان يعتبر أن وكالة المخابرات المركزية لا شأن لها مع هذه الفئة من القتلة. مع ذلك، استقبل بمودّة قائد القوّات اللبنانية وحدثه عن رحلاته إلى الشرق الأوسط:

– لديّ ذكريات طيّبة جداً عن لبنان في زمن تألقه، شرح له. ذهبت إليه سنة 1955 كضابط مخابرات، فكان البلد رائعاً. سنة 1958، كنت في العراق عندما سحل الملك فيصل ونوري السعيد في شوارع بغداد. كما كنت في عداد الأسطول السادس عندما تدخّل بناء لطلب الرئيس شمعون.

- مرّت سبع سنوات ونحن نحارب وحدنا، حاول بشير أن يحاجج. قيمنا ومثلنا هي مثل قيمكم ومثلكم. إننا نحاول وحدنا التصدّي للتغلغل السوفياتي، من دون مساعدة أصدقائنا.
- يجب أن تفهموا أنّ حرب الفيتنام قد أثّرت كثيراً في سياستنا وعملنا.
- نريد أن نكون حلفاءكم، تابع بشير. نريد أن نكون جزءاً من نظامكم. لنا المصالح نفسها. فالشعب اللبناني، مهما يكن رئيسه، ودّي جداً تجاه الولايات المتحدة. ليس الحال كذلك في مصر والسعودية، حيث يذهب غياب السادات وآل سعود بكل رصيدكم وتوظيفكم.
- نحن واعون لمشكلات السعوديين والمصريين ونأمل أن نرى لبنان يسترجع استقلاله.

في حال استمر تجاهله لما حدث، كان ربع الساعة هذا من المقابلة قد بيّن لقائد القوّات اللبنانية أن بعض المسؤولين الأميركيين لا يقدّرونه إطلاقاً. وفجأة سبر الطريق الواجب قطعها لإعادة تلميع صورته، من الواضح أن لقاءه في الغد، يوم 4 أغسطس - آب، مع نيقولا فليوتس، كان أكثر رحرحة وحرارةً. سأل فليوتس عن صحة محاوره، ملمّحاً إلى مصاعب رحلته ودواره البحري:

- إنها مشكلة مطار بيروت، ردّ بشير بابتسامة. لكنّ صعوباتنا الكبرى تكمن في الوجود السوري. الانتخابات [الرئاسية] قريبة ومن المؤكد أنها ستفرض علينا واحداً مثل بابراك كارمال[1].
- هل تعتقدون أن هناك أملاً؟
- عندما سنحبط، سنأتي إليكم طالبين الغرين كاردز[2].

ناقشنا إمكانيّات التوصّل إلى انسحاب سوري والدور الذي يمكن أن يلعبه السعوديون في هذا المجال. سأله فليوتس عن إمكانية وفاق وطني لبناني:

- لا نريد الآن مناقشة هذا الأمر، رد الشاب. فالسوريون يسيطرون على جزء كبير من المشهد السياسي. لقد زوّرت الخرائط. خذوا مثلاً حالة وليد جنبلاط: الوجود الدائم لألبير منصور إلى جانبه، وهو رجل موال لدمشق، إنما يمنعه من المحاورة بحرية. إن مناقشة الوفاق الوطني تعني تشجيع وتسهيلَ اللعبة السورية، وهي لعبة تعكير أمني وتدخّل. لكنن

(1) رئيس الدولة الأفغانية الذي وصل إلى كابول بالطائرات السوفياتية، يوم 27/ 12/ 1979، وهو اليوم الأول للتدخل العسكري.

(2) بطاقات إقامة في الولايات المتحدة.

واضحين حول الصفات التي نستعملها. إن فكرة الرئيس سركيس ممتازة. يجب أن يخرج السوريون من بيروت وجبل لبنان، وهذا ما لا ينوون فعله. إنهم أقوياء جداً لكي يخلقوا مبرّرات بقائهم. انظروا كيف حصلوا على تمديد ولاية قوّات الردع العربية. سوف تستخلصون ذلك بنفسكم، سيذكرون غداً استحقاق الانتخابات الرئاسية.

عندما خرج من المقابلة، علم بشير بتعيين آريل شارون في منصب وزير الدفاع. كانت حكومة بيغن الجديدة تتميّز بغياب شخصيّات معتدلة: لم يعد فيها موشيه دايان، وعزرا وايزمان، وإيغال يادين. لم يكن قائد القوات قد التقى أبداً بالجنرال السابق الذي صار وزيراً. كان يعرف شهرته؛ فكان يرى أن الأمور كانت تجري لصالحه.

يوم 5 أغسطس - آب، عاودت وكالة المخابرات المركزية مهمّتها. من الساعة التاسعة صباحاً حتى الساعة الخامسة من عصر اليوم نفسه، عقد بشير اجتماعاً تلو الآخر، في صالون من صالونات الماديسون هوتيل، مع الاثنين المسؤولين عن ملفّ لبنان، شوك كوغان وجي روجرز. إنهما كانا ودودين، مسترخيين، واثقين من قدرتهما وسلطتهما، تناوبا على عرض آرائهما: "نودّ أن نكون حلفاءكم [. . .]. نحن لا نستطيع التقرّب من سورية طالما أنها عدوّة لكم [. . .]. الروس يتغلغلون أكثر فأكثر [. . .]. إننا نتفاهم جيّداً مع المسلمين، لكنّ دمشق تضع لنا العصي في الدواليب." إنّها الكلمات التي كان قائد القوّات اللبنانية يودّ أن يسمعها. جي روجرز بدا مهذاراً، مكثاراً. فشرح أن سياسة أميركية جديدة في طريقها إلى أن تعتمد بشأنه، لكن كل شيء لمّا يتحدّد، فهناك بعض النقاط لا تزال بحاجة إلى الموافقة، مثل التدريب العسكري للمقاتلين المسيحيين. كان يرى أن كل الأمور سيجري ترتيبها في سبتمبر ـ أيلول. إن التسهيل الوحيد الفوري هو تدريب عناصر من القوات اللبنانية على الاستخبارات.

- نستطيع البدء فوراً بأخذ ستة أشخاص في دورة مخابرات عسكرية، وبأخذ عدد مماثل لتدريب أخصائيين في الأمن الشخصي. ما هو نوع السلاح الذي تحتاجون إليه؟
- لدينا 15000 رجل، لكننا لا نملك مالاً لتسليحهم، ردّ بشير.
- يمكنكم البدء بتزويدنا بما لديكم، بانتظار توفير الأموال اللازمة لشراء أسلحة أخرى، اقترح اللبناني. هزّ جي روجرز رأسه:
- لا أستطيع أنْ أعدكم بشيء قبل سبتمبر ـ أيلول.
- كما نحتاج إلى عتاد اتصالات. لكنّ أولويتنا هي لتدريب رجالنا، أوضح بشير.
- إن سياستنا تجاهكم نابعة من دعمنا لحكومتكم والمساعدة التي سنقدّمها للجيش اللبناني. في هذه الظروف ربما لن يكون ضرورياً أن تكون لديكم قوّة عسكرية مستقلة.

- لا ينبغي النظر إلى الأمور على هذا النحو. سيغدو جيشنا النواة المركزية للجيش اللبناني الجديد.

سرد موظف وكالة المخابرات المركزية المقابلات التي أجراها بشير منذ وصوله وسأله:

- إذا كنا جميعاً متفقين، فمذا يمكننا أن نفعل في نهاية إقامتكم؟

- إعداد بيان للبيت الأبيض يطالب سورية بالانسحاب من لبنان، اقترح بشير الجميّل بلا تردّد. كذلك لا بد من مناشدة السعوديين حتّى يتدخّلوا بعزم أشدّ لدى دمشق، بغية الحصول على انسحاب السوريين من بيروت، من المطار، من الجبل ومن الشمال.

- لا شيء آخر؟ سأل جي روجرز مبتسماً.

- بالطبع، لا بد لكم من مواصلة دعم الرئيس سركيس في جهوده.

- نودّ الالتقاء بإيلي حبيقة قبل شهر سبتمبر ـ أيلول، اقترح الأميركي قبل أنْ يعلن أنّ وكالة المخابرات المركزية ستُقيم جهاز اتصالات بين القوات اللبنانية والسفارة الأميركية في بيروت تسهيلاً للاتصالات بينهم.

أسف بشير لعدم التقائه بمسؤول رفيع المستوى في وزارة الخارجية. أعلمه جي روجرز، سراً، أن وليام كلارك، مساعد ألكسندر هيغ، سيستقبله.

وصلتْ رسالةٌ لإيلي حبيقة مُقلقة عن طريق تلكس الفندق. من المحتمل أن تكون مجموعة فلسطينية قد غادرت لبنان إلى الولايات المتحدة للقيام باعتداء على قائد القوات اللبنانية. أجهزة المخابرات الأميركية أخذت الأمر على محمل الجدّ. فتقرّر على الفور أن يقيم بشير في سيف ـ هوس (بيت محمي) تابع لوكالة المخابرات المركزية. لقد تبدّل، من جراء ذلك، كل برنامجه؛ صار هناك 15 حارساً لا يتركونه ولم يعد يتحرّك إلا بمواكبة ثلاث سيّارات. ألغيت لقاءات وحفلات مع الجالية اللبنانية، كما شطبت المقابلات التي كان يفترض أن يجريها مع ريتشارد نيكسون وتيد كنيدي. أبداً لم يستطع بشير أن يحدّد ما إذا كان أمنُه هو الذي كان يبرّر، يقيناً، كل هذه الإجراءات. انكبَّ على الهاتف الذي كان يسمح له بإجراء عدّة مقابلات. كما أخبره جي روجرز، دعاه وليام كلارك إلى زيارته يوم 7 أغسطس ـ آب في وزارة الخارجية.

كان كلارك رئيس الأركان في فريق ريغن، عندما كان هذا حاكماً لولاية كاليفورنيا. كان مشهوراً بعدائه الشديد للشيوعية. بعدما جلس بشير الجميّل قبالته، دخل مباشرة في صلب الموضوع وأخضع ضيفه لاستجواب حقيقي:

- ما هي حاجاتكم؟

- ما أريده هو لصالح شعبنا. لقد ارتُكبت أخطاء كثيرة منذ 1958، وكلّفت كلُّها ثمناً باهظاً. نحن غير معنيين بعلاقة آمر (موصي) وعملاء مأمورين. فما نريده هو إقامة علاقات وثيقة تكون في مصلحتنا المشتركة. نحن بحاجة إلى تعزيز قوتنا العسكرية، وإلا فسوف نُسْحَق. لدينا 17000 رجل ونحن قادرون على إنشاء قوتنا الخاصة بنا للدفاع عن منطقتنا.

- كلّهم موارنة؟

- كلا! لكنهم تقريباً كلهم مسيحيون. فهناك أيضاً ملكيّون، نصارى شرقيّون في زحلة.

- كم تعبّئون منهم كل عام؟

- عشرة آلاف، أكّد بشير من دون أن يرمش جفنه.

- كم تدرّب منهم في إسرائيل؟

- عدد كبير، بين 500 و700 رجل. لكننا توقفنا عن إرسالهم، لكي نتجنّب إلحاق الأذى بفيليب حبيب، كذب قائد القوّات اللبنانية.

- هل لديكم أسلحة؟

- يمكن أن تعتبروا أنّه ليس لدينا أسلحة، نظراً لأن مدرعاتنا قديمة جداً.

- علامَ تعتمدون؟

- على رؤوسنا، عضلاتنا، الآر بي جي، الأسلحة الخفيفة.

- هل يزوّدكم الجيش اللبناني بالسلاح؟

- عندما تفكك الجيش، حصلنا على بعض المعدّات، لكنّا ما كنّا نجيد استعمالها.

- هل نستطيع اليوم أن نقدم لكم مساعدة عن طريق الجيش؟

- إذا أردتم ذلك.

- بخصوص الغطاء السياسي، هل تفضلون استعمال أسلحة أميركية أم سوفياتية؟

- ليس لهذا أية أهمية، ما دمنا في كل حال مرتبطين بكم سياسياً.

- إذا أعطيناكم مالاً، هل يمكنكم التزوّد بالسلاح من البرتغال أو كوريا؟

- أجل. بدون مشكلة.

- هل يستطيع رجالنا أن يتحرّكوا بأمان في مناطقكم؟

- هذا صعب أثناء المعارك.

الواقع أن بشيراً لم يكن يرغب في رؤية أميركيين يتجوّلون في المناطق التي كان يسيطر عليها.

- أين توجد هيئة أركانكم؟

– في بيروت، حيث أقيم أيضاً. لكني أتحرّك باستمرار. قام غونتر دين. بزيارتي هناك كما زرته في منزله.

– أقترح عليكم إرسال أحد رجالكم في لبنان حتى يتمكن من لقاء رجالنا هنا. ونحن من جهتنا سنبقى على اتصال مع ألفرد ماضي، هنا، في الولايات المتحدة.

– كذلك نحن في حاجة إلى تدريب رجالنا.

– أين تريدون أن يجري ذلك؟

– لا يهم! في لبنان، في الولايات المتحدة أو في أوروبا.

– لقد فكّرنا أيضاً بأمنكم الشخصي، وبالتالي فكّرنا في إجراء دورة لحرسكم. هل يمكن لكم إخراجهم من لبنان؟

– بالطبع، لكنّي أفضل تأمين تدريب لمدفعيتي ومدرّعاتي. كيف ترون التطور السياسي للبنان؟

– نريد أن يخرج السوريون منه، سواء حدث بعمل ديبلوماسي أم إثر ضغوط، ردّ الأميركي.

– نحن نريد بناء دولة سيّدة وديمقراطية مستقلة. دولة تطبّق قوانينها وتعتمد سياسة خارجية مطابقة لسياسة الغرب، أوضح بشير الجميّل. حتى الآن، تصرفنا كتجّار وليس كمواطنين. لم يكن في الإمكان أن تكون لدينا سياسة خارجية نظراً لأننا كنا نبيع أنفسنا للشاري الأكثر عَرْضاً. واليوم نأمل أن نرى الأسطول السادس يعود إلى موانئنا، من دون التنكر لانتمائنا إلى العالم العربي. هناك روابط تظل متينة، ولكن ضمن احترام قيمنا ومثُلنا. إننا نرفض كل مشروع لتقسيم البلد. فنحن لا نريد دولة مسيحية ولا دولة مسلمة. ما نريده هو تعايش سلمي في نطاق صيغة وطنية جديدة. وهذا ما يريده المسلمون أيضاً بوجه عام، والشيعة بنحو خاص. حتى في ذروة الصراع بين كميل شمعون وبيني في يوليو – تموز 1980، كان متوافقاً معي دوماً حول هذا المخطط. الواقع هو أنّ ليس لدينا مشاكل داخلية. إنما تكمن مشكلتنا فقط في الوجودين السوري والفلسطيني. نرفض أن نستبعد من المسار السياسي الإقليمي وندعم كل مبادرات فيليب حبيب. لكن، إلى متى سيتوجّب علينا أن ننتظر أيضاً؟ توقّفوا عن تصديق أصدقائكم في دمشق. إنهم يعدونكم بوعود كثيرة، فيما هدفهم الرئيسي هو نقض مشاريعكم وإحباط عملكم.

– ألا تعتقدون بأنّ السوريين سيغادرون البقاع؟

– اعملوا حالياً بطريقة تجعلهم يغادرون بيروت وجبل لبنان. فهذه ستكون خطوة كبيرة مُنْجَزة.

بعد هذه المقابلة، وصف الناطق باسم وزارة الخارجية، بشيراً بأنه "شخصية سياسية مرموقة قادرة على القيام بدور من الطراز الأول في السعي إلى حل للبنان". انفتحت صفحة جديدة أمام قائد القوات اللبنانية. صحيح أنّه بذل قصارى جهده لتلميع صورته. فهو مولع بالموسيقى الكلاسيكية، وكان يقرأ أيضاً بجنون السير الذاتية لرؤساء الدول والكتب التاريخية.

الموعد التالي كان يوم 11 أغسطس ـ آب 1981، في آخر الضحى، مع مدير وكالة المخابرات المركزية. وجهه مستدير تماماً، شعره أبيض مسرّح إلى الخلف، كان وليام كاسي ذا مسيرة مهنية انتقائية جداً: محام في نيويورك، كاتب، جاسوس سابق في منظمة OSS، مؤرّخ هاو، موظف سابق في الحكومة ورجل أعمال ذو ثروة كبيرة جداً.

كان شغّيلاً لا يتعب وربما كان الموظف الرفيع الوحيد في الإدارة، المتفاهم تماماً مع ألكسندر هيغ.

بدأ كاسي بالإصغاء لبشير الجميّل الذي كان يعتبره بمثابة "أمير حرب بوجه طفل صغير، خالٍ من الوجل"[1].

– جرى اللقاء في وزارة الخارجية بشكل جيّد، أوضح اللبناني. إنهم يتمنّون أن ينسحب السوريّون من لبنان وحتى أنهم موافقون على الطابع الملحّ لمثل هذا الانسحاب. يبقى إيجاد الحل لجعلهم يرحلون. تحدّثنا مع كلارك عن تحالف. أكّدت له أنه يستطيع الاعتماد علينا ضد التوسع السوفياتي في المنطقة. سنعود إلى لبنان متفائلين ومفعمين بالأمل لأننا تقابلنا وتفاهمنا. الخطر هو أن يتدخل السوريّون قبل أن يكون لدينا الوقت اللازم لتجسيد علاقة سياسية أو عسكرية. عندها سيغرق المسيحيون في نهر من الدم. كونوا على قناعة بأن السوفيات سيفعلون كلّ ما بوسعهم لكيدنا ومعاكستنا.

كان بشير يعزف بكل وعي، على الوتر الحسّاس لوليام كاسي. كاثوليكي متديّن، كان مدير وكالة المخابرات المركزية وناشطاً أيضاً في معاداة الشيوعية. كان متأثراً جداً بمحاولة الاغتيال التي أدّت إلى جرح يوحنا بولس الثاني، يوم 13 مايو – أيار في ساحة القديس بطرس في الفاتيكان، لا سيما وأن هذه المحاولة كانت قد جاءت بعد أقل من ستة أسابيع على إطلاق النّار الذي كان يمكن له أن يكلّف رونالد ريغن حياته. منذ ذلك الحين صار كاسي يعطي أهمية متزايدة لمشاكل الإرهاب، ساعياً إلى معرفة ما إذا كان هذان الحدثان مترابطين، وعما إذا كان السوفيات قد تدخّلوا فيهما من قريب أو من بعيد.

– إننا نناقش أموراً إستراتيجية رفيعة، أعلن ذلك قبل أن ينطق بالكلمات التي كان قائد

(1) Bob Woodward, *Veil: The Secret Wars of the CIA 1981 - 1987*, Simon and Schuster, New york, 1987.

القوات اللبنانية يحبّ أن يسمعها. إن الذين يثيرون مشكلة هم السوفيات وسورية وم ت ف نريد أن ينسحب السوريون من لبنان.

– اجتماعنا في غاية الأهمية، لم يستطع بشير منع نفسه من التعليق.

– أسلحتكم تأتي كلها من إسرائيل؟

– 70 إلى 80%. نحن نشتري البقية، ردَّ بسرعة قائد القوّات اللبنانية. دمشق تستعدّ لعملٍ في الجبل. هذا أمر خطير جداً، وحتى يمكنه أن يصير عصيباً. يجب، بكل ثمن، مساعدة الرئيس سركيس على تحقيق خطته.

ـ إذا انسحبت سورية من بيروت، هل سيكون ممكناً آنذاك تأمين انتخابات حرة؟ سأل الأميركي.

ـ كلا، لأنه لا يوجد في بيروت سوى 8 نواب.

ـ نحن على الموجة نفسها ولنا الأهداف ذاتها، استلخص كاسي. لكنّي لا أستطيع أن أقول لكم كيف نعمل للحصول على رحيلهم العسكري.

– أريد أن ألحّ على الطابع الطارئ لهذه القضية.

– كيف نتصرّف عملياً؟

– يجب الإسراع في التدريب وتقديم اللوجستيك للجيش ولرجالنا.

– وصلت الرسالة، ختم وليم كاسي وهو ينهض. سنهتم بهذه القضية، على طريقتنا، مع كلارك وهيغ.

لأجل عودة الزوجين من آل الجميّل، اتّصل مقر لانغلي[1] بقسم العمليّات الخاصة (SOD) في الجيش الأميركي، الذي وضع خطة "أوتو". ثلاث مروحيّات سيسبراي من قاعدة نورتون في كاليفورنيا، مدهونة بألوان شركة تجارية مدنية حتى لا تلفت الانتباه في المطارات غير العسكرية – نُقلت إلى القاهرة في طائرات نقل من طراز C 141، التابعة للسلاح الجوي الأميركي. في الوقت نفسه أرسل ضبّاط من قسم العمليّات الخاصة، الذين يتواصلون مع بعضهم بواسطة الأقمار الصناعية (ساتلايات للاتصالات) (Satcom) إلى القاهرة والعريش وتل أبيب، مع أمر مهمة رسمية بتنسيق تحليق تدريبي على الإنقاذ في البحر، ليلاً، من قبل الجيش الأميركي. في الساعات التالية، عبر بشير الجميّل وزوجته وحارسه، الأطلسي، من واشنطن إلى القاهرة في طائرة غولفستريم تابعة لسلاح الجو الأميركي. لم يمكثوا سوى ثوان على مدرج المطار، الوقت اللازم للانتقال من الغولفستريم إلى إحدى مروحيّات سيسبراي. على الفور، أقلعت المروحيّات الثلاث إلى العريش،

(1) مقر وكالة المخابرات المركزية في فرجينيا، غير البعيد عن واشنطن، (Langley).

شمال سيناء، للتزوّد بالوقود. في المرحلة الثالثة من الرحلة، العريش/ جونيه، حلّق ملاحو المروحيّات الثلاث، المجهزة بنظارات رؤية ليلية، فوق البحر المتوسط، بتشكيل نظامي منخفض جداً[1] بالكاد على ارتفاع ثلاثة أمتار (10 أقدام) فوق الأمواج، حتى يتجنّبوا الرادارات الإسرائيلية والسورية.

بعد يومين، ذهب بشير الجميّل إلى مقر إقامة سفير الولايات المتحدة لإجراء عرض عن رحلته. قدّم له روبرت ديلون، روبرت كلايتون آيمز وهو متخصّص في السياسة الأميركية. كان قائد القوات اللبنانية يجهل أنّه كان يصافح يد المعجزة الحية لوكالة المخابرات المركزية. كان أفضل محلّل للعالم العربي في كل المخابرات الأميركية، يتخفّى وراء ابن الخمسين الرياضي، الذي يحمل نظارات ملاّح وينتعل حذاء كوي بوي، مع بذلة مريحة وبُرودة تُثير حسد لورد إنكليزي. عملياً كان روبرت آيمز، المسمّى بوب، رئيس قسم الشرق الأوسط في الوكالة، وواحداً من النُدرة، إن لم يكن الوحيد القادر على الاتصال، ليلاً ونهاراً، بوليام كاسي، مدير وكالة المخابرات المركزية.

ـ قرّرنا أن نساعد، قال الأميركي لبشير.

كان يلزم شهوراً ورحلةُ بشير الجميّل إلى الولايات المتحدة حتى يمكن اتّخاذ هذا القرار. لقد لعب قائد القوّات اللبنانية دوراً كبيراً في ذلك. ذاك أن مقتل طوني فرنجيّة وعملية "ألتالينا" يوم 7 تموز 1980، كانا قد صنّفاه طويلاً كقاتل دمويّ. كان الأميرال بوبي راي إينمان، المدير المساعد لوكالة المخابرات المركزية قد عارض بشدة دفع عشرة ملايين دولار كمساعدة سرية مخصصة لشراء أسلحة وذخيرة، المساعدة التي كان جون غونتر دين قد طلبها في مطلع شهر مايو – أيار 1981. بعد طلب مماثل من فيليب حبيب، كان وليام أ. كاسي، رئيس الأميرال إينمان، قد أمر أنتينات وكالتي المخابرات المركزية في تل أبيب وبيروت بأن ترسل إليه تقارير عن قائد القوات اللبنانية. كانت بيروت قد وصفته بأنّه "ألعبان" وقح، يلعب ورقة الإسرائيليين ضد الأميركيين. بالعكس، كانت تل أبيب ترى أنّه الزعيم الذي كان لبنان في حاجة إليه لاستعادة استقراره، وكانت تنصح بالتعوّد على حقيقة معينة. بما أنّ وليام كاسي رأى أن المعركة التي كانت القوات اللبنانية تخوضها ضد م ت ف، إنما تعود بالخير على إسرائيل، فقد قرّر دعم طلب المساعدة المالية. وقع رونالد ريغن على إذن "سري جداً" يسمح بصرف المال.

ذهب زاهي البستاني وإيلي حبيقة، بدورهما، إلى الولايات المتحدة، لتنسيق العلاقات بين القوات اللبنانية وواشنطن. لدى عودتهما إلى بيروت، كانت طائراتهما قد وصلت قبل

(1) Steven Emerson, *Secret Warriors*, 1st American Ed., 1988.

25 دقيقة، ولم تكن قد وصلت بعدُ وحدة المكافحة التي كان جوني عبدو قد أرسلها لاستقبالهما وخصوصاً لحمايتهما. كانت هذه الوحدة معتادة على أن تصل في الوقت المحدّد تماماً حتى لا تثير فضول الجنود السوريين الموجودين في محطة المطار. فالرجلان مطلوبان بقوة في المنطقة الغربية، لكنهما كانا مجهولين جسدياً لأنهما كانا يرفضان بشدّة أن يصوَّرا أو أن يظهرا علانية؛ مضيا بهدوء إلى مكتب أمن المبنى وهاتفا عبدو، الذي ذُهل، وأعطى أوامره فوراً للذهاب إليهما.

تلقّى أسعد سعيد، الملقب بـ "هبّي"، نائب رئيس أركان القوات اللبنانية للشؤون اللوجستية والإدارية، الشحنة، وهي في معظمها من الذخائر، بقيمة عشرة ملايين دولار. وصلت إلى الحوض الخامس، في آخر مايو – أيار 1982، آتية من أوروبا على متن باخرة تحمل العلم النرويجي.

12

اتصالات في كل الاتجاهات

كانت مقاومة زحلة المسلحة قد استرعت انتباه المجتمع العربي إلى القوات اللبنانية. عندها رأى بعض أعضائه إمكان الدخول في اللعبة السياسية اللبنانية. فكان العراق أول بلد تقرب من القوات. في 20 يوليو – تموز 1981، اتصل جبران مجدلاني، وهو محامٍ أرثوذكسي، عضو في حزب البعث اللبناني الموالي للعراق، ببشير الجميّل، عبر علاقة عائلية[1]. التقى الرجلان بالكرنتينا واقترح مجدلاني على بشير الدخول في علاقة مع بغداد "لمصلحة الطرفين".

كان النظامان العراقي والسوري، على الرغم من تبنيهما إيديولوجية البعث[2] السياسية، في نزاع أو بكلام أدق، كان رئيساهما، صدام حسين وحافظ الأسد، يتنازعان على التوالي لقب بطل العروبة. فأعداء أحدهما كانوا على التو أصدقاء الآخر. كانت دمشق تساند طهران في نزاع العراق – إيران. من جهتها، كانت بغداد تشجع كل من كان يعارض سورية، وكانت القوات اللبنانية تندرج في هذا الإطار.

– العراق مستعد لمساعدة لبنان، أكد جبران مجدلاني. أقترح عليكم أن تتصلوا بطارق عزيز مباشرة.

– ما هي الموضوعات التي يمكن نقاشها؟

– للعراقيين كل المصلحة في أن يستعيد لبنان حريته للحيلولة دون تحوله إلى ساحة مطاردة ضد البعثيين العراقيين الذين يعيشون فيه مثلي. يمكن لبغداد أن تمارس ضغوطاً على البلدان العربية التي ستتدخل بدورها لدى سورية.

– ما رأي العراق بموقفنا تجاه الفلسطينيين؟ سأل إيلي حبيقة، رئيس أجهزة مخابرات القوات اللبنانية، الذي كان حاضراً في المقابلة.

(1) جبران مجدلاني هو صهر غي عرب الذي كان أخوه، موني، رجل أعمال وصديقاً لبشير، يؤمن قسماً من لوجستيك القوات اللبنانية. وعلى هذا النحو، أجريت اتصالات عديدة عن طريق العلاقات العائلية.

(2) انظر الفصل الثاني: "الجارة سورية".

– لا يؤيد العراقيون العمليات الفلسطينية التي تنعكس نتائجها سلباً وبقوة على لبنان، ردّ المحامي من دون أن يمضي قُدُماً.

في منتصف أغسطس – آب 1981، ذهب إيلي حبيقة وجوزيف أبو خليل وزاهي البستاني إلى باريس للقاء طارق عزيز هناك. هذا الأخير أكد لهم ما قاله لجبران مجدلاني، واقترح عليهم مساعدة، خصوصاً على صعيد المعلومات، ودعاهم إلى بغداد.

قررت القوات اللبنانية قبول كل ما كان يقترحه العراقيون باستثناء المال. فهم لا يريدون أن يُقال عنهم، بأي ثمن، أنهم قد باعوا أنفسهم. في الشرق الأوسط، قبض مساعدة مالية يقاربُ دفع ثمن خدمة، سابقة أو قادمة، ويعني استعباد الدافع للقابض. وليس الحال كذلك مع تقديم تجهيزات أسلحة أو ذخائر للدفاع عن قضيته.

كانت ليبيا البلد العربي الثاني الذي قام باتصالات مع القوات اللبنانية. سفيرها في لبنان، عبد القادر غوقة، بصحبة الشاعر السوداني محمد الفيتوري الذي يعيش في طرابلس الغرب والذي يلعب دور الوسيط، ذهب سراً إلى مكتب بشير لتناول قهوة، يوم 25 أغسطس – آب 1981. اقترح عليه أن "يناشد" طرابلس الغرب للقيام بمسعى لتقريب القوات من دمشق. فتح قائد القوات اللبنانية نافذة مكتبه، وقال له وهو يشير إلى الساحل المحاذي للمنطقة المسيحية:

– السوريون يريدون الساحل هذا، لن نعطيهم إياه، حتى لو كلفنا ذلك آلاف الشهداء. نريد أن يغادروا البلد.

– ماذا سيحل بالفلسطينيين إذا رحل السوريون؟ أعرب الدبلوماسي عن قلقه.

– هذه المسألة لن تثير أية مشكلة كبرى، كذب قائد القوات اللبنانية بصفاقة. فنحن لا نريد أن نتقاتل. كما أنهم يرغبون في التخلص من الوصاية السورية.

يشرح السفير الليبي مطولاً أن العقيد القذافي كان مستعداً لإيجاد حلٍ للنزاع؛ لكنه يريدُ مسبقاً أن يتأكد من نجاح مسعاه ودعا محاوره إلى زيارة ليبيا. لكن المسيحيين كانوا في غاية الحذر. فقد دُعي الإمام الشيعي اللبناني، موسى الصدر، إلى ليبيا في أواخر أغسطس – آب 1978، ولم يرجع منها أبداً.

قرر قادةُ القوات اللبنانية تركيز كل مساعيهم الدولية على الانتخابات الرئاسية اللبنانية عام 1982. فقدروا أن الضغوط المحتملة التي كانت البلدان العربية تستطيع ممارستها على سورية، من شأنها أن تؤتي ثمارها. فقد كانت القوات اللبنانية قد أقامت علاقات طيبة، في نطاق لجنة الرعاية، مع المملكة العربية السعودية والكويت، وكان العراق قد جاء إليهم.

– علينا تطوير الدعم الذي يقدمه لنا العالم العربي نصح جوزيف أبو خليل، خلال اجتماع. سيتوجب علينا أن نضاعف انفتاحاتنا في اتجاهه، وفي الوقت نفسه أن نحدّ إلى

أقصى حدّ من علاقاتنا بإسرائيل. فلن تتمكن تل أبيب أبداً من الحصول على انسحاب سوري. علينا أن نبتكر علاقات جديدة مع مُحيطنا المسلم.

أثارت هذه الأقوال ردة فعل شبه سطحية لدى أنطوان نجم:

– هل نحن الذين نرفض أن تكون لنا علاقة صحية مع محيطنا العربي؟ تساءل بتعجب وانفعال. أم أنه هو الذي قام بالهيمنة علينا سياسياً وثقافياً، حتى أنه يريدنا أن نعيش كذميين[1]؟ لقد بذل بشارة الخوري وكميل شمعون وفؤاد شهاب، حتى لا نذكر سوى هؤلاء الرؤساء الثلاثة للجمهورية، قصارى جهدهم لإقامة هذه "العلاقة الصحية". حتى أنهم ذهبوا أبعد من ذلك. فإلى أين قادنا ذلك؟ منذ إنشاء لبنان سنة 1920، كانت كل النزاعات العربية – العربية تنعكس علينا! لا أدري ماذا يجب توقعه من الاتصالات مع العراقيين؛ لكنني ضد إلغاء أو خفض علاقاتنا مع الإسرائيليين.

كان ميزان القوى في البرلمان اللبناني، وهو الهيئة الناخبة لرئيس الجمهورية، يؤشر على أن بشير الجميّل ضئيل الحظ تماماً في الوصول إلى الرئاسة الأولى. فأصوات النواب المسلمين لا يمكنها أن تنصب إلا على رجل تسوية "لا لون له ولا طعم ولا رائحة". ولم تكن هذه حالة صغير آل الجميّل، أبداً. كما أن تفكير القوات اللبنانية تطور في اتجاه إنشاء كونفدرالية أو على الأقل فدرالية يكون فيها كيان خاص بالمسلمين وآخر خاص بالمسيحيين. بقي أن يُعرف إذا كان هذا الحل يجب أن يُفرض من الداخل، وفي هذه الحالة سيكون ضرورياً الوصول إلى الرئاسة بالقوة، أم أن عملاً من الخارج كان كافياً بكل بساطة؟

كان قسم كبير من الفريق القيادي للميليشيا، على غرار الوزير سليم الجاهل، يرى أن أية وسيلة سلمية، مثل المسار الانتخابي الكلاسيكي، لن تسمح بالوصول إلى الحكم، وأن الانقلاب كان أمراً لا مناص منه. حتى أن الجاهل كان يرى أن مجرد الإذعان للمسار التقليدي لأجل الوصول إلى الحكم سيُجبرهم على التفاوض وتالياً على التسوية.

"في هذه الظروف، كان يقول، ربما يكون من الأفضل تجديد ولاية الرئيس سركيس بانتظار أن تتمكن القوات اللبنانية من تنظيم نفسها والاستعداد لاستعمال القوة".

وضع بشير حداً لكل التنظيرات:

– أنا لست مرشحاً للانتخابات الرئاسية. لن يصلها أي منا بطريقة سلمية. الرئاسة ليست سوى مرحلة.

(1) وضع أهل الكتاب في البلدان العربية التي تعتمد الاسلام ديناً للدولة. هذا الوضع يفرض على النصارى واليهود ضريبة خاصة (الجزية) للتمتع بحماية الإسلام، وكذلك يفرض عليهم عدم المشاركة في السلطة السياسية مشاركة تامّة.

حين عاد الهدوء، عادت الحياةُ الطبيعية. لكن بيروت ظلت مشطورة شطرين. فلا يمكن عبورُ خطوط التماس إلا من نقطة واحدة: غاليري سمعان. إنها جادة عريضة مستقيمة كانت قد حملت اسم تاجر مفروشات في وسطها. كان الاكتظاظُ فيها دائماً وكان سائقو السيارات يقضون فيها بضع ساعات تحت الشمس ووسط الغبار ليقطعوا الألف وخمسمائة متر الفاصلة بين المنطقة الشرقية والغربية.

قررت لجنة الرعاية (المساعي الحميدة) أن تجسد مادياً المساعدة التي كانت تقدمها للرئيس سركيس. ذهب وزيرا الخارجية، السعودي سعود الفيصل، والكويتي صباح أحمد الصباح إلى اللاذقية في سورية لمقابلة حافظ الأسد الذي وعدهما بتسهيل مهمتهما. كانا يتصوران تخفيض خط التماس، يوم 3 سبتمبر – أيلول 1981، التقى الوزيران في بيروت بزميلهما السوري عبد الحليم خدام. اقترحا لقاءً بين سورية والقوات اللبنانية، وعلى جدول الأعمال فتح نقاط مرور بين مختلف مناطق العاصمة وفرض مراقبة على الساحل للحؤول دون شحنات الأسلحة. كان يفترض بهذه التدابير أن تؤدي مباشرة إلى خفض التوترات وتوطيد التهدئة. إيلي حبيقة وزاهي البستاني استعجلا بشيراً حتى يوافق. كانا يريان أن موافقته المبدئية لا يمكن لها إلا أن تخلق خلافات بين السوريين والفلسطينيين حول طرق تطبيق هذه المراقبة.

في اليوم التالي، التقى بشير السفيرين السعودي والكويتي، وكذلك محمد غانم رئيس جهاز المخابرات السورية في لبنان، في قصر بعبدا الرئاسي. ضاعف السوري لياقاته ومودّاته تجاه قائد القوات اللبنانية:

– أخي العزيز بشير، مر وقتٌ طويل ولم نتلاق. كنت أقول دائماً أن الأزمة لن تحل إلا إذا التقينا.

– بخصوص فتح نقاط عبور، نحن موافقون تماماً، أعلن قائد القوات اللبنانية في مستهل حديثه.

سأضيف، إذا كنتم تريدون حقاً خفض التوتر، فلا بد أن تطلبوا من رجالكم أن ينسحبوا من بناية أشمون، ملمحاً إلى موقع أساسي كان يشرف على وسط المدينة.

– سندرس المسألة، رد غانم.

– كالعادة! هكذا تردون دوماً عندما ترفضون.

– وإذا العناصر غير المنضبطة تدخلت من هذا الجانب وذاك. يلزم...

– ليس لدينا عناصر غير ومنضبطة، قاطعه بشير بجفوة. أنا مسؤول عن كل رصاصة تُطلق من عندنا.

أما فيما يخصكم فأنتم مسؤولون مباشرة عن المناطق التي تسيطرون عليها. والحال، لا تحدثني عن عناصر غير منضبطة...

– أوافق تماماً، أيد علي الشاعر، سفير السعودية.

– يجب أن نفهم ما وراء طلبكم مراقبة الساحل، تابع قائد القوات اللبنانية، مشيراً بأصبعه إلى محمد غانم.

هناك 30000 من جنودكم منتشرون على الأراضي اللبنانية. أنتم تسمونهم "إخوان". وأنا أصر على تسميتهم جيش احتلال. بدون الكلام على 600000 فلسطيني في لبنان. أعلنت في واشنطن أننا قطعنا علاقاتنا بإسرائيل ولكننا لا نزال نتلقى الأسلحة التي يرسلها لنا الإسرائيليون. أريد أن أكون واضحاً جداً حتى لا يكون ثمة أي سوء تفاهم حول هذا الموضوع. طالما هناك جندي واحد يحتل لبنان سأظل أتلقى أسلحة للدفاع عن بلدي. لا شيء أسهل من ذلك ولا أحد يرى ذلك. أنا جاد جداً! لا رقابة، مهما كانت طبيعتها، ستصل إلى غايتها: عملياً، ماذا سيحدث مع الرقابات التي تقترحونها؟ ستقومون بنصب خيمة في الأكوامارينا[1]، ثم تضعون فيها جنوداً لحمايتها، بعد ذلك سترغبون في مراقبة الطريق المؤدية إليها والتي يمر تموينكم من خلالها وتنتهون باحتلال مناطقنا مجدداً. لا! لا ولا! أنا موافق على المبدأ الذي يرمي إلى منع وصول السلاح عن طريق البحر، وكذلك عن طريق البر، عبر الحدود اللبنانية – السورية تريدون محاصرة تموينا بالسلاح بينما تظل الأسلحة تتدفق على كل الآخرين.

– وإذا هاجمت إسرائيل الفلسطينيين بأية أسلحة سيدافعون عن أنفسهم؟ سأل السفير الكويتي عبد الحميد البعيجان.

– لكن ماذا يفعل الجيشُ السوري هنا؟ رد بشير. إذا كان الفلسطينيون بحاجة إلى أسلحة سأقدمها لهم وأنا أحملها بنفسي على ظهري. وبعد، إذا هاجمني السوريون بوحشية، هل ستدافعون عني؟

– أرجوكم لا تسجلوا هذا، غمغمَ محمد غانم.

اعترف السفيران بقيمة المحاججة التي عرضها الشاب. أخذ بشير الجميّل ورقة وكتب بيده: "مبدئياً، نحن موافقون على منع دخول كل قطعة سلاح عبر المرافئ والساحل والحدود البرية، لمصلحة أي فريق في الصراع اللبناني، باستثناء السلاح الخاص بالقوات المسلحة التابعة للدولة. يعود إلى رئيس الجمهورية اللبنانية تمديد كيفية تطبيق هذا الحظر. إننا نتعهد باحترام هذا القرار؟ فوافق الجميع.

(1) مرفأ لهو صغير، بالقرب من جونيه.

وكذلك فعل إلياس سركيس، مع أنه كان يعلم حق العلم أن القوات اللبنانية ستكون أول من ينتهك هذا القرار - هذا إذا كان يستطيعُ اتخاذه وتطبيقه. هذا التواطؤ بين سركيس وقائد القوات امتد إلى رئيس الحكومة شفيق الوزان. حين خرج من الاجتماع، التقى بشير هذا الأخير، في رواق القصر. اقترب منه وهمسَ في أذنه:

- لن أصرح علناً بما أكنّ من دعم وتأييد لسياستكم، حتى لا أحرقكم. لكن، اعلموا أننا ندعم كل مبادراتكم.

شكره شفيق الوزان مبتسماً وبحركةٍ من رأسه سارع إلى الابتعاد حتى لا يُرى في صحبته.

أطلع بشير الجميّل، السفير الأميركي وكميل شمعون ووالده على مضمون اللقاءات التي أجراها وطلب من جان ناضر أن يقدم عنها ملخصاً شفهياً إلى ألِكس.

كان البيان الرسمي الصادر في المساء ينص على ما يلي: "قررت لجنة المساعي الحميدة حظر دخول أي سلاح إلى لبنان، ما عدا الأسلحة الخاصة بالقوات الشرعية، وتشكيل هيئة تتمثل فيها البلدان الأعضاء في اللجنة للقيام بمراقبة فعلية للساحل والمرافئ، حتى تتأكد من عدم تسلل أي عتاد حربي إلى لبنان".

انتابت بشيراً نوبة غضب أسود. كان دور اللجنة مُفرطاً. فطلب من كميل شمعون أن يرفض النص باسم الجبهة اللبنانية، قبل أن يُصدر بياناً باسم القوات.

في اليوم التالي انمّحى الأثر السياسي للبيان جراء اغتيال لوي دولامار، سفير فرنسا، أمام حاجز سوري، على بعد مئة متر من مسكنه. كان أمن المدينة قد عاد إلى الواجهة. غادر الوزراء العرب بيروت. وساد جو ضاغط من القلق، واستؤنفت عمليات القصف العشوائي، المتقطع، على الأحياء السكنية.

عند منتصف صبيحة 11 سبتمبر - أيلول اتصل السفير السعودي بقائد القوات اللبنانية، طالباً منه أن يوافق على الاجتماع مع لجنة المساعي (الرقابة). وأكد له أنه يأمل في أن يتناقش وإياه في نقاط العبور بين المناطق.

- أعلمتني صحفُ هذا الصباح أن علينا أن نلتقي. وهي لا تذكر فقط نقاط العبور بل كل خط التماس.

- هذا صحيح، رد السفير؛ سنقترح على كل طرف منكم أن ينسحب 50 متراً من جانبي الخط. وستنشر قوى الأمن في الوسط.

- هذا يذكرني باجتماعاتنا في برج رزق سنة 1978 حول الموضوع نفسه، شدد بشير.

- بالطبع، لكن آنذاك كان السوريون هم الذين تقدموا بهذا الاقتراح، وكنت آنذاك قد

شرحت لكم، والخريطة بيدي، ماذا كانت تعني لنا مسافة الـ 50 متراً في أسواق وسط المدينة. وأيدتني في رأيي، لأن الخمسين متراً في منطقة حضرية تعني صفاً أو صفين من البيوت، وخسارة مواقع قد تكون إستراتيجية. أخي علي، كل هذه الرواية لا أساس لها. فأنا لا أعتقد أن السوريين يريدون حقاً تسهيل الأمور أمامكم فهم يعلمون جيداً أننا لا نستطيع أن نوافق على ذلك. ربما يكون من الأسهل أن تسألني إلى أين يمكنني أن أمضي في التنازلات.

- إذا كنتم لا تريدون، طيّب... اتركوا هذا البلد يحترق. في نهاية المطاف، لا علاقة لنا نحن بكل هذه الرواية. نحن نحاول فقط مساعدتكم، زعل علي الشاعر.

- نحن لا نرفض مساعدتكم، ولكننا لا نريد أن تكون في اتجاه واحد.

- إنها طلبات الحركة الوطنية. من واجبنا نقلها إليكم. سنرى لاحقاً إن كنا نستطيع التوصل إلى نتيجة.

حين وصل بشير متأخراً ساعتين إلى القصر الرئاسي لحضور اجتماع، التقى جوني عبدو الذي أخذه جانباً:

- من الممكن أن تُثار مسألة أثناء المناقشات، أسرّ له رئيس المكتب الثاني. إنهم يصرون على انتشار قوى الأمن الداخلي في الأسواق. ليس لدي الوقت الكافي لأشرح لك؛ لكن لا ترفض. قل لهم، إذا كان لا بد من انتشار فعلى الحكومة أن تقرر ما هي الوحدات وأين وكيف؟

- اسمع، يا جوني، لقد بدأت أقرف. كلما اتفقنا على شيء ما أدفع ضعف الثمن المتوقع. قلتُ لهم إني لن أقبل لجنة مراقبة للساحل. ورأيت النتيجة. أنا هنا رغماً عني.

حتى يعرب عن استيائه ورفضه، كان بشير قد عاود ارتداء بزة عسكرية.

- إني أفهمك، تابع الضابط، لكننا مستعدون لتحمل مسؤولية ذلك.

قبل ثوان من بدء الجلسة، أكد له الرئيس سركيس أقوال جوني عبدو. ما إن جلس قائد القوات اللبنانيّة إلى طاولة الاجتماع، حتى استدار نحو محمد غانم، وبعدما تفحص طقمه الأبيض الأنيق، سأله بلهجة تهكمية وحادة:

- أنت عارض أزياء أم ضابط؟

- في لبنان، يجب أن نكون...

- طيب ماشي الحال! قاطعه بشير بحركة ازدراء من يده، في المرة الأخيرة، توافقنا على ثلاث نقاط: وقف إطلاق النار، مراقبة الساحل وفتح المعابر. النقطة الأولى لم تُطبق، أما الثانية فأنا لا أوافق على البيان الذي أذيع، فقد كنا أثرنا مسألة مراقبة الحدود البرية. لماذا هذا الأمر غير وارد في البيان؟

– لكن نحن جيش! صرخ رئيس المخابرات السورية في لبنان، بحق اللّه، هذا يكفي! تريد أن تتعامل معنا تعامل دولة مع دولة (لم تغادر عيناه وجه بشير) ولكنك أنت لست دولة.

– أنا لست في نزاع مع جيش زيمبابوي! أنا في نزاع معك ومع جيشك المحتل، لماذا تريدون أن تراقبوني؟ لا يمكنكم أن تفرضوا علي رقابةً من دون أن تخضعوا لها أيضاً.

– أخي إننا نفتح صفحة جديدة في علاقاتنا، تابع محمد غانم بنبرة ودية، نحن في مرحلة تستلزم ثقةً متبادلة. محمد الخولي[1] ابن قحبة. وابراهيم الحويجي[2] لا شيء، الآن، أنا المسؤول عن كل ما يجري في لبنان، لكن، قُم أنت من جانبك بحركة إيجابية.

– ماذا عن بناية أشمون؟ انفلت بشير.

– إننا ندرس الموضوع.

– ماذا عن معتقلينا؟

– إننا أيضاً ندرس الموضوع.

– عندما ستنتهي من الدرس، ستخبرني، لقد اتفقنا على فتح نقاط عبور. وجئتم اليوم تكلموني عن كل خطوط التماس. هذه قضية سياسية. هل نستطيع حلها؟

– نعم. سينتشر الجيشُ اللبناني من جهتكم.

ذُهل بشير من الاقتراح. منذ أشهر، كان قد جعل من هذا المطلب شعاراً متكرراً كلازمة، لم يكن يتوقع إطلاقاً أن يتبناه غانم.

– كرر!

– نحن نؤيد نشر الجيش، من السوديكو حتى المرفأ، أكد الضابط السوري.

– أنا موافق، رد قائدُ القوات اللبنانية. للننتقل فوراً إلى تنفيذ هذا القرار.

– أريد أن يتولى الجيش خطوط التماس، أكمل محمد غانم، من جهتي، سأمنع ارتداء الملابس العسكرية!

سأمنع الآليات العسكرية! سأغلق ثكنات الميليشيات في بيروت الغربية! سأمنع الفلسطينيين من التحرك! . . .

– إذا فهمت جيداً، تريد القيام بعملية 7 يوليو – تموز في الغربية، قاطعه بشير مبتسماً، ملمحاً إلى عملية "ألتالينا".

– برافو، يا ابن الجميّل! صاح الضابط السوري وهو يصلح جلوسه على مقعده.

---

(1) مسؤول أجهزة المخابرات السورية في لبنان سلف غانم.

(2) مسؤول المخابرات السورية في جبل لبنان.

استدار بشير نحو السفير السعودي واقترح عليه:

– سجل هذا في ملاحظاتك، أخ علي، سجل كل ما قاله محمد غانم، هذا يعني أن خرطوشة واحدة لن تطلق على كل خط التماس.

– محمد هو الذي يحكي، أخوك محمد، رد غانم وهو حانق، للتشكيك بكلامه.

– أخي أو ابن عمي محمد، تحداه بشير، أنت لا تستطيع أن تفعل شيئاً في الغربية، مع كل ما فيها من "دكاكين"[1]. وبعد، عندما تتصرف بشكل جدي، سيقفون في الصف كلهم. لكني حالياً لا أعتقد لثانيةٍ واحدة، أنك تستطيع التوصل إلى نتيجة كهذه. لقد نجحت عملية "7 يوليو – تموز" عندي لأنيّ أنا لبناني. أنت لن تستطيع الوصول إلى ذلك، وإذا حاولت، أنت السوري، الغريب، فلن يسمح لك أهالي الغربية بالقضاء على المجموعات اللبنانية.

استدار علي الشاعر نحو الضابط السوري:

– بشير يتحداك حتى تحقق كل مشروعك بأسرع ما يمكن.

– بخصوص فتح نقاط عبور تريد نشر الجيش فيها؟ سأل الزعيم المسيحي الشاب.

– الجيش أو قوى الأمن الداخلي.

– لا! لقد تمكنا من استخدام الدرك في زحلة. لكن، هذه المرة، الأمر يتعلق ببيروت، وهذا لن يمشي فيها. فالقوى المتواجدة على الأرض بالغة التنوع. إذا شئت، لنضع الجيش تحت أوامر قوى الأمن الداخلي.

نظر بشير إلى جوني عبدو الذي كان يحضر الاجتماع وتذكر أقواله. قد يقبل قائد القوات اللبنانية نشر الجيش اللبناني، على الأقل القوات التي يقودها الليوتنان – كولونيل ميشال عون. كان لا يستطيع أن يطالب بذلك حول هذه الطاولة؛ لكنه كان يعرف أن هذا الخيار سيقبله بسهولة رئيس المكتب الثاني ورئيس الجمهورية. أضاف مخاطباً اللجنة:

– على كل حال، أنا لست إلياس سركيس. سأوافق على ما ستقرره الحكومة. هذا شأن من شؤون الدولة.

– جيد جداً، صاح محمد غانم. سجلوا أننا متوافقون على سحب العناصر المسلحة ونشر القوات الحكومية.

– انتظر. انتظر واهدأ. أولاً، أوضحت أن الأمر يتعلق بالجيش. ثانياً، الأمر لا يتعلق بقوات حكومية، بل بقوات الدولة اللبنانية. وإلا لما كان لوجودنا أي مبرر.

---

(1) مصطلح يستعمله بشير الجميّل ليدلّ على مكاتب الأحزاب والمنظمات والشلّل السياسية والعسكرية.

– قوى أمن داخلي أم لا؟

– السلطة اللبنانية ستقرر، كرر بشير؛ نحن سنتفاهم معها.

في نهاية الجلسة، استقبل إلياس سركيس جميع المشاركين في الاجتماع. قدم له بشير ملخصاً موجزاً عن المناقشة.

– ألا نستطيع فتح معبر السوديكو غداً ونترك البقية لوقت لاحق؟ سأل السفير السعودي الذي كان يتمنى أن يجسد تدخله بالملموس في أسرع وقت ممكن.

– السوديكو صعب، انزعج محمد غانم، يمكننا فتح معبر المتحف. إننا نسيطر عليه تماماً.

– حتى البربير[1]؟ تساءل بشير، ملمحاً بكل وضوح إلى اغتيال لوي دولامار.

– لقد تألمنا كثيراً لموت هذا الرجل، أكد السوري.

– يجب أن تقول ذلك، يا محمد، للفرنسيين، وليس لنا، باغته بشير. ليس من مصلحتكم أن تؤكدوا في هذه اللحظة أنكم تسيطرون على البربير.

في اليوم التالي فُتح معبر المتحف، الذي يحاذي ميدان سباق الخيل ومنزل السفير الفرنسي، مجدداً أمام السير بعد إغلاق شبه تام على مدى خمسة أشهر. اتسم الأسبوع التالي بسلسلة محاولات اغتيال بالسيارات المفخخة، أوقعت 40 قتيلاً وأكثر من 140 جريحاً في بيروت الغربية ساد رعب نفسي حقيقي لدى كل نواطير البنايات الذين أمضوا كل وقتهم في مراقبة السيارة المجهولة والكشف عليها.

وضع الأميركيون بتصرف بشير الجميّل جهاز إرسال – استقبال مزود بمشوش إلكتروني، كانت موجتُه متواترة مع موجة جهاز جاك أوجينو، الملقب بلقب جاك، رئيس آنتين وكالة المخابرات المركزية في بيروت. كان إيلي حبيقة قد لقبه بلقب "الصيني"، لأنه كان من أصل آسيوي، كوري بالتحديد. كان جاك قد تلقى الأمر بالإبلاغ الفوري، وبالأفضلية، عن كل النداءات التي كانت تصله على هذه الموجة، ونقلها إلى محطته في لانغلي. كان بشير مسروراً جداً بحيازته هذا الجهاز الذي كان قد وطن إرساله، في الأيام الأول، في مكتبه، وكان قد منع أن يلمسه أحد. ثم بعد ذلك، لأسباب، استنسابية، نُقل الجهازُ إلى مكتب حبيقة. صار عمل "جهاز الأمن" الذي كان يقوده حبيقة، أحسن أداء بعد عودة بعض رجاله من دورة تدريبية في الولايات المتحدة. إذ كان بيار رزق (أكرم)، وجينو

(1) يقع مستشفى البربير عند الطرف الغربي لمعبر المتحف؛ عند مستواه، يوجد الحاجز السوري الذي قُتل إمامه السفير الفرنسي.

كساب، وسيمونيدس وغابي البستاني، قد تابعوا فيها دروساً في الاستخبارات العامة والعسكرية في أحد مراكز وكالة المخابرات المركزية.

فضلاً عن التدريب التقني والمهني، كانوا قد أجروا عدة مناقشات مع مختلف مكاتب الدراسات والتحليلات في المحطة. وكانوا قد لاحظوا مدى إلحاح محاوريهم الأميركيين وسعيهم إلى إقناعهم بضرورة انتماء لبنان إلى العالم العربي، وبأن تحوله إلى إسرائيل ثانية يعادل انتحاراً. فكان اللبنانيون يسارعون إلى القول لهم إن القوات اللبنانية كانت تتمنى التعاون مع المسلمين، لكن سورية ما كانت تسمح لهم بذلك.

سرعان ما نشأت علاقات مميزة بين الدبلوماسيين الأميركيين العاملين في بيروت ولا سيما السفير، وقادة القوات. فكلما أعلن عن زيارة لفيليب حبيب، كان روبرت ديلون يتصل ببشير الجميّل موحياً له بأن يطلب مقابلة. الواقع أن حبيب هو الذي كان يتمنى أن يلتقيه، لكن البروتوكول الدبلوماسي كان يستلزم أن يسعى بشير إلى ذلك. على مدى اللقاءات، توصلا إلى نوع من التواطؤ غير المعلن. فلم يكن السفير والمبعوث الرئاسي الخاص يترددان في إبداء "الآراء" في المناقشات التي كانت تدور بين بشير والسوريين.

– امضِ في ذلك بصراحة، وبالأخص لا تدع نفسك تتأثر بأقوالهم، كان حبيب قد ذهب في نصَحه إلى هذا الحد. لا أعتقد أنهم ينوون الانسحاب قبل الانتخابات الرئاسية، فمن شأن انتخاب رئيس دولة جديد بمساعدتهم أن ينحاز كلياً إلى جانبهم.

بشكل شبه رسمي ومن جانب واحد، وضعت دمشق حداً لوهم القيادة اللبنانية لقوات الردع العربية، حين جعلت قواتها المتمركزة في لبنان تحت إمرة الأركان السورية المباشرة. وهكذا حرم إلياس سركيس من "قيادتها" بعدما كانت القمة العربية المنعقدة عام 1976 في الرياض قد وضعته على رأس قوات الردع العربية. ففي غُضون خمس سنوات لم يكن الرئيس اللبناني قد أصدر لها أمراً، أبداً، حتى لا يعاني من صدمة عدم تنفيذه. التقى بشير محمد غانم أربع مرات في أقل من شهرين بدون نتيجة كبيرة شرح له قائد أجهزة الاستطلاع السورية في لبنان أن كل الانقلابات التي وقعت في دمشق قبل 1970 (على الأقل 14 انقلاباً في عشر سنوات) كانت قد دُبرت في لبنان وأكد له أن هذا الأمر ما عاد يجوز تكراره. ثم قدم له لائحة مطالب قريبة جداً من المطالب التي قدمها عبد الحليم خدام إلى الرئيس سركيس.

– يجب أن يصبح لبنان قوياً، كان الضابط السوري قد أكد ذات يوم. بعد اتفاقنا، سأتمكن من مراقبة الفلسطينيين وكذلك كل الأفرقاء اللبنانيين، بخصوص الانتخابات الرئاسية، عليك التسليم بأن الظرف مؤات لسورية.

كانت الغمزة واضحةً جداً: مقابل الإرادة الحسنة لصغير آل الجميّل، ستردّ دمشق ردّاً جميلاً أثناء الانتخابات. رفض بشير العرض:

- يمكن لبرنامجك أن يتحقق منذ اللحظة التي تقوم فيها علاقات طبيعية بين بلدينا، لكن، طالما أنكم تتصرفون كقوة احتلال، ليس لأي تفاوض بيننا حظ في النجاح. لقد فشل ضغطكم العسكري. إننا نطلب انسحابكم من لبنان.
- أنت تهذي! قال السوري بعصبية، لقد طوّعناك، ولو كنا نريد تصفيتك لفعلنا ذلك.
- لقد حاولتم، لكنكم فشلتم!

13

"إذا"

إن "مدافع يوليو – تموز" بقصفها الجليل، بعثت هاجس الخوف في قلب إسرائيل، وفي قلب مناحيم بيغن الذي كان يحمل بطياته الآثار المعنوية والعاطفية للمحرقة اليهودية وكان أيضاً يبغض كل ما يشكّل اعتداء على حياة اليهود. هكذا تمكن رئيس الإرغون طيلة حرب الاستقلال للدولة العبرية من تخليص "جماعته" من العدالة البريطانية ناهيك عن انتقامه لاحقاً للذين نفذت بحقهم الأحكام. الذين ماتوا أو جرحوا في نهاريا وكريات شمونة أثروا به جداً. وتشبث بالتالي بعدم ترك هذه "الجرائم" دون الاقتصاص من الفاعلين. مزامنة لهذا كانت الصحافة الأميركية تتكلم على لسان بعض كبار الموظفين، الراغبين بعدم ذكر أسمائهم، بأنه ثمة بين الأميركيين والفلسطينيين ما يتحاورون عليه. مما حدا ببيغن أنه تجاهل التفاوض بين عرفات ومروز، هذا كون بيغن قد اعتبر أن كل ما يمس أي حوار بين واشنطن والفلسطينيين هو بمثابة كارثة كبيرة لإسرائيل، لذا قرر استئصال منظمة التحرير الفلسطينية أقله من جنوب لبنان. كان قرار بيغن بمنتهى الحزم كون أجهزة المخابرات قد تكلمت منذ نهاية يوليو – تموز 1981 عن إعادة بناء القواعد العسكرية الفلسطينية في المنطقة. كما كانت هذه الأجهزة تتوقع نشر عشرات الوحدات المدفعية الجديدة.

هكذا كان بالنسبة لشارون. فمنذ تسميته وزيراً للدفاع، أصبح آريك، على حد تسميته من قبل المقربين إليه، يحلم بالتصدي للفلسطينيين في لبنان. وفي هذا السياق كانت وجهات نظره مطابقة لوجهات نظر رفائيل إيتان رئيس أركان الجيش الإسرائيلي. ولقد كتب إيتان في مذكراته ما يلي: "أفكارنا كانت متطابقة بخطوطها العريضة، ومواجهة يوليو – تموز "الصغيرة" مع الفلسطينيين وما تلاها من قرار وقف إطلاق النار، تركت آثاراً سلبية وبعض المرارة في عدد من وحدات الجيش الإسرائيلي. ذلك لأنه كان ثمة شعور بعدم إنهاء المهمة، فضلاً عن شعور بعض الوحدات بالفشل. هذا كله كان يحمل بعض الضباط على التفكير بالانتقام. فضلاً عن ذلك كان وزير الدفاع يعتبر أنه من الضروري أن تخنق في مهدها كل محاولة أميركية قد تعطي منظمة التحرير دوراً في مفاوضات الحكم الذاتي الملحوظة في

اتفاقيات كمب دافيد. هذا وكان آرييل شارون واعياً جداً أنه لا يمكن القيام بأيّ عمل عسكري دون تغطية سياسية. وهنا فإن طموح مسيحيي لبنان لفرض نظام قوي في بلادهم يتيح المجال لإسرائيل لتوقيع معاهدة سلام مع لبنان قد أعطى الدولة العبرية الهدف السياسي الذي كان شارون بحاجة إليه. الانتخابات الرئاسية اللبنانية صيف 1982 فسحت المجال لإسرائيل لتحضير مشروعها، وأراد شارون التأكد من أن خيارات الطرف المسيحي اللبناني تمثل حقاً ما كان يعرفه عنها. فقد أوفد إليهم بعد شهر من بعد تسلمه وزارة الدفاع، بعثه من الموساد برئاسة بول، مساعد مناحيم نافوت.

وقد قام بول بزيارته هذه مع أفنير أزولاي (فيليب) من المعمرين الجزائريين سابقاً، ومتحمس جداً للقضية المسيحية. التقوا هناك شموليك أفياتار (أليكس) رئيس نقطة الموساد في لبنان، والذي أصبح بالتالي للذين يعرفونه "مسيحياً لبنانياً من مواليد إسرائيل" كان أليكس يكن إعجاباً لبشير إلى حد أنه علق صورته في مكان مرموق في غرفة الاستقبال في منزله الكائن في الحي اليهودي لمدينة القدس. كان أليكس أثرى عملاء الموساد العاملين في لبنان وكان لا ينسى إطلاقاً إرسال هدية بمناسبة كل عيد ميلاد.

الإسرائيليون الثلاثة استقبلوا ببيروت من قبل بشير، وبنبرة حادة أعرب رئيس القوات اللبنانية عن خيبة أمل إذ إن الدولة العبرية لم تكن تريد الالتزام سياسياً مع منظمته، وللإثارة ادعى أن عدم الالتزام عائد لاتفاق ضمني سوري إسرائيلي. أجاب بول بالفرنسية وبصوت هادئ:

– إنني أرى أن الهدف الاستراتيجي للحكومة الإسرائيلية هو إرساء نظام في لبنان تسيطر عليه القوات وبالتالي توقع مع دولة إسرائيل معاهدة سلام. إن الفلسطينيين في لبنان يشكلون علينا وعليكم خطراً تكتيكياً. منذ سنتين كنتم تعطون الأولوية للخطر السوري بعكسنا نحن، واليوم نشاركم كلياً هواجسكم. الآن تركز سياستنا على انسحابهم من لبنان. قال بيغن: "الذي يعتقد أن إسرائيل تتعاطى مع السوريين هو أحمق". أعتقد أن بإمكانك الالتقاء مع رئيس الوزراء في هذا الشأن.

– ما هي إستراتيجيتكم على المدى البعيد؟ سأل بشير.

– تركيز حكومة في لبنان تسيطر عليها القوات اللبنانية.

– هذا مستحيل في الواقع الحالي!

– هذا يرتبط بعمل عسكري ما لإسرائيل. فلنحدد أولاً هدفاً إستراتيجياً.

– حسن جداً. في حال إدارة البلد من قبل القوات بعد القيام بتحالف مع إسرائيل، ما هي بالتالي وسائل تطبيق هذا العمل؟

– ليست لي القدرة على إلزام حكومتي، أجاب بول، ولكن فلنبتدئ بمواجهة المسألة مرحلة بمرحلة. تملكون حتى الآن قوة عسكرية خصوصاً بفضل المساعدات التي نؤمنها لكم.

هز فادي أفرام رأسه، إذ إنه كان موجوداً في هذا اللقاء عدد من ضباط القوات الذي يتبعون دورات تدريبية لهيئات الأركان مدته أربعة شهور، وذلك قرب نابلس ضمن إطار البرنامج الذي أطلق عليه تسمية POUM.

نشكركم، إنما صناديقنا المالية فارغة اليوم وليس بإمكاننا أن نسدد لكم ثمناً لإمدادنا بالسلاح. إن انسحاباً سورياً مع بابراك كارمال في الحكم مثلاً قد يكون في نظرنا ثمناً مقبولاً للوصول إلى وضع عسكري هادئ.

– إذا لم يكن لديكم اختيارات أخرى فمن واجبكم أن تحافظوا على حياة البشر أجاب بول. عليكم أن تكسبوا الوقت لتبنوا قوتكم. والمستوى الثاني ينبغي أن يكون سياسياً. وسفركم إلى أميركا يمثل عنصراً جديداً في تعزيز تمثيليتكم.

هل لي أن أقوم بجولة عربية دون أن تغضبوا؟

– لقد رسم لك بيغن خطة عمل، قال بول. أعلن لك إننا لسنا معترضين على رسالتك. "قم بجولتك وفقاً لأشكال معينة"، أعلمك بيغن. قد سجلنا لك أنك رغم الضغوط التي مورست عليك فقد احترمت الالتزام الذي قطعته تجاه رئيس الوزراء.

– لن يكون هناك قطيعة مع إسرائيل ولكن لا تنسَ أن حدودنا يفرضها علينا محيطنا. إن جوارنا سيفرض علينا بعض المناورات السياسية. نطلب إليكم سلفاً أن تتفهموها.

– عندما يوقع لبنان معاهدة دفاع مع سوريا، سيفقد سيادته، إنما جواب بيغن سيكون هو هو، ذلك لحقن الدماء.

وقال أفنير الذي تكلم للمرة الأولى:

– خذوا بعين الاعتبار وقع أعمالكم على الرأي العام الإسرائيلي، وما قاله فيليب هو بمنتهى الأهمية.

– لذلك أطلعكم على مشاكلنا. نحن نشرح لكم الواقع الذي علينا أن نواجهه، كل حل له كلفته. وما تقترحونه قد يكلفنا إعادة 300000 لبناني يعمل في الخليج إلى لبنان. هذا باهظ جداً اقتصادياً نريد أمننا.

– اذاً الآن أمنكم هو أهم من خسارة سيادتكم. استخلص بول.

– كلا، المفهومان يتماشيان. علينا أن ندفع ثمناً، عربياً كان أم إسرائيلياً، ونحن نفضل أن نكون مدينين لإسرائيل.

– سأطلع بدقة كلية رئيس الوزراء على وقائع مناقشتنا، أعلن بول مودعاً.

في السادس من أكتوبر – تشرين الأول 1981 حبس الشرق الأوسط أنفاسه عند رؤيته مباشرة على شاشات التلفزيون لمشاهد اغتيال الرئيس أنور السادات بواسطة بعض الأصوليين في الجيش المصري. اختفاء موقِّع السلام مع الدولة العبرية لم يتسبب بانهيار نظامه، وبالتالي وكون التوازنات الإقليمية لم تتغير، تابع شارون ورفّول مشاريعهما. فطلبوا من الجنرال أمير دروري الذي كان قد عين حديثاً قائداً للجبهة الشمالية لإسرائيل، أن يحضر مخططاً لغزو لبنان بذريعة القتال ضد منظمة التحرير الفلسطينية كذريعة أساسية، وهدفين تكتيكيين آخرين وهما: أولاً استحداث حزام أمني بعمق 40 كلم، وهذا بالقضاء على مواقع المدفعية الفلسطينية التي كانت تستتر في الجليل، أما الهدف الثاني فهو القضاء على المقر العام لمنظمة التحرير في بيروت.

أمير دروري طويل القامة، وشعره مائل إلى الرمادي، يرتدي دوماً بذلة عسكرية أميركية، ويحمل مسدساً رشاشاً يتدلى على فخذه ببيت من القماش؛ هذا الرجل الهادئ الطبع والقليل الكلام، وعندما ينطق فدائماً بالعبرية، هو مثال الضابط الإسرائيلي. منهمكاً باستيعاب المعطيات المتوافرة لدى القيادة، كان منزعجاً من المشروع[1]. إنما أسند الملف إلى المكتب الثالث لهيئة أركانه طالباً إليه أن يعيد النظر ويحسِّن التصاميم المعدة في يوليو – تموز 1981.

وهكذا تسلم شارون في الثلاثين من شهر أكتوبر – تشرين الأول ثلاث إمكانيات": صيغة "أشجار الصنوبر الصغيرة" للسيطرة على جنوب لبنان وصولاً إلى صيدا؛ وصيغة "شجرة الصنوبر المتوسطة"، وهذه إمكانية تلحظ مواجهة مع القوات السورية في سهل البقاع والعبور منه نحو بيروت؛ وأخيراً صيغة تعني مواجهة عامة مع القوات السورية على مجمل الأراضي اللبنانية حملة "تطهير" ضد الإرهابيين في بيروت.

وحسب المبدأ العسكري القديم القائل بتجهيز المؤخرة كي تكون فعالية المقدمة أكبر هكذا وقع شارون قبل شهر من حملته ضد لبنان اتفاقية مع نظيره الأميركي كسبار واينبرغر، هذا دون أن يعلن عن مخططه. وكانت اتفاقية التعاون الإستراتيجي هذه تهدف رسمياً إلى التعويض عن تخفيض ميزانية الدفاع من 3 إلى 5٪ بهدف دعم مالية الدولة العبرية العامة. بالواقع كانت هذه الاتفاقية بمثابة تعويض مالي مسبق لمصلحة الدولة العبرية بسبب انسحابها الكلي من سيناء في شهر أبريل – نيسان 1982. هذه الاتفاقية كان عليها أيضاً أن

(1) Samuel M. Katz, *Soldiers Spies, Israeli Military Intelligence*, Presido Edit, 1992, p. 278.

تخفف من وطأة الخبر المتعلق بتسليم طيارات إواكس من قبل أميركا إلى العربية السعودية. في هذا النص، التزمت تل أبيب بقبول معدات عسكرية أميركية متمركزة على أراضيها، على شرط أن تبقى هذه المعدات العسكرية ملك الولايات المتحدة، ولكن بإمرة إسرائيل. علاوة على ذلك كان على إسرائيل أن تقبل بوضع قواعدها الجوية السرية بما فيها قاعدتي رامون وأوفدا في صحراء النقب بتصرف الطيران الأميركي وفتح الموانئ الإسرائيلية أمام الأسطول السادس الأميركي.

وفي الوقت الذي كان إيلي حبيقة وزاهي البستاني يتجهزون للذهاب إلى بغداد بدعوة من طارق عزيز، كانت شوارع المصيطبة في بيروت الغربية تتحول إلى أرض معركة. وفي الرابع من ديسمبر – كانون الأول، دارت مواجهة بالأسلحة الثقيلة لمدة ثلاث ساعات بين شيعة حركة أمل وأعضاء حزب البعث العراقي، وهذا ما جعل تخوفات جبران مجدلاني لدى مقابلته بشير الجميل واقعاً. أما في العراق فقد استُقبل رسمياً الضيفان اللبنانيان في قصر الضيافة وأجروا محادثات طويلة مع طارق عزيز وبرزان التكريتي الأخ غير الشقيق لصدام حسين ورئيس أجهزة المخابرات.

كان العراقيون يتابعون عن كثب أحداث لبنان واستمعوا إلى شروحات حبيقة والبستاني بما يتعلق بإرادة بشير الجميّل ووصوله إلى الحكم. وقد تكتم اللبنانيان عن المشاريع الإسرائيلية. أما مخاطبهم العراقي فقد نصحهم بأن يدخلوا بحساباتهم صائب سلام الذي وصفوه "الوطني الحق" ووليد جنبلاط بصفته "صديق العراق". وقد ركزوا على الضرورة المطلقة للتقارب بين القوات و"المعسكر القريب من العراق" في العالم العربي أي العربية السعودية والكويت وقطر والأردن، واقترح العراقيون أيضاً دعماً سياسياً، وتعاوناً وتبادلاً للمعلومات في مضمار المخابرات، والسلاح، بمعنى أن القوات اللبنانية كان عليها أن تختار هذا السلاح، على أن تسدد العراق ثمنه. وتبين لاحقاً للميليشيات المسيحية أن صفقات الأسلحة العراقية كان لها صفة خاصة. وبينما كان الإسرائيليون يطلبون منهم أن يتقدموا بطلبات مفصلة لكل سلاح يريدونه كان العراقيون لا يريدون معرفة أكثر من الصنف المطلوب ويرسلون كامل الطلبية، من القصعة إلى المصفحات مروراً بالسلاح الفردي إلى ما شابه.

وبعد عودة حبيقة والبستاني من العراق وفي السادس عشر من ديسمبر – كانون الأول، قام انتحاريون شيعة بتفجير سيارة مفخخة ضد مبنى السفارة العراقية في الرملة البيضاء. أطاح هذا العمل بالمبنى تاركاً 20 قتيلاً و855 جريحاً، وتبنت هذه العملية "مجموعة الشهيد حسين" غير المعروفة حتى حينه. أما جثة السفير فلم تكتشفها فرق الإنقاذ إلا بعد أربعة أيام، هذا ما حمل العراقيين إلى نقل سفارتهم إلى الحازمية في المنطقة المسيحية.

– سأطلع بدقة كلية رئيس الوزراء على وقائع مناقشتنا، أعلن بول مودعاً.

في السادس من أكتوبر – تشرين الأول 1981 حبس الشرق الأوسط أنفاسه عند رؤيته مباشرة على شاشات التلفزيون لمشاهد اغتيال الرئيس أنور السادات بواسطة بعض الأصوليين في الجيش المصري. اختفاء موقّع السلام مع الدولة العبرية لم يتسبب بانهيار نظامه، وبالتالي وكون التوازنات الإقليمية لم تتغير، تابع شارون ورفول مشاريعهما. فطلبوا من الجنرال أمير دروري الذي كان قد عين حديثاً قائداً للجبهة الشمالية لإسرائيل، أن يحضر مخططاً لغزو لبنان بذريعة القتال ضد منظمة التحرير الفلسطينية كذريعة أساسية، وهدفين تكتيكيين آخرين وهما: أولاً استحداث حزام أمني بعمق 40 كلم، وهذا بالقضاء على مواقع المدفعية الفلسطينية التي كانت تستتر في الجليل، أما الهدف الثاني فهو القضاء على المقر العام لمنظمة التحرير في بيروت.

أمير دروري طويل القامة، وشعره مائل إلى الرمادي، يرتدي دوماً بذلة عسكرية أميركية، ويحمل مسدساً رشاشاً يتدلى على فخذه ببيت من القماش؛ هذا الرجل الهادئ الطبع والقليل الكلام، وعندما ينطق فدائماً بالعبرية، هو مثال الضابط الإسرائيلي. منهمكاً باستيعاب المعطيات المتوافرة لدى القيادة، كان منزعجاً من المشروع[1]. إنما أسند الملف إلى المكتب الثالث لهيئة أركانه طالباً إليه أن يعيد النظر ويحسِّن التصاميم المعدة في يوليو – تموز 1981.

وهكذا تسلم شارون في الثلاثين من شهر أكتوبر – تشرين الأول ثلاث إمكانيات": صيغة "أشجار الصنوبر الصغيرة" للسيطرة على جنوب لبنان وصولاً إلى صيدا؛ وصيغة "شجرة الصنوبر المتوسطة"، وهذه إمكانية تلحظ مواجهة مع القوات السورية في سهل البقاع والعبور منه نحو بيروت؛ وأخيراً صيغة تعني مواجهة عامة مع القوات السورية على مجمل الأراضي اللبنانية حملة "تطهير" ضد الإرهابيين في بيروت.

وحسب المبدأ العسكري القديم القائل بتجهيز المؤخرة كي تكون فعالية المقدمة أكبر هكذا وقع شارون قبل شهر من حملته ضد لبنان اتفاقية مع نظيره الأميركي كسبار واينبرغر، هذا دون أن يعلن عن مخططه. وكانت اتفاقية التعاون الإستراتيجي هذه تهدف رسمياً إلى التعويض عن تخفيض ميزانية الدفاع من 3 إلى 5 ٪ بهدف دعم مالية الدولة العبرية العامة. بالواقع كانت هذه الاتفاقية بمثابة تعويض مالي مسبق لمصلحة الدولة العبرية بسبب انسحابها الكلي من سيناء في شهر أبريل– نيسان 1982. هذه الاتفاقية كان عليها أيضاً أن

(1) Samuel M. Katz, *Soldiers Spies, Israeli Military Intelligence*, Presido Edit, 1992, p. 278.

تخفف من وطأة الخبر المتعلق بتسليم طيارات إواكس من قبل أميركا إلى العربية السعودية. في هذا النص، التزمت تل أبيب بقبول معدات عسكرية أميركية متمركزة على أراضيها، على شرط أن تبقى هذه المعدات العسكرية ملك الولايات المتحدة، ولكن بإمرة إسرائيل. علاوة على ذلك كان على إسرائيل أن تقبل بوضع قواعدها الجوية السرية بما فيها قاعدتي رامون وأوفدا في صحراء النقب بتصرف الطيران الأميركي وفتح الموانئ الإسرائيلية أمام الأسطول السادس الأميركي.

وفي الوقت الذي كان إيلي حبيقة وزاهي البستاني يتجهزون للذهاب إلى بغداد بدعوة من طارق عزيز، كانت شوارع المصيطبة في بيروت الغربية تتحول إلى أرض معركة. وفي الرابع من ديسمبر – كانون الأول، دارت مواجهة بالأسلحة الثقيلة لمدة ثلاث ساعات بين شيعة حركة أمل وأعضاء حزب البعث العراقي، وهذا ما جعل تخوفات جبران مجدلاني لدى مقابلته بشير الجميل واقعاً. أما في العراق فقد استُقبل رسمياً الضيفان اللبنانيان في قصر الضيافة وأجروا محادثات طويلة مع طارق عزيز وبرزان التكريتي الأخ غير الشقيق لصدام حسين ورئيس أجهزة المخابرات.

كان العراقيون يتابعون عن كثب أحداث لبنان واستمعوا إلى شروحات حبيقة والبستاني بما يتعلق بإرادة بشير الجميّل ووصوله إلى الحكم. وقد تكتم اللبنانيان عن المشاريع الإسرائيلية. أما مخاطبهم العراقي فقد نصحهم بأن يدخلوا بحساباتهم صائب سلام الذي وصفوه "الوطني الحق" ووليد جنبلاط بصفته "صديق العراق". وقد ركزوا على الضرورة المطلقة للتقارب بين القوات و"المعسكر القريب من العراق" في العالم العربي أي العربية السعودية والكويت وقطر والأردن، واقترح العراقيون أيضاً دعماً سياسياً، وتعاوناً وتبادلاً للمعلومات في مضمار المخابرات، والسلاح، بمعنى أن القوات اللبنانية كان عليها أن تختار هذا السلاح، على أن تسدد العراق ثمنه. وتبين لاحقاً للميليشيات المسيحية أن صفقات الأسلحة العراقية كان لها صفة خاصة. وبينما كان الإسرائيليون يطلبون منهم أن يتقدموا بطلبات مفصلة لكل سلاح يريدونه كان العراقيون لا يريدون معرفة أكثر من الصنف المطلوب ويرسلون كامل الطلبية، من القصعة إلى المصفحات مروراً بالسلاح الفردي إلى ما شابه.

وبعد عودة حبيقة والبستاني من العراق وفي السادس عشر من ديسمبر – كانون الأول، قام انتحاريون شيعة بتفجير سيارة مفخخة ضد مبنى السفارة العراقية في الرملة البيضاء. أطاح هذا العمل بالمبنى تاركاً 20 قتيلاً و855 جريحاً، وتبنت هذه العملية "مجموعة الشهيد حسين" غير المعروفة حتى حينه. أما جثة السفير فلم تكتشفها فرق الإنقاذ إلا بعد أربعة أيام، هذا ما حمل العراقيين إلى نقل سفارتهم إلى الحازمية في المنطقة المسيحية.

هذا واستدعي بشكل مفاجئ جميع أعضاء الحكومة من قبل رئيس الوزراء بيغن، صبيحة 14 ديسمبر – كانون الأول 1981 وكان قد مضى أسبوعين على انعزاله بحيث لم يقابل أحداً طيلة هذه المدة. في هذه الأجواء كانت الصحافة تقارن بين نمطه ونمط الشخصيتين المتوقع أن تخلفانه: إسحق شامير، وآرييل شارون. كان مناحيم بيغن قد وقع في مغطسه في 26 من تشرين الثاني نوفمبر ودخل على أثر ذلك إلى مستشفى هاداسا في عين كرم. وفي 29 نوفمبر – تشرين الثاني عقد بيغن جلسة وزراء في المستشفى مسنداً خلال هذا الاجتماع كامل صلاحياته إلى رئيس الوزراء بالوكالة، سيمحا إيرليش ومن هذا التاريخ أقفل بابه حتى لأقرب معاونيه. لم يكن هذا الحدث مألوفاً إذ إن بيغن لم يحدث له من قبل – أثناء إصابته بنوبتين قلبيتين وعارض دماغي – أن انقطع طويلاً بهذا القدر عن المقربين منه.

وإلى جانب المفاجأة المقلقة بدعوتهم إلى اجتماع، أضف تعجبهم من الاقتراح المقدم من بيغن. اقتراح نص قانون بمنتهى الاقتضاب. ثلاثة مواد بسطرين فقط لكل مادة: تطبيق القانون الإسرائيلي في مرتفعات الجولان أي ما معناه ضم الجولان إلى إسرائيل بعد احتلالها لمدة أربعة عشر عاماً وسبعة أشهر. تبنى مجلس الوزراء اقتراح بيغن بالإجماع، وقدم النص باليوم عينه أمام الكنيست وأصر بيغن على تقديم هذا الاقتراح بنفسه، فمثل أمام النواب بكرسي المقعدين وبالتالي وقع الكنيست على الاقتراح بأكثرية 60 صوتاً مقابل 17، وذلك دون أي نقاش. الحدث سابقة لم يشهدها تاريخ إسرائيل البرلماني من قبل. في المساء وصل بيغن للمرة الثانية أمام مجلس النواب للقراءة الثانية. كان جميع النواب المتواجدين في إسرائيل في هذه الجلسة وأتت نتيجة الاقتراح على الشكل التالي 63 صوتاً نعم، و21 صوتاً لا. هكذا تمت عملية الضم أو، أقله، شمول صلاحية التشريع الإسرائيلي مرتفعات الجولان. "ليس بالإمكان ضم ما هو ليس ملكاً لك"، علّق اسحق شامير قائلاً.

كان الوقت ملائماً جداً بحيث إن أنظار العالم كانت تتجه إلى بولندا بفعل حالة الحرب التي أعلنها الجيش هناك. دخلت الدبابات إلى شوارع فارصوفيا. وضع ليش فاليسا تحت الرقابة القصوى، والكوادر النقابية في سوليداريتيه (التضامن) الذين لم يكونوا قد أوقفوا بعد، دخلوا في حينه بالعمل السرّي متنادين إلى إضراب عام. ولم يكن بإمكان موسكو المرتبكة بسبب ما يحدث في بولندا التدخل في منطقة الشرق الأوسط، وتعذر تطبيق معاهدة الصداقة والتعاون التي وقعتها دمشق عام 1980. طلبت دمشق مباشرة انعقاد مجلس الأمن، وتوجّه رونالد ريغن بنوع من "التأنيب" إلى مناحيم بيغن وبالتالي فُرض الأمر الواقع دون أي صعوبات أخرى.

بعد هذا كله أتى بيغن إلى لبنان يشرح إلى بشير أن الضم سيرغم سورية على التفاوض

بينما بشير لم يكن من هذا الرأي معتبراً بالعكس بأن اقتراح الكنيست هذا من شأنه أن يعزز نظام حافظ الأسد موحداً البلدان العربية حول دمشق باسم التعاضد العربي. هذا الضم أتى بمثابة عذر شرعي لعدد من العواصم العربية للإقلاع عن مطالبة سورية بالانسحاب من لبنان.

وفي الأسبوع التالي ولمدة عشرين دقيقة تقدم شارون أمام الحكومة في 20 ديسمبر 1981 بالخطوط العريضة لعملية "شجرة الصنوبر الصغيرة" تحت اسم أورانيم "Oranim". وكان الوزراء يسمعون وللمرة الأولى باجتياح لبنان. اعترض سيمحا إيرليش، نائب رئيس الوزراء، ويوسيف بورغ (الداخلية) بشدة على المشروع. وبحرارة النقاش لم يتنبه أحد إلى أن الخرائط التي عززت العرض الذي تقدم به شارون كانت أسهمها تدل على تحركات وحدات من الجيش الإسرائيلي حتى مشارف طريق بيروت – دمشق. سحب بيغن المشروع من جدول الأعمال، مقترحاً تدارسه لاحقاً.

لم يكن التحالف مع الكتائب يستهوي جهاز المخابرات العسكرية المرتبطة بأركان الجيش، وبالتالي بشارون. رئيس هذا الجهاز يهوشع ساغي اعتبر أن هذه المشاريع هي لخدمة الطموحات الشخصية لوزير الدفاع، وأن مسؤولي هذا الجهاز كانوا يؤكدون بكل مناسبة بأنه من المستحيل أن يوثق بمسيحيي لبنان وكانوا يؤكدون على أن هؤلاء على صلة وتواصل مع السوريين ومع بعض أعضاء منظمة التحرير الفلسطينية. بالنسبة لساغي، جيش لبنان الجنوبي هو الميليشيا الوحيدة التي ينبغي الوثوق بها، إذ كان يجهزه ويموله. وجهاز آمان (مخابرات الجيش) يعتبر أن بشير على استعداد لأن يَعدَ بالقمر للوصول إلى عملية عسكرية إسرائيلية. في هذا السياق أكد شارون، متخطياً هذه الاعتراضات، أن الأهداف المتوقعة من شأنها تغيير مجرى التاريخ.

بعكس ما تقدم، لقي شارون تأييداً وتحالفاً مع أعضاء الموساد المرتبطين برئيس الوزراء. منذ 1976، كان عدد من كوادر الموساد قد أمضوا بعض الوقت في لبنان قبل أن تسند إليهم بعض المسؤوليات في جهاز الموساد. خلال تواجدهم في لبنان تقربوا من بشير وأصبحوا من أصدقائه هو أو بعض كوادر القوات، هذا علماً بأن الموساد عامة تلقى ببرودة كلية تعيين شارون وزيراً للدفاع، كون إسحق حوفي وشارون كانا متعادين منذ حملة السويس في عام 1956، في حين كان حوفي المعروف بلقب حاقة اعترض علانية على رئيسه المباشر ناعتاً إياه ضمناً بالجبان بسبب وجوده في مؤخرة رجاله وليس على رأسهم، في المعارك، كما يفرض التقليد العسكري. لم يكن شارون نسي ولا صفح[1]. ومنذ أن تسلم وزارة الدفاع، حاول الوزير الجديد إقناع بيغن – دون جدوى – بإسناد إدارة الموساد إلى غير حوفي.

(1) Dan Raviv, Yossi Malman, *Every spy a Prince*, Houghton Mifflin, Boston, 1990

إلى هذا كانت ثمة خصومة عميقة بين مخابرات الجيش والموساد منذ عبد الناصر الذي كان بشكل غير مباشر سبب هذه الخصومة. في 21 يوليو تموز 1962، أعلن عبد الناصر بمناسبة الذكرى العاشرة للثورة المصرية، أن لدى مصر أسلحة صاروخية أرض - أرض وبشكل خاص، بوسع القاهرة الوصول إلى جنوب بيروت، أي إسرائيل من الأراضي المصرية. في هذه الفترة كان الجنرال مئير آميت على رأس مخابرات الجيش وكان إسير هاريل على رأس الموساد. وفي قضية الولد اليهودي يوسيل شوماخر الذي خطفه جده المناهض لليهودية، اعتبر مئير آميت أن الموساد مقصرٌ، إذ إن اهتمام هاريل كان كبيراً بالتفتيش عن هذا الولد. فاعتبر رئيس جهاز مخابرات الجيش أن هنالك تقصيراً من قبل الموساد معتبراً أن أمن إسرائيل أهم بكثير من الاهتمام بقضية الولد الذي خطفه جده. بالنسبة إلى لبنان انبعثت هذه الخصومة بتوزيع المهام بين الجهازين، الموساد الذي كان على صلة بالقوات اللبنانية، ومخابرات الجيش المشرفة على جيش لبنان الجنوبي.

ومع شارون على رأس وزارة الدفاع تغيرت مهام الموساد. فمن منسق للجهود الإسرائيلية في لبنان أصبح هذا الجهاز منفذاً لأوامر الوزير. وفي أواخر ديسمبر - كانون الأول 1981، وبمساعدة القوات اللبنانية، نظم شارون سفر ستة عناصر من كوادر جهاز مخابرات الجيش ساهراً على حمايتهم وتنقلاتهم موكلاً إليهم عملية فوتينت (photint) المتعلقة بالمواقع الإستراتيجية لخط المواجهة على المرتفعات المحيطة ببيروت. بعد عودة هؤلاء قرر شارون الذهاب بنفسه إلى لبنان للتأكد من جغرافية المكان وللتعرف أيضاً إلى السياق السياسي وتجاذباته بالنسبة لمسيحي لبنان. هذا كون الأجوبة التي أتى بها بول في سبتمبر - أيلول لم تحظَ برضاه. أعلن الموساد للقوات اللبنانية زيارة مسؤول كبير إسرائيلي في 12 و13 ديسمبر - كانون الثاني 1982. فبهذا البيان عارض جهاز مخابرات الجيش أن يعلن اسم هذا المسؤول مسبقاً لأسباب أمنية، متذرعاً بأن ثمة "اختراقات أمنية" سورية داخل القوات.

وفي الثاني عشر من ديسمبر - كانون الثاني 1982، وعلى أرض المطار العسكري المتاخم لتل أبيب، تجمع حول الطوافة ياسور، من طراز سيكورسكي CH-53 من الوحدة الجوية الأولى للطوافات، عشرة رجال مرتدين صداري النجاة من اللون البرتقالي واستمعوا بانتباه إلى التوجيهات الواجب اتباعها في حال هبوط قسري للطوافة على أرض معادية. أقلعت الطوافة، إذ كانت بحماية مجموعة من المقاتلات المحلقة على ارتفاع شاهق، واتجهت شمالاً محلقة على شفير الأمواج وعلى بضعة أميال شرقي الشواطئ اللبنانية. إلى جانب شارون جلس الجنرال موشيه ليفي، مساعد رئيس أركان الجيش الإسرائيلي، الملقب بموشيه ونصف بسبب طول قامته؛ والجنرال يهوشع ساغي رئيس جهاز آمان؛ والجنرال

أبراهام تامير، مستشار الوزير، والمعروف من الجميع باسم أبراشا؛ والجنرال أوري ساغي، رئيس المكتب الثالث (العمليات)، التابع لأركان الجيش الإسرائيلي، وكان عائداً لتوه من دورة تدريبية في الولايات المتحدة؛ والجنرال عاموس يارون، رئيس الوحدات الخاصة الإسرائيلية وهو قد أطلق عليه من قبل القوات اللبنانية لقب أورانغ أوتانغ، بسبب انحنائه إلى الأمام وذراعيه الطويلتين؛ أما المدني الوحيد فهو الدكتور بورسلاف غولدمن، طبيب في مستشفى تل هاشومر، والصديق الشخصي لشارون والذي كان يرافقه دائماً بمهماته السرية. كان شارون كعادته يرتدي قميصاً مفتوحاً على سلسلة من الذهب. أما الركاب الثلاثة الباقون فكانوا من الموساد وهم: مناحيم نافوت (مندي) وأفنير آزولاي (فيليب) وميكي أرمور (ماريون). هذا الأخير يحاول أن يحد من هامته الضخمة بواسطة كلاّب من طراز الوخز بالإبر الصينية مشكوك في روْم أذنه كي يضعف.

هبطت الطوافة ياسور عند الساعة العاشرة مساءً على أرض مطار الطوافات قرب محطة توليد الكهرباء في الزوق. تقدم بشير الجميل وحفنة من المقربين إليه نحو الطوافة وعندما رأى آريل شارون هتف رئيس القوات اللبنانية:

- كنت أشك بأنك أنت القادم إلينا، يسرُنا أن تكون هنا!

وكانت منذ نشوء الدولة العبرية، المرة الأولى التي يطأ قدم وزير في الخدمة الأرض اللبنانية. وبعد انطلاق الطوافة اتجه الجميع بالسيارات إلى مقر الموساد في طبرجا حيث كان بانتظارهم مأدبة عشاء. وفي شوارع الزوق وجونيه المزدحمة حيث مر الوفد، كانت الأضواء المتعددة الألوان تلمع وعدد ضخم من السيارات تمر مزمرة، هذا ما أدهش الإسرائيليين إذ إنهم كانوا يعتقدون حتى هذا الوقت أن اللبنانيين يمضون وقتهم بتعزيز مواقعهم الدفاعية وذلك بإعدادهم أكياس الرمل بجو من الحرب الكلية. جلس المجتمعون على جانبي الطاولة، اللبنانيون من جهة والإسرائيليون من الجهة الأخرى، وبشير وجهاً لوجه مع شارون. وفي هذه الأجواء ابتسم مندي وتوجه لقائد القوات قائلاً:

- في كل مرة أتيت فيها إلى هنا، كنت أحمل أنباء عاطلة، أما اليوم فستكون مسروراً لأننا قررنا أن نعيد ترتيب حدودنا الشمالية ذلك ضمن إطار عملية عسكرية كبيرة.

توقف بشير عن الأكل وفتح فاه معرباً عن تعجبه كما فعل اللبنانيون الآخرون.

- إذا لم نقم نحن بشيء، على الأجيال الأخرى بأن تقوم بذلك، هذا ما قاله وزير الدفاع. لا يمكن لنا إطلاقاً أن نتحمل ما يحصل، ونحن مقررون أن نتحرك مهما كان الثمن. هناك إمكانيتان: إما أن تتصرفوا كعرب ولا تحركوا ساكناً ولكن حذار، إذا كان هذا موقفكم فلن تستفيدوا لأنه من المستحيل أن تلعبوا على جميع الأصعدة. في هذا المجال سوف لن

نأخذ مصالحكم بعين الاعتبار وستكونون لنا كباقي العرب. أما الاحتمال الثاني فهو إسهامكم بهذا العمل مع ما ينتج عن ذلك من تداعيات.

- الأميركيون هم ضد هذا المشروع، هكذا قال يهوشع ساغي منوهاً بأن إسرائيل هي حليفة أميركا أما الأميركيون فيريدون الاقتراب من العالم العربي وهم يغازلون السوريين دون الأخذ بعين الاعتبار مصالحكم أو مصالحنا. عندما كان اليهود يحرقون إبان الحرب العالمية الثانية، لم يكن ثمة من يعتبر نفسه معنياً بهذا الأمر، ذلك لأن الدول الكبرى تضحي بكل شيء من أجل مصالحها.

ثم قال شارون:

- اليوم نحن نتعاون بين بعضنا البعض. وابتداءً من اليوم المعلومات التي تضعونها بتصرفنا عليها أن تكون في خدمة صراع واحد، وأن تدخل بالتالي ضمن إطار توزيع الأدوار بيننا. إن العتاد الذي تطلبونه هدفه المعركة، كيف تتصورون الصراع؟ هل بإمكانكم أن تسيطروا على بيروت؟ ما هي المناطق الكبيرة الخطرة بالنسبة لكم؟ هل أنتم بحاجة إلى مساندة ضباط إسرائيليين؟ هل أنتم بحاجة إلى مساندة جوية؟ أم تودون أن يلتحق جيشنا بمواقفكم؟ سوف لن ندخل مناطقكم إلا إذا طالبتم بذلك، قولوا لنا ماذا تريدون؟

استعاد الوزير أنفاسه بعد هذا الرشق من الأسئلة التي وجهها إلى قائد القوات اللبنانية. وكالمعتاد هجم شارون وكأنه دبابة. ملزماً محاوريه أن يلتحقوا به. لم يعلق بذهن بشير إلاّ السؤال الأخير.

- أريد كل لبنان. نحن نرفض المنطق الذي يسعى لأسرنا في منطقة صغيرة.

- فلنتحدث الآن عن المناطق المتاخمة لمناطقكم ولنترك المناطق البعيدة جانباً. نأخذ على عاتقنا الدامور. بغية خلق تواصل أرضي مع مسلحيكم، نود أن نعرف بوضوح ما الذي تريدونه فكروا إذاً! عليكم أن تفكروا بمنطقة الجمهور، وببيروت الغربية، وبالدفاع عن مناطقكم، عليكم أيضاً أن تتمكنوا من السيطرة على المطار. رئيس الوزراء بيغن يشعر بتقارب معكم لأنه آتٍ من الغيتو البولندي. ما هو موقف الجيش اللبناني؟

- الجنود المسيحيون سيلتحقون بنا ولا أدري ما سيفعله المسلمون، أجاب بشير. إذا قررنا أن نشارك بهذا المشروع، سيكون هذا قرارنا.

هذه الأمسية كانت فعلاً بمثابة "نشوة" سياسية لبشير. هذا على حد قول أحد الحاضرين اللبنانيين. كان هذا مطلع ما كان يريد بشير أن يحققه. وأخيراً ستتدخل إسرائيل. منذ 1978، قام بكل ما بوسعه أن يقوم به للتسبب بالتدخل. كان بشير يستغيث، معظماً الوضع القائم، مزايداً بالنسبة للمخاطر، مبقياً على بعض الجبهات مثل جبهة زحلة. لم تأتِ إسرائيل إلاّ

على "رؤوس الأقدام" وذلك بالإغارة على الطوافات السورية. لاحقاً سيندم بشير على ما فعله خاصة بعد حرب المائة يوم على الأشرفية في العام 1978. لو كنت أعلم أن إسرائيل لن تشارك بالمعركة إلى جانبنا لكنت تجنبت المعركة، هذا ما قاله لجوزيف أبو خليل في حينه[1].

وفي الوقت الذي لم يكن يفكر بهذا المشروع، تأتي إسرائيل وتبعث المشروع وتضعه قيد التنفيذ.

وفي اليوم التالي وعلى متن سيارته، قام بشير وإلى جانبه آرييل شارون وسيارات المواكبة والحماية وراءه بجولة حول المنطقة المسيحية. برج أبو حمد في بيروت الشرقية والذي يطل على بيروت الغربية. مرتفعات جبل لبنان وعيون السيمان المطلة على سهل البقاع. بلدة برمانا المسيطرة على القسم الأكبر من طريق الشام. في هذه الأثناء وفي كل محطة كان أبراهام تامير يأخذ بشير الجميّل بذراعه ويهمس في أذنه سنعمل منك رئيساً للجمهورية. كان أبراشا، الصديق الشخصي لشارون، والهادئ جداً، يضع جميع مخاطبيه بحالة إزعاج دون أن يتمكن أحدهم من اكتشاف السبب، وصوته المكسوف لم يكن ليرتب الأمور. توقف الوفد ولمدة طويلة قرب دير الآباء الأنطونيين في بيت مري. وكانت بيروت مترامية تحت أنظار الضباط الإسرائيليين، من تقاطع خلده جنوب المطار حتى المرفأ. كان أمام أعينهم وعلى مسافة 6 كلم على خط مستقيم، جميع المكاتب السياسية والعسكرية والمالية لمنظمة التحرير الفلسطينية. وبينما كان الوزير يراقب ما يرى، توجه بشير إلى يهوشع ساغي بالقول، مبتسماً ابتسامة تحدٍّ:

- كنت أعتقد أن جميع الضباط الإسرائيليين يبغضون القوات اللبنانية.

فأجابه مدير الأمن العسكري بلهجة ناشفة، وازدرائية بعض الشيء:

- تريد الحرب. أتعرف جيداً ما هي الحرب؟ ستكون لك بيروت ولكن ستأخذها "خربة"! أتفهم هذا؟

- نحن على استعداد لكل شيء. أجاب رئيس القوات اللبنانية:

لم تكن المخابرات العسكرية تحب القوات اللبنانية. إن جهاز هذه المخابرات هو على علاقة بما يختص بالتهديدات العسكرية على الدولة العبرية، ولم يكن هذا الجهاز معنياً من قريب أو من بعيد بالمشاريع السياسية. كانت علاقة القوات اللبنانية مع الموساد، وكانت العلاقات مع هذا الجهاز ممتازة. هذه الصورة المتعلقة "بتوزيع المهام" لم تكن القوات اللبنانية على علم بها، إذ إنهم كانوا يقتصرون العالم الإسرائيلي على الموساد وبعض المستشارين والمدربين العسكريين الذين استفاد منهم بعض عناصر القوات. وفي هذا السياق وفي هذه الأجواء، التفت شارون نحو بشير وقال له:

(1) جوزيف أبو خليل، الموارنة في حرب لبنان، ص 90 (ط فرنسية).

- لا أريد أن أدخل بتفاصيل تصاميمنا لأنها أولاً لم تنته بعدُ، ولكن من المؤكد أننا لن نتوقف عند الليطاني والزهراني في حينه. سنواصل تقدمنا باتجاه الشمال مقتربين من بيروت على طول خط الشاطئ سيكون لك بالتالي حظك التاريخي، سوف لن ندخل إلى بيروت بالنيابة عنكم لأنه لو دخلنا إلى العاصمة لن نتمكن أبداً أن نشرح لشعبنا أو للعالم لماذا دخلنا إلى بيروت.

بعد هذا انتقل الإسرائيليون العشرة إلى منزل بشير في الأشرفية حيث كانت أكياس الرمل تحيط بالمبنى، كما كان هنالك عناصر مسلحة تقفل الشوارع المحيطة بالمنزل وتناولوا طعام الغذاء مع بيار الجميّل وكميل شمعون. وخلال الغذاء نوّه شارون مجدداً بالعملية العسكرية المرتقبة:

- قد تكون إسرائيل مرغمة أن تتدخل في لبنان قبل صيف 1982 بسبب خرق وقف إطلاق النار من قبل بعض الناشطين الفلسطينيين الذين يخرقون اتفاق يوليو - تموز. سيتدخل الجيش "إذا"[1] تدخلت إسرائيل وسيضرب "الإرهابيين" بشدة إلى حد أن هؤلاء لن يتمكنوا من المضي بنشاطهم كما كانت الحال بعد عملية الليطاني عام 1978. لن تكون هذه العملية، عملية بحث وتدمير كما كان الحال في تلك الفترة. سنقضي على الإرهابيين وبإمكانكم أن تستفيدوا من الوضع لتدخلوا إلى بيروت الغربية وتحضروا بالتالي الأجواء لتنظيم انتخابات حرة. قد تكون إحدى نتائج هذه العملية انسحاباً سورياً نتيجة الضغوطات السياسية وهذا ما سيحظى على رضا واشنطن. لم آت إلى هنا لاستكمال تصميم مشترك معكم. لم يحن الوقت بعدُ ولكن مهم جداً أن أعرف قبل أن أترك هذا المكان ما الذي تريدونه بالضبط، وماذا بإمكانكم أن تفعلوه. كان على الجيش الإسرائيلي أن يتدخل في لبنان وأن يصل إلى محيط بيروت ومتى.

"الوصول إلى محيط بيروت" هذه الكلمات الخمس طمأنت المسيحيين وأخافت مندي وفيليب وماريون، أعضاء الموساد الموجودين حول الطاولة، إذ إن شارون لم يكن قد أفصح إطلاقاً حتى في إسرائيل عن نواياه. هذا لأن الوزير كان يعتقد أنه من المهم أن يوضح نهائياً قواعد التعاون المقصود كي يصل إلى التزام القوات اللبنانية غير المشروط. على الصعيد العسكري كان شارون على حق ولكن على الصعيد السياسي هذه «حرطقة»، لأن مثل هذا الموقف يكبل الأيدي، هذا ما قاله أحد أعضاء الموساد[2] الذين شاركوا بهذا اللقاء. هذا علماً بأنه ليس من التقليد الإسرائيلي أن تشرح المشاريع المرتقبة حتى لأقرب الحلفاء

(1) If بالانكليزية.

(2) ما قاله أفنير آزولاي لألان مينارغ.

فكم بالحري لمسيحيي لبنان الذين لم يكونوا قد أعطوا موافقتهم وحجم مساهمتهم بالعملية. حتى مجلس الوزراء الإسرائيلي لم يكن على بينة من الأمر بمقدار ما كانت عليه القوات اللبنانية. وبعد انتهاء الغداء انتقلوا إلى غرفة الاستقبال وذكر بشير، لوالده وكميل شمعون، وفنجان قهوة بيده، تفاصيل لقائه بالأمس مع شارون. فأجاب بيار الجميّل، الذي لم يكن يتكلم الانكليزية، بالفرنسية وبجملة طويلة منوّهاً بأهمية وفاق 1943 وبالضرورة أن تصالح إسرائيل ياسر عرفات.

- يكفي أن تخسر إسرائيل حرباً واحدة ضد العرب حتى نموت، بينما بإمكان العرب أن يخسروا عشرات الحروب ومساحات كبيرة ويبقون سيفاً مسلطاً على رأس إسرائيل يحرمها رفاهيتها واستقرارها. هذا ما قاله بيار الجميّل مضيفاً: نحن بلد على علاقة مع البلدان العربية وسنبقى. نحن جسر عبور بينكم وبينهم ونود أن نبقى كما نحن عليه. عليكم أن تفهموا ذلك وأن ثمة حدود يجدر احترامها.

أما بشير الذي كان يترجم تباعاً إلى الإنكليزية، متصرفاً ببعض الشيء، ومحاولاً تقليص وقع ما كان يقوله الشيخ بيار. أما هذا الأخير وقد رأى أن شارون لا يقوم بأي ردة فعل أردف قائلاً:

- قد يكفي انسحاب إسرائيل من الأراضي المحتلة أو من بعضها، وإنشاء دولة فلسطينية للإسهام بإعادة الهدوء إلى المنطقة. يجدر بكم أن تعلموا بأن مسيحيي لبنان يرفضون أن يصبحوا سعد حداد جديد.

كان كميل شمعون والموساديون الثلاثة الذين يفهمون الفرنسية بمنتهى الانزعاج. حتى بعد تقليص ما قاله بيار الجميّل من قبل بشير. بعد هذا تكلم شارون، وبهدوء كلي كرر ما قاله بالأمس وأثناء تكلمه همس بيار الجميل في أذن ابنه:

- لا نريد أن نصبح إسرائيل ثانية. بين هذا والوضع الحالي فأنا أفضل الوضع الحالي.

عند هذا غمز كميل شمعون بشير وأردف باتجاه شارون:

- نحن موافقون معكم على هذه العملية، فلننشىء هيئة أركان مشتركة.

وبعد خروجهم من منزل رئيس القوات اللبنانية، تبادل شارون ومدير المخابرات العسكرية بعض الكلمات بالعبرية ثم التفت شارون إلى بشير قائلاً:

- كنا نتبادل ما معناه أن الرئيس شمعون والشيخ بيار قد أسهما بميثاق 1943 ولا يمكن لهما أن يبتعدا عنه أما أنتم، فبإمكانكم أن تكونوا أسياد اختياراتكم. نحن نتفهم المسنّين فلنتركهما يناوران كما يريدان. إن واقع الحال يختلف كلياً. إن وقف إطلاق النار في تموز 1981، كان بمثابة نكبة لنا، لذا نحشد الجنود على الحدود وعند أول طلقة نار علينا ستكون الأخيرة. تصاميمنا جاهزة.

– إن مخططكم لا يتطرق إلا إلى النواحي العسكرية للمسألة. لتأمين النجاح، على المخطط أن يأخذ بعين الاعتبار التطورات السياسية التي لا بد أن تتبع – أجابه بشير مستكملاً، وعلى الهدف أن يستحدث "شرعية جديدة"، وقيام حكومة جديدة في لبنان. سنتفق مع الرئيس سركيس على تسليم السلطة. ولن نكون قد أنجزنا شيئاً إذا لم نتوصل إلى ذلك.

– هل أنتم بحاجة الى مساعدة جوية؟ ما هو عدد الفرق المصفحة التي تحتاجون إليها؟ سأل يهوشع ساغي.

– سأدرس هذه المسألة مع الأركان. سنحضر مشروعاً سياسياً عسكرياً ثم نوزع الأدوار لاحقاً، أجابه بشير.

هذه عملية كبرى ألحّ مدير الاستخبارات العسكرية. وكل تسريب لأي معلومة من طرفكم سيكون له أثر عاطل جداً. إذا حصل ذلك بإمكانكم أن تعتبروا أن شيئاً ما لم يحصل بيننا، وسيرفض الأميركيون هذا المشروع محاولين نسفه.

توجه الوفد بعد هذا كله إلى مطار الطوافات في الزوق واقترح الجنرال موشيه ليفي تحضيراً مباشراً لما بعد العملية كي يستعاد الأمن بسرعة والحصول على اعتراف دولي. وحوالى الساعة الثامنة مساء حطت الطوافة CH - 53 مدة دقائق لصعود ركابها العشرة. وعلى طريق العودة وضع الموساديون الوزير على بينة من الترجمة المحرفة التي قام بها بشير لما قاله والده. فضحك شارون، ثم عند وصوله إلى تل أبيب قال لرفائيل إيتان:

– لقد رتبت اللمسات الأخيرة للمخطط مع "الفالانغو". بإمكاننا تنفيذه. لقد كبلت أيديهم باقتراحي عليهم الاستيلاء على السلطة[1].

وأما يهوشع ساغي فحذر مناحيم بيغن من الوصول إلى بيروت قائلاً:

– سنكون محرجين زد على ذلك إن كل احتلال لعاصمة عربية سيخلق حتماً بعض المشاكل مع العرب ومع الأميركيين.

فأجابه بيغن أن على الكتائب وحدهم أن يتدخلوا في بيروت الغربية المسلمة. ثم ألحّ ساغي. إذ إنه كان مقتنعاً بأن الميليشيا المسيحية ليست مؤهلة للقيام بمهمة كهذه. ولم يُصغَ إلى ساغي. إذ كان جهازه قد حذر سابقاً من عملية المفاعل النووي في العراق. فكانت النتيجة بعد نجاح هذه العملية أنه لم يعد يصغى كثيراً إلى رأي جهازه مما حدّ من تأثيره، لذا استُبعد ساغي عن الملف اللبناني. طلب ساغي من المختصين في الشؤون العربية ومن قدامى "مكتب لبنان" في جهازه إعادة تقويم للتطورات السياسية في لبنان، فكان تقريراً

(1) انظر شيمون شيفر، **كرة الثلج – خفايا الحرب اللبنانية**، 1984.

طويلاً بمنتهى السرية سلّم إليه باليد. كان يدحض هذا التقرير نهائياً كل إمكانية للبنان بأن يصبح يوماً دولة مسيحية يحكمها الكتائبيون. انتهى هذا التقرير منسياً في عمق إحدى الخزائن.

وفور مغادرة الإسرائيليين، جمع بشير معاونيه لتقويم ما قيل خلال الزيارة؛ فكان رأي إيلي حبيقة أن العد العكسي قد ابتدأ وعليه يجدر بنا أن نبدأ مباشرة بمواجهة جميع المشاكل الداخلية وردود الفعل الخارجية التي ستخلفها هذه العملية.

وقال زاهي البستاني متفوهاً عن وضوح الحدود التي سيعمل من خلالها:

– إما أن نتبنى الحدود الدنيا ونرفض أن نتحمل أي مسؤولية في سفك دم الكثير من المسلمين والفلسطينيين، وإما أن ننتقي الحدود القصوى، وبهذه الحالة يكون إسهامنا بهذه العملية كاملاً ومطلقاً والهدف من ذلك استحداث دولة مسيحية.

قررت قيادة القوات اللبنانية أن تفكر في هذه المسألة ولم يكن مخولاً إلا الاثني عشر شخصاً للوصول إلى المعلومات المتعلقة بالعملية أي أربعة أشخاص أقل من الذين شاركوا في خلوة دير سيدة البير المشهورة حيث انطلق مشروع الاستيلاء على السلطة. أفرط البستاني بدافع وسواسه المتعلق بالسرية، في تنبيه بشير إلى وجوب الحفاظ على السرية، لأنه كان يخشى أن يقوم رئيسه بسبب حماسه الطبيعي بخطأ ما فيبوح بسرية هذه العملية. وكان يخاف قبل كل شيء من اللقاءات مع الآخرين لأن بشير كان بإمكانه أن يقول مثلاً لمحمد غانم: "سترى . . . الإسرائيليون قادمون وسيكسرون رأسك". وكان دائماً يحذره من هذه النقطة.

وبعد ستة أيام من زيارة شارون أي في 19 يناير – كانون الثاني 1982، انتقل وفد لبناني إلى تل أبيب للقاء الجنرال موشيه ليفي. وكانت القوات تريد الحصول على معلومات حول العملية العسكرية لكي يحضروا تصاميمهم وينسقوها مع التصاميم الإسرائيلية. بقي ليفي صامتاً حول نواياه ولكنه ركز على ضرورة التجييش السريع لوحدات الميليشيا بعد إعلامهم بذلك بفترة وجيزة، وقدم بالمقابل تسهيلات كبيرة للتزود بالسلاح والذخيرة.

وهكذا انهمك كل من فادي أفرام وأنطون بريدي (توتو toto) بتحضير المخطط العسكري M باسم مايا، (ابنة بشير التي اغتيلت لسنتين خلت). ووضعوا انطلاقاً من مسلمات عمليات الجيش الإسرائيلي، الإطار العام لعمليات القوات اللبنانية. لذا وليحافظوا على سرية ذلك كانوا يؤمنون عملهم اليومي في مقرهم بالكرنتينا: قيادة الأركان لفادي أفرام والمفتشية العامة لبريدي. وحوالى الخامسة والسادسة مساءً كانا يتجهان كل منهما على حدة وبطريقتين مختلفتين نحو مسكن أفرام في برمانا وهنالك كانا يدخلان إلى غرفة تطل شبابيكها

على بيروت والمسماة من قبلهما "غرفة الخرائط" لأن جدرانها كانت مغطاة بالخرائط، ولمدة ثلاثة أسابيع انكبا على دراسة خرائط الأركان بمقياس 50000 /1 لمجمل الأراضي اللبنانية 1/20000 للمناطق المنوي الدخول إليها[1]. كانت هذه الغرفة مقفلة طيلة مدة غيابهما ولينا زوجة فادي أفرام الشابة وشقيقة فؤاد أبو ناصر، لم تكن مخولة إطلاقاً الدخول إلى هذه الغرفة. كانت الزوجة خلال هذه الفترة تحضر طعام العشاء ثم تطرق على الباب داعية زوجها وصديقه إلى تناول طعام العشاء ولم تكن تعلق أبداً على عملهما ولا تطرح أي سؤال.

من جهة أخرى كان أنطوان نجم، وسليم الجاهل وزاهي البستاني يعدون، أثناء تواجدهم عند هذا الأخير، التصميم[2] M السياسي الذي كان من شأنه في حينه أن يؤمن استلام السلطة.

وبدأت تتكثف وتيرة اللقاءات مع الإسرائيليين. وفي 22 و23 يناير – كانون الثاني، ابتدأت في تل أبيب الاجتماعات المتعلقة بالشق العسكري. وكانت تعقد في مقر الجيش الإسرائيلي في وزارة الدفاع الإسرائيلية. أما الاجتماعات السياسية فكانت تعقد في الاستراحة التابعة لمقر الموساد على الطريق المؤدية إلى حيفا. بعد هذه الاجتماعات، عاد اللبنانيون إلى بيروت بنوع من خيبة الأمل إذ إن شركاءهم كانوا يجيبون على جميع أسئلتهم بـ: "لا نعلم بدقة. . ."

وكان من شأن عدم توفر المعلومات حول حجم العملية أن يخلق الحذر في نفوس مسؤولي القوات، وبالتالي كانت وجهة نظرها أنه ينبغي في حال لم تكن العملية تعني جميع الأراضي اللبنانية، فلتكن أقله عملية تحرير لكامل المناطق المسيحية وبنوع خاص منطقة الشمال الواقعة تحت السيطرة السورية وسيطرة سليمان فرنجية. كل هذا كان غامضاً بالنسبة للقوات لأن هذا الواقع كان متناقضاً مع زيارة الثاني عشر من يناير– كانون الثاني التي كان موقف شارون خلالها بمنتهى الصراحة. كانوا يتساءلون إذا كان الإسرائيليون أعادوا النظر بمشروعهم باتجاه تقليصه. ولم تفهم القوات أن الموقف الإسرائيلي هذا كان من شأنه تصحيح موقف الوزير الذي أعطى الكثير من المعلومات السرية، لذا كان من الضروري تصحيح الاتجاه لأسباب سياسية داخلية. كان على المشروع أن يبقى بمنتهى السرية خاصة بشان الأهداف، تحت طائلة إسقاطه من قبل المعارضة.

وفي 25 يناير – كانون الثاني، عاد إلى لبنان فيليب وماريون. والتقيا إيلي حبيقة (HK) الذي كان على رأس جهاز الأمن، و أسعد شفتري، أسّو (ASSO)، مساعده. أراد

(1) انظر الملحق 9.
(2) انظر الملحق 10.

الإسرائيليون أن يحصلوا على معلومات حول أمكنة نصب سلاح الصواريخ سام6 وسام8 من قبل السوريين في البقاع، كما كانوا يريدون الحصول على معلومات دقيقة حول كل شوارع بيروت. كانوا يسعون أيضاً إلى صلة مع ضابط سوري ما قد يقبل بقطع خط وقف إطلاق النار في الجولان على متن دبابة من طراز T72 [1] مقابل مكافأة مليون دولار أميركي. ولم تتمكن القوات من إيجاد الرجل الملائم.

بعد ذلك التقى الإسرائيليون ببشير الجميل وفادي أفرام وزاهي البستاني. وخلال هذا اللقاء أعرب بشير بوضوح عن مخاوفه إزاء العملية العسكرية التي لم تكن واضحة. وقد تخوف بالتالي من أن لا يصل الجيش الإسرائيلي إلى بيروت لسبب ما. هذه النقطة كانت هي الأهم بالنسبة لبشير وذلك كي لا يجد نفسه وحيداً بمواجهة السوريين من جهة، ومن جهة أخرى كي يتمكن فرض حله السياسي. وإن الـ إذا "IF" التي كانت شرط كل العملية قد طرحت على بشير سؤالاً كبيراً كون الدولة العبرية بوسعها أن تعبئ قواها المسلحة وتسرحها دون أي تأثير على وضعها، أما هو فلم يكن بإمكانه أن يفعل ذلك، لأن كل عملية تعبئة في المناطق المسيحية لا يواكبها عملية إسرائيلية من شأنها أن تثير ردود فعل سورية فلسطينية وعربية وقد تكون كل ردود الفعل هذه خطيرة.

– لا يلتزم رئيس وزراء إسرائيل إلا في حال وقوع هجوم عام.

وهنا قاطع بشير أفنير آزولاي بخشونة سائلاً:

– ألا يلتزم رئيس الوزراء بعملية محدودة؟

فأجابه رجل الموساد بقوله:

– من المهم أن تتقدم بمستند يحدد النقاط الواجب إيضاحها، وهكذا يمكننا أن نتقدم. حاول أيضاً أن تكون دقيقاً حول الطريقة التي ستتبعها للوصول إلى السلطة بطريقة شرعية. مع كل الإمكانيات التي تفترض هكذا عملية.

– ما هو هامش مناوراتنا؟

– وزيرنا بمنتهى الوضوح. لن نتدخل إطلاقاً بسياستكم الداخلية. قد يكون وضعكم أسلم تجاه واشنطن فيما لو شكلتم حكومة مختلطة.

– كيف يمكن لنا أن نوفق بين مواقفنا وتشجيع المسلمين بالالتحاق بنا، والتوصل إلى حمل المجتمع الدولي على الاعتراف بهويتنا – قال بشير معقباً.

فأجابه آزولاي:

– عليك أن تجهز مباشرة هذا الشق من المشروع وأن لا تنتظر الساعة الأخيرة. فيما

(1) كانت هذه الدبابة تمثل في حينه ذروة التكنولوجيا العسكرية السوفياتية وكان الجيش السوري مجهزاً بها.

يتعلق ببنى نظامكم العتيد، فاحذوا حذو الغرب. وينبغي أيضاً أن توجهوا نداءً إلى المغتربين وحثهم على العودة بغية إعادة الإعمار. واستطرد بقوله: ما الذي ستفعلونه بالفلسطينيين بعد انتهاء العملية؟

– هل بإمكاننا أن نوزعهم على العالم العربي؟ إذا بقوا في لبنان فسوف يكونون أكثر خطورة مستقبلاً مما هم عليه اليوم، كون لبنان هو الحلقة الضعيفة في العالم العربي حول هذا الموضوع.

وهنا سأل آزولاي:

– أتعتقد أن ثمة إمكانية لاستحداث قيادة فلسطينية تكون متوافقة معك.

– كلا! هذا مستحيل، أجاب بشير.

– هذه مسألة ستطرح أمام الرأي العام العالمي!

– ستكون هذه القضية، قضية الحكومة اللبنانية، جزم بشير. سوف نمنع الجميع من لعب الورقة الفلسطينية. سنقوم بعملية تنظيف للبلد للخمسين سنة القادمة، إذ إننا لا نثق بهم إطلاقاً.

– هل ستهاجمون السوريين؟، سأل أفرام كونه كان معنياً أكثر بالشق العسكري.

– أجابكم الوزير بالنفي. إلا إذا حاول هؤلاء أن يتدخلوا. إني أفيدكم بأن هذه النقطة لم يثرها شارون في جلسة ديسمبر – كانون الأول لمجلس الوزراء وقد وجهت إليه ملاحظة في هذا الصدد. فبالتالي، إن الوزراء ليسوا على بيّنة بذلك وأنتم وحدكم على علم بهذا الأمر.

وفي اليوم التالي، السادس والعشرين من يناير – كانون الثاني، حطّ رفائيل إيتان، رئيس أركان الجيش الإسرائيلي، يرافقه عشرة ضباط، في الزوق حيث كان ينتظره بشير ومعاونوه. وحسب ما درجت عليه الأمور، أمضى الإسرائيليون ليلتهم في الفيللا التابعة للموساد في طبرجا. وفي اليوم التالي قاموا بجولة حول النقاط الإستراتيجية في المناطق المسيحية والمواقع المسيطرة على "المواقع المعادية". طيلة هذه الجولة تكلم بشير ورفّول عن العملية؛ كان بشير يتكلم الإنكليزية إذ إن إيتان كان يفهم هذه اللغة دون الرغبة بتكلمها، فكان يجيب بالعبرية وأفنير آزولاي يترجم إلى الفرنسية. وكعادته كان رفّول يظهر وجهاً مقفلاً ويسأل أسئلة قصيرة ودقيقة حول ما كان يراه، وقد أكد بأن هدف إسرائيل من هذه العملية هو تحطيم الآلة السياسية العسكرية الفلسطينية، ورغم إرادته تجنب قدر الإمكان أي مواجهة من السوريين، كان يعتبر أن الحل المثالي هو انسحاب الجيش السوري من لبنان، إما بالمفاوضة أو جراء مواجهة عسكرية.

– إن العملية العسكرية أصبحت حتمية وستكون سريعة، قال مؤكداً. ونعتقد أننا

سنصل إلى صيدا بفترة 12 إلى 15 ساعة ومن ثم الانطلاق باتجاه طريق بيروت – دمشق، وقد يتعذر علينا إسكات جميع المدافع والراجمات السورية ونفضل أن لا نفاجئ الأميركيين.

فهم بشير على الفور أن الولايات المتحدة الأميركية ستكون على بيّنة من العملية مسبقاً وبالتالي سأل واشنطن، بواسطة روبرت ديلون، عن موقفها حول عملية عسكرية إسرائيلية ممكنة. كان يعتبر أن تحالفاً لبنانياً – إسرائيلياً – أميركياً بوسعه أن يحل المسألة اللبنانية، وحاول بالتالي أن يبني علاقات مميزة مع الأميركيين دون أن ينفّر الإسرائيليين. كان يعي تماماً بأن مصلحة واشنطن تجاه لبنان قد تكون ظرفية بينما العلاقات مع إسرائيل هي إستراتيجية بسبب حدودهما المشتركة.

علماً أنه ليس ثمة عملية عسكرية ممكنة دون موافقة الولايات المتحدة الضمنية – كون أميركا هي عرّاب اتفاق يوليو – تموز 1981 لوقف إطلاق النار – لذا قرر إسحق شامير ومناحيم بيغن وضع أميركا على بينة من أن إسرائيل سترد بعنف على كل انتهاك لوقف إطلاق النار هذا. وطلبا أيضاً إلى وزير الدفاع إيفاد وساغي إلى واشنطن سراً – حاول شارون أن يستحصل على إمكانية إيفاد بديل عن ساغي لأن هذا الأخير لم يكن يشاطره الرأي بالنسبة للملف اللبناني وكان يخشى شارون أن يشوه ساغي الرسالة – استقبل هيغ رئيس الاستخبارات العسكرية علماً أنه لم يكن مألوفاً أن يستقبل وزير الخارجية بنفسه رئيساً لمخابرات دولة أجنبية. استعمل الإسرائيلي لغة عسكرية فهمها بوضوح الرئيس السابق لقوات حلف شمال الأطلسي بوضوح.

– إذا تمادى "الإرهابيون" بانتهاك اتفاقية وقف إطلاق النار، فسترد إسرائيل بعملية عسكرية محدودة في لبنان محاولة أن لا تستفز سوريا.

نوه الأميركي بالتأثيرات السلبية لأي هجوم إسرائيلي ضد منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان على العلاقات الأميركية الإسرائيلية. ورغم هذا أكد هيغ أن الولايات المتحدة الأميركية يصعب عليها التدخل في حال انتهاك موصوف لاتفاقية وقف إطلاق النار، في حال كان هذا الخرق بمثابة تحدٍّ معترف به دولياً[1].

واستطرد مدققاً قوله بأن هجوماً إرهابياً خارج الشرق الأوسط لا يمكن اعتباره تحدياً.

كان هذا بالنسبة لشارون بمثابة ضوء أخضر أميركي مشروط، إنما المشكلة كانت آنذاك باحترام وقف إطلاق النار من قبل الفلسطينيين. و"العمليات الإرهابية" على حد تصنيفها من قبل الصحافة الإسرائيلية، كانت تتواصل على جبهات أخرى.

أما الأسئلة التي وجهها بشير إلى الإدارة الأميركية فأتى الجواب عليها ببرقية سلمه إياها

(1) David Kimché, *The last option*, op. cit., p. 145.

السفير الأميركي روبرت ديلون في 30 يناير – كانون الثاني 1982 :

" 1 – إن الولايات المتحدة الأميركية تعارض كل عملية عسكرية إسرائيلية في لبنان وقد أعلمت إسرائيل بذلك .

" 2 – إن الولايات المتحدة تعارض كل تحدٍّ وكل عمل انتقامي .

" 3 – في حال قيام إسرائيل بعملية عسكرية، يطلب إلى القوات اللبنانية أن تتحلى بضبط النفس مفسحة في المجال للولايات المتحدة بأن تعالج الموضوع دبلوماسياً حسب مقتضيات مصالحها في الشرق الأوسط .

" 4 – مجدداً وفي حال حصول هذه العملية، يطلب إلى القوات أن تتقيد بموقف الشرعية اللبنانية إذ إن الولايات المتحدة ستدعم ما تطلبه الشرعية اللبنانية " .

كانت اثنتان من النقاط الأربع تؤشران بأن التدخل الإسرائيلي أمسى مؤكداً – وأشار بشير إليها للسفير الأميركي .

– حذار أن تفسر هذه البرقية خطأ، نحن ضد التدخل! وبيغن يعلم هذا، قال السفير .

نوه رئيس القوات بأن الخارجية الأميركية لا تأخذ بعين الاعتبار سوى مصالح أميركا السياسية في المنطقة . بينما الوضع يختلف بالنسبة لبيغن إذ إن المسألة المطروحة هي مسألة حياة أو موت الدولة العبرية .

– أنت مقنع جداً أجاب السفير . إذا كنت أفهمك حقاً، علينا أن نغض النظر عن الدولة الفلسطينية؟

– أذكرك بأن الرئيس الأسبق جيمي كارتر أكّد أنه ليس هنالك أي زعيم عربي بين الذين اجتمع إليهم، أثار مسألة الدولة الفلسطينية . إن الحل النهائي للقضية يكمن في تحطيم المقاومة المتواجدة خارج الأراضي المحتلة والتفاوض مع فلسطينيي الداخل .

وعملية احتجاز المعلومات التي يمارسها الإسرائيليون حول أهمية العملية وحجمها أثارت أكثر وأكثر ارتباك القوات، حاملة قياداتهم على التشكيك جدياً بنوايا تل أبيب . لذا توجه مناحيم نافوت إلى طبرجا لتدوير الزوايا شارحاً للبنانيين أن تل أبيب تراقب عن كثب تطور القدرة العسكرية السورية . كان الموساد يعتبر أن دمشق أمست مقتنعة بأن ميزان القوى أصبح يميل لمصلحة بشير والميليشيا المسيحية وهذا يعني أن سورية قد تصبح أكثر تعنتاً وبالتالي أكد لقيادة القوات أن إسرائيل ستدمر جميع القواعد المدفعية السورية التي ستطلق النار . وبما يتعلق بالعملية العسكرية، قال مناحيم نافوت إن حجم العملية العسكرية قد قُرر، كما تقرر تحطيم القدرات العسكرية والسياسية للفلسطينيين . هكذا أصبح جنوب لبنان والشاطئ الممتد إلى بيروت معنيين بالعملية مؤكداً بأن الفلسطينيين الموجودين في مخيمي

البارد وويفل قرب طرابلس غير معنيين بالعملية كون هذين المخيمين لا يشكلان أي خطر على الدولة العبرية . وحاولت قيادات القوات إقناع نافوت بأهمية " الشمال المسيحي " بالنسبة لمشروعهم السياسي .

أجابهم مسؤول الموساد في لبنان :

– إذا هاجمتم الشمال هذا الأمر لا يعنينا، ولكننا نلتزم بالدفاع عنكم في حال مهاجمتكم – ما معناه – قوموا بعملية الشمال أنتم، وفي حال الصعوبات نحن نساعدكم .

أكد الإسرائيلي مجدداً موقف إسرائيل : القرار لا رجوع عنه . العملية حاصلة حتماً .

سأل رجل الموساد إذا كان من الممكن استعمال مرفأ جونيه لإنزال الرجال والعتاد . فأجابه بشير :

– هذا من شأنه أن يضفي النور على تعاوننا وفي هذه الحال قد يصبح مستحيلاً الإفادة من العامل السياسي .

لم يكن من شأن بعثة مندي إلى بيروت طمأنة القوات بل زادتهم ارتباكاً . العملية تقتصر على الوضع الفلسطيني وقوامها لا يتخطى جنوب لبنان . هكذا بقيت أسئلتهم حول البقاع والجبل غامضة . كانوا يتساءلون إذا كانت العملية المقترحة تكفيهم لتحقيق مشروعهم .

عندئذ جال في خاطرهم عدم التدخل بالعملية والطلب إلى إلياس سركيس أن يزايد عربياً .

وفي هذا الجو من الارتباك لبّى بشير وثلاثة من معاونيه دعوة بيغن فانتقلوا من الزوق بمروحية في 15 فبراير – شباط قرابة الساعة العاشرة مساء، والتحق بهم فور وصولهم إسحق حوفي، رئيس الموساد وتناولوا سوية العشاء في نتانيا بجو من الصداقة، على شاطئ البحر حيث كان جهاز الاستخبارات يستضيفهم . كان قد مضى عدة أسابيع على آخر اتصال بين اللبنانيين وبين حوفي إذ كان زعيم الموساد يشرف عن كثب على عملية إخراج الآلاف من الفالاشا من الحبشة مروراً بالسودان وأخيراً مروراً ببروكسل . وخلال العشاء وصل إلى حوفي تأكيد لتقرير مناحيم نافوت، والذي يقول إن بشير هو بحالة قلق ومن الضروري طمأنته . فكان منه أن اتصل برئيس الوزراء فور وصوله إلى منزله رغم الساعة المتأخرة .

وفي اليوم التالي ذهبوا إلى القدس بالسيارة ودخلوا إلى مكان إقامة بيغن، شارع بلفور، مروراً بالمدخل الجانبي متحاشين الصحافيين المتواجدين باستمرار أمام الباب الرئيسي .

عبروا من المطبخ إلى الأدراج وصولاً إلى غرفة استقبال صغيرة في الطابق الأول حيث كان بانتظارهم حوالى اثنا عشر رجلاً بين عسكريين ومدنيين . وبعد تبادل التحية، نظر رئيس الوزراء، وهو لا يزال في كرسيه بشدة وإلحاح إلى بشير قائلاً له :

– أريد أن أراك، منتخباً دستورياً، رئيساً للجمهورية، يعاونك رئيس سني وحكومة

اتحاد وطني. وأنا وشيمون بيريز متفقان حول المسألة اللبنانية. وعندما ندخل إلى لبنان لن يعارض أحد في إسرائيل. وأريد أن أطلب تشكيل قوة مشتركة لإخراج السوريين.

- هل سنساهم نحن أيضاً؟ سأل بشير.

- أنا أوافق. وعند زيارة فرانسوا ميتران لإسرائيل في شهر مارس - آذار المقبل سوف أقترح عليه أن تشترك فرنسا أيضاً في هذه العملية طالباً إليه أن يقابلك في إسرائيل.

- كيف سيكون لنا أن ندافع عن كياننا الجديد؟

- سنتكلم في الأمر لاحقاً. سندافع عنكم ولا تقوموا بأي شيء قبل أن تتأكدوا أننا وصلنا إلى نقطة متقدمة في عمليتنا العسكرية. ليس من الضروري أن ننزل في جونيه، إلا إذا طلبتم أنتم وبإمكانكم أن تطلبوا ما تريدونه من شارون على الصعيد العملاني.

وعندها وقف بيغن معلناً انتهاء المقابلة.

- أترون، أنا بصحة جيدة، منوهاً بالكسر الذي لحق بوركه منذ فترة.

بعد مقابلة بيغن نزل اللبنانيون الأربعة إلى قاعة الاستقبال الكبيرة في الطابق الأرضي حيث كان شارون في نقاش مع عدد من الضباط.

- أنا لا أشك إطلاقاً بتنفيذ العملية، أكد وزير الدفاع. أريد زحلة وبيروت حتى طريق بيروت - دمشق.

عندها تبخرت مخاوف قيادات القوات اللبنانية. بيروت هي ضمن العملية.

- إن الشمال حيوي لمشروعنا، أعلن بشير!

- لا أعتقد أنه بوسعنا أن نذهب إلى الشمال دون أن نصطدم بالسوريين وإذا كان ثمة من مواجهة فلا نعلم أبداً إلى أين سنصل. عند ذلك، قد يكون علينا أن نحتل كامل لبنان.

هذا وشرح اللبنانيون الأهداف العسكرية كما تتصورها القوات اللبنانية: احتلال السفح الشرقي لجبل لبنان وقسم من البقاع حتى ريّاق وصولاً إلى الحدود الشمالية لنهر أبو موسى والتي بمجملها تشكل خطوطاً دفاعية متينة. وافق شارون على مبدأ توسيع العمليات باتجاه السفح الشرقي للجبل وإلى ريّاق. فقد أكد فرضية الدخول على ثلاثة محاور: الساحل وجزين- الشوف والبقاع.

- الأميركيون موافقون على شرط أن يكون ثمة تحدٍّ فلسطيني يضرم النيران بالوقود، هذا ما قاله يهوشع ساغي.

- أما في ما يختص بالسوريين فالأميركيون يغسلون أيديهم، أضاف زميله من الموساد.

- نحن لن نقوم بحرب دون أهداف سياسية، ختم رفّول.

طمأنت هذه الجملة الأخيرة المسؤولين الأربعة في القوات. الهدف السياسي المنوه به

من قبل بيغن لا يمكن أن يكون إلا تأكيداً لقول هذا الأخير: بشير رئيساً للجمهورية اللبنانية ومع هذا، حتى ولو لم يتلفظ أحد بذلك، اتفاقية سلام مع إسرائيل. فكان رئيس الميليشيا المسيحية يهلل.

خصص الإسرائيليون قائد القوات اللبنانية بمفاجأة، فاصطحبوه إلى قاعدة جوية وألبسوه لباس الطيارين وصعد إلى المقعد الخلفي لطيارة مقاتلة من طراز سكايهوك، بمقعدين.

وأخذ الجنرال دافيد إيفري، قائد القوات الجوية الإسرائيلية، المقود للتحليق فوق لبنان بحماية سرب من المقاتلات من طراز إف 15 ولكن بشير لم يستفد إطلاقاً من هذه النزهة إذ إنه كان مريضاً طيلة القسم الأكبر من الرحلة.

اجتمع بشير منسجماً مع ذاته بالنسبة لخلق تحالف ثلاثي بين لبنان وإسرائيل والولايات المتحدة الأميركية، في 22 فبراير - شباط بالسفير الأميركي في لبنان روبرت ديلون في السفارة الأميركية ليتناقش معه حول النتائج السياسية لاجتياح إسرائيلي ممكن. ودون الدخول بالتفاصيل أردف بشير بأنه قد يحاول الأخذ بالسلطة فكان أن أجاب السفير بأن بلاده تعترض، مؤكداً أنه في حال حصول العملية، قد تدافع واشنطن عن مصالحها العربية رغم صداقاتها تجاه إسرائيل ومسيحيي لبنان. ثم نهض ورفع حجم صوت الموسيقى من جهاز hi-fi موجود في قاعة الاستقبال وانتقل جالساً بقرب مخاطبه.

- أعتقد أن الإسرائيليين سينزلون في جونيه ويحررون الدامور، هذا ما همس به الدبلوماسي في أذن بشير. في حال تحرير الدامور لا نريد أن تسلم هذه المدينة إلى كميل شمعون بل الى الدولة اللبنانية.

طلب قائد الميليشيا المسيحية عندئذ استعمال الهاتف وطلب إلى جوني عبدو الالتحاق بهم. وحضر مدير المكتب الثاني ولم يلزمه إلا بضعة دقائق كي يقطع المسافة الصغيرة التي تفصل وزارة الدفاع عن المقر الأميركي. وبعد أن جلس عبدو في كرسيه التفت بشير إلى ديلون سائلاً:

- أتقبلون بمساندة المسيحيين فقط؟ نحن فهمنا موقفكم، حاولوا أن تتفهموا حيرتنا: السلطة أم الأرض! لا نريد تقسيم البلد بين الطوائف ولا نريد سلطة مسيحية فقط، نريد حكومة مختلطة ترأسها شخصية سنّية. لن يسمح السوريون أبداً بذلك، قال عبدو معترضاً.

- إذا أردتم القيام بشيء ما، قال ديلون، تأكدوا من مشاركة رئيس مجلس النواب، كامل الأسعد، ورئيس الوزراء شفيق الوزان أو إحدى الزعامات الدرزية كأرسلان. المهم أن

تتبنوا حلاً يمكن لنا القبول به. نريد أن نراك رئيساً للدولة ولكن ليس دون مشاركة نبيه بري أو مسلمين آخرين في الحكومة الجديدة.

كان نبيه بري آنذاك أحد مسؤولي الطائفة الشيعية. ولد بري في سييراليون، ودرس الحقوق في الولايات المتحدة الأميركية وحصل على الجنسية الأميركية بزواجه الأول. وعندما أخرج الإمام موسى الصدر الطائفة الشيعية من سباتها العميق، بخلقه حركة أمل عام 1969، سبات سببته عشرات السنين من الظلامية الإقطاعية، أتى نبيه بري وتبع الحركة. أسهم ناشطاً بخلق حركة المحرومين – أمل، إلى جانب الإمام. وبعد اختفاء الامام في ليبيا عام 1978، أبعد نبيه بري أحد النواب الشيعة حسين الحسيني الذي كان على رأس الحركة والتزم بخط صدامي مباشر مع الحركة الوطنية والمقاومة الفلسطينية، آخذاً عليهم إفساد الوضع في جنوب لبنان المأهول بأكثرية شيعية. في تلك الفترة لم يكن لينوه بكلمة حول الخطر الإسرائيلي. كانت حركته مؤلفة من خليط من العائلات والجماعات التي كانت تتجه طوراً نحو المواجهة وطوراً نحو الحوار. وكانت هذه النزعة الأخيرة أقلية صغيرة هو منها.

– نحن على الموجة ذاتها، أكد بشير ممالقاً روبرت ديلون.

ثم توجه عبدو للسفير الأميركي سائلاً:

– في حال عملية إسرائيلية وتفتت التأثير العسكري والسياسي السوري، هل بإمكانكم مساندة أعمال الجيش اللبناني.

– هذا ممكن جداً. اسمعوا: إن النقاش هذا هو أهم نقاش قمت به في لبنان. إذا حصلت العملية العسكرية، من المستحيل ألاّ تعلموا بذلك قبل 24 أو 48 ساعة. في هذه الحالة لا تبوحوا لي بشيء إنما باستدعائكم احتياطكم. سأعلم أن العملية أمست قريبة جداً وأطلع حكومتي على الأمر.

تجاهل بشير اقتراح ديلون وتوجه إليه مهدداً:

– إيضاح آخر. في حال قررتم إعطاء الدول العربية الأولوية وتفضيلها على الدور اللبناني، لا تتفاجؤوا إذا اضطررنا يوماً أن نتبنى موقفاً انتحارياً من شأنه خلط الأوراق. نحن نعمل منذ أربعين عاماً على بناء "مزرعة"؛ حان الوقت أن يتوقف ذلك، نحن نريد بناء دولة بإمكانكم أن تعتمدوا عليها أكثر بكثير مما بإمكانكم أن تفعلوه الآن مع آخرين.

وبعد خروجه من عند السفير الأميركي طلب بشير إلى جوني عبدو أن يرتب له لقاءً مع محمد غانم لأنه كان يريد أن يبقى على اتصال مع السوريين لكي يحتفظ لذاته باختيار في حال لم تتوصل العملية الإسرائيلية إلى تحقيق أهدافها أو تلك المرجوة من قبل القوات. تمحور اللقاء مع مسؤولي القوات السورية حول التغطية التي تؤمنها وسائل الإعلام للمعارك الضارية

بين الجيش السوري والإخوان المسلمين وبشكل خاص في مدينة حمص – تلك المدينة التي كانت تقصف بالمدفعية الثقيلة منذ ما يناهز الأسبوع. طلب محمد غانم من بشير أن يضغط على الصحافيين، لأن تعليقاتهم تسمع أيضاً في سوريا، وأن تكون هذه التعليقات مؤيدة لدمشق وللموقف الرسمي. أجاب بشير من المستحيل أن تلجم صحافة حرة في منطقة حرة، وبعده، ورغم تنبيهات زاهي البستاني المستمرة، لم يتمكن بشير إلاّ أن يوجه هذا السؤال إلى غانم.

– إذا هاجمت إسرائيل الدامور وحررتها فما عساكم تفعلون؟

– مستحيل! لن نقبل ألاّ بحل عربي لمسألة عربية.

14

"متى"

حسب وعده لبشير الجميل، طرح مناحيم بيغن المسألة اللبنانية مع فرانسوا ميتران بمناسبة زيارة الرئيس الفرنسي إلى القدس في الرابع من شهر مارس - آذار 1982.

- سوف لن نهاجم لبنان ولكني لن أسمح بأن يصار إلى قتل جماعي للمسيحيين، هذا ما أعلنه بيغن للرئيس الفرنسي.

عند هذا عرض ساغي، الذي كان حاضراً في هذا اللقاء، الخرائط اللبنانية، وفصّل بالأرقام إعادة تسلح الفلسطينيين في لبنان.

- لدى منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان 30 دبابة مقاتلة من طراز T.54، و120 سيارة مصفحة، و150 مدفعاً مضاداً للطائرات، و90 مدفعاً من عيار 90 إلى 155مم و 300 قطعة مدفعية من نوع أخَفّ، وزورقين مسلحين متواجدين في مرفأ اللاذقية في سورية.

تأثر ميتران بهذه الأرقام ولكن رغم ذلك توقف الحوار حول لبنان بعد اقتراح الرئيس الفرنسي أمام الكنيست بضرورة استحداث دولة فلسطينية وتوجهه "للإسرائيليين والفلسطينيين داعياً إياهم إلى الاعتراف المتبادل" - ومن كرسيه أجاب بيغن:

- هذا لن يكون. إسرائيل لن تسمح بذلك إطلاقاً!

وفي اليوم التالي وفي الوقت الذي كانت طائرة الكونكورد للرئيس الفرنسي تقلع من مطار اللدّ كانت القوات اللبنانية تسلم تصاميم M لممثلي الموساد في لبنان. كانت التصاميم هذه مصاغة بالفرنسية وبنسخة واحدة. وقد جرى تصويرها وإرسالها إلى تل أبيب حيث ترجمت إلى العبرية وسلمت إلى هيئة الأركان.

والخطة العسكرية[1] المكتوبة بخط اليد بقلم حبر ناشف على دفتر أحمر حلزوني، هذه الخطة تفصل كيفية إفادة القوات اللبنانية من عملية عسكرية إسرائيلية كبيرة تصل إلى المناطق المسيحية حتى يقوموا بتحرير أكثر ما يمكن من الأراضي. ولما كانت قيادة القوات اللبنانية غير عالمة بالتحركات الإسرائيلية التكتيكية، انطلق كل من فادي أفرام وأنطوان بريدي من الفرضية التي تقول إن وحدات الجيش الإسرائيلي ستعبر الحدود ابتداء من روش هانيكرا وتواصل سيرها على خط مواز للشاطىء ومن ثم وعلى مستوى المطلة، تواصل الزحف باتجاه الشمال نحو النبطية وجزين من جهة، ومن جهة ثانية السير حتى مستوى الخيام ومن ثم الالتحاق بسهل البقاع. وانطلاقاً من هذه الفرضيات، حددوا هدفاً نهائياً ألا وهو السيطرة على أراضٍ

(1) أنظر الوثيقة الأصلية، ملحق 9.

تنطلق من الحدود الإسرائيلية حتى جبل لبنان (مع متغيرة واحدة حول البقاع جزئياً أو كلياً) وحتى جبل تُربل فوق مدينة طرابلس.

كان المشروع يلحظ تسعة أهداف هي في متناول القوات بالتعاون مع الجيش اللبناني أو أقله مع بعض وحداته وبمساندة الجيش الإسرائيلي:

خلق سد على مثلث خلدة من شأنه منع كل إمكانية انكفاء فلسطيني من الجنوب باتجاه بيروت.

السيطرة على بيروت مع أفضلية للجيش اللبناني في هذه العملية.

السيطرة على منطقة بعبدا حيث تتواجد وزارة الدفاع والقصر الجمهوري.

السيطرة على مرتفعات المتن حيث ينتشر اللواء 62 السوري والذي كان يهدد طريق بيروت - دمشق.

إعادة السيطرة على مرتفعات صنين، واستعادة مدينة زحلة "والغرفة الفرنسية".

السيطرة على سفح جبل لبنان الشرقي كخطوة أولى، ثم السيطرة على لبنان الشمالي كخطوة ثانية.

تحرير المناطق الشمالية التي تحتلها القوات السورية، منذ صيف 1978 (بشري وزغرتا والكورة) وحتى حدود جبل تُربل.

هجوم باتجاه عكار في حال قيام نزاع إسرائيلي - سوري أو إذا قامت صعوبات داخلية في سورية نتيجة لنكسة عسكرية في لبنان.

السيطرة على المناطق المتواجد فيها أكثرية مسيحية في البقاع علماً بأن هذه العملية مرتبطة ارتباطاً مباشراً بنتائج الهجوم الإسرائيلي في المنطقة.

وأما التصميم M السياسي[1] المصاغ بشكل جداول على أوراق كبيرة مسطرة فكان يفصِّل أخذ السلطة من قبل القوات اللبنانية كما كان يطرح قاعدة لكيفية المفاوضات بغية الوصول إلى معاهدة سلام.

كان هذا النص يوضح بأن الهجوم العسكري لا يمكنه أن يحصل، لتحقيق بعض الأهداف السياسية الدقيقة، إلاّ على ثلاثة محاور. محور الخط الساحلي المتعلق بالعمليات العسكرية ضد الفلسطينيين، محور البقاع ويهدف للتصدي للترتيبات السورية في المنطقة، أما المحور الثالث، محور الجبل فيدخل ضمن إطار المصالح العليا لسياسة لبنان الداخلية. كان زاهي البستاني وأنطوان نجم اللذان وضعا هذا التصميم يعتبران أن التواجد العسكري الإسرائيلي على المحاور الثلاثة عليه أن يستغرق ستة أسابيع أقله كمجال لأخذ السلطة بشكل "لطيف". إن التواجد الإسرائيلي هذا لم يكن ليحظى بغطاء سياسي من قبل القوات لأن هذا من شأنه أن يهدم إمكانية مشاركة الطوائف الإسلامية في إدارة البلاد الجديدة. إن هذا المشروع كان يعتبر أن اكتشاف التعاون العسكري المسبق بين القوات والجيش الإسرائيلي من شأنه أن يحد كثيراً من الدور الذي كان قائد القوات اللبنانية يريد أن يلعبه ألا وهو دور "منقذ الأمة". في هذا السياق كان على سعد حداد قائد جيش لبنان الجنوبي أن يمتنع عن أي تصريح، وأخيراً هذا التصميم السياسي كان يلحظ استعمال تعابير خاصة، كالتعابير التالية: "انسحاب القوات الأجنبية من الأراضي اللبنانية أو "لجنة الهدنة" للتمويه عن التفاهم القائم بين القوات اللبنانية والجيش الإسرائيلي.

أما بالنسبة لأخذ السلطة فكانت تتمحور حول نداء مأساوي لرئيس الجمهورية، باتجاه جميع

(1) أنظر الوثيقة الأصلية، ملحق 10.

المسؤولين السياسيين في البلد بغية تشكيل حكومة جديدة بحيث تعود للقوات الوزارات التالية (الدفاع والخارجية والمالية والإعلام) وبعد هذا انتخاب رئيس جمهورية جديد، وإعلان حالة الطوارئ وطرد الفلسطينيين الذين دخلوا إلى لبنان بعد 1967، وإلغاء جميع المعاهدات المنجزة بين لبنان ومنظمة التحرير الفلسطينية، وتشريع القوات اللبنانية بتحويلها إلى نوع من الحرس الوطني متيحاً لها التحرك الحر على كامل الأراضي اللبنانية والقيام أيضاً بمفاوضات مباشرة مع تل أبيب لتطبيع العلاقات مع الدولة العبرية.

ذهب آريل شارون إلى الولايات المتحدة في حين كانت واشنطن مربكة بعض الشيء بسبب "أصوات الجزمات العسكرية" وكان على الإدارة الأميركية أن تنبه إسرائيل تباعاً. في هذه الأثناء إذاً، وصل شارون وختم أمام وليام كاسي خارطة تمثل لبناناً مسيحياً "ضفة غربية إسرائيلية وأردن فلسطيني" (1). عند هذا بلّغ كاسي مخاوفه على لبنان وعلى معاقل منظمة التحرير الفلسطينية المتواجدة فيه. كان مدير السي آي إي يقدر النمط البلدوزيري لشارون تقديراً حسناً وكان يرى فيه ناشطاً ولكن أيضاً إستراتيجياً.

– . . . رجاءً لا تشتكوا لاحقاً. إذا لم تريدوا أن تتدخلوا في لبنان ستتدخل نحن – هكذا هدد الوزير الإسرائيلي. نحن لن نقبل إطلاقاً هذا الوضع القائم.

لم يكن كاسي مخدوعاً. كان يعلم بكل تأكيد أن لبنان هو البلد العربي الذي سيسهل لتل أبيب أن تبسط سيطرتها عليه وكان مقتنعاً بأن شارون يحاول أن يخلق وضعاً يبرر أي هجوم عسكري إسرائيلي. الخارجية الأميركية وفيليب حبيب كان لهما التحليل ذاته ولكنهما لم يكونا كما كان الحال في وكالة المخابرات المركزية، متسامحين مع شارون. وفي الثاني من مارس – آذار ابتدأ موفد الرئيس الأميركي رونالد ريغن، يرافقه موريس درابر بجولة خامسة في الشرق الأوسط والأدنى. الجولات الأربع الأخيرة لم تتمكن من إحراز أي تقدم سوى اتفاقية وقف إطلاق النار في 24 يوليو – تموز 1981 وهذه الاتفاقية تعود إلى الجولة الأولى. والجولات الثلاث التي تبعت الجولة الأولى لم تؤدِ إلى شيء وفي هذه الأثناء تم ضم الجولان وتسليح كثيف للسوريين والفلسطينيين. وفي العاشر من مارس – آذار استقبل فيليب حبيب بشير الجميّل إبان مروره في بيروت وذلك في مكان إقامة السفير الأميركي:

– إذا اعتقدتم أنه يكفي أن تقوم إسرائيل بعملية عسكرية، كي يختفي الفلسطينيون فأنتم على خطأ، مؤكداً له بأن هذا سيكون كارثة كبيرة.

– وإذا بقيت الأوضاع على ما هي عليه فما عساه أن يكون؟ أجاب بشير.

– لا أدري. ولكن ما أعرفه هو أننا نرفض أن يقرر الإسرائيليون ودون مبرر شن عدوان على الفلسطينيين والسوريين. قد نوافق، في حالة قصوى، إذا كان وضعكم سيئاً للغاية.

– قمنا نحن بما طلبتموه، كل ما طلبتموه، وبعد هذا لم يتغير شيء. وهكذا تسمحون لأنفسكم بانتقادنا كما يفعل ديلون. أضعف الإيمان أن تطلبوا إليه السكوت.

ردة الفعل هذه كان سفير فرنسا بنفسه قد اقترحها على قائد القوات اللبنانية. تصور ديلون هذه المناورة ليستعجل الإدارة الأميركية بإرسال الأسلحة التي وعدت بها الولايات المتحدة القوات اللبنانية. والتي ما

---

(1) Nadine Picaudou, *La déchirure libanaise*, Ed. Complexe, 1989.

برحت تتأخر. في البرقيات التي كان يرسلها إلى واشنطن كان ديلون يؤكد على ثقة بشير المتزايدة حيال إسرائيل على حساب الولايات المتحدة الأميركية. وكان لا يبرح يؤنب بشير كي يتيح له المجال بالإجابة.

– أتيت إلى الولايات المتحدة، استكمل بشير، وتوافقنا على مساعدة معينة كان عليكم أن تمنحونا إياها، ونحن ما زلنا ننتظر. لماذا تريدون أن أقول كلا لبيغن وأنتم لا تلتزمون بوعودكم؟

والتفت فيليب حبيب إلى موريس درابر سائلاً إياه بلهجة ناشفة عن سبب هذا التأخير. فأجاب مساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأوسط مذكراً بأن ثمة مهلاً إدارية لا يعرف أسبابها. الحقيقة هي أن الأميرال بوبّي راي إنمان المدير المساعد للمخابرات المركزية، كي يؤكد معارضته لبشير، كان يتمنع عن توقيع الوثائق اللازمة لتسليم صفقة سلاح سرية بقيمة عشرة ملايين دولار أميركي، صفقة كانت الإدارة الأميركية وعدت بها القوات.

– أنا الممثل الشخصي للرئيس وبهذه الصفة قمت بوعد وأريد أن يحترم، هذا ما قاله حبيب بلهجة حاسمة لدرابر.

– التفت المبعوث الأميركي إلى بشير سائلاً إياه بلهجة تحببية:

– أتريدون أن تتدخل السعودية مجدداً.

– ماذا تريدون أن تفعل؟ لجنة الرقابة أقلعت عن مهمتها في أول مارس – آذار. السفير السعودي ترك البلاد. سفير الكويت ذهب هارباً. السفارة الجزائرية وسفارة فنلندا مهددتان.

في هذه الفترة كان الفلسطينيون والسوريون يمارسون ضغوطاً كبيرة. كل الذين كانوا يشتركون "باللعبة الأميركية" أو كانوا فقط يشكك بأمرهم، كان يصيبهم بعض الكوارث. اغتيال السفير الفرنسي لوي دولامار ونسف السفارة العراقية كانا قد برهنا أن الحصانة الدبلوماسية لم تكن إلا سراب. وتزايد فقدان الأمن في بيروت حمل السفارات إلى الانكفاء، فالسفير الألماني هورست شميت – دورندّن الذي كان قد تلقى بعض التهديدات كان يعد العدة للذهاب سراً. وسفير بريطانيا العظمى، دافيد روبرت، كان قد استدعي لاستشارات ما زالت قائمة، وحتى زوجة روبرت ديلون كانت "ذهبت إلى عطلة"، ولم يبقَ في لبنان سوى ثلاثة سفراء عرب وهم الجزائري والليبي وسفير الإمارات العربية المتحدة.

في هذه الأجواء انتقل أربعة مسؤولين في القوات إلى تل أبيب على متن مروحية بتاريخ 15 مارس – آذار لمناقشة التعميم الذي يحمل رمز 88 في وزارة الدفاع الإسرائيلية صباح اليوم التالي. في هذا اللقاء أكد رئيس هيئة أركان الجيش الإسرائيلي، رفائيل إيتان، لمخاطبيه، نية إسرائيل بالتحرك في حال مهاجمتها.

بات القرار محتوماً.

ثم أعطاهم تفاصيل حول الخطورة الإستراتيجية التي يمثلها الوجود الفلسطيني والوجود السوري في لبنان ولكنه التزم الصمت حيال الأسباب التي من شأنها أن تطلق الهجوم ولم يتمكنوا أن يأخذوا منه سوى ترداده العبارة التالية:

إذا هوجمنا . . .

وعلق رفول على التصميم العسكري مؤكداً توافقه مع مشاريعهم "إذا" خَلُصَ إلى تنفيذها . . .

وتطرقوا إلى "مسألة بيروت الغربية" التي من شأنها أن "تعالج" من قبل الجيش اللبناني ملحاً على هذه النقطة. عند هذا، وعملاً بإنذارات الاستخبارات العسكرية المتكررة، أنهى رئيس الأركان الاجتماع بالتنبيه التالي:

- لا تحاولوا أن تزجونا بحرب كلية .

خرج اللبنانيون الأربعة من هذا الاجتماع بشعور واضح حول جهل الإسرائيليين أنفسهم مدى الهجوم الإسرائيلي المرتقب . لم يحدد أي هدف نهائي . وبالواقع سيكون الوضع على الأرض والوضع على الصعيد السياسي متلازمان ، وهذان الواقعان يشكلان عوامل أساسية في سياق القرارات العسكرية بعد عملية احتلال الجنوب . وبعد الظهر انتقل قياديو القوات على متن مروحية إلى الجولان حيث التقوا الجنرال أمير دروري قائد جبهة إسرائيل الشمالية ، وبهذه الصفة قائد العمليات المرتقبة في حال حصولها . طويل القامة ، ضعيف الجسم يرتدي بذلة عسكرية من لون أخضر أميركي ، ربما استحصل عليها منذ أن قام بعملية تدريب في الولايات المتحدة ، دعاهم بالعبرية - لأنه كان يرفض أن يتكلم غيرها - لحضور مناورة اللواء المصفح المجهز بدبابات مركافا[1] ، تحت إمرة العقيد مائير داغان ، قبل أن يتركهم يقفلون عائدين إلى لبنان على متن مروحية .

في أواخر مارس - آذار 1982 على الجبهة الإيرانية - العراقية ، كانت الهجمات العراقية المتتالية المسماة "فجر" قد ابتدأت بالازدهار . هذا وكانت الوحدات العراقية تتقهقر أمام الأفواج البشرية الإيرانية التي كانت تنقض صارخة "الله أكبر" وعلى طول 800 كلم كان جيش صدام يتراجع في عدة نقاط من هذا الخط . جميع الصحف اليومية كانت تنشر ما ورد في برقيات الوكالة الفرنسية للأنباء الصادرة عن مراسل AFP في ديزفول وهو أحد الصحافيين القلائل الذين تمكنوا من الوصول إلى مناطق القتال . وكانت هذه الأنباء تصف مئات الدبابات المحروقة والمتروكة على أرض معركة قوامها أراض حفرت فيها الخنادق مما كان يؤشر إلى ضراوة المعارك في ديزفول وسوز . أحدث هذا التقهقر تقارباً مدهشاً للدول العربية التي التفت حول العراق . المسؤولون العرب خاصة الخليجيون اتصلوا بصدام حسين مؤكدين له مساندتهم ، والملك حسين قام بسفرة سريعة إلى بغداد ، أما القاهرة التي لم يكن بينها وبين العراق تمثيلاً دبلوماسياً منذ أن دعا صدام إلى قمة عربية عقدت في العراق كي يطرد مصر من الجامعة العربية إبان معاهدة السلام بين إسرائيل ومصر ، رغم هذا كله اعترف حسني مبارك علانية بما يلي :

- مصر تبيع سلاحاً إلى العراق وهذا لا يعني أننا نوافق على مبدأ الحرب بحد ذاته .

دمشق وحدها كانت فرحة بذلك ، متمادية بانتقادها وتنديدها بالعراق .

أما النزاع الثاني فقد ابتدأ في أبريل - نيسان 1982 واستأثر بأنظار العالم الغربي . في العاشرة مساءً قام بعض مغاوير الجيش الأرجنتيني بإنزال على جزر فوكلاند التي تملكها بريطانيا العظمى . وبغضون ساعات قليلة ودون قتال ، سيطروا على ثكنة البحرية الملكية الصغيرة ودخلوا إلى مدينة بورت ستانلي . وهكذا أصبح الفوكلاند ، جزر الملويناس . أدان العالم الأرجنتين ، وسارعت لندن إلى التعبئة . في هذه الأجواء أصبح

---

(4) وهي المركبة بالعبرية . صعد النبي إيليا إلى السماء على مركبة من نار ، حسبما هو مذكور في الكتاب المقدس . أعطي هذا الاسم للدبابة الثقيلة ، من صنع إسرائيلي ، المجهزة بمدفع عيار 120 مم . يتألف تصفيحها من صفائح قابلة للفك ومتفجرة . وهي المصفحة الوحيدة الثقيلة المزودة بمدفع هاون في داخلها .

الوضع في جنوب لبنان ذائباً في خضم هذه الأزمة الصعبة وبالتالي خف الضغط الأميركي والأوروبي على إسرائيل وهكذا أمست الأوضاع العالمية تسمح بتدخل عسكري إسرائيلي . وكان الفلسطينيون يعون بذلك . منذ عدة أشهر كان الفلسطينيون قد أدركوا أن شارون ماضٍ لا محالة بحرب ضدهم في لبنان . فقامت القيادة الفلسطينية باستحضار ثلاثة ألوية : اليرموك ، والقسطل ، والكرامة وبعض وحدات الدعم مزودة بدبابات قديمة من طراز T54 أو صواريخ كاتيوشا ، وانتشروا في لبنان الجنوبي وكانوا يشكلون ما مجموعه 9000 من المقاتلين . والسوريون بدورهم ركبوا جهاز إنذار في قلعة الشقيف التي تقع على ارتفاع 717 م عن سطح البحر وتسيطر على مجمل الجنوب اللبناني وتصل الرؤيا منها إلى أعماق الجليل . كان للفلسطينيين جهاز مراقبة للمدفعية الذي كان قد نسق إطلاق صواريخ الكاتيوشا على إسرائيل . ضمن هذا السياق أضافت أجهزة الاستخبارات السورية بعض الأجهزة الالكترونية - الينت وسيغنت وفيزينت وهي آخر ما صنع من قبل الاتحاد السوفياتي . لم تكن هذه التحضيرات والتجهيزات بالنسبة للمسؤولين العسكريين الفلسطينيين تهدف إلى صد هجمة إسرائيلية كبيرة ، كانوا يعلمون أنه ليس بإمكانهم ذلك فالهدف كان إذاً المقاومة كي يؤخروا التقدم الإسرائيلي لأطول مدة ممكنة متيحين للمسؤولين السياسيين أن يوصّلوا نداءهم إلى الأسرة الدولية وتعبئة العالم العربي الملهو بمشاكله الداخلية ، كما هو وضع الأسرة الدولية الملهوة أيضاً بمشاكلها .

وفي 3 أبريل - نيسان 1982 ، اغتيل ياكوف بارسيمانتوف المستشار الثاني في السفارة الإسرائيلية في باريس على يد امرأة فور خروجه من منزله في الدائرة XVI من باريس . وليومين منصرمين أطلق النار على مكاتب المشتريات الإسرائيلية في بولفار مالزيرب في باريس . وازداد كثيراً الضغط الذي كان متواجداً وبسرعة . دعا بيغن حكومته بسرعة . الوزير أليعازر شوستاك ، وزير الصحة ، جمّد القرار المسبب للعملية العسكرية مبدياً ملاحظته عن عدم أخذ أي احتياط لحماية الدبلوماسي الإسرائيلي . استجاب بيغن ولكنه طلب تشكيل لجنة قوامها ستة وزراء للقيام بردة فعل سريعة في حال تكرار ما حصل . بهذه الطريقة استبعد عن القرار جميع الذين بإمكانهم أن يلجموه .

وبعد عدة لقاءات على أرفع المستويات وجه أبو أياد ، الرجل الثاني في منظمة التحرير والمسؤول عن أجهزة الاستخبارات الفلسطينية ، برقية إلى جميع الفصائل الفلسطينية طالباً إليها بوضوح إلى الكبيرة منها والصغيرة ، بما فيها الصاعقة ، الامتناع عن أي هجوم على الإسرائيليين وبشكل خاص ضد الدبلوماسيين في الخارج . في اليوم عينه وفي أول الأمسية انتقل كل من بشير الجميل وإيلي حبيقة ورئيس جهاز الأمن في القوات وثلاثة مسؤولين سياسيين للميليشيا يرافقهم فيليب ، صعدوا على متن مروحيته من طراز Bell في الزوق . وبعد ساعة وعشرة دقائق هبطوا في مطار المروحيات في تل أبيب حيث كان بانتظارهم مناحيم نافوت (مندي) وميكي آرمور (ماريون) . اقتيدوا على الفور إلى استراحة الموساد في شمال المدينة .

بداية التقوا بإسحق حوفي . وعرض له بشير تقريراً عن اللقاء التضامني مع لبنان الذي نظمته القوات اللبنانية طيلة ثلاثة أيام في فندق البستان ببيت مري : تمثل فيه 15 بلداً منهم فرنسا والولايات المتحدة وبريطانيا .

-لقد أعطت مداخلتا الفرنسيين جان إدرن هالييه وجان ديليبوفسكي ، أولهما المعادي لإسرائيل والثاني المناصر للفلسطينيين ، الانطباع للصحافة بأننا كنا حياديين . كان ذلك ممتازاً ، ختم قائد القوات حديثه .

– هل من جديد عن الأسلحة والذخائر التي وعدتم بها من قبل الأميركيين؟ سأل زعيم الموساد.
– كلا. وكفينا عن المطالبة بها.
– ولكن لا أفهم شيئاً، لقد أخبرونا أن الشحنات في طريقها إليكم.
– لست على علم بالأمر، صارحه بشير قبل أن يروي له النقاش الذي دار بينه وبين فيليب حبيب وموريس درابر في هذا الشأن.

انضم إليهم الجنرالان يهوشع ساغي وأفراهام تامير على العشاء. وتامير هو رسمياً مساعد آريل شارون. لقد عيّن على رأس قسم التخطيط والإستراتيجية في وزارة الدفاع. وكان قد عزز هذا القسم جاعلاً منه هيئة أركان ثانية متفانية بالكامل لمشاريع الوزير. وكان رئيسه قد طلب منه للتو أن يدرس إمكانية تنظيم انقلاب في إيران لصالح ابن الشاه. أثناء جلوسهم إلى المائدة كان اللبنانيون يراقبون ميكي آرمور (ماريون) كيف يأكل "بكلتا يديه" من دون أن يفارق نظره الأطباق. إن دبابيس الوخز بالإبر المشكولة بأذنيه لم تفلح بتخفيف وزنه بل هي أثرت عكسياً ورفعت من شهيته وبالتالي زادت من وزنه. وصل شارون في منتصف الوجبة وجلس من دون أي مراعاة للبروتوكول. وثارت ثائرته بسبب مقتل ثلاثة إسرائيليين من قبل "إرهابيين".

– وصلنا إلى نقطة ينبغي علينا أن نتصرف، قال ذلك غاضباً. ومتى نفذنا عملنا[1]، سيرد الآخرون وسيكون ذلك رداً استفزازياً يتيح للوضع أن يتطور.

كانت هذه المرة الأولى التي لا يستعمل فيها مسؤول إسرائيلي كلمة "إذا"، إنما استعمل كلمة "متى". فلم تعد العبارة "إذا" فعلنا... إنما "متى" فعلنا...

"ليس هنالك إلا تحديد تاريخ"، هذا ما قدره اللبنانيون. تطرق شارون إلى التصميم M العسكري كما أبدى تحفظاً على العملية الملحوظة في البترون شمال منطقة نفوذ القوات اللبنانية. لم يكن يعلم إلى أين سيصل الهجوم ولكن تصاميمه المفضلة كانت تلك التي تحدد الهجوم حول السيطرة على طريق بيروت – دمشق. كون الجيش الإسرائيلي سيكون على هذا المحور، سيصار إلى اللقاء بالمنطقة الجنوبية للقوات اللبنانية. هكذا تعزل بيروت الغربية مما من شأنه خلق الضغط الضروري لتغيير الحكومة. رسمياً لم تكن هذه التفاصيل مدونة فاعتبر اللبنانيون أن بيغن وحده على بينة بما سيحصل كونه هو الوحيد الذي وضع بشير بالصورة ألا وهو إرادته هو بأن يصل بشير إلى سدة الرئاسة، وهذا لا يمكن تحقيقه إلا إذا وصل الجيش الإسرائيلي، أقله إلى بيروت.

– إن ما يقلقني في حال قيامكم بالهجوم على البترون هو أنكم ستجدون أنفسكم بعيدين عن مرور الأحداث التي ستحصل جنوب البترون. نحن لا يمكننا أن نقول لكم ماذا عليكم أن تفعلوه وماذا عليكم ألا تفعلوه، ولكننا نعتبر أن كل ما هو في الشمال يشكل خطراً لأنكم تكونون بعيدين وبرأينا بيروت مهمة جداً. لا يمكنني إلا أن أقترح عليكم أن لا ترموا أنفسكم في معارك إن لم تكن بمنتهى الضرورة.

وهنا تدخل إيلي حبيقة، وبصوت معتدل، قال بأنه بقي الشمال ومناطق بعلبك والهرمل وعكار خارج مسرح عمليات الجيش الإسرائيلي فسيحاول ربما السوريون أن يبقوا في هذه المناطق والفلسطينيون قد يقيمون قواعد جديدة. هذه المناطق بإمكانها أيضاً أن تستخدم لتشكيل دولة لبنانية أخرى خاضعة لسورية أو

(1) قالها بالانكليزية When we will do it.

للفلسطينيين وهذا من شأنه إن يؤثر سلباً على عملية استحداث السلطة الجديدة. وهنا قال بشير مزايداً:
– إن الشمال هو بشكل عام مسيحي وهو يمثل عددياً نصف سكان هذه الطائفة، وبالتالي يصبح الشمال عنصراً أساسياً في مشروعنا.
– لا يمكننا إطلاقاً أن نفكر بهذه العملية دون إدخال الشمال فيها يجب أن تكون مناطق بشري، والكورة والبترون تحت سيطرتنا ونحن مستعدون أن نذهب إليها دون دعم جوي.

وسأل شارون:
– ماذا عسى الجيش اللبناني أن يفعل في الشمال؟
– قد يساندنا، أجاب بشير دون تردد ولكنه لم يكن متأكداً من ذلك، واستطرد قائلاً: إذا تعديتم المحور البري بيروت – دمشق باتجاه الشمال وأخذتم على عاتقكم الخط المؤدي إلى زحلة فقد تخففون عنا الهجوم ضد اللواء السوري 62، المتواجد في سفوح المتن. هذا ما يتيح لنا الاهتمام بالشمال إذ الإمكانيات ليست متوافرة لدينا للقيام بهجومين بالوقت نفسه.
– في أي وقت تريدون أن تقوموا بهجومكم على الشمال، سأل الوزير؟
– عندما تصل قواتكم إلى الدامور على المحور الساحلي وإلى عين داره على محور الجبل.
– هكذا! في هذه الحالة تصميمكم جيد، وقد اعتقدت بأنكم ماضون فور دخولنا إلى الأراضي اللبنانية ورغم هذا فعليكم ألا تتحركوا ساكناً قبل أن نقترب من محور بيروت – دمشق. إذا وصلنا قد نهتم بما هو شمال هذا المحور وبالتالي اللواء 62، وهذا لا يشكل إلا بعض الكيلومترات الإضافية.

ومن ثم انتقلوا إلى دراسة وضع بيروت الغربية. وفي هذا المجال لم يكن ثمة أيّ خطة مفصلة. من جهة القوات كانوا يعتبرون أن على الجيش اللبناني أن يلعب دوراً ما بهذه العملية وقد اجتمع آنذاك فادي أفرام إلى العميد الركن ميشال عون لتدارس جميع الاحتمالات. تم الاتفاق بين الطرفين على إرسال 2500 جندي بإمرة عون يضاف إليهم 500 عنصر ينتمون إلى المكافحة بإمرة جوني عبدو – هؤلاء جميعاً يدخلون إلى بيروت الغربية بعد تحضير الأجواء بقصف مدفعي كثيف أو بغارة جوية كبيرة على المخيمات الفلسطينية وعلى الضاحية الجنوبية – بذريعة حماية السكان.
– أهي وحدات فعالة؟ سأل الوزير.
– هذه الوحدات واجهت جيش التحرير الفلسطيني في نيسان 1981، وكانت حسنة الأداء.

واقترح شارون على القوات تعيين ضباط ارتباط إسرائيليين على جميع الطرق التي ستسلكها القوات بتقدمها، بغية توجيه الدعم الجوي المحتمل لاسلكياً ولتنسيق عملية اقتراب الجيش الإسرائيلي من المناطق المدافع عنها من قبل القوات لتحاشي كل مغالطة. وعلى هذه العناصر أن تأخذ مواقعها قبل ابتداء العملية في حال هجوم وقائي أو تدخل سوري تضليلي. في الوقت نفسه، على القوات اللبنانية أن تعين ضباط ارتباط من القوات كي يكونوا ضمن الوحدات الإسرائيلية وسيطاً بين الجيش الإسرائيلي والسكان، أثناء عملية التقدم.

وسأل أحد "القوّاتيين"، لديّ سؤال ساذج – استعملتم في ابتداء الحديث عبارة "تحرش حقيقي" ماذا تعنون بذلك؟

هنا تبسم شارون ابتسامة أضاءت وجهه:
– نحن نثق بكم وإذا علم الآخرون فلن يفعلوا شيئاً. هذا موضوع دقيق للغاية وليس بإمكاني أن أضيف

شيئاً على هذا . وعلى كل حال قلنا لكم كل شيء تقريباً . أطلب إليكم ألاّ تتحركوا ساكناً الآن وأريد أن تعطونا لائحة الأسلحة والذخائر التي تحتاجون إليها . أتعتقدون أنه في حال توجيه ضربات جدية قاسية لقيادة منظمة التحرير الفلسطينية ، أن هذا يكفي كي يهرب الفلسطينيون؟

لا أعتقد ذلك ، أجاب بشير ، إلاّ إذا شعروا بعدم أمان كلي .

– هل المارينز هم الذين يؤمنون حماية مباني السفارة الأميركية؟ سأل ساغي .

– المارينز متواجدون في الداخل والحماية الخارجية موكلة إلى فتح .

في عام 1972 طلبت واشنطن من ياسر عرفات حماية سفارتها في بيروت ولأسباب سياسية داخلية واضحة لم يكن من الممكن أن تؤمن الحماية هذه من قبل الفلسطينيين . عندها جند "الختيار" حراساً من بين الشيعة اللبنانيين الذين كانوا يعملون لمنظمة التحرير ودربوا عسكرياً في الولايات المتحدة الأميركية وشكلوا وحدة حماية أطلقت على ذاتها أسم "لواء الجهاد الإسلامي" . بعد هذا عاد كثيرون من هؤلاء إلى ما خلف الأطلسي ، لمتابعة دورات تدريب تحسينية نظمتها وكالة الاستخبارات المركزية .

وفي اليوم التالي قام إسحق شامير ، وزير الخارجية الإسرائيلية ، و"نوه بتحضير الاغتيالات انطلاقاً من لبنان مركز الإرهاب" معلناً أن بلاده مستعدة "لاستعمال القوة ضد الفلسطينيين" رغم اتفاقية وقف إطلاق النار العائدة ليوليو – تموز 1981 مع القيادة الفلسطينية . أخذ هذا التصريح الصادر عن عضو في الحكومة الإسرائيلية بجدية من قبل منظمة التحرير وطلب أبو الزعيم بواسطة جوني عبدو مقابلة بشير الجميّل .

أبو الزعيم واسمه الحقيقي عطالله عطالله ، ضابط سابق في الجيش الأردني ، كان قد ترك الجيش الأردني بعد المعارك التي واجهت خلالها منظمة التحرير الفلسطينية فرق البادية التابعة لملك الأردن في أيلول 1970 . كان أبو الزعيم قصير القامة وشعره مجعد ، وبعد أحداث أيلول أقام في لبنان وتزوج من مسيحية من بلدة بحمدون واسمها فادية أبو رجيلي وكان مسؤولاً على الاستخبارات العسكرية الفلسطينية وقائداً للوحدات الفلسطينية المتمركزة في الجبل . كان يعتبر من قبل الفصائل الفلسطينية الماركسية في حركة فتح كموال للأردن ، إذاً "خائناً" . وتوصل هذا الخط الماركسي إلى إقصائه عن كل قيادة . منذ ذلك الحين أصبح أبو الزعيم مضطلعاً فقط بمهام المستشار العسكري لأبو عمار ، ولكنه بالواقع كان أبو عمار يعتبره رجل الارتباط مع المسيحيين حيث كانت له علاقاته وخاصة بواسطة عائلة زوجته . دعاه رئيس القوات في 4 أبريل – نيسان إلى مائدته برفقة زوجته . وخلال الغداء الذي شارك فيه زاهي البستاني وإيلي حبيقة ، دار الحديث حول موضوع واحد ألا وهو العملية العسكرية المحتملة .

– سيهاجمون ، ولكن الأميركيين والروس سيتدخلون ، قال أبو الزعيم .

– إن العملية أوسع بكثير مما تتوقعون ، أجاب بشير الجميّل مثيراً تعجب زاهي البستاني . واستطرد بشير بقناعة مزيفة : يجدر بنا أن نلتقي مع أبو عمار والأخ إلياس (سركيس) . وسنفكر سوية حول وسائل مواجهة الاعتداء الإسرائيلي . وبما يتعلق بنا سوف لن نقوم إلا بما هو من مصلحة بلادنا . أبلغ أبو عمار أننا مصممون على استرجاع كامل الأراضي اللبنانية وانطلاقاً من هذا المبدأ كل نقاش يصبح ممكناً .

دون أن يعتقد أن ما قاله سيؤدي إلى نتائج فعلية ولكن الجميّل كان يأمل أن الفلسطينيين قد يفكرون بحل سياسي . على كل حال فالعملية أمست قريبة وابتدأت تل أبيب بعدم الأخذ بعين الاعتبار المرحلة الأخيرة لانسحابهم من صحراء سيناء والمحددة في 25 أبريل – نيسان . بالأمس كان قد

وصلت رسالة من رفول تعلن عن وصول ضباط الارتباط وهذا كان بمثابة مؤشر للعملية الوشيكة .

وفي الثامن من أبريل – نيسان ، قليلاً بعد منتصف الليل ، أنزلت المروحيات سوبر فرلون في الزوق عشرة ضباط مع سياراتهم "الجيب" المزودة بالتجهيزات اللاسلكية . وهكذا وصلت إلى لبنان طلائع عناصر الجيش الإسرائيلي المرتبطة بالعملية العسكرية الوشيكة . قطعوا الكسليك وجونيه والمعاملتين حين اصطُحبوا إلى فيللا الموساد في طبرجا . ووضعت السيارات إلى جانب الحائط وموِّهت . العملية أمست إذاً ممكنة بين يوم وآخر . ولكن الوضع السياسي الداخلي في إسرائيل تدهور بسرعة : أربعون يوماً من الحصار لم يتمكنوا من إيقاف الإضراب العام للدروز احتجاجاً على ضم مرتفعات الجولان وفرض التشريع الإسرائيلي عليهم . كانوا يطالبون بإلغاء هذا التشريع المفروض عليهم وإطلاق سراح الموقوفين الدروز بسبب رفضهم بطاقات الهوية الإسرائيلية وتأكيدهم على مواطنيتهم السورية . وفي الجهة الثانية من البلاد كانت المظاهرات ضد الانسحاب من سيناء ، تزداد يوماً بعد يوم وصولاً إلى الذروة بمناسبة الفصح اليهودي الذي يحتفي بخروج اليهود من مصر .

يضاف إلى كل هذا ، الإعلان المباشر من قبل أحد المعلقين في التلفزيون الأميركي NBC جون شانسيلور الذي أعطى التفاصيل الكاملة المعززة بالخرائط للعمل العسكري الإسرائيلي في لبنان الجنوبي ، وهي عملية قد تُدخل إليه ما يناهز 1200 دبابة . كان هذا النبأ تسريباً نظمته واشنطن لإسقاط مشاريع بيغن ضد الفلسطينيين في الجنوب اللبناني . منذ هذا الإعلان وبسرعة قصوى أصبح التدخل الإسرائيلي ضد تجمعات الفلسطينيين في الجنوب اللبناني شيئاً شبه مؤكد بالنسبة للصحافة الأميركية . وفي العاشر من أبريل – نيسان 1982 خرجت الصحف بعناوين متعلقة بتهديدات المسؤولين الفلسطينيين ، وبتحضيراتهم العسكرية وردود فعل المعارضة الإسرائيلية ، وكانت المعلومات المتوافدة من عدة مصادر تفيد بأن اتفاق 24 يوليو – تموز 1981 لوقف إطلاق النار أصبح هشاً . وفي المساء ذاته أعلنت الشبكات التلفزيونية الأميركية بأن الهجوم ملحوظ ليوم الأحد المقبل أو على أبعد حد ليوم اثنين الفصح . وأعلن الناطق باسم الخارجية الأميركية : "علمنا أن ثمة تحضيرات عسكرية إسرائيلية" جارية ودعا الطرفين إلى "ضبط النفس" . وبعد يومين أذعنت إسرائيل وأعلن بيغن أن "إسرائيل قررت أن تضبط نفسها بناء لطلب الولايات المتحدة ، مفسحة في المجال لواشنطن للتوصل إلى تهدئة الوضع في المنطقة" . وفي اليوم التالي أوضح بيغن مجدداً : "لم نقرر اجتياحاً أو حرباً . الحكومة لم تقرر أن تجتاح لبنان" .

الانسحاب من سيناء وإجلاء ياميت ، حدثان احتلا المركز الأول بالنسبة للمعركة البحرية حول جزر الملوين والمعارك حول مستنقعات شط العرب . ياميت حي مدينة صغيرة بناها المستعمرون اليهود بواسطة الوكالة اليهودية في أحشاء الصحراء شمال سيناء ، بعد العام 1967 . كان 2000 معارض إسرائيلي وعدد من المتطرفين اليهود قد التجأوا إلى السطوح مفضلين الانتحار على الانسحاب . وفي 21 أبريل – نيسان حصلت عملية "اليمامة الحمراء" . أجليت المدينة بجوٍّ بسيكودرامي ، صورته تلفزيونات العالم بأسره . وبشكل أكثر تروياً هدمت المدينة واقتلعت الأشجار بواسطة جرافات الجيش . رسمياً صارت عملية الهدم كي لا تستعمل هذه المباني من قبل عناصر إرهابية ، هذا ما أكده الناطق باسم الوكالة اليهودية للمستعمرات . بالواقع كانت تل أبيب قد طلبت 70 مليون دولار لبيع الأبنية والتجهيزات ولم

تشاء القاهرة أن تدفع أكثر من 57 مليوناً. فرفضت إسرائيل واستفرد شارون بقرار هدم مدينة ياميت[1] مكلفة العملية 12 مليون دولار على عاتق الخزينة الإسرائيلية.

وأثناء انعقاد مجلس الوزراء في 21 أبريل – نيسان ترك الوزراء طاولة الاجتماع متجهين نحو شرفة القصر التي تطل على جنوب بيروت وعلى بعد 4 كلم منهم كانت قافلة من المطاردات والقاذفات تشك على خلده وكان الوزراء، يرون بوضوح تساقط القنابل من الطائرات حيث كان هبوطها ينتهي بانفجارات وتصاعد كتل من النار، كان هذا على أثر مقتل ضابط ارتباط إسرائيلي مفروز الى جيش لبنان الجنوبي بلغم. ولم تكن محلة خلده هي الهدف الوحيد فقد أغارت طائرات F15 و F16 ست مرات في غضون أربع ساعات على مواقع فلسطينية في الدامور والجيه تاركة وراءها أكثر من ثمانين ضحية، وهكذا تحطم اتفاق 24 يوليو – تموز لوقف إطلاق النار بعد تسعة أشهر من الوجود الفوضوي. وضعت كل فصائل المقاومة الفلسطينية بحالة استنفار قصوى ولكن مدفعيتها لم ترد على الغارات الإسرائيلية ووصلت حالة التوتر إلى أوجها. وفي إسرائيل كان المعارضون لمشروع شارون يبوحون به بغية تعطيله[2]. في هذه الأثناء أذاع الراديو الإسرائيلي أنباء وردت على لسان أبا إيبان في جامعة واشنطن في سياتل، أفشت الإذاعة وفي هذا النبأ أن الحكومة الإسرائيلية طلبت، لأسبوعين ماضيين، مساندة حزب العمل بغية اجتياح لبنان، وأبا إيبان الذي كان حزبه مناهضاً كلياً لمشاريع بيغن – شارون، كان قد ذهب طوعاً لأميركا "للإفراج" عن هذه المعلومات علماً بأنه كان على بينة أن معلومات كهذه غير ممكن الإفراج عنها في إسرائيل لأنها تقع تحت طائلة الرقابة "لأنها تمس بأمن الدولة" ولكن هذه الرقابة تسقط عندما تكون هذه الأنباء قد نشرت سابقاً في الصحافة الأجنبية.

لم تكن القوات اللبنانية تدري ماهية الصراع السياسي الدائر في القدس إذ إن الموساد كان يقوم برقابة الأنباء حول الأوضاع داخل إسرائيل. وكون القوات كانت منشغلة بما يحصل في لبنان وغارقة بالتحضيرات المطلوبة منها، فقد وضعت إذاً ثقة عمياء بأعضاء الموساد الذين يؤمنون الصلة مع إسرائيل. لم يكن بشير والمقربون منه على إدراك بأن الأنباء التي نشرت في الصحافة بشكل منتظم كانت تشوش على مشاريع بيغن. والهجوم الذي كان معتبراً وشيكاً لم يحصل صباح إثنين الفصح كما كانوا يتوقعون وكان الموساد قد أفادهم فقط بأن إسرائيل ليست ناضجة بعد، هذا كون المعارضة مازالت ناشطة جداً. فقطب بشير الجميّل حاجبيه متذكراً مقابلته الاخيرة مع مناحيم بيغن في 16 فبراير – شباط والذي أكد له فيها ما يلي: "شيمون بيريز وأنا متفقان حول المسألة اللبنانية". طلب بعض الشروحات فلم تعطَ له وطلب الذهاب إلى إسرائيل ليكون على بينة بما يحصل فلم تشأ إسرائيل استقباله. هذا الشكل من التعامل لم يرق لبشير وبعد يومين عندما أعلن رفّول عن مجيئه إلى لبنان أجاب بشير أنه ليس جاهزاً لأنه سيتناول العشاء مع سمير فرنجية وعنده اجتماع مع السوري محمد غانم. لج الإسرائيليون، فحدد موعداً ثم ألغي.

في 25 أبريل – نيسان استعادت مصر سيناء. وصرح يومها إلياهو بن أليعازر، رئيس اللجنة الإسرائيلية للشؤون الخارجية والذي أصبح أول سفير إسرائيلي في مصر بما يلي:

– ليس هذا اليوم يوم ابتهاج لأن ليس من الابتهاج بشيء أن يعود العمل الإسرائيلي ولكن أعتقد أنه كان

(1) استقصاء نشر في مايو – أيار على عدة حلقات في جريدة معاريف الإسرائيلية (اليمينية المعتدلة)، تملكها عائلة نمرودي (000 160 نسخة خلال أيام الأسبوع و 000 260 في نهايته).

(2) Charles Enderlin, *Shamir*, Olivier Orban, 1991, p.315.

من المستحيل أن نتصرف بشكل آخر ولكن أكثرية الإسرائيليين يشعرون ببعض الشك من هذا.

لم يلفظ آريل شارون إلا هذه العبارة.

– لن يكون هناك تنازلات أخرى.

وفي المساء ذاته، وصل مناحيم نافوت إلى الزوق والرسالة التي أبلغت عن وصوله ذكرت "سوء تفاهم" لا بد من إزالته. فاستقبل بشير بوجه عابس وبلهجة تهجمية:

– أنا لا أفهم لماذا أوقفتم الاتصال وهذا ما يحملنا على عدم الثقة بكم وقد تشكلون خطراً إذ إن السوريين قد يعلمون بعلاقتنا ويحاولون أن ينتقموا. من الآن وصاعداً سوف لن نتكل إلا على ذاتنا.

المسؤول عن "مكتب لبنان في الموساد" كان يتوقع ردة الفعل هذه من قبل بشير واستمع له دون أن يخرج عن طوره ثم أجاب بصوت متعادل:

– إذا كنتم لا تريدون المشاركة بهذه العملية فلن نعتب عليكم، وسنقوم بعملية ضد الفلسطينيين وحسب وإذا أردتم أن لا تشاركوا وأن تنفصلوا عن العملية فهذا لا يطرح أي مشكلة وسننظم إعادة الأسلحة التي سلمناكم إياها إلى إسرائيل.

عند هذا هدأ بشير فوراً واستكمل النقاش بشكل أكثر لياقة وفسر له مندي الصعوبات الداخلية التي واجهتها الحكومة ومصدر التسريبات وأكد له إرادة شارون بتنفيذ المشروع الملحوظ.

في مستهل شهر مايو – أيار قام وزير الدفاع الإسرائيلي بزيارة خاطفة إلى الولايات المتحدة بغية تنشيط الاتفاق الإستراتيجي والتعاوني الموقع في أكتوبر تشرين الأول من العام 1981 والذي كان قد جمِّد من جهة الولايات المتحدة بسبب ضم الجولان من قبل إسرائيل.

بعد عودة شارون إلى إسرائيل دعا بيغن إلى اجتماع وزاري في 15 مايو – أيار، وقدم شارون كما كان قد فعل في 20 ديسمبر – كانون الأول المنصرم المشروع المسمى "شجرة الصنوبر الصغيرة"، للوزراء ولم يتكلم إطلاقاً عن احتمال الوصول إلى بيروت. لم يتلفظ بعبارة حرب[1]، واصفاً "الهجوم" بعملية أمنية محدودة"، وقام الجنرال أليعازر يعاري، الرجل الثاني في الاستخبارات العسكرية والذي كان يمثل يهوشع ساغي المتواجد خارج البلاد، بإعلام الوزراء بأن عملية كهذه قد تؤدي إلى نزاع مع سورية، فلم يعلق أحد على ذلك.

بعد أن وجّه حزب العمل نداءً إلى العسكريين كي يخففوا من حماسهم الحربي، أقر أنه ابتداء من نقطة ما، فضبط النفس الإسرائيلي يصبح غير ممكن"، فأحد عشر وزيراً من أصل 18 كان حاضراً اقترعوا الصالح عملية شجرة الصنوبر الصغيرة. وحدد الاجتياح بتاريخ 17 مايو – أيار 1982.

وتم لقاء بين أركان الجيش الإسرائيلي بكامل أعضائها وذلك أربعة أيام قبل هذا الاجتماع، وكان أن أطلع شارون الضباط على الصيغة المسماة "شجرة الصنوبر المتوسطة" والمتعلقة بتصميم المعركة وأمر شارون بهجمة بمحاذاة الخط الساحلي وصولاً إلى بيروت والتواصل مع القوات الكتائبية. أجاب أن أجهزته تعارض هذا المخطط مضيفاً أنه ليس من مصلحة إسرائيل أن تواجه القوات السورية فاضحاً موقف الميليشيا المسيحية والتي كان رجاله يطلقون عليها باحتقار كلي اسم "روضة الأطفال" ثم مستطرداً:

(1) شهادات وزراء حاضرين.

- إن الكتائبيين لن يطلقوا طلقة واحدة ضد الفلسطينيين وليس أي عمل إسرائيلي بإمكانه القضاء كلياً على منظمة التحرير في لبنان .

وأمام هيئة الأركان الصامتة ، أحاط قائد أجهزة المخابرات العسكرية الوزير علماً بأن المغامرة اللبنانية قد ينجم عنها انفجار في الرأي العام الإسرائيلي ، فكان أن آريل شارون تصرف وكأنه لم يسمع شيئاً . في هذا الأثناء قام عدد من الضباط في مدرسة الدراسات العسكرية العليا في تل أبيب بدراسة صورية إستراتيجية تؤكد أن مصر ستبقى على حيادها في حال اندلاع نزاع . كانت هذه الدراسة الصورية انطلقت من فرضية هجوم فلسطيني في شمال إسرائيل ودرسوا تداعياته : عملية ردة فعل إسرائيلية كبيرة ، رد فلسطيني مدفعي كثيف على الجليل ، يتبع هذا القصف عملية اجتياح للبنان من قبل الجيش الإسرائيلي . وقد تمارس الدول العربية ضغطاً كبيراً على مصر لإرغامها على قطع علاقاتها الدبلوماسية مع إسرائيل ، ولكن دون أن ينجحوا بذلك ، ومع انتهاء الاجتماع أجاب رئيس هيئة الأركان رفائيل إيتان على أسئلة الصحافيين بما يلي :

- انتهى اتفاق وقف إطلاق النار ، وأن العمل العسكري ضد الفلسطينيين هو السبيل الوحيد للوصول إلى السلام وصحيح إننا حشدنا جيشاً على الحدود مع لبنان وصحيح أيضاً أننا وضعنا الجيش الإسرائيلي بحالة تأهب .

وكانت قد ابتدأت الطائرات الاستطلاعية تظهر مجدداً في سماء لبنان وأعلنت واشنطن ذهاب موريس درابر إلى منطقة الشرق الأدنى وابتدأ شبح الحرب يطل في المنطقة والنداءات تلو النداءات من قبل الأميركيين لم تغير شيئاً ، هذا ولم يرسل إلى الشرق ممثلاً عن الرئيس ريغن ولكن أمين السر المساعد لشؤون الشرق الأوسط ، وتأثرت البورصة الإسرائيلية مباشرة اذ تراجعت أسهم الـ 129 أفضل شركة تراجعت بمعدل 5% و10% مرة واحدة وهكذا تكون البورصة قد دخلت بوضع اقتصاد حربي . وفي 17 مايو - أيار 1982 صباحاً ، استقبل كل من مناحيم بيغن ، شامير وآريل شارون زعيم حزب العمل شيمون بيريز يرافقه الرئيسين السابقين لهيئة أركان الجيش الإسرائيلي ، إسحق رابين وحاييم بارليف . الهجوم أصبح وشيكاً ، وعندها انفجرت أزمة برلمانية .

وهذه الأزمة ابتدأت باقتراح من قبل حزب العمل سياسة تتعلق بسياسة الحكومة الاقتصادية وهذا ما شغل أروقة مجلس النواب الإسرائيلي علماً بأن أكثرية بيغن كانت قصيرة جداً وقوامها صوت واحد ، فكان كل تحرك كهذا بمثابة امتحان خطير وكان في 23 مارس - آذار استبعد بصعوبة الاقتراح المتعلق بالقمع المسلح للمظاهرات الفلسطينية في الضفة وفي غزة ، وهذه المرة انفجرت قنبلة سياسية ، في معسكره إذ إن نائبين من الليكود وهما آمنون لين وإسحق بيريز استجابوا الوعد حزب العمل بتسميتهم وزراء وتعيينهم بمناصب رفيعة في حال وصول هذا الأخير إلى الحكم ، فكان أن أعلنوا عن "استعدادهم لتجاوز الخط" باقتراعهم ضد الثقة بالحكومة إذ إن بيغن لم يفلح بتحقيق الأهداف الاقتصادية الداخلية ، هكذا أصبح بيغن بفرضية حرمانه من أكثرية ، بحكم المستقيل وتراءى شبح الانتخابات المسبقة ، وبعكس ما كان منتظراً دحض النص في 19 مايو - أيار باللحظة الأخيرة بأكثرية صوت واحد - 58 ضد 57 - ، هذا بفعل امتناع ثلاثة نواب[1] ليسوا من الليكود . نجحت حكومة بيغن ولكنها فقدت أكثريتها الحسابية . فأمست حكومة أقلية وبالتالي حكومة مرتهنة لكل تقلب برلماني . هذا وبتقدم الحزب الصغير ، في يسار الوسط والذي كان له

(1) نائبان من حزب تيليم الصغير الذي أسسه موشيه دايان ، ونائب من اليمين المتطرف .

نائبان في المجلس اعتبر أن مجلس النواب أصبح عاجزاً عن القيام بمهامه بشكل منتظم ، وأعلن بأنه سيتقدم بمشروع قانون يلحظ تنظيم انتخابات نيابية جديدة .

وأصبح هامش المناورة المتاح أمام الحكومة ضيقاً وبالتالي أصبح حظ الحكومة بالقضاء على منظمة التحرير في لبنان ضئيلاً للغاية إلاَّ إذا تقرر بسرعة قصوى القيام بعمل ما في لبنان . العمل العسكري في لبنان على حد اعتقاد المقربين من بيغن ، من شأنه أن يتيح المجال لإسرائيل أن تتوصل إلى معاهدة صلح مع بلد عربي آخر مما يساعد الليكود على النهوض من كبوته قبل الانتخابات النيابية التي صار لا بد منها . هذا العنصر الجديد ألا وهو ضرورة تثبيت تحالف اليمين الإسرائيلي سياسياً ، بغية محافظة اليمين هذا على السلطة ، كان له الدور الأكبر في اتخاذ القرار في تل أبيب ولكن لم يشرح للقوات اللبنانية ، هذا مما خلق عملياً سبب تناقض المصالح بين الحليفين ، إضافة إلى اختلاف ما كان كل طرف ينتظره من هذه العملية ، إذ إن الإسرائيليين كانوا قد نسوا ما قاله بيار الجميّل في 13 يناير - كانون الثاني لآريل شارون : "نريد أن يكون جسر عبور بين العرب وبينكم ، عليكم أن تفهوا هذا مما يعني أن هنالك حدوداً ينبغي أن يحافظ عليها" . وظهور هذا الواقع المتعلق بالسياسة الإسرائيلية الداخلية ، والذي لم تكن القوات اللبنانية على علم به أولاً وبتقويمه بنحو سيئ لاحقاً ، سيكون مستقبلاً سبب سوء تفاهم كبير بين تل أبيب والقوات .

توجه شارون برحلة آخر ساعة إلى الولايات المتحدة بصحبة الجنرالين يرافقهم سفير إسرائيل في واشنطن موشيه آرانز إلى الخارجية الأميركية في صباح 25 مايو - أيار حيث كان ينتظرهم ألكسندر هيغ وفيليب حبيب ونيقولا فليوتس والسفير الأميركي في تل أبيب صموئيل لويس . وبالاستقواء بموافقة الحكومة الإسرائيلية على مشروعه ، توجه وزير الدفاع لمخاطبيه بشكل مباشر بقوله :

- نحن بوضع صعب للغاية واقعون بنوع من الحيرة ، إذاً لا يمكننا أن نتهاون مع النشاط الإرهابي . فلو كانت المشكلة سهلة لكنا تدخلنا منذ زمن ولكنه من المستحيل أن نتدخل دون المس بالسوريين ونحن ليس بنيتنا مهاجمتهم والسؤال المطروح هو التالي : هل سيفهم السوريون أن العملية محدودة وليست موجهة ضدهم ولكن نقوم بها كي نريح لبنان من البناء التحتي السياسي والعسكري لمنظمة التحرير الفلسطينية مما يخلصنا من هذا البناء لسنوات عديدة . إن هدفنا لا يتعلق بتشكيل لبنان حر ولا نريد طرد السوريين ، علماً بأنه من المحتمل أن يحصل ذلك لأسباب ثانوية . لا نرى أمامنا حلاً آخر سوى أن نتقدم وأن ننظف طريقنا . وبالمقابل لا نريد أن نفاجئكم إذ إننا لا نعلم بعد أين ومتى سيحصل هذا .

- أين حصلت المعارك الجوية؟ سأل هيغ ملمحاً بذلك إلى المعارك التي حصلت قبل أيام .

- حلق الطيران السوري فوق بيروت وجونيه حيث كنا نقوم بمهمة استطلاعية . هذه هي الحقيقة ولكن ليس كل الحقيقة إذ قررنا أننا لن نسمح لهم بالتحليق في سماء لبنان لأنهم يشوشون على تحليقنا فوق لبنان للتصوير ، مما هو أساسي لنا .

- إن اتفاق يوليو - تموز 1981 ينص على أنه بإمكانكم الاستمرار بتحليقكم الاستطلاعي ، ذكّر فيليب حبيب ، والآن تدّعون أن هذا يشوش على استطلاعكم ، فهذا أمر جديد .

وشرح الجنرال ساغي بالتفصيل بأن السوفيات يدربون بنحو نشيط الطيران السوري ووحدات الصواريخ المضادة للطائرات وكأنهم قد طوروا طريقة قتال جوي يرتكز على استعمال طائرات الميغ 23 معزولة "كطعم" ، بينما تحلق الطائرات الأخرى على ارتفاع كبير "في الشمس" مستفيدين من سرعتها في

الهبوط . وأكد ساغي بأن طيارين سوفيات يستلمون قيادة المطاردات السورية .

– نحن نفهم أهدافكم وما تصبون إليه – أجاب الكسندر هيغ ، وأفهم كلياً موقفكم من هذه التحديات . ونحن كحلفاء لا يمكن لنا أن نطلب إليكم ألاّ تدافعوا عن مصالحكم ، ولكن يجدر بنا أن نأخذ بعين الاعتبار مسألتين : فحوى التحديات وحجمها وما يمكنني أن أقول أنه ، بالنسبة لكم ، موت رجل واحد يكفي أن يبرر تدخلكم ، وهذا يحملنا على تفهم مشكلتكم . آمل أن تكونوا متحسسين للجانب الدولي لهذا الموضوع ، هنا يجب الرد على تحدٍ ما وليس ممارسة شريعة العقوبة بالمثل . علينا أن نجد طريقة لحل هذه المسألة وذلك باستحداث شروط جِديدة . نود أن نرى في لبنان حكومة قوية وصديقة لإسرائيل ونود أيضاً أن تنسحب منظمة التحرير الفلسطينية . إن ذاكرتي جيدة وأتذكر بأن الانتخابات الرئاسية في لبنان تحت وطأة التهديدات السورية هي بمثابة إعلان حرب – أهذا ما كنت تقول لي .

– كلا ، أجاب شارون . إذا شكلت حكومة لبنانية تحت وطأة التأثيرات الثانوية ، فسنكون مسرورين بذلك .

أعلن حبيب أنه سيذهب إلى الشرق الأوسط بغية حل المشكلة بالطرق الدبلوماسية وطلب بعض التوضيحات حول المحتوى والحجم لما يسميه الإسرائيليون " تحديات " .

– كم يهودي يجب أن يموت كي نتكلم عن تحد أكيد؟ – أجابه شارون – بالنسبة لنا هذا اختيار صعب ولحينه نحن نتصرف بمنتهى الاعتدال .

– نحن نعلم ذلك ! وهل بوسعكم أن توضحوا موقفكم ، سأل وزير الخارجية الأميركية .

– نحن كنا واضحين صاح الوزير الإسرائيلي وحكومتنا حكومة ديمقراطية . وعلى الحكومة إذاً أن تقرر . نحن نقدر جهودكم الدبلوماسية والنتائج التي حصل عليها السفير حبيب ولكن هذا لن ينهينا عن قرار التدخل في حال استمر الإرهابيون بأعمالهم الابتزازية . نحن نطلب فقط ألاّ نقتل . إذا استمروا ، علينا أن نقوم بتصفيتهم . لا نريد أن نفرض عليكم شيئاً ونحن حتى الآن لا نلحظ شيئاً وبالإمكان أن يحصل هذا غداً

– كم يكون حجم هكذا عملية ، سأل هيغ مجدداً .

– نحن نفهم قلقكم واعتقد إنها لن تكون عملية كبيرة إذ إننا نريد أن نتحاشى الحرب . سنحاول أن نحد من عمليتنا دون أن نؤثر سلباً على فعاليتها .

– عاد الإسرائيليون إلى تل أبيب معتبرين أنهم حصلوا على الضوء الأخضر من قبل الجانب الأميركي للقيام بما هم مصممون عليه . بينما الأميركيون متأكدون بأن الأهداف الإسرائيلية هي محدودة ، ووضعوا سراً السفير السوري في أميركا في الأجواء .

وابتدأ السباق مع الوقت . وبالنسبة لبيغن كما لشارون ، فإن الفرصة الأولى ستكون أيضاً هي الأنسب . أتت المناسبة بينما كانت مدينة فرساي تتهيأ لاستقبال الرؤساء ورؤساء الحكومات للبلدان السبعة الأكثر غنى في العالم .

في الثالث من يونيو – حزيران في لندن ، وكما هو الحال كل سنة ، كان قدامى مدرسة الاقتصاد في لندن ملتئمين في غرف استقبال فندق دورشيستر ، وبعد الحادية عشر مساءً ، وعند خروج شلومو أرغوف ، سفير إسرائيل في بريطانيا ، من الفندق أصيب بجروح من عدة طلقات نارية بسلاح رشاش . كان الدبلوماسي

صديقاً شخصياً لمناحيم بيغن . أوقف القاتل وكان يحمل جواز سفر عراقي ، جميع الوزراء الإسرائيليين ، باستثناء آريل شارون المتواجد في رومانيا بزيارة رسمية ، دعوا الاجتماع طارىء والتقوا في منزل رئيس الوزراء في الرابع من يونيو – حزيران صباحاً ، أفاد أبراهام شالوم رئيس الأجهزة العامة السرية الشين بيت[1] ، المسؤول عن أمن الإسرائيليين في الخارج ، أطلعهم على عناصر التحقيق المتوفرة : محاولة اغتيال شلومو أرغوف قامت بها منظمة فتح – المجلس الثوري التابع لأبو نضال المحكوم عليه بالإعدام من قبل منظمة التحرير الفلسطينية بتهمة الخيانة . شالوم أطلع المجتمعين على الكتاب الموجه من أبو جهاد في الخامس من أبريل – نيسان إلى المنظمات الفلسطينية مختتماً حديثه بأن هدف أبو نضال هو تحدي تل أبيب بغية التسبب بحرب تشعل الشرق الأوسط وبهدف تصفية ياسر عرفات ، رفائيل إيتان صرف النظر عن هذه الشروحات بإشارة بيده .

– علينا أن نضرب منظمة التحرير الفلسطينية .

لم يعارض أحد من الوزراء . أمر إيتان سلاح الجو الإسرائيلي بتدمير المركز الرئيس للقيادة الفلسطينية في بيروت ، في الساعة الثالثة والربع من بعد الظهر ، وبسبع طلعات متتالية ، قامت الطائرات المدمرة المدموغة بنجمة داود ، بتوجيه ضرباتها إلى العاصمة اللبنانية ، وتركت الطائرات بالونات حرارية ، كي تضلل الصواريخ المضادة للطائرات والتي لها رؤوس ما تحت الأحمر ، وبالتالي قذفت قنابلها على مخيمات صبرا ، وشاتيلا ، وبرج البراجنة ومدينة كميل شمعون الرياضية التي حولها الفلسطينيون إلى مستودع للذخيرة . سقط ستون قتيلاً ومائتين وسبعين جريحاً . بعد ساعتين قام الفلسطينيون بقصف أربعين قرية في الجليل ، مسقطين قتيلاً وثلاثة جرحى ، مما أدى إلى حركة ذعر بين السكان . وكان هذا " التحدي المعترف به دولياً والذي تكلم عنه ألكسندر هيغ " .

وفي مساء الخامس من يونيو – حزيران دعى بيغن وزراءه لاجتماع طارئ في منزله في القدس نهاية يوم السبت للموافقة على ابتداء " عملية " في عمق الـ 40 كلم في أراضي جنوب لبنان مماثلة لعملية " الليطاني " ولكن أهم . " عاد آريل شارون بشكل " كارثي " إلى إسرائيل وأكد بأن بيروت ليست ضمن الخطة ، وأعلم الوزراء بما قاله ألكسندر هيغ قبل بضعة أيام . " نحن نتفهم أهدافكم ولا يمكننا أن نقول لكم بأن لا تدافعوا عن مصالحكم . قد لا تتمكن الولايات المتحدة على الأرجح من إيقاف هجوم إسرائيلي " .

وافقت الحكومة بالاجماع على العملية مشترطة امتناع الجيش الإسرائيلي عن الدخول في معركة ضد القوات السورية ، إلا لسبب دفاعي . وقامت المدفعية ، والطيران والبحرية بقصف 83 مدينة وموقع في جنوب لبنان مدة سبع عشرة ساعة متتالية ، متسببين بقتل 158 شخصاً وجرح 250 آخرين . ولم يصل إبلاغ بشير من قبل رفّول إلا في ليل الأحد إلى الاثنين طالباً إليه بوضوح بالسهر على قواته كي لا تحرك ساكناً وكي لا تطلق " حتى ولا طلقة واحدة " وكون هذه الرسالة ملحة بهذا الشكل فقد تساءل مسؤولو القوات الذين التأموا بشكل طارئ عما إذا كان مقرراً أن يصل الجيش الإسرائيلي إلى بيروت . أمر بشير بعدم القيام بتصريحات وتقديم ما يجعل العمل العسكري القائم وكأنه تصفية حسابات إسرائيلية ، فلسطينية لا تشارك بها

(1) وهما الحرفان الأولان لـ " شيروت ها- بيتاشون ها – قلالي " (الأجهزة السرية العامة) : وهي بمثابة مديرية الأمن الإقليمي DST بصغيتها الإسرائيلية (ويطلق عليها أيضاً شاباك) . وتتألف من 12 قسماً متخصصاً وإدارياً .

15

المرشح الوحيد

الوجه منقوش ومقطوع بالمشذب، الشعر أبيض تقريباً ومسرح إلى الوراء، يرتدي دائماً بذلة مقفلة ومرتفعة على الطراز القديم، ويمتاز بيار الجميّل جسدياً بتشابه مع الملاكم الفرنسي جورج كربنتيه. أضف إلى ذلك رأساً مرفوعاً ونظرة باردة لرجل سلطوي.

في العام 1914 وهو في التاسعة من عمره، واكب ذويه بهربهم إلى مصر. وكمعارضين بشدة لسلطة الباب العالي، كان والده أمين وعمه قد حكم عليهما بالإعدام وعاد بيار إلى بيروت عندما أصبحت تحت الانتداب الفرنسي ليدرس الصيدلة في جامعة القديس يوسف. وبعد تخرجه استلم صيدلية والده الواقعة بين دائرة المباحث المركزية وإحدى المصارف في ساحة الشهداء على زاوية الطريق الصغير المؤدي إلى حي المومسات في بيروت.

كان رياضياً كبيراً، وقد رافق بهذه الصفة الوفد اللبناني إلى الألعاب الأولمبية في برلين في العام 1936. سحر بيار الجميّل بالنظام والسلوك كما بالحماس المدني أو الوطني للمنظمات الشعبية النازية فأسس حزب الكتائب بعد عودته من الألعاب الاولمبية، معتمداً لحزبه كمؤشرات خارجية للانتماء إليه، تلك المؤشرات التي شاهدها في ألمانيا: اللفافات على الساق، الخوذة الاستعمارية، قميص وربطة عنق خضراء، سلام بمد الذراع – أعلام واستعراضات. متبنياً الشعار التالي "الله، الوطن، العائلة"، باتجاه قومي وطيد، فقد عارض بشدة استمرار الانتداب الفرنسي كما تصدى أيضاً لمشاريع الوحدة العربية. واستهوت عقيدته في زمن ما، بعض المثقفين المسيحيين كشارل حلو، جورج نقاش، وشفيق نصيف. لكن هؤلاء المثقفين كانوا دائماً هامشيين على مستوى قيادات الحزب. ومع مراسم حزب الكتائب، اعتبر هذا الحزب مدة طويلة وبشيء من السخرية من قبل السياسيين التقليديين كتجمع كشفي رياضي يريد تغيير وجه العالم.

وبيار مدافع بشدة عن التسوية السياسية الإسلامية المسيحية اللبنانية التي أوجدها مع واضعي الميثاق الوطني في عام 1943، أمثال كميل شمعون، ورياض الصلح وأحمد الأسعد وعبد الحميد كرامي وبشارة الخوري.

ولغاية العام 1958 لم يتمكن حزب الكتائب أن يوصل إلى الندوة البرلمانية سوى نائب واحد هو جوزيف شادر (أرمني) في دائرة انتخابية شعبية ينتمي فيها الناخبون إلى الطوائف التالية: السنة والأكراد والمسيحيون واليهود. كان بيار الجميّل يخسر دائماً في الانتخابات لغاية 1960، حين فاز بمقعد نائب عن دائرة الأشرفية، واحتفظ به حتى وفاته في عام 1984.

ازدهر نشاط حزب الكتائب بقوة عقب الأحداث التي تسبب بها الناصريون عام 1957. وقد أثار رئيس الجمهورية فؤاد شهاب الذي انتخب في السنة التالية أحداثاً في الأوساط المسيحية مقابل الأحداث المثارة في الأوساط الإسلامية، وخاصة السنة منهم الذين كانوا يؤيدون بقوة القومية العربية التي رفع لواءها جمال عبد الناصر. وبإثارة هذه الأحداث في الأوساط المسيحية تسنى للرئيس فؤاد شهاب أن يعيد التوازن مرغماً إلى البلد، وذلك بالاستجابة إلى مطالب الطرفين. ولعب حزب بيار الجميّل الذي كان منظماً آنذاك دوراً هاماً، فعين وزيراً في حكومة الأقطاب الأربعة الذين استدعاهم الرئيس فؤاد شهاب لحل الأزمة. وكان هذا أول عمل رسمي يقوم به بيار الجميّل. وبالتالي شارك بجميع الحكومات لغاية 1982.

ولإضفاء شرعية على عمله السياسي اضطر الجميّل أن يتحالف مع كميل شمعون، زعيم الطرف المسيحي في لبنان، وكزعيم لحزب الوطنيين الأحرار. في أوائل عهده، كان شمعون يحتاج إلى الاستناد لتنظيم له هيكلته. وهكذا تحالف مظهر الارتياح الثقافي، الذي كان يتمتع به كميل شمعون، مع الدرع السياسي القائم على قياس الجميّل والممسوك من قبله بيد من حديد. وهذا كان بداية علاقة الزعيمين المسنين المتّحدين بالعقل لا بالعواطف.

الطرق السلطوية، والطاعة العمياء التي كانت تطلب من الأعضاء، ورفضه لكل أشكال النقاشات للقرارات، ووجود (الريس) في كل مكان، كانت جميعها سبباً وجيهاً لعدد من الاستقالات. وأثناء اجتماعات المكتب السياسي كان بيار الجميّل يطلب رأي جميع الحاضرين فرداً فرداً بالنسبة لنقطة معينة قبل أن يعلن، دون أن يأخذ بعين الاعتبار ما قيل: "جيد جداً. قرر المكتب السياسي ما يلي...". ورويداً رويداً أصبح حزب الكتائب ممثلاً للبرجوازية المسيحية الصغيرة، المرتاحة لوضعها الاقتصادي دون أن تكون ثرية. وهكذا أمّن لذاته قاعدة شعبية عريضة.

تزوج بيار الجميّل من ابنة عمه جنفيف والتي أعطته ستة أولاد. متقشف وقاس جداً بالنسبة لذاته كما بالنسبة للآخرين. كان يفرض نظاماً شبه رهباني في منزله إلى حد أن ابنته البكر ماديس لم تتجرأ أن تدخن بوجوده. وبعد الخمسين من العمر كان بيار الجميّل مصاباً بداء السكري المتوارثة[1] ولم يكن محيطه يعلم بذلك.

وعلى غرار ريمون إده خصمه السياسي الكبير لم يكن الجميّل يتقن العربية وكان يتجاهل أيضاً الصحف الصادرة بهذه اللغة. وفي مهنته السياسية طيلة نصف قرن ونيف، لم يأخذ الكلام أبداً أمام الجماهير أو علناً تاركاً هذه المهمة إلى أحد "تلاميذه" إلياس ربابي الذي كان يخاطب الجماهير. أما هو فكان يعبر عن أرائه ببلاغ يومي أو في مجلس النواب وذلك بمداخلات قصيرة وبكلام متقطع، بلغة عربية وفرنسية مختلطة.

أميناً لعلمانيته السياسية على الطريقة اللبنانية، قام في العام 1970 بدعوة السوريين إلى التدخل في لبنان لصد القوة الفلسطينية المتصاعدة وفي السنة ذاتها وافق على مرافقة كميل شمعون لمقابلة بيريز ورابين على ظهر بارجة إسرائيلية في البحر قبالة جونيه. وموضحاً نوع الصداقة التي بوده أن يقيمها مع الدولة العبرية أعلن لهم ما يلي: أريد أن أسير في لبنان مرفوع الرأس كمسيحي وكعربي[2].

(1) يعاني ابنه أمين من الداء ذاته منذ سن الـ 45.

(2) Ze'ev Schiff et Ehud Ya'ari, *Israel's Lebanon War*, Simon and Schuster, New York, 1984. وصدر الكتاب بالعربية عن دار المروج بيروت – لبنان، بعنوان **"لبنان آخر وأطول حروب إسرائيل"**.

كان صرحاً من الثنائية وصفها البعض بالالتباس والخبث، كان بوسع بيار الجميّل أن يقول بموقفين متناقضين، اللهم إذا كان لا يتعارض ذلك مع مبادئه الكبرى، وهذا رغم الوزن السياسي الذي كان يمثله بيار الجميّل، فلم يكن يوماً مرشحاً للرئاسة الأولى.

وبموجب الدستور اللبناني لعام 1926 كل مواطن لبناني بإمكانه أن يرشح نفسه لرئاسة الجمهورية إذا كان اسمه وارداً على اللوائح الانتخابية وعمره أكثر من 25 سنة ويتمتع بسجل عدلي نظيف وله الأهلية المدنية ومجيداً للقراءة والكتابة، وبالاضافة إلى هذه المعايير، أضاف العرف النابع من ميثاق 1943 الصفة التالية: أن يكون المرشح مسيحياً مارونياً. وهذه الإشكالية غير المكتوبة وديمومة العلاقات المرتكزة على ظاهرة "الزبانية والاستزلام" الواسعة الانتشار، ونتائجها المرضية، أعطت لرئاسة الجمهورية في الفترة الأولى دوراً مؤثراً جداً في الحياة والسياسة، ولكن مجلس النواب والذي هو الهيئة الناخبة لرئيس الجمهورية تقسّم جماعات لم يكن لها انتماء لبناني فقط وهكذا كان سليمان فرنجية رئيساً مقرباً وقريباً جداً من دمشق[1] والياس سركيس رئيس تسوية ولذلك كان سركيس رئيساً لا يتمتع بسلطة فعالة.

كان بشير الجميّل طبعاً مرشحاً لرئاسة الجمهورية خلفاً للرئيس سركيس ولكن هذا الموضوع لم يكن قد تطرق اليه بعد. بالطبع كانت القوات اللبنانية تحضر نفسها لذلك ولكن بمنتهى السرية ولم يكن بعد، صغير آل الجميّل تكلم بهذا الامر مع والده. كل شيء أصبح يسير بسرعة منذ 3 مارس – آذار 1982. في هذا اليوم وخلال اجتماع الجبهة اللبنانية المكرس أصلاً لزيارة فيليب حبيب إلى بيروت وبعد مداخلة طويلة حول ضرورة التوصل إلى اختيار مرشح تسوية لرئاسة الجمهورية، عندئذ قال بشير الجميّل وبشيء من التبجيل:

أتشرف باقتراح اسم كميل شمعون. دهش الحاضرون وهم ممثلو الأحزاب المسيحية معتقدين أن النمر المسن سوف يعبر بطريقة مهذبة عن امتنانه مقترحاً بدوره اسم بيار الجميّل. وكان أنه بجملة واحدة شكره الرئيس شمعون وقبل اقتراح الجميّل. وسكت الجميع معربين بسكوتهم عن ريبة الحضور وبعد لحظات كانت ردة فعل الأب بولس نعمان وتصاعد صوته وبنوع من الخطابة قال:

أنا لا أوافق. دون أي شك الرئيس شمعون هو أب لنا، وهو كبيرنا ولكننا نحن محاطون بأعداء ونحن لسنا بحاجة إلى مشاحنات داخلية.

لدينا الآن الشيخ بشير، ولد الآلام المارونية، وهو الوحيد الذي بمقدوره أن يحل المشكلة ويبني سلطة مسيحية قوية. ليس هنالك شخص واحد اليوم ولا حتى واحد منكما، ناظراً إلى كميل شمعون وبيار الجميّل، بإمكانه أن يصل إلى سدة الرئاسة دون أن يواجهه ويغلبه. إذا أراد هو في حال عدم وجود أي حظ له، وبالتالي يرشح الرئيس شمعون بالأفضلية فعليه أن يترك المكان ولكن هذا القرار يجب أن يكون قراره. كما وإنني اقترح على الجبهة اللبنانية أن تختار بشير الجميّل كمرشح لرئاسة الجمهورية.

أثناء كلام الأب نعمان، كان كميل شمعون ينظر إليه من فوق نظارته. وبشير الجميّل الذي كان جالساً مقابل الآباتي كان ينظر إليه بعينين مفتوحتين دون أن يتفوه بكلمة. تلا مداخلة الراهب سكوت أثقل من الذي سبقه وهمس كميل شمعون ما يلي:

ما الذي أصابه؟ ما الذي أصابه؟ مستطرداً.

أنا لا أفهم ماذا حصل للأب نعمان اليوم – فلنترك هذه المسألة الآن متطرقين لهذا الموضوع لاحقاً.

(1) أنظر الفصل 2: "الجارة سورية"

والتقى آل الجميّل، الأب والابن بعد نهاية الجلسة، وبعد نقاش محتدم انتهى بموافقة بيار الجميّل على اقتراح الآباتي نعمان، بشرط ألاّ يعلن قبوله كي لا يجرح كميل شمعون. وذهب في اليوم التالي قائد القوات اللبنانية إلى كميل شمعون كي يدافع عن قضية ترشحيه، واستمع زعيم حزب الوطنيين الأحرار دون أن يتلفظ بكلمة قبل أن يؤكد له إنه ليس ثمة اعتراض من قبله على ترشيحه. وعلى العتبة أمسك شمعون بذراع بشير قائلاً:

– عاد نجلي داني قبل أيام من لندن فقلت له إن وجوده لن يؤدي إلا إلى المشاكل ناصحاً إياه أن يرجع إلى لندن. أنا معك فيما تقوم به.

وبإبعاد نجله قام كميل شمعون باختيار نهائي. أما بشير بعد مبايعة والده وكميل شمعون طلب موعداً مع إلياس سركيس كي يطلعه رسمياً على نواياه.

– سأكون أسعد الناس لو تمكنت أن أسلم السلطة إلى الشيخ بشير الجميّل. أو إذا أخذها بشير من بعدي، أجابه إلياس سركيس مشجعاً.

بقيت العقبات الممكن أن يضعها "العرابون" الأجانب وبشكل خاص الأميركيون والذين كانت لهم أهداف مختلفة واستفاد بشير الجميّل من وجود فيليب حبيب في بيروت كي يستمزج رأيه بما يتعلق بالانتخابات، فأجابه الموفد الأميركي بأنه يؤيد التمديد للرئيس سركيس مدة أشهر قلائل ريثما يتسنى للأميركيين إيجاد حل للازمة اللبنانية.

– عليكم إذاً أن تدفعوا سعراً غالياً، أجاب بشير بنشاف.

– وما عساه يكون هذا السعر؟

– سنقول لكم في حينه، أجاب بشير بشيء من الغموض.

منذ بضعة أسابيع كان بشير معارضاً علنياً لتمديد ولاية الرئيس سركيس متذرعاً بعدم دستورية هذا التمديد، في حين أنه كان يدرس الإمكانية والطريقة للتمديد، آملاً أن يلجأ إلى ذلك في حال عدم تمكنه من أخذ السلطة، معتبراً أن هذا الحل المؤقت الأمثل نظراً لعلاقاته الممتازة مع الرئيس. ولم يشأ أن يبوح بذلك للموفد الأميركي.

وإذا كان لا بد أن يصل الجميّل إلى بعبدا فسورية كانت تفضل ابن العائلة البكر.

– مع أمين يمكننا أن نتحاور، – هذا ما أكده رفعت الأسد، شقيق الرئيس السوري، إلى سليم الخوري نجل الرئيس الأسبق للجمهورية اللبنانية.

كان النظام السوري يتخبط بوضع داخلي دقيق للغاية إذ إن الصراع القديم بين الأكثرية السنّية والأقلية العلوية قد تأجج، وثورة الإخوان المسلمين أرغمت الدولة على استعمال الجيش. ومدينة حماه التي انتفضت، أرغمت على الاستسلام والترويض بعد حصار عسكري دام عدة أسابيع، وكانت حماه قد قصفت مدة شهر بكامله ممّا أدى إلى إزالتها وحسب بعض الشهود فقد وصل عدد القتلى إلى ما بين 20000 و25000. فقد تباين تحليل الأخوين "أسد" حول هذه المسألة.

هنالك مشكلة بيني وبين شقيقي، اعترف رفعت بذلك أمام سليم الخوري. يريد أن يخنق الأزمة بالقوة للحفاظ على الحكم في سورية والحفاظ على البلد، وبعد الذي حصل في حماه فواضح أن الصراع هو طائفي وأمسى ضرورياً بالتالي أن نخلق تحالفاً بين العلويين والمسيحيين للتصدي للمد السنّي في المنطقة.

وطلب رفعت الأسد إلى مخاطبه أن يدرس إمكانيات لقائه ببشير الجميّل. وعربوناً عن حسن

نيته وصدقيته اقترح إطلاق سراح الأسرى الكتائب المعتقلين في السجون السورية. ولكن قائد القوات اللبنانية، فضّل من باب الحذر، أن لا يتابع في هذا الاتجاه منتظراً أن يرى إذا حصل اتصالات أخرى للتأكيد على ما يحصل. وعلى كل حال فإن النظام السوري مناهض له وسيؤيد ربما شخصيات مماثلة لسليمان فرنجية. في هذا السياق، هكذا لقاء قد لا يكون له فائدة آنياً.

وعادت المفاوضات على يد الجنرال محمد غانم، رئيس أجهزة الاستخبارات السورية في لبنان وبأمر من رفعت الأسد. فقابل الضابط السوري، مرتدياً لباساً بمنتهى الأناقة، بشير الجميّل في منزل جوني عبدو واقترح إطلاق سراح الأسرى الكتائب من السجون السورية. ولم تصل القضية إلى شيء يذكر إذ إن الوزن السياسي لرفعت الأسد في دمشق لم يكن كافياً لا لإطلاق سراح الأسرى ولا إلى التقارب العلوي المسيحي المنشود.

من جهة أخرى استقبل عبد الحليم خدام، وزير خارجية سورية، كل من كريم بقردوني، وجوزيف أبو خليل وجورج سعاده كأعضاء في حزب الكتائب. وفي 4 مايو - أيار أثناء المقابلة الأولى شرح اللبنانيون الثلاثة للوزير السوري أنه إذا قام اتفاق بين سورية والقوات اللبنانية، فباقي الأطراف السياسية اللبنانية لا بد أن تتبع مما يؤدي إلى إنهاء النزاع. وقال بقردوني:

- تريد أن نحضّر تسوية عملية إنقاذ وطني؟ نحن حركة ثورية وتطلعاتنا كما أهدافنا ترفض المساومات التي هي في صلب تصرفات الطبقة السياسية التي تخطاها الزمن.

- أتقترحون القيام بانقلاب؟ أجاب خدام متعجباً.

- هذا هو ما نقترحه، أجاب أبو خليل مبتسماً.

وقال خدام:

- الذي تقولونه خطير جداً وعليّ أن أطلع الرئيس الأسد على هذا. شخصياً هذا الاقتراح يستهويني. أنتم تقترحون شيئاً غير معهود ويحتم قراراً سياسياً مسبقاً، قبل أي نقاش. هذا سيقلب الموازين السياسية ولكن بإمكانه أن يؤدي إلى حرب في المنطقة.

- بحق نحن نريد هذه الثورة ولكن بالطرق الشرعية أوضح بقردوني. في 30 أغسطس - آب طلبتم إليّ أن أقول لبشير أن بوسع إسرائيل أن تجعل منه ربما قائداً عسكرياً بينما بوسع سورية أن تجعل منه زعيماً سياسياً. اليوم أصبح بشير زعيماً سياسياً.

- هذا يسرني جداً - قال الوزير بابتسامة غير محددة وغامضة.

ودعى عبد الحليم خدام كريم بقردوني و"الأخوين" جوزيف أبو خليل وجورج سعاده لزيارة جديدة في 20 مايو - أيار. الاقتراح أثار اهتمام حافظ الأسد وحتى كان موافقاً على المبدأ ولكنه طالب بدراسة معمقة، فكان هذا طريقة عمل الرئيس السوري ألا وهي الحصول على أكبر كمية من المعلومات ثم ترك الوقت يعمل. وانطلقت القوات اللبنانية بتحضير شبه عسكري للانتخابات الرئاسية، واستحدثوا غرفة عمليات يشرف على إدارتها زاهي البستاني. وكانت مهمة هذه الغرفة دراسة مجمل الفرضيات وأقلمتها مع الأحداث. وضع البستاني ثلاثة سيناريوهات لإيصال بشير الجميّل إلى قصر بعبدا. أول سيناريو يرتكز إلى العملية العسكرية الإسرائيلية لتطبيق التصميم M. أما السيناريو الثاني أو المشروع البديل، فكان يرتكز إلى "لعبة التمديد" للرئيس إلياس سركيس، لكي يؤمن الوقت اللازم لكي يطوع الواقع السياسي والانتخابي. أما السيناريو الثالث والأخير فكان يتمحور حول انقلاب عسكري كان بشير قد أطلق عليه اسم "الملجأ

الأخير". وفي الفرضيات الثلاث كانت القوات اللبنانية تريد أن ترتكز إلى إلياس سركيس بالنسبة للخصام القائم بين سركيس والجميّل طيلة الفترة الممتدة بين 1976 و 1979، إنتهى في غرف النسيان. ذلك أن سركيس كان قد لعب دوراً مهماً بتطوير بشير السياسي. لم يقتصر عمله على حمله بأن يأخذ بعين الاعتبار بعض الوقائع، بل كان أيضاً قد فتح له بشكل غير رسمي عدة أبواب في الخارج. ومنذ أن فاتحه بشير بأنه يطمع بالرئاسة، أصبح إلياس سركيس المدافع الأول عن ترشيحه أثناء اجتماعاته بالنواب.

كانت جميع المخططات التي حضرها زاهي البستاني تحمل إحدى الثوابت ألا وهي عدم الكشف عن إقامة صلة بين بشير وتل أبيب وعدم جواز الالتزام بأي مسؤولية في العملية الإسرائيلية التي كانت قيد التحضير. وقد لحظ زاهي إمكانية قيام قائد القوات اللبنانية بتصريحات علانية ضد إسرائيل.

كلف جوزيف أبو خليل أن يتولى مهمة تحسين صورة بشير السياسبة والذي لم يكن قد أصبح ترشيحه حتى هذا الحين رسمياً. وقام بعملية إظهار مزايا بشير باتجاه الصحافة والرأي العام العربي وقام بجولة أولى قادته إلى باريس ولندن والقاهرة ومدينة الكويت. وقد تخطى ذاته لإيصال رسالة بشير السياسية. وفي منتصف شهر مايو - أيار استقبله حسين ملك الأردن. في هذه الفترة أرسل ميشال أحد المقربين من كريم بقردوني وإيلي حبيقة، ميشال سماحة - إذ إنه كان يريد أن يلعب دوراً ناشطاً - إلى القاهرة لمقابلة وزير الخارجية المصري بطرس بطرس غالي. اعترف الوزير المصري بأن انتخاب بشير إلى سدة الرئاسة أصبح في وارد الممكن ويتوجب لذلك إقناع البلدان العربية المعتدلة، والأميركيين والمسلمين اللبنانيين. اعتبر بطرس بطرس غالي بأن بيغن لن يطول به الوقت وسيحل مكانه أحد أقطاب حزب العمل، وأحاط سماحة علماً، بشكل شبه سري بأن إسرائيل عازمة على القيام بعملية عسكرية واسعة في جنوب لبنان. وجواباً على ذلك أجاب الموفد اللبناني، كما كان قد أملي عليه، بأن القوات اللبنانية سوف لن تشارك بالعمليات العسكرية الإسرائيلية، وأن المناطق الواقعة تحت سيطرة القوات لن تكون ممراً للجيش الإسرائيلي وفي حال بدء الهجوم فإن القوات اللبنانية ستلتف حول الرئيس اللبناني.

- عليكم أن تعلموا البلدان العربية المعتدلة بهذا الأمر، صاح الوزير المصري.

وفي السادس والعشرين من مايو - أيار 1982، إبّان الاجتماع الأسبوعي للجبهة اللبنانية، استقر الرأي على ترشيح بشير الجميّل إلى سدة الرئاسة، وفي اليوم التالي وافق المكتب السياسي على هذا الاختيار وطلب بيار الجميّل أن يكون هذا الاختيار بالإجماع وقوفاً وبرفع اليد، فنفذ الجميع هذا بما فيهم أمين الجميّل الذي تخلى بذلك علناً عن نيته في ترشيح نفسه للرئاسة. كلف جورج سعاده أمين السر العام بإعلام الإسرائيليين بذلك، مستفيداً من الظرف للطلب إليهم بالتدخل بهذا العرض عند الدول الأوروبية التي كانت تقاطع تقريباً قائد القوات اللبنانية. وفي هذا السياق أعلن أمام الموساد بأن بشير سوف يضطر ربما - حسب مشروع زاهي البستاني - لانتقاد الدولة العبرية، فكانت ردة فعل المخاطب الإسرائيلي حادة قائلاً لأمين السر العام أنه لربما وصلت أقوال مرشح الرئاسة إلى الصحافة الإسرائيلية مما يساء فهمه لدى الرأي العام الإسرائيلي. "الإسرائيليون أصبحوا حساسين جداً"، قال جوزيف سعاده معلقاً بعد عودته إلى لبنان في 4 يونيو - حزيران 1982. وفي اليوم الثاني باشرت القوات الإسرائيلية بقصف بيروت وتكون هكذا بدأت عملية "سلامة الجليل".

16

عملية "سلامة الجليل"

يوم الأحد في السادس من يونيو - حزيران 1982 في الساعة الواحدة والنصف صباحاً كان رجال "الفهود الطائرة الإسرائيلية"، وهم نخبة المغاوير، أول من وصل إلى الحدود اللبنانية. كانت مهمتهم احتلال قلعة الشقيف وإتلاف الجهاز الإلكتروني السوري للمراقبة والمخابرات، الذي كان "يرى" كل جنوب لبنان. فكان أن المظليين الإسرائيليين اصطدموا بمقاومة شرسة، ولم يتمكنوا من احتلال القلعة القديمة إلا بعد أن طلعت الشمس.

في هذه الأثناء ومن جهة الغرب، كانت الفرقة المعروفة باسم قائدها مردخاي، الملقب YTSIK، قد توجهت باتجاه محور ساحلي وعلى طريقها توجد مخيمات صور وصيدا التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية؛ وفي الوسط كانت فرقة كلهاني بإمرة الجنرال أفيغدور مناحيم كلهاني، تسير على محور وسطي يمر بالنبطية. كانت المهمة التي كلفت بها فرقة إينان، بإمرة الجنرال مناحيم إينان، أن تلحق فرقة كلهاني أولاً لغاية النبطية ثم أن تتقدم باتجاه الشمال كي تشكل محوراً وسطياً ثانياً شرقي المحور الأول صوب مدينة جزين، بوابة العبور إلى جبال الشوف. وأخيراً فرقة بن غال بإمرة الجنرال أفيغدور مناحيم بن غال، الملقب بيانوش، التي كانت دخلت إلى وادي البقاع عبر مدينة حاصبيا واتجهت صوب راشيا الفخار، المتاخمة للتجمعات السورية الرئيسية.

كانت جميع هذه الفرق مكونة من وحدات مدرعة ووحدات مشاة مؤللة، معززة بمدفعية وبغرفة هندسية.

هذا وكانت عملية برمائية مبرمجة قد نفذت على مصب الأولي في شمال صيدا. وكان المطلوب من فرقة المظليين الخامسة، فرقة يارون، أن تقوم بإنزال للسيطرة على الجسر فوق النهر لقطع الطريق باتجاه بيروت على المقاتلين الفلسطينيين. والجنرال عاموس يارون من قدامى الوحدة 269 المسماة أيضاً سايريت ماتكال، وهي وحدة استطلاعية مرتبطة بهيئة أركان الجيش. وكانت هذه الفرقة الخامسة تعتبر نخبة الآلة الحربية الإسرائيلية وقائد هذه الوحدة يشكل بنفسه مركباً خالصاً عن الجيش الإسرائيلي، وهو مولع بأشكال الأحذية القديمة للقفز ذات كعب سميك من الكريب. وإن أثر الجرح الذي كان يزين شفة عاموس يارون السفلى واللفافة التي كان يمسك بها دائماً بين أصابعه، أمست مشهورة في أوساط الجيش بكامله.

كان جدول الأعمال الذي نشره رفائيل إيتان يفيد بما يلي: إن هدف هذه العملية هو إبعاد

قاذفات الصواريخ ومدفعية الإرهابيين عن مستعمراتنا المدنية، دون أن يحدد على مدى أي عمق ستقوم هذه العملية. وأضاف إيتان أن هذه العملية هي لتحاشي أي خطأ مع قوات الطوارئ الدولية في لبنان FINUL المنتشرة على طول الحدود وللاستفادة منذ بدء المعركة بمساندة جوية أكثر فعالية.

استدعى بيغن أعضاء الحكومة لوضعهم بأجواء ابتداء العملية، وعرض رفائيل إيتان الخطوط العريضة للعملية التي لم تعد تحمل اسم "شجرة الصنوبر الصغيرة" إنما اسم "سلامة الجليل". وتغيرت هذه التسمية بناء لطلب بيغن، كون الصنوبر والأرز يذكرون بلبنان والإدعاء بأن العملية هي عملية أمنية محدودة يبدو صعباً أن يصدق، بينما "الجليل" توحي بالدفاع عن أرض الدولة العبرية وهذا يمر بسهولة أكبر سياسياً. وكان أن نائب رئيس الوزراء سيمحا إيرليش، وقد اعترض بقوة على أول مشروع هجوم قدمه أرييل شارون في 20 ديسمبر - كانون الأول 1980، قد توجه إلى وزير الدفاع في آخر العرض الذي قدمه رئيس هيئة الأركان وقال:

- وما الذي سيجري بالنسبة لبيروت؟

- إن بيروت هي خارج إطارنا أجاب أريك بهدوء. هنالك سفارات أجنبية، ويجدر بنا ألا نقترب منها. إن هدف عملية "سلامة الجليل" هو إبعاد مدفعية منظمة التحرير وصواريخها عن مستعمراتنا وليس احتلال بيروت. نحن نتكلم اليوم عن عمق 25 ميلاً.

والحكومة المقتنعة بأن العملية ستقتصر على ضربة موجهة، قد وافقت بالإجماع على العملية. ولاحقاً استقبل مناحيم بيغن زعماء المعارضة فطلبوا بعض الإيضاحات حول مخاطر المواجهة مع سورية خصوصاً في قلعة الشقيف الموجودة ضمن إطار الـ 40 كلم.

- يجدر بنا ألا نهتم بهذا الموضوع الآن، أجابهم إيتان دون أن يعطيهم أي تفاصيل إضافية.

هذا ولم تلاحظ المعارضة ولا الوزراء أيضاً أنه لم يكن هنالك أي تحديد للهدف النهائي.

وفي الحادية عشرة صباحاً كان الجزء الأكبر للهجوم الإسرائيلي قد أصبح داخل الأراضي اللبنانية وكانت هذه العمليات مكونة من 76000 جندي و1250 دبابة و1500 ناقلة جند و12000 شاحنة وأكثر من 600 طائرة مطاردة - قاذفة.

وبعد ساعة من ابتداء العملية نشرت تل أبيب أول بيان عسكري يصف العملية الجارية بعملية بحث وتنقيب عن المدافع وقاذفات الصواريخ الفلسطينية في جنوب لبنان. وبالوقت عينه وجهت إسرائيل إلى سورية عدة رسائل عبر قنوات عديدة، منها أميركا والأردن، وفحوى الرسالة هو ما يلي: "لا تتدخلوا".

ومباشرة وراء الخطوط الإسرائيلية الأولى كانت تتقدم ثلاث وحدات مميّزة تعمل كل منها لمصلحة الأخريات وهذه الوحدات هي: سايريت هآدروزيم[1] وحرس الحدود والاستخبارات العسكرية.

(1) Salim Kadur, "Sayeret Ha'druzim: Ha'yachsanim shel ha'yach'sar", Bamachane (hebdomadaire de Tsahal), 1986.

وكانت سايريت هآدروزيم قوة استطلاعية مجوقلة استحدثت في العام 1968 بناء لاقتراح العقيد الدرزي الإسرائيلي محمد ملاً والذي أصبح بالتالي منضوياً تحت راية الـ سايريت ماتكال[1] وهذه القوة مكونة من جنود يتكلمون العربية ومنتمين الى الوحدة 300، وبشكل أساسي هؤلاء الجنود، هم من الدروز والبدو والشركسيين. وقد استحدثت هذه الوحدة بهدف استعمالها وراء خطوط العدو في حال نشوب أي نزاع مع دمشق. كان على هؤلاء الجنود المرتدين ألبسة حديثة، أن يتواجدوا في المنطقة أو الأمكنة الحساسة والتي قد يلجأ إليها ربما جواسيس أو منظمات إرهابية، أما معلوماتهم فكانت تحلل من قبل حراس الحدود الذين كانوا يلجأون إلى "حملات توقيف ناجحة": جرى توقيف 4000 شخص في مدة 48 ساعة، مسربلين ومعصوبي العينين، كي لا يتعرفوا أو يتصلوا ببعضهم البعض. وكان هؤلاء المشبوهون يُجمعون فوراً بمراكز توقيف، ويواجهون ببعض المتعاونين المقنعي الوجه، ومن كان يشار إليه من قبل هؤلاء تستجوبه المخابرات العسكرية. والمعلومات التي كانت تُجمع، تُدخل مباشرة في الحاسوب المركزي لجهاز الاستخبارات العسكري في تل أبيب.

كان جهاز الاستخبارات العسكرية في هذه الأثناء يعمل بكامل أعضائه، وطلب إلى الاحتياط الالتحاق أيضاً. وكانت أقسام الجهاز الستة، تعمل بكامل طاقتها، ويرتكز جمع المعلومات أساساً على التقاط المخابرات الهاتفية واللاسلكية الفلسطينية والسورية. كان 3000 معتمد موزعين على أجهزة، وعادة حسب المعايير الجغرافية. كان هؤلاء جميعاً يعملون على ملف واحد: لبنان. ومقر جهاز المخابرات العسكرية، مبنى كبير في حرم وزارة الدفاع، ومغطى بعدد من الهوائيات. كان هذا المبنى اذاً يعج كقفير نحل في الربيع. كان كل ما يرد إلى هنالك يحلّل ويستفاد منه ثم يرسل إلى باقي الأجهزة المعنية. كما كان يُرسل إلى الوحدات المقاتلة على الجبهة والى معتمدي أجهزة المخابرات العسكرية على الأرض، نسخة للافادة منها مباشرة.

كان تقدم القوات الإسرائيلية سريعاً إلى حد أن المسؤولين الفلسطينيين لم يتمكنوا من إتلاف محفوظاتهم، كما لم يتلفوا وثائقهم والملفات الإدارية المتعلقة بالموظفين المدنيين والمقاتلين، مع صورة لكل منهم. وفور الوصول إلى هذه الوثائق كانت تصور وترسل إلى الموساد، وإلى جهاز "الشين بيت"[2] والشرطة الوطنية. وفي غضون ساعات أعيد تكوين البناء التحتي الفلسطيني في لبنان والعالم بالتفاصيل، بما فيها جميع الارتباطات مع البلدان الشرقية،. وفي غضون أربعة أيام عرّي الإرهاب الدولي بما فيه تشعباته اليابانية، والألمانية، والإيطالية، والباسكية والإرلندية. وصارت الأسماء والخطط والتركيبات المالية، ومواقع مخابئ السلاح وغيرها داخل الدماغ الاكتروني الضخم التابع لجهاز الاستخبارات العسكرية؛ وغدت العناوين واللقاءات كما الحياة الخاصة للزعامة الفلسطينية أياً كان مستواها واضحة لدى الإسرائيليين.

---

(1) كانت هذه الوحدات ناشطة في الضفة الغربية وغزة بعد العام 2000.

(2) بالرغم من كونها غير مخولة للعمل خارج الحدود، فقد أوكل إلى "الشين بيت" توسيع رقعة عملها لتشمل جنوب لبنان لتحديد الأصدقاء والأعداء.

ولم يكن ما حصد في بيروت لاحقاً إطلاقاً بهذه الأهمية. هذا الحصاد الاستثنائي، حلم جميع رؤساء أجهزة المخابرات في العالم، وحده بإمكانه أن يبرر العملية الإسرائيلية. ولكن هذا ليس حجة بالإمكان استعمالها على الساحة العامة، وبالتالي هذا غير مقبول "كتبرير سياسي"، هذا ما أفاد به أحد مسؤولي جهاز استخبارات أوروبي في لبنان[1].

وفي الثامن من يونيو - حزيران وقبل أن تصل نخبة الوحدات الإسرائيلية إلى حدود الأربعين كلم، ذهب مناحيم بيغن إلى قلعة الشقيف محاطاً بجيش من الصحافيين الإسرائيلين وآلة التقاط المشاهد والمذياع في يدهم. زار بيغن القلعة الصليبية التي وصفها بـ "رمز إنهاء الوجود الفلسطيني في لبنان"، ثم قدمها، بشكل احتفالي، هدية للعقيد سعد حداد قائد جيش لبنان الجنوبي[2].

ثم عاد رئيس الوزراء بسرعة بواسطة مروحية إلى القدس ليترأس جلسة الوزراء التي طلب خلالها آرييل شارون إلى زملائه السماح له بأن يتقدم في هجمته باتجاه الشمال كي يقطع المحور البري بيروت - دمشق. وبواسطة الخرائط والصور الجوية، شرح شارون كيف أن الوحدات المدرعة السورية "تتجه نحو جزين" وكان واضحاً أنه في حال وصول قوات دمشق إلى هذه البلدة المسيحية قد يفرض على الجيش الإسرائيلي مواجهة هذه القوات، إلا إذا قرروا ترك السوريين أسياد جبال الشوف وقد يتمكنون إذاً من أن يتدخلوا باتجاه ميمنة فرقة كلهاني. وكان تقدم رجال هذه الوحدة سريعاً جداً. وبعد تجاوز النبطية كانت الوحدة قد اتجهت لاستكمال تقدمها مغيِّرة اتجاهها نحو الغرب كي تواصل سيرها على مرتفعات إقليم الخروب بين الشوف والبحر، والموازي لطريق صيدا، الدامور. فصّل شارون أيضاً ضرورة حماية الخاصرة الشرقية لمحور التقدم الوسطي وذلك بالقيام باختراق في سهل البقاع. واقترح بالمناسبة، القضاء على راجمات الصواريخ من طراز SAM6 المتواجدة في هذا السهل. فوافق الوزراء على كامل الاقتراحات وطلبوا أن يأخذ الطيران على عاتقه ضرب الصواريخ والقضاء عليها. وفي الساعات الأولى من صباح التاسع من يونيو - حزيران، وقَّع شارون الأوامر الثلاثة التي كان من شأنها أن تغير العملية الأمنية بعمق 40 كلم إلى حرب واسعة الأرجاء.

وفي مساء اليوم السابق، كانت طليعة فرقة مردخاي التي كانت تسير بموازاة الشاطئ التقت شمالي صيدا مَع مظليي عاموس يارون. وتلقت هذه الوحدة الأمر بالاستمرار بهجومها على الشاطئ وأن تحتل الدامور. وكانت الفرقة 35 المجوقلة بقيادة يايا في المقدمة. ويايا هذا يشبه كثيراً كيرك دوغلاس، دائماً معتنياً بهندامه وبتسريحة شعره مهما كانت الظروف، كان يسير على رأس رجاله. كانوا يتقدمون ببطئ على المرتفعات، يدفعون أمامهم بعض عناصر منظمة التحرير والفوج المؤلل رقم 85 التابع للقوات الخاصة السورية بقيادة العقيد اسكندر. وقد دخلوا إلى الدامور في التاسع من شهر يونيو - حزيران مساءً بعد معارك قصيرة وضارية.

أما فرقة إينان فقد تلقت، فور وصولها إلى جزين، أمر التوجه مباشرة نحو ضهر البيدر كي

---

(1) لم يذكر اسمه لأنه لا يزال في الخدمة. حديث مع ألان مينارغ.

(2) في الواقع لم يستقر فيها جيش لبنان الجنوبي. فقد ركز فيها جهاز آمان محطة استخباراتElint, Visint, sigint ومبدل Photint.

تقفل المدخل الشمالي إلى منطقة الشوف. وطلبت تعليمات الجنرال بن غال التقدم باتجاه شمال سهل البقاع و "تدفيش" الفرقة السورية الأولى والوصول إلى الطريق البري بيروت - دمشق، شرقي شتورا، وقطع هذا الطريق. وكانت مهمة الجنرال دافيد إيفري تدمير التسع عشرة منصة إطلاق صواريخ سام 6 التي وضعتها القوات السورية شرقي جبل لبنان.

وفي التاسع من يونيو - حزيران وأثناء وجود وليد جنبلاط مع عائلته في بلدة شملان، علم بأن الجيش الإسرائيلي دخل إلى الشوف ففهم أن الهجمة هي أوسع مما أعلنت عنه تل أبيب في بيانها. فأوفد زوجته وأولاده إلى بيروت وانطلق هو نحو قصره في المختارة حيث وصل ظهراً وكانت القوات الإسرائيلية قد وصلت إلى مدخل القرية المجاورة مصره. فاستدعى بسرعة مستشاريه، أنور فطايري، وشريف فياض. المستشار الأول، شخصية قوية في الوسط الدرزي، كان قد ابتدأ حياته السياسية في المدرسة الثورية لليسار الجامعي اللبناني. أما شريف فياض فكان أكثر تحفظاً. وبصفته عقيداً متقاعداً في الجيش اللبناني، كان بالتالي مسؤولاً عسكرياً للميليشيا الدرزية. أمرهما وليد جنبلاط بأن لا يقاوما، "توازن القوى غير متوافر"[1]. وطلب أيضاً أخذ أكبر عدد ممكن من القطع المدفعية إلى منطقة المتن الشمالي.

وبعد ساعات، توقفت سيارة جيب استطلاعية تتبعها أربع ناقلات جنود من طراز M113 [2] أمام السبيل على الساحة الصغيرة المتاخمة لقصر المختارة، مقر وليد جنبلاط، والتي كانت ملاصقة لمدخل القصر. نزع الضابط حزامه ووضعه على المقعد الأمامي وحذا الجنود الذين كانوا يرافقونه حذوه. بعدئذ، وبدون سلاح، اجتازوا البوابة الحديدية وابتدأوا سيرهم باتجاه أبواب مواقف السيارات ثم صعدوا على السلم المرتفع الدرجات وصولاً إلى الساحة الداخلية. كان هذا امتثالاً للتقليد الدرزي الذي يُلزم كل إنسان يدخل إلى منطقة الشوف بالتوقف في المختارة لكي، وبدون سلاح، يحيي سيّد المختارة. هذا ما كان يقوله الجنود الإسرائيليون الذين كانوا جميعاً دروزاً. بعد هذا مرت العناصر المقاتلة من فرقة إينان تحت شبابيك القصر كي تصادم الوحدات السورية المتمركزة في عين زحلتا على بعد عشرين كلم باتجاه الشمال. وأضطرت فرقة إينان أن تستعمل مدرعاتها كي تفتح الطريق، مواصلة تقدمها باتجاه ضهر البيدر.

وفي الساعات التالية التقى كل من الشيخ محمد أبو شقرا، شيخ العقل، والقائد العسكري للميليشيا الدرزية شريف فياض، وأيضاً الوزير خالد جنبلاط، التقوا مع ضباط إسرائيليين في منزل العميد المتقاعد في الجيش اللبناني سعيد نصر الله. في هذا الاجتماع قبل الدروز إلغاء كل تظاهر مسلح في الشوف بما فيها البذلات العسكرية، وأن يصار إلى تجميع جميع الأسلحة الفردية في مكان واحد يصرح به للجيش الإسرائيلي وعدم السماح للعناصر الغريبة الدخول إلى الشوف.

وعرفنا لاحقاً أن شيمون بيريز، زعيم حزب العمل المعارض كان قد طلب إلى وزير الدفاع عدم التصدي إلى وليد جنبلاط وقد حصل أيضاً عدم نزع السلاح الدرزي طالما هؤلاء لا يقومون بأعمال

---

(1) وليد جنبلاط لألان مينارغ.

(2) ناقلة جند.

عدائية للجيش الإسرائيلي[1].

أما فرقة بن غال فكانت ناشطة في البقاع، وقد اصطدمت بالترتيبات الدفاعية حول بلدة سلطان يعقوب والتي كانت قد ركزت هناك قبل سنة بأمر رئيس هيئة الأركان السورية حكمت الشهابي. قاومت الفرقة الأولى التي كانت تدافع عن المواقع مقاومة شرسة وقوية، أكبر مما كان يلحظه الإسرائيليون. هذا واضطر يانوش أن يتخبط بعدد من المشاكل اللوجستية. أعطال تقنية، عدم توفر المحروقات، زحمات سير على المحور الوحيد جنوب - شمال والذي كانت تسير عليه القوات الإسرائيلية. ورغم مدفعيته وغطائه الجوي ومع هجمات مدرعاته، لم يتمكن من عبور ممر سلطان يعقوب.

فكانت هذه المرة الأولى التي لم يفلح فيها الجيش الإسرائيلي أمام عمل عسكري كهذا. أفاد الإسرائيليون من الاتفاق التعاون الإستراتيجي الموقع مع واشنطن في خريف 1981 كي يستعملوا الطريقة الأميركية C3 I (قيادة، اتصال، تنسيق واستخبارات) طيلة العملية المسماة "سلامة الجليل". مرتبطة بأقمار اصطناعية للاستطلاع الصوري (من تصوير)، وبتحرٍّ إلكتروني وبإنذار بعيد للاتصال والملاحة، أعطت هذه الطريقة الجيش الإسرائيلي غطاءً كثيفاً وإمكانيات كبيرة للاتصال بالخطوط الأمامية والمراكز المتعددة للقرار العسكري المتدرجة في المؤخرة. وأضاف الجيش الإسرائيلي إلى هذه الشبكة الطائرات الأربع من طراز بوينغ 707 والمجهزة خصيصاً للتفتيش عن أهداف جوية أو أرضية والقيام بالتشويش على الاتصالات اللاسلكية وعلى الرادارات[2]. واعترف الجنرال مصطفى طلاس وزير الدفاع السوري بعد ذلك ببضعة أشهر بأن هيئة أركانه انزعجت كثيراً بالعملية الكثيفة للتشويش الإلكتروني التي قام بها الإسرائيليون.

وأول ما اهتم به الجنرال دافيد إيفري كان هدم أجهزة الرادار المرتبطة بصواريخ سام 6. فكان أن أعماها بواسطة ما كانت تبثه طائرات البوينغ قبل دقائق قليلة من التدخل الإسرائيلي بواسطة المطاردات - القاذفات. فتح الطيارون النار عن بعد 35 كلم عن أهدافهم، وبعدها أقلع عدد كبير من فانتوم والسكايهوك، والكفير والF15 وF16 المجهزة بصواريخ أميركية سايدوندر في التاسع من يونيو - حزيران عند الساعة الثالثة والنصف من بعد الظهر. وأقلعت طائرات سورية من طراز ميغ 21 وميغ 23 للتصدي لها. وقبل أن ترتفع هذه الطائرات عن الأرض أنذرت طائرة هاوكاي - رادار E-2C Hawkey، هيئة أركان الجيش الإسرائيلي ودارت معركة جوية ضارية دامت ساعة ونصف الساعة في سماء البقاع حيث سقطت 22 طائرة ميغ ودُمرت 19 منصة إطلاق صواريخ سام 6. وعادت جميع الطائرات الإسرائيلية إلى قواعدها سالمة.

اجتمع بشير الجميّل برفقة بعض مقربيه السياسيين والعسكريين، مساء التاسع من يونيو -

---

(1) شيمون بيريز لمثقفين دروز، أثناء مقابلة، في 9 يونيو - حزيران 1983.

(2) في السادس عشر من أبريل - نيسان 1988، حملت إحداها الرقم المدني 4X007، مجهزة بجهاز تحكم طيار، سيستخدمه يهودا باراك، نائب رئيس الأركان المكلف بالعمليات الخاصة، ليوجه به في حينه المجموعة التي اغتالت أبو جهاد (خليل الوزير)، الرجل الثاني في م ت ف، في دارته بسيدي بوسعيد، على بعد حوالي 40 كلم شمال العاصمة تونس.

حزيران، بمناحيم نافوت وثلاثة ضباط من هيئة أركان الجيش الإسرائيلي وذلك في فيللا الموساد في طبرجا. وقام المقدم جيورا بشرح الوضع العسكري قبل أن يضيف:

– ليس ثمة ضغوط كبيرة على إسرائيل فبإمكاننا إذاً أن نستمر. إن الوحدات السورية هي في حركة دائمة وهي تحاول تعزيز دفاعها. ليس لدينا أي مخطط بالنسبة لبيروت وعلى كل حال لن ندخل إلى خلده، إذ إننا هذا المساء اشتبكنا مع الفوج 87 من القوات الخاصة السورية التي تتولى الدفاع عن هذا المحور، وليس لدينا أيضاً أي مخطط لمعركة مع اللواء 62 المتمركز في المتن الشمالي. وأنا لا أعلم ما هو ملحوظ للخطوة اللاحقة. رفول كلفني أن أقول لكم بأنه لا يحتاج لمساعدتكم العسكرية وأن عليكم أن تحترسوا والآ تشنوا هجوماً ضد السوريين.

– يجب أخذ المخيمات الفلسطينية في بيروت كهدف، طلب بشير. ويجب أن يعتقد الأهالي أنكم ماضون إلى المدينة. قد يكون حسناً لو كان بوسعكم أن تنزلوا على الرملة البيضاء.

طأطأ الضابط الإسرائيلي رأسه قائلاً:

– إن الحكومة لن تأذن لنا بالدخول إلى بيروت.

– نحن بحاجة إلى قصف كثيف على بيروت.

– هذا صعب بمقدار صعوبة الدخول إليها، هذه مسألة سياسية.

– ما هو الوضع في بيروت الغربية، سأل نافوت.

– ابتدأوا يدركون ما الذي يجري. وضغط عسكري أكبر من شأنه تسهيل دخولهم في المخطط السياسي الذي أعددناه. إن المسلمين المدنيين ابتدأو بالهرب باتجاه مناطقنا ولكن يجب الاستمرار بالقصف.

– سأنقل للجنرال رفول مطلبكم، أجاب جيورا.

– الهدف مهم جداً. يجب نزع سلاح الفلسطينيين. إذا شعروا بأقل تردد من جهتكم، فلن يستسلموا. يلحظ مخططنا دخول الجيش اللبناني إلى بيروت بعد نزع سلاح الفلسطينيين، فيجب إذاً تجريدهم وهذا يعني الاستمرار بالقصف، هذا أمر لا مفر منه.

– سأبلغ رفول مطلبكم، كرر جيورا، ولكن لا أعتقد أن حكومتنا ستقبل. عليكم أن تقوموا بعملية مع الجيش اللبناني، اقترح الضابط الإسرائيلي. هل بالإمكان ممارسة ضغوط غير عسكرية كقطع المياه أو الكهرباء مثلاً؟ إلا إذا طلبت إلينا السلطة اللبنانية بالتدخل عسكرياً في غربي العاصمة.

هذا أمر غير واقعي.

وفي اليوم التالي الموافق للعاشر من يونيو – حزيران، صعّد الجنرال آدام يكوتل(Kuti)؛ القائد المساعد للمكتب الثالث (العمليات) لهيئة أركان الجيش الإسرائيلي إلى الخطوط الأمامية للتأكد بذاته من الوضع في الدامور. أسمر اللون، مشورب، كان كوتي يحمل رأسَ بدوي، وشكله شكل لبناني من الجبل. شغل مدة، موقعاً على الشاطئ في إسرائيل، واكتسب حبّه للبحر بسبب اتصالاته مع الصيادين، وكان يمضي وقته الحر إما مع قصبة لصيد السمك وإما في الغطس البحري. كان يعرف السمك بالاسم العلمي لأصنافه وكان قد تلقن طريقة حياة

الأسماك، وأفضل طريقة لطبخها. آدم يكوتل كان مرشحاً لخلافة رئيس الموساد إسحق حوفي الذي كان سيبلغ نهاية الخدمة في شهر سبتمبر – أيلول. أوقف سيارته على حدود الناعمة وراقب بالناظور جبهة خلده. وكانت جماعة من الفلسطينيين المتخفين داخل بناء مهدم، ينظرون إليه، وفتحوا النار على السيارة. أصيب كوتي في وجهه وقتل فوراً. في اليوم ذاته توقفت سيارة أمام قصر المختارة وجمع النقيب الذي كان يقودها، بالقوة العسكرية، جميع السكان. أضطرّ سيّد المكان وباقي الموجودين النزول إلى باحة الشرف. انتشر الجنود في القصر وفتشوا جميع غرفه، واحتجت السيدة ماي جنبلاط والدة وليد بشدة، فأجابها الضابط الإسرائيلي بلهجة شديدة وباحتقار أخرج السيدة ماي عن هدوئها. تدخل نجلها كي يهدئ من غضبها. وفي إحدى باحات القصر وجد الجنود بعض صناديق الذخيرة وعدد من المدافع التي لم تكن قد أخليت، فغضب الضابط شديد الغضب ولكنه لم يمس لا الذخيرة ولا المدافع وذهب كما كان قد وصل. وقبل انتهاء ذلك اليوم أتى ضابط إسرائيلي آخر، وحده، ليحيّي وليد جنبلاط مؤكداً له أن مقره وجميع الساكنين فيه هم بأمان، وفهم الزعيم الدرزي أنه كان ألعوبة بين الأشخاص أو الوحدات المتخاصمة في صفوف الإسرائيليين.

عسكرياً، يوم العاشر من يونيو – حزيران، كان مماثلاً للذي سبقه. على الأرض، تقدمت الوحدات الإسرائيلية باتجاه الشمال وأما في سماء البقاع فكانت معركة جديدة قد وقعت وكانت حصيلتها سقوط 26 طائرة سورية وتدمير إحدى عشرة منصة إطلاق لسام 6.

خلقت هذه المحصلة صعوبات كبيرة في الولايات المتحدة. ومنذ السادس من يونيو – حزيران كانت الخارجية الأميركية قد أكدت ويدها على قلبها إلى السفير السوري في واشنطن أن الأهداف الإسرائيلية هي محدودة وتقتصر على جنوب لبنان وبالتالي لن تكون القوات السورية معنية بذلك. ولما تخطت القوات الإسرائيلية منطقة الأربعين كلم تحركت العجلة الأميركية لإيقاف الحرب قبل الانحدار الكامل للقوات السورية، الأمر الذي من شأنه أن ينتج عنه تدخلاً سوفياتياً. في هذه الأجواء، كان المستشارون الأميركيون يحيطون بالرئيس ريغن، وهم: جيمس بيكر، ومايكل دايفر، وإدون ميز، ووزير الدفاع كسبار واينبرغر، طالبين إليه أن يستعمل جميع الطرق المتوافرة للوصول إلى وقف إطلاق نار. وحده ألكسندر هيغ كان يؤيد عمل تل أبيب.

ومورس الضغط السياسي الدولي بثقل على القدس، إذ عقد مجلس الأمن اجتماعاً طارئاً طالباً وقف إطلاق النار. وسورية التي كانت قد خسرت في المعركة، ما مجموعه 345 دبابة و85 طائرة بمدة أربعة أيام، أعلنت لفيليب حبيب عن قبولها. حاول آريل شارون أن يرفض وقف النار إذ إن وحدته لم تكن وصلت بعد إلى طريق الشام – بيروت. وجرى نقاش بين وزير الدفاع الإسرائيلي والموفد الأميركي وصفتها وسائل الإعلام بشيء من الخجل "عاصفة". وفي اليوم الخامس على اندلاع الحرب في الحادي عشر من يونيو – حزيران 1982 اتصل سفير الولايات المتحدة عند الساعة الثانية ليلاً بمناحيم بيغن مطالباً بوقف العمليات العسكرية باسم الرئيس ريغن، وأبلغ الدبلوماسي رئيس الوزراء الإسرائيلي أن ليونيد برجنيف اتصل بالرئيس ريغن على الهاتف الأحمر مشيراً بأن المضي قدماً بالعمل العسكري في لبنان قد ينجم عنه صراع بين

الدولتين العظميين في مناطق أخرى من العالم. استدعيت الحكومة الإسرائيلية في الرابعة صباحاً ورفضت الطلب الأميركي. عندئذ وضع رونالد ريغن وزنه في الميزان وتتالت الاتصالات الهاتفية بين البيت الأبيض وشارع بلفور[1]، واضطر مناحيم بيغن إلى القبول في منتهى الفترة الصباحية وأذعن لطلب أميركا بوقف إطلاق النار. وكان آريل شارون بحالة غضب دائمة، لم تكن قواه قد وصلت بعد إلى المحور البري وخاصة مرتفعات المتن الشمالي حيث يتمركز اللواء 62 السوري، والقسم الأكبر من مدفعية دمشق وجزء كبير من السكان الدروز. ووقف إطلاق النار من شأنه أن يتيح المجال لسورية لتحتفظ بورقة ضغط سياسية كبيرة في لبنان.

"لو كانت القوات الإسرائيلية وصلت إلى البقاع وجبل لبنان حيث يشكل المسيحيون أكثرية لانقطع الاتصال المباشر بينهم وبين السوريين مما كان وبدون شك قلب الأشياء رأساً على عقب، ولما كانت حصلت حرب الجبل عام 1983" - هذا ما أعلنه لاحقاً وليد جنبلاط[2].

"قبولنا بوقف إطلاق النار كان خطأً كبيراً"، كتب لاحقاً دافيد كمحي[3]. "كان يكفي يوماً أو يومين إضافيين لطرد السوريين من مواقعهم في شرق لبنان، من شتورا، وقاعدة رياق الجوية، وخصوصاً من منطقة زحلة. [. . .] التدخل الدبلوماسي الأميركي ووقف إطلاق النار أديا إلى السماح للسوريين بالحفاظ على مواقعهم، وتعزيزها ومتابعة محاربتهم لإسرائيل". وانتهت الهجمة بطريق مقفل. فالحكومة غرر بها من قبل رفائيل إيتان وآريل شارون. هذا ما أعلنه لاحقاً إيلي غيفا، قائد لواء مدرع مكون من نخبة جنود ممن اعترضوا على احتلال بيروت الغربية. وهكذا "وقع الوزير ورئيس الأركان ضحية أكاذيبهما. لم يكونا قد أعلما الحكومة بما هما فاعلان ووجدا نفسيهما بحالة تناقض مع ذواتهما. وقبل شارون وقف إطلاق النار مضطراً كي لا يطرد من الحكومة. وفهم عندئذ أنه لا يلعب بحياة عشرة إلى عشرين جندياً بل بمستقبله السياسي"[4].

حاولت تل أبيب مباشرة أن تعيد إطلاق آلتها العسكرية بواسطة الميليشيا المسيحية. وفي الساعة الثانية بعد الظهر هرول إلى مقر القوات اللبنانية في الكرنتينا كل من مناحيم نافوت (مندي) وأفنير آزولاي (فيليب) ليبلغا بشير ويشرحا له أن وقف إطلاق النار لا يتعلق إلا بالفلسطينيين وبالسوريين.

- لماذا لا تأخذون المطار؟ سأل نافوت. البلد بلدكم وبوسعكم أن تفعلوا ما تريدون. وقف إطلاق النار يجمد كل عمل عسكري ضد السوريين. افعلوا شيئاً الآن قبل أن يستفيق الأميركيون والعرب. إلى الأمام والقرار عائد إليكم. ليس بوسعنا أن نمنعهم من فتح طريق تؤدي إلى الدامور، وإذا أطلق السوريون النار عليكم فهذا خرق لاتفاق وقف إطلاق النار.

والمعنى المبطن كان واضحاً: هذا يسمح للقوات الإسرائيلية أن تستأنف عملها. القوات

(1) مكان إقامة رئيس الوزراء في القدس.

(2) حديث مع آلان مينارغ، ديسمبر - كانون الأول 1992.

(3) David Kimché, *The last Option*, *op. cit.*, p. 148.

(4) إيلي غيفا لآلان مينارغ، ديسمبر - كانون الأول 1992.

اللبنانية التي كانت تضع الانتخابات الرئاسية في رأس أولوياتها تركت جانباً اقتراح مندي وهذه كانت المرة الأولى التي يطلب الإسرائيليون من القوات الدخول في المعركة، ولم تكن الأخيرة. . .

أما بعد فإن رئيس هيئة الأركان رفائيل إيتان قام بجولة على المدارس في المنطقة المسيحية لاختيار إحداها كمركز للقيادة. واختير مبنى المون لاسال الواقع على تلة تسيطر على بيروت والضاحية الجنوبية - مقر الفلسطينيين. بعد هذا التقاهم آريل شارون في فيللا الموساد في طبرجا. كانوا، الوزير، مع رفّول وبشير برفقة معاونيهم منكبّين على دراسة الخرائط المفتوحة على طاولة. وتدارسوا كيفية التواصل بين القوات اللبنانية والإسرائيلية وقرروا أن يكون اللقاء هذا بقرب قرية بسابا الواقعة على المرتفعات التي تسيطر على مطار بيروت. وقع شارون خريطة الأركان حيث لحظت جميع تحركات الوحدات المتواجدة. أرسل إيلي الزايك فوراً بالمروحية، كي يلتحق بالوحدة الإسرائيلية التي كانت مهمتها تأمين التواصل.

وفي فجر 13 يونيو - حزيران، ذهب فادي أفرام إلى أرض المنطقة التي كانت تمثل آخر الحدود الجنوبية للقوات اللبنانية حيث كانت الصلة متوقعة في هذا المكان. كان يرافق فادي أفرام مسعود الأشقر المعروف بـ "بوسي"، وهو المسؤول العسكري لمنطقة الأشرفية والذي كان قد أخذ قيادة وحدة مسيحية متمركزة كغطاء، يواكبهم ضابط ارتباط من الجيش الإسرائيلي. وفي آخر الفترة الصباحية طلب الإسرائيليون من القوات اللبنانية على الجهاز أن يحددوا مواقعهم بدخان أبيض. نزع مسعود الأشقر صمام الأمان عن قنبلة يدوية فخرج منها دخاناً أخضر.

وبعد بضعة دقائق رأوا صفاً من الرجال يمتدون حتى آخر الطريق المستقيمة آتين إليهم. يايا على رأس المسيرة مكشوف الرأس، والبذلة العسكرية ملطخة والوجه يحمل آثار الغبار والعرق ولكنه بشعر مسرّح جيداً كعادته، والابتسامة على شفتيه. وهكذا تقدم ياحير يورام من فادي أفرام وصافحه مطولاً، وكانت الساعة الواحدة. وهكذا حصلت الصلة بين الجيش الإسرائيلي والقوات اللبنانية. وحصل في هذه اللحظة، مرحلة مهمة من المشروع السياسي، الذي من شأنه إيصال بشير إلى سدة الرئاسة.

وصير إلى بناء خط أمني من جهتي الطريق. وفي الرابعة بعد الظهر حضر بشير الجميّل يرافقه عدد كبير من أركانه لاستقبال رفّول وأمير دروري وقسم من الأركان الإسرائيلية. للاحتفال بالحدث، قدم قائد القوات اللبنانية لرفائيل إيتان علماً أبيض اللون، عليه أرزة خضراء ضمن دائرة حمراء، بعد هذا دخلت الوحدة التي يقودها يايا إلى قرية بسابا. استقبلت هذه الوحدة بالحفاوة من قبل السكان الذين كانوا لا يزالون يسكنون في البلدة ورشوهم بالأرز للترحيب بهم.

بينما كان ضباط الجيش الإسرائيلي متجهين نحو المون لاسال، صعد رفّول واثنين من معاونيه بسيارة بشير من طراز BMW واجتازوا المنطقة المسيحية باتجاه طبرجا. نزع الضباط

الثلاثة شارات رتبهم كي لا يتعرف إليهم أحد في الطريق . كان لهم بشير من الشاكرين لهذا التصرف لأنه لم يكن يريد أن يراه الناس بصحبة إسرائيليين حتى ولو كانوا من مرتبة رئيس هيئة الأركان الإسرائيلية ورفاقه .

في اليوم التالي طلب العقيد ياحير يورام أن يتصل هاتفياً بإسرائيل ، فاصطُحب إلى الكرنتينا إلى مكتب إيزيس ، أمينة سر بشير الجميّل . ومن هنالك وبواسطة مكتب القوات في واشنطن ، اتصل بزوجته في تل أبيب كي يعلمها أنه في بيروت وإن الأمور تسير كما يجب . وكانت المرة الأولى منذ 1948 التي تحصل فيها مكالمة هاتفية بين لبنان وإسرائيل ، وأصبحت السيدة يورام في الرابع عشر من يونيو – حزيران بين الأشخاص القليلين الذين يعلمون أن الجيش الإسرائيلي وصل إلى ضواحي العاصمة اللبنانية وأن منظمة التحرير الفلسطينية محاصرة . علم إسحاق شامير بهذا متأخراً الليلة الفائتة وذلك من فم فيليب حبيب .

ويا للتناقض ، إذ إن الإسرائيليين وضعوا بأجواء "حربهم" بواسطة الإعلام الأجنبي أكثر منه من الإعلام الإسرائيلي . وفي الأيام الأولى للحرب كان صحافيو تل أبيب خاضعين للرقابة العسكرية . لهذا أعطوا دائماً تفاصيل أقل مما كان زملاؤهم يعطونه . إذ كانوا بعد قيامهم بالتحقيقات ، يرسلونها عبر الأقمار من . . . دمشق .

والنتيجة المباشرة لعدم تحكم الرقابة الإسرائيلية بالإعلام العالمي المتواجد في بيروت ، كان أن تمكن سكان الدولة العبرية من الاطلاع على أخبار الجبهة بشكل دائم وعملياً بشكل مواكب للأحداث . من جهة أخرى ، كان الوصول إلى وسائل الإعلام في إسرائيل ، وبشكل خاص من قبل الجنود المتواجدين على الأرض ، عملاً حراً . هذه الأشياء كانت حرة إلى حد بعيد ، إذ إن العسكريين الذين يُسألون ، كانوا على علم وبيّنة من أن البيتاشون ساده ضمن جهاز المخابرات العسكرية المسؤول عن الرقابة ، كان يسهر على "إلغاء" ما كان من الأفضل عدم نشره وأن الجنود الإسرائيليين في لبنان وكالمعتاد – أجابوا دون أي تحفظ على الأسئلة التي كانت تطرح عليهم ولم يتهربوا لا من المذياع ولا من الكاميرات .

كان هؤلاء الجنود يتساءلون علانية حول الدور المطلوب منهم أن يؤدوه معبرين عن بعض القلق المتزايد يوماً بعد يوم . في هذه المرة لم يكن لجهاز الرقابة أي سلطة رقابية فعلية .

عملية "سلامة الجليل" غطيت إعلامياً بشكل نصف مباشر (مع تأخير مدة ست ساعات) وذلك بواسطة وسائل الإعلام العالمية وشبكاتهم الأمر الذي لم يكن قد لحظته لا هيئة الأركان في الجيش الإسرائيلي ولا جهاز استخباراته . إن واقع العمليات العسكرية ونفسية الجيش الذي أكثريته مكونة من الاحتياط ، شوهد على الشاشات الصغيرة في العالم . ونقلت الشبكات الإسرائيلية هذه الأنباء نقلاً عن الشبكات الأخرى . ووجد جميع الذين وقفوا ضد التدخل الإسرائيلي ما يزود انتقاداتهم في الخارج وفي داخل إسرائيل . هذا وبغية إيقاف ما يحصل ، قام جهاز الرقابة بوضع ملصقات على الجدران تعلن بالعبرية ما يلي "إن شرف الجندي هو أن يعرف الاحتفاظ بسر" . وقد وضع عدد من هذه الملصقات على جدران المدن المحتلة" و"المزينة" بصور ياسر عرفات .

17

الشرارة

أنشأ مناحيم بيغن ، في الساعات التي أعقبت وقف إطلاق النار ، يوم 11 يونيو – حزيران 1982 لجنة مختلطة بين عدة وزارات تضم سبعة أعضاء برئاسته ، بغية "وضع مقترحات لأجل تسوية سياسية في لبنان" . وقد أتاح له هذا الفريق الصغير الذي كان يضم بالطبع آرييل شارون وإسحق شامير ، مرة جديدة ، تحت ذريعة ضرورة اتخاذ تدابير سرية ، أن يستبعد أعضاء الحكومة الذين كانوا لا يشاطرونه آراءه مشاطرة كاملة . واستقبلت هذه اللجنة منذ 12 يونيو – حزيران ، فيليب حبيب كي تبلغه أن إسرائيل لن ترحل عن لبنان قبل أن يرحل عنه الفلسطينيون بصورة نهائية . فإن إسرائيل "لن تقبل أبداً بعد الآن بوجود قوات عسكرية في هذا البلد غير الجيش اللبناني [لكنها] قد تقبل بوجود قوة دولية لتأمين الإشراف على المناطق المنزوعة السلاح" ، هذا مع العلم بأن تل أبيب لن تقوم بأية مبادرة في هذا الموضوع . بعد ذلك انتقل مبعوث رونالد ريغن إلى دمشق .

بالرغم من وقف إطلاق النار ، كانت الوحدات الإسرائيلية تتلقى كل يوم أمراً بالتقدم بضعة كيلومترات[1] وكانت القفزة الأولى تلك التي أوغلت فيها مجموعة من 240 دبابة ومركبة عسكرية في الممر الذي تمّ فتحه بالاتصال بالقوات اللبنانية . فاجتازت هذه الآليات منطقة بعبدا التي كان يتمركز فيها الجيش اللبناني دون إطلاق رصاصة واحدة . وفي فجر يوم 14 يونيو – حزيران ، كان الجيش الإسرائيلي يدير ظهره صوب المخيمات الفلسطينية الواقعة في الضاحية الجنوبية للعاصمة ، ويجتاز لأول مرة في تاريخه طريق بيروت دمشق . ولاحظ رفائيل إيتان أن "القوات الفلسطينية في بيروت باتت بعد الآن معزولة تماماً" .

أما في "وكر الجرذان" كما باتت الصحافة الإسرائيلية تسمي بيروت الغربية بعد ذلك ، فكان الأوان أوان التعبئة العامة ، العسكرية والسياسية . وتمركز الفلسطينيون وميليشيات اليسار اللبناني على خط التماس . وتحولت المباني خلال بضع ساعات إلى مواقع محصنة كانت جبّالات الإسمنت تعمل ليل نهار على تحصين الجدران الداخلية للشقق ، وتقوية

(1) هذا ما قاله العقيد إيلي غيفا ، القائد السابق لإحدى فرق المدرعات لألان ميناوغ في كانون الأول 1992 .

الملاجىء، وتركيز الدفاعات ضد الدبابات، وذلك رغم الغارات الجوية المتلاحقة. كانت اللجنة التنفيذية للحركة الوطنية في حال انعقاد دائم في المصيطبة، في قاعات الدار ذات الحجر الأمغر اللون التي تخص رئيسها وليد جنبلاط، لكن في غيابه. وكان هذا على كل حال يتعرض لانتقادات لاذعة تأخذ عليه خصوصاً عدم إبداء أية مقاومة في وجه الجيش الإسرائيلي وتركه الشوف مفتوحاً أمامه. وتعرضت دمشق أيضاً لحملة عنيفة بسبب قبولها وقف إطلاق النار دون أن تأخذ في الاعتبار وضع منظمة التحرير في بيروت ودون التشاور حتى مع قادتهم. وكان ياسر عرفات يكثر من المساعي والاتصالات بجميع اللبنانيين النافذين كما مع السفارات الأجنبية.

بعد ظهر يوم 14 يونيو – حزيران 1982، قرر إلياس سركيس وشفيق الوزان، بناء على توصية قائد القوات اللبنانية، تشكيل لجنة للسلامة العامة يرأسها رئيس الدولة. ودعي للانضمام إلى هذه اللجنة فضلاً عن رئيس الوزراء ووزير الخارجية فؤاد بطرس اللذين يمثلان السلطة الشرعية، كل من النائب نصري المعلوف، وبشير الجميّل، ووليد جنبلاط، ونبيه بري.

ونبه شفيق الوزان إلى أنه:

– في هذا الموضع لا يحق لأحد أن يتهرب من مسؤولياته الوطنية أيّاً تكن الظروف والذرائع التي يدلي بها.

لم تتحدث الصحافة العالمية عملياً عن هذه المبادرة، وكانت عناوينها الكبيرة مخصصة لوقف إطلاق النار في المالوين. إلا أنها حظيت بترحيب جماعي من قبل الصحافة المحلية: "في المرحلة الدقيقة التي تمر بها البلاد، لا يستطيع رئيس الدولة بمفرده أن يضطلع بمثل هذه المسؤولية الوطنية. إن هذه اللجنة تحل بتركيبتها البسيطة مشكلة عويصة هي مشكلة التناقضات الداخلية. على أن هذا لم يكن رأي الجميع، بدءاً بوليد جنبلاط الذي رفض الانضمام إليها. فقام نافوت (مندي) بزيارة إلى المختارة سعياً لإقناعه بتبديل موقفه.

– أظن أن لنا صديقاً مشتركاً هو جوني عبدو، باح الإسرائيلي بهذا القول في بداية الحديث.

– إذا كنتم تعرفونه، فهذا شأنكم أنتم، ردّ الزعيم الدرزي بلهجة جافة.

حاول مندي أن يقنعه بالانضمام إلى لجنة السلامة العامة، لكنه اصطدم بجدار.

– لست أنوي الانضمام إليها، ردّ عليه وليد جنبلاط. أنا أعتبر نفسي مهزوماً. وأنتم تعملون الآن على تمهيد الطريق أمام التطرف المسيحي اللبناني.

ثم أشار بيده إلى رسوم والده وجدّه المعلقة على جدار الصالون وأضاف:

– لن أتنكر اليوم لقناعات أسرتي[1].

عند الساعة الخامسة من بعد ظهر اليوم ذاته، وصل فيليب حبيب ومساعده موريس درابر إلى مقر السفارة الأميركية في اليرزة، آتيين من دمشق، وكانت وحدة من الجيش اللبناني تواكبهما منذ وصولهما إلى مركز المصنع الحدودي، واضطرا أن يجتازا الخطوط السورية – الفلسطينية وأن يسلكا الطريق الجبلية بين زحلة وضهور الشوير وبيت مري. وانتقل فيليب حبيب مباشرة إلى قصر بعبدا ومعه درابر وديلون. واستقبلهم إلياس سركيس على العشاء. وتطرق مبعوث رونالد ريغن، خلال العشاء، إلى المسائل السياسية، خلافاً لعادته، وتحدث عن زيارته القصيرة لدمشق.

اعتبر حبيب أن سوريا في وضع مرتبك حيال الفلسطينيين. والصحافة السورية لا تتحدث إلا عن مشاهدات جنود وضباط سوريين أصيبوا بجروح في الأيام الأولى من الاجتياح الإسرائيلي. وكان الكلام عن المعارك حول بيروت قليلاً جداً، مما يعطي انطباعاً بأن لا شيء يحدث هناك تقريباً. كان هذا ينم عن ارتباك ما عند هذه الدولة الميالة جداً إلى التدخل. يضاف إلى هذا أن قبول حافظ الأسد بوقف إطلاق النار تسليم ضمني بوجود الجيش الإسرائيلي في لبنان. وقد باح القادة السوريون لفيليب حبيب بالحرج الدبلوماسي الذي يضعهم فيه استمرار عمليات الجيش الإسرائيلي، وخصوصاً تجاه العالم العربي. وقد ساءتهم كيداً تصريحات ألكسندر هيغ الذي كان قد أكد منذ قليل أنه في حال انسحاب إسرائيل يجب أن يتزامن هذا الانسحاب مع انسحاب سوري وفلسطيني من لبنان. كانت دمشق قد ذكرت حبيب بأن الثلاثين ألف جندي سوري المنتشرين في لبنان يشكلون جزءاً من قوة الردع العربية وذلك لأداء مهمة كلفتهم بها قمة عربية، وأنه لا يمكن إنهاء هذه المهمة إلا بقرار يصدر عن قمة أخرى. وكان وصول فيليب حبيب إلى بيروت ذريعة استعانت بها الولايات المتحدة لكي تستعمل حق النقض ضد اقتراح لمجلس الأمن يقضي بإرسال مراقبين من الـ "أونوست"[2] إلى العاصمة اللبنانية.

وفي القدس أخذت حكومة بيغن تشهد بقلق تنامي معارضة داخلية أشد فأشد عناداً. وراح التوافق الذي حصل في الساعات الأولى يتلاشى بسرعة. وراحت هذه المعارضة ترتدي أحياناً شكل حملة حقيقية أطلق شرارتها العمالي شمعون بيريز، الذي كان قد فضح "مرامي آريل الكبيرة". وأوغلت الصحافة في هذه المسيرة جازمة بأن "من واجب إسرائيل

(1) قال وليد جنبلاط هذا لألان ميناراغ.

(2) ONUST، مراقبو الأمم المتحدة للإشراف على الهدنة (موجودون مثلاً في سيناء وعلى طول خطوط وقف إطلاق النار حول إسرائيل).

أن لا تدعم حكومة لبنانية تابعة للجيش الإسرائيلي؟ ونددت صحيفة عال-هامشمار العمالية اليسارية، في عددها الصادر بتاريخ 15 يونيو - حزيران 1982، ب "ستار الكذب الذي يحجب العملية منذ بدئها. الآن بعد أن صمتت المدافع، يجب أن يكون هدف القوى الديمقراطية الإسرائيلية، إسقاط حكومة بيغن هذه في أسرع وقت ممكن". كان هذا السجال يقلق رئيس الحكومة، لا سيما وأنه كان يحس بأنه في غاية الضعف منذ أن فقد ثقة أكثرية أعضاء الكنيست بعد مجريات طرح حجب الثقة الأخير.

وفي الليلة ذاتها، ظهر وليد جنبلاط على شاشة التلفزيون الإسرائيلي. كان فريق تلفزيوني قد زار المختارة لكي يطرح أسئلة على "السجين السياسي" كما كان وليد جنبلاط قد نعت نفسه، وقد اعتصم في قصره بصحبة والدته. كانت كل الطرق المؤدية إلى القصر تحت رقابة صارمة من جانب وحدة الجيش الإسرائيلي. وأكد جنبلاط في خلال الحديث أنه "ينظم في الجبل نوعاً من المقاومة السلبية للاحتلال الإسرائيلي". وكرر رفضه الانضمام إلى لجنة السلامة العامة قائلاً: "إنها مسألة مبدأ، فليس في وسعنا أن نشكل لجنة كهذه والمدافع والدبابات على أرضنا وحول القصر الرئاسي في بعبدا". في صباح اليوم التالي، وصل شمعون بيريز إلى قصر المختارة. طلب مقابلة وليد بك جنبلاط مؤكداً أنه مرسل من جانب ويلي براندت رئيس الأممية الاشتراكية التي يشغل فيها الزعيم الدرزي أحد مراكز نائبي الرئيس. لقد جاء العمالي الإسرائيلي، مستنداً إلى انتمائهما المشترك إلى تلك الحركة، كي يقترح عليه أن يشارك في المزايدة السياسية الداخلية في إسرائيل لأجل إيقاف بيغن عند حده. فزجره جنبلاط وأنّبه على المعارك العنيفة الدائرة حول مخيم عين الحلوة الفلسطيني في شرق صيدا. ففي اليوم السابق ألقت إحدى الطائرات قنبلة على ملجأ فانهار فوق رؤوس مدنيين كانوا فيه حيث دفنوا أحياء. وكان الصليب الأحمر قد أحصى أكثر من عشرة آلاف بلا مأوى في المدينة التي باتت محرومة من الماء والغذاء والدواء. وقد أطلق النائب ورئيس بلدية صيدا نزيه البزري نداءً مؤثراً بواسطة التلفزيون من أجل رفع الجثث التي كانت مبعثرة في الشوارع.

- جيشكم قام هناك بعمل بطولي يا سيد بيريز، قال الزعيم الدرزي ذلك بلهجة ساخرة.

- جيشنا لا يرتكب مذابح أبداً، أجاب زعيم المعارضة الإسرائيلية.

- أرسلوا الصليب الأحمر إذاً كي يساعد أولئك البؤساء، اقترح "الأمير" الدرزي ونهض لينهي الحديث.

كان قد مضى أقل من نصف ساعة على وصول زائره. وعلى عتبة الباب، التفت بيريز إلى مضيفه وأكد له أن الجيش الإسرائيلي لن يدخل بيروت أبداً. ولم يكد بيريز يرحل حتى

اتصل وليد جنبلاط هاتفياً بويلي براندت في ألمانيا الذي قال له إن النائب الإسرائيلي لم يكن مكلفاً بأية مهمة[1].

وذهب مناحيم بيغن إلى الولايات المتحدة في 15 يونيو - حزيران 1982، حيث أفهمه ألكسندر هيغ أنه يتمنى أن يقابله لدى وصوله إلى واشنطن ليعرض عليه مطلباً سيكون وضعه في الحكومة عسيراً إن هو لم يستجب له. التقى الرجلان بعيداً عن الأنظار على مائدة فطور في اليوم التالي في فندق والدورف أستوريا الذي نزل فيه رئيس الوزراء الإسرائيلي. طلب وزير الخارجية الأميركية صراحة من بيغن أن يسمح لفيليب حبيب بالحصول على اتفاق يضمن خروج الفلسطينيين سالمين من بيروت وأن يوافق على وقف إطلاق النار الذي كانت تزمع الولايات المتحدة أن تطلبه في غضون 24 ساعة. فوعد بيغن بوقف القتال ولكنه تحفظ لجهة الاتفاق الذي يسعى إليه حبيب. وأقر هيغ بأن "على إسرائيل أن تنجز عملها الرامي إلى استئصال منظمة التحرير الفلسطينية من بيروت، لكنه رأى أن من الأكثر دهاءً أن تتولى القوات اللبنانية نفسها هذه المهمة". فقال له بيغن إن القوات اللبنانية قد تحتاج إلى المساعدة الإسرائيلية.

- أنا أدرك هذا. غير أنه يجب التصرف بأسرع ما يمكن. ولا يجب أن تتحدثوا عن ذلك. لقد قرر ريغن أن لا يستقبلكم إبان زيارتكم هذه، أنبأه وزير الخارجية.

كان بيغن قد اطّلع قبل مغادرته تل أبيب على تقارير تنوه بغضب الإدارة الأميركية. وكانت وزارة الخارجية قد ألمحت إلى إمكان عدم استقبال من جانب الرئيس إذا ما حاصر الجيش الإسرائيلي بيروت. ونسبت إلى "موظفين كبار شاؤوا عدم ذكر أسمائهم" تسريبات تقول إن الولايات المتحدة قررت تأخير تسليم 75 طائرة من طراز F16 إلى الدولة العبرية.

فور مغادرة ألكسندر هيغ الغرفة أمر بيغن "بالشروع فوراً في عملية تصفية منظمة التحرير الفلسطينية في بيروت بواسطة القوات اللبنانية مدعومة من إسرائيل".

على أن اللقاء بين رئيس الوزراء والرئيس الأميركي قد حصل، لكن ريغان استقبله ببرودة شديدة، وكان متشنجاً ومتجهماً. فحاول بيغن ترطيب الجو بمزحة لكنه لم يفلح. وحاول أن يقنع الرئيس بأن إسرائيل كانت في حالة دفاع عن النفس وأن هدفها هو القضاء في لبنان على الإرهاب العربي الذي تموله موسكو.

لكن الرئيس لم يتأثر بهذا الكلام ورفض هذه الحجة بحركة من يده. كانت إسرائيل قد زعزعت مكانة واشنطن في العالم العربي وكادت تثير أزمة مفتوحة في العلاقات الأميركية -

(1) من حديث مع ألان مينارغ.

السوفياتية. فكان يجب على القوات الإسرائيلية أن تنسحب في أقصر مهلة ممكنة من ضاحية بيروت. فأجابه بيغن مباشرة متعهداً بأن لا يدخل الجيش الإسرائيلي العاصمة اللبنانية. وخرج رئيس الوزراء من البيت الأبيض وهو يدرك عزلة هيغ الكاملة وعجزه عن مواصلة دعم الدولة العبرية.

في 17 يونيو – حزيران، استقبل فيليب حبيب وزير السياحة اللبناني مروان حمادة في منزل السفير الأميركي في بيروت. كان مروان حمادة صحافياً ومراسلاً من باريس للجريدة البيروتية التي تصدر باللغة الفرنسية "لوريان – لوجور" وهو من أب درزي وأم فرنسية. وكانت شقيقته نادية كاتبة وشاعرة متزوجة من سفير لبنان لدى الأمم المتحدة، صاحب جريدة النهار المستقلة. كان مروان حمادة رجل حوار، مثقفاً، معتدلاً، وكانت تربطه بوليد جنبلاط صداقة قوية جعلت منه مستشاره السياسي.

وقد عين وزيراً في خريف 1981، وكان يؤمن للزعيم الدرزي اتصالاته المكتومة مع الطبقة السياسية اللبنانية.

طلب منه فيليب حبيب أن يبذل كل ما في وسعه لإقناع وليد بك بالانضمام إلى لجنة السلامة العامة. فحضر في اليوم ذاته إلى المختارة حاملاً رسائل من موفد رونالد ريغن وشفيق الوزان، وياسر عرفات، ورسالة شفوية من إلياس سركيس، وذلك في سيارة السفير الأميركي المصفحة وبصحبة السكرتير الأول ريان كروكر الذي كان وجهه أشبه بوجه مراهق. بعد نقاش مستميت دام ساعة، ارتدى "السجين السياسي" سترته الجلدية السوداء وولج السيارة الدبلوماسية. قصد الرجال الثلاثة أولاً منزل روبرت ديلون. وبرر جنبلاط رفض المشاركة في اللجنة بضرورة توسيعها حتى تشمل عناصر مسيحية ومسلمة أخرى. ثم عرض الاقتراح على إلياس سركيس فرفضه هذا رفضاً قاطعاً. بعد ذلك اجتاز وليد بك خط الجبهة قاصداً منزله في المصيطبة، في الجزء الغربي من العاصمة، حيث كان ينتظره كل قادة الأحزاب اليسارية اللبنانية الذين سبق لهم أن اتهموه "بعدم خوض القتال رغم ما كان لديه من أسلحة ومدافع".

وأوضح جنبلاط منذ دخوله بلهجة على جانب من الحدة قائلاً:

– لم أكن قادراً على مقاتلة الماكنة الحربية الإسرائيلية بمفردي. ودوري هو الدفاع عن طائفتي لا إحصاء الشهداء.

وسرعان ما طويت صفحة الاتهامات، وأكد الجميع مساندتهم الكاملة له. أما ياسر عرفات، الذي لم يتكلم قبل ذلك، فقد تحدث بإيجابية عن الفرصة المناسبة التي يمثلها تشكيل اللجنة. فهي تتيح لمنظمة التحرير الفلسطينية أن تشرع في مفاوضات رسمية مع

اللبنانيين دون أن تتوجه إلى الإسرائيليين والأميركيين. وكان في وسع القضية الفلسطينية على هذا النحو أن تستمر في التمسك بالمبدأ القائل "مع العدو الصهيوني لا مجال للنقاش بل للقتال". لم ينخدع أحد بذلك، لكن الشرف ظل سالماً، خصوصاً بعد وقف إطلاق النار الذي قبله السوريون. وأيده الجميع. وكُلف وليد جنبلاط بأن يعرض في اللجنة الشروط التي تضعها الحركة الوطنية، أي الفلسطينيون في الواقع، عند أول جلسة لها: "انسحاب إسرائيلي مسافة خمسة كيلومترات، ومهلة شهر قبل مباشرة أي حوار". كانوا يسعون إلى كسب الوقت كي يخففوا الضغط العسكري على المنطقة المحاصرة، محاولين أن يسجلوا في الوقت ذاته "نصراً" نفسانياً إزاء دمشق. وكان ياسر عرفات، بوصفه من قدامى العارفين بالسياسة الشرق أوسطية، على يقين من أن الوقت سيلعب لصالحه. وكان بالإضافة إلى مخاطر اهتراء الوضع السياسي المحتومة، يبغي التمكن من التأثير في انتخابات الرئاسة اللبنانية.

– لماذا لا يريد وليد الانضمام إلى لجنة السلامة العامة؟ كان في صوت عبد الحليم خدام نبرة ساخرة. ثم تحولت النبرة إلى لاذعة حين قال: إنه لا يريد مقابلة بشير الجميل؟ لكن من يجتمع بشمعون بيريز يستطيع أن يقابل بشير الجميل.

في تلك الأثناء كان وزير الخارجية السورية يستقبل وفداً من القوات اللبنانية وعلى رأسه كريم بقردوني. كان المحامي الأرمني قد ذهب إلى دمشق مصحوباً بجورج سعادة وجوزف أبو خليل بطلب من بشير لأجل استطلاع موقف السوريين من وجود منظمة التحرير في لبنان.

– نحن نعارض وجود الإسرائيليين، قال بقردوني. لكننا نربط انسحابهم بانسحاب الفلسطينيين. فلا يجوز بعد الآن أن يستمر لبنان في تحمل عبء القضية الفلسطينية. إننا نود أن نضع معكم خطة إنهاء وجودهم العسكري.

– تستطيعون أن تطلبوا ذلك، لكننا لن نبدي رأياً في هذا الموضوع، أجاب الدبلوماسي السوري. قلت عدة مرات لأبي عمار أنه من الضروري أن يبدل تموضعه الجغرافي؛ ولفت نظره إلى أنه جمع كل أسماكه في غدير واحد بحيث أمسى من الممكن أن يقضي إصبع ديناميت واحد على كل شيء.

– إذا خرج أبو عمار حياً من صبرا ستكون أنت الخاسر الأول وأنا الخاسر الثاني، قال بقردوني.

– أوافقك الرأي. إلا أنه يستحيل حمله على الخروج في ظل العلم الإسرائيلي. هل لديك حل آخر؟

– حكومة إنقاذ وطني تجري انتخابات رئاسية تفضي إلى حكم قوي.

– نحن موافقون على النقطتين، أكد خدام. أتعلم ما تريده إسرائيل بالضبط وما تطلب مقابل ذلك؟

– ضمان سلامتها واجتناب الإرهاب. وحينذاك ستفوز تل أبيب بامتنان العالم.

– إسرائيل تريد أيضاً توقيع معاهدة صلح مع لبنان، أعاد خدام التذكير بهذا بصوت رقيق. فهل ستمضون لوحدكم إلى صلح منفرد مع إسرائيل؟

– إذا عاد لبنان موحداً من جديد سنعود إلى الوضع الذي كان قائماً قبل 1949، أي قبل مجيء الفلسطينيين، قال بقردوني. لكن هذا يبقى مرهوناً بموافقة إسلامية. والمسلمون لا يستطيعون الموافقة على هذا المخطط ما دمتم تدعون التهديد الفلسطيني قائماً.

بعد أن طلب عبد الحليم خدام من اللبنانيين الثلاثة أن ينتظروا قليلاً كي يستشير حافظ الأسد، عاد فأكد لهم أن دمشق تنظر بعين الرضا إلى تشكيل حكومة إنقاذ وطني يمكن لها أن تطلب انسحاب القوات السورية. إلا أنه يتمنى ألا تجري هذه المناقشات تحت الضغط الإسرائيلي.

بما أن السوريين لم يكونوا في موقع قوة، فقد لجؤوا إلى التنازلات كسباً للوقت، هم أيضاً.

وتوقفت الغارات الجوية الشديدة على بيروت الغربية فجأة، في فجر 19 يونيو – حزيران، وفقاً لتعهدات بيغن لواشنطن. وأسفر هذا التوقف عن حصول نزوح مزدوج على بضعة كيلومترات مربعة. فحصل نزوح للسكان من الغرب إلى الشرق نحو المنطقة المسيحية بقصد الاحتماء. واجتاحت نقطة عبور المتحف الوحيدة التي فتحت موجة عارمة من الناس، في بضع دقائق، كانت تتحرك بين المركبات المتنوعة والمحملة بالفرش والحقائب وأقفاص العصافير وعلب الكرتون. كانت هذه الموجة تتقدم ببطء شديد. وكانت تخضع في البداية لتفتيش دقيق على حاجز للجيش الإسرائيلي، وبعد بضع عشرات من الأمتار لتفتيش من قبل عناصر القوات اللبنانية. أما النزوح الثاني فكان نزوح ألوف من اللاجئين الفلسطينيين والشيعة الذين غادروا الضاحية الجنوبية نحو الشمال هرباً من المعارك والقصف الجوي، واستقروا أكثر الأحيان بمساعدة مقاتلين مسلحين من أفراد عائلاتهم في المباني التي غادرها أصحابها. وفي شارع الحمراء، الذي كان بمثابة فوبور سانتونوريه اللبناني، احتل النازحون المباني الإدارية والمصارف والمدارس. وتكدست عائلات بكاملها على بضعة أمتار مربعة.

في أصيل اليوم ذاته، اجتاز كل من شفيق الوزان ونبيه بري ووليد جنبلاط، في مواكبة من قوى الأمن الداخلي وحرسهم الشخصي، معبر غاليري سمعان وعبروا خط التماس،

قاصدين القصر الجمهوري في بعبدا حيث كان يجب أن تنعقد أول جلسة للجنة السلامة العامة.

على جانبي إلياس سركيس الذي كان جالساً إلى رأس الطاولة، جلس شفيق الوزان وفؤاد بطرس وكان كل منهما يرتدي بذة غامقة اللون. ثم جلس كل من نصري المعلوف ونبيه بري وجهاً لوجه، ثم بشير الجميّل ووليد جنبلاط. وكان هذان الأخيران لم يتصادفا إلا قبل سنة على عشاء أقامه صديق مشترك هو مارون أبو شرف، وكان كل منهما قد تجاهل حضور الآخر بكثير من التعالي. وكان كلاهما يرتدي قميصاً قصير الكم وقد علق الدرزي سترته على ظهر الكرسي.

– هذا أهم اجتماع أتيح لي أن أترأسه على مدى السنوات الست من ولايتي، استهل إلياس سركيس كلامه بهذه العبارة. وهذه أول مرة منذ زمان طويل، ومن خلال أشخاصكم، يجتمع فيها لبنان بكامله في هذا المكان. إننا، أنتم والدولة، على موجة واحدة وعلينا أن نعمل في اتجاه واحد.

– الوضع يستلزم عملاً مشتركاً، شدد رئيس الوزراء.

أما النائب الروم كاثوليكي نصري المعلوف، فتطرق إلى الموضوع بصورة مباشرة أكثر، فيما بدا أنه تناوب على إعلان النوايا، فقال:

– علينا أن نحدد معاً مستقبل البلاد ودعمنا للقضية الفلسطينية.

– يبدو لي أنك تبحث الوضع في المالوين، قال له بشير الجميّل مقاطعاً. فبيروت تحترق! وعلى أرضنا 60000 جندي إسرائيلي. والفلسطينيون لم يتوقفوا عن لعبة الحرب معهم. والنتيجة أنهم هنا! أتمنى أن نناقش الورطة التي نحن فيها. الإسرائيليون يريدون إخراج الفلسطينيين. فهل هؤلاء مستعدون لذلك؟ إذا كان الجواب بالإيجاب فيجب أن ندرس آليات تطبيقية. وإذا كان سلباً، فهل يدرك السنة في بيروت ما سيحل بهم؟

أعرب الوزان عن موافقته على هذا الكلام بحركة من رأسه بينما كان قائد القوات اللبنانية يتكلم. والتفت نحو وليد جنبلاط داعياً إياه بصورة غير مباشرة إلى الكلام:

– ليس في نية الفلسطينيين أن يستسلموا، قال الزعيم الدرزي. إنهم يطلبون أن يتراجع الجيش الإسرائيلي خمسة كيلومترات وإعطائهم مهلة شهر قبل الإقدام على أي شيء.

– أما زال سنّة بيروت يأخذون في الاعتبار أكاذيب ومناورات أبي عمار؟ صاح بشير الجميّل. هل يقبل هؤلاء السنة اقتراح عرفات؟ أريد جواباً عن هذين السؤالين. وحدق في وجه الوزان الذي لم يُجب.

فأجاب عنهم إلياس سركيس قائلاً:

- أؤيد ما قاله الشيخ بشير.

فانتفض وليد جنبلاط في كرسيه وقال لرئيس الدولة ساخراً:

- هل يعني هذا أنك ستنقل إلينا أوامر مناحيم بيغن؟

- لو كنت أنا من اجتمع بشمعون بيريز أو استخدم التلفزيون الإسرائيلي للإدلاء بتصريح، لكان الأمر عاصفة من الاحتجاج، ردّ بشير وهو يرمق الزعيم الدرزي بابتسامة استفزازية.

- أنا لست عميلاً إسرائيلياً!

- حافظ على هدوئك، لا فائدة من الانفعال، نصحه بشير بالابتسامة الساخرة إياها.

- لماذا تستعجلون استسلام أبي عمار؟ أردف وليد جنبلاط بلهجة هجومية موجهاً كلامه إلى قائد القوات اللبنانية.

- أنا مستعجل لأنكم لا تدركون ما هي اللعبة التي تلعبونها الآن. إذا دمرت بيروت، لن يكون هناك انتخابات رئاسية. ولن يعود في مقدور السنّة أن يشاركوا في الحكم[1] ويصبح ممكناً جداً في مثل هذه الحال أن يكون كل أعضاء الحكومة المقبلة مسيحيين. أنا أريد إنقاذكم! فلنغتنم معاً فرصة الوضع القائم كي نغير أسس علاقاتنا.

- أنا ضد الاحتلال الإسرائيلي، قال الوزان.

- وأنا أريد أيضاً أن ينسحب السوريون من لبنان، ردّ عليه بشير.

استمر النقاش طويلاً حول المطالب الفلسطينية دون تحقيق تقدم. وطرحت مسألة جمع السلاح الفلسطيني بواسطة الجيش اللبناني. فطلب الزعيم الدرزي أن يستشير عرفات.

- إذا كان يجب ان يستشار قبل اتخاذ قرار، فيجب جلبه إلى هنا، إلى هذه الطاولة، فهذا أمر أسهل، قال الجميّل ساخراً.

كُلف الوزان وبري وجنبلاط بسبر غور عرفات لمعرفة حقيقة نواياه. لم يكن بشير الجميّل مستاءً من كيفية سير الأمور في هذا الاجتماع الأول، وأسرّ إلى جان ناصر بعد بضع ساعات قائلاً:

- لقد وضعنا قدماً في الشرعية، ومن حسن الطالع أننا لم نتوصل إلى اتفاق. ولو حصل ذلك لكان مجرد تسوية إضافية. الآن ستدمر بيروت وحينها سيهرولون كلهم راضين بالحلول التي سأقترحها.

(1) إذا خلا مركز رئاسة الجمهورية، يتولى رئيس الوزراء مهام الرئاسة بالوكالة، كما ينص الدستور. وقد جرت العادة على أن يكون رئيس الوزراء في هذه الحالة مسيحياً مارونياً.

عندما وصل زاهي البستاني إلى مدرسة مون لاسال مساء يوم 19 يونيو - حزيران، أدهشه كثرة العتاد وعدد الرجال الذين كانوا في المقر العام الإسرائيلي. كان هؤلاء في كل مكان. فشق طريقه إلى مكتب الجنرال دروري حيث كان آرييل شارون. شرح البستاني لوزير الدفاع الإسرائيلي أسباب العجلة في تحديد أهداف دقيقة جداً على المدى القصير بغية منع المسلمين من العودة إلى مقدمة المسرح السياسي. فأجاب شارون قائلاً إن الهدف الوحيد الممكن هو القيام بهجوم على بيروت الغربية وقد سبق له أن طلب من القوات اللبنانية إشعال "شرارة" عملية ضد "الجيب" الغربي عن طريق القيام بمبادرة عسكرية يجب أن تغطيها وسائل الإعلام الإسرائيلية. لكن القوات تجاهلت الطلب. فشرح لهم شارون أن هذه "الشرارة" ستسمح لهم بتبرير هجوم شامل يشنه الجيش الإسرائيلي على المدينة لدى الرأي العام في إسرائيل والأسرة الدولية، وبعد انجاز هذه المناورة سيتاح لبشير الاستيلاء على الحكم وتأليف حكومة مسيحية.

- يمكن أن تبدأ هذه العملية خلال 24 ساعة أو 48 ساعة، قال شارون. لا تخافوا، سندافع عن زحلة وكل القرى التي يهددها السوريون. وبعد ذلك ستتولون أمر الشمال.

امتنع زاهي البستاني عن الجواب. كان يعلم أن بشير يتردد في القيام بمثل هذه المسرحية، ذلك أن قائد القوات اللبنانية كان يدرك أن أقل عمل عسكري من جانبه ضد بيروت الغربية قد يطيح بكل حظوظه في الحصول على أصوات المسلمين كي يكون انتخابه دستورياً. وكان قد طلب من زاهي البستاني أن يؤمن الاتصالات بالإسرائيليين لأجل التمهل ولكي لا يكون عليه هو أن يرفض "لعب دور الشرارة"، وقال له: لماذا لا يريدون أن يفهموني. إذا كانوا يريدون لي النجاح في الانتخاب فلماذا يدفعونني إلى إحراق الورقة الإسلامية. هذا مع أننا ناقشنا هذا الأمر عدة مرات. بيغن وشارون وأنا".

والتقى البستاني وشارون في اليوم التالي في المكان ذاته ومعهما فادي أفرام وأفنير أزولاي (فيليب). تحدثوا أولاً في محاولات القوات اللبنانية تحويل لجنة السلامة العامة إلى حكومة يتولى فيها بشير الجميّل حقيبة الداخلية التي تعتبر مركزاً حقيقياً لتوجيه الانتخابات. وكان يجب أن يتيح هذا المنصب لقائد القوات اللبنانية أن يمارس تأثيره في الأراضي "المحررة". لقد فكروا لحظة ما بتوليه وزارة الدفاع غير أنهم لاحظوا أن لهم في صفوف الجيش من المتعاطفين ما يجعل هذا الأمر غير ضروري.

كان شارون معنياً أكثر بكثير بالدور الذي يمكن أن تلعبه الحكومة الجديدة لدى الأسرة الدولية. فطلب بلهجة حازمة من اللبنانيين الاثنين ألاّ تقول بيروت شيئاً ضد إسرائيل في مجلس الأمن. "إذا كان لا بد من الإدلاء بطلب الانسحاب فيجب أن يشمل هذا الطلب

السوريين والفلسطينيين أيضاً» كما قال. وسأل فادي أفرام عما يجري في "الجيب" المحاصر، إذ إن رئيس أركان القوات اللبنانية كان يجد يومياً على مكتبه تقارير دوائر التنصت على المخابرات الهاتفية وشبكة المخبرين التي كان قد أقامها إيلي حبيقة.

– إنهم يفرزون مواقعهم بما تيسر لهم.

– وكيف هي معنوياتهم؟

– منخفضة.

– حسناً، فيما خص بيروت، يمكن أن تبدأ العملية في ليل 22 إلى 23 يونيو – حزيران، اقترح الوزير الإسرائيلي. عليكم أنتم أن تقوموا بالخطوات الأولى. نحن نعرف قدراتكم، ولن ندعكم تتحملون من الجهود ما يفوق طاقتكم. لا يمكن إطلاقاً أن تكون العملية عملية إسرائيلية صرف. ويجب أن تغطي الصحافة الحدث. تستطيعون الابتداء بالأسهل... سيسقط منكم قتلى. لقد سقط منا 250 حتى الآن. لا نستطيع أن نتدخل رسمياً إلا لكي نساعدكم أو ننقذكم. يمكن أن يكون الهدف هو الشياح. يمكنكم بحث هذا الأمر مع أمير دروري أو عاموس يارون أو رفول. لن نفعل شيئاً بدونكم. فإذا ابتدأتم فنحن سننهي. نريد مساعدتكم على إعادة توحيد البلاد ونعتقد أن لجنة السلامة العامة ليست قوية بما يكفي بعد لأجل القيام بذلك. فيجب إذاً التفكير بشيء آخر. وسنكون نحن على استعداد بعد ذلك لمناقشة وتوقيع اتفاقات معكم.

سجل اللبنانيان ملاحظات ولم يتعهدا بشيء. وعند انتهاء الاجتماع صادف فادي أفرام في ممرات المدرسة ضابطاً من دائرة الاستخبارات العسكرية كان يعرفه، فقال له هذا:

– تعال! تعال لترى شيئاً ما. وقاده الضابط الإسرائيلي إلى قاعة سدت نوافذها الزجاجية بواسطة أغطية. كانت هذه القاعة قلب جهاز الاستقصاءات الإلكترونية لجهاز آمان (المخابرات العسكرية الإسرائيلية). كان على الطاولة عدة شاشات تلفزيونية تظهر عليها طائرة بالأسود والأبيض.

وتكاد تكون ثابتة في مكانها، كما تظهر أبنية وشوارع. وقاده الضابط نحو أحد أجهزة التلفزيون وشرح له أن طائرات بلا طيار، تحلق فوق بيروت الغربية بلا انقطاع، ما يسمح لها بأن تلتقط معلومات فوتينت في وقت فعلي. وأشار إلى مبنى على الشاشة:

– يوجد هنا مركز فلسطيني. انظر إلى ما سيحدث.

وفجأة ظهر في زاوية الشاشة خط أبيض صغير. صاروخ. توجه إلى المبنى. ورأى أفرام بالسرعة البطيئة كيف اخترق الصاروخ المبنى بسهولة. فتشوهت الطبقات وانتفخت.

وانفجر المبنى وتحول إلى غيمة من الدخان والغبار. كانت عملية تدمير مراكز القيادة التي زرعها الفلسطينيون في المدينة قد بلغت أوجها.

في الدقائق التي أعقبت تطويق بيروت الغربية كان جهاز الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية قد زود جهاز أمن إيلي حبيقة بخريطة جدارية مؤلفة من صور فوتوغرافية جوية طولها عشرة أمتار وعرضها ستة، تغطي "الجيب" المحاصر بكامله. وقد قُسمت هذه الخريطة إلى مربعات يبلغ طول ضلعها كيلومتراً واحداً ورقمت إحداثياتها بأرقام وأحرف كما لو كانت معدة لمعركة بَحْرية. كانت كل المباني الموجودة داخل كل مربع رقماً. ولأجل حسن "رؤية" المباني والتأكد من هويتها، وضع جهاز آمان في المكاتب ذاتها خزائن معدنية تحتوي على أكثر من 10000 صورة مأخوذة على الأرض. فإنه قبل الاجتياح بكثير كان الجواسيس الإسرائيليون قد تجولوا بالسيارة وبصورة منتظمة في كل شوارع بيروت الغربية. وكانوا قد ركبوا في واجهة سيارتهم آلة للتصوير ذات زاوية كبيرة التقطت صورة كل 15 أو عشرين متراً. وكانت هذه الصور تُستعمل للتثبت من صحة الملاحظات التي يدونها الجواسيس الموجودون في بيروت الغربية. وكان هناك نظام للمراجعة يتيح فيما بعد التعرف على المبنى في الصورة الجوية الجدارية. فكانت تنظم كل مساء لائحة بالأهداف تسلم إلى غرفة العمليات في قاعدة جوية إسرائيلية تحوز وثيقة مطابقة لهذه كل المطابقة. وفي فجر اليوم التالي كانت القاذفات المقاتلة أو الصواريخ تؤدي مهماتها.

على أن هدف آمان الأول كان تصفية ياسر عرفات جسدياً. وقد استنفر في مكاتب جهاز أمن القوات اللبنانية رجل اختصاصي بالتصوير الجوي، كان قصير القامة وفي الستين من العمر. وحددت لعملاء إيلي حبيقة في بيروت الغربية وللإسرائيليين الذين تسللوا إلى "وكر الجرذان" مهمة وحيدة هي معرفة مكان وجود "الختيار". فكان أحد الإسرائيليين، المتستر باسم سيليستان، والذي يجيد انتحال شخصية متشرد مثقف فقد كل ما يملك، كان يرتاد الفنادق والحانات التي يتردد عليها الصحافيون الأجانب في بيروت الغربية. كان الرجل طويل القامة، مجدول الشعر على الطريقة الأفريقية، نحيلاً، يرتدي قميصاً قصيراً جداً وسروال جينز باهت اللون، وكان يتكلم عدة لغات، ويقول لمن يريد أن يسمعه أن الحرب سببها تأثير النجوم على البشر. غير أنه كان يصغي إلى الصحافيين وهم يتكلمون عن أحاديثهم أو مواعيدهم مع المسؤولين الفلسطينيين. كانت كل المعلومات المتعلقة بياسر عرفات تنقل فوراً ومباشرة من قبل اختصاصيي آمان إلى غرفة العمليات في القاعدة الجوية حيث كانت طائرة قاذفة تنتظر في حالة تأهب مباشر.

لكن عرفات كان لا يبقى قط أكثر من ساعة واحدة في مكان واحد. كان يأكل، وحتى

يستقبل زائرين وينام في إحدى سياراته الرانج روفر الخضراء[1] التي كانت تجوب شوارع المدينة المقفرة ببطء.

وفي ليلة 21-22 يونيو – حزيران، التقى مناحيم ناحوت (مندي) وأفنير آزولاي (فيليب) بشير الجميّل وزاهي البستاني وجان ناضر وسليم الجاهل، وفادي أفرام وأنطون بريدي في مقر قيادة القوات اللبنانية في الكرنتينا. لقد جاء مسؤولا الموساد ليقولا لهم إن الإسرائيليين عيل صبرهم من حصول "الشرارة".

وكان جوني عبدو قد شرح لهم من قبل أن القوات اللبنانية تتمنى نزع سلاح الفلسطينيين أولاً ثم تأليف حكومة جديدة. فأعاد الإسرائيليان التذكير بأن هدفهم المشترك هو رحيل الإرهابيين "وإلا لما كنا أتينا". قال نافوت واقترح أن يتدخل الجيش اللبناني بدلاً من القوات اللبنانية. فحرك بشير الجميّل رأسه بصورة سلبية. فسأله مندي بقلق:

– ألا تثقون بالجيش؟

فقال قائد القوات اللبنانية:

– إذا كان يلوح لكم أحياناً أننا نناور، فذلك لكي نصل إلى الأهداف التي رسمناها معاً، أنتم ونحن. إننا نريد أن نوقع معاهدة معكم بوصفنا بلداً عربياً لا بوصفنا مجموعة مسيحية أو بلداً مسيحياً. نحن نسعى الآن لنبقى عرباً. أنتم تعلمون أن نظاماً جديداً سيولد في هذا البلد. ونعتقد أن أمامنا فرصة كبيرة للحصول على تعاون المسلمين. أريد أن تكونوا واثقين من أمر يتعلق بي: أعرف أن زمن الاستحقاقات قد جاء، وسأضطلع بكل مسؤولياتي آخذاً مصالح الطرفين بعين الاعتبار. أما الآن، فلنحاول الأخذ بالخيار الذي أدعو إليه. فإذا لم ينجح، فسنأخذ فوراً بالخيار الذي تدعون أنتم إليه.

– لكن لماذا نرجئ العملية العسكرية! سأل ماندي.

كانت خطط عملية (سبارك) "الشرارة" جاهزة. وكان فادي أفرام قد عقد عدة اجتماعات مع الجنرالين أمير دروري وعاموس يارون حول هذا الموضوع. كان يجب أن تبدأ العملية عند كلية العلوم التي استولوا عليها قبل أسبوع، وأن تمتد نحو أحياء برج البراجنة حيث يوجد أحد أهم المخيمات الفلسطينية في الضاحية الجنوبية.

– هذا لا يعني شيئاً من الناحية العسكرية، أجاب بشير متوتراً. ولا أجد نفعاً من الناحية السياسية. لكننا سنقوم بذلك لأنكم تطلبونه. ولا أفهم ماذا ستجنون من ذلك.

– أنتم لا تدركون الضغط الدولي الذي نتحمله، قال مندي.

(1) استولى إيلي حبيقة على هذه السيارة فيما بعد لأجل استعماله الشخصي.

هذه العملية ستخفف عنا على الصعيدين الداخلي والخارجي. فالرأي العام عندنا يطعن بصحة عملنا ويسألنا: "لماذا تماديتم إلى هذا الحد؟"، "أين أصدقاؤكم"...

فحرك بشير يده في إشارة تنم عن استسلام للقدر وقال:

– لكن إذا ظهرنا غداً بصورة فجائية كحلفاء عسكريين لإسرائيل، ماذا سيجري في زحلة؟ في الشمال؟ وستحصل بلا شك قطيعة مع المسلمين. هناك 300000 مسيحي يعملون في البلدان العربية. واقتصادنا مرتبط إلى حد كبير بالعالم العربي.

– عليكم أن تجازفوا الآن. وإذا اضطررنا أن ننسحب فسيكون ذلك كارثة عليكم.

إن إنذار الإسرائيلي يكاد يكون صريحاً. فحدق فيه بشير وقال بلهجة قاسية:

– وعليكم أيضاً.

فابتسم رئيس "مكتب لبنان" في الموساد ابتسامة ذات مغزى لأجل ترطيب الجو ثم اعترف قائلاً:

– أنتم فعلاً على حق. لكننا في حاجة إلى رأيكم. فنحن رسمياً جئنا للدفاع عنكم، لنساعدكم.

– حسناً، سننفذ هذه العملية. لقد اتخذ القرار بهذا الشأن، قال الزعيم اللبناني. إنها ستعود علينا بالضرر، لكن فليحصل ما يحصل. لقد ابتدأتم لأجل هدف كان الجميع متفقين عليه. والآن أخذت الآراء تتباين...

– لا! لا! قال له مناحيم نافوت مقاطعاً. نحن لم نبلغ بعد الهدف الذي حددناه لأنفسنا. لهذا السبب أريد أن أتحدث مع جوني عبدو.

وطرفت عينا بشير السوداوين، إذ إن الإسرائيلي غرس لتوه سكيناً ثانية "تحذيراً" خلال بضع ثوان.

– لا تستطيع التحدث مع جوني عبدو كما تنوي أن تفعل، فهو ليس له أي اتصال رقمي رسمي معكم ولا تستطيعون أن تطلبوا منه شيئاً.

– لكنكم قلتم لنا إنه مكلف بأن يكون الوسيط بين سركيس ونحن.

– كان المقصود بذلك علاقات شخصية. فإذا شئت أن تناقش رسمياً كممثل إسرائيلي وأن تجعل منه ممثلاً لبنانياً، فإن جوني عبدو سيجيبك بأن ليس لديه شيء يقوله لك.

– لقد باشر جوني عبدو مفاوضات معنا ونحن نريد مواصلتها، أصر مندي.

– كان يتكلم بوصفه مسيحياً قريباً منا لا كممثل رسمي. فإذا أردتم أن تقيموا علاقة بين حكومة وأخرى فإنكم ترتكبون غلطة كبيرة. إنه لن يرد عليكم البتة.

لم ينبس رجلا الموساد بكلمة واحدة عن التململ الذي ظهر داخل الجيش الإسرائيلي.

كانت حفنة من كبار الضباط تبدي استياءها وتطرح أسئلة كثيرة في اجتماعات رئاسة الأركان. كان موضوع الأسئلة واحداً: مدى ملاءمة تنفيذ عملية ضد غربي العاصمة اللبنانية. وكان بعضهم لا يتردد في الجزم بأن هذا الهجوم "ليس صائباً سياسياً وأن إسرائيل لن تجني منه شيئاً". كان على رأس هذه المجموعة المعارضة إيلي غيفا، أصغر عقيد سناً في الجيش الإسرائيلي وكان يقود فرقة مدرعات متفوقة. "إن الذين يظنون أنه يكفي الاستيلاء عنوة على مخيم فلسطيني أو اعتقال بضعة آلاف من الإرهابيين، كانوا لا يفهمون تركيبة منظمة التحرير الفلسطينية"(1)، هذا ما قاله فيما بعد. وفي نظره، كما في نظر عدة زملاء له، كان في وسع المنظمة الفلسطينية أن تنتقل وتستقر مجدداً في طرابلس، في شمال لبنان، وأن تستعيد نشاطها. وكان يعتبر أن لأجل طرد الفلسطينيين نهائياً من لبنان، يجب إما أخذ موافقة دمشق وتعاونها، أو استعمال القوة ضد الفلسطينيين كما ضد السوريين. وبما أن الحل الأول غير قابل للتحقيق، يبقى الحل الثاني، ويجب هنا أيضاً تطبيقه كاملاً. وقد صرح العقيد غيفا حتى لرفّول ولشارون بأن "عملية سلامة الجليل" في هذا الإطار كانت سيئة التصور جداً وأنها ستكلف غالياً جداً".

وعاد غيفا وبضعة ضباط إلى الخرائط. وأعادوا النظر في كامل إستراتيجية العملية انطلاقاً من أهداف باتت الآن أهدافهم هم. لقد عاينوا أن كل قدرة الجيش الإسرائيلي وجهت إلى بيروت وكان هذا "خطأ فادحاً" في رأيهم. فلأجل تطويق العاصمة اللبنانية بغية استئصال منظمة التحرير الفلسطينية "كان يجب تنفيذ الهجوم على نحو يسمح بالوصول سريعاً إلى الحدود اللبنانية - السورية. فكان يجب أن تصعد ثلاث فرق إلى سهل البقاع كي تغلق ممر المصنع الذي يفصل سلسلة جبال لبنان الشرقية عن جبل الشيخ على الطريق بين بيروت ودمشق. وهكذا كان قد تعذر على السوريين أن يدخلوا تعزيزات. وكان لبنان، الذي حرم بذلك من الاحتياطي السوري، قد سقط كثمرة ناضجة في أيدي الإسرائيليين، دون قتال"(2). كان إيلي غيفا يعتقد أنه بإثارة هذه المسائل سيحمل "القيادة العليا على التفكير وخصوصاً على التخوف من أن ينضم إليه ضباط آخرون". لكن هذه المحاولة لم تجد نفعاً. فقد أصغى إليه الجنرالات بتهذيب، وعندما فرغ من الكلام، انتقلوا إلى موضوع آخر. فطلب تجريده من وظيفته كقائد فرقة مدرعات.

- لست مستعداً لأكون مسؤولاً معنوياً وأن أُدان على قيامي بعمل أعتبره خاطئاً. سنمنى بخسائر كبيرة إذا دخلنا المدينة، قال هذا لأرييل شارون.

(1) و (2) قال إيلي غيفا هذا لألان مينارغ في ديسمبر - كانون الأول 1992.

إن العقيد الشاب، الذي غامر هكذا بمستقبله العسكري الذي كان واعداً جداً، كان على يقين من أن وسائل الإعلام ستسانده "ومن أنه من الصعب إعطاء الأمر بدخول بيروت الغربية"(1).

لكنه كان مخطئاً إذ إن أرييل شارون وهيئة الأركان الإسرائيلية بادرا إلى التصرف بسرعة أكبر. وأصدر أرييل شارون أمره بتشديد الضغط العسكري على بيروت. وكانت وحدات الجيش الإسرائيلي تقضم كل يوم مئات الأمتار منذ وصولها حتى وصلت إلى جوار أولى بيوت الضاحية الجنوبية، وباتت متأهبة للانقضاض. وصارت لهجة واشنطن أشد قساوة، واستعمل وزير الدفاع كسبار واينبرغر عبارات قاسية لم تصدر قط من قبل عن عضو في الحكومة الأميركية منذ اجتياح لبنان: "لا يمكن تبديل حالة ما بواسطة العنف". وقارن حتى بين الوضع حول بيروت وبين نزاع المالوين: "لأن الولايات المتحدة تشجب اللجوء إلى العنف فقد ساندت بريطانيا العظمى"، قال محذراً وكاشفاً في الوقت ذاته عن أن الإدارة الأميركية تسعى إلى معرفة ما إذا كانت إسرائيل قد خرقت قانون استعمال الأسلحة الأميركية في عمليتها العسكرية.

كان هدير القصف المتواصل لا يزال يغطي المدينة حينما وصل موكب نبيه بري ووليد جنبلاط إلى قصر بعبدا عند الساعة الحادية عشرة من يوم 22 يونيو - حزيران، للمشاركة في الجلسة الثالثة للجنة السلامة العامة. وحل الرجلان مسرعين إلى القصر بينما لجأ رجال حرسهما الشخصي إلى الاحتماء في الكراج الواقع تحت الأرض. كانت ملامح بري وجنبلاط ملامح شخصين لم يعرفا النوم. فقد كانت المدافع تدوي طوال الليل بلا انقطاع. وحتى السفن الإسرائيلية كانت تقصف المدينة. وكذلك كانت ملامح شفيق الوزان الذي كان قد وصل قبلهما بقليل. وكان يبدو على بشير الجميّل وحده أنه نام جيداً.

واشتد القصف لحظة دخولهم قاعة الاجتماع. فطلب بري وجنبلاط من رئيس الدولة أن يتدخل بصورة حازمة لأجل إيقاف القصف كما طلب أن يحضر فيليب حبيب الاجتماع. لم يعترض بشير على ذلك. وكان قد أجرى الليلة الفائتة مناقشات مع الأميركي والرئيس اللبناني، واتفق الثلاثة على أنه من الضروري جداً أن تنسحب المنظمات الفلسطينية من بيروت قبل انسحاب الإسرائيليين. ورفعت الجلسة بانتظار وصول مبعوث رونالد ريغن الخاص. ولدى وصوله، التقى حبيب، بشير الجميّل الذي كان يسير في الممشى، فدنا منه، وصافحه، وأسرّ في أذنه بصوت خافت:

- ما فعلته وما تقوله ممتاز. ستكون رئيس الجمهورية اللبنانية القادم.

(1) أقيل من منصبه في أول أغسطس - آب 1982 ولم تسمح الرقابة العسكرية الإسرائيلية للصحافة إلا بالكلام عن "حادثة".

اتسمت بداية النقاش باحتجاجات شديدة من جانب الذين جاؤوا من بيروت الغربية. ورسموا صوراً مأساوية لظروف عيش السكان وحالة المدينة.

- الفلسطينيون لا يقبلون بالنقاش ما دام القصف مستمراً، أضاف نبيه بري.

- إذا كنتم تريدون إيقاف إطلاق النار فسأسعى للحصول عليه. لكن قولوا لي ما سيجري بعد ذلك لكي أستطيع إقناع الإسرائيليين.

أخرج إلياس سركيس ورقة من ملف كان أمامه وقرأ بصوت عال وكأنه أراد بذلك أن يسجل عدم رضاه عن مضمونها:

- يوجد هنا اقتراح يقضي بأن ينسحب الإسرائيليون خمسة كيلومترات بدءاً من الموقع الذي يحتلونه الآن، وإقامة منطقة عازلة بين هذه الخطوط وخطوط الفلسطينيين وإيقاف لإطلاق النار مدة شهر.

- إذا طبقت هذه النقاط فإن المقاومة (منظمة التحرير الفلسطينية) ستنفذ بسرعة كل ما يمكن أن تطلبه الحكومة اللبنانية، أضاف شفيق الوزان.

- هذا ليس واضحاً، قال الأميركي.

فشرح بري وجنبلاط أن الفلسطينيين ينوون احترام السيادة اللبنانية وسلطة الدولة.

- هذه هي النغمة التي نسمعها كلما أحس ياسر عرفات بأنه في مأزق. هذا لا يكفي شيئاً! قال بشير مقاطعاً. فالتفت إليه فيليب حبيب ورد عليه بنبرة قاسية:

- أستطيع أن أطلب منك أن تصمت كي أتمكن من العمل.

كان لهذه الملاحظة وللهجة المبعوث الخاص الأميركي وخصوصاً الصمت الذي لاذ به قائد القوات اللبنانية وقعها على القادة الآتين من بيروت الغربية. وبدا جنبلاط مرتاحاً إلى هيبة فيليب حبيب فردد المطالب الفلسطينية وأضاف إليها وجود قوة فصل دولية.

- سأحاول إقناع الإسرائيليين لكنني لست متأكداً من نيل ذلك.

أثار هذا التحفظ غضب الزعيم الدرزي فهاجم الحكومة الأميركية ناعتاً إياها بالمخاتلة والكذب. فرد فيليب حبيب بلهجة حادة جداً:

- حكومتي أشرف من حكومتكم التي هي المسؤولة الوحيدة عن كل ما يجري. أنا هنا لكي أرى ما أنتم قادرون على فعله. وحسبما فهمت، فأنتم تريدون إيقافاً لإطلاق النار، وتراجعاً إسرائيلياً مسافة خمسة كيلومترات، ومنطقة عازلة، واحترام سيادتكم، وانسحاب السوريين والفلسطينيين.

كانت اللجنة تستمع إلى الأقوال الجارحة التي تبادلها الرجلان لكنها لم تعر العبارة الأخيرة اهتماماً، وكان بشير هو الوحيد الذي قبل العرض بكامله. وحاول نصري المعلوف

صرف الأنظار عن ذلك مدافعاً عن القضية الفلسطينية، فرفض بشير الجميّل دفاعه رفضاً قاطعاً.

- لن أعود وأتدخل في شيء إن لم تتوصلوا خلال ثمان وأربعين ساعة إلى الاتفاق فيما بينكم على انسحاب السوريين والفلسطينيين، قال فيليب حبيب محذراً.

لم يعلق أحد على كلامه. كانت براعة المبعوث الأميركي قد جعلت من الانسحاب السوري والفلسطيني قراراً تتخذه لجنة السلامة العامة دون الإتيان على ذكر الانسحاب الإسرائيلي. وقد أعلم ألكسندر هيغ على الفور بما صار إليه الموقف اللبناني.

فور انتهاء جلسة لجنة السلامة العامة التقى آرييل شارون ومعه مناحيم نافوت (مندي) وأفنير آزولاي (فيليب) سراً مع بشير الجميّل وفادي أفرام في منزل هذا الأخير في برمانا. رسمياً، لم يكن يوجد أي اتصال بين قائد القوات اللبنانية والوزير الإسرائيلي. ولم يكن وارداً على الأخص، في ظل الوضع السياسي الراهن، أن يسمح بإثارة أدنى شائعة حول هذا الموضوع. كان شارون قد وصل إلى لبنان صباح ذلك اليوم ومعه فريق من الصحافيين الذين جال معهم في مؤخرة المنطقة المسيحية إبّان اجتماع لجنة السلامة العامة. كانت البلاجات تغص بالرواد على بعد عشرة كيلومترات فقط من الجهة التي انتشر عندها الجنود الإسرائيليون. وشعر وزير الدفاع أمام هذا المشهد بالدهشة أكثر منه بالصدمة، وتحدث عن ذلك فيما بعد بلهجة ساخرة في مجلس الوزراء إذ قال: "كنت أتوقع أن أرى أمام مكاتب التعبئة في جونيه صفوفاً طويلة من الشبان الآتين للتطوع، كما كنت أظن أن السكان يعملون في حفر الخنادق أو تعبئة أكياس الرمل. لكن الصفوف كانت تتزاحم أمام دور السينما والناس كانوا قاعدين على سطيحات المقاهي".

عرض بشير على شارون الشروط الفلسطينية، فثارت ثائرته وقال:

- هذا غير مقبول. ليست هذه سوى وجهات نظر تضمنها محضر، ويجب أن تبقى هكذا.

فطمأنه بشير بابتسامة عريضة وأخبره بمناورة فيليب حبيب. ثم تكلم الوزير عن حصار بيروت، وسأل:

- هل أنتم واثقون من كونكم قطعتم كل تمديدات الماء عن هذه المنطقة؟

- نعم، وقطعت الكهرباء أيضاً. إلا أنه توجد آبار ارتوازية في كل مكان في هذا الجزء من المدينة.

- ماذا سيحصل إذا تقرر إيقاف إطلاق النار؟

- سنخسر وقتاً.

– هذه هي المشكلة حقاً! قال شارون. الوقت يدهمنا.

حدثني مندي عن الاجتماع الذي جرى بينك وبينه. وحسبما فهمت، فإن مشاركتكم في الهجوم على بيروت الغربية يمثل مشكلة لكم. لقد قررت أن لا أطلب منكم ذلك. لن أمارس ضغطاً. وأرى أنكم قد تكونون على حق.

– لقد قررنا أن نشارك في هذا الهجوم ولن نتراجع، قال بشير بلا حماسة. وما قلته لمندي كان مجرد وجهة نظر.

– يجب أن تفهموا أن الدخول إلى عاصمة عربية يطرح أمامنا مشكلة هامة. نحن نتعرض لضغوط شديدة. المتاجر عندكم مفتوحة، والناس يقصدون البلاجات، وحركة المرور على الطرق طبيعية. لقد ترك احتياطيونا أعمالهم ليأتوا إلى هنا. وقد دفعنا حتى الآن ضريبة دم ثقيلة في هذه القضية. فالضغط الشعبي يزداد والصحافة تسهم في ذلك. لدينا مشكلة حقيقية سأحلها مع حكومتي. لن يصيب اللوم أحداً من جراء ذلك. أنا أفهم وضعكم الداخلي. لكنني أيضاً واثق من أنه إذا بقي السوريون في لبنان ولم يغادر رأس الحية بيروت، سيكون شهر العسل عندكم قصيراً جداً. لكم أنتم أن تقرروا، أما أنا فلا أطلب منكم شيئاً.

وأكد بشير من جديد، وهو بادي الانزعاج، عزمه على تنفيذ عملية "الشرارة"، "أياً تكن العواقب".

– لقد بدأنا بقطع الماء والكهرباء، ونحن مستعدون للذهاب إلى أبعد من هذا بكثير، حتى عسكرياً إذا اقتضى الأمر. إذا كانت معركة بيروت لا يمكن أن تحصل إلا بمشاركتنا، فسأقاتل إلى جانبكم. على أنني سأتمكن من تقديم عون أكمل لكم عندما تصبح السلطة في يدنا.

– ومتى سيكون ذلك؟

– في منتصف شهر تموز. لقد اتفقت مع حبيب وسركيس. سيكون في وسعكم آنذاك أن تعتمدوا علينا. سأبادر إلى مساعدتكم ومعي لبنان بكامله. ليس معكم حتى الآن سوى المسيحيين. لم يعد يفصلنا عن انتخابات الرئاسة سوى ثلاثة أسابيع. ونحن نخاطر، لقاء ثلاثة أسابيع، بخسران سبع سنوات من الجهود.

– فهمنا موقفكم، ولسنا نطلب منكم شيئاً، أكد شارون من جديد. لكن كيف لنا أن نثق بأن لا تطلب الحكومة اللبنانية انسحابنا قبل ذلك الحين؟

– أتحمل كامل المسؤولية عن ذلك. وإذا رغبت، فإن جوني عبدو أيضاً سيؤكد لك هذا.

– وعدك يكفيني.

على أن شارون التقى سراً المبعوث الخاص لرونالد ريغن قبل أن يعود إلى إسرائيل. وأكد له الأميركي شروط الفلسطينيين.

– لا تحرق هذا الشاب وتجنب إحراجه، نصحه فيليب حبيب خلال الحديث مشيراً إلى بشير.

وحصل على وقف لإطلاق النار مدة 48 ساعة.

إن بيغن أقل تفهماً لمواقف القوات اللبنانية. وقال بلهجة حادة: "إنه لم يحرك إصبعاً"، عندما تكلم عن بشير بعد أن أخبره شارون عن الحديث الذي دار معه. وطلب رئيس الحكومة من الموساد أن "يستدعيه في أقرب وقت ممكن".

استأنفت لجنة السلامة العامة عملها في اليوم التالي، أي في 23 يونيو – حزيران 1982، بحضور فيليب حبيب أيضاً. كان هذا يريد أن يعرف ما إذا كان لبنان يؤيد الشروط التي وضعها الفلسطينيون.

– لا! صاح بشير.

– حسبما فهمت، أنتم تطلبون وقف إطلاق النار وتتركون الباقي للفلسطينيين. لكن ماذا تعني في نظركم كلمات "سريعاً" و "سيادة" الواردة في طلبهم؟

أجاب بشير قائلاً:

– "السرعة" عند أبو عمار تعني عشر سنوات بعد وقف إطلاق النار ومجادلات لا نهاية لها. وهكذا يستطيع الفلسطينيون اغتنام الفرصة لتقويض الجيش الإسرائيلي كما فعلوا بالجيش اللبناني والجيش السوري. و"السيادة" عند أبو عمار تعني السماح لمنظمة التحرير الفلسطينية بأن يكون لها دور سياسي في لبنان وأن تتاح لها إمكانية تكديس الأسلحة والذخائر فيه. ثم يقول لنا: "أنتم عرب ونحن عرب". وسيطلب مهلة ليستشير هذا أو ذاك. ياسر عرفات يتنفس ستين مرة في الدقيقة، لكنه يكذب مئة وعشرين مرة في الدقيقة. إنه يحاول التخفيف من شدة الطوق الذي يضغط عليه كي يتاح له الوقت اللازم للمناورة.

فقال جنبلاط بصوت خافت:

– أوافق تماماً على ما قاله بشير الجميّل. لكن ليس الآن وقت قول ذلك علانية.

كانت دهشة فيليب حبيب عظيمة لدى سماعه ملاحظة الزعيم الدرزي. وكان قد لاحظ أن شفيق الوزان كان يبدي موافقة بحركة من رأسه حين كان يتكلم الزعيم المسيحي.

– يجب أن نعطي الإسرائيليين أجوبة عن الأسئلة التالية. أولاً، هل سيكون الفلسطينيون الذين سيبقون في لبنان تحت سلطة الدولة اللبنانية؟ ثم، هل ستبقى القيادة

الفلسطينية في لبنان؟ وأخيراً هل ستتمركز وحدات عسكرية فلسطينية على أرضكم؟ سأل فيليب حبيب. أذكركم بأنهم لم يقبلوا بوقف لإطلاق النار إلا مدة 48 ساعة!

أجاب جنبلاط قائلاً:

– لن أنقل هذه الأسئلة إلى الفلسطينيين، لأنهم لن يقبلوها. سأتخلى عن كل شيء وأصعد إلى المختارة.

فاقترح نبيه بري وضع "وثيقة لبنانية" يمكن أن يكتبها نصري المعلوف وتحدد مواقف اللجنة.

فرد بشير الجميّل قائلاً بلهجة هجومية:

– أنا لا أثق بنصري! سنضع هذا النص مجتمعين! لماذا لا يتصل الوزان مباشرة بعرفات لكي يعرف الأجوبة. فليذهب إليه ويجلبه إلى هنا كي يجيبنا مباشرة!

فقال شفيق الوزان:

– جرى اجتماع هذا الصباح في دار الفتوى مع رؤساء حكومة سابقين، وقررنا أن نطلب من الرئيس سركيس أن يوجه نداء إلى العالم. لقد تلقى الفلسطينيون ضربة قاسية، لكنهم لم يتحطموا. لذا يجب التفاوض معهم.

أحس بشير الجميّل بأن هذا الاقتراح قد يصبح حبة الرمل التي تزعزع الترتيب السياسي الذي وضعه نصب عينيه. انتهت الجلسة دون تحديد موعد جديد للاجتماع. وتصرف قائد القوات اللبنانية على نحو جعله في خلوة مع وزير الخارجية فؤاد بطرس.

– يجب تأجيل توجيه الرئيس نداءه إلى العالم أطول وقت ممكن.

– هذا صعب للغاية. ليس في وسع الرئيس أن يختلف مع رئيس الوزراء.

فعبس بشير الجميّل وقال:

– يجب إمهال الإسرائيليين. ومثل هذا النداء سيحدث ردود فعل عندهم وعند الأسرة الدولية. حاول أن تثنيه. وإذا لم تفلح أخبرني بالأمر قبل إعلانه ببضع ساعات كي أتمكن من تهيئة الجو مع الإسرائيليين.

وبعد ذلك بخمسة أيام، اكتفى إلياس سركيس بتوجيه "نداء عاجل" إلى رؤساء الدول العربية.

"يجب أن تساعدونا لأجل إنقاذ بيروت من الكارثة التي قد تحل بين لحظة وأخرى، أتمنى من كل قلبي أن يجد هذا النداء أصداء مؤاتية". لم يجد أي صدى.

دنا بشير من فيليب حبيب في فناء القصر الجمهوري وهمس في أذنه:

– شكراً على يوم أمس، ملمحاً بذلك إلى التواطؤ الأكيد بينهما إبان اجتماع اللجنة وخلال اللقاء مع شارون.

فابتسم الأميركي وقال:

– هل فهمت؟

– أجل فهمت.

عند هبوط الليل ركب بشير الجميّل واثنان من أقرب معاونيه مروحية إسرائيلية من طراز "بل" في الزوق. وبعد ساعة ونصف دخل الثلاثة إلى صالونات فندق هلتون في القدس حيث كان ينتظرهم آرييل شارون ورفّول، رئيس الأركان، ومعهما أوري ساغي رئيس المكتب الثالث (B3)، وإسحق حوفي مدير الموساد، ودافيد كمحي مدير وزارة الخارجية، والجنرال أبراهام تامير. كان الجو جدياً أكثر منه دراسياً. كان الإسرائيليون، وهم يتناولون وجبة طعام غنية، يتناوبون على القول بأن الوضع الداخلي في إسرائيل صعب جداً. فالتظاهرات تتكاثر، وتعليقات الصحف تزداد عنفاً، ويرفض عسكريون احتياطيون أن يلتحقوا بوحداتهم. وعرض دافيد كمحي لائحة بردود الفعل المعادية لإسرائيل في العالم.

كان الاستنتاج واضحاً: العملية العسكرية ضد بيروت ذات أهمية قصوى. إن تل أبيب تعتبر أن استئصال "وكر الإرهابيين" الذي زرع في قلب العاصمة اللبنانية لا يمكن إلا أن يقابل بالترحاب من جانب الأسرة الدولية. ويعتبر مجلس الوزراء الإسرائيلي أن اشتراك القوات اللبنانية لا غنى عنه لأجل تبرير دخول الجيش الإسرائيلي المدينة. هذه مسألة سياسية لا عسكرية. ودخل رفّول في التفاصيل واقترح أن تفتح القوات اللبنانية الطريق قبل أن تتدخل قواته بثلاث ساعات ثم تتولى القوات الإسرائيلية التغلغل في بيروت الغربية بكاملها. وأكد مدير الموساد أن الفلسطينيين سيطاردون حتى آخر بيت يتحصنون فيه.

– إذا كانت العملية تستوجب أن نظهر علناً أننا مشاركون في عمل عسكري، فأنا مستعد لذلك، أجاب بشير. إذا كان يجب دفع هذا الثمن فأنا مستعد لدفعه. لكن العواقب السياسية ستكون هامة، إذ إنني لن أتمكن بعد ذلك من أن أؤمن لكم غطاءً سياسياً لأنني سأُعتبر واحداً منكم أو حليفاً لكم.

– أفهم وجهة نظرك، أجاب شارون. وأقترح عليك أن تعرضها على بيغن. أما فيما خصني، فثق بأن جنودنا سيتدخلون لمساعدة أية قرية مسيحية تتعرض للخطر.

كان قادة القوات اللبنانية يواجهون مأزقاً آخر، مأزقاً عسكرياً هذه المرة. كانوا يريدون بأي ثمن أن يواصل الإسرائيليون تقدمهم نحو مرتفعات المتن حيث كان يتمركز كابوسهم: اللواء المدرع السوري 62 الذي يقوده الجنرال شربا والذي يتمركز في سوريا عادة في مبطين. ففي سنة 1978 دوخت هذه الوحدة، التي كانت آنذاك بقيادة العقيد الشورا المقاتلين المسيحيين أثناء حصار الأشرفية. ويسيطر رجالها البالغ عددهم ثلاثة آلاف اليوم على

الجانب الغربي من الجبل شمالي طريق بيروت – دمشق. وكانت مدفعيتها الثقيلة وهواوينها من عيار 160 ملم تغطي جزءاً لا بأس به من "الجيب" المسيحي الذي ينتشر عند أقدامها. كانت تمثل شوكة حقيقية في خاصرة جهاز القوات اللبنانية التي كان يستحيل عليها والحالة هذه أن تتحرك صوب الشمال. فإذا لم تستجب القوات للطلبات الإسرائيلية فيما يتعلق ببيروت الغربية، فإن التقدم الذي تتمنى حصوله صوب المتن لن يتحقق أبداً.

وانتقل شارون وبشير ومن معهم إلى منزل رئيس الوزراء الذي كان قد عاد بالأمس من واشنطن على متن طائرة مدنية لشركة العال. وبالرغم من أن الساعة كانت متأخرة، فقد سلكوا مدخلاً جانبياً، تحاشياً لمصادفة صحفيين. كان التعب بادياً على وجه بيغن، لكن صوته كان حازماً.

– يجب أن يكون شعاركم "تحرير أرضكم"، قال بيغن ناصحاً بشير. ستتخذ حكومتي غداً موقفاً من عملية بيروت العسكرية. أستطيع أن أقول لكم إن ثمة أكثرية تؤيدها حقاً. ستباشرون التحرير ثم يحصل انقلاب كبير في الأوضاع، لا سيما وأن السوريين لم يعودوا قادرين على الهجوم. لقد قدمنا حتى الآن تضحية كبيرة، وخسرنا كثيراً من الضباط. يجب أن ننتهي من هذا الوحش. لم أطلب منكم شيئاً منذ البداية، أما اليوم فأطلب.

– لقد وجدت دوماً هنا تفهماً وحباً، أجابه بشير. ويستحيل عليّ أن لا آخذ في الاعتبار عواطفي نحوكم. نحن الآن نبني لبنان حسبما حددناه في اللحظات الصعبة. أريد أن أعود إلى هنا كرئيس للجمهورية وليس كزعيم طائفة. لذا، فيما خص "الشرارة"، أود أن ألفت نظركم إلى نقطتين. أنا، بشير الجميّل، لا أحوز اليوم الكفاءة السياسية لتغطية هذه العملية العسكرية لأنني لست أمثل المسلمين بعد. ومن جهة أخرى، نحن ندخل الآن في الشرعية ويمكن لهذا الأمر أن يقضي على كل شيء.

– على كل واحد أن يخاطر.

نزل هذا الجواب كصدمة قوية. وأدرك بشير في تلك اللحظة أهمية التغيرات الحاصلة في مواقف مخاطبه. فهو يريد الآن من القوات عملاً عسكرياً حتى ولو كان هذا ينطوي على خطر إقامة "لبنان الصغير" المنحصر في "الجيب" المسيحي الذي سبق له أن رفضه. وقال في نفسه "لا بد أن تكون الضغوط الداخلية والخارجية التي تمارس عليه قوية جداً".

– كان علينا أن ندخل لبنان وقد فعلنا ذلك دون أن نستشير الأميركيين، زأر بيغن. نحن دولة ديمقراطية. تحدثت في البداية عن 40 كيلومتراً، وهاك أين نحن اليوم. بعث إليّ ريغن برسالة تهديدية طالباً إيقاف القتال. فرفضت. لكننا اضطررنا في اليوم التالي أن نقبل بذلك. بيروت منطقة خطرة وعلينا أن ندخلها. نحن بحاجة إلى مشاركتكم لأنكم تمثلون لبنان. هذه

ساعة القرارات الكبيرة، تلك التي سيكون لها وزنها في التاريخ. يجب أن تكون القوات اللبنانية صانعة في تحرير عاصمتها، ويجب أن يتم هذا بسرعة.

– يريد رفّول أن يبدأ صباح الاثنين، بعد خمسة أيام. سيستغرق الأمر 24 ساعة، أوضح شارون.

– يجب أن نتوقع ردوداً انتقامية في زحلة وفي الشمال، قال بشير.

فقاطعه وزير الدفاع قائلاً:

– سندافع عنكم.

– مشاركتنا ستقطع علاقتنا مع المسلمين، قال رئيس القوات اللبنانية.

فقال بيغن رافعاً يده:

– إذا انتصرتم سيهللون لكم.

– سيكون علينا أن نوقع معاهدة دفاعية، قال بشير في محاولة لإبراز ضرورة الدور الرسمي الذي يجب أن يكون له من أجل القيام بهذا العمل.

فرفض بيغن هذه الحجة وقال:

– سنوقع المعاهدة خلال 24 ساعة. وستكون ثاني معاهدة صلح مع بلد عربي.

فوافق بشير وقلبه يغلي غيظاً، على عملية "الشرارة". ولم يبق سوى عقد اجتماع أخير للتنسيق بين أعمال القوات اللبنانية والجيش الإسرائيلي. وتقرر أن تبدأ عند هبوط الليل في 25 يونيو – حزيران، غداة تصديق مجلس الوزراء الإسرائيلي على القرار.

بالرغم من هذه الترتيبات العسكرية، طلب الموساد من بشير الجميّل الذي أدهشه الطلب، أن يتصل بياسر عرفات كي يبدأ معه محادثات مباشرة. لم يفهم الزعيم المسيحي سبب هذا الطلب، لا سيما وأن شفيق الوزان وجنبلاط وبري لم يتمكنوا من الحصول على شيء منه. رفض المحيطون بالزعيم المسيحي الشاب أن يقوم بشير بمقابلة "الختيار". كانت معرفة مكان وجود عرفات أحد المواضيع الرئيسية التي يثيرها عملاء المخابرات الإسرائيلية في مناقشاتهم مع القوات اللبنانية. كان بديهياً تماماً أن هذا الطلب يهدف إلى جر أبو عمار إلى فخ وتصفيته. فرفض بشير الطلب إذ إنه كان لا يريد أن يكون طعماً وأن يتحمل بالتالي بصورة غير مباشرة مسؤولية اغتيال عرفات أمام العالم العربي.

خلافاً لكل توقع، لم يتخذ في الاجتماع الاستثنائي لمجلس الوزراء، في 24 يونيو – حزيران، أي قرار بشأن القيام بعمل عسكري ضد بيروت الغربية. واكتفى الناطق باسم الحكومة دان مريدور بتصريح مقتضب للصحافة قال فيه إن "مجلس الوزراء استمع إلى تقرير السيد بيغن حول زيارته للولايات المتحدة. كما تحدث الوزراء حول مستجدات الوضع

العسكري". في اليوم التالي، وافقت إسرائيل على وقف إطلاق النار "بصورة حازمة ونهائية"، للمرة الرابعة. وساد صفوف القوات اللبنانية ارتباك كبير. هذا مع العلم أن قيادة الموساد جاءت إلى لبنان، في 25 يونيو – حزيران، في مهمة استطلاعية "عن السوريين": كان إسحق حوفي على رأس وفد يضم مناحيم نافوت (مندي) وأفنير آزولاي (فيليب) وانضم إليهم بينّي ز.[1] الذي عاد إلى لبنان بعد أن جاءه لأول مرة سنة 1979.

بينّي أوروبي الأصل، نحيف البنية، دب الشيب في رأسه، وعلى عينيه نظارات رقيقة، وكان من قِبَل أحد معاوني دافيد كمحي. وحينما غادر هذا الموساد إلى وزارة الخارجية، عُيِّن بينّي على رأس المدرشة[2]، ولم يأت لرؤية القوات اللبنانية إلا من أجل بحث الدورات التدريبية التي كانت تقوم بها عناصر القوات اللبنانية في إسرائيل. وكانت تظهر دوماً على وجهه علامات الألم الذي تسببه له قرحة في المعدة لا تشفى رغم العلاج.

التقى الإسرائيليون بشير الجميّل وفريقه في مركز القيادة في الكرنتينا. وروى بقردوني مناقشاته مع وزير الخارجية السورية:

– شعرت بأن عبد الحليم خدام كان خائفاً، قال المحامي الأرمني. وهو يظن أن الصدمة الأولى ستتلوها صدمة ثانية. كان يتوقع هجوماً إسرائيلياً ولكن محدوداً في المكان والزمان. وفوجئ بمدى اتساعه. حافظ الأسد منهمك خصوصاً الآن بالبقاء في الحكم وبالحفاظ قدر المستطاع على حضور سوري في لبنان. في سوريا الآن تياران: تيار العسكريين الذين يفضلون تحاشي كل مجابهة مع الجيش الإسرائيلي ويسعون إلى فك الارتباط بلبنان لأجل تحسين الدفاع عن سوريا. وهناك بالمقابل حافظ الأسد الذي لا يتردد أمام التضحية بألفين أو ثلاثة آلاف من جنوده كي يخوض معركة سياسية ليستطيع أن يقول للبلدان العربية: "قمت بواجبي تجاه الفلسطينيين". أعتقد شخصياً أن حافظ الأسد سيعمل في ثلاثة اتجاهات معاً. أولاً، سينشط عسكرياً في البقاع، ثم يدفع بالبلدان العربية لتحمل مسؤولية قرار انسحابه من لبنان، وأخيراً، سيقوم باتصالات مع الأميركيين. لم يعد لديه ثقة بليونيد بريجنيف، ويظن أن الروس تخلوا عنه. وهو أيضاً على يقين من أن إسرائيل لا تريد الدخول في حرب ضد سوريا وأن هدفها هو لبنان فقط.

– يجب أن تؤثر حكومتكم على البلدان العربية أيضاً وليس على الولايات المتحدة فقط، قال إسحق حوفي. أعتقد أن أمامنا أربعة أو خمسة أيام. يجب مواصلة الضغط العسكري، ولكن يجب طلب مساعدة سياسية أميركية وسعودية. يجب أن تمارسوا ضغطاً على البلدان

(1) يشار إليه باسمه الرمزي لأنه لا يزال في الخدمة.
(2) مدرسة الاستخبارات التابعة للموساد.

العربية التي تستطيعون التأثير عليها كي تتخذ موقفاً مؤيداً للانسحاب السوري خلال اجتماع وزراء خارجيتها القادم. وبعدها نستطيع أن نسوي مشاكل لبنان الشمالي وزحلة.

– الأردنيون باتوا يتمنون أن ينسحب السوريون من لبنان، قال مناحيم نافوت.

وعاد حوفي يقول:

– هناك بديل خطر. قد يحصل اتفاق بين بلادكم وبلادنا والولايات المتحدة وسوريا. وفي هذه الحالة ستبقى الوحدات السورية في البقاع لأن في الأمر تسوية. فإذا استطعتم أن تعملوا على نحو يجعل العرب والأميركيين يقررون معاً، سيكون هذا أفضل. وماذا بشأن القوة المتعددة الجنسيات؟

كان فرانسوا ميتران عشية ذلك اليوم قد طلب أمام الملأ تحييد بيروت الغربية تحت إشراف مراقبين من قبل الأمم المتحدة، واحترام إسرائيل لمتطلبات وقف إطلاق النار. وكانت فرنسا تتأهب لمطالبة مجلس الأمن بأن يهب لمساعدة الحكومة اللبنانية.

– كل الصحف تتحدث عن ذلك، لكن أحداً لم يحدثنا جدياً عنه، قال بشير بلهجة حانقة. سنسعى إلى تلافيه أياً تكن القوميات التي ستشارك فيه. وإذا لم نفلح في ذلك بمفردنا، فسنطلب منكم البقاء هنا إلى أن نصبح قادرين على مواجهة الوضع لوحدنا. وإذا جاءتنا قوة كهذه فهي لن تغادر بسهولة فيما بعد.

ثم سأل أعضاء الموساد إيلي حبيقة عن القوى التي ما برحت موجودة في "وكر الجرذان".

– لا يزال هناك فلول اللواء الآلي السوري ذي الرقم 85، وبضع وحدات من جيش التحرير الفلسطيني، وفدائيو المنظمات الفلسطينية المختلفة، وعناصر منظمات الحركة الوطنية وحركة أمل الشيعية. ويتمركز هؤلاء الأخيرون في جنوب بيروت. لم يعد لدى السوريين اتصال بقيادتهم ولم يعودوا بالتالي يتلقون أوامر. وقد أخذت تنفد المواد الغذائية والماء والكهرباء. المسلمون السنة يواجهون مشاكل كثيرة، وأخذوا يشعرون بوطأة عبء الحرب. ولم يعودوا يتكلمون عن القضية الفلسطينية، بل عن البقاء على قيد الحياة. أما حركة أمل، فتأمل الحصول على عون إيراني لا يأتي. وهمهم الأكبر الآن هو تحاشي الدمار في منطقتهم.

– هل ستقاتل حركة أمل إذا تعرضت الضاحية الجنوبية لهجوم؟ سأل الإسرائيلي.

– يحتمل أن تقاتل بعض المجموعات لا الحركة بوصفها هذا.

– هل يمكن لهم أن ينسحبوا من المنطقة التي يسيطرون عليها؟

– إذا أمكن عقد اتفاق يحتوي على ضمان لهم. نحن قريبون منهم إلى حد ما، قال حبيقة. وقد سمحنا بتمرير مساعدات إنسانية إليهم. وهناك أيضاً الأحزاب الموالية لسوريا

والشيوعيون. زعماء هذه الأحزاب هم على العموم مسيحيون يظنون أنه لن يصيبهم شيء إذا جاؤوا إلى منطقتنا. نحن نبذل كل ما في وسعنا كي نطمئنهم. فإذا جاؤوا فإنهم سيتركون منظماتهم بلا قيادة.

قال بقردوني:

– التقيت وزاهي البستاني نبيه بري منذ بضعة أيام، وأسرّ لنا بأنه "يريد مقاتلة إسرائيل كي لا يصنف كخائن في نظر المسلمين، لكنه يترك المبادرات للسنّة". إن بري يقاتل بدوافع سياسية في الجوهر لا عسكرية.

– ما قاله كريم لتوه كان صحيحاً قبل بضعة أيام. لكنه الآن لم يعد كذلك. إن هم نبيه بري الأول الآن هو بقاؤه حياً، صحّح حبيقة.

– وجهة نظرك هذه هامة، قال إسحق حوفي. فيجب أن يتحرك آخرون ويتمكنوا من إقناع الفلسطينيين بالكف عن القتال. نأمل أن نتلافى المجابهة المسلحة، فهي ستدمر المدينة. يجب أن يقال لهم إن السوريين باتوا بعيدين عن بيروت وأنه لم يعد هناك ما يرتجى منهم.

– لقد حدد وليد جنبلاط موقفه باستقالته من لجنة السلامة العامة، شدد بشير. وأظن أن السنّة سيحذون حذوه.

قبل بضع ساعات كان القائد الدرزي قد عقد ندوة صحفية تكلم فيها بكل صراحة قائلاً:

"على منظمة التحرير الفلسطينية أن ترحل عن بيروت. عرفات يحاول كسب الوقت آملاً بحصول معجزة من جانب العالم العربي، لكنني لا أؤمن بذلك. تحتاج منظمة التحرير الفلسطينية إلى قيادة جديدة لكي تستطيع البقاء. طلبنا من قادة المنظمة أن يستسلموا لكنهم لا يريدون سماع هذا الكلام. أفكر بأن أتوجه إلى المختارة وأنسحب من الحياة السياسية.

عاد نافوت يقول:

– لن نقبل بأن لا تفهم دمشق أننا نطلب انسحابها من لبنان. وعلينا أن نواجه الولايات المتحدة في هذا الموضوع. افعلوا كل ما في وسعكم كي تساعدونا: أكثروا من الاتصالات، ابعثوا برسائل، ابذلوا نشاطاً لأجل توضيح الوضع.

– أكد شارل بيرسي، رئيس لجنة مجلس الشيوخ الأميركي بالأمس أنه من مصلحة جميع الأطراف أن لا تطيل الدولة العبرية وجودها في لبنان إلى ما لا نهاية، كما فعلت في الضفة الغربية وفي "جيب" غزة وفي الجولان، قال مدير الموساد. وزعم حتى أن التاريخ لم يشهد مذبحة كتلك التي يقوم بها الإسرائيليون.

– يجب أن تنشطوا في أوروبا أيضاً، عاد يقول مناحيم نافوت. الإعلام مهم جداً عندنا وقد كان وقع نشر صور لمستحمين لبنانيين على بلاجات جونيه كارثياً.

فقال بشير:

– ما تشاهدونه في جونيه لا يعني أن الناس غير مهتمين. لقد تعودنا أن نحيا حياة طبيعية في زمن الحرب. فهذا هو ردنا على البربرية السورية والفلسطينية.

وعاد حوفي يؤكد:

– ما قاله مندي لتوه أمر مهم جداً بشأن الإعلام. وفيما خص الدامور مثلاً، يجب تصوير شريط عن عودة المهجرين حتى ولو كان ذلك غير ممكن حتى الآن.

وافق اللبنانيون على هذا الكلام. وكان الموساد يشدد بانتظام على أن يعلن مسيحيون أمام آلات التصوير عن "شكرهم" لإسرائيل لأنها تدخلت لإنقاذهم. كان بشير قد كلف "أبو أرز" (إتيان صقر) قائد حراس الأرز ومجموعة الكسليك بتأمين هذا النوع من الكلام.

وفي ختام الاجتماع قدم قائد القوات اللبنانية راية هذه القوات إلى إسحق حوفي. فشكره هذا وقال متأثراً:

– آمل أن تكون هذه آخر هدية من الميليشيا وأن الهدية القادمة ستأتي من الرئاسة.

انفجرت قنبلة سياسية قبل أن يغادر الوفد الإسرائيلي القاعة: استقال ألكسندر هيغ.

خسر مناحيم بيغن سنده الرئيسي في إدارة ريغن، وكان رئيس الوزراء الإسرائيلي قد قال: "اتسمت محادثاتنا بفهم متبادل للدور الذي تؤديه إسرائيل في الدفاع عن العالم الحر". ولقد كان هذا الفهم بالضبط هو الذي أطاح بهيغ. كان القائد الأعلى السابق لحلف شمال الأطلسي يجاهر أكثر فأكثر بتذمره من حصول "انحرافات" في سياسة واشنطن الخارجية، وكان ألكسندر هيغ قد شجع الدولة العبرية قبل بضعة أيام على "إنجاز عملها" في لبنان.

لكن كسبار واينبرغر وزير الدفاع، وكذلك رونالد ريغان، قد تأثر تأثيراً كبيراً بضخامة عدد الضحايا في لبنان. وكان واينبرغر يغتنم كل المناسبات لينتقد حصار بيروت فيما كان ألكسندر هيغ يضغط على الرئيس الأميركي لكي يدع الإسرائيليين "يدمرون القيادة الفلسطينية ويسهلون قيام حكومة قوية في لبنان تعقد صلحاً مع إسرائيل". أما قطرة الماء التي جعلت الكأس تطفح فكانت تصريح الناطق باسم البيت الأبيض، لاري سبيكس، الذي قال فيه للصحافيين إن بيغن وعد رونالد ريغن بأن لا تحتل القوات الإسرائيلية بيروت. فاعتبر ألكسندر هيغ أن هذا لم يكن فقط تخلياً عنه، بل أخطر من ذلك، إن مثل هذا البوح كان من شأنه أن يصلّب موقف الفلسطينيين. وضاق صدره فقدم رسالة استقالته فقبلها الرئيس "مع الأسف" قبل بضع دقائق من تعيين جورج شولتس وزيراً للخارجية مكانه.

كان جورج شولتس رجل أعمال كاليفورنياً ووزيراً سابقاً للخزانة وصديقاً لكسبار واينبرغر. وكان قد كلف بإعداد جولة قام بها ريغن في أوروبا. وكان ريغن قد فكر به

بالدرجة الأولى يوم ألف حكومته، في يناير – كانون الثاني 1981، كي يكون على رأس الدبلوماسية الأميركية. لكن شولتس رفض آنذاك، وآثر البقاء على رأس الشركة الكاليفورنية المتعددة الجنسيات، بشتل كورب، التي تعتبر من أكبر شركات البناء في العالم. كانت المملكة العربية السعودية أفضل زبون عند هذه الشركة. وكان يعمل فيها 119000 شخص، وكان رقم أعمالها يبلغ 11,4 مليار دولار، وقد بلغت أرباحها 150 مليون دولار سنة 1981. كان شولتس على جانب من الضخامة الجسدية وكان أشبه بمحتسب مجتهد. كان دائماً ينتمي إلى الحزب الجمهوري، وقد شارك وراء الكواليس في حكومة دوايت أيزنهاور إبّان سنوات الحرب الباردة بوصفه مستشاراً اقتصادياً للرئيس.

فيما كان شولتس يتسلم مهامه في واشنطن، كان عشرة آلاف من الإسرائيليين يتظاهرون في تل أبيب تلبية لدعوة اللجنة المناهضة للاحتلال، ويهتفون: "ليسقط الاحتلال"، "بيغن وشارون يثيران حرباً ستدوم مئة سنة!". وكان الجنرال الاحتياطي ماتي بيليد يشجب على التلفزيون عملية "سلامة الجليل". ونشرت الصحف عريضة موقعة من مئات العسكريين التابعين للواء مدرعات كانوا قد اشتركوا قبل قليل في الحرب في لبنان. وكانت هذه أول مرة في تاريخ الدولة العبرية تقوم فيها تظاهرات ضد الحكومة بينما جيشها في ساحة القتال.

تحت تأثير استقالة ألكسندر هيغ والمعارضة الداخلية الإسرائيلية، اضطرت حكومة بيغن إلى التخفيف من غلوائها. فصدر في ختام جلسة مجلس الوزراء المصغر بتاريخ 27 يونيو – حزيران 1982 بلاغ يتحدث لأول مرة عن اقتراح إيجاد حل لمشكلة بيروت الغربية عن طريق التفاوض. وشرح الناطق باسم الحكومة دان مريدور تفاصيل هذا الاقتراح للصحافة قائلاً: "تقترح الحكومة أن يدخل الجيش اللبناني بيروت الغربية، وتقوم المنظمات الإرهابية الخمس عشرة الموجودة هناك بتسليم أسلحتها له، وبعد ذلك يرحل جميع أعضاء هذه المنظمات عن لبنان. [. . .] يتألف موكب الإرهابيين تحت إشراف الصليب الأحمر ويتوجه إلى ما وراء الحدود الدولية اللبنانية – السورية سالكاً الطريق الدولية بيروت - دمشق. وفي القطاع الذي يسيطر عليه الجيش الإسرائيلي، نؤكد أن الموكب سيمر دون أن يلحق به أي أذى. وإذا آثر الإرهابيون سلوك طريق أخرى فسيسمح الجيش الإسرائيلي لهم بذلك. بعد تحرير بيروت الغربية، تبدأ مفاوضات بين جميع الأطراف المعنية للوصول إلى تسوية تؤمن الحفاظ على كامل الأراضي اللبنانية، وانسحاب كل القوات الأجنبية، واستقلال لبنان وسلامه. وسيسعد إسرائيل أن تضع حكومة الولايات المتحدة مفاوضيها تحت تصرفها من أجل التوصل إلى هذه التسوية".

وهكذا لم تعد عملية "الشرارة" واردة.

أكد بشير الجميّل هذه الطروحات، دون أن يتبلغها رسمياً، لأبو الزعيم، مستشار عرفات العسكري حينما زاره هذا في مكتبه في الكرنتينا بعد ظهر اليوم ذاته. وفي صباح هذا اليوم، غب إذاعة البلاغ الإسرائيلي، اتصل القائد السياسي للطائفة السنية صائب سلام هاتفياً بقائد القوات اللبنانية وقال له إن أبا عمار على الخط. كان رئيس منظمة التحرير الفلسطينية يريد الحصول على إذن لعبور المنطقة المسيحية كي يذهب ليستقر في مدينة طرابلس في شمال لبنان.

– هذا غير وارد، أجابه الزعيم المسيحي. زمن المناورات انتهى. وقد وصلتم إلى آخر الطريق. فعليكم أن تغادروا لبنان، كل لبنان، مع كل أعضاء منظمة التحرير. لقد هدمتم الدولة اللبنانية والجيش اللبناني. لقد أحسنتم الإفادة من السعوديين والكويتيين وحتى من الغرب. لكنكم لن تفلحوا هذه المرة، فأنتم تواجهون الإسرائيليين.

– هذه المسائل لا تحل على الهاتف، سأرسل إليك شخصاً في الحال، قال عرفات قبل أن يغلق الخط.

كان أبو الزعيم قد حاول الوصول إلى الكرنتينا في منتصف ما قبل الظهر، إلا أن سيارة ملغومة انفجرت على طريقه. لكن الضابط الفلسطيني خرج سالماً من محاولة الاغتيال بفضل سيارة عرفات المصفحة التي كان يستقلها. كما كان قد قام بمحاولة ثانية في سيارة أرسلها إليه جوني عبدو، فوصل إلى مكتب بشير الجميل ليسأله عمّا ينوي أن يفعل مع الفلسطينيين.

أجابه قائد القوات اللبنانية:

– سيعاملون تماماً كما يعاملون في البلدان العربية الأخرى.

– وماذا بشأن قواتنا المسلحة؟

رفض قاطع لوجودها على أرضنا، ولن يكون هناك أي نقاش في هذا الموضوع. على القادة الفلسطينيين أن يغادروا البلاد. ومن أراد منهم في المستقبل أن يعود فيستطيع أن يعود، لكن فيما بعد، وضمن إطار سيادة لبنان واستقلاله.

التقى بشير وفادي أفرام رفائيل إيتان ليلة 27 يونيو – حزيران عينها، في مركز القيادة العامة الإسرائيلية في مون لاسال. كان يرافق رئيس الأركان رئيس غرفة العمليات أوري ساغي وعضوان من الموساد هما أفنير آزولاي وماريون. شرح رفّول للبنانيين أن الحكومة المصغرة قررت ترك الفلسطينيين يرحلون معطية لنفسها كل الوقت اللازم لإنجاح هذه العملية.

– حسبما يبدو لي، لم يتخذ أي قرار بشأن عملية "الشرارة" التي كان يجب أن تحصل غداً؟

– العملية لا تزال واردة، أجاب رفّول لكنها مؤجلة. يجب انتظار لحظة أكثر مؤاتاة.

وبانتظار ذلك، هناك بعض الأمور التي يجب القيام بها ومن بينها تسهيل رحيل أكبر عدد ممكن من المدنيين عن بيروت الغربية. إن هذا الرحيل سيؤثر على معنويات المقاتلين.

كانت الطائرات الإسرائيلية تلقي منذ عدة أيام على "وكر الجرذان" مناشير باللغة العربية تدعو السكان إلى الإقلاع عن أن يكونوا درعاً "للإرهابيين" وإلى مغادرة المدينة. "اغتنموا فرصة وقف إطلاق النار، وأنقذوا حياتكم وحياة من تحبون"، كانت تقول المناشير. الجيش الإسرائيلي يواصل عملية تمشيط أحيائكم بحثاً عن المخربين الموجودين فيها. هذا الجيش ليس مسؤولاً عما يمكن أن يصيب الأشخاص الذين لا يحملون سلاحاً ضده. نقترح على المدنيين الراغبين في الحفاظ على سلامتهم أن يبتعدوا عن أماكن وجود المخربين ويتوجهوا إلى الشمال حيث يسود الأمن وحيث سيكونون في مكان آمن إلى أن تنتهي عملية طرد العناصر المخربة من منطقتهم. يا أهل بيروت الغربية، أنقذوا حياتكم وحياة ذويكم وتوجهوا نحو الشمال". كان التأثير مدهشاً، فقد توالى وصول آلاف السيارات إلى نقاط العبور عند خط التماس.

- قطع الماء والكهرباء عن بيروت أمر جيد. فهو يدفع بالمدنيين إلى النزوح. لقد تكلمت مع عرفات إذاً؟ هل نعرف من أين كان يخاطبك؟ سأل رفائيل إيتان بشير الجميّل بصوت رقيق.

- كيف لي أن أعرف؟ قال بشير كاذباً، وحذراً. كان لا يزال يتساءل عمن حاول اغتيال أبو الزعيم. ثم انتقل بشير فجأة إلى موضوع آخر قائلاً إنه استدعى الاحتياطيين، وسأل عما إذا كان يمكن الحصول على عتاد لأجل تزويدهم به.

فأجابه رفّول:

- لا مشكلة في الأمر، يمكنكم الحصول على كل ما تريدون. لقد أخذتم 12 دبابة سورية...

فصحح الشاب مفاخراً:

- بل 15 دبابة في سوق الغرب.

- يجب طليها بألوانكم.

- باشر الجميع هذا العمل!

18

المناطق المحررة

- يستحسن أن تقابل الرائد سعد حداد.

كان رئيس الموساد قد انحنى نحو بشير الجميّل كي يشدد على اقتراحه.

- يمكن له أن يحضر إلى هنا ليقابل رؤساءه، ردّ الشاب. عليه أن يقدم لهم تقريراً عمّا جرى. وسيعتبر ضابطاً أدى مهمته.

- هل يمكن ترفيعه؟ سأل الإسرائيلي.

- ليس لي الآن سلطة لاتخاذ مثل هذا القرار.

- لكن من المهم جداً أن تراه شخصياً، ألمح إسحق حوفي.

وقال فيليب (أفنير آزولاي)، الممثل الدائم للموساد في لبنان، الذي كان يرافق مديره:

- لا يجوز التباطؤ في هذا الملف، تلافياً لحصول مشاكل.

كان مصير قائد جيش لبنان الجنوبي يبدو أهم ما يشغل بال الإسرائيليين يوم 26 يونيو - حزيران 1982. لكن بشير ظل صامتاً تماماً، شأنه كل مرة طرح فيها هذا الموضوع. أراد قائد القوات سنة 1976 أن يرسل رجالاً له إلى الجنوب، فعارض سعد حداد، ولم ينسَ ذلك "الباش" كما كانوا يلقبونه آنذاك.

كان سعد حداد قصير القامة، ذا شعر أصهب كثيف، وقد ولد سنة 1937 في عائلة من الروم الكاثوليك أصلها من بلدة مرجعيون الواقعة على مشارف الجليل وسهل البقاع. وكان بعد مسيرة لا مشاكل فيها قد تدرج بصورة طبيعية في سيرة عسكرية داخل هيئة الأركان العامة. أمّا آراؤه السياسية (كان شمعونياً) الأقرب إلى التحفظ منها إلى المجاهرة، فقد كانت بصورة غير مباشرة وراء نقله إلى لبنان الجنوبي سنة 1975. فلأجل الحؤول دون تمركز الفلسطينيين في هذه المنطقة، كان الإسرائيليون قد طلبوا من كميل شمعون إقناع الرئيس سليمان فرنجية بتعيين ضباط "موثوقين" في قيادة المواقع العسكرية في الجنوب. واستجاب فرنجية لتوصيات سلفه، فعين الرائد سعد حداد في مرجعيون والرائد سامي شدياق، المعروف بتعاطفه مع الكتائب في صور. وبعد قليل من تسلم كل من الضابطين

موقعه اتصل أفيغدور بن غال آمر منطقة شمال إسرائيل والملقب بيانوش سراً بكل منهما.

بينما اختار سامي شدياق، الذي يتبنى مبدأ "درس القوى المتواجهة قبل الانتقال إلى الفعل"[(1)]، أن يتخذ موقفاً معتدلاً تجاه الفلسطينيين، فإن سعد حداد، الأكثر مثالية، أراد أن يفرض نفسه عليهم فوراً. وتكاثرت الحوادث المسلحة دون أن تحرك بيروت ساكناً. وعلى مدى السنتين اللتين أعقبتا تعيين سعد حداد لم تستجب رئاسة الأركان العامة لأي طلب تقدم به للحصول على عتاد أو على تعزيز بالعناصر.

في سنة 1976 اشتد الضغط الفلسطيني على المراكز العسكرية اللبنانية في الجنوب، فتوجه سعد حداد نحو الإسرائيليين، فاستقبله أفيغدور بن غال ورفائيل إيتان الذي كان رئيس أركان الجيش الإسرائيلي آنذاك بالترحاب. وعندما انفصل الرائد حداد عن بيروت في آخر سنة 1977، بعد أن سئم عزلته، قام الإسرائيليون بتمويل جيش لبنان الجنوبي وتجهيزه. فأخذ جهاز آمان الإسرائيلي على عاتقه دفع الرواتب وتقديم التجهيزات والتدريب. وبات جيش لبنان الجنوبي في الواقع جزءاً مندمجاً في دفاع إسرائيل. وأُعلن أن سعد حداد فار من الجيش اللبناني. وظلت الأمور على حالها فيما بعد[(2)].

كان لسعد حداد سبع بنات، وكان يحيا حياة متواضعة جداً، مكتفياً بالقليل تقريباً، في دارة صغيرة في مرجعيون، لا تبعد كثيراً عن الثكنة التي بنيت في عهد الانتداب الفرنسي. لقد جعل هذه الثكنة مركز القيادة، ولم يقبل قط بالتخلي عن قبعته العسكرية ونجومه الثلاث التي حصل عليها في الجيش اللبناني الذي كان يجزم دوماً بأنه ينتمي إليه. ونشأت صداقة حقيقية وعميقة بينه وبين رفائيل إيتان، وسهلت له هذه الصداقة أن يتعاون تعاوناً كلياً، بالمعنى الدقيق للكلمة مع الدولة العبرية. وسعى جهاز آمان جهده كي لا يقوم أي اتصال بينه وبين "جماعة الشمال" أي القوات اللبنانية. كان هذا الأمر سهلاً لأن سعد حداد كان قريباً من حزب الوطنيين الأحرار، وخصوصاً من داني شمعون، ولأنه بفضل الدعم المالي الإسرائيلي كان في منأى تماماً عن سلطة هيمنة بشير الجميّل.

كان الموساد، من جهته، يعتبر سعد حداد "ليّنا جداً"، وكان قد نهى بشدة ثلاثي بيغن - شارون - رفول عن الانجرار وراء محاولة جعل بشير الجميّل سعد حداد آخر، منوهاً بأن للرجلين طبعين متضادين تماماً. أما الآن، بعد أن تم الاتصال على الأرض بين "الشمال" و"الجنوب"، فقد دقت ساعة التقارب. كان الإسرائيليون يريدون هذا التقارب بكل قوتهم. وكانت حساباتهم بسيطة جداً. بعد أن يتصالح سعد حداد وبشير الجميّل، لن يكون في وسع

(1) هذا ما قاله سامي شدياق لألان مينارغ سنة 1989.

(2) وبقيت هكذا حتى وفاته بداء السرطان في 13 شباط 1984.

سعد حداد - أي هم بصورة غير مباشرة - إلا أن يلج القيادة السياسية للقوات على مستوى للقرار رفيع جداً. غير أن قائد القوات اللبنانية ظل متحفظاً، ليس لأنه اكتشف المأرب الإسرائيلي بل لأنه لم يغفر لقائد جيش لبنان الجنوبي رفضه لسلطته. يضاف إلى ذلك أن سعد حداد كان يُعتبر فاراً وخائناً في نظر اللبنانيين المسلمين فيما كان بشير الجميّل بحاجة إلى أصواتهم في انتخابات الرئاسة.

التقى قائد جيش لبنان الجنوبي بشير الجميّل في 3 يوليو - تموز 1982 عند الظهر في مركز القيادة الإسرائيلية للجنرال أمير دروري غير البعيد عن مدرسة اليسوعيين في الجمهور. كان "الجنوبي" قد جاء مباشرة في مروحية إسرائيلية، ثم قفل عائداً بالطريقة ذاتها بعد مرور أقل من ساعة على مجيئه. لم يذع أي خبر عن هذا الموضوع. وكان اللقاء قصيراً وبارداً. لم يكن لدى كل من الرجلين فعلاً ما يقوله للآخر.

وأخذت تحصل حوادث أكثر فأكثر عنفاً في "الأراضي المحررة" في الشوف. كان اتصال الجيش الإسرائيلي بالقوات اللبنانية وتقدمه على طول محور بيروت - دمشق قد فتح طرق الجبل الدرزي أمام المسيحيين، فبادر عدد كبير منهم للانتقال إلى هناك وفي أفواههم طعم الثأر. فإنهم كانوا قد نزحوا على عجل من المنطقة منذ سنة 1975، تاركين وراءهم كل شيء، لدى انفجار مختلف الأزمات بين الدروز والمسيحيين، كتلك التي انفجرت يوم 17 مارس - آذار 1977 على أثر اغتيال كمال جنبلاط. ولقد عادوا الآن لكي "يستردوا" حقوقهم.

وسرعان ما بات الوضع متفجراً. كان الدروز - وهم محاربون تقليدياً، يشعرون بمرارة الحرمان لتركهم الإسرائيليين يمرون تحت نوافذهم دون أن يطلقوا رصاصة واحدة. ولم يكن وارداً عندهم أن يدعوا المسيحيين، من مدنيين وميليشيات، يستقرون في الجبل دون أن يفعلوا شيئاً. وعادت مراكز الكتائب تفتح أبوابها وترفع راياتها تحت حماية الإسرائيليين. وعاد الناشطون يتكلمون من فوق ويتصرفون تصرف المسيطرين. وكان هذا الخليط أشد تفجراً لأن هذا "الصعود" إلى الشوف كان يجري على نحو فوضوي جداً وبلا مواكبة.

في اجتماع لجنة السلامة العامة، يوم 22 يونيو - حزيران 1982، نبه وليد جنبلاط بشير الجميّل وطلب منه أن يتدخل. فاقترح عليه قائد القوات اللبنانية أن "يقوما معاً بجولة في الجبل من أجل تهدئة النفوس"، فرفض جنبلاط بجفاء لأنه كان لا يريد أن يجول بصحبته على قرى منطقته "كيلا يشكل غطاءً له"[(1)].

كان بشير منشغلاً تماماً بالوضع العسكري والسياسي، فتعاطى مع حوادث الجبل في

(1) هذا ما قاله وليد جنبلاط لألان مينارغ في أغسطس - آب 1992.

بادئ الأمر على أنها مسألة بسيطة. لم يكن مدركاً على الإطلاق للضخامة التي كانت تتخذها يوماً بعد يوم، فاكتفى باستدعاء مسؤولي الكتائب في الجبل وقام بتأنيبهم. لكن هذا لم يجدِ نفعاً: لم يكن له أي تأثير على أعضاء حزبه.

وفي فجر يوم 27 يونيو – حزيران تحول التوتر إلى معركة بكل معنى الكلمة حول بلدتي القُرَيَّة وقُبَّيع الواقعتين في منخفض وراء بحمدون في المتن الشمالي. فقد حاولت مجموعة من المقاتلين المسيحيين، انطلاقاً من موقعها الكائن عند الطرف الشمالي الشرقي لموقع الإسرائيليين، أن تدخل القريتين المذكورتين، فاصطدمت بوحدة للحزب السوري القومي كان يدعمها جنود سوريون. ومنع الإسرائيليون وصول نجدات إلى المجموعة. وسقط عدة قتلى من الطرفين كان بينهم ابن عم بشير الجميّل[1].

وفي الليلة ذاتها طرح بشير الجميّل المسألة على رفائيل إيتان، خلال اجتماع عقد في مقر القيادة العامة الإسرائيلية في مون لاسال، منتقداً تصرف رجاله. فتذرع رفّول بوقف إطلاق النار الموقع مع السوريين وانتقد تصرف المسيحيين قبل الاشتباك:

– أطلق رجالك النار على رجال دين دروز. وسرقوا منهم أشياء دينية. وفي بحمدون أرادوا أن يطردوا السكان من بيوتهم واضطرونا إلى التدخل. متى كنا في منطقة ما فلا يحق لجماعتك أن يقوموا بأي عمل دون أن ينسقوا معنا.

كان رفّول يعتقد أن كل المسيحيين هم "جماعة" بشير. فقد كان رئيس أركان الجيش الإسرائيلي يجهل تماماً الفوارق والتباينات التي تفرق بينهم؟ إنه في الواقع لم يكن يهتم بذلك البتة.

أما الموساد، الذي كان على علاقة دائمة بالقوات، فكان قد تتبع العلاقات الصعبة بين القوات اللبنانية والكتائب، أو بينها وبين حزب الوطنيين الأحرار. إلا أنه كان قد قدم بشير لتل أبيب على أنه موحد المسيحيين اللبنانيين. وقال شموليك أفياتار (أليكس) أحد ممثلي الموساد المقيمين الدائمين في لبنان[2]، فيما بعد، "ربما أعطيناه في هذا الموضوع وزناً أكبر من وزنه الفعلي". "وكان هناك أيضاً فرق في العقلية بين بلدينا. فالمعارضة، في إسرائيل، شيء، ورئيس الوزراء شيء آخر. لكننا نتّحد جميعاً في وجه العدو. كان من العسير فهم المسيحيين على هذا الصعيد، لا سيما وأن عامل القتال كان الغالب في رؤية الوضع".

كان بشير في نظر القادة الإسرائيليين إذاً هو الزعيم، هو المسؤول. وكان هو من جهته لا يفهم الخلط بين رجاله "العسكريين" و"المدنيين" في الحزب. غير أنه كان يتحمل

(1) Alain Ménargues, *Les Larmes de la colère*, op. cit.

(2) من حديث مع ألان مينارغ في ديسمبر – كانون الأول 1992.

الوضع مدركاً أنه لا يستطيع أن يثير هو نفسه هذه التباينات تحت طائلة تصغير صورة له طالما عمل جاهداً لصنعها.

– هذه عادات سيئة، قال بشير رداً على رفّول.

فقال الإسرائيلي بلهجة جافة:

– انتظروا قبل أن تشبعوا عاداتكم السيئة وأعمال الثأر وغيرها. اطلبوا منا أن نسحب قواتنا وافعلوا بعد ذلك ما تشاؤون.

– من المهم أن يتعرف آمركم المحلي على آمرنا وأن يعملا معاً، قال رفائيل إيتان بإصرار.

– طلب بعض جنودكم من مدنيين أن يتخلوا عن أشياء كانوا ينقلونها وأن يغادروا المكان لكي يتمكنوا من أخذها فيما بعد، قال بشير غير مستاء من أن يرد الكرة إلى ملعبه مشدداً على أن من فعلوا ذلك كانوا عسكريين.

فرد رفّول بعصبية:

– يجب إعلامنا بذلك على الفور.

– أرجو أن تعذرني على إثارة هذا الموضوع، قال قائد القوات اللبنانية مسروراً. لكن إذا نحن لم نعالج هذه المشاكل منذ البداية فإنها تفلت من أيدينا. يجب أن نظهر للسكان سلوكاً مختلفاً عن سلوك السوريين والفلسطينيين.

وراح رفّول يتفحص الوثائق التي كانت أمامه، وانتقل إلى موضوع آخر:

– اعتقلنا المسؤول الفلسطيني في صيدا. لم يقل شيئاً حتى الآن. فهل تريدون أخذه؟ عليكم في الحال أن تستلموا بأسرع وقت كل الأسرى الذين أخذناهم في صيدا وصور.

كانت اللافتة التي تحمل رسم شارون الذي كتب عليه كلمة "العار" باللون الأحمر ترفرف فوق بحر من الوجوه الموسومة بالغضب. فقد تجمع ألوف الإسرائيليين في شارع بلفور تلبية لنداء حركة السلام الآن، أمام منزل مناحيم بيغن، يوم الأحد في 28 يونيو – حزيران 1982، بينما كان مجلس الوزراء مجتمعاً. وصعد رجل يرتدي بزة عسكرية ويحمل شارات سلاح الجو إلى سطح سيارة وصاح بصوت هادر قوبل بالتصفيق: "هذه الحرب ليست حرباً دفاعية، فهي إذاً ليست حربنا".

في اليوم السابق جرى نقاش عاصف في اجتماع لجنة الشؤون الخارجية والدفاع في الكنيست. وكان آرييل شارون هدفاً لهجوم عنيف من جانب الزعيمين العماليين أبا إيبان وإسحق رابين. إن أيّاً من أهداف شارون الثلاثة – ضرب منظمة التحرير الفلسطينية، وطرد

القوات السورية من لبنان، وإقامة حكم قوي في بيروت - لم يتحقق. واستنكر أبا إيبان بقساوة غياب النقاش في البرلمان حول العمليات ورفض بصورة قاطعة دخول الجيش الإسرائيلي إلى بيروت.

كان العماليون يحاولون استغلال النقمة التي أثارتها حرب لبنان لإسقاط حكومة بيغن، هذه التي كانت قد فقدت الأكثرية في البرلمان. وأدى النقاش الذي أثاروه إلى انفجار حزب تيليم وهو حزب صغير أنشأه موشيه دايان قبل موته بشهرين. وانضم مردخاي بن بورات وإيغال هوروفتس، وهما نائبان من أصل خمسة نواب كانوا يؤلفونه إلى الليكود فأنقذا بيغن الذي كان مهدداً بالسقوط وأمن له الأكثرية.

كانت حصيلة الحرب باهظة على إسرائيل: 214 قتيلاً، و 1114 جريحاً، و 23 مفقوداً، وأسيراً واحداً. وأسر الجيش الإسرائيلي 148 جندياً سورياً بينهم 16 ضابطاً طياراً و 5000 فلسطيني. وكان المعارضون لا يفتؤون يرددون هذه الأرقام.

بما أن فيليب حبيب كان لا يقدر أن يفاوض منظمة التحرير الفلسطينية مباشرة - لأن الولايات المتحدة لا تعترف بالمنظمة، فقد توجه إلى شفيق الوزان الذي راح يقوم بدور الوسيط مع ياسر عرفات. أحال المبعوث الأميركي إلى الفلسطينيين الشروط الستة التي وضعها الإسرائيليون للسماح لهم بالرحيل:

"نزع سلاح كل الفصائل في بيروت الغربية.

"انتشار الجيش اللبناني، ووجوب أن تسلم منظمة التحرير الفلسطينية سلاحها الثقيل.

"الموافقة على قيام قوة فلسطينية نظامية رمزية تتمركز خارج بيروت وتنسحب من لبنان عند انسحاب سائر القوات الأجنبية منه متى آن الأوان.

"تستطيع منظمة التحرير الفلسطينية أن تحدد كيفية جلائها عن بيروت، سواء أكان ذلك بواسطة الصليب الأحمر أو الصليب الأحمر مع جواز مرور أميركي.

"على القيادة والكادرات السياسية أن تغادر كلها بيروت دون أن تحمل أي شيء غير أسلحتها الفردية.

"القبول بوجود مكتب سياسي دائم لمنظمة التحرير الفلسطينية في لبنان، لكن خارج بيروت.

وتقدم ياسر عرفات في الحال باقتراحات مقابلة:

"بقاء تمثيل سياسي في بيروت ووجود قوة مسلحة رمزية مؤلفة من 2000 مقاتل يشكلون كتيبتين توضعان تحت إمرة اليرزة[1].

(1) مقر وزارة الدفاع اللبنانية.

"بقاء الشرطة المسلحة الفلسطينية داخل المخيمات[1].

"إبقاء السلاح الثقيل في أيدي الحركة الوطنية وحلفائها.

"رحيل 4000 مقاتل ومعهم أسلحتهم الفردية.

"بقاء المؤسسات الفلسطينية المدنية أو السياسية ومواصلة النشاطات الثقافية والإعلامية من خلال البنى التحتية القائمة في بيروت".

إلى جانب ذلك نشرت وكالة الصحافة الفلسطينية مقالاً افتتاحياً يؤكد: "ليس لدى المقاومة الفلسطينية أية نية لمغادرة لبنان واللجوء إلى إحدى الدول العربية الشريكة في التحالف الإسرائيلي - الأميركي، لأنها إن فعلت ذلك لوقعت بيدها على قرار موتها. منظمة التحرير لم تُهزم، وهي لا تنوي الاستسلام. لن يحصل قتال في بيروت إذا وجد حل مشرف؛ وإذا لم يوجد مثل هذا الحل فإن منظمة التحرير مستعدة للقتال كما فعلت منذ أن شن بيغن هذه الحرب القذرة غير المبررة".

كانت المواقف غير قابلة للتوافق، واعتبر الإسرائيليون مقال وكالة وفا، الذي يعكس مواقف قائد المنظمة، تحدياً حقيقياً.

تطلع بشير الجميّل إلى ساعته مستغرباً، إذ إن مدة طيران المروحية التي تحمله إلى إسرائيل كانت أطول من المعتاد. كان قد انقضى أكثر من ساعة ونصف على إقلاع المروحية التي تحمل نجمة داود من الزوق والتي كان على متنها مع أربعة من معاونيه الأقربين. كان يجب أن يكونوا مع آرييل شارون منذ عشرين دقيقة يوم 28 يونيو - حزيران 1982. أخيراً هبطت المروحية في مكان غير بعيد عن بيت أبيض، منخفض، على طراز الرانش الأميركي، تحيط به أشجار ومروج: مزرعة وزير الدفاع الواقعة على تخوم النقب. كان ينتظرهم في الصالون، بالإضافة إلى رب البيت، كل من رفائيل إيتان ومعاونه الجنرال موشيه ليفي، ومستشار شارون الجنرال أبراهام تامير، وبيتر الرجل الثاني في الموساد، الذي رحب باللبنانيين بصفقه على الخدّ على حسب عادته، ودافيد كمحي ومناحيم نافوت (مندي).

كان بيتر، واسمه الحقيقي ناحوم عدموني، مشهوراً بهدوئه. ولد بيتر في روتباوم و"صعد" من بولونيا إلى إسرائيل سنة 1929. واتخذ والداه اسم عدموني منذ وصولهم إلى القدس. بدأ ناحوم حياته المهنية في شاي[2] إبان حرب الاستقلال، ثم درس العلاقات الدولية في جامعة بيركلي الأميركية بغية أن يصبح دبلوماسياً. إلا أنه لدى عودته من الولايات

(1) الشرطة الفلسطينية (لجنة ارتباط الجيش الفلسطيني).

(2) اختزال لعبارة شيوت يدوت، جهاز استعلامات، وهو جهاز استخبارات منظمة الهاغانه.

المتحدة عرض عليه قدامى شاي مركز مدرب في المدرسة[1]. فقبل العرض ولم يغادر الموساد بعد ذلك. وكان الآن الخلف "المرشح" للحلول محل إسحق حوفي على رأس الموساد عندما يتقاعد هذا الأخير في سبتمبر - أيلول 1982. لم يكن لعدموني ميزة خاصة، بل كان رجلاً عادياً جداً وكان مشهوراً بحسن إدارته وبيروقراطيته. كان قد شغل وظائف مختلفة في الموساد في إطار عقيدة "المواقع الطرفية" التي يتبناها الجهاز، ثم في باريس في منتصف الستينات في ذروة التحالف الإستراتيجي بين إسرائيل وفرنسا، وأخيراً في واشنطن حيث كان له دور في كل مشاريع التعاون مع وكالة الاستخبارات المركزية. وكان قد تخصص في الدبلوماسية التناوبية. وكان الرجل الثاني في الموساد منذ سنة 1976.

كان بشير الجميّل قاعداً على أريكة من المخمل الأسود وفوقه لوحة من القماش يغلب عليها اللون الأحمر، وكان يرتدي قميصاً باجي اللون، وراح يشرح لشارون قائلاً إن الفلسطينيين، حسب معلوماته، لا ينوون الرحيل رغم قبولهم رسمياً بالمبدأ. وأكد اللبنانيون للإسرائيليين أنه من غير الوارد، عند الدولة اللبنانية، أن تجدد أي اتفاق آخر كاتفاق القاهرة، لا سيما وأن البلدان العربية تبدو غير راغبة في التدخل. وكان وزراء خارجية الدول العربية قد اجتمعوا البارحة في تونس ليدرسوا إمكانية عقد قمة لرؤساء الدول العربية، وانتهى الاجتماع دون اتخاذ قرار. ولم يصدر بلاغ ختامي ولا حتى الإدانة التقليدية للمساعدة الأميركية لإسرائيل.

كان شارون غارقاً في كنبة وهو يرتدي قميصاً أبيض قصير الكم، يصغي بانتباه شديد، والهاتف أمام قدميه. فقال لمخاطبيه إن الحكومة الإسرائيلية عقدت العزم على إخراج الفلسطينيين من بيروت بالرضا أو بالقوة. لكن مجلس الوزراء قبل بإعطاء مهلة لإفساح المجال أمام حل سياسي.

- إذا لم يتحقق هذا الحل سنقوم بعملية عسكرية لطردهم، قال شارون، الجيش يفضل تطويقهم وضربهم. وإذا ما نجحوا في التغلغل في بيروت الغربية سيطاردهم حتى آخر زقاق. روزنامة العملية لم توضع بعد. ستجتمع حكومتنا مساء غد (29 يونيو - حزيران) لتحديد التدابير الواجب اتخاذها.

كان شارون يعلم حقاً أن الموافقة على عملية عسكرية ضد العاصمة اللبنانية ليست حاصلة بعد. فالمعارضة كانت تقف ضدها بحزم. وكان الأميركيون قد استبعدوها لصالح التفاوض الذي يقوم به فيليب حبيب. وكان لزوال "تواطؤ" هيغ أثر شديد القساوة.

- أتريدون أن يكون لبنان مصر ثانية، أم تفضلون أن تنالوا، مع لبنان، أكثر مما نلتم في كمب دافيد؟ سأله أحد الزائرين.

(1) مدرسة الموساد الواقعة على تلة شمال تل أبيب، على طريق حيفا، قبالة الكونتري كلوب.

- نفضل معاهدة صلح أكثر شكلية، ولكن روابط أعمق من تلك التي تنشأ بين بلدين بعد مثل هذه المعاهدة. وعليه، فإننا سنكون صارمين جداً بشأن هذه المعاهدة. وإذا لم نتوصل إلى ذلك، فإن لبنان الجنوبي سيبقى تحت إشرافنا المباشر.

كانت هذه أول مرة يسيل فيها مثل هذا التهديد من كلام شارون. لم يعلق اللبنانيون الخمسة على هذا الكلام. فمعاهدة الصلح كانت بالطبع جزءاً من العملية القائمة. وقال الوزير إن بلاده لا تريد أن تتدخل في القرارات التي تتخذها القوات اللبنانية وأنها بالتالي لن تعارض، إذا كان يجب أن يحصل ذلك، إنشاء دولة مسيحية لا بد أن ينجم عن قيام حكومة مصغرة[1] إذا ما رفض المسلمون المشاركة في الحكم مع بشير الجميّل.

وأكد شارون:

- نحن مستعدون لمواجهة التداعيات، وسنساعدكم في الشمال وفي البقاع. سنساعدكم على إنشاء جيش قوي. بيد أننا نفضل قيام حكومة موسعة[2]. نحن في الواقع مستعدون لكل الخيارات.

ثم دعا ضيوفه للانتقال إلى غرفة الطعام حيث كان ينتظرهم بوفيه. كان نسيم الليل البارد يدخل من نوافذ زجاجية عريضة تطل على الحديقة. وتواصل الحديث بصورة غير رسمية، بينما كان كل واحد واقفاً يتناول الطعام من الصحن الذي بين يديه.

- يجب أن تقابلوا عرفات كي تقنعوه بأننا جادّون جداً، قال شارون. وعليه أن يفهم نحن لا نريد أن نضطر إلى تدمير بيروت. كما أن عليكم أن تتصلوا بالقادة السنّة والشيعة لمعرفة ما إذا كانوا قادرين على منع الفلسطينيين من بقائهم في المدينة. لا يجوز أن تطلق علينا النار. وإلا فإننا سنرد بكثير من العنف. أتعتقدون أن الفلسطينيين عازمون حقاً على الرحيل؟

- لا أظن، أجاب قائد القوات اللبنانية. لقد قالوا لرئيس الوزراء شفيق الوزان ولفيليب حبيب أنهم مستعدون للرحيل إذا طلب منهم ذلك زعيم سنّي. هذا كي يتمكنوا فيما بعد من اتهامه بالخيانة. المسلمون يعرفون ذلك، ولا يمارسون أي ضغط على منظمة التحرير، لا سيما وأن الفلسطينيين يذكرونهم خلال المحادثات، بما جرى لوصفي التل[3] وأنور السادات. لا أحد عندنا يريد قوة فلسطينية كلواء عين جالوت في القاهرة. أعتقد أنهم يسعون لكسب الوقت.

(1) حكومة مؤلفة من مسيحيين فقط.

(2) حكومة موسعة تضم مسلمين عملاً بـ "القواعد" الدستورية التقليدية.

(3) رئيس الوزراء الأردني الذي اغتاله الفلسطينيون في القاهرة لأنه كان رئيس الحكومة التي طردتهم من عمان سنة 1970.

واستقل اللبنانيون الخمسة المروحية فور انتهاء العشاء عائدين إلى الزوق. وفي اليوم التالي رتب زاهي البستاني لقاء عند الظهر بين نبيه بري وبشير الجميّل في القصر الجمهوري شارك فيه معاونه المقدم نبيه فرحات. اتفق الزعيمان بسرعة على الأمن في جنوب لبنان، بحيث تتولى ميليشيا كل منهما الأمر في القرى ذات اللون الطائفي الواحد ولجان مشتركة تشكل في القرى المختلطة. وأعرب زعيم حركة أمل عن قلقه على ضاحية بيروت الجنوبية. فهو قد تخوف من أن تصبح هذه المنطقة ساحة للقتال في حال حصول هجوم إسرائيلي، فعمل على إخلاء 250000 شيعي منها تكدسوا في بيروت الغربية. وحذت حذوهم عائلات فلسطينية عديدة. وبات بري الآن يخشى ألاّ يكتفي الإسرائيليون بالاستيلاء على الضاحية وأن يدخلوا المدينة أيضاً. فطمأنه بشير وسأله عما قد يكون موقف رجاله في حال حصول هجوم من قبل الجيش الإسرائيلي. فأكد بري أنهم لن يقاوموا. واتفق الرجلان على أنه في حال حصول هجوم إسرائيلي يرفع الشيعة أعلاماً بيضاء تشير إلى مواقعهم.

كان الاتصال بالفلسطينيين سهلاً كون هؤلاء أنفسهم قد سعوا إلى الاتصال بالقوات. فقد كان هاني الحسن، مستشار عرفات، قد طلب إلى الأمير السعودي سعود الفيصل أن يتوسط له من أجل تحديد موعد مع بشير. فتلقى بشير يوم 29 يونيو - حزيران برقية من السفير السعودي علي الشاعر تطلب منه "إيجاد مخرج مشرف لأجل إنقاذ الوضع (عن) طريق خطة تحفظ ماء وجه المقاومة الفلسطينية والسيادة اللبنانية"[1]. وكلف بشير جوني عبدو بهذه المهمة.

وفي الليل جاء إلى بيروت الرجل الثاني في الموساد ناحوم عدموني (بيتر) ومناحيم نافوت، وأفنير آزولاي، والمحلل الرئيسي للملف اللبناني باتريك، كي "يروا" ما أسفرت عنه مساعي بشير، ثم استعرضوا آخر المستجدات مع بشير.

- يعتبر جوني عبدو أن الفلسطينيين يمارسون الازدواجية الكلامية وأنه حتى الآن لا يوجد مكان لحل سياسي، قال بيتر مختصراً الوضع. وهو يعتقد أن شن عملية عسكرية سريعة يبدو حتى الآن ضرورياً، وإلا فإنه يجب الإبقاء على حصار بيروت مدة ستة أو سبعة أشهر حتى يستسلموا. أخبرني زاهي البستاني عن المناقشات التي دارت بينكم وبين حركة أمل. وقدم لنا HK (إيلي حبيقة) لائحة بالقطاعات التي تسيطر عليها جماعة نبيه بري. وسألنا جوني عبدو عن أسباب عدم دخول الجيش اللبناني هذه القطاعات. وإذا فعل فإن دباباتنا ستسانده عند الحاجة. كما أنها لا تستطيع أن تدخل تحت ذريعة تقديم العون للشيعة. سيكون هذا مكسباً لأنه يقلص مساحة المجابهة مع الفلسطينيين ويقلل من عدد الضحايا.

(1) أنظر النص الكامل في الملحق رقم 11.

ومسؤولونا العسكريون موافقون عليه. إذا رأيتم أن الفكرة جيدة فيمكن لنا أن نأتي منذ الغد ونوزع القطاعات التي سيتولى أمرها الجيش وتلك التي ستكون من صلاحيتنا. وهكذا ستنفذون أنتم عملية "الشرارة" ونقوم نحن بإنجاز العمل. وختم الرجل الثاني في الموساد كلامه بالقول: إن جوني موافق لكن زاهي البستاني متحفظ. فصحح هذا كلامه قائلاً:

- لا، بل أنا ضد.

- سندرس فيما بعد ما إذا كانت هذه الفكرة صالحة أم لا على الصعيد العسكري، قال بشير. أما على الصعيد السياسي. فالجيش سيقطف ثمارها.

وأوضح بيتر قائلاً:

- حسب المخطط الذي بحثناه، سيتدخل الجيش اللبناني في المناطق التي يمتنع فيها الشيعة عن القتال.

وإذ خشي قائد الميليشيا المسيحية أن يُطبَّق على الأرض خيار على حسابه، قال بلهجة خشنة:

- هذا لن ينجح! ولماذا لا ينفذ الجيش عملية "الشرارة" أيضاً ما دمتم تسيرون في هذا الاتجاه! ولو فعل لجنى مكسباً سياسياً وخسرتم أنتم القوات اللبنانية دون أن تكسبوا الجيش.

- لكنك حتى الآن تقبل بأن يدخل الجيش بيروت الغربية، رد عليه مناحيم نافوت.

فعاد بشير يقول:

- عندما تتقدم دباباتكم سيلجأ الفلسطينيون إلى مناطق انتشار الجيش اللبناني، الذي سيضطر أن يحميهم. لا تنسوا أن الوحدات التي تستطيع دخول برج البراجنة مؤلفة من مسلمين. وسيكون من اليسير على الفلسطينيين أن يقوموا بمناورات سياسية بين الطوائف. هناك أمر مؤكد! لن تحصل عملية "الشرارة" بواسطة ما تقترحون الآن.

- إن كنت تعتبر هذه الخطة سيئة، فلننسها وننكف عن الكلام حولها، قال ناحوم عدموني.

لكن فكرة تدخل الجيش في بيروت الغربية شقت طريقها رغم المعارضة المبدئية من جانب قائد القوات اللبنانية. وكان قادة القوات أجروا دراسة دقيقة لعواقبها. إن عملية محدودة على كنيسة مار مخايل بعد غاليري سمعان يمكن أن تكون لها حسنات. وإذا كانت أضخم نوعاً ما، فيمكن لها حتى أن تشكل "الشرارة" وتعفي القوات اللبنانية من هذا العبء السياسي. وأخبر جوني عبدو زاهي البستاني أن مسؤولي الصامت الكبير (وهو الجيش اللبناني) جاهزون، إلا أنهم يريدون أن يبحثوا مع القوات اللبنانية كيف يمكن لها كما لحزب الكتائب أن "يقوا

خارج اللعبة تماماً". كان بعض الضباط لا يريدون أن "يتورط" بشير في هذه القضية، وكان آخرون "لا يريدون أن يشاركوا القوات اللبنانية في أية عملية أياً تكن". طلب بشير من فادي أفرام وإيلي حبيقة تهيئة العملية. وقرروا عدم إعلام الإسرائيليين بالأمر إلا في آخر لحظة.

واستقبل بشير الجميّل وسليم الجاهل يوم 29 يونيو – حزيران وفداً من الموساد جاء يقدم له ريحافياه فاردي، "السفير" الإسرائيلي الجديد في لبنان.

كان هذا في الستين من العمر تقريباً، بارداً جداً، قليل الكلام، وكان رئيس دائرة استعلامات جهاز آمان حتى سنة 1962، سنة تعيينه من قبل رئيس الموساد في حينه، مئير آميت، بالإضافة إلى "شبان" آخرين ليحلوا محل عدد من المستقيلين الذين كان بينهم إسحق شامير والذين كانوا يحتجون على إعادة تنظيم المؤسسة. كان وزير الدفاع قد استدعى فاردي من التقاعد وعينه "منسقاً مدنياً" للحكومة الإسرائيلية في المناطق المحتلة في لبنان. فكان عليه أن يعنى مثلاً بحاجات الفلسطينيين الإنسانية. انتفض بشير عند سماعه بهذه المهمات وقال بلهجة حادة:

– لماذا يجب أن يعمل لأجل الفلسطينيين؟ سيتوجب على هؤلاء أن يرحلوا. نحن نفضل أن يصير مخيم عين الحلوة روضة أو أوتوستراداً على أن يبقوا فيه. الشيعة اللبنانيون بحاجة أكثر منهم إلى المساعدة الإنسانية.

– سنهتم بالدرجة الأولى بتوزيع الماء والكهرباء والهاتف في صيدا وفي ضاحيتها، شرح فاردي. ومشكلتنا الأساسية هي مشكلة اللاجئين الفلسطينيين الذين يعودون بأعداد كبيرة إلى المخيمات. ماذا يجب أن يعمل لأجلهم؟ ستأتي الهيئات الدولية بكثير من المال لأجل ترميم المساكن المهدمة. نحن نشاطركم الرأي حول خطر أن تعود هذه المخيمات مجدداً قواعد عسكرية. لكن ما العمل؟ في الواقع، عليكم أنتم أن تقرروا.

– قراري بسيط، قال بشير بحدة: سنساعدكم على نقلهم إلى جوار الحدود السورية بحيث يتسنى طردهم نحو دمشق منذ قيام حكومة لبنانية جديدة. لا يجوز أن تبقى هذه المخيمات موجودة! هذا المكان الذي نحن فيه الآن كان مخيم الكرنتينا. وعندما استولينا عليه سنة 1976 محوناه بالجرافة. أما مخيم صبرا في بيروت فسيصبح حديقتنا الوطنية للحيوانات[1].

فقال فاردي:

– يوجد في صيدا متعهد يدعى رفيق الحريري. إنه يبني كثيراً في المدينة وقد بنى الجامعة اللبنانية. إنه ذو إمكانات مالية هامة. لماذا لا تقولون له ما عليه أن يفعل؟

(1) بعد مرور 15 سنة أنشأت الحكومة برئاسة رفيق الحريري هناك قسماً من المدينة الرياضية الجديدة.

– قد يكون بنى شيئاً ما في صيدا، لكن لا يحتمل أن يتعاون في هدم المخيمات، رد رئيس القوات. اتصل بي البارحة أحد مديريه وطلب مني إخلاء المستشفى الذي نحتله في كفرفالوس فوق صيدا. فقلت له إننا سنشتري منه كل أراضي المسيحيين التي اشتراها بأموال سعودية. إنه ينوي أن يشتري كل شيء وصولاً إلى جزين. وهو يسعى إلى جعل صيدا مركزاً مالياً واقتصادياً من الطراز الأول.

– صرت أفهم الآن لماذا كان يحرص على العمل بسرعة! قال فاردي.

– من هو بالضبط هذا الحريري؟ سأل الرجل الثاني في الموساد.

فأجابه بشير قائلاً:

– إنه خطر. وتحت تصرفه كثير من المال السعودي.

في ليل 29 يونيو – حزيران 1982، جاء القائم بالأعمال السعودي أبو بكر رفيع بصورة متكتمة وسلم بشير رسالة من سفير بلاده علي الشاعر الذي كان في العربية السعودية.

"37/37 جدة. وزارة الخارجية – 9/ 9/ 1402 H – الساعة العاشرة ليلاً – جرد رقم 1/ 17351/ 16/ 97 – نجدية – بيروت

"عاجل جداً

"إلى الأخ أبو بكر رفيع... عملاً بالتوجيهات تفضلوا بنقل هذه الرسالة فوراً إلى الشيخ بشير الجميل... بداية.

"حضرة السادات، الأخ الشيخ بشير الجميل، بناء على الإرادة العامة لإيجاد مخرج عاجل ومشرف من الوضع المحرج الراهن في لبنان، وعلى الرغبة في إجراء مناقشات مباشرة معكم شخصياً، يود صاحب الجلالة الملكية الأمير سعود الفيصل أن يدعوكم لزيارة الطائف، هذه الليلة إذا أمكن، للبحث في جميع الحلول المقترحة على ضوء محادثات لجنة وزراء الخارجية الجارية في الطائف الآن، بغية الوصول إلى الحل الذي يتفق مع الغاية المنشودة... بانتظار جوابكم الذي نأمل أن يكون إيجابياً... السفير علي الشاعر... انتهت الرسالة...

"حاولنا أن نتصل بالشيخ بشير هاتفياً فلم نوفق... بانتظار برقيتكم... السفير علي الشاعر – وزارة الخارجية.

طلب بشير إمهاله لإعطاء جواب. ولم يكد الدبلوماسي السعودي يخرج حتى هرول إلى المقر الأميركي لبحث الأمر مع فيليب حبيب. نصحه الأميركي بإصرار بأن يقبل الدعوة. فقد كانت تعني أن الزعيم الشاب "بات لا يمكن الاستغناء عنه، وبالتالي، فإن وضعه في انتخابات الرئاسة سيتعزز". وسلم فيليب حبيب وثيقة لا تحمل عنواناً يشير إلى مصدرها

تتضمن اقتراحاً أميركياً من تسع نقاط كان يتأهب لإيصالها إلى ياسر عرافات بواسطة صائب سلام :

" 1 - وقف إطلاق النار .

" 2 - يجب أن يغادر كل القادة الفلسطينيين لبنان ، مع ضمان سلامتهم .

" 3 - يجب أن يغادر كل المقاتلين الفلسطينيين لبنان مع أسلحتهم الفردية ودون أسلحة ثقيلة ، مع ضمان سلامتهم .

" 4 - عدم قيام الفلسطينيين بأي انتشار عسكري انطلاقاً من بيروت صوب أية منطقة لبنانية أخرى .

" 5 - الحضور السياسي لمنظمة التحرير الفلسطينية مقبول ويفضل أن يكون خارج بيروت .

" 6 - تعديل الحضور الإسرائيلي بعد ابتداء تنفيذ هذه الخطة .

" 7 - يتولى الجيش اللبناني الإشراف على بيروت بكاملها .

" 8 - تسلم كل العناصر المسلحة في بيروت الغربية أسلحتها إلى الجيش اللبناني . وتنتقل قوات الردع العربية [السورية] وجيش التحرير الفلسطيني [الفلسطينيون الموالون لسوريا] إلى سوريا .

" 9 - وفقاً للخطة المبينة أعلاه ، ودون أن يكون هناك رباط مباشر ، هذه مسألة سياسية ، وبعد فترة ، لن تبقى في لبنان أية قوة مسلحة [فلسطينيون ، سوريون ، إسرائيليون] " .

قرأ بشير الوثيقة بعناية ثم أبدى عدة تحفظات . خصوصاً فيما يتعلق بالنقطة الخامسة . وطلب تزويده بنسخة عنها ، ثم انتقل ومعه البستاني إلى فيلا مسعد في طبرجا لمقابلة أفنير آزولاي (فيليب) . نصحه الإسرائيلي أيضاً بزيارة السعودية . واستأثر مضمون خطة فيليب حبيب بكل انتباهه ، ثم قال :

- الأميركيون يبنون سياستهم على أهداف مؤاتية لنا . هذا مهم جداً بالنسبة لنا .

قد يكون التدخل السعودي جديراً بالاهتمام ، لكن القادة المسيحيين كانوا يبدون شكوكاً حول مدى نفعه . ففيما خص لبنان ، لم يفض أي حل من الحلول التي اقترحتها البلدان العربية - وكانت كثيرة - إلى نتيجة . ومن مؤتمر تونس إلى مقررات الطائف ، وفاس ، ولجنة المتابعة العربية ، وحماية قوة الردع العربية ، لم تحل كلها دون صيرورة المقاومة الفلسطينية جيشاً شبه نظامي يفرض سلطته على حساب السيادة اللبنانية . فأمست دولة ضمن الدولة وتوصلت في غضون سبع سنوات إلى بسط هيمنتها على جزء كبير من البلاد . في الساعات الأولى من يوم 30 يونيو - حزيران 1982 ، اتصل قائد القوات اللبنانية بأبي بكر رفيع ليبلغه أنه قبل الدعوة وأنه سيصل إلى الطائف بصحبة زاهي البستاني وإيلي حبيقة . وبعد مرور أربع ساعات ، جاءه القائم بالأعمال حاملاً رسالتين[1] من علي الشاعر يرحب فيهما بقدومه ويبلغه أن طائرة تنتظره في قبرص لنقله إلى الطائف .

في فجر الأول من يوليو - تموز ، حاول عناصر من الميليشيا الدرزية أن يستولوا عنوة على بلدية بيت الدين التي كان قد تحصن فيها عناصر من القوات اللبنانية . فتدخل الجيش الإسرائيلي فوراً ، وجرد عناصر الطرفين من سلاحها ، وأقام حواجز على كل طرق المنطقة .

وعند الظهر ، على مسافة دون الثلاثة كيلومترات من هناك ، حصل انفجار عنيف دمر محطة للوقود وقتل صاحبها وابنه . كانت القوات اللبنانية قد صادرت هذه المحطة قبل 48 ساعة ومنعت أي تسليم للوقود بدون إذن موقع منها حسب الأصول . فرض الإسرائيليون منع التجوال . وحصل وفد من وجهاء الدروز على ترخيص من الجيش الإسرائيلي بالسماح لهم بالذهاب إلى إسرائيل لمقابلة الشيخ أمين طريف ، الرئيس الروحي لدروز إسرائيل في قريته كفر ياصيف الواقعة بالقرب من حيفا . اشتكى اللبنانيون لدى مضيفهم من الأعمال التعسفية التي تقوم بها الكتائب ضد طائفتهم في الشوف ، وطلبوا إليه أن يتدخل لدى بيغن . فاتصل أمين طريف في الحال برئيس الوزراء الإسرائيلي الذي أكد له أن هذا لن يتكرر بعد الآن . وبعد بضع ساعات ، أعلن رفائيل إيتان بواسطة الإذاعة العسكرية الإسرائيلية أن القروين الدروز اللبنانيين هم في حماية الجيش الإسرائيلي . وتحدث مراسل هذه الإذاعة في الشوف عقب انتهاء إعلان رئيس الأركان ، فأكد أن الكتائبيين يقومون بأعمال تنكيل ضد سكان الجبل وأن احتجاجات الدروز اللبنانيين لها ما يبررها تماماً .

أثارت هذه التصريحات ومقتل مانويل الجميّل ذهول قادة القوات اللبنانية . واستولى عليهم شك مقلق حول حقيقة نوايا الإسرائيليين ، فكان أشبه بحمل ثقيل لحظة إنجاز الترتيبات الأخيرة لرحيل بشير إلى العربية السعودية . وظهرت حتى في لحظة ما فكرة تقول بإرجاء هذه الرحلة وحتى بإلغائها . استدعى قائد القوات اللبنانية فادي أفرام هاتفياً وأمره :

- انسحبوا فوراً من قرية قُبَّيع الدرزية .

وأخبر بشير أفنير آزولاي بهذا الانسحاب قبل بضع دقائق من سفره إلى الطائف . وكظم بشير غيظه واقترح عقد صفقة مع ممثل الموساد المقيم في لبنان ، طالباً ضرب الكتيبة السورية ذات الرقم 62 المتمركزة في المتن ، وأضاف :

---

(1) انظر النص الكامل في الملحق رقم 12 .

– إن لم تفعلوا هذا الآن، فستحصل مشاكل كثيرة فيما بعد، فسر له. سنضطر إلى الانسحاب من جميع جبهات الجبل كما فعلنا في قُبَيع – وسيكون هذا وبالاً علينا جميعاً.

وأضاف زاهي البستاني:

– لقد قتل مجدداً مسيحيون في هذه المنطقة. هذا غير مقبول! حينما دخلتم لبنان، كانت عمليتكم تعتبر مؤاتية للقوات اللبنانية، والآن لم تعد الحال هكذا.

– سننقل الرسالة، وعد أفنير آزولاي محاولاً التهدئة.

– عندي رسالة شخصية أيضاً إلى مناحيم بيغن، قال بشير: "إذا ضبطتم الوضع بواسطة قواتكم فلن تعود هناك مشكلة مع الدروز".

– سأنقلها إلى شارون، أكد أيضاً فيليب حبيب وهو يسجل ملاحظات.

في أول يوليو – تموز 1982، صعد اللبنانيون الثلاثة في الزوق إلى مروحيتين صغيرتين تابعتين لفرقة العمليات الخاصة في الجيش الأميركي، من طراز سيسبراي، مماثلتين لتلك التي استعملت في عملية "أوتو" يوم عاد بشير الجميّل وزوجته من الولايات المتحدة في آب 1981. وكما في سنة 1981، كانت وكالة الاستخبارات المركزية قد نظمت هذه الرحلة. أنزلتهم المروحيتان عند سلم طائرة سعودية في مطار لارنكا. ووصلوا إلى الطائف قبل الساعة العاشرة ليلاً بقليل حيث استقبلهم علي الشاعر وقادهم إلى قصر المؤتمرات حيث كانت لجنة وزراء خارجية الجامعة العربية تعقد اجتماعاً[1].

كان الأمير سعود الفيصل، والوزير الكويتي عبد العزيز حسين، والأمين العام للجامعة العربية الشاذلي القليبي، وعلي الشاعر ينتظرونهم في إحدى صالات القصر. افتتح الوزير السعودي الاجتماع بتصريح رسمي جداً منوهاً بأن البلدان العربية "فوجئت بالغزو الإسرائيلي" وأن المهمة التي انتدبت اللجنة نفسها لها هي "إيجاد حل" للوضع.

بينما كان السعودي يتكلم، كان الوزير الكويتي والأمين العام للجامعة العربية، مذهولين، لا يحيد نظرهما عن إيلي حبيقة. لم يفطن إيلي حبيقة إلى أن سترته كانت مفتوحة بشكل واسع ويظهر تحت حزام جلدي أسود قبضة مسدس ضخم. انتبه إيلي حبيقة للأمر وعدل وضعية سترته بحركة سريعة، وأرسل ابتسامة باردة إلى الدبلوماسيين على سبيل الاعتذار.

بعد التعبير التقليدي عن الامتنان، دخل بشير في صلب الموضوع قائلاً دون أن يرف له جفن:

– لست رجل سياسة. لا أسعى إلى أن أكون نائباً أو وزيراً أو رئيساً. ولست أسعى وراء

(1) لبنان ومنظمة التحرير وسورية والكويت والجزائر والعربية السعودية.

المال. ابنتي قتلت. وهمّي اليوم هو الحؤول دون أن يلقى أطفال لبنان مصيرها. طموحي الوحيد هو أن أعود إلى مكتبي كمحام. فيكون في وسعي إذاً أن أتفوه بكلام لا يستطيع أن يقوله ممثل لبنان الرسمي لدى الجامعة العربية جوزف أبو خاطر. لذا سأكون واضحاً وصريحاً معكم. أريد أن أطرح أسئلة واضحة عن العالم العربي، وعن الفلسطينيين والسوريين. الوضع في لبنان لم يعد يسمح بالمماطلة. لقد اجتمعت بعدة مسؤولين فلسطينيين، وبعد ذلك، وبسحر ساحر، أعلنَ أنهم لم يعودوا مفوضين. لن أتكلم عن الماضي بل عن الحاضر والمستقبل. يوجد في لبنان الآن 60000 جندي إسرائيلي، و30000 جندي سوري، و600000 لاجئ فلسطيني، والإرهاب الدولي بالإضافة إلى ذلك. نطلب إليكم بصورة واضحة جداً، ونفعل هذا أيضاً باسم الرئيس سركيس، أن تنسحب كل هذه القوات الأجنبية، وأن تعود سيادة الدولة على كامل الأراضي اللبنانية. نحن مستعدون أن نبحث معكم عن صيغة تنقذ شرف الفلسطينيين، لكننا نطلب منكم منذ الآن أن لا نعود نحمل عبء القضية الفلسطينية لأننا لم نعد قادرين على ذلك. إذا قرر بيغن أن يدخل بيروت فلن يبقى لبنان. لسنا قادرين على التضحية بأنفسنا. قبل عشر سنوات، كنا على استعداد لذلك من أجل تحرير عشرة أمتار من فلسطين. أما اليوم فقد انتهى هذا الأمر! يحاول ياسر عرفات كسب الوقت إذ يضع شروطاً جديدة يرفضها الجميع. نعرف أن الثلاثمائة عنصر التي يريد إبقاءها في لبنان ستغدو ثلاثة آلاف بعد شهور. فيما خصّ سوريا، لم نعد نريد تجديد مهمة قوات الردع العربية. وأؤكد لكم كمسؤول بأن الجيش اللبناني جاهز للحلول محلها. نحن من جانبنا مستعدون لحل الميليشيات. قبل مجيئي إلى هنا اتصلت بالرئيس صائب سلام وقال لي أن أخاطبكم باسمه، وهذا ما أفعل.

– أنت عند إخوة يا شيخ بشير وفي بلاد لا تتمنى سوى السلام، أجاب الأمير السعودي، وأضاف بغية إفهام ضيفه أنه ليس منخدعاً: كيف تريد أن لا نأخذ دوركم السياسي والعسكري في الاعتبار؟ لا أحد هنا يريد أن يرجع لبنان إلى وضعه السابق. غير أن لنا رؤية للأمور مختلفة قليلاً، ونأمل أن تأخذوها في الاعتبار. نحن هنا لكي ندرس ما يمكن فعله. ونأمل أن نصل إلى حل جذري لصالح لبنان دون أن نقلب الحالة رأساً على عقب. المقترحات اللبنانية لا تتعارض مع نظرتنا إلى الأمور. ونحن الآن نحتاج إلى معرفة التفاصيل. إن خطة انسحاب الفلسطينيين يجب أن تحافظ على المقاومة دون أن تغدو عبئاً على العالم العربي ومع إفساح المجال أمامها للاستمرار في مواجهة إسرائيل. ومن جهة أخرى، نحن لا نريد أن يكون لعملنا تداخل مع المفاوضات الجارية حالياً في لبنان.

– لا توجد مفاوضات في لبنان بل مماطلات فلسطينية، قال بشير مقاطعاً. إنهم يحاولون أن يناوروا.

– فلنناقش! أردف سعود الفيصل وهو يحدق في وجه الزعيم المسيحي. عرض الفلسطينيون أفكاراً والعنصر الأساسي فيها الإبقاء على حضورهم السياسي – العسكري. فهل يمكن إيجاد صيغة تضمن الحفاظ على لبنان في مثل هذه الحال؟ لقد جاء الإسرائيليون دون توجيه دعوة لهم.

– ليس هناك الاحتلال الإسرائيلي فقط، وإنما الاحتلال الفلسطيني والسوري والإسرائيلي.

رد الأمير فيصل قائلاً:

– للاحتلال الإسرائيلي دوافع تجب إزالتها. ليس في الأمر مشكلة فلسطينية لا غير.

– أصغينا إلى كلامك فيما يتعلق بالسيادة والشرعية، أكد الشاذلي القليبي. الفلسطينيون لم يختاروا أن يكونوا في لبنان. صحيح أن الاتفاقات المعقودة في القاهرة لم تؤمن سلامة بلادكم. لقد وصل الوضع الآن إلى نقطة حرجة. وأنتم لكم دور يجب أن تؤدوه. الوجود العسكري لمنظمة التحرير في لبنان بات مهدداً وليس من مصلحتهم أن يضيعوا الوقت. إنهم يريدون الوصول إلى حل يحفظ كرامتهم. فما هي الصيغة الفضلى؟ فلنتفاوض، والفلسطينيون عرضوا مقترحات.

– لم يقترحوا شيئاً، رد بشير الجميّل بلهجة جافة. هل للفلسطينيين سلطة اتخاذ قرار ثم تكلف اللجنة بتنفيذه؟

– لن يخرج لبنان من محيطه العربي وبالتالي لن يعفى من مسؤولياته العربية، ردّ الكويتي عبد العزيز حسين.

فقال بشير بنبرة حانقة:

– نحن نواجه الفلسطينيين، وهذا لا يفعله أحد غيرنا حتى الآن! اعفونا إذاً من المزايدات العربية.

– حافظ على هدوئك يا شيخ بشير. أنت لست أمام أعداء. كانت الكويت أحد من أسدوك النصح، قال سعود الفيصل مبتسماً ومشيراً بذلك إلى المباحثات التي جرت بشأن قضية زحلة. نحن نريد معالجة هذا الملف انطلاقاً من مصالح لبنان. والإسرائيليون يبغون قبض ثمن غزوهم بنقل عبء القضية الفلسطينية إلى العالم العربي. علينا أن نحول الأزمة الراهنة إلى مشكلة إسرائيلية وأن نتحاشى تحويل الفلسطينيين إلى مشكلة للعالم العربي. وإذا لم نتوصل إلى حل، فإن الإسرائيليين سيجتاحون بيروت ويدمرونها. يضاف إلى هذا أن

إخراج الفلسطينيين بصورة غير مشرفة سيحيي الإرهاب من جديد.

– أنا مسرور، أكد بشير بابتسامة. هذا أول اجتماع يشهد كلاماً صريحاً. نحن لا نرفض أي حل مسبقاً. كل شيء قابل للتفاوض. أتريدون الوصول إلى حل؟ يجب أن يرحلوا جميعاً. وبعد ذلك، متى استعادت الحكومة اللبنانية وبسطت سلطتها على كامل الأراضي. سنطلب نحن أن تعود العناصر المسلحة الثلاثمائة إلى لبنان. طلبت من أبو عمار ثلاث مرات أن أجتمع به فلم ألق جواباً، قال بشير هذا كاذباً. نحن نريد أن نجتمع بشخص مسؤول في الجانب الفلسطيني.

– العالم العربي مدرك لمسؤولياته التاريخية، أكد سعود الفيصل. نحن لا نرضى بأن تحول إسرائيل الفلسطينيين إلى نواة إرهابية في العالم العربي.

– ألا يمكن أن يتمركز الفلسطينيون في مكان غير لبنان؟ سأل بشير.

– هذا أمر عسير جداً. لكن وضعهم القانوني في لبنان يجب أن يكون مماثلاً لوضعهم في البلدان العربية الأخرى. كما هو في مصر مثلاً، أقترح الفيصل.

– مصر قوية.

– قيام حكم قوي في لبنان يستطيع أن يضمن الاستقرار، قال الكويتي.

– هذه العناصر الثلاثمائة ستضعف الحكم اللبناني، كرر بشير القول. واقتراحي الداعي لإخراجهم له ما يبرره. عندما يقوم في لبنان حكم قوي، عندها يمكن أن نقلبهم. يحتاج لبنان إلى عشر سنوات للنهوض من كبوته. دعونا نعيد بناءه.

– أية مساعدة تريدونها من البلدان العربية؟ سأل الأمير السعودي بلهجة لطيفة.

كان التلميح إلى "تعويض" مالي واضحاً جداً. وكان الجواب جافاً:

– لا شيء! ما عدا إعطاءنا الوقت لنعيد بناء بلادنا دون أن يفرض علينا 300 فدائي.

– طلبت أن يخرجوا من لبنان أم من بيروت؟ سأل الشاذلي القليبي مائلاً نحو بشير.

– الشعب الفلسطيني المسالم نحن نرحب به. ونرحب بوجود مكتب تمثيلي رسمي، لكن خارج بيروت وبدون عناصر مسلحة. لن يكون من وجود لقوات غريبة على أرضنا. لا سورية! ولا فلسطينية! ولا إسرائيلية!

– كيف سيكون وضع المدنيين الفلسطينيين القانوني في لبنان؟ سأل الكويتي.

– مماثلاً لوضعهم في الكويت!

– ومن يضمن حمايتهم؟ اعترض الفيصل. لقد حصلت سابقاً عدة حوادث.

– سيكون الفلسطينيون تحت مسؤوليتنا، قال قائد القوات اللبنانية.

وبعد اتفاقنا، سأزور الرئيس سركيس غب عودتي، وسيدعو الرئيس جميع قادة البلاد

إلى تأييد هذا الاتفاق. إلا أن ثمة موضوعاً آخر أود التطرق إليه. ماذا سنفعل بالسوريين الموجوين عندنا؟

– للرئيس سركيس أن يقرر، ونحن سندعم قراره، أكد السعودي وهو ينهض لينهي الحديث.

– أعتقد أنهم سيقبلون، قال الأمير السعودي وهو يتوجه نحو الباب.

كان واضحاً تماماً، في نظره، أن وجود جنود دمشق في لبنان لم يكن على جدول الأعمال. كانت الساعة الثانية صباحاً. ومضى الوزيران والأمين العام للجامعة العربية لينضموا إلى سائر أعضاء اللجنة الذين واصلوا اجتماعهم إبان المحادثات. وكما هي العادة في العربية السعودية، فإن كل ما هو مهم يجري في الليل، لأن القيظ يقتضي ذلك. عند الساعة الرابعة، حضر الحرس بلباسهم الرسمي وأبلغوا اللبنانيين الثلاثة أن سعود الفيصل يرغب في رؤيتهم مجدداً.

استقبلهم واقفاً بضع دقائق لينقل إليهم مقررات لجنة وزراء الخارجية:

– تقترح اللجنة أن تجتمع لجنة السلامة العامة في لبنان وتفوض شخصاً بالتفاوض باسمها، قال سعود الفيصل. وعلى منظمة التحرير الفلسطينية أن تفعل الشيء ذاته. وللملك طلب خاص: يجب أن يقدم لبنان تسهيلات لوجود فلسطيني لا يتعارض مع سيادته. هذا سيسمح بتذليل العقبات النفسانية التي تعكر الوضع. سنتصل بالأميركيين. فلا يجب أن يظنوا أننا نسعى إلى إقصائهم عن المفاوضات. إن لكم دوراً مهماً جداً عندهم. يجب أن تتوصلوا إلى تفاهم بينكم وبين الفلسطينيين والسوريين لأجل تحييد الإسرائيليين. وفيما خص الانسحاب السوري، فإن طلباً بسيطاً من سركيس إلى اللجنة سيكون كافياً للحصول عليه.

قرر العرب إذاً أن لا يقرروا شيئاً. وهم لم يعرضوا حتى أن يكونوا وسطاء، وتركوا ممثلي ما يسمونه "الطرفين" يتفاوضون فيما بينهم. كان بشير الجميّل وزاهي البستاني وإيلي حبيقة مرتاحين. فركبا الطائرة عند الساعة الخامسة متوجهين إلى لارنكا حيث كانت تنتظرهم المروحيتان الأميركيتان. وهبطوا في الزوق عند الساعة التاسعة والنصف صباح يوم 2 يوليو – تموز، ومضى كل منهم لأخذ قسط من الراحة.

19

الحصار

بينما كانت المروحيتان الأميركيتان تهبطان في الزوق كان في الجهة المقابلة "للجيب" المسيحي مروحية تحمل نجمة داود تهبط على بعد بضعة أمتار من مركز قيادة الجنرال أمير درووري وعلى متنها آرييل شارون.

قام وزير الدفاع ومعاونوه وكانوا جميعاً يرتدون ملابس مدنية في سيارات تحمل لوحات لبنانية زودهم بها جهاز آمان (الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية)، بجولة على المواقع الإسرائيلية جنوبي "وكر الجرذان". تفحصوا مطولاً مختلف إمكانات دخول بيروت الغربية.

وعند الظهر ذهب شارون وحاشيته لتناول طعام الغداء في فندق ألكسندر في الأشرفية معقل الصحافة الدولية في المنطقة المسيحية، الذي يقع على مسافة خطوات من معبر المتحف. ولم يخف وصولهم على الحاضرين. جلس وزير الدفاع إلى أكبر طاولة في المطعم وظهره إلى الحائط ووجهه صوب رجال الصحافة الذين جاؤوا ليأكلوا، فاندفع هؤلاء نحوه. وارتجل شارون ندوة صحافية "غير متوقعة" بينما كان يتناول الطعام، مسترخياً جداً ومبتسماً، مطلقاً بين حين وآخر عبارات صغيرة مثل "إسرائيل لا تنوي الاحتفاظ بشبر واحد من الأراضي اللبنانية" أو "تدخلنا في لبنان كي نقاتل الإرهاب الفلسطيني" أو "إذا أراد اللبنانيون أن يقلعوا عن الزحف على بطونهم فعليهم أن يقاتلوا الفلسطينيين" أو "من واجب اللبنانيين أن يقاتلوا من أجل استرداد حريتهم واستقلالهم". ونشرت الصحف كل هذه العبارات في اليوم التالي.

كانت بساطة شارون المصطنعة أمام الصحافيين لا تحجب تماماً عدم اصطباره وغيظه حيال المبادرات السياسية المتنوعة التي كانت تتكاثر لإيجاد مخرج من الأزمة. وكان السلاح الفلسطيني الموجود في "وكر الجرذان" هاجسه الشديد. فكان لا يريد سوى شيء واحد: أن يتمكن من دخول بيروت الغربية بقوة و"تنظيفها". كان يحمل بغيظ على الضغوط الأميركية وعلى المعارضة السياسية الإسرائيلية، التي تمنعه من "تنظيف" المخيمات.

وعاد إلى بيروت في اليوم التالي وأمر قواته بإقامة حصار كامل وشامل حول بيروت الغربية. عند الساعة الثالثة عشرة منعت القوات الإسرائيلية مرور أي مركبة من الشرق إلى الغرب. وأجبرت عدة شاحنات تحمل مواد غذائية إلى المحاصرين على أن تعود أدراجها. وقطعت الكهرباء والماء.

- فليرحلوا سيراً على الأقدام أو في سيارات لكن فليرحلوا، صاح بيغن بقوة في الكنيست في اليوم ذاته. الفلسطينيون سيرحلون أو سيرحَّلون، ولا أهمية للعبارة فالمهم أن يرحلوا.

قال رفائيل إيتان:

- توجد عشرة خيارات عسكرية.
- يجب أن يرحل الفلسطينيون في أسرع وقت، فقد نفذ صبر إسرائيل، أضاف إسحق شامير في الإذاعة الإسرائيلية.
- يجب أن يغادر كل الإرهابيين الفلسطينيين لبنان، وقد رفضت الحكومة الإسرائيلية رفضاً قاطعاً كل اقتراح يلحظ لهم وجوداً جسدياً، حتى رمزياً، تحت شكل سياسي أو عسكري في لبنان، قال دان مريدور الناطق باسم الحكومة.

وخيم قلق عميق على غرب العاصمة اللبنانية. واعتبر تشديد الحصار كما اعتبرت هذه التصريحات نذيراً بعمل عسكري واسع النطاق. ورفض شفيق الوزان أن يقابل فيليب حبيب في بعبدا طالما بقي جنود إسرائيليون على طريقه. وراح أعضاء المجلس الإسلامي يعقدون اجتماعاً تلو اجتماع. وطلبت منظمة التحرير ضمانات وحماية للمدنيين الفلسطينيين الذين سيبقون في لبنان. وطالبت المنظمة وألحت في المطالبة بنشر قوة دولية لضمان أمنها قبل انسحاب الفدائيين وبعده. وانضمت إلى هذه المطالبة كل الحركات الإسلامية واليسار اللبناني.

وأخذت بعض وحدات الجيش الإسرائيلي في الشوف تجاهر بمزيد من الصراحة بتواطؤ متساهل مع الدروز. وكان العديد من الجنود الإسرائيليين من الدروز. وكان أحدهم العقيد إسماعيل قبلان قد أكد لدى وصوله إلى أمام بوابة قصر جنبلاط في المختارة قائلاً "نحن رفاق سلاح لا فاتحون"(1)!

وأدى تكاثر هذه البوادر إلى إثارة غيظ بشير الجميل فصعد في 3 يوليو - تموز 1982، عند المساء ليقابل الجنرال أمير دروري في مقره العام في الجمهور.

- أنا أعلم أن لكم علاقات مع الدروز لكنها الآن تفرط في الذهاب بعيداً. أنتم لا تريدون أن تأخذوا في الاعتبار أن وليد جنبلاط هو قبل كل شيء رئيس الحركة الوطنية. في

(1) صحيفة لو ماتان دو باري في 2 يوليو - تموز 1982.

27 يونيو - حزيران قمنا بعملية عسكرية ضد السوريين، فصورتها صحافتكم على أنها مشكلة مسيحية درزية. العائلات المسيحية الجبلية الأصل التي تعود إلى ديارها باقية بلا حماية. وهي تعاني ضغوطاً وأنتم تمنعونا من حمايتها، ولا تريدون أن تتولوا أنتم هذه الحماية "لأسباب داخلية في إسرائيل" كما تقولون. لن نتباكى طويلاً أمامكم وسننسحب من الشوف! لكن يجب أن تعلموا أنه إذا لم يكن المسيحيون بأمان في الشوف، إذا لم يكونوا محميين بعد انسحابنا، فلن نستطيع تنفيذ عملية "الشرارة" في بيروت. إن بيننا مقاتلين كثراً من أبناء الجبل ومن الصعب أن يطلب منهم أن يقاتلوا في بيروت بينما أهلهم في خطر في الجبل.

- يوجد بيننا سوء فهم عميق، أجابه أمير دروري. نحن لم نأت إلى هنا لنقاتل اللبنانيين، بل السوريين والفلسطينيين، ولم نعد قادرين على ذلك بسبب وقف إطلاق النار. لنأخذ المتن مثلاً. إن عدد القوات السورية في هذه المنطقة الآن أكبر من ذي قبل. ولكان هذا لا يسبب لنا أية مشكلة إذا كان يجب علينا أن نتولى أمرهم. إلا أنه يجب أن نتلقى الأمر بذلك. فإذا شئتم أن نتدخل هنا أو هناك فما عليكم إلا أن تطلبوا ذلك من حكومتنا.
- سقط لنا بالأمس ثلاثة قتلى في معاصر بيت الدين التي تسيطرون عليها...
- لنتكلم عن اليوم، قال دروري مقاطعاً.
- وبالأمس أيضاً، قال بشير متجاهلاً تدخل الجنرال، وقع سبعة جرحى بين عناصرنا وهم من شرطتنا العسكرية في الشويفات. ويوجد في عاليه 150 درزياً مسلحاً في مركز الحزب التقدمي الاشتراكي، وقد سقط لنا عدة جرحى في تلك الناحية، مع أن هذه البلدة تحت سيطرتكم! ويؤكد لنا بعض ضباطكم أنهم غير قادرين على فعل أي شيء.

وشرح أنطوان بريدي الذي كان يرافق بشير والخريطة في يده كيف انسحبت وحدات القوات اللبنانية بالأمس من بلدة القْرَيَّة قبل أن يصف بالتفصيل كيف دخل الشيوعيون والقوميون" بلدة قُبَّيع المجاورة.

- لماذا لم تخبرونا بكل هذا قبل انسحابكم؟ قال دروري لائماً. كان في وسعنا أن نتدخل بسهولة.

فأجاب بريدي قائلاً:

- لقد أخبرنا العقيد مناحيم مينين، آمركم في القطاع.

تجاهل دروري الجواب وعاد يقول:

- التدخل الآن سيستتبع نشوب معارك جديدة مع السوريين. فماذا تقترحون غير ذلك؟
- يوم كنا نهيئ عملية "سلامة الجليل" طلبنا ألاّ تستخدموا جنودكم الدروز في الشوف

لأن هذا قد تكون له عواقب سياسية. فلم تأخذوا طلبنا بعين الاعتبار وأرسلتم بعضاً منهم ومن بين هؤلاء العقيد إسماعيل قبلان. واعتبر المسيحيون هذا الأمر سيئاً جداً. واقترحنا عليكم وضع ضباط ارتباط من عندنا في كل من وحداتكم، ولم يحصل هذا. فلنكن صريحين. حتى الأولي، كان الهدف أمن إسرائيل. وبعد ذلك كان الهدف من تدخلكم إقامة نظام جديد في لبنان. كلكم لا تدعوننا نعمل في هذا الاتجاه. المسألة ليست مسألة مشكلة بين المسيحيين والدروز يجب تسويتها، بل مسألة محور سياسي يجب تحديده. نحن نريد أن يسمح لنا بالصعود إلى الشوف ومعنا أسلحتنا الثقيلة. أنتم لا تعرفون التمييز بين اللبنانيين الصالحين واللبنانيين غير الصالحين. أما نحن فنعرف. قبل أن نبحث التفاصيل على خريطة، يجب أن نحصل على موافقتكم المبدئية.

– لم تنتهي الحرب بعد، قال قائد عملية "سلامة الجليل" بشيء من الفتور. هدفنا الرئيسي هو التخلص من الفلسطينيين. الآن علينا أن نعالج مشكلة بيروت. وسنضطلع بمسؤولياتنا في المناطق التي تحت سيطرتنا.

– إن جيشنا ذو تربية ما وأخلاق ما، أضاف العقيد حلبي، أحد ضباط استخبارات أركان الجنرال دروري الذي كان حاضراً في الاجتماع فليس في وسعنا . . .

فقاطعه بشير قائلاً بلهجة جافة:

– ليس لتنظيم المنطقة أي علاقة بتربية جيشكم، قاطعه بشير الذي لم يشأ العودة إلى الكلام عن الأعمال التعسفية التي ارتكبها المسيحيون في الشوف.

– نحن نعتبر أنكم مستقبل البلاد، تابع دروري. ونستطيع أن نفعل بعض الأمور كي نساعدكم لكن ليس كل شيء. أود أن أعرف ما إذا كان لديكم طلبات معينة.

– يجب أن نكون قادرين، بعد رحيلكم، أن نسيطر على كل هذه المناطق وليس أن نؤمن سلامة الطرق فقط . . .

– سنضمن سلامة الطرق والمناطق التي نحن فيها، أكد الجنرال الإسرائيلي. وسنحمي أهاليها.

– هل يمكن لنا أن نقيم حضوراً عسكرياً للقوات اللبنانية في الشوف المسيحي؟

– مطلبكم معقول من حيث المبدأ. لكن كيف ستكون تفاصيله، سأل العقيد الحلبي.

– يوجد في سلوككم . . . "أشياء" لا تستطيع حكومتنا أن تقبل بها، أضاف دروري. ستتمكنون من أن تفعلوا كل ما يحلو لكم ولكن بعد رحيلنا. وإلا، فافعلوا هذه "الأشياء" سراً دون أن نراها ودون أن تثير مشاكل.

– لسنا على موجة واحدة هذه الليلة، لاحظ بشير بعصبية. لعله كان يجب أن نفاتح مناحيم

بيغن مباشرة بهذه الأمور. إذا كان لديكم حدود وتحفظات فيما يتعلق بالشوف فسيكون لديكم مثلها أيضاً فيما يتعلق بالمشاريع الكبيرة التي رسمناها معكم كمشروع "الشرارة" مثلاً، والمعاهدة الدفاعية، وغير ذلك. لماذا يتوجب أن نأخذ في الاعتبار حدودكم ولا يتوجب عليكم أن تأخذوا في الاعتبار حدودنا؟ لماذا تريدون لي أن أغطس في بيروت وليس في مكان آخر؟ هذا انتحار. وإذا كان الأمر هكذا فاعملوا لوحدكم، ونحن نعمل لوحدنا.

– نحن سنتولى أمر بيروت، ولن تتحملوا أية مسؤولية عن ذلك، رد دروري بلهجة غاضبة.

– هكذا إذاً! ولماذا تصرون إلى هذا الحد على أن نشارك في عملية بيروت؟ سأل قائد القوات اللبنانية.

– أكرر لك السؤال: أين يمكن أن نساعدكم على الأرض؟ سأل الجنرال الإسرائيلي بلهجة جافة دون أن يجيب عن سؤال بشير. يجب أن تكونوا جاهزين لاستلام السيطرة تدريجياً على هذه المناطق. يمكنكم أن تدخلوا المناطق التي ليس فيها مشاكل. وسنرافقكم في تلك التي هي أكثر حساسية.

– هل ستساعدوننا إذا تحرك دروز لبنانيون؟

– نعم.

أزال جواب الجنرال دروري توتر الجو. وحددوا الخطوط العريضة لصعود وحدات من القوات اللبنانية إلى الشوف معتبرين أن هذا لا يمكن أن يتحقق إلا بتنسيق وثيق جداً بين الميليشيا المسيحية والجيش الإسرائيلي. كان القادة المسيحيون قد فكروا في وقت من الأوقات، بأن يطلبوا من شارون أن يجمع الجيش الإسرائيلي كل أسلحة الدروز، إلا أنهم أقلعوا عن هذه الفكرة لعلمهم من جهة بأن الزوجة والبندقية تمثلان أسس شرف الرجل عندهم، ومن جهة أخرى، كان يمكن لذلك أن يستفز الطائفة الدرزية الإسرائيلية التي كانت ستتضامن لا محالة مع الدروز اللبنانيين.

وطلب بشير نزع سلاح بعض قرى الجبل وكذلك سحب الضباط الدروز الإسرائيليين من وحدات الجيش الإسرائيلي المتمركزة في الشوف. تحاشى دروري البحث في هذا الموضوع ولم يحدد أي تاريخ للباقي.

في 5 يوليو – تموز تلاقى شارون وكمحي وآزولاي (فيليب) وبشير والبستاني وحبيقة في منزل جوني عبدو الكائن في أعالي بعبدا. عاتب قائد القوات الوزير بلهجة لطيفة مصطنعة على الاتهامات التي ساقتها الإذاعة الإسرائيلية "كول إسرائيل" ضد القوات اللبنانية. كان الصحفيون الإسرائيليون قد شنوا منذ عدة أيام حملة حقيقية على الميليشيات المسيحية

متهمين إياها بارتكاب أعمال تنكيل ضد الدروز والمسلمين. فرد عليه الجنرال السابق بالقول إن الصحافة حرة في إسرائيل وأنه يتعذر عليه أن يتدخل. كان بشير الجميل يجهل أن هذا القول غير صحيح، إذ إن تل أبيب كانت تفرض رقابة عسكرية صارمة على وسائل الإعلام وعلى المراسلين الأجانب في إسرائيل خصوصاً في كل ما يتعلق بلبنان. فمنذ أولى أيام عملية "سلامة الجليل" كان محظوراً بشكل قاطع على الصحافيين أن يعبروا الحدود الإسرائيلية – اللبنانية إلا بإذن خاص. وفي حال نيل الصحافي مثل هذا الإذن كان "يحميه مرافقون" من جهاز آمان. وكانت هذه القيود قد بررت رسمياً بـ"الطابع الخطر" للحالة وبضرورة إبقاء "الضباب" يحجب تحركات الجيش الإسرائيلي.

"لو مات صحافي، أجنبي خصوصاً، في مثل هذه العملية كان لا بد للرأي العام الدولي إلا أن يوجه اللوم على ذلك إلى إسرائيل"، أكد هذا الناطق الرسمي العسكري، الذي سارع إلى إضافة "إسرائيل لا تعبأ بهذا الرأي العام الدولي الذي سيكون في كل حال معادياً لنا" ثم ظهر في الأحاديث الخاصة كلام آخر: "تريد الحكومة أن تتلافى قيام الصحافة بنشر ريبورتاجات عن الخسائر المدنية والعسكرية فتسهم بذلك في خلق مناخ معاد للحرب داخل إسرائيل. لا تنسوا أنه بسبب التلفزيون الأميركي خسرت الولايات المتحدة الحرب في فيتنام"، هذا ما كشف عنه ضابط إسرائيلي فيما بعد[1].

– الصحافيون ليسوا لطفاء معي أنا أيضاً، قال شارون بابتسامة عريضة متوجهاً إلى بشير الجميل. جئت إلى بيروت يوم الجمعة الفائت وحاولت أن أراك فقيل لي إنك في العربية السعودية. وعدت اليوم لكي نبحث كل شيء في مكان هادئ بعيداً عن العسكريين. أود أن أخبرك أولاً بأننا نحن الذين قررنا قطع الماء والكهرباء عن بيروت الغربية. فعلنا ذلك ليس لأننا لا نثق بكم بل لكي نتحاشى وضعكم في موقف حرج. تسلمت البارحة ثلاث رسائل من فيليب حبيب يطلب فيها رفع الحصار، لأن الناس يموتون جوعاً في بيروت الغربية كما يقول، ويؤكد أن الوزان لا يستطيع عبور الخط. أجبت برفض كل هذا. فيما يتعلق بالماء والكهرباء، لا نريد أن تلقى التبعة عليكم.

– قطع الماء والكهرباء سيثير ردود فعل كبيرة، ليس من جانب الفلسطينيين وحدهم، بل من جانب المسلمين اللبنانيين أيضاً. فإذا لم تتبع ذلك عملية عسكرية، فلن تستطيعوا الإبقاء على هذا الوضع مدة طويلة.

– أخذنا علماً بذلك، أشار شارون بعد تفكير دام بضع ثوان. على أي حال ستجد كل هذه المشاكل حلولاً لها خلال أسبوع. لم يتبدل شيء، من جهتنا.

(1) من حديث مع ألان مينارغ في ديسمبر – كانون الأول 1992.

بما أن شارون صرح بأنه يريد بحث كل المواضيع، اغتنم بشير الفرصة ليعرب عن أسفه المرير لوجود جنود إسرائيليين من الدروز في الشوف. وعزا إليهم المسؤولية عن بعض الحوادث بين المسيحيين والدروز.

– سألت هيئة الأركان بالأمس لماذا ما برح العقيد الدرزي في موقعه، أجابه وزير الدفاع. وبالأمس أيضاً كررت القول في مجلس الوزراء المصغر بأنه لا يجوز ترك الإسرائيليين الدروز يتدخلون في لبنان لأن هذا يسبب لنا مشاكل أكثر مما يسبب لكم. ولا يسعنا، مع ذلك، ألا نأخذ في الاعتبار بعض الحوادث التي جرت في الجبل. عليكم أن تفهموا أمراً: ردة فعل جنودنا. فذوو الشعر الطويل واللحى من بين هؤلاء في لبنان ليسوا عسكريين محترفين. إنهم احتياطيون غادروا قراهم وأماكن عملهم كي يأتوا إلى هنا، ولكل واحد منهم تصوره للأمور. كل ما يجري أمام عيونهم ينقل فوراً إلى أهلهم. وهم لا يرضون بأن يضحوا بكل ما عندهم كي يقفوا مكتوفي الأيدي إذ يرون الناس يأتون ويقتلون دون أن يفهموا هم أسباب ذلك. أنا أتعرض كل لحظة، وكل ساعة، كل يوم، لضغوط بسبب هذه القصص.

لم يتحدث شارون عن الكتاب الذي كان في جيبه ويحمل تواقيع 122 احتياطياً إسرائيلياً يطلبون عودة الجنود إلى ديارهم. وكان أربعة منهم قد عقدوا باسم الآخرين ندوة صحفية أعلنوا فيها تأليف مجموعة ضغط تدعى "كفى" وإطلاق حملة وطنية. وكان بعضهم قد رفض علناً أن يخدم في لبنان. وعشية ذاك اليوم سارت في شوارع تل أبيب تظاهرة ضخمة ضمت 100000 شخص تلبية لدعوة حركة "السلام الآن" لم يحدث قط مثل هذا في إسرائيل في زمن الحرب. على مدى ساعات، كان الألوف من المتظاهرين يهتفون بشعارات مناهضة لوجود الجيش الإسرائيلي في لبنان ومطالبة برأس شارون.

– نحن نصطدم بصعوبات مع الرأي العام ومع الكنيست، أضاف شارون متوجهاً إلى بشير. لذا علينا أن نكون متنبهين جداً لما يجري هنا. يجب علينا أن نرجئ بعض أعمال سفك الدماء. فأطلب منكم بإلحاح أن تضبطوا رجالكم، لأن ضغط الشارع وضغط السياسيين قد يجبرانا على الانسحاب من لبنان. أنتم لا تستطيعون إدراك التغير الذي جرى بعدما شاهد جنودنا كيف يتصرف رجالكم مع الأهالي. لماذا ارتكب رجالكم هذه الجرائم على مرأى منهم؟...

– أرجو المعذرة عن مقاطعتكم، قال بشير مرفقاً كلامه بحركة آمرة من يده. عن أية مجازر وأية جرائم تتحدثون؟ أعطوني أمثلة! أين وكيف حصل ذلك؟ هذا دعاية كاذبة: لست على علم بكل هذه الحوادث. صرنا الآن تحت رحمة الدعاية الفلسطينية والسورية. الحقيقة

مغايرة لهذا تماماً. أطلب إليكم أن تذهبوا وتتناقشوا مع كهنة مدرستي الجمهور ومون لاسال اللتين صادرتموهما لإقامة مراكز قيادتكم. إسألوهم عما فعل جنودكم في مدرستيهم.

كان الإسرائيليون يتصرفون كما في بلاد مفتوحة. والمباني التي كانوا يخيمون فيها كانت لا تنظف أبداً وكان بعضها غارقاً في القذارة بشكل يثير التقزز.

– ماذا فعلوا؟ سأل شارون بنبرة قاسية.

– لا أدري. اسألهم. لم يعد هناك من آلات حاسبة ولا من أجهزة تلفزيون.

– سندفع ثمن كل ما اختفى!

– المسألة ليست مسألة مال. هناك أمور صغيرة قد تحدث، قال بشير مستهزئاً وبلهجة مصالحة. نحن انسحبنا من قُبَيّع لأننا لا نعرف كيف يجب أن نتصرف ولأننا لا نريد إحراجكم.

– ماذا تعني؟

– إن كنا قتلنا أحداً، قولوا لنا من الذي فعل ذلك وأين جرى ذلك. أعطونا تفاصيل. سقط لنا عشرة قتلى حتى الآن. في سنة 1978، سقط قتيلٌ في كنيسة بريح. لم نستطع أن ندفن هؤلاء القتلى حتى الآن. وإذا أردنا أن نعود إلى هذه القرية يقول الدروز إننا ننوي قتلهم. إذاعتكم تكرر تعابير الإذاعة الفلسطينية، وتردد دوماً أننا برابرة وقتلة. . . حتى صوت لبنان العربي[1] لا يتحدث عنا بهذه الكلمات.

– لدي اقتراح أعرضه عليك يا شيخ بشير، قال شارون بلهجة ودية. دعنا لا نتبادل لوائح موتانا. الشيء الوحيد الذي أطلبه منك. . . لا أريد أن أغادر قبل. . .

قاطعه بشير الجميل بحركة من يده وقال:

– أتعلم أنه سقط لنا أربعة قتلى في الشويفات من يومين، على طريقنا إلى الدامور وصيدا؟ أتعلم أن الجثث لا تزال في سيارتهم لأننا لم نتمكن من سحبها؟ وسقط لنا أيضاً أربعة قتلى قرب بلدة بيت الدين المسيحية وجنودك يمنعوننا من الذهاب إلى هناك.

– سأحاول تلبية بعض الأمور، أكد شارون بلهجة ودية. نحن لا نشرف على إذاعة إسرائيل. فبوسعها أن تقول ما تريد، حتى ضدي شخصياً. ليتك شاهدت يوم الجمعة المنصرم، حيث بثوا حديثاً مع جندي فقد قدمه في لبنان وبعد ذلك مباشرة بثوا تصريحي الذي قلت فيه إن الحرب أمر جيد بالنسبة إلى إسرائيل. سأعطي منذ اليوم توجيهات لأجل تسوية المشاكل التي تتحدث عنها. إلا أنه يجب أن تدرس تفاصيل هذا الحل مع درووري وعلى خريطة. أريد أن أعرف شخصياً كل شيء عن الطوائف غير المارونية. وأريد أن أعرف من كان يتعاون مع الإرهابيين.

(1) إذاعة أشرف عليها تنظيم "المرابطون" وكانت تبث من البقاع.

لأول مرة منذ بدء العملية العسكرية في لبنان، بدا أن وزير الدفاع الإسرائيلي أخذ يعي الحالة الطائفية المعقدة في البلاد، كما لو أنه لم يكن يرى هذه العملية إلا من وجهها الإجمالي والاستراتيجي.

– أطلب منكم أن تتحلوا بمزيد من ضبط النفس. فليحاول كل منا من جهته أن يضبط تصرفات رجاله كي نزيل هذا التوتر. ألا تقدرون أن تتوصلوا إلى تفاهم مع الدروز، أو مع قسم مهم على الأقل، من أجل إرضاء الحساسية الإسرائيلية؟ الناس عندنا يكنون كثيراً من الاعتبار لسعد حداد. فهو يقدر أن ينفّذ بعض الأمور التي لا تقدرون أنتم على تنفيذها دون أن تجلبوا عليكم الويل والثبور. ألا يمكنكم أن تدعوه ينفذ المهمات القذرة؟

– سندرس هذا الأمر، قال بشير. لكن يجب أن تعلموا نهائياً أنه لا يوجد خلاف بين الطائفة المسيحية والطائفة الدرزية في الجبل. لا تتأثروا بالدعاية الشيوعية وغير الشيوعية. ومتى قمتم بتنظيف هذه المناطق أو تركتمونا نقوم نحن بذلك، سترون أنه لا توجد مشاكل بيننا وبين الدروز.

– أعطونا لائحة بالقرى التي يجب نزع سلاحها، طلب شارون. إذا كان هناك ستون قرية، فسنبدأ بخمس قرى – ثم نواصل العمل تدريجياً. سيجتمع فادي أفرام بالجنرال درووري عند الثامنة صباح يوم غد. وسيكون في حوزة درووري التوجيهات اللازمة. وسأرسل سراً بضعة دروز من عندنا كي يتباحثوا مع دروزكم.

ووافق شارون أيضاً على أن تتمركز القوات اللبنانية عسكرياً في ثكنة الجيش اللبناني في بيت الدين. كان الموساد قد أبدى تحفظات جدية جداً حول هذه النقطة. وكان أفنير آزولاي قد أرسل عدة تقديرات إلى تل أبيب تقول إنه من الضروري التوصل مسبقاً إلى اتفاق سياسي بين الدروز والمسيحيين. وكان على يقين من أن القوات الإسرائيلية ستكون مضطرة أن تلعب دور الدركي في نزاع مسلح لا يزال كامناً. ولم يكن الوحيد الذي يأخذ بهذا التحليل، بدءاً بالجنرال درووري الذي كان غير راغب في حصول مشاكل مسلحة خلف خطوطه. وكان درووري قد أحال قبل 48 ساعة إلى تل أبيب طلباً تقدم به بشير لإرسال وحدات إلى الجبل. وكان قد أرفق هذا الطلب برأي معاكس: "صعود الكتائبيين إلى الشوف سيكون غلطة".

وأخرج وزير الدفاع من حقيبته خريطة لرئاسة الأركان من مقياس 50 مليمتراً لمنطقة بسابا أي الموقع الذي كان قد تم فيه الاتصال بين الجيش الإسرائيلي والقوات اللبنانية يوم 12 يونيو – حزيران الفائت. كانت هذه الخريطة تتضمن خطوطاً زرقاء تشير إلى مواقع كل من الطرفين يوم ذاك. وقعها آرييل شارون وقدمها إلى بشير ومعها صور أخذها الموساد لفيللا مقصود في طبرجا أثناء الاجتماع الذي مهد لهذا الاتصال. كان قائد القوات اللبنانية مسروراً

جداً بذلك. فقد كان ذاك اليوم في نظره تجسيداً لحلم: إقامة رباط على الأرض بين القوات اللبنانية والجيش الإسرائيلي. وانضم جوني عبدو إلى المجموعة التي كانت على الشرفة المطلة على بيروت واستؤنف النقاش.

– هل الجيش اللبناني جاهز للتدخل في بيروت الغربية إذا خرج منها الفلسطينيون؟ سأل شارون. توجد هناك مستودعات هائلة للأسلحة. فيجب أن يتسلمها أحد وإلا واجهتنا مشكلة فيما بعد.

– سأقول لك شيئاً، أجابه بشير بلهجة رسمية وليس باسمي فقط بل باسم الجميع، باسم جوني والسعوديين والأمريكيين والمسلمين اللبنانيين: الجميع ينتظرون عمليتكم العسكرية! قال بشير بلهجة قاطعة. عرفات لن يرحل إلا إذا أرغم على الرحيل. وهو الآن يكذب ويحاول كسب الوقت بكل الوسائل. لدى الفلسطينيين انطباع بأنكم غير قادرين على الذهاب إلى أبعد. إنهم سيصمدون للحصار ويفعلون كما فعلت أنا في زحلة. تقصفونهم فيحتمون بالملاجئ في الطبقات السفلية وينتظرون أن يتدخل أحد لإيقاف القصف.

– علينا أن نقلل الخسائر والضغوط السياسية. فيليب حبيب يجزم بأن عرفات سيرحل. حسناً... فلننتظر!

– قد تنتظرون أشهراً، قال جوني عبدو مبتسماً.

– هل أنتم قادرون اليوم على مجابهة الولايات المتحدة؟ أنا لست قادراً على ذلك! قال شارون. لعل فيليب حبيب سيتوصل إلى الحصول على شيء ما خلال الثماني والأربعين ساعة القادمة.

– إذا شئتم أن نلعب، فيمكن لي أن أدخل في اللعبة وأنضم إلى لجنة صائب سلام، اقترح جوني عبدو.

كان السنة المجتمعون حول رئيس الوزراء الأسبق، قد ألفوا لجنة تتولى رسمياً إعداد وتنسيق خروج الفلسطينيين من بيروت. كان صائب سلام قد سعى خصوصاً إلى إيجاد وزن مقابل لسلطة هيئة قيادة الحركة الوطنية التي يرأسها وليد جنبلاط والتي كان لعرفات نفوذ كبير عليها. وكانت هذه اللجنة قد غرقت بمشاكل الحياة اليومية وطلبات الأدوية والغذاء والمساعدات المختلفة.

– حسناً، انضم إلى هذه اللجنة، قال الوزير. واعمل على نحو يجعلهم لا يربطون الانسحاب بحضور قوات أميركية أو متعددة الجنسيات وإلا سنكون مقيدين، ولن ينسحبوا. وإذا قرر الفلسطينيون أن ينسحبوا فكيف ستدخلون بيروت الغربية، يا شيخ بشير؟ هل رجالك متأهبون؟ يجب أن تتحركوا فوراً بعد انسحابهم.

– لقد استدعينا الاحتياطيين، وتعهد رفّول بتجهيزهم.

– نحن في الواقع ننتظر أن يرفع فيليب حبيب ذراعيه ويقول: "انتهى الأمر، لم أعد قادراً على فعل أي شيء"، قال دافيد كمحي متدخلاً في النقاش لأول مرة.

– فيليب حبيب ليس بالرجل الذي يقول: "انتهى الأمر"، اعتبر بشير.

– إذاً نحن سنقول هذا له، أكد مدير وزارة الخارجية.

– هل ستكونون قادرين على دخول بيروت الغربية بعد رحيلهم؟، كرر شارون. لا تخافوا، سنكون هنا. لن ننسحب إلا بعد انسحاب السوريين من البلد بكامله. سيكون لديكم كل الوقت اللازم. هل ستقدرون أن تدخلوا المنطقة وتبحثوا عن مستودعات الأسلحة وكل المخابئ.

كان على يقين من أن الفلسطينيين سيتركون وراءهم رجالاً متسترين، ومخابئ لكميات كبيرة من الأسلحة.

– عملنا في بيروت مرتبط بالوضع في الشوف وفي الشمال وفي البقاع، أجاب بشير الجميّل متفرساً في عيني شارون. فإذا كنا أقوياء في هذه المناطق استطعنا أن نفعل كل شيء في بيروت. وإذا واجهتنا صعوبات في المناطق المذكورة فلن نستطيع أن نفعل شيئاً في بيروت.

كانت المساومة واضحة. لم يكن الجميّل في حاجة إلى تكرار المطالب التي عرضها قبل 48 ساعة على أمير دروري فيما يتعلق بتجريد الميليشيات الدرزية من سلاحها وبالعمل ضد الكتيبة 62 السورية في المتن. فقد كان شارون يعرفها فأجاب عليها بصورة غير مباشرة قائلاً:

– ممن أنتم خائفون؟ نحن معكم، قال شارون مبتسماً.

– لسنا خائفين. لكن كفوا عن القول إننا نقتل المسلمين في الشوف، أجاب بشير.

– كل ما طلبته منكم هو أن تنتظروا، قال الوزير بلهجة حاسمة وبشيء من التوتر. انتظروا ألا نعود هنا كي تفعلوا هذه الأشياء. لكن دعونا من هذا الموضوع – فقد اتخذنا قرارات بشأنه. ما هو الوضع العسكري في بيروت الغربية الآن؟

– لو استطاع المدنيون كلهم أن ينزحوا لفعلوا. نعتقد أن مجموع عدد المقاتلين الفلسطينيين في المكان يبلغ 7000 رجل– شرح جوني عبدو.

كان عرفات قد قبل رسمياً وعلى رؤوس الأشهاد مبدأ رحيل منظمة التحرير الفلسطينية. لكن إلى أين؟ لم يعلن أي بلد استعداده لاستقباله. بل كان الأمر عكس ذلك. وكانت البلدان العربية تلوذ بصمت ذي مغزى، فيما رفض الأردن أن يستقبل الفلسطينيين رفضاً قاطعاً. صحيح

أنه بالنسبة إلى عمان كانت أحداث سبتمبر – أيلول 1970 لا تزال محفورة في كل الذاكرات. لكن رحيل منظمة التحرير عن بيروت لم يكن يعني نهاية الحرب في نظر شارون. فإن "عينه" كانت على الوجود السوري كما كان يذكر باهتمام. وغادر وزير الدفاع منزل جوني عبدو ومضى ليتناول طعام الغذاء في المقر العام الإسرائيلي. كان يغتنم كل الفرص ليجول على غرف الطعام- وهو يتقن فن الاتصال البشري، فيلتقي جنوداً وضباطاً ويشرح بلا كلل كما لو أنه كان يخوض حملة انتخابية، أسباب وجود الجيش الإسرائيلي في لبنان.

كانت هذه طريقته في إشعال نيران مضادة في محاولة لمنع انتشار الاستياء بين الاحتياطيين ومحو تأثير أطروحات المعارضة العمالية. ثم جمعه لقاء بفيليب حبيب في مقر السفير الأميركي روبرت ديلون.

ومضى شارون للقاء الجميّل في مكتبه في الكرنتينا بعد الظهر حيث أخبره بالحاح فيليب على وجوب فتح معبر غاليري سمعان بين بيروت الشرقية وبيروت الغربية لكي يستعمله شفيق الوزان والوزراء والدبلوماسيين وبضعة جنرالات يشاركون في المفاوضات، وكذلك أعضاء لجنة صائب سلام، دون أن يفتشهم الجنود الإسرائيليون.

– لا، ليس اللجنة، قال بشير رافضاً. فإنها حسب معلوماتي، مكلفة بإدخال أغذية إلى بيروت الغربية.

– حسنا، قال شارون. لن يسمح بالمرور إلا لرئيس الحكومة وبضعة وزراء وثلاثة جنرالات. وباح لي فيليب حبيب بالصعوبات التي يواجهها في إيجاد بلد يستقبل الفلسطينيين. فاقترحت عليه إرسالهم إلى سوريا.

– ومعهم أسلحتهم؟

– الأسلحة الخفيفة، أوضح شارون. واعترضت على وجود سياسي فلسطيني في لبنان، لكن فيليب حبيب أصر. وألمح إلى إمكان قدوم قوات أميركية، فقلت له إن المكان يتسع للجميع لكنني لا أرى أي سبب مقبول لتبرير انسحاب قواتنا. فقال لي إن نصف الفلسطينيين سيغادرون براً نحو دمشق والنصف الباقي سيغادر عن طريق البحر. أنا لا أصدق ذلك وأشك صراحة بأنه قد ينجح. لكن إذا ما حصل هذا، فعلى قواتكم أن تدخل بأسرع ما يمكن إلى بيروت الغربية لإخراج الإرهابيين من مخابئهم والعثور على مخابئ الذخيرة المدفونة تحت الأرض. يجب أن تقوموا بذلك! هذا مهم!

الطلب إياه دائماً. الإسرائيليون لا يستطيعون أن يدخلوا عاصمة عربية. كان شارون يريد أن تقوم القوات اللبنانية بـ"عمل" البحث وجمع المعلومات وليس الجيش اللبناني. إنها "مسألة فاعلية"، قال في أحد الأيام.

– وقال لي فيليب حبيب أيضاً إن الحكومة اللبنانية لا تريد جمع الأسلحة الثقيلة. يجب ألا تصدر عن حكومتكم أقوال كهذه، قال شارون لبشير.

– لا أظن أنها قالت هذا الكلام.

– يقول حبيب إن الحكومة اللبنانية أكدت أنها لا تملك الوسائل الضرورية للقيام بهذه المهمة. فقلت له إن هذه هي مسؤوليتها.

– سأطلب من الحكومة أن توافق على قيام الجيش بهذه المهمة. وأنا من جهة أخرى لا أحبذ انتشار قوة متعددة الجنسيات.

– كانت قد ظهرت مجموعة اقتراحات متطابقة في أوروبا وفي الولايات المتحدة تحبذ إرسال مثل هذه القوة. وكانت واشنطن وباريس في طليعة المؤيدين لها.

– ستأتي لأجل حماية انسحاب الفلسطينيين الذي يمكن ألاّ يحصل، قال شارون. نحن نريد تحاشي حصول دمار وسقوط ضحايا في هذه المدينة. فقد نزلت خسائر كثيرة حتى الآن. ليس في وسعنا أن نقوم بعملية واسعة النطاق لمجرد كونكم لا تريدون حضور قوة متعددة الجنسيات. إن سقوط كل ضحية إسرائيلية يثير ضجة كبيرة عندنا. فأعتقد أن علينا أن نخاطر ونتحمل عواقب وجود قوة متعددة الجنسيات. وسنرى منذ بدء الانسحاب ما إذا كان الإرهابيون يرحلون حقاً أم أن قسماً كبيراً منهم باق حيث هو. وحينذاك سنتحرك. أعتقد أنه ليس من الحكمة أن نقول لا للقوات الأميركية الآن.

هل يمكن أن نتلافى وجود الفرنسيين؟ إنهم متعاطفون جداً مع الفلسطينيين. ألا يمكن ألاّ يكون هناك سوى الأميركيين؟ سأل بشير.

– حاولوا، اقترح شارون دون أن يثق كثيراً بالنتيجة. ألا يمكن لنا القيام بمحاولة فعل شيء ما ضد القادة الفلسطينيين قبل أن يرحلوا؟

– هذا ما نحاول أن نفعل، ولكنهم يتخذون كثيراً من الاحتياطات، قال بشير.

– أعطونا أربع أو خمس إمكانيات، اقترح وزير الدفاع. نحن مستعدون. سنرسل طائرات.

– حتى إلى عند شفيق الوزان أو صائب سلام أو وزارة السياحة؟، سأل زاهي البستاني قلقاً.

– هل أنتم على علم بعقد الاجتماعات قبل حصولها؟ سأل شارون.

– نعم بعض الأحيان، أعترف البستاني متردداً. كان واضحاً أنه لا يريد الغوص في هذا الموضوع.

في 6 يوليو – تموز 1982 أعلن رونالد ريغن أن الولايات المتحدة مستعدة لإرسال قوات إلى لبنان. إذا طلبت هذا بيروت، لأجل إحلال السلام وإجلاء الفدائيين.

وفي الساعة التي أعقبت هذا الإعلان غادرت ثلاث سفن ناقلة للجنود تابعة للأسطول السادس وهي إرميتاج ومانيتوك وساغيناو ميناء نابولي الإيطالي وعلى متنها 1800 جندي من مشاة البحرية التابعين للوحدة رقم 32 لمشاة البحرية المتمركزة اعتيادياً في كمب - لوجون في ولاية كارولينا الشمالية، والذين كانوا قد نقلوا إلى المتوسط منذ شهر.

كانت هذه الوحدات الثلاث من الأسطول البحري الأميركي قد تلقت الأمر بالالتحاق بحاملة الطائرات فورستال وحاملة المروحيات غوام والفرقاطة ناشفيل، التي كانت تجول في البحر على مسافة 200 كيلومتر من لبنان. المهمة النوعية لهذا الأسطول كانت مساندة قوات الجيش اللبناني في الإشراف على الرحيل الأكيد والمنظم للطواقم الفلسطينية والمساعدة في بسط سلطة الحكومة اللبنانية على بيروت. وكانت ناشفيل وإرميتاج قد استخدمتا من قبل، يوم 24 يونيو - حزيران 1982، لإجلاء الرعايا الأميركيين من بيروت الغربية.

كشف الصحافي الإسرائيلي شيمون شيفر الذي يعمل في الإذاعة الإسرائيلية عن هذا الأمر بالتفصيل وأكد أن إجلاء الفلسطينيين سيجري تحت راية الصليب الأحمر الدولي. ونوه بإمكانية أن يتيه هؤلاء بين موانئ البحر المتوسط "في إخراج جديد لإيكزودوس".

وجاءت ردة فعل منظمة التحرير الفلسطينية سريعة؛ رفضت على الفور وبتعال أية حماية من جانب الأسطول السادس الأميركي، ورفضت أي كلام عن الرحيل على متن سفن البحرية الأميركية.

أثار كشف الإذاعة الإسرائيلية عن الأمر سخط بيغن، الذي افتتح اجتماع مجلس الوزراء يوم 7 يوليو - تموز صائحاً: ليس مقبولاً أن يصدر هذا النبأ عن صحافي يعمل في إذاعة للدولة. إن الصداقة التي تربط أحد الوزراء بشيمون شيفر تلحق الضرر بمصالح دولة إسرائيل.

توجهت كل الأنظار نحو آريل شارون الذي كانت علاقته مع الصحافي معروفة لدى الجميع. وظل وزير الدفاع جامداً كالصخر.

- من الواضح أن هذه المعلومة أعطيت إلى شيفر من أجل نسف المفاوضات، أضاف بيغن.

وظل شارون صامتاً غير متأثر. فيما أن رئيس الوزراء لم يذكره اسمياً، فقد اعتبر أن ليس عليه أن يتكلم. كان على خلاف مع بيغن منذ عدة أيام حول دور الولايات المتحدة في المنطقة، وكان شارون يعارض بحزم قيام الولايات المتحدة بتدخل مباشر في لبنان.

اتصل رونالد ريغن، الذي كان في إجازة بمزرعته في كاليفورنيا، شخصياً بواسطة

الهاتف بمناحيم بيغن وطلب منه، "وضع حد لحصار بيروت الغربية غير الإنساني". فأعطيت الأوامر للجيش الإسرائيلي كي يفتح خطوط توزيع الماء والكهرباء في "الجيب".

وجاء ناحوم عرموني (بيتر) ورفائيل إيتان ليشرحا هذا القرار لبشير الجميّل الذي كان متوتراً.

- سبق أن قلت للجنرال شارون إنكم لن تستطيعوا الإبقاء طويلاً على الحصار وأن عليكم أن تطبقوه قبل بدء الهجوم بثمان وأربعين ساعة فقط. وكلما أضعنا الوقت كان الثمن أغلى. فلنقم بذلك إذن!

وعدنا الأميركيين بالانتظار بضعة أيام لا غير، قال بشير.

- لقد رفض عرفات أن يكون الانسحاب تحت حماية البحرية الأميركية بناء على نصائح السفير السوفياتي ألكسندر سولداتوف. وبوسعه أن ينتظر حتى بدون ماء ولا كهرباء. إنه لن يسلمكم بيروت! لن يسلمكم بيروت! كرر بشير هذه العبارة وهو يلطم الطاولة بقبضته.

- وسيتقدم الفلسطينيون بمطالب جديدة حتى يقبلوا بالأميركيين، أضاف زاهي البستاني.

- برافو يا عرفات! صاح بشير. لقد تلاعب بالجميع. وهو محق فيما يفعل. لقد عادت إليه الآن الكهرباء والماء والغذاء. وبعد دخولنا بيروت الغربية، هل سنتمكن من تنظيف المخيمات بواسطة الجرافات؟

- هذا بلدكم، أكد رفائيل إيتان، وانتم أحرار في أن تفعلوا به ما تشاؤون. ستكون هذه مشكلتكم بعد الحرب.

- مقابل رفع الحصار، نسف الجيش الإسرائيلي وقف إطلاق النار الخامس. وجرى قصف عنيف بالمدفعية ألهب جنوب "الجيب" ومنطقة المطار فيما كانت دباباته تحتل مدارجه.

وأعلنت فرنسا بدورها في الأمم المتحدة، أنها جاهزة للاشتراك في قوة الفصل. "إذا طلب لبنان منها ذلك بموافقة الأطراف الحاضرة المتواجهة، أي إسرائيل، ومنظمة التحرير الفلسطينية، وسوريا، وبضمانة الأمم المتحدة من أجل الحصول على تفويض محدد".

وأعلن وزير خارجية فرنسا كلود شيسون من باريس أن "منظمة التحرير الفلسطينية قبلت بأن تنتقل من العمل العسكري إلى العمل السياسي". واغتنم الفرصة ليطلب من المنظمة الفلسطينية ومن إسرائيل "أن تقبلا بصورة متبادلة بالشروع في سلوك طريق تسوية القضية الفلسطينية على قاعدة حق جميع دول المنطقة بالوجود والأمن بما فيها الدولة الفلسطينية العتيدة".

وقامت على الأثر ضجة استنكار كبيرة في إسرائيل وتحدثت الصحافة الإسرائيلية نقلاً

عن أوساط سياسية "عن خيبة حقيقية" وحتى عن "قرف" حيال الحكومة الفرنسية. وفي اليوم التالي، بدد كلود شيسون هذه الانتقادات بحركة من يده وأعلن أن ياسر عرفات "سيستقبل رسمياً من جانب رئيس الوزراء إذا جاء إلى باريس".

وبدا أن حلاً للانسحاب الفلسطيني يلوح فجأة في الأفق يوم 7 يوليو – تموز على طريق اللاذقية كي يتوجهوا بعد ذلك نحو سهل البقاع أو شمال لبنان، وفي هذه الحال يمكن أن يجري الانتقال نحو اللاذقية تحت حماية البحرية الفرنسية فيما يتولى 800 عنصر من مشاة البحرية الأميركية و800 عنصر من الفرقة الأجنبية الفرنسية حماية المدنيين الفلسطينيين. وينتشر الجيش اللبناني في بيروت الغربية ويتراجع الجيش الإسرائيلي بضعة كيلومترات. وطرحت حينذاك مشكلة انتشار القوة المتعددة الجنسيات. فهل يجب أن يتم هذا الانتشار قبل الانسحاب كما يطلب ياسر عرفات، أم بعد، كما كان يطلب شارون؟ وفي اليوم التالي رفضت منظمة التحرير الانسحاب عن طريق البحر وطلبت الانتقال مباشرة إلى شمال لبنان والبقاع حيث طلبت أن تتمركز تحت حماية قوة متعددة الجنسيات تشارك فيها فرنسا. لم يكن التنافس بين ياسر عرفات وحافظ الأسد وإرادة سوريا الهيمنة على "الورقة الفلسطينية" غريبين عن رفض المنظمة، التي كانت لا تريد الانتقال إلى تحت السيطرة السورية المذلة.

بعد ظهر ذاك اليوم هرول آرييل شارون ودافيد كمحي إلى بيروت ليبلغا فيليب حبيب بلهجة جافة أن إسرائيل لن تقبل بأي وجود فلسطيني في لبنان. ومن غير الوارد أن يكون هناك مكتب لمنظمة التحرير الفلسطينية في أي مكان. ومن غير الوارد أيضاً أن تبقى هناك عناصر مسلحة ولو بصورة رمزية. ثم انتقل الإسرائيليان إلى مقر قيادة القوات اللبنانية.

– ستحمي القوة المتعددة الجنسيات الفلسطينيين، الذين سيتمكنون على هذا النحو من إعادة تنظيم أنفسهم، شرح شارون لبشير الجميّل. لنتحدث الآن عن تركيب هذه القوة المتعددة الجنسيات. الفرنسيون خطرون لأنهم يساندون منظمة التحرير الفلسطينية. والحكومة اللبنانية وحدها تستطيع أن تفعل شيئاً للحؤول دون مجيئهم.

– مجيء الفرنسيين أو أية قوات أخرى؟ سأل بشير.

– الفرنسيين!

– نحن ضد تدخل كل القوات الأجنبية، أياً تكن!

– ونحن ضد الفرنسيين، قال شارون. الأميركيون سيرحلون فيما بعد، أما الفرنسيون فسيبقون زمناً طويلاً. ويصبحون حاجزاً. نحن، في وضعنا الراهن، لا نستطيع العمل ضد الأميركيين. أما حكومتكم، فيمكن لها أن تفعل شيئاً لمقاومة الفرنسيين. حسب قول شفيق الوزان، يطالب الفلسطينيون بأن تنزل القوة المتعددة الجنسيات وتنتشر في المخيمات،

وبعدها فقط سيفاوضون على رحيلهم. فإذا كان الأمر سيكون هكذا فلن يعود في وسعنا أن نفعل شيئاً لأن القوة المتعددة الجنسيات ستتدخل للحؤول دون ذلك. لنفترض من جهة أخرى أن الأمور ستسير كما يجب وإن 6000 أو 7000 عنصر مسلح سينسحبون، فكيف يمكن لنا أن نتحقق من أن هؤلاء كلهم إرهابيون ومن أنهم لا يخرجون مدنيين بدلاً عنهم؟ على الجيش اللبناني أن يبادر بسرعة إلى دخول الأحياء السنية للتأكد من أن الإرهابيين قد رحلوا فعلاً. فبوسعهم أن يتركوا وراءهم بنية تحتية تحت حماية القوة المتعددة الجنسيات. إذا ظلوا في المخيمات فإننا نستطيع أن نتولى أمرهم، لكن هذا سيكون مختلفاً.

– حسبما فهمت في حال نجاح المفاوضات وانسحابهم، ستكون هناك مرحلة أولى هي توحيد المدينة. وعلينا أن نترك المخيمات للمرحلة الثانية؟ سأل بشير.

– إذا استطعتم أن تدخلوا المخيمات، فهذا أفضل. لكن كونوا على ثقة من أنهم سيطلبون ضمانات عندما يقترب الجيش من المخيمات.

– ولماذا لا تعطى لهم ضمانات في جورجيا؟ قال بشير مازحاً.

– هذا رأيي، قال الوزير مبتسماً، بإمكانك أن تعرض الأمر على منظمة الأمم المتحدة متى وصلت إلى رئاسة الدولة. ثم استعاد جديته وقال: إذا نجحت المفاوضات سيطروا على المدينة شيئاً فشيئاً. ستتضح ملامح الوضع بعد ثلاثة أو أربعة أيام. ومن المهم أن تكونوا مستعدين. أنا أعتقد فعلاً أنه يجب ترك الضاحية الجنوبية والمخيمات إلى مرحلة ثانية.

– أتريدوننا أن نحبط المفاوضات؟ سأل قائد القوات.

– لا، أجاب شارون وهو يهز رأسه. يجب النظر إلى الوضع بمجمله. نحن لا نريد أن نتيح الفرصة لأحد كي يحملنا المسؤولية مهما كانت خفيفة، عن فشل المفاوضات في حال فشلها. ومن المهم بالنسبة إلينا أن تنجح الجهود الأميركية. أما بشأن الفرنسيين، فاعملوا ما تستطيعون.

– نتحدث عن مسألة بيروت وننسى الوجود السوري والفلسطيني في البقاع، وفي طرابلس، وفي الشمال وغيرها، قال دافيد كمحي.

– الحكومة تعرف رأيي، أجابه شارون وأضاف: ينبغي أن يباشر وزيرك[1] الاهتمام بذلك، وإلا فإنني سأضطر إلى إيجاد دائرة هنا لأجل انتخابي.

أعلنت دمشق رسمياً في 9 يوليو – تموز 1982 أنه ليس وارداً عندها أن تستقبل الفلسطينيين على أرضها وبالتالي في اللاذقية.

وأعدّ الإسرائيليون مع القوات اللبنانية نزع سلاح بعض القرى الدرزية، وتمركز وحدة

(1) إسحق شامير، وزير خارجية إسرائيل.

من الميليشيا المسيحية في بيت الدين. وكلفت أجهزة إيلي حبيقة بجمع المعلومات عن كل قرية. وقام الجنرالان الإسرائيليان كالاهاني وداغان مع فادي أفرام وأنطوان بريدي بدرس تفاصيل العملية. وجرت المرحلة الأولى في فجر 9 يوليو - تموز. دخل الجيش الإسرائيلي ثكنة الجيش اللبناني في بيت الدين وأخرج الجنود اللبنانيين المائة والخمسين الذين كانوا فيها.

وبعد مضي ستة أيام جاء إيتان إلى بيروت للاطلاع على أهداف المناورة التي حددها داغان وأفرام.

- خططكم جيدة جداً، قال لهم بعد أن استمع إليهم. هذا بالضبط ما كنا نريده. اذهبوا وارفعوا علمكم. لا أريد إطلاق نار قرب جنودنا. لكن حذار! لا تطلقوا النار في هذه المنطقة. إنها طريق إستراتيجية بالنسبة إلينا. ستبقى إحدى وحداتنا معكم حتى يتم كل شيء. يجب أن تتقدموا، ولكن على مهل. دعوهم يأتون إليكم.

- صدقني، لن يحدث أي شيء متى صرنا هناك، أكد البستاني.

قلبت توجيهات وليد جنبلاط الأمور رأساً على عقب. وقد أصدر أوامر بتجنب المشاكل.

- لقد أنذرناهم يوم أمس، أضاف دروري. فإذا أطلق أحدهم الرصاص عليكم فسيكون كأنه أطلق الرصاص علينا، مع كل ما يترتب على هذا الأمر من عواقب. لدي أسماء الأشخاص الذين التقيتهم، وقد قالوا لنا إنهم خائفون وأنتم لم تكونوا في هذه المنطقة من قبل.

- أنتم تعرفون جوزيف أبو خليل، ودروري، وتعرفونني، قال زاهي البستاني. نحن جميعاً من أبناء هذه المنطقة. هل يمكن للمخاتير أو أي شخص آخر أن يمثل المنطقة خيراً منا؟

- متى يمكن لنا أن نتحرك؟ سأل بشير رئيس أركان الجيش الإسرائيلي.

- متى تريدون أن تنتقلوا إلى هناك؟

- في الحال. نحن جاهزون.

وضب الـ 150 رجلاً في ثكنة عين الرمانة بقيادة ناجي بطرس أمتعتهم في ليل 11 - 12 يوليو - تموز 1982. وعند الفجر طلب منهم بشير أن يتحلوا بمظهر مثالي وسلوك يليق بالمهمة التي كلفوا بها. وتوجهت قافلة الشاحنات، تحت إمرة فادي أفرام، نحو الدامور حيث كان قد ضُرب موعد مع العقيد الإسرائيلي آمر المنطقة بيجيا للالتقاء على الجسر الذي يمر تحته أوتوستراد الجنوب. بسط أفرام وبيجيا الخرائط فوق إحدى المركبات وحددا الأماكن "الخطرة" القائمة على طريقهم. كانت مصفحات صغيرة إسرائيلية للاستطلاع تسير

في مقدمة القافلة وفي مؤخرتها. وكان أفنير آزولاي وضابط ارتباط القوات اللبنانية لدى الإسرائيليين وليد فارس (وودي) في سيارة جيب العقيد بيجيا. اضطروا إلى التوقف في أول قرية وصلوها، قرية كفرحيم، ليفسحوا المجال لعبور قافلة إسرائيلية هامة. كان الأهالي على عتبات بيوتهم، متجهمي الوجوه، يرقبون الميليشيات المسيحية صامتين. طلب أحد عناصر القوات اللبنانية ماءً من أحدهم، فأجابه، الرجل ذو السروال الأسود بلهجة شبه حاقدة:

- لا يوجد ماء هنا.

كان جورج عدوان، عضو مجلس القيادة وهو من أبناء دير القمر، قد جمع بضع عشرات من مسيحيي بلدته تحت لافتات كتب عليها: "أهلاً وسهلاً" وقامت اللجنة "الشعبية" الصغيرة المؤلفة بصورة أساسية من نساء، بتوزيع مرطبات وبالتصفيق عند مرور الشاحنات، وذلك بلا حماسة. واجتازت القافلة على مهل معقل كميل شمعون ثم توقفت على مسافة بضعة كيلومترات من هناك في فناء ثكنة بيت الدين المؤلفة من بيوت جاهزة. لم تكد الوحدة التي صعدت إلى بيت الدين تستقر في الثكنة حتى أخذت تدرب شبان الجوار المسيحيين على الدفاع عن النفس. كانت الغاية من ذلك إنشاء ميليشيا قروية تتكفل بحماية القرى المسيحية. كان التوتر في الجبل يتصاعد باستمرار. كان إلياس الشرتوني، أحد قادة المجموعات التي يتألف منها جهاز الاستخبارات بقيادة إيلي حبيقة، "أزعر" مشهوراً وعضواً في حزب الكتائب وهو من أبناء قرية شرتون القريبة من بحمدون، وكان قد أنشأ إمارة صغيرة مع رجاله حيث كان يشيع الرعب بين السكان الدروز. وبحجة الدفاع عن النفس، راح رجال هذه الطائفة يستعملون الأساليب إياها. ولكن كانت الوحدات النظامية للقوات تريد التدخل، كان الآمرون الإسرائيليون المحليون يرفضون تحت ذرائع مختلفة.

كان التنافس بين الموساد وآمان أي الاستخبارات العسكرية التابعة للجيش الإسرائيلي، قد ترسخ مع بداية عملية "سلامة الجليل" وبأن آمان الآن أشد قوة على الأرض اللبنانية فعمد إلى تعزيز آرائه ومن بينها الحد من دور القوات اللبنانية لأجل دفع جيش لبنان الجنوبي إلى الواجهة إذا أمكن. وكان الموساد، الذي عليه أن يمر بآمان للحصول على تلبية الطلبات العسكرية البحتة للقوات اللبنانية، يصطدم على الدوام بـ "عرقلات إدارية" وكان أفراد الميليشيا المسيحية لا يستطيعون التوصل إلى حمل ضباط الاستخبارات الإسرائيلية المنتشرين على محاور الطرق على الإصغاء إليهم. كان من الواضح تماماً أن جهاز آمان كان يتصرف على نحو يؤمن توازن القوى بين الميليشيات المسيحية والدرزية. وراحت

المضايقات تتوالى من الجانبين على وتيرة متسارعة. وراح قلق المسؤولين الإسرائيليين يتزايد أيضاً.

في 26 يوليو - تموز 1982، تلقى بشير حول هذا الموضوع رسالة من أفنير آزولاي. كان ممثل الموساد الدائم في لبنان مريضاً واضطر أن يعود على عجل إلى إسرائيل. لكنه حرص، في رسالة بالانكليزية على أن يلفت نظر قائد القوات اللبنانية إلى ما يلي:

"كان للتوترات الأخيرة في مناطق عاليه والجنوب آثار سلبية وهي قد خلقت جواً غير مؤات لمواصلة العمل التدريجي الذي قررنا القيام به. أعتقد أن اجتماع يوم غد مع الجنرال دروري فرصة ممتازة لتذليل كل التباينات في الرأي. وكما تعلم من قبل، فإن مصلحة الجيش الإسرائيلي الرئيسية تقضي من وجهة نظرهم، بأن يسود الهدوء المناطق الواقعة خلف خطوط جبهتهم وهذا لا يتناقض مع سياسة مساندة القوات اللبنانية على الصعيدين السياسي والعسكري، كما تعلم. لا يزال ينتظرنا عدد لا بأس به من التقدم والتقهقر قبل أن نبلغ هدفنا النهائي، ومتى تجلى ذلك، يجب النظر إلى هذه الأمور وفقاً لحجمها الطبيعي. آمل أن تكون موافقاً".

وصل الجنرال دروري إلى مقر قيادة القوات اللبنانية في الكرنتينا بصحبة عدد كبير من هيئة أركان ومن أمان ومن الموساد. وبعد أن جلس الضيوف حول طاولة الاجتماع أدار بشير الجميّل جهاز فيديو مربوطاً بجهاز تلفزيون موضوع على طاولة نقالة. كان شريط الفيديو قد سجّله السنة الفائتة إبان مهرجان أقيم في عاليه فريق من التلفزيون البريطاني. وكان يظهر بوضوح في الصور فلسطينيون مسلحون يقومون بعرض عسكري، كما كانت تظهر مركبات مزودة برشاشات وتقطر مدافع. وكان على المنصة جنباً إلى جنب وليد جنبلاط وياسر عرفات محاطين بمساعديهما، باسمين، يرسلان تحيات أو يعلقان على العرض وظهرت علائم الدهشة على وجوه الإسرائيليين كما لو أنهم كانوا يجهلون مدى التقارب بين الدروز والفلسطينيين. وأعقب مشاهدة الشريط صمت قطعه دروري بعد بضع دقائق قائلاً:

- أعترف بوجود عدم فهم عميق. لا يسعنا أن نضعكم في مستوى هؤلاء الناس.

- أنا أواجه مشاكل من جراء المدنيين الدروز الذين يأتون ليشتكوا من تصرفاتكم. يجب أن يسود الهدوء، أكد عاموس يارون، قائد القوات الخاصة الإسرائيلية، الذي أطلقت عليه القوات اللبنانية لقب "قرد الأورانغ أوتانغ"، الذي لم يتأثر كثيراً بالمغزى السياسي الذي تحمله الصور التي شاهدها لتوه.

- سأقترح عليكم شيئاً، قال بشير متجاهلاً كلام يارون. ألا يمكن أن نكرر تجربة بيت الدين حيث لم تعد توجد مشاكل منذ تمركز وحداتنا النظامية فيها. يمكن لنا أن نفعل الشيء

ذاته، ضمن الشروط ذاتها، في سوق الغرب، لا سيما وأننا عقدنا اجتماعاً مع وجهاء دروز ومع الأمير مجيد أرسلان، ويمكن لنا أن نعمل معهم.

كان المجتمع الدرزي اللبناني، الشديد الإقطاعية، تحت هيمنة عائلتين كبيرتين متنافستين الجنبلاطية واليزبكية ويتحدر آل أرسلان من الثانية. وفي سنة 1960، وبمبادرة من كمال جنبلاط، والد وليد، عقدت العائلتان اتفاقية تقاسمتا بموجبها الأرض: الشوف لآل جنبلاط ومنطقة عاليه لآل أرسلان. لكن آل أرسلان، خلافاً لآل جنبلاط، لم يشكلوا ميليشيا ليفرضوا أنفسهم، فأخذت منطقة نفوذهم تتقلص شيئاً فشيئاً بحيث لم تعد تشكل سوى بضع مئات من الهكتارات. وفي الاجتماع الذي عقدته القوات مع الأمير مجيد، كانت عرضت بكثير من التفصيل "إرادة السيطرة على الطائفة" من جانب وليد بك، وعرضت عليه أن تدرب رجاله في ثكناتها. اهتم الأمير الدرزي كثيراً بالعرض. وعرض بشير على دروري اقتراحاً آخر:

- إذا جمعتم السلاح الثقيل والخفيف الموجود في أيدي المدنيين في الشوف فيمكنكم أيضاً أن تأخذوا سلاح المسيحيين. هكذا سيكون الجميع متساويين وتتجنبون المشاكل. وبعد ذلك يعيد إلينا رقول أسلحتنا بواسطة مراكب الـ "ناتاك". ويمكن لنا حتى أن نخترع سيناريو لتسليمكم أسلحتنا بصورة علنية.

- ليس علينا نحن أن نقوم بعملية كهذه، رفض الجنرال الإسرائيلي متعالياً. على أي حال، إن جنودنا لن يفهموا هذا النوع من المناورة. على الموساد أن يخترع مثل هذه الأمور. وبعد، فإن اقتراحكم بإقامة ثكنة للقوات اللبنانية في سوق الغرب جدير بكثير من الاهتمام. يجب درسه مع عاموس والإجابة على الأسئلة: أين؟ وما عدد الرجال؟ وكيف يجب إجراء العملية؟

- سوق الغرب مدينة مسيحية، فلن تكون هناك مشاكل، قال فادي أفرام. سنقيم الثكنة في المدرسة التي كان قد صادرها الفلسطينيون.

لقد تأثر الإسرائيليون بشريط الفيديو عن مهرجان عاليه. وجاء مدير الموساد إسحق حوفي شخصياً ليشاهده في 4 أغسطس - آب 1982، وكان ينظر إلى توالي الصور صامتاً.

- كل الذين شاهدتهم في الشريط ما زالوا في عاليه. وهم الذين نواجههم، أكد بشير وهو يطفئ الفيديو.

- من درّب هؤلاء الناس في الماضي؟ سأل مدير الموساد.

- السوريون والفلسطينيون.

- ماذا علينا أن نفعل كي نغير هذا؟ سأل حوفي متوجهاً إلى البستاني.

- إذا تصرفتم يمكن أن يتبدل كل شيء. على جنبلاط أن يلازم قصره وألاّ يكون على اتصال بالخارج. الحزب التقدمي الاشتراكي، والحزب السوري القومي، والصاعقة، ما زالوا موجودين في عاليه.

- كل الذين شاهدتهم في الشريط يختبئون في المنطقة ومعهم أسلحتهم. وكل أسبوع يسقط لنا 4 أو خمسة قتلى، قال بشير.

- لماذا إذاً يأخذ الأميركيون وليد جنبلاط بعين الاعتبار؟ سأل حوفي.

- إنهم يتعاملون مع من يجدون أمامهم على الأرض، وأرسلان مسن. من الممكن تقويض البنية التحتية لوليد جنبلاط وتقوية مجيد أرسلان، ويمكن لهذا أن يقلب الوضع رأساً على عقب فيسير كل الدروز وراء مجيد.

- هل هو رجل شجاع؟

- إنه أشجع من وليد، أجاب بشير.

وليد لم يفعل شيئاً، بل ورث زعامة أبيه، وهذه ليست حال مجيد.

- يجب أن ندفع بالأكثرية الصامتة من الدروز إلى التعاون مع أرسلان، أضاف زاهي البستاني.

- ماذا نستطيع أن نفعل بالدروز الموالين لجنبلاط غير قتلهم؟ سأل حوفي مبتسماً.

- يجب تجريدهم من السلاح، قدر الإمكان.

في 5 أغسطس - آب انتقلت الوحدة النظامية للقوات اللبنانية المتمركزة في عمشيت إلى سوق الغرب وكان على رأسها إيلي سعادة الملقب بالمشكل وبعد مرور أسبوع، انتقلت وحدة ثالثة من ثكنة البترون بإمرة منير الديك وتمركزت في بحمدون. واستمرت الحوادث والاشتباكات كما في الماضي. وأرسلت قيادة القوات لجنة تفتيش بعد لجنة تفتيش، لكنها لم تعر خلاصات تقاريرها أي اعتبار. ثم عين سمير جعجع مسؤولاً عن الشوف كي يعيد إليه الهدوء. فجعل مقر قيادته في دير عين تريز.

20

الحملة الانتخابية

بعد انقضاء عشرة أيام على بدء الغزو الإسرائيلي، عقد، في 16 يونيو - حزيران 1982، اجتماع سري في مقر السفير الأميركي في اليرزة ضم فيليب حبيب ومعاونه موريس درابر والسفير الأميركي روبرت ديلون وبشير الجميّل. وفي أثناء المناقشة، فاجأ مبعوث رونالد ريغن الجميع بطلبه من زميليه أن يخرجا ويتركاه لوحده مع قائد القوات اللبنانية. استعاد فيليب حبيب قريحته الشرقية المرتبطة بأصوله، وأمسك القائد المسيحي بيده، وحدق في عينيه قائلاً: "قررت الولايات المتحدة أن تدعم ترشيحك لانتخابات الرئاسة. سنتولى أمر العربية السعودية والمسلمين هنا. ونطلب منك أن تساعدنا بسلوكك. أنت الوحيد القادر على إنقاذ هذا البلد. دعني أقبلك، وليكن اللّه معك".

أحس بشير بأنه يحلق بجناحين. لقد بات الآن متأكداً من انتخابه. وكان عناق الرجلين تأكيداً نهائياً لقراره الوصول دستورياً إلى سدة الرئاسة، لا سيما وأن هذا الخيار لم يكن قد تأصل بشكل راسخ في فكره.

رئيس الجمهورية! كان يحلم بذلك من سنين. وقد فعل كل شيء للوصول إليه. كان قد أزاح أخاه الأكبر وفرض نفسه على أبيه وعلى حزب الكتائب. وقام بعملية "تنظيف" عند المسيحيين وفرض بالقوة وسفك الدم "توحيد البندقية المسيحية" الذي يعني إنشاء قيادة وحيدة، أي قيادته. وعدّل صورته الشخصية بمساعدة من الموساد، ماحياً صورة "الأزعر" وصورة رئيس العصابة التي كانت تخيف قدماء حزب الكتائب ليصبح زعيماً سياسياً، حريصاً على التفاصيل ومدركاً لعواقب أفعاله وأقواله. وكان في الوقت ذاته قد طور علاقات وثيقة مع الجارة القادرة وحدها على مساعدته للتخلص من الفلسطينيين ولبلوغ غايته ألا وهي إسرائيل. ثم سعى جاهداً إلى إيجاد حلفاء ذوي وزن كبير، ومن الصعب أن يحلم في هذا المجال بأفضل من الولايات المتحدة الأميركية. لقد صار هذا الآن أمراً واقعاً.

ابتدأ تبدل شخصية بشير الجميّل الحقيقية في الأسابيع الأولى من سنة 1982. "كانت فلسفة بشير الجميّل السياسية قد تطورت بشكل واضح عندما أدرك أن أمامه فرصاً جدية لكي

ينتخب رئيساً للجمهورية "[1]. واعتبر آنذاك أنه جامع شمل الأمة اللبنانية كما كان بالنسبة للمسيحيين. وكان محور تفكيره الأساسي يستند بقوة إلى ضرورة اعتماد سياسية تقارب مع العالم العربي. إلا أن الوصول إلى ذلك كان يفرض عليه أن يمحو نهائياً صورة الرجل "الجهنمي" التي كانت له عند المسلمين! كان لا بد من أن يفرض نفسه عليهم ويغدو محاوراً يستحيل الاستغناء عنه. وكان قبل رحلته إلى السعودية بقليل، في آخر يونيو - حزيران 1982، قد باح للإسرائيليين بقوله: "عليَّ أن أقوم بهذا النوع من الاتصالات إذا أردت أن أوقع على السلام مع إسرائيل. وإذا انتخبت فيمكنكم الاحتفاظ بسفارتكم في بيروت سيتوجب أن أتمتع بمهلة سنة على الأقل كي أثبت للعالم العربي أنني لبنانياً ولست مسيحياً فقط".

إلا أن المحيطين به لم يكونوا كلهم يشاطرونه هذه الفكرة. كان بعضهم يظن أن السبيل الدستوري الذي يريد سلوكه بشير ليس متناسباً مع الوضع. وكان مرشد هذه النزعة سليم الجاهل، رئيس محكمة الاستئناف والأستاذ في كلية الحقوق، والذي كان وزيراً للإسكان منذ سنة، وكان يدعو للقيام بانقلاب. "وصول بشير إلى منصب الرئاسة يعني تحرير الأرض والإنسان"، كان يقول، "وهو يعني أيضاً التخلي نهائياً عن الفكر العثماني الذي يرهقنا. يستحيل توحيد بلد في عالم متخلف دون استعمال القوة. وفي البلدان المتخلفة، ونحن واحد منها، الديمقراطية تولد الإقطاعية والفوضى والاستبداد".

كان سليم الجاهل يعارض بشكل أساسي انتخاب بشير من قبل البرلمان الذي كان ينكر عليه صفته التمثيلية. وكان يناضل بنشاط داخل القوات اللبنانية لأجل الاستيلاء على الحكم حسب طريقة الجنرال ديغول سنة 1958. وكان يدعو إلى خلق فراغ حول الرئاسة بالتواطؤ مع إلياس سركيس والى عزل أدواته في جهاز الدولة، ويتمنى تعيين بشير رئيساً للوزراء أو رئيساً للجنة السلامة العامة، الأمر الذي يتيح له استلام الحكم عند استقالة إلياس سركيس"[2]. لا يوجد في هذا المخطط أي شيء غير شرعي لأن رباط السيادة ينتقل من رئيس الجمهورية إلى رئيس الوزراء" هذا ما كان يقوله سليم الجاهل.

وسرعان ما وجد هذا التحليل مؤيدين له[3]. كان هؤلاء يشكلون النزعة "السياسية المتصلبة" وكانوا يبغون استغلال العملية الإسرائيلية لإحداث انقلاب سياسي كامل وفرض

(1) هذا ما قاله دافيد كمحي لألان مينارغ في ديسمبر - كانون الأول 1992.

(2) هذه هي الشروط التي حاول فرضها الجنرال ميشال عون بعد تعيينه رئيساً للوزراء يوم 22 سبتمبر - أيلول 1988. وقد استعان ميشال عون آنذاك بسليم الجاهل للحصول على الخطط والدراسات التي وضعت سنة 1982.

(3) جان ناضر، وأنطوان نجم، وجورج فريحة، وفادي أفرام.

حكومة جديدة. وانساق بشير مع ميله الطبيعي فرحب كثيراً في بادئ الأمر بهذا التوجه. ثم تحدث عنه مع فيليب حبيب، فوقف الأميركي ضد هذا المشروع. واقتفى أثره كل من زاهي البستاني وكريم بقردوني. "من الأفضل أن ينتخبك مجلس النواب فتبق شكلياً ضمن الإطار الدستوري القائم"، نصحه فيليب حبيب.

كان مبعوث الرئيس ريغن حريصاً على أن تدعم الولايات المتحدة ترشيح بشير الجميّل. لكن واشنطن ليس بإمكانها أن تساند، ثورياً". فكان لا بد من أن يندرج عمل بشير في، إطار ديمقراطي". وكان الأميركي قد تباحث في الموضوع مع مناحيم بيغن الذي شاطره الرأي ولأجل إقناع بشير بذلك تعهد له فيليب حبيب بأن ينال تأييداً كاملاً من مجلس النواب حتى حان الوقت. فرفض بشير اقتراح سليم الجاهل وأكد له في الوقت ذاته أن "فكرته سيؤخذ بها إذا لم ينجح الأمر في البرلمان".

وشرح لأنصاره متباهياً:

- إذا انتخبت سأستخدم الحكم لأجل ترسيخ قواعدي ومواقعي داخل الدولة. فتدخل القوات اللبنانية في الجيش ويعين ضباطها في مناصب هامة. وستنشأ وحدة مستقلة توضع تحت إمرتي مباشرة. سيقام حكمي على أسس وطيدة كي يجعل لبنان تحت سيطرة المسيحيين.

- لن نستطيع القيام بثورة اعتماداً على وسائل دستورية - أصر سليم الجاهل. بشير الجميّل ظاهرة سياسية يجب أن تقلب النظام السياسي اللبناني رأساً على عقب دون أن تحسب حساباً للدستور.

- ألا تثقون بي؟ سأل المرشح مبتسماً. وكانت هذه العبارة وهذه الابتسامة حاضرتين في كل المناقشات التالية حول هذا الموضوع.

تسبب اختيار هذه الطريق "الديمقراطية" نهائياً بقيام تباين عميق بين بشير الجميّل وآرييل شارون حول ما إذا كان مناسباً زج الميليشيا المسيحية في عملية "الشرارة" ضد بيروت الغربية. كان بشير يحسب حساباً لتصويت المسلمين، فإذا قامت الميليشيا التي يقودها بعملية عسكرية ضد "الجيب" فلا يمكن إلا أن يكون لهذا العمل تأثيره الكارثي على انتخابه. وسرعان ما كدر هذا الرفض صورة الميليشيات المسيحية - التي كانت قد فقدت كثيراً من لمعانها - في نظر جنود الجيش الإسرائيلي. وتبين للموساد، بعد نقاش مع ضباط إسرائيليين، أن صورة المقاتلين المسيحيين قد ساءت كثيراً من خلال ما يروي الجنود العائدون من لبنان. وقال أحد أولئك الضباط لأفنير آزولاي: "أصدقاؤك يتنزهون حليقي الذقون وثيابهم مكوية جداً، وانظر كيف هي حالة جنودنا. كنت أظن أننا جئنا لكي ننقذهم لكنهم لا يفعلون شيئاً لاستعادة حريتهم".

وكان ممثل الموساد المقيم في لبنان قد بعث على الفور بمذكرة إلى تل أبيب حول هذا الموضوع وفاتح بشير به. واقترح أن تقوم الميليشيا ببضع عمليات عسكرية ثانوية حتى، من شأنها إذا أحسنت تغطيتها وسائل الإعلام، أن تصحح صورة القوات اللبنانية. وكان قائد القوات قد أجابه قائلاً: "هذا سيكلفنا خسائر بشرية مقابل لا شيء".

لكن بشير كان مدركاً للأثر المدمر في إسرائيل، الذي كان يمكن أن ينجم عن انتشار، ما سماه "شائعات". وفي محاولة للتعويض عن ذلك، طلب من إيلي حبيقة أن يشدد تعاونه مع الإسرائيليين. غير أن جهاز آمان أدرك سريعاً مدى حدود المعلومات التي كانت تزوده بها أجهزة HK. "كنا نحتاج إلى معلومات عن أسرانا، وكانوا عاجزين عن تزويدنا بأصغر عنصر حول هذا الموضوع. كنا نحصل بأنفسنا على معلومات أكثر"(1). هذا ما قاله أحد مسؤولي الموساد فيما بعد.

في الواقع، كانت العلاقة سيئة جداً بين جهاز الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية وبين إيلي حبيقة. وكان الإسرائيليون يعتبرون أن رجاله ينشرون جواً من الإرهاب حتى داخل معسكراتهم لكي يحجبوا التنافس فيما بينهم على الفساد. وكان جهاز الاستخبارات الوحيد الذي يرضى عنه الإسرائيليون داخل القوات اللبنانية هو جهاز الاستخبارات العسكرية للميليشيا(2) الذي كان على رأسه إيلي وزّان (عباس).

اتصل أفنير آزولاي سراً بفادي أفرام، رئيس أركان القوات اللبنانية، واقترح عليه القيام بعمل عسكري ضد كلية العلوم التابعة للجامعة اللبنانية التي كان يحتلها مقاتلون فلسطينيون والواقعة على خط الجبهة جنوبي بيروت. قام فؤاد أبو ناضر، رئيس الشعبة الثالثة (العمليات) في القوات اللبنانية، بإعداد العملية بكل دقة. وفي ليل 15 – 16 يونيو – حزيران، نقل إلى مكان العملية سراً إسناد مدرع وبضعة مدافع. وهاجمت وحدة من القوات اللبنانية في فجر 16 يونيو – حزيران، وكأنها تجري تدريباً. كان فريق من الضباط والصحافيين الإسرائيليين حول فادي أفرام يشاهدون سير العملية من فوق تلة مدرسة الآباء الأنطونيين. بعد تمهيد مدفعي قصير، شن المقاتلون المسيحيون الهجوم. وبعد بضع دقائق من القتال العنيف، خرجت مجموعة من الأسرى الفلسطينيين من المبنى، رافعين أيديهم فوق رؤوسهم. وجرى تصوير العملية وتسجيلها على شريط من جميع وجوهها. وفي اليوم التالي تحدثت الصحف الإسرائيلية مطولاً عن "معركة كلية العلوم". وأكد الناطق العسكري في تل أبيب أن إسرائيل تحترم وقف إطلاق النار وأن أية وحدة من الجيش الإسرائيلي لم

---

(1) قال أفنير آزولاي هذا لآلان مينارغ في ديسمبر – كانون الأول 1992.

(2) المصدر نفسه.

تشارك في العملية، وألمح حتى إلى أن المجابهة كانت بين القوات اللبنانية والفلسطينية، ورددت هذا بعده بالطبع كل وكالات الأنباء.

علم بشير بالاستيلاء على كلية العلوم من قراءة الصحف، فانتابته ثورة من الغضب، واستدعى فادي أفرام مكفهر الوجه متشنج الفكين، وسأله:

– لماذا فعلتم هذا دون علمي؟

– كانت عملية صغيرة أردنا من خلالها تصحيح خط الجبهة الذي لم يكن في صالحنا، حاول أن يشرح له رئيس أركانه وهو منزعج.

– لا أستطيع القبول بهذا، صاح بشير. إنك تعرض الخطة السياسية كلها للخطر. ليس علينا أن نقبل بأن يدفعنا الإسرائيليون إلى القيام بأعمال لا يجب علينا القيام بها. ونشر الناطق باسم القوات اللبنانية في الحال تكذيباً قاطعاً: "عند الساعة الثالثة والدقيقة 45 من يوم الأربعاء 16 يونيو – حزيران، حاولت مجموعة فلسطينية أن تتقدم نحو الحدث. وأسفرت هذه المحاولة عن سقوط قتيلين وأربعة جرحى في صفوف القوات اللبنانية. فردت القوات فوراً على العناصر المسلحة الفلسطينية كي تضع حداً لاستفزازها. ليس لهذا الاشتباك، المحلي والمحدود، أي مغزى سياسي أو عسكري. ويهم القوات اللبنانية أن تشدد في هذه المناسبة على أنها لن تلجأ إلى المبادرة العسكرية بل ستضطر أن تدافع عن نفسها إذا هوجمت.

"إن الهدف من وراء هذا الاستفزاز هو جرها إلى خوض معارك ترفضها".

وهكذا لم يكن لشارون أي خط للاستجابة لطلبه يوم طلب من فادي أفرام في 29 يونيو – حزيران" أن يطلق النار على طول خط التماس ويختار نقطة أو اثنتين لاختراق هذا الخط".

– شعبنا يسألني: أين اللبنانيون؟ لماذا لا يشتركون في المعارك؟ ولا أستطيع أن أشرح له شيئاً. يجب أن يتقدموا وأن يعلم الناس بذلك. لا تخافوا سنساعدكم عسكرياً، قال شارون.

عندما عرف بشير بطلب وزير الدفاع لم يستطع أن يكتم حيرته:

– لماذا لا يفهمونني؟ إنهم يعرفون جيداً أن هذا مستحيل إذا كنت أريد أن أنتخب. لقد بحثنا الأمر مع بيغن ومعه. لماذا يدفعونني إلى إحراق هذه الورقة؟

حدد رئيس البرلمان كامل الأسعد عقد دورة لمجلس النواب تبتدئ يوم 23 يوليو – تموز 1982 لأجل انتخاب رئيس. فبات يمكن أن يدعو مجلس النواب إلى الاجتماع في أية لحظة خلال مهلة شهر. وإذا لم يتوصل إلى تأمين النصاب القانوني خلال هذه الفترة، فيكون

للنواب أن يجتمعوا خلال ثلاثين يوماً ودونما دعوة وأن يقوموا بعملية التصويت شرط أن يكون عددهم 62 نائباً على الأقل، وهو الرقم اللازم لتأمين النصاب. وإذا لم يتم الانتخاب خلال هذه الفترة، يصبح على رئيس الجمهورية، اعتباراً من 23 سبتمبر – أيلول أن يعين رئيساً جديداً للحكومة (مارونياً حسب التقليد) يقوم بمهام رئيس الجمهورية[1].

لم يكن أحد يتوقع أية إمكانية لتنظيم وتحقيق تلك الدورة الانتخابية. ففي سنة 1976 اضطر النواب إلى مغادرة قاعة المجلس بسبب الاشتباكات التي كانت تدور في وسط المدينة حول البرلمان. وانتقل النواب "مؤقتاً" إلى فيلّا مصادرة تدعى فيلّا منصور نسبة إلى اسم صاحبها. كانت هذه منزلاً كبيراً مبنياً بالحجر الأمغر اللون قائمة على الطرف الشرقي لمعبر المتحف. وقد اختير هذا الموقع على خط التماس كي يسمح لنواب المنطقتين ببلوغ مكان الجلسة "دون المرور في المنطقة الأخرى". وكان القصف اليومي حتى حينه يمنع أي تجوال في هذا القطاع.

أنزل رفض دمشق لانتقال الفلسطينيين عبر اللاذقية ضربة بسياسة "الخطوات الصغيرة" التي كانت ينتهجها فيليب حبيب. فقد كان هذا يحاول بنجاح أكيد أن يرسم خطة انسحاب منظمة التحرير بلمسات متعاقبة، متنقلاً من صعوبة إلى أخرى كلما ظهر تصلب ما. وقد تبخرت إمكانية استخدام المرفأ السوري دون أن يكون هناك حل بديل. وبالرغم من رفض الفلسطينيين لحضور قوة فصل أميركية، كان فيليب قد طلب من إلياس سركيس أن يتوجه بطلب رسمي إلى كل من باريس وواشنطن بهذا الخصوص. وكانت العاصمتان قد وافقتا مبدئياً على الطلب مع تحفظات. فكانت واشنطن غير راغبة بأي حال في مجيء المارينز قبل رحيل الفلسطينيين، فيما كانت منظمة التحرير وحلفاؤها يطالبون بمجيء قوة أجنبية قبل مباشرة الانسحاب. وكانت باريس من جهتها تتمنى أن تكون هناك ضمانة من جانب الأمم المتحدة. وعرضت اليونان مساعدتها للمبعوث الأميركي بوضع سفن تحت تصرفه. كان يبدو أن كل شيء يترتب، ولا يبقى إلا عقدة معرفة البلد الذي سينسحب الفلسطينيون إليه. كان واضحاً جداً أن أي نظام عربي لا يريد أن يكون هذا البلد. وأخذت المفاوضات تراوح مكانها.

في 10 يوليو – تموز 1982 خرج مناحيم بيغن من اجتماع مجلس الوزراء وأطلق تهديداً: "قد تواجه إسرائيل اللجوء إلى حلول أخرى غير الطريقة الدبلوماسية".

وفي فجر اليوم التالي هبط طوفان حقيقي من النيران على "وكر الجرذان" طيلة إحدى

(1) هذا ما جرى يوم 23 أيلول 1988، يوم عين أمين الجميّل ميشال عون رئيساً للوزراء.

عشرة ساعة متواصلة. فرد الفلسطينيون بالكاتيوشا والمدافع وسقطت 55 قذيفة على القصر الجمهوري في بعبدا. ونجا رفائيل إيتان بمعجزة من الموت إذ كان يتفقد الخطوط بصحبة عدة ضباط كبار. فهو لم يكد يترك ملازماً آمر بطارية مدفعية (قال له إنه "يشعر بالسأم") حتى سقطت قذيفة فلسطينية على الموقع فقتل الضابط الشاب وجرح عدة جنود يعملون في الموقع. وأسفر هذا القصف عن مقتل 75 وجرح 180 آخرين.

واحتج أعضاء الحكومة اللبنانية بلهجة قاسية لدى فيليب حبيب مطالبين بوقف القصف، فأسر لهم قائلاً عن الإسرائيليين:

– أنا أشبه بمروِّض أعزل ترك داخل قفص نمور. لم أعد أدري كيف ألجمهم. لكن مهمتي هي إيجاد حل سياسي، لا عسكري، وسأتوصل إلى ذلك.

وكان وقف إطلاق النار السادس هو الصحيح، وقد حصل عند الساعة التاسعة مساءً.

والتقى أهارون ياريف ودافيد كمحي بعد قليل بمجموعة من الصحافيين، وقال لأحدهم: "يجب توقع حصول خروق لوقف إطلاق النار إذا أردنا الوصول إلى اتفاق سياسي؛ هذه هي قاعدة اللعبة".

كانت هذه أول مرة يواجه فيها الجيش حرب استنزاف في تاريخه. ومن المفارقات أن المبادرة كانت في الواقع، منذ محاصرة بيروت الغربية، في يد تحالف الميليشيات والجماعة المسلحة المحاصرة في "الجيب". كان المقاتلون الفلسطينيون وحلفائهم يحوزون بطاريات لإطلاق صورايخ متعددة، سوفياتية الصنع، من نوع ب م 13 وب م 21 [1] سريعة الحركة جداً. وكان الإسرائيليون يواجهونها ببطاريات مدفعية أقوى بكثير طبعاً ولكنها ثابتة وبالتالي أكثر تعرضاً للإصابة. ذلك أن قيادة الجيش رغم كون هذا الجيش مزوداً بمدفعية متطورة، اختارت أن تبقي مدافعها في مكان واحد لكي تكون أسرع وأشد فاعلية.

كان الإسرائيليون قد حشدوا حوالي 3500 رجل، وأكثر من 300 دبابة، ومائة مدفع طويل المدى، حول العاصمة اللبنانية. لكن الجيش الإسرائيلي، المتخصص في الحرب الخاطفة وفي العمليات الجسورة، كان غير مرتاح في حرب المواقع التي فرضها عليه حصار العاصمة اللبنانية. فراح الإسرائيليون يعوضون عن هذه الصعوبة باستعمال قوة النار الكثيفة التي لديهم. إلا أنهم سرعان ما أدركوا ضعف تأثير قصفهم على العشرة آلاف مقاتل فلسطيني المتحصنين جيداً في القطاع المديني.

(1) ب م 13: مجموعة مقطورة مؤلفة من أربعة أقسام ثلاثية المواسير تستطيع إطلاق 12 صاروخاً على التوالي.
ب م 21: مجموعة متحركة مؤلفة من أربعة أقسام يحتوي كل منها على عشر مواسير، تركب على شاحنة وتطلق 40 صاروخاً على التوالي.

كان الحل الدبلوماسي "يثير أعلى درجات النقمة عند تل أبيب". نحن ندور على أنفسنا كطائرة على مدرج مطار ولا تتوصل الى الإقلاع. الفلسطينيون يتعمدون إطالة المفاوضات كسباً للوقت. نحن لسنا مغفلين. الوقت الذي نعطيه للدبلوماسية يكاد ينفذ" - هذا ما قاله دافيد كمحي لبشير الجميّل غداة القصف. كان هناك خطة من إحدى عشرة نقطة اقترحتها منظمة التحرير الفلسطينية، وخطتان أميركيتان إحداهما من ست نقاط والأخرى من تسع نقاط، عرضها فيليب حبيب على إسرائيل، وكانت آخر خطة مطروحة من جانب رومانيا. تضاف الى ذلك خطة فرنسية وأخرى مصرية. لكن لم يكتب لأي من هذه الخطط أن تحظى بالنجاح، فكانت على العكس تتراكم وتتداخل تبعاً لأمزجة وتصريحات ومصالح هؤلاء وأولئك.

اغتنم السوريون الفرصة ليصيبوا ثلاثة أهداف بحجر واحد: الهيمنة على منظمة التحرير الفلسطينية وفتح حوار مباشر مع واشنطن، وترسيخ سيطرة دمشق على بعض الأحزاب السياسية اللبنانية.

وحضر دافيد كمحي ويهوشع ساغي، غداة القصف، الى بيروت ليطلبا من بشير الجميّل أن يساعد إسرائيل على "استئصال الإرهاب".

- نتمنى بحرارة أن تعطونا تفاصيل الحسابات المصرفية التي يملكها الفلسطينيون في المصارف اللبنانية. هذا أمر جوهري بالنسبة لنا، قال ساغي.

- أكان هذا جوهرياً أو لا، فإنه غير وارد على الإطلاق، رد بشير بلهجة جافة تنم عن توتر أعصابه. عندنا سر مصرفي أشد صرامة منه في سويسرا وليس في وسع أحد أن يمس بهذه القاعدة الذهبية اللبنانية.

- وجودهم في لبنان يعني وجود دولة ضمن دولة، أكد دافيد كمحي بلهجة لطيفة. يجب القضاء على هذا قضاء تاماً. وإذا التحق الأردن ولبنان بكمب دافيد سيتوجب تنظيف كل هذا. نحن نرى أن على القوات اللبنانية والجيش اللبناني أن يدخلوا بيروت الغربية وينظفوها.

- هذا ممكن إذا حصلت معركة بيروت، قال بشير. وإلا سيكون هذا صعباً جداً.

- ما عساها تكون ردود فعل بيروت إذا استولينا على منطقة المخيمات الفلسطينية؟

- لن يكون هناك أي ردة فعل. سينتهي كل شيء. لن تحصل اشتباكات إلا في المخيمات. نحن سنتولى أمر المنطقة الإسلامية من المدينة. عندنا هناك كثير من المتعاونين الذين يعملون وقد بدؤوا يعدون أعمال تخريب.

وكما لو كان هذا توكيداً لهذا الكلام، انفجرت يوم 13 يوليو - تموز سيارة ملغومة من

طراز مرسيدس حوالي الظهر، أمام مركز الدراسات الفلسطينية غير البعيد عن سينما فرساي في شارع الحمراء. كان قد وضع في السيارة 50 كلغ من مادة تي إن تي والهيكسوجين وربطت بعشرين ليتر من البنزين وبثلاثين قذيفة مدفعية من عيار 122 مليمتراً، ووصلت بجهاز توقيت، وقد خبئت هذه المواد تحت مقعد السيارة الخلفي وفي الصندوق. أدى الانفجار إلى سقوط 43 جريحاً، وكان الثاني عشر من هذا النوع في بيروت الغربية منذ 6 يونيو - حزيران. وكان الانفجار الذي سبقه قد حصل في مكان لا يبعد كثيراً عن مكاتب وكالة الصحافة الفرنسية، وذلك في 27 يونيو - حزيران.

وعاد الكلام بقوة عن الخيار العسكري. كانت هيئة أركان الجيش الإسرائيلي ترسم تفاصيل خططها. وعاد رفول إلى بيروت[1] في 13 يوليو - تموز لينبئ القوات اللبنانية بأن لها دوراً تؤديه في عملية عسكرية محتملة ضد "الجيب".

- هل تفضلون أن تتقدموا من الأشرفية نحو الغرب مروراً بالمتحف أم تتمنون محوراً آخر؟ سأل بشير.

- نفضل محور غاليري سمعان باتجاه كنيسة مار مخايل في الشياح.

- حسناً، سنخطط لكل شيء. يجب أن تقولوا لنا ما هو عرض المحور. وبعد ذلك سأذهب هناك لأرى ما طبيعة المكان. هل تحتاجون إلى شيء؟

- لا، نحن جاهزون.

- انتبهوا، يجب أن تكونوا جاهزين حسب مفهومنا نحن. إذا شددت على أن يكون فادي أفرام جاهزاً، فيجب أن أتأكد من أنه جاهز، قال إيتان متطلباً. سنتولى نحن أمر بقية الجبهة. ستنالون ما تحتاجون إليه من أسلحة وذخائر ومدرعات. ليس لدينا مشكلة ارتباط مع قواتكم، فإنها ستحمل علامات الهوية[2] التي ترى من الجو والتي تحملها قواتنا، منعاً لحصول خطأ من جانب طائراتنا. يجب أن يدرس فادي تفاصيل العملية مع أمير دروري. لي الآن طلبان إليكم. في سنة 1973، كان يعمل في المستشفى العسكري طبيب يدعى فرنسيس، وقد عالج واعتنى بأحد طيارينا الذي سقطت طائرته فوق لبنان. نود أن يلتقي الاثنان! ثم إنه في 15 مايو - أيار 1948، سقط من جنودنا في معركة المالكية سبعة قتلى لم نتمكن قط من أخذ جثثهم. لقد دفنهم الجيش اللبناني. فهل يمكنكم أن تساعدونا في الحصول على معلومات عن مكان دفنهم؟

(1) ومعه موشيه ليفي (مساعد رئيس الأركان وأوري ساغي (رئيس الشعبة الثالثة - العمليات) وممثلو الموساد المقيمون في لبنان.

(2) قماشة برتقالية اللون ممدودة على سطح المركبات.

– أعطيتمونا منذ لحظة خمس شاحنات، وجئتم الآن تطلبون ثمنها؟ قال فادي أفرام مبتسماً.

– لا. احتفظوا بها وسنقدم لكم فاتورة إجمالية بعد الحرب، أجابه رفّول باللهجة ذاتها.

في 14 يوليو – تموز 1982، ذهب وفد من القوات اللبنانية[1] إلى دمشق. كان بشير قد كلف بقردوني باستكشاف موقف السوريين حيال ترشيحه. استقبل وزير الخارجية السورية عبد الحليم خدام، القيّم على الملف اللبناني في دمشق، الوفد بكثير من الود حسب عادته. بعد التحيات التقليدية، سأله بقرادوني عما "إذا كانت سوريا تدعم بشير الجميّل" فأجاب:

– تعلمون أن القرار عندنا يتخذ على عدة مستويات. يجب أن ندرس الموضوع وأن نتكلم مع البلدان العربية الشقيقة. أنتم تعرفون عواطفنا تجاهه: مبدئياً، نحن لا ندعمه. غير أننا يجب أن نعرف نواياه فيما يتعلق، مثلاً، برؤيته للبنان وبمفهوم العلاقات التي ينوي إقامتها مع العالم العربي بما فيه سوريا. ومع من سيعمل في الحقل الداخلي؟ مع صائب سلام؟ أو كرامي، أم غيرهما؟ لبشير منطق ثوري ولا أعتقد أنه سيتمكن من التحالف مع تقليديين مثل صائب سلام، قال بقردوني. أعطونا معلومات حول هذه النقاط كي نستطيع درسها. نحن نرفض كل حضور فلسطيني مسلح أو سياسي في لبنان، أضاف المحامي الأرمني. والفلسطينيون المدنيون الذين سيبقون في لبنان لا يجوز أن يكونوا مسلحين.

– اخبرني الأمير سعود الفيصل أن الشيخ بشير يمكن أن يقبل بوجود فلسطيني عسكري رمزي بعد أن تكون الدولة قد بسطت سلطتها وأقامت حكماً قوياً.

– هذا صحيح، أكد بقردوني. بتعبير آخر، هذا يعني أنكم ستعاملون المدنيين الفلسطينيين كما تعاملون السوريين أو الجزائريين؟

– بالضبط، وستطبق القوانين اللبنانية على الجميع.

– اقترحنا على موريس درابر نزع سلاح الفلسطينيين. إنه يرى أن على الفلسطينيين أن ينتقلوا إلى سوريا. وأن علينا فوق ذلك أن نقوم بنقلهم – قال عبد الحليم خدام مبتسماً. هناك عشرون ألف فلسطيني مسلح. إن وجودهم سيزرع عدم الاستقرار في سوريا. وإذا عمدنا إلى ضبطهم، سيطلع صراخ العرب. وإذا لم نضبطهم فسيكونون عامل عدم استقرار عندنا. إن أقصى ما نستطيع أن نفعل هو أن نستقبل ياسر عرفات والقادة السياسيين، وحدهم لا غير. سألت موريس درابر عن نوايا الإسرائيليين بعد رحيل الفلسطينيين، فأكد لي أنهم سينسحبون من لبنان، وإذا اقتضى الأمر، تحت ضغط الرأي العام الدولي. طلبت منه أن

(1) كريم بقردوني وجورج سعاده وجوزف أبو خليل.

يؤكد لي ما إذا كانت الولايات المتحدة ستسعى جهدها لأجل إخراجهم، فرفض ذلك. ويلوح لي أن الإسرائيليين لن ينسحبوا وحسب، بل إن الأميركيين، فوق ذلك، لن يمارسوا عليهم أي ضغط لأجل ذلك. وفي الواقع إذا كان لا بد من انسحاب إسرائيلي فهو سيحصل ولكن بعد توقيع معاهدة صلح مع لبنان.

– نريد انسحاباً سورياً أيضاً، قال بقردوني دون أن يعلق على كلام خدام.

– لا تقلقوا أبداً حول هذا الموضوع. نحن لسنا مشكلة، أكد الوزير السوري.

كان مصير القوات اللبنانية موضوع نقاشات كثيرة بين أعضاء هيئة القيادة. فما العمل بالأداة التي ستفتح أمام بشير طريق الوصول إلى قمة الدولة؟ سيكون من الواجب على الأقل تحويل علة وجودها إن لم يكن حلها. كانت هناك فكرة ثابتة تلازم كل الأذهان يجب أن تواصل القوات مساندة الرئيس العتيد وحتى حمايته. بقي أنه يجب تحديد الطريقة والشروط اللازمة لذلك. كان من الصعب، إن لم يكن من المحال، دمج وحدات الميليشيا بكل بساطة في الجيش اللبناني. ولو حصل هذا لقامت قيامة المسلمين وقامت معارضة قوية حتى في داخل الجيش. كان فادي أفرام، رئيس أركان القوات، يدعو إلى شرعنتها كقوة موازية للجيش. وكان قد أجري درس مخططات مختلفة ليجعل منها قوة خاصة، نوعاً من الحرس الوطني أو حرس الحدود. ولم يُتخذ أي قرار.

بما أن بشير كان يريد أن "يجرف على نطاق واسع" على الصعيد الانتخابي، فقد مال إلى "تهدئة اللعبة في الشوف" وتخمين إمكانات حصول تقارب مع الدروز. وكلف زاهي البستاني، ابن دير القمر، بهذا الملف. فأجرى هذا لقاءين مع كل من مروان حمادة، مستشار وليد جنبلاط، وألبير منصور النائب البقاعي المسيحي وأمين صندوق الحركة الوطنية. أصر البستاني على أن يتلاقى بشير الجميّل ووليد جنبلاط بغية "إطلاق دينامية سياسية جديدة". فحصل التلاقي بين الرجلين يوم 17 يوليو – تموز 1982 في القصر الرئاسي في بعبدا. وصل الدرزي أولاً وكان يرتدي بذلة وربطة عنق؟ وبعد خمس دقائق، نزل المسيحي من سيارته وكان يرتدي سترة صيفية خفيفة زرقاء نصفية الكم. اختلى الرجلان خمساً وأربعين دقيقة، ثم انضم إليهما إلياس سركيس لمدة عشرين دقيقة. وسمع الصحافيون الذين كانوا ينتظرون نهاية الاجتماع من وليد ثم من بشير عبارات جميلة مليئة بالأمل في المستقبل وبإرادة مواصلة "الحوار". كانت ابتسامات الرجلين لا تحجب عدم الاتفاق. ولم يعودوا ليلتقوا ابداً.

بعد مرور يومين، عرضت دمشق علانية أن تستقبل القادة الفلسطينيين وحدهم. لم يكن

لهذا العرض أي صدى. كان ياسر عرفات لا يريد الذهاب إلى سوريا. لقد قال له حافظ الأسد مرة: "فلسطين هي جنوب سوريا" فابتلع رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ريقه بصعوبة ولم ينس ذلك أبداً. ثم إن تباين وجهات النظر بينه وبين الرئيس السوري حول السير بالملف الفلسطيني، ومكوثه في سجن دمشقي، والمحاولات المختلفة لاغتياله التي كان يعزوها إلى المخابرات[1] السورية، أقنعته بأن لا يثق أبداً بدمشق. وعلق "الختيار" على الموضوع بقوله: "لا أريد أن أكون على رأس كتيبة إضافية في الجيش السوري".

"السيد ياسر عرفات دعا آرييل شارون إلى بيروت فليحذر، لأن شارون يمكن أن يلبي دعوته"، قال مناحيم بيغن في اليوم ذاته أمام 250000 متظاهر هائج جاؤوا إلى القدس بناء على دعوة من حزب الليكود لدعم سياسته. كانت تل أبيب تعتبر أن المفاوضات في مأزق تام وكان بعض المسؤولين الإسرائيليين يطلبون أمام الملأ رحيل "المبعوث الأميركي من بيروت".

كانت كل الأبواب توصد أمام فيليب حبيب. وأفهمته كل البلدان العربية بوضوح أنها لا تريد مقاتلين فلسطينيين على أرضها. اقترح فيليب حبيب على المسؤولين السعوديين في إحدى زياراته للرياض أن يستقبلوا 2000 مقاتل فلسطيني. "فنظروا إليَّ وكأنهم لا يصدقون آذانهم. وكأنني قدمت لهم سندويشاً بلحم الخنزير"، روى هذا فيما بعد.

"لماذا لا يوضعون مؤقتاً في معسكرات في الشمال والبقاع؟"، اقترح عبد الحليم خدام على سعود الفيصل وجورج شولتس لدى أول جولة لهذا الأخير في المنطقة. اعتبر المسؤول الجديد عن دبلوماسية واشنطن أن الفكرة جديرة بالاهتمام. لكن إلياس سركيس وشفيق الوزان اتفقا على رفضها دون أن يستشيرا بشير.

وحاول فيليب حبيب أن يفتح ثغرة في الأفق المسدود. فأطلق يوم 19 يوليو - تموز فكرة نشر مراقبين من قبل الأمم المتحدة حول العاصمة اللبنانية بغية تخفيض الضغط العسكري عليها. أثارت هذه الفكرة غضب شارون فمضى على عجل إلى بيروت حيث استقبله الأميركي بجفاء وطمأنه بلهجة توحي بالثقة قائلاً:

- ستنزل قوات فصل عند بداية الإخلاء إذا اقتضت الضرورة. ولا تنسوا أن للولايات المتحدة كلمتها في الموضوع، ولستم وحدكم في الساحة!

- أنتم تتدخلون في شؤوننا الداخلية معرضين أمننا للخطر، أجابه شارون بلهجة جافة.

- أمنكم لا يكون في خطر حين تمنعون قافلة تنقل طحيناً من دخول بيروت الغربية.

- الميليشيات المسيحية هي التي تدقق في حمولة المركبات الداخلة إلى بيروت الغربية - أجاب وزير الدفاع.

(1) الأجهزة السرية.

- لكن الجنود الإسرائيليين هم الذين منعوا القافلة من المرور!

- الكمية التي تنقلها كانت تكفي لإطعام الإرهابيين كلهم حتى آخر شهر يوليو - تموز من السنة القادمة. كفوا عن التذمر طول الوقت. لقد سئمت اتهاماتكم!

- الطحين والفيول والبنزين يجب أن تمر، طلب حبيب.

- الفيول لن يمر!

كان وجه شارون محتقناً من شدة الغيظ.

- كيف سيمكنهم أن يصنعوا خبزهم إذن؟

- لا أدري، أنا لست خبازاً. لقد آن أوان الانتهاء منهم!

- سننهي هذه الحرب دون عملية عسكرية!

- يجب أن ينجز هذا العمل بأسرع وقت.

- سأرسل إليكم الصليب الأحمر، صاح الأميركي.

- نحن نرفض هذا التهديد.

نطق شارون بهذه العبارة، وأدار ظهره ومضى على عجل إلى عند جوني عبدو حيث كان ينتظر، بشير وفادي أفرام على الغداء. كان جوني قبل ذلك ببضع دقائق قد التقى ياسر عرفات في بيروت الغربية وقال له هذا إن الحل الوحيد هو إعادة المقاتلين إلى البلدان التي كانوا لاجئين فيها، بحيث يعود فلسطينيو العراق إلى العراق، وفلسطينيو سوريا إلى سوريا، وفلسطينيو اليمن إلى اليمن.

بعدما قعد الجميع حول المائدة، سأل شارون جوني عبدو كيف وجد مخاطبه، عرفات.

- معنوياته أفضل مما كانت يوم التقيته آخر مرة.

- كيف الوضع في بيروت الغربية؟

- طبيعي. إنهم يأكلون فواكه إسرائيلية!

كانت حواجز الجيش الإسرائيلي التي تشرف على مداخل الجيب المحاصر قد تلقت تعليمات بأن "تغض النظر" وتسمح بأن تدخل إلى بيروت الغربية الخضار والفواكه الإسرائيلية التي كان يمكن التعرف عليها من الأقفاص التي تحمل كتابة بالعبرية. كان النصف مليون من الأشخاص المحشورين في "وكر الجرذان" يمثلون سوقاً لا يستهان بها. وراح التجار اللبنانيون يجمعون الأقفاص الفارغة ويرسلونها إلى البقاع كي تملأ بفواكه وخضار لبنانية أرخص بكثير من الإسرائيلية، وكانت هذه المنتجات اللبنانية المموهة على هذا النحو تدخل الجيب المحاصر دون صعوبة.

– أما زال ياسر عرفات ينوي الرحيل أم أنه يعتقد بأن الوقت يعمل لصالحه؟ سأل شارون جوني عبدو .

– بديهي تماماً أنه يظن أن الوقت يعمل لصالحه .

– عرضنا عليه اللجوء إلى عندنا ، قال الوزير مبتسماً .

بعد انتهاء الغداء ، أمسك شارون بذراع قائد القوات اللبنانية واختلى به بعيداً عن الآخرين .

– إسرائيل لا تتوخى حلاً في لبنان إلا من خلال انتخابك – أسرّ له . نحن على استعداد لفعل أي شيء كي نساعدك على الفوز . إذا استلمت الحكم سيسير كل شيء على ما يرام! وإذا لم تفلح في ذلك فإن عملية "سلامة الجليل" ستنحصر في السيطرة على أربعين كيلومتراً بفضل سعد حداد . إن حكومتنا قد قررت وأعطت الجيش الضوء الأخضر لتنفيذ العملية على بيروت . هذا التنفيذ وشيك ، لكنني أريد أن أعرف ما إذا كانت العملية تضر بانتخابك؟

– لا . إذا كنا نتخذ القرار مشتركين ، فالأمر بالنسبة إلينا سيان .

– أتريد أمة مسيحية أم أمة مختلطة؟

– مسيحية! لكن على كامل الأراضي اللبنانية . سنضطر إلى الدخول في تسوية مع المسلمين . وسينزع سلاح كل قرى البلاد .

– سنساعدكم في ذلك ، وعد شارون . نحن نسير إذاً في اتجاه حكومة موسعة .

– تماماً . وستوقع هذه الحكومة معاهدة أمنية معكم . فيما خص الانتخابات ، لسنا نعلم حتى الآن متى سيجتمع البرلمان . وهمنا الوحيد هو التمكن من تأمين النصاب بواسطة 62 نائباً .

كان مكتب التنسيق لأجل الانتخاب ، وعلى رأسه زاهي البستاني ، قد ضاعف جهوده . وكانت قد سُمرت على الجدران خرائط حددت فيها بدقة مواقع سكن النواب والطرق المؤدية إلى فيللا منصور . وكانت قد ألفت مجموعات خاصة من مغاوير القوات اللبنانية وأرسلت إلى منزل كل نائب لأجل حمايته ولكن أيضاً لأجل تأمين حضوره . كانت الخطة التي وضعها البستاني بسيطة : ينبغي لبشير ، المرشح الوحيد ، أن يجمع بصورة مطلقة 62 نائباً ضرورياً لتأمين النصاب القانوني . أما الباقي فكان مجرد "تفاصيل" إذ إن بشير كان واثقاً من أن ينال في الدورة الثانية – بالأكثرية النسبية – أصوات النواب الثلاثة والثلاثين القريبين من الكتائب . فكان يجب إذاً أن "يعمل عن كثب" مع كل واحد بمفرده لتأمين تصويت ثلاثين من أصل ثمانية وخمسين نائباً مقيماً في المنطقة المسيحية كان تصويتهم غير مؤكد . وأخذ بشير يرسخ موقع "قواته" فقام بزيارة إلى كميل شمعون . فأبدى هذا بضع تحفظات :

– أنت لا تستطيع أن تحكم لبنان بواسطة ديب أنسطاس و إيلي حبيقة ، قال لبشير .

ذلك أن الأول ، ديب أنسطاس ، آمر الشرطة الكتائبية الذي يتمتع بصلاحيات مطلقة ، كان يخيفه كثيراً كما يخيف كثيرين من المسيحيين ؛ أما الثاني ، إيلي حبيقة ، فكان رئيس الجمهورية الأسبق لا يحبه . فطمأنه بشير بابتسامة ، ووعده بأن يحكم في إطار قوانين البلاد . وأسرّ له ، فوق ذلك بأنه متى وصل إلى الحكم سيستعين بابنه داني الذي كان لا يزال منفياً خارج البلاد .

في 20 يوليو – تموز ، قام الرئيس كامل الأسعد بالمشاورات التقليدية مع مختلف الكتل البرلمانية لأجل تهيئة الانتخاب . وقال لهم إنه يلاقي صعوبات في تحديد موعد ، نظراً إلى التدابير الواجب اتخاذها لأجل تأمين جو ديمقراطي وحرية التصويت . حدد موعد الدورة الأولى يوم 3 أغسطس – آب . وكان زاهي البستاني الذي استشير حول هذا الخيار ، واثقاً من عدم اكتمال النصاب في ذلك اليوم . إلا أن المهم في هذه الدعوة الأولى كان إظهار استحالة استخدام فيللا منصور لانعقاد البرلمان ، لأسباب أمنية . سيكون من اليسير إظهار ذلك ومن ثم الدعوة إلى دورة ثانية تعقد في مكان آخر "أكثر أماناً" . وكان بشير من جهته يكثر الاتصالات "المفيدة" ؛ فقام بتاريخ 23 تموز بزيارة للزعيم الدرزي اليزبكي الأمير مجيد أرسلان . ولدى مغادرته منزل الأمير الدرزي ، وجه المرشح ، وعلى وجهه ابتسامة عريضة ، تحية برأسه إلى شيخ عقل الدروز الإسرائيليين أمين طريف الذي كانت تحميه مجموعة كبيرة من الجنود الإسرائيليين ، والذي كان قد جاء يدعو الأمير مجيد ودروز لبنان علانية إلى "التعاون مع إخوانهم المسيحيين" . هكذا كان الموساد يؤمن ما يعود له من العمل .

أعلن بشير ترشحه رسمياً خلال برنامج بثته الإذاعة الكتائبية صوت لبنان ، يوم 24 يوليو – تموز . وكان قد طلب أن يقدم شقيقه أمين منعاً لكل تخمينات ومناورات الخطة الأخيرة .

– ترشيحي ليس مناورة ولا ابتزازاً ، ولن أرجع عن قراري هذا في أي حال ، أكد قائد القوات اللبنانية .

بعد ذلك بدقائق رد وليد جنبلاط بعنف قائلاً : "ترشيح بشير الجميّل هو ترشيح تحدي . إنه ترشيح الدبابات والمدافع الإسرائيلية . ولعل الأمر يكون أكثر صراحة من جانب إسرائيل لو عينت حاكماً عسكرياً في بعبدا أو ساعدت مرشح التحدي على القيام بانقلاب عسكري لأجل طرد الفلسطينيين جميعاً من لبنان ، واعتقال كل المواطنين وتصفيتهم" .

وأضاف رشيد كرامي ، رئيس الوزراء السابق قائلاً : "إن هذا الترشيح سوف يشهر في وجه الديمقراطية . أتساءل عما إذا كان العنف قد بات شرطاً ضرورياً للوصول إلى رئاسة الجمهورية" . وراح قادة الميليشيات وقادة الأحزاب والمنظمات السياسية اليسارية كل بدوره يندد بـ "مرشح الإسرائيليين" . وأكدت سوريا أن بشير الجميّل قد "خان" .

أزاح موجة الاحتجاجات هذه، قصف عنيف جداً على بيروت يوم 26 يوليو - تموز. وعند الساعة السابعة عشرة والنصف، دخل جنود إسرائيليون غرفة الإشراف على توزيع الماء وأقفلوا الخزانات التي تغذي بيروت الغربية. ثم فعلوا الشيء ذاته في الكهرباء. وبعث غسان تويني، سفير لبنان في الأمم المتحدة، برسالة إلى خافييه بيريز دي كويلار يتهم فيها إسرائيل بـ"خرق القانون الدولي بجميع الأشكال في احتلال جنوب لبنان وبيروت [...]. ولم تكتف إسرائيل بارتكاب أعمال عنف وفظاظة ألحقت أضراراً هائلة وخسائر بشرية عديدة، بلَ إنها تقوم الآن بإنشاء إدارة بديلة، متجاهلة السلطات المحلية الشرعية اللبنانية، التي وصفت عدة مرات في حالة تجعل من المستحيل جسدياً عليها أن تؤدي مهمتها".

وتفاقم القصف في اليوم التالي، واختبأ السكان في الملاجئ طيلة اثنتي عشرة ساعة. وطلب آمر فيلق مدرعات إسرائيلي كانت مدافعه تقصف المدينة أن يعزل من منصبه احتجاجاً على الأوامر التي كانت تصدر إليه. كان هذا الضابط عقيداً في الثانية والثلاثين من عمره، وأصغر ضابط يحوز هذه الرتبة في الجيش الإسرائيلي، وابن جنرال احتياطي يناضل في صفوف المعارضة العمالية؛ كان إيلي غيفا يعلم أن طلبه هذا سيقضي على مستقبله العسكري الذي كان واعداً بصورة استثنائية حتى حينه. وأحصي في مساء ذاك اليوم 112 قتيلاً و 232 جريحاً.

اغتنم وجهاء السنة في التجمع الإسلامي فرصة هدوء قصير فاجتمعوا في منزل صائب سلام في المصيطبة. ووافقوا بالإجماع على إجراء انتخابات في إطار دستوري وطلبوا "الحفاظ على القيم التي بني عليها لبنان أي التفاهم بين العائلتين الروحيتين اللبنانيتين". كان الإسلام التقليدي يحاذر أن يتخذ موقفاً صريحاً ضد ترشيح بشير الجميّل وكان في ذلك نسمة منعشة في الموجة السياسية العارمة المضادة لقائد القوات اللبنانية.

وعاد فيليب حبيب تلك الليلة على عجل إلى بيروت.

- مفتاح المشكلة بات عندي، قال للصحافيين لدى وصوله إلى العاصمة اللبنانية. ستنزل في بيروت الغربية قوة متعددة الجنسيات مؤلفة من وحدات أميركية وكندية وإيطالية وفرنسية ويونانية للإشراف على رحيل الفلسطينيين.

وتوجه ياسر عرفات فوراً إلى الصحافيين، رداً على تصريح فيليب حبيب، متعهداً بسحب قواته من بيروت. فطلب حبيب من شفيق الوزان أن يحصل بأسرع ما يمكن على تعهد خطي من عرفات يؤكد أقواله.

وفي اللحظة إياها، اجتمع مجلس الأمن في نيويورك بطلب من اسبانيا، وطلب بإجماع أعضائه - امتنعت الولايات المتحدة عن التصويت - رفع الحصار من حول بيروت. وقبل أن يصل مضمون هذا القرار السابع المتعلق بلبنان منذ بدء عملية "سلامة الجليل" إلى بيروت،

استؤنف القصف وبلغ درجة من الشدة لم يبلغها من قبل. وأصاب القصف منزل صائب سلام. اغتنمت الوحدات الإسرائيلية فرصة هذا القصف المدفعي كي تحاول اختراق الدفاعات الفلسطينية. وتوصلت إلى مسافة خمس كيلومترات جنوبي الجيب المحاصر وضيقت بذلك مواقعها في المطار.

وطلب مجلس الأمن في قراره السابع وقف إطلاق النار في الحال وأمر بإرسال مراقبين إلى بيروت وحولها. فتوجه نحو خمسين عنصراً من قوات الفصل التابعة للأمم المتحدة في الجنوب اللبناني FINUL من الناقورة صوب العاصمة اللبنانية. فأوقفوهم في الدامور واضطروا أن يعودوا أدراجهم.

"إنهم (أي السنّة) لم يدعموني ولكنهم وافقوا على إجراء الانتخاب وهم يشكلون قاعدة سياسية وشعبية كبيرة"، قال بشير مساء اليوم ذاته للجنرال أمير دروري الذي كان يزوره في الكرنتينا[1]. كان ضجيج الانفجارات في الخارج بعض الأحيان شديداً إلى حد جعلهما يصرخان لكي يسمع أحدهما ما يقول الآخر.

- جئنا نرى ما إذا كانت الانتخابات ستجري، قال دروري.
- ستجري في 10 و12 أغسطس - آب.
- شن ياسر عرفات حملة باتجاه القادة العرب وخصوصاً حسني مبارك تحت شعار "انتخاب بشير سيكون كارثة"، أضاف زاهي البستاني. وقال حافظ الأسد لوليد جنبلاط إن السنوات الست من ولاية بشير الجميّل ستكون ست سنوات من القطيعة مع سوريا.
- نحن مستعدون لمساعدتك بالطريقة التي تناسبك، اقترح دروري مكرراً تقريباً ما قال وزيره قبل بضعة أيام. اطلب منا ما تريد وسنعطيك إياه.
- ماذا سيجري بشأن السوريين؟ سأل ياريف.
- في أي يوم نحن؟ - في 27 يوليو - تموز! - اليوم بالذات تنتهي مدة المهمة التي كلفتهم بها الجامعة العربية، ولن تجدد. مهمة سامي الخطيب انتهت. لقد وجد سركيس الشجاعة اللازمة للصمود أمام الضغوط وعدم القبول بتجديدها. غير أنه لن يطلب منها أن ترحل. الرئيس الجديد سيفعل ذلك.

بعد الساعة الثالثة عشرة من يوم 29 يوليو - تموز 1982، كان مناحيم بيغن يحتفل بعيد ميلاده التاسع والستين، وكان يتأهب لقطع قالب الحلوى الذي كان يمثل دبابة مركافا مصنوعة من البسكويت والسكر والبوظة، حينما رن جرس الهاتف. كان على الخط رونالد ريغن شخصياً الذي طلب بلهجة غاضبة جداً إيقاف القتال في بيروت "على الفور".

(1) وكان معه الجنرالان عاموس يارون وهارون ياريف ومحللان من الموساد هما ماريون وطومي.

وحصل وقف تاسع لإطلاق النار عند الساعة الخامسة عصراً. وكان القصف في هذا النهار وحده قد أوقع 165 قتيلاً و400 جريح. رفضت القدس رسمياً قرار منظمة الأمم المتحدة المتعلق بنشر مراقبين. "إذا بات الفلسطينيون محميين وراء ستار هؤلاء المراقبين فلن يعود لديهم أي سبب لمغادرة المدينة"، أكدت الأوساط الإسرائيلية و"استغربت كيف أن حكومة الولايات المتحدة لم تفهم أنها بسماحها بصدور هذا القرار تنسف الجهود التي يبذلها سفيرها فيليب حبيب". حتى شمعون بيريز عارض قرار الأمم المتحدة.

فاشتد غيظ الإسرائيليين حيال "مماطلات الإرهابيين" فشنوا يوم 2 أغسطس – آب هجوماً كبيراً على "الجيب" المحاصر مهدوا له بقصف مدفعي متواصل. وقد أطلق على بيروت الغربية، باعتراف إسرائيل نفسها، 280000 قذيفة. أي ما يعادل ضعفي القوة التفجيرية للقنبلة الذرية التي ألقاها الأميركيون على هيروشيما، إلا أنها توزعت على يومين بدلاً من أن تركز في جزء من الثانية. كانت الأضرار جسيمة ونادراً ما نجا مبنى من الإصابة. وكما لو كان الأمر مقصوداً، فإن كل الصحف قد أصيبت بعد أن كانت في منأى عن الإصابة حتى الآن. حاول جنود تل أبيب بعد ذلك أن يتقدموا على ثلاثة محاور. لكن مقاومة الفدائيين أوقفتهم سريعاً. وفي قطاع المتحف، لم يكد الجيش الإسرائيلي يتقدم بضعة أمتار حتى سقط 15 قتيلاً وخسر 10 عربات مدرعة. أما في المرفأ، لم يتراجع الفلسطينيون وحلفائهم قيد أنملة رغم الهجمات التي شنت عليهم. وفي جنوب "الجيب" في منطقة المطار، لم يستطع الإسرائيليون أن يجتازوا الساتر الترابي ذا التربة الحمراء لحي بئر حسن. كانت بيروت الغربية غارقة في الدخان، لكنها صمدت. ولم يعد هناك مجال لدعوة البرلمان إلى الانعقاد.

تمكنت هيئة مراقبة الهدنة التابعة للأمم المتحدة التي يقودها الجنرال إيمانويل أرسكين من دخول بيروت الغربية بالحيلة يوم 3 أغسطس – آب. فقد أرسل ضابط من التابعية الأميركية بمفرده إلى "الجيب" مكلفاً بالاتصال بقيادة منظمة التحرير. سمح له الجنود الأميركيون بالمرور، وكانوا واثقين من أن أي أميركي لن يخاطر بالدخول دون مواكبة إلى "وكر الجرذان" المحروم من الماء والكهرباء والمحروقات. استطاع الضابط أن يعاين رسمياً الوضع الذي كان "مأساوياً" هناك.

ورد شارون مؤكداً في حديث مع صحافيين تصميمه على "مواصلة الحصار طالما كان هذا ضرورياً رغم صيحات منظمة الأمم المتحدة". وكان رده على شفيق الوزان، الذي كان يطلب يومياً من فيليب حبيب إمداد بيروت الغربية ببضع ساعات من الماء والكهرباء: "خير لك أن تكون قذراً من أن تكون ميتاً".

كانت صعوبات إجراء انتخابات الرئاسة تقلق المسؤولين الإسرائيليين عن الملف اللبناني. فذهب مدير الموساد إسحق حوفي إلى بيروت يوم 4 أغسطس – آب ليطلع بنفسه على الحالة. كان هدير الانفجارات متواصلاً والشوارع مقفرة. كان المدفعيون الإسرائيليون يطلقون القذائف بلا انقطاع منذ عدة ساعات. والمركبات الوحيدة التي كانت تتجول بسرعة كبيرة كانت ملأى بالمقاتلين وبالأسلحة، ومغطاة بلافتات "صحافة"، أو كانت تنقل جرحى، مطلقة لمنبهاتها العنان. التقى حوفي وبشير الجميّل في الكرنتينا.

– هناك ضغوط سورية وفلسطينية شديدة لأجل منع إجراء الانتخاب، قال قائد القوات اللبنانية لمخاطبه. لقد فهموا أنني سأنتخب فراحوا يهولون على مسلمي بيروت مطلقين شعار المقاطعة، لكن صائب سلام ينتظر الضوء الأخضر من السعوديين كي يشاركوا. فإذا لم يلعب لعبة المقاطعة سنحصل على النصاب القانوني. وعدني فيليب حبيب بأن يتدخل لدى الرياض بهذا الشأن. سنقرر سريعاً تاريخ جلسة الانتخاب عندما نصبح واثقين من مشاركة صائب سلام. نحن واثقون من حيازة 55 صوتاً في الدورة الأولى ولا يلزمني فيها إلا 47 صوتاً.

– التصويت سري أم علني؟ سأل حوفي.

– يجري التصويت بواسطة أوراق سرية وليس هناك مرشح آخر.

– وسليمان فرنجية؟

– إذا ترشح سيكون هذا ممتازاً. هذا سيحمل نوابه على الحضور وسنكون واثقين من تأمين النصاب. لكنه ليس له أي حظ في النجاح.

– أنت إذاً متأكد من النجاح لا من تأمين النصاب؟ سأل حوفي.

– تماماً. أكد لي الرئيس شمعون بالأمس إنه سيدعمني.

– على أن بعضهم أكد لي أنه سيترشح شخصياً.

انفجر بشير ضاحكاً:

– هناك مليون ماروني وبالتالي مليون مرشح مبدئياً. لا مشكلة مع المسيحيين، قال بشير مبسطاً الأمور.

– متى ستنعقد الجلسة في رأيك؟

– غداً سيلتقي رئيس البرلمان كامل الأسعد بفيليب حبيب ليطلب منه مراقبين دوليين. ويجب أن يطلب منكم بواسطته أن تخلوا منطقة المتحف. فمن الممكن أن يدعى البرلمان إلى الاجتماع يوم 10 أغسطس – آب على أقرب حد، ويوم 18 أغسطس – آب على أبعد حد.

21

رحيل الفلسطينيين

يوم 6 أغسطس – آب 1982 ، أنبأ فيليب حبيب آرييل شارون بأن اتفاقاً شاملاً " قد يتحقق خلال 24 ساعة " . وبما أن منظمة التحرير الفلسطينية متمسكة بمطلب قدوم قوة متعددة الجنسيات قبل مباشرة الانسحاب وأن الإيطاليين والأميركيين غير راغبين في النزول إلى بيروت إلا بعد مباشرة الانسحاب، فإن فيليب حبيب قد تصور توزيع وصول هذه القوات على مراحل . فالفرنسيون، الذين لم يضعوا أي شرط كان يمكن أن يكونوا أول الواصلين إلى المرفأ صباح اليوم ذاته الذي ترحل فيه أول دفعة من الفلسطينيين، ثم تصل القوات الأخرى في الأيام التالية .

ابتسم الوزير الإسرائيلي ابتسامة خفيفة، وذكّر الأميركي بأنه لن يدع أي شخص يخرج من بيروت قبل أن يطلق الفلسطينيون سراح هارون آهياز (الطيّار الذي أسقط في جنوب لبنان) ويردوا جثث الجنود الإسرائيليين التسعة الذين قتلوا سنة 1978 . وكل هذا دون شروط . وحيال هذا الطلب إياه كانت منظمة التحرير الفلسطينية قد طلبت، قبل بضعة أسابيع، إطلاق سراح لائحة طويلة من الفلسطينيين والأجانب الذين أدينوا بجرم الإرهاب في إسرائيل منذ سنين طويلة . وكان بين هؤلاء الياباني كوزو أوكاموتو الذي حكم عليه بالسجن مدى الحياة بسبب اشتراكه في عملية مطار اللدّ التي جرت في مايو – أيار 1972 وذهب ضحيتها 24 قتيلاً و72 جريحاً .

كان المحللون الإسرائيليون في جهاز آمان قد بدؤوا يرسلون إلى تل أبيب، منذ آخر يونيو – حزيران 1982، تقديرات وملاحظات تشكك في صدق الميليشيا المسيحية . وكانت هذه التقارير تزداد عداءً صريحاً مع مرور الأيام للقوات اللبنانية، إلى حد اتهام بشير الجميل بـ" تضليل " القدس . وباتت الآن تدعو بصورة شبه يومية إلى إبداء الحذر تجاه القوات " ليس فقط لأنها عاجزة عسكرياً عن القيام بأي شيء، بل ولأنها ترفض المشاركة في أي عمل كان " . وكان من المستغرب أن هذه الملاحظات المفترض أن تبقى سرية كانت تعرض في عدد كبير من الصحف الإسرائيلية . وحملت هذه " التسريبات " – التي يزيد من إثارتها

للدهشة كون الرقابة على الصحف تابعة لـ" آمان " – على الظن فوراً بلعبة يقوم بها معارضو شارون (وهم كثيرون في جهاز الاستخبارات العسكرية) . لذا استبعد المقربون من شارون، في بادئ الأمر، باستهزاء، هذه التقديرات، معتبرين أن " الاستخبارات العسكرية ذات مواقف متحيزة وسلبية تجاه بشير " .

لكن بعض الأحاديث التي أدلى بها القادة المسيحيون أغاظت الإسرائيليين كثيراً . فقد استقبل بيار الجميّل وهو يرتدي البيجاما صحافياً من تل أبيب وقال له ببرودة : آمل أن يكون في هذه الحملة (العسكرية الإسرائيلية) فائدة للبنان . وبالفعل، فبعد الله يوجد لبنان وأنا لبناني قبل أي شيء . نحن ضد كل احتلال . آمل أن الشعب اليهودي سيفهمنا . فهو من أذكى الشعوب، ويهيمن، بواسطة 14 أو 15 مليون يهودي منتشرين في العالم، على وسائل الإعلام، والصحف، والعلم، والطب . إنه قادر أن يفهمنا " .

أما كميل شمعون، فاستقبل الصحافي إياه وهو في ثياب الصيد، في سروال لركوب الخيل وجزمة، وقال له : " ما كان يجب على الجيش الإسرائيلي أن يفعل هو المتابعة وليس التوقف في منتصف الطريق [. . .] . ولو أنه واصل عمله لما كنا الآن نتحدث عن عمليات صغيرة تحصل على الأرض اليوم " .

– لماذا لا تشركوا القوات اللبنانية في القتال؟ سأله الصحافي .

– ولماذا يجب عليها أن تفعل ذلك؟ هل الجيش الإسرائيلي عاجز عن مواصلة العملية العسكرية لوحده، وهو الذي باشر هذه العملية بوسائله الخاصة؟

في اجتماع الحكومة المصغرة يوم 8 أغسطس – آب، ثارت ثائرة بيغن فضرب بقبضة على الطاولة صائحاً: " وماذا فعل المسيحيون لطرد الإرهابيين من بيروت؟ إنهم لم يضعوا إصبعاً واحدة في الماء البارد " .

كان جهاز آمان في غاية السرور، إذ إن تحاليله ستؤخذ أخيراً بعين الاعتبار . كان مقتنعاً جداً بأن بشير أخفى، عن قصد، أموراً كثيرة عن إسرائيل . وقد ظهر فجأة لضباط الاستخبارات العسكرية أن القوات اللبنانية لم تقبل قط بإجراء تفتيش على وحداتها . ولذلك لم يكن لديها أي تقدير للطاقة العملانية الحقيقية للميليشيا . طلب ياهوشع ساغي، رئيس آمان أن يكون له ضابط ارتباط عند اللبنانين – فرفض الموساد . وكان لا بد أن يحسم بيغن الأمر . " لا يجب التجسس على صديق أو زميل " ، قال بيغن مؤيداً موقف الموساد . ولم يعرف آمان قط ما هو العدد الإجمالي للمقاتلين المسيحيين .

خرج آرييل شارون من اجتماع الحكومة المصغرة في 8 أغسطس – آب ومضى مباشرة إلى بيروت . طلب من بشير الجميّل أن يلاقيه عند جوني عبدو، مكان أحاديثهما السرية .

- هل عندك أخبار عن أبو جهاد؟ سأل وزير الدفاع بشير الجميّل قبل أن يسلم عليه.

كان قد دخل مسرعاً إلى الشرفة المشرفة على بيروت الغربية ووراءه مناحيم نافوت، وماريون وبضعة ضباط كبار. ثم قال قبل أن يسمع جواباً:

- قصفنا لتونا مبنيين وأتساءل عما حل به.

وأمسك بذراع بشير وقاده إلى أمام الشرفة الزجاجية. كانت المدينة منبسطة تحت أقدامهما في ضوء الشمس المائلة إلى المغيب. كان قبالتهم ستار من الضباب المائل إلى الصفرة يخيم فوق "وكر الجرذان". وكان يتصاعد منه لسانان طويلان من الدخان الأسود والأبيض لا تبددهما أيه هبة ريح. وكان بشير وفادي أفرام وزاهي البستاني قد رأوا قبل بضع لحظات طائرتين مطاردتين – قاذفتين تنبعثان من لا مكان وتنحدران نحو "الجيب" ثم تعودان إلى الارتفاع وتطلقان وراءها بالونات تضليلية حرارية لكي تبعد عنهما الصواريخ المضادة للطائرات الموجهة بالأشعة تحت الحمراء. والتمع فوق المكان، بعد مرور كل طائرة ببضع ثوان، برق أحدث غيمة كثيفة من الغبار راحت ترتفع في شكل حلزونات ضخمة.

– لا أدري حتى الآن. لكنني أعلم فقط أن رجال شفتري[1] يعملون مع رجالكم في هذا الحقل، أجاب بشير.

– كل معلومة عن القادة الإرهابيين ذات أهمية. يجب أن يقتلوا ونحن هنا، ما لم يتمكنوا طبعاً من إقناعهم بأن يرحلوا.

بعد تناول الطعام، الذي تناوله ماريون "بيديه الاثنتين" حسب شرهه المعتاد، استقر الجميع على الشرفة.

– شاركت لتوي في اجتماع لحكومتنا، قال شارون بهدوء. جرى نقاش عنيف بين مناحيم بيغن والوزراء. وطلب بيغن من ناحوم عدموني (بيتر)[2] أن يسجل ما قاله وينقله إليك.

– لم أتسلم شيئاً حتى الآن. هل هناك مشكلة؟

– المشكلة هي أن بعض الوزراء ناقمون جداً لأن أحداً من القادة المسيحيين لم يتخذ حتى الآن موقفاً مؤيداً لعمليتنا. ولعل الأمر حتى عكس ذلك. وقد أكد الرئيس شمعون حتى

---

(1) أسعد شفتري مساعد إيلي حبيقة والقائد الثاني لجهاز الأمن.

(2) كان قد عين لتوه مديراً عتيداً للموساد خلفاً لإسحق حوفي (يوليوس) الذي كان سيتقاعد في 12 سبتمبر – أيلول 1982.

أنه لن يكون بمقدور لبنان أن يوقع على اتفاق سلام مع إسرائيل. وعندما تلا بيتر في اجتماع الحكومة المصغرة محضر اجتماع عقده معكم وتلحون فيه على أن ننفذ نحن العملية العسكرية ضد بيروت، ثارت ثائرة بيغن وقال: "لماذا لا يدخلون هم إلى بيروت؟"

– أنا أفهم تماماً، قال بشير. لقد بتنا الآن جاهزين. وإذا كنا سلبيين حتى الآن فذلك بسبب وضعنا السياسي. وأعلم الآن أننا نستطيع أن نلتزم بذلك.

استرخى شارون في مقعده وغيّر الموضوع.

– نحن لا نريد قوة متعددة الجنسيات. واتخذنا كل التدابير اللازمة لمنع الفرنسيين من النزول. لقد أنذرناهم وأنذرنا الأميركيين أيضاً. نمنع أياً كان من النزول إلى اليابسة. طبيعة الأرض تسهل علينا العمل. لقد نشرنا جنوداً في الأماكن الممكن استعمالها لأجل النزول وصولاً إلى جونيه. ولم يعد هناك سوى ثكنة صربا الواقعة أبعد قليلاً إلى الشمال. لن نذهب إلى هناك. فعليكم أن تؤمنوا عدم نزول أحد هناك. يجب أن نفهم الجميع أننا لا نتقيد بأي قرار يتخذ دون موافقتنا. تعقد الآن اجتماعات بين اللبنانيين والأميركيين والفرنسيين.

توقف الحديث في هذا الموضوع لدى وصول جوني عبدو وجوزيف أبو خليل والجنرالين أمير دروري وعاموس يارون. ثم عاد شارون يقول:

– قال لنا فيليب حبيب إن الفرنسيين قادمون بطلب من الحكومة اللبنانية.

– لكن لم يقدم أي طلب من هذا النوع، قال بشيراً مندهشاً.

– أعرف هذا. الأميركيون لن ينزلوا بالقوة، لكن الفرنسيين قادرون على ذلك. تجري الآن ترتيبات في البحر. لقد اتفقنا مناحيم بيغن وإسحق شامير وفيليب حبيب وأنا، على ألاّ يجري شيء دون أن يبحث مسبقاً معنا. لكنهم مع ذلك يتباحثون بمعزل عنا. لذا نحن لسنا معنيين بما يقال أو ما يقرر. لن نقبل أن ينزل الفرنسيون قبل أن يرحل كل الإرهابيين. ويجب أن تصل كل وحدات القوة المتعددة الجنسيات عن طريق المطار لا عن أية طريق أخرى.

وفوق هذا، إذا كان لا بد من مجيء قوة دولية، فيجب استدعاؤها وتحديد مدة بقائها التي يجب أن تكون قصيرة إلى أدنى حد، أضاف دافيد كمحي.

– ويتحدث فيليب حبيب أيضاً عن "إعادة نظر في المواقع الإسرائيلية". هذه في نظره طريقة أخرى ليطلب منا أن ننسحب، قال شارون. هذا ليس وارداً! نحن نرفض الانسحاب رفضاً قاطعاً! حتى من مئة متر! ومن جهة أخرى، سيكون على الجيش اللبناني وعلى القوات اللبنانية، إذا انسحب الإرهابيون يوماً ما، أن تدخل بيروت للتأكد من أنه لم يعد فيها إرهابيون وللبحث عن مستودعات الأسلحة والذخائر. أيمكنكم أن تخبرونا بما جرى في اجتماع اللبنانيين بالفرنسيين والأميركيين؟ سأل شارون رئيس الشعبة الثانية اللبنانية.

– لقد حددت روزنامة الانسحابات – قال جوني عبدو – وهي ستفاجئكم: يجب أن يرحل 7500 عنصر . . .

– ومن بينها 1000 إلى الأردن، و1500 إلى سورية، و2000 إلى العراق – فصّل يهوشع ساغي.

– متى سيصل الفرنسيون؟ سأل وزير الدفاع.

– إذا كان الجميع متفقين، يوم السبت في 15 أغسطس – آب صباحاً.

– يجب أن يكون موقف سركيس واضحاً جداً فيما يتعلق بمراقبي الأمم المتحدة والقوة المتعددة الجنسيات، قال شارون متشدداً. عليه بصورة مطلقة أن يرفضها. هذا مهم جداً!

– لن يكون لهذا أية أهمية بعد انتهاء العملية العسكرية على بيروت، قال بشير. لكن إذا لم تحصل هذه العملية فسيكون من العسير جداً، كما يفكر سركيس أن يرفض مجيئها.

– إنها ستسبب لنا مشاكل حتى بعد رحيل الإرهابيين، قال الجنرال مصححاً.

– حسناً. لن نسمح لمراقبي الأمم المتحدة بالمرور.

– نحن من جهتنا رفضنا قرار مجلس الأمن المتعلق بهم، وبالتالي سنمنعهم من المرور. يجب أن يعلن سركيس أمام الملأ أنه ضد مجيئهم. إذا جاء رفض رسمي من قبلكم، سيكون الأمر أسهل. وهناك أمر آخر: موقف لبنان في الأمم المتحدة. كل انتقادات وتصريحات ممثلكم في نيويورك تجعل موقفنا دقيقاً للغاية. ألا يستطيع إلياس سركيس أن يطلب من غسان تويني أن يصمت؟

– يمكن له أن يطلب، لكن تويني لن يستجيب لطلبه، أجاب بشير وهو يهز كتفيه. لكننا أوصلنا إليه رسالة واضحة جداً بهذا الخصوص، فاستقبلها جيداً وستتغير مواقفه.

بعد مرور ثلاثة أيام على أخذه علماً بالرسالة التي بعث بها الدبلوماسي إلى خافييه بيريز دي كويلار، اتصل قائد القوات اللبنانية هاتفياً بسليم الجاهل الذي كان في رحلة رسمية إلى الولايات المتحدة، وأمره بأن يذهب إلى نيويورك على عجل. فركب الوزير اللبناني الطائرة بسرعة، ثم ركب سيارة أجرة، ووصل إلى منزل غسان تويني فيما كان يخرج هذا إلى مكتبه وحقيبته في يده. كان الرجلان يعرفان بعضهما من زمان طويل ويتبادلان التقدير.

– أعطني بضع دقائق من وقتك، فلدي أمر هام جداً أريد أن أقوله لك، قال سليم الجاهل.

– لقد تأخرت كثيراً، ويجب أن أنقل بلاغاً إلى مجلس الأمن. عند هذا المساء، أجاب تويني.

– لا، أريد أن أراك في الحال، ألح الجاهل.

فأدخله السفير إلى الصالون، وتوجه إليه الجاهل دون أن يقعد، قائلاً:

– لدي رسالة يجب أن أبلغك إياها من قبل بشير، وهي تقول: "عند أول تصريح تدلي به بعد الآن ويسيء إلى مصالحي، سينسف بيتك في بيت مري ولن يكون بمقدورك أن تطأ أرض لبنان إلا إذا شئت أن تموت"[1].

تقيد غسان تويني بعد ذلك بالتعليمات التي جاءت من بيروت. وفي صباح اليوم ذاته عارض عقد اجتماع لمجلس الأمن طلبه السوفيات، لكن دون جدوى.

– نواجه مشاكل كثيرة الآن، عاد يقول شارون. أخذ اثنان من ضباطنا يوم أمس طائرة لنادي الطيران في مطار بيروت الدولي. سنعوض عليكم إذا ألحقوا أضراراً بالطائرة. لقد طلب رفول التشدد في مراقبة الانضباط.

فقد كان المقدم بيشاف زوكرمان والمقدم أوفر يوزام، وكلاهما في السابعة والعشرين من العمر، سرقا طائرة من طراز سيفا لأنهما "كانا يريدان الذهاب إلى بيتهما بسرعة نظراً لقصر الإذن الذي حصلا عليه". فاعترضتهما الطائرات المطاردة قبل أن يبلغا الأجواء الإسرائيلية فهبطا في قاعدة حيفا.

– هذا ليس أمراً خطيراً، قال بشير مرفقاً قوله بحركة من يده. ولم يتمالك نفسه من أن يضيف بابتسامة، ملمحاً إلى ما كان يجري في الشوف[2]: جنودنا ليسوا أفضل.

– يوجد 50 حصاناً في ميدان سباق الخيل[3] ويجب إطعامها، قال الوزير الإسرائيلي وهو ينهض لكي يخرج. إذا كان الإرهابيون بلا غذاء، فهذا ليس خطيراً، إلا أن الأحصنة يجب أن تأكل. أصر أيضاً على أن يقوم أحد منكم، هنا أو في إسرائيل، بامتداح علني لما نفعله هنا.

– ستقوم الروابط المسيحية أو شارل مالك، وزير الخارجية السابق، بهذا العمل على أحسن وجه، أكد بشير وهو يدير وجهه صوب زاهي البستاني الذي بدرت منه إشارة تعني أنه فهم المقصود.

كانت تدخلات هؤلاء تسمح للمرشح الرسمي برئاسة الجمهورية بأن يتحاشى الظهور في الخط الأمامي. فقد أعطى قادة القوات اللبنانية تعليمات إلى الوزراء المسيحيين أمثال ميشال المر، وسليم الجاهل، وإلياس الهراوي، تقضي بالإكثار من التصريحات ضد مجيء مراقبين من الأمم المتحدة أو جنود تابعين لقوات متعددة الجنسيات. وكلف فادي أفرام بتعزيز أعمال

(1) روى سليم الجاهل هذا لألان مينارغ.
(2) انظر الفصل 18: "المناطق المحررة".
(3) الواقع في المنطقة الخالية بين الخطوط الإسرائيلية والفلسطينية غربي المتحف.

المراقبة العسكرية على طول الشاطئ وبمهمة رصد المراقبين إذا حاولوا النزول إلى اليابسة.

واتصل بشير هاتفياً ببول مارك - هنري، سفير فرنسا، وطلب منه توضيحات حول "نبأ" يؤكد أن زوارق إنزال فرنسية تتأهب لإنزال قوات عسكرية في بيروت. فكذب السفير الخبر بصورة قاطعة. اغتنم قائد القوات المناسبة ليؤكد للسفير أن رجاله سيعترضون بالقوة، إذا اقتضى الأمر، أي مركب يقترب من الشاطئ ما لم يكن قد أخذ علماً بقدومه.

في صباح اليوم التالي سلّم مناحيم نافوت إلى قائد القوات اللبنانية رسالة مكتوبة بالإنكليزية:

"رسالة من بيتر (ناحوم عدموني) إلى جان (بشير الجميّل)

"في أثناء انعقاد الحكومة المصغرة، استعاد رئيس الوزراء تصريحات كميل شمعون وغيره من المسيحيين فيما خص عقد معاهدة صلح مع إسرائيل بعد تأليف حكومة جديدة في لبنان بقيادتهم، وكذلك ملاحظات بشير الجميّل وجوني عبدو، ومن بينها النصائح المتكررة والعظات التي يوجهونها إلينا كي نتبنى الخيار العسكري وتأكيدهم أن الخيار السياسي لن يأتي بنتائج مضمونة.

"طلب رئيس الوزراء أن يُنقل كلامه إلى من يعنيهم الأمر بوصفه رسالة آتية منه: أود أن أقول لكم - وأطلب أن ينقل هذا عند أول مناسبة إلى بشير الجميّل وزملائه - أن هناك حداً لا يجوز لهم أن يتخطوه في تصريحاتهم. فقد قال السيد كميل شمعون - الذي يفترضُ أنه واحد من أصدقائنا - أن لبنان لن يستطيع عقد معاهدة صلح معنا لأن البلدان العربية ستقاطع لبنان وأن على لبنان أن يبقى على علاقة معها. لقد كنت أنا من وعد كميل شمعون، في بيتي، بأنه إذا كان هناك خطر دمار على المسيحيين، سنستعمل كل قوتنا الجوية لإنقاذ حياتهم. وها هو الآن يرد لي الجميل - ويكافئنا - بتصريح وقح [...]. ومن جهة أخرى، نقول له وللمسيحيين الذين قالوا لنا إنه إذا قبلنا بمفاوضات سياسية، فإن الإرهابيين سيبقون في بيروت: ماذا فعل المسيحيون كي يرحل الإرهابيون عن المدينة؟ لم يحركوا إصبعاً [...] ولم يسفكوا قطرة دم. نحن قاتلنا السوريين ومنظمة التحرير الفلسطينية، وهم لم يفعلوا شيئاً، ولكنهم يقدمون لنا المواعظ: "إذا أردتم مفاوضات سياسية فالإرهابيون سيبقون في بيروت".

"نريد مفاوضات سياسية، ولا نريد تعريض السكان المدنيين للخطر، أكانوا مسيحيين أو مسلمين [...]. لم نرتكب خطأ (بعدم دخولنا بيروت في الأسبوع الأول)، بل أردنا إبعاد الخطر عن المدنيين. كما أننا كنا لا نريد تعريض جنودنا للخطر. لقد مات 322 جندياً منهم في هذه العملية وسقط منهم 1400 جريح".

كان نافوت قد ترك بشير يقرأ الرسالة دون أن يقاطعه، ثم أضاف:

- يخشى بيغن ألاّ تكونوا على مستوى التحالف الذي يجمع بيننا، إنهم جميعاً قلقون جداً.

لم يفهم بشير لأول وهلة. صحيح أن كميل شمعون قال لمناحيم نافوت أن "لبنان (لا يستطيع) أن يوقع على معاهدة صلح مع إسرائيل إذا أراد الحفاظ على علاقاته مع البلدان العربية". وصحيح أيضاً أن بيار الجميل قال لمندي "إنه يشعر بالخيبة لأن الإسرائيليين لم يدخلوا بيروت حتى الآن"؟ كان بشير على يقين من أن الحكومة الإسرائيلية وخصوصاً الموساد تعرف تماماً التباينات السياسية القائمة بين الزعيمين المسنّين وبينه. استدعى فريقه على عجل:

- من حيث الشكل لا أستطيع قبول مثل هذه الرسالة، قال مؤكداً. لقد فعلنا كل ما كان في وسعنا أن نفعل. ومن حيث الجوهر، لقد تبدلت أمور كثيرة بعد دخول الإسرائيليين. فعلينا أن نصحح المسيرة.

- لا يمكنهم أن يلومونا على عدم المشاركة في القتال، وهم الذي طلبوا منذ البدء أن لا نربكهم، قال زاهي البستاني نحن من يحق لنا أن ننتقدهم. فهم لم يستشيرونا أبداً.

- عدد قتلانا أكبر من عدد قتلاهم. مع حفظ النسبة، لاحظ إيلي حبيقة. إنهم لم يساعدونا في اشتباكات قُبّيع. فليتفقوا فيما بينهم أولاً. أود أن أعرف من الذي دفع بيغن إلى اتخاذ هذا الموقف؟ هناك تنافس بين جهاز آمان والموساد، ونحن ندفع الثمن.

كانوا يعلمون أنه إذا ساءت علاقاتهم مع تل أبيب فإن الإسرائيليين قادرون بسهولة أن يمارسوا ضغوطاً "سلبية" على الانتخابات. على أن بشير اعترف بأن الإسرائيليين ليسوا بالضرورة مخطئين إذا أخذنا ضروراتهم بعين الاعتبار. فقرر "أن يساعد حلفاءه". "لا نستطيع أن نفوز بكل شيء دون أن ندفع شيئاً"، قال لمعاونيه.

- ربما يجب علينا أن نقترح عليهم القيام بصورة مشتركة بعمليات بيروت والشمال، عرض بقردوني. وما همّ بعد ذلك إذا قاطعتنا البلدان العربية.

- هذه الرسالة تشير خصوصاً إلى أن بيغن متوتر الأعصاب، نوه بشير. المشكلة في الواقع كامنة في ثنائية تقديراتنا وتقديراتهم. فهم يريدون أن ننكشف تماماً، ونحن نقول إن الأوان لم يحن بعد.

لعل هذه الرسالة ليست سوى ردة فعل انفعالية، وهي كذلك على الأرجح - وأن الإسرائيليين يسعون، من وراء طلب انكشافنا تماماً، إلى تعكير علاقاتنا مع البلدان العربية، حتى نصبح تحت رحمتهم تماماً. على أي حال، يجب أن نعالج هذه المشكلة على نحو لا

يجعلها تتفاقم. ويجب أن نطلع الشيخ بيار والرئيس شمعون على الأمر. وتحاشياً لكل انزلاق، علينا أن "نهيئهما" قبل كل اجتماع مع الإسرائيليين. سيكون من الآن وصاعداً منسق واحد في مكتب العلاقات مع تل أبيب. سيكون هذا جوزيف أبو خليل، الذي سيكون على اتصال دائم مع فيليب (أفنير آزولاي). أعدوا لي رسالة طويلة إلى بيغن رداً على رسالته يكون موضوعها "مبادئ علاقاتنا مع إسرائيل" واطلبوا من مكاتبنا في الخارج أن تحث اللبنانيين على اتخاذ مواقف موالية لإسرائيل.

استطاع بشير الجميّل أن يعرب عن استيائه حين قام موشيه آرانز سفير إسرائيل في الولايات المتحدة بزيارة بيروت. لقد جاء الدبلوماسي إلى بيروت بناء على طلب من بيغن "لكي يأخذ فكرة عن الرجال وعن الوضع"، واستقبله بشير الجميّل مبدياً استياءه بوضوح.

آرانز رجل بارد، متمسك بالتشريفات، لا يبدر منه أي انفعال، على عكس آريل شارون، وقد ولد بين الحربين العالميتين في كوفنو[1]، في ليتوانيا. كانت أسرته قد هاجرت إلى الولايات المتحدة سنة 1939 حيث ناضل موشيه الشاب في صفوف بيتار[2]. وتطوع في الجيش الأميركي سنة 1944 ثم ترك الجيش سنة 1946 ليستأنف تحصيل دراسته. وأمسى رئيس حزب بيتار فيما وراء الأطلسي في السنة التالية. وعندما نشبت حرب استقلال الدولة العبرية سنة 1948، "صعد" موشيه إلى إسرائيل ليشارك فيها. وعاد إلى الولايات المتحدة سنة 1951 ليقدم امتحان شهادة مهندس طيران. كان صارماً في مسائل الأمن، وانتخب نائباً عن حزب ليكود سنة 1974، شارحاً أن "هذه الاتفاقات ستقود إلى تقديم تنازلات بالغة الأهمية على الأرض". وكان سفيراً لإسرائيل في واشنطن منذ أول سنة 1982 [3].

استقبله بشير وإلى جانبه منسقه الجديد مع الإسرائيليين جوزف أبو خليل، ورئيس أركانه فادي أفرام. وكان يرافق آرانز ضابط من الجيش الإسرائيلي ومندي (مناحيم نافوت) وفيليب (أفنير آزولاي).

- ما هو الوضع اليوم؟ سأل آرانز.

- آمل أن تسير الأمور جيداً، أجاب بشير بلهجة حانقة وهزة من كتفيه. أعتقد أنه حصل اتفاق حول خروج الفلسطينيين.

- وبعد؟

(1) الاسم الروسي لمدينة كاوناس التي هي اليوم ثاني مدن ليتوانيا.
(2) حركة صهيونية قومية متطرفة للشبان.
(3) في 25 يونيو - حزيران 1992، أعلن موشيه آرانز، الذي يعتبر أحد صقور الليكود، انسحابه من الحياة السياسية عقب فشل حزبه في الانتخابات التشريعية قبل يومين.

- ليس لدينا فكرة واضحة عن المستقبل.

- هل ستدخلون بيروت؟

- نحن؟ لا! ربما الجيش اللبناني، إذا سانده الفرنسيون والأميركيون.

كانت اللهجة باردة جداً. ونظر إليه مندي وفيليب مندهشين.

- ورجالكم؟ سأل آرانز.

- سنكون هنا وسنسير إلى جانبه. يقال الآن إن القوة المتعددة الجنسيات ستمكث هنا أربعين يوماً. إنها في الواقع ستمكث سنوات. الجيش اللبناني لن يستطيع أن يتصرف بسهولة، رغم مساندتنا له. كان في صوت بشير رنة سأم.

- لماذا؟

- ليس لديه دافع كاف! نأمل أن يتخذ الرئيس الجديد التدابير الضرورية.

- متى ستجري الانتخابات؟

- لست أدري إن كانت ستجري. نحن الآن في الحادي عشر من أغسطس - آب، ولا يبقى أمامنا سوى عشرة أيام أو خمسة عشر يوماً لكي ننتخب رئيساً. لا أدري حتى إن كان هذا سيكون ممكناً. ولا أدري حتى ما إذا كان النواب سيجتمعون. الشمال والبقاع تحت الاحتلال، كان بشير يرد بعبارات جافة كما لو أن الأمر لا يعنيه.

- لكنهم يستطيعون المجيء!

- وماذا يفعلون بعائلاتهم وبيوتهم؟ أجاب بشير وهو يهز كتفيه. الفلسطينيون يضغطون عليهم.

- الولايات المتحدة تساندكم لأجل ترحيل القوات الغريبة، أشار آرانز.

- لكن قوات غريبة أخرى ستحل محل تلك التي ترحل، أجاب بشير بلهجة قدرية.

- الولايات المتحدة تريد لبناناً قوياً وانسحاب كل القوات الأجنبية. كنت قد اقترحت على ألكسندر هيغ في بداية المشكلة أن يأمر الرئيس اللبناني الفلسطينيين بالرحيل تلقائياً تحت طائلة إرسال الجيش اللبناني لإجبارهم على ذلك. ووافق هيغ آنذاك.

- لكن هذا مستحيل مع الرئيس الحالي والجيش الذي لدينا. نحن ما زلنا نبحث عن رئيس!

- لكنني أتكلم عنك! ألست مرشحاً للرئاسة؟ قال آرانز هذا مستغرباً.

- أنا؟ ليس لي أمل كبير.

قال بشير هذا بلهجة غير المبالي. كان يبدو حانقاً من أسئلة آرانز ولا يعير الحديث أي اهتمام. ولاحظ نافوت وآزولاي أن هذا ليس بشير الذي يعرفانه.

- يوم غبت قبل أسبوعين كنت في حالة نفسية غير هذه تماماً، قال له فيليب.

- أود أن أطرح عليك سؤالاً مباشراً - قال مندي - هل تحس أنك بخير؟

- أنا بخير تماماً.

وروى آزولاي بالتفصيل للسفير المعركة التي خاضتها القوات اللبنانية للاستيلاء على كلية العلوم. وشرح رجلا الموساد لآرانز أن رسالة مناحيم بيغن أثارت غيظ بشير بشكل عميق. تجاهل بشير كلامهما واستأنف الكلام:

- كل اللبنانيين يقتنعون في آخر الأمر بأنه يجب انتظار أن يأتي الجميع و "يركبوا على ظهرهم". غداً سيغرق الأميركيون والفرنسيون في الوحل بدورهم ويحني الجيش اللبناني رقبته. إن جيشنا لم يعد يجند منذ سنين عناصر ذات حوافز أو متعلمة. فكيف تريدون بعد هذا أن يعتقد شعبنا بأن جيشه يشكل درعاً؟

- وإذا نجحت الأمور؟

- ستصبح القوات اللبنانية الجيش الشرعي، قال بشير مبسّطاً الأمور.

- يجب أن تصير رئيساً.

- سنحاول.

ودعا بشير مخاطبه إلى تناول طعام الغداء في مطعم "فيو كارتييه" وهو أفضل مطعم في الأشرفية. وبعد انتقاء الأطباق، استرخى بشير وقال:

- نحن أحرار في أن نقول ما نشاء أو نكتم ما نشاء. لا يحق لأحد أن يملي علينا ما يجب أن نفعل. كان عليك أن توقف رسالة بيغن. كنا قد سوينا الأمور مع آرييل شارون عندما تسلمتها. كل حربنا كانت قتالاً له حوافزه ومنها أنفتنا وكرامتنا، وقد جرحتنا هذه الرسالة.

- للسيد بيغن أيضاً كرامته، قال آرانز.

- الرئيس شمعون لم ينطق بسوء - أكد بشير دون أن يرف له جفن - وإنما قال ببساطة أننا سندرس مشروع السلام آخذين وضعنا بعين الاعتبار.

- كان هناك سوء فهم إذاً؟

- نحن لا نقبل بإعطائنا دروساً في القومية وفي الوطنية من جانب أحد، كرر رئيس القوات اللبنانية بلهجة قاسية جداً، وأضاف بلهجة استفزازية:

- ويمكن لنا حتى أن نعلم بيغن ذلك. ليس في وسع أحد أن يتهمنا بأننا لم نفعل شيئاً. لم نسفك دمنا أو نقدم تضحيات.

- لعل رئيس الوزراء أساء فهم الأمر لما قال له أحدهم إن شمعون لا يريد معاهدة صلح. لكن لا يجوز لكل هذا أن ينعكس على علاقاتنا.

- على بيغن أن يعلم جيداً أننا أصدقاء لإسرائيل ولسنا متعاونين معها. قال لي شارون إن بيغن كان متوتر الأعصاب. فقلت له إنني أتقبل الملاحظات التي وجهت إليَّ وإننا سنفعل اللازم. غير أن الرسالة التي أعقبت ذلك لم تكن لائقة لا في الشكل ولا في المضمون.

- لا بأس؛ كان ذلك مجرد سوء فهم، قال موشيه آرانز.

بعد مرور عشرة أيام غادر عشرة أشخاص من الروابط المسيحية لبنان متوجهين إلى القدس على نفقة الموساد. وعقدوا ندوات صحافية على مدى أكثر من أسبوع واقترحوا على صفحات الجرائد وبرامج الإذاعة والتلفزيون "تطبيع" العلاقات بين لبنان وإسرائيل، وشرحوا أن وجودهم في الدولة العبرية كان خطوة تمهيدية. وكانت هذه "الحملة" في ذروتها حين قبلت الحكومة المصغرة الإسرائيلية خطة فيليب حبيب مرغمة.

في 12 أغسطس - آب، طلب فيليب حبيب وقف إطلاق النار كلياً على الفور. الآن، وبعد أن أعلن الفلسطينيون قرارهم بالرحيل رسمياً، أرادوا أن تسير الأمور بسرعة. كان المقاتلون قد "توقفوا ذهنياً" وراحوا يهيئون رحيلهم. فكان العديد من بينهم يمضي في شراء الحقائب والطرود وقتاً أطول من الوقت الذي يمضيه على الجبهات. كان عرفات يخشى أن يغتنم الإسرائيليون الفرصة ويشنوا هجوماً على "الجيب". كان متأكداً من أن شارون لا يأنف من القيام بعملية من هذا النوع حتى لو أدى ذلك إلى خلاف مع الولايات المتحدة. وحدد رحيل أول دفعة من الفدائيين يوم 20 أغسطس - آب.

يوم 14 أغسطس - آب كان المدفع لا يزال يدوي. وحضر إلى بيروت آرييل شارون ودافيد كمحي ويهوشع ساغي لمقابلة فيليب حبيب وموريس درابر. بدأت المدفعية الإسرائيلية المتمركزة في مكان غير بعيد عن السفارة الأميركية القصف لحظة كان الرجال الخمسة يسلمون على بعضهم. فاحمر وجه فيليب حبيب غيظاً ولام الوزير بلهجة عنيفة على خرق وقف إطلاق النار. لم يكلف شارون نفسه عناء الرد وبادر إلى سؤال مبعوث رونالد ريغن عن حقيقة "الحل" الذي تحدثت عنه الصحف. فأعطاه حبيب نسخة عن "خطته المفصلة" طالباً منه نقلها إلى الحكومة الإسرائيلية للموافقة عليها وتوقيعها حسب الأصول.

- البلدان التي ستستقبل المقاتلين الفلسطينيين ليست مذكورة في الخطة، أشار الأميركي فيما كان الوزير يتصفح الوثيقة. هذا غير مهم، والشيء الأساسي هو أن يرحلوا.

- هذا غير صحيح إطلاقاً! إن مكان استضافة الإرهابيين يعنينا إلى أعلى درجة ونحن متمسكون بمعرفته. سأعرض عليك موقفنا مجدداً، وهو واضح جداً: نحن نرفض قدوم القوة المتعددة الجنسيات قبل الانسحاب الكامل - أو شبه الكامل - للفلسطينيين. ونرفض مجيء القوات الفرنسية، كما نتحفظ إلى أقصى حد على اشتراك - وعلى طبيعة اشتراك -

هذه القوات الفرنسية في القوة المتعددة الجنسيات. ونرفض مجيء مراقبين من منظمة الأمم المتحدة. وأحرص على أن أقول لك، في هذا الموضوع، إننا وضعنا جنوداً إسرائيليين على طول الشاطئ بين بيروت وجبيل لمنع نزول قوات فرنسية أو مراقبين أو أي نوع من القوات الأجنبية، قبل موافقتنا على حل إجمالي، قال شارون كاذباً.

- ليس من حقكم أن تكونوا هناك، وعليكم أن تسحبوها، قال حبيب وهو يكاد يختنق.

بعد نقاش طويل وعسير على خلفية القصف المدفعي، حصل فيليب حبيب على وعد بسحب المدرعات الإسرائيلية الوهمية إلى شمال بيروت، وقبل على مضض أن ينقل "خطة حبيب" إلى حكومته. بعد رحيل الوزير وحاشيته، سارع فيليب حبيب إلى "الهاتف الأسود" الموصول مباشرة بالبيت الأبيض، كي يخبر رونالد ريغن.

في اللحظة ذاتها في الجهة الأخرى من المدينة، كان ياسر عرفات يتسلم "خطة حبيب" من يد شفيق الوزان. وعندما رأى أن السلاح الثقيل الفلسطيني يجب أن يسلم إلى الجيش اللبناني، سارع زعيم منظمة التحرير الفلسطينية إلى إصدار الأوامر بتوزيع هذا السلاح على مختلف المنظمات اللبنانية التي كانت تسانده منذ بداية الحصار.

وفي 16 أغسطس - آب، وافق مجلس الوزراء الإسرائيلي في جلسة استثنائية على الـ 14 بنداً في وثيقة فيليب حبيب. وفي صباح اليوم التالي، جاء شارون وفريقه سراً إلى بيروت لكي يناقشوها مع قادة القوات اللبنانية. وأسرّ يهوشع ساغي، رئيس الاستخبارات العسكرية المرافق لشارون، إلى بشير بأن أجهزة التنصت التابعة له التقطت أوامر أعطيت إلى الصاعقة من دمشق بالتأهب لمغادرة بيروت الغربية.

لكن لواءي حطين والقادسية[1]، الموجودين في بيروت الغربية، هما أيضاً لم يتلقيا أمراً كهذا، أضاف ساغي. أظن أنهم لن يرحلوا كلهم. ولا بد أن يجري توزيع بطاقات هوية لبنانية مزورة. وعلمنا من جهة أخرى أن القوة المتعددة الجنسيات ستنزل بعد مرور ثلاثين يوماً على رحيل معظم الإرهابيين.

- لن يخرج أحد قبل أن نستعيد الطيار وجثامين جنودنا التسعة - أكد آريل شارون - هذا جزء من الاتفاق. ما زال الإرهابيون يطلبون بالمقابل تحرير أسرى الأنصار[2]. وجوابنا هو لا وسيبقى هكذا. يدرس درووي الآن خطة انتشار فصائل القوة المتعددة الجنسيات. لقد أنبأنا الأميركيون أنهم يفضلون منطقة المرفأ، والفرنسيون منطقة ميدان سباق الخيل.

(1) لواءان فلسطينيان بقيادة سورية.

(2) جيش شعبي مؤلف من متطوعين وأنصار مسيحيين.

سيتمركز الإيطاليون في غاليري سمعان والضاحية الجنوبية. وبالإجمال، ستشرف القوة المتعددة الجنسيات على ثلاثة محاور: المرفأ والمتحف وغاليري سمعان. ثم إن هناك مسألة اللوائح ووسائل التثبت من الهويات. أود أن نتطرق إلى ما بعد الانسحاب. إذا لم ينسحب الفلسطينيون. نعرف ما سيجب علينا أن نفعل. لكن ما سيجري بعد انسحابهم؟ نحن نقدر عدد من سيبقى منهم بألفين.

- من لهم عائلة سيرتدون ملابس مدنية ويختبئون - يتوقع ساغي - وهناك أيضاً من حصلوا على بطاقات هوية لبنانية أو بطاقات لاجئين؛ ناهيك عمن يحملون جوازات سفر أجنبية وتأشيرات دخول لبنانية. وهناك أيضاً منظمات مدنية مثل صامد، وفا، وغيرهما.

- وماذا يمكن أن يفعل الجيش اللبناني والقوات اللبنانية في مثل هذه الأحوال؟ سأل شارون. سيكون عليكم دون شك أن تواجهوا بعض الحالات. نحن بحاجة ملحة إلى معلومات عن أماكن اختباء الزعماء ومستودعات الذخائر...

- إذا تحقق الانسحاب - شرح بشير - سنطلب رسمياً في مرحلة أولى أن تبقى قواتكم حيث هي. بعد ذلك، سيقوم الجيش اللبناني، مدعوماً بالأنصار، بفرض حصار ويباشر "عملية سالامي"[1]، بفضل عمل استخباراتي جدي جداً. سيجري كل هذا تحت غطاء شرعي. يجب تنظيف هذه المنطقة تنظيفاً كاملاً. بعد أن أصير في الحكم سنعاود البناء. سنبدأ حينذاك بصورة غير رسمية عملنا مع أصدقائنا في الجيش والأنصار وأجهزة الاستخبارات، بين الانتخابات واستلام مهام السلطة الذي يجب أن يتم في 23 سبتمبر - أيلول. يجب أن يكون جيشكم حاضراً خلال هذه المرحلة كلها كي يساعدنا عند الحاجة. وإذا اعترضتنا مشاكل سأوجه نداء إلى العالم بأسره كي يأتي ويحرر عاصمتي.

- أخطرت فيليب حبيب بأن قواتنا ستبقى حاضرة حول القوة المتعددة الجنسيات طوال الثلاثين يوماً من وجودها هنا. سنبقى هنا طالما كنت بحاجة إلينا. كل هذا يتوقف عليك وعلى وجود الإرهابيين. سنساعدكم على إزالتهم. أما الآن، فسيكون الأمر ممتازاً إذا حاولنا القيام بشيء ضد عرفات وأصحابه قبل رحيلهم.

- هل تستطيعون أن تستعملوا الطيران ضدهم عند الحاجة؟ سأل بشير.

- تلقينا البارحة معلومات دقيقة، فانطلقت طائراتنا فوراً. لكن تبين لساغي أن المعلومات لم تكن موثوقة مئة بالمئة. فأمرنا طائراتنا بأن تعود أدراجها. يجب أن نتبادل كل ما لدينا كي نتصرف قبل رحيلهم. سيكون هذا أسهل علينا الآن لكونهم يشعرون بأنهم في أمان!

(1) هذا يعني حرفياً شطائر نقانق، أي تنظيف على مراحل، حياً بعد حي، أو قطاعاً بعد قطاع.

لم تتجاوب الميليشيا المسيحية مع هذا الطلب، إذ إن مقتل ياسر عرفات أو أحد الأقربين إليه كان يمكن أن يخلق وضعاً تتعذر السيطرة عليه ويكون وبالاً على الانتخاب الرئاسي.

دعا كامل الأسعد البرلمان إلى "دورة انتخابية" تعقد يوم 19 أغسطس – آب في فيلا منصور. سارع المسلمون إلى طلب إرجاء الانتخاب والبحث عن مرشح تسوية يكون مقبولاً من الجميع. كانوا يرفضون ترشيح بشير الجميّل رفضاً قاطعاً لكونه "مرشح الإسرائيليين". وعمل أمين الجميّل جهاراً تقريباً ضد شقيقه، ووجد بسهولة متجاوبين معه في "الغربية" اعتبروه "مرشح تسوية". كان أمين ناشطاً جداً داخل حزب الكتائب فحاول تعبئة من كانوا يخافون من شقيقه. وحاول أن يحمل كميل شمعون على الوقوف ضد بشير، وأكثَرَ من الاتصالات بالقادة المسلمين. فقرر هؤلاء أن يقاطعوا. وعليه، بات تأمين النصاب القانوني أمراً مجهولاً. فقامت وحدات من القوات اللبنانية سريعاً بوضع النواب المسلمين والدروز القاطنين منذ أمد بعيد في المنطقة المسيحية تحت "الحماية". وكان من البديهي أن رعاية هؤلاء الحراس كانت تصل إلى "مرافقتهم" وصولاً إلى مكان إجراء التصويت متى حان الوقت.

عشية انعقاد الدورة، سقط عدد من قذائف الهاون – أكد المراقبون أنها جاءت من الشرق المسيحي – حول المقر المؤقت للبرلمان. وأذاع كامل الأسعد بلاغاً يشرح فيه أن "البرلمان حاول تطبيق التدابير الأمنية اللازمة لحسن سير عملية التصويت. كان لا يزال هناك حضور "للقوات المسلحة إلى غرب المحكمة العسكرية المجاورة لقصر منصور". ونتيجة لذلك، أرجئت الجلسة المحددة في 19 أغسطس – آب إلى يوم الاثنين الواقع في 23 أغسطس – آب عند الساعة الحادية عشرة، في المدرسة الحربية في الفياضية". وتعالى احتجاج قوي عام في بيروت الغربية. وشبه وليد جنبلاط هذا القرار بالفرمانات التعسفية التي كانت تصدر عن السلاطين العثمانيين، وأضاف: إذا كانت الأمور وصلت إلى هذا الحد، فلماذا لا يجري التصويت في المجلس الحربي الكتائبي في الكرنتينا!"

نجحت الخطة التي رسمها بشير وكامل الأسعد. فالدعوة إلى الدورة الأولى و"ردة الفعل" العسكرية التي أعقبتها سمحتا بتحديد موعد جديد وخصوصاً مكان جديد هو المدرسة الحربية التي كانت تسيطر عليها القوات اللبنانية سيطرة كاملة.

بعد ذلك ببضع ساعات كان آرييل شارون، وصحافي يعمل في جريدة معاريف يدعى أوديد زاراي، ومندي، وفيليب، يدخلون سراً إلى مكتب قائد القوات اللبنانية. أراد بشير أن "يضع حداً لسوء الفهم" فطلب من أبيه، بعد "تأنيبه" حسب الأصول، أن يحضر

الاجتماع. كان الوزير يعاقب المسيحيين لأنهم لم يعربوا علانية عن شكرهم لإسرائيل.

– أُطلقت أسهم نارية على كنائسكم يوم عيد العذراء في 15 أغسطس – آب. يجب أن تظهروا أيضاً أنكم معنيون بهذه الحرب...

– ما حصل هو هبة من اللّه! قاطعه رب الأسرة. لقد تخلى عنا الجميع طيلة ثماني سنوات. لم يشأ أحد أن يحرق أصابعه هنا. العرب أبقوا الفلسطينيين عندنا كي يتخلصوا منهم. هذا على كل حال ما برر مجيئكم. لقد أنقذتمونا. كنتم تتوقعون أن نكون أكثر انفعالية وأن نعرب لكم علانية عن مشاعرنا في هذا الموضوع. يجب أن تدركوا أن من مصلحتنا ومن مصلحتكم أيضاً أن نحافظ على روابطنا مع العالم العربي. هذه العلاقات ستكون مفيدة لكم لأن الحرب لن تدوم إلى ما لا نهاية. اعلموا أن لنا تجربة طويلة مع العرب. أنتم حديثو العهد في المنطقة. نحن قاتلنا الأتراك والمسلمين طيلة أربعمائة سنة كي يبقى هذا البلد حراً، ولم نرحل عنه. قاتلنا كي نبقى فيه وأعتقد أننا نجحنا. أنتم قاتلتم طيلة ألفي سنة كي تتمكنوا من العودة إلى أرضكم وقد نجحتم. أقول لكم مرة أخرى مجدداً: شكراً على كل ما فعلتم لأجلنا. ومما يزيد من امتناننا هذا أن بلدنا كان معرضاً للزوال.

– أشكرك على مجيئك إلى مكتب بشير للقائي – أجاب شارون – في صغري كنت عندي رمز الرجل الذي يدافع عن بلاده. كان من واجبنا نحن أن نذهب إليك...

– شاهدت إسرائيل تولد وتكبر – قال مؤسس حزب الكتائب – واشتركت في مباراتين بكرة القدم مع الهاغانا. وجاء فريق إسرائيلي حتى ولعب هنا، وكنت أنا الحكم. أنتم بلد متطور جداً. أنتم عشرون مليون يهودي وتحكمون العالم. وليست الولايات المتحدة في الواقع سوى ولاية من ولايات إسرائيل.

– القوة ليست في مظهرها وإنما في كيفية استعمالها – عاد ليقول شارون – كنا 18 مليوناً قبل هتلر، وصرنا 12 مليوناً بعده. نحن اليوم في الحقيقة 15 مليوناً. نحن لسنا حكام العالم. لكننا تعلمنا كيف نستعمل القوة ونظهرها لأجل الحفاظ على وجودنا. أنا أؤمن بالعلاقات الطيبة بين إسرائيل ولبنان. إلا أننا، لكي نستطيع الاستمرار في مساعدتكم، إنما نحتاج إلى اتخاذ مواقف واضحة وصريحة من قبلكم. المناورات لا توصل إلى شيء. لقد أتيحت لكم الفرصة منذ شهرين للمشاركة في تحرير بيروت.

– لا أعتقد، ولو فعلنا لكنا ضايقناكم. ما علينا أن نفعل الآن؟

– تعرفون أن إسرائيل بلاد ديمقراطية. والجيش يتكون من احتياطيين تركوا الحياة المدنية ليأتوا إلى هنا. وقد باتوا على قناعة متزايدة بأننا بلغنا أهدافنا وأن علينا أن نعود إلى ديارنا. هذه القناعة ستشتد بعد رحيل الفلسطينيين. يمكننا أن نبرر وجودنا على أرض لبنان

في حدود 45 كيلومتراً بأسباب أمنية، ولا يمكننا أن نبرر وجودنا في بيروت. حكومتي، وأنا شخصياً، نتعرض لضغوط شديدة. فيجب على الإطلاق أن نفعل شيئاً لتغيير ذلك. فإذا أعلنت القوات اللبنانية صراحة وعلى الملأ أنكم تريدون السلام مع إسرائيل وأنكم تتمنون وجودنا هنا، فإن هذا سيساعدنا على حل المشكلة. ماذا سيجري في المخيمات الفلسطينية بعد انسحابهم؟ وهل ستمسكون بالوضع وتنظفونها؟ بإمكانكم أيضاً أن تقوموا ببعض البوادر لتقوية معنويات الجنود الإسرائيليين الذين هنا، كأن تقرعوا أجراس الكنائس عند رحيل الفلسطينيين، مثلاً.

– نحن نفهم مشكلتكم – أكد له بيار الجميّل – أعتقد أنكم على حق. يجب أن يشعر رجالكم بأن اللبنانيين معهم. من المؤسف أن تتباطأ هذه العملية على هذا النحو. كنا نظن أنها ستنتهي خلال بضعة أيام. وضعنا السياسي والعسكري الآن دقيق. سيتبدل كل شيء بعد انتخابات الرئاسة. بشير مرشح. وترشحه هذا عمل انتحاري. إذا انتُخب، سيكون على العرب أن يفهموا أننا نريد أن نبقى لبنانيين ولبنانيين فقط. كل سياستنا ستتبدل. مع رئيس الدولة العتيد، سنقول إننا أصدقاؤكم. لكن في غمرة الحملة الرئاسية، لا يسعنا أن نبحث الأمر بصفاء. سنكون معكم مثلما كنا مع فرنسا على مدى سنين عديدة.

بينما كان شارون يودع الزعيم المسن المسيحي، كان يبدو في الأفق، عبر النافذة المطلة على البحر، ملامح سفن حربية أميركية، وإيطالية، وإنكليزية، وفرنسية. كان الـ 800 جندي فرنسي من فيلق المظليين الثاني بقيادة العقيد برنار جانفييه[1] (الذين كانوا أول النازلين) يدورون في الماء على متن "لادوف" قبالة ميناء بيروت. انقضى نهار 19 في مفاوضات آخر لحظة لتسوية آخر التفاصيل. وسعياً إلى تهدئة مخاوف شارون، أوضح السفير الفرنسي بصورة علنية أن بقاء القوة الفرنسية سيختصر فوراً إذا لم تحترم روزنامة الانسحاب الفلسطيني. وحاولت منظمة التحرير الفلسطينية مجدداً الحصول على مقابل لتحرير أسيرين إسرائيليين، إذ إن جندياً آخر كان أسر بعد 17 أغسطس – آب، ويدعى رونيك آوش، في برج البراجنة في ضاحية بيروت الجنوبية. لكن شارون رفض قائلاً إن وجود إسرائيلي آخر في أيدي "الإرهابيين" لا يغير شيئاً من مطلبه: تحرير بلا شروط واستعادة جثث المفقودين. غير أنه وافق مع ذلك على أن يطلق "فيما بعد" سراح عدد من الأسرى الفلسطينيين، كي "يساعد" فيليب حبيب في مفاوضاته:

يوم 20 أغسطس – آب صباحاً، عبرت شاحنات وسيارتا إسعاف تابعة للصليب الأحمر

(1) كان برنار جانفييه قد أصبح جنرالاً يوم قاد عملية "داغيه" 1991 لتحرير الكويت، ثم عين مديراً لمعهد الدراسات العليا للدفاع الوطني (IHEDN).

الدولي وعلى متنها تسعة توابيت، وهارون آهياز ورونيك آوش، خط النار على محور المرفأ. أعيد الرجلان فوراً على متن مروحية إلى المطار العسكري شمالي تل أبيب، حيث كان ينتظرهما رفائيل إيتان وعائلتهما. كان هذا التحرير أول حلقة في السلسلة المعقدة لإجلاء الفلسطينيين عن بيروت.

في فجر اليوم التالي ابتدأت عملية "إيبولار" فنزل جنود الفيلق الثاني الفرنسي في الميناء بعد أن تثبت غطاسو الكوماندو هوبير من عدم وجود أي لغم أو فخ في مكان الرسو. وكانوا على قيد أنملة من زجر عقيد إسرائيلي "جاء يحيي رفاقه في السلاح" بينما كان يفترض أن يكون الجيش الإسرائيلي قد أخلى المرفأ بصورة كاملة. وبعد ذلك ببضع ساعات، صعد 397 فلسطينياً على متن السفينة اليونانية "صول جيورجيوس" التي أبحرت على الفور متجهة إلى لارنكا (قبرص)، وتوالت الرحلات على وتيرة منتظمة في الأيام التالية.

كان المسيحيون اللبنانيون يملؤون الشرفات والسطوح، والكؤوس في أيديهم، ليشاهدوا صعود الفلسطينيين إلى السفن. وهنا، كما في كل مكان في بيروت الغربية، كان موضوع الانتخاب الرئاسي محور كل الأحاديث. كان كل النواب المقيمين في المنطقة المسيحية تحت "حماية" القوات اللبنانية. وكانت قد قطعت خطوط الهاتف بين قسمي المدينة، بعد أن انتقل ألبير منصور، النائب المسيحي البقاعي، أمين صندوق الحركة الوطنية، إلى بيروت الغربية، رغم وعوده لبشير. وطلب أربعة نواب[1] أن يكونوا "النائب الثاني والستين" الذي يدخل قاعة المجلس، لأسباب أمنية.

وبذلك كان عليهم أن يقولوا إنهم أُجبروا وأُحضروا بالقوة لتأمين النصاب. كانوا قد تجمعوا في شقة مع جان غانم وراحوا ينتظرون أن يصل 58 زميلاً لهم إلى الجلسة. وأخيراً كان ميشال سماحة قد نزل في بيت نائب شيعي[2] تحسباً لغياب ما. كان ميشال المر، وهو نائب ثري أرثوذكسي قد مول نقل النواب الموجودين في الخارج. وأرسل جوني عبدو مروحية للجيش إلى قبرص لنقل أحدهم، نائب زحلة جوزف سكاف الذي كان مريضاً وقد جاء من فرنسا. وأجرى زاهي البستاني حساباته، وكان يدير كل شيء باللاسلكي من مكتب صغير في الكرنتينا، فتبين له أن النصاب اكتمل. على أنه طلب من بشير أن يتظاهر علناً بالقلق، حتى حصول الاقتراع.

(1) سالم عبد النور (روم كاثوليك) وفؤاد طحيني (ماروني) و إميل روحانا صقر (كتلة ريمون إده) وفؤاد لحود (حزب الكتائب).

(2) محمد يوسف بيضون.

عند الساعة الحادية عشرة، بالضبط، من يوم 23 أغسطس - آب 1982، أعلن الرئيس كامل الأسعد افتتاح الجلسة النيابية. كان مناصرو بشير الجميل، الذين تمكنوا من التسلل إلى قاعة المدرسة الحربية، يطلقون هتافات الترحيب بقدوم كل نائب. وساد جو من الترقب على مر الدقائق. وكانت التعليقات المباشرة في التلفزيون ومحطات الإذاعة تزيد من شدة هذا الجو. كانت شوارع بيروت شبه مقفرة، في غربها كما في شرقها. وكانت النوافذ المفتوحة على مصراعيها تنقل تعليقات المعلقين حتى إلى الشارع. وفي القاعة، على مقاعد الحكومة، شاءت الصدفة أن يجلس سليم الجاهل وراء النائب أمين الجميّل، فانحنى صوبه وتمتم في أذنه:

- يوجد في هذه القاعة شخصان يتمنيان ألاّ يكتمل النصاب وذلك لأسباب متناقضة تماماً: أنت وأنا.

لم ينبس أمين ببنت شفة. لم ينجح في فرض نفسه. بيروت الغربية كانت متعاطفة معه بالتأكيد لكنه لم يستطع إقناع بيروت الشرقية ووالده الذي كان عائقاً يستحيل تجاوزه على مرشح "عاص". أما الوزير، فكان لا يزال يفضل الانقلاب على الانتخاب. عند الساعة الثانية عشرة والدقيقة الخامسة عشرة، دخل النائب التاسع والخمسون: موريس فاضل، الذي كان قد شعث شعره ليوهم أنه جاء مرغماً وأنه دافع عن نفسه. وأعطي جان غانم الضوء الأخضر لكي يحضر الأربعة الذين كانوا في حمايته. ودخل ميشال المر القاعة وأعلن:

- هناك أربعة نواب في الطريق!

وتعالى الهتاف. 59+4= 63 - اكتمل النصاب وأكثر حتى. عند النزول إلى السيارة، وأمام حشد من المصورين، توسل أحد النواب الأربعة إلى أحد "مرافقيه" بصوت خافت أن يظهر مسدسه جيداً للعيان وحتى أن يصوبه إليه. أراد من وراء ذلك أن تكون آلات التصوير والمصورون شهوداً على جره بالقوة إلى قاعة الجلسات. كان بين النواب الذين حضروا 18 نائباً مسلماً (12 شيعياً، و4 سنّة، ودرزيان).

في الدورة الأولى، تبين من تعداد الأوراق التي وضعت في الصندوقة الشفافة أن النصاب مكتمل. وفي الدورة الثانية، حمل 57 صوتاً لبشير الجميل إلى رئاسة الجمهورية اللبنانية، وكان في الصندوقة 5 أوراق بيضاء. لم تنجح كلمة السر التي دعت إلى المقاطعة. فقد خرج نواب من الطائفة الإسلامية على ما كان ممنوعاً وصوتوا لرئيس القوات اللبنانية، ولم يكن هؤلاء من أقلّهم. وفي الجانب المسيحي كان حضور نواب من زغرتا مثل رينيه

معوّض[1] ذا تأثير حاسم.

كان بشير وفريقه مجتمعين أمام الشاشة الصغيرة في مكتبه، وقد تابعوا قدوم النواب بانتباه. كان أفنير آزولاي قاعداً إلى جانبه، وعند إعلان النتيجة وثب من مكانه فرحاً. وهرول بشير إلى جهاز الهاتف ونادى زاهي البستاني قائلاً له:

- تقبرني يا زاهي.

لم يستطع مخاطبه أن يرد عليه. كان يبكي.

وتصاعدت جلبة هائلة من بيروت الشرقية. وعمت موجة من الفرح العارم كل المنطقة المسيحية. ونزل إلى الشارع عشرات الألوف من السكان وراحوا يتبادلون التهاني، ويتعانقون، ويرقصون، والدموع في عيونهم. وراحت تجوب الشوارع سيارات ملأى بالشبان، رافعة الأعلام اللبنانية أو أعلام القوات، ومطلقة العنان، لمنبهاتها، وكان الشبان يهتفون "فزنا! فزنا!". وامتلأ الجو بزخات الرشاشات في الهواء تعبيراً عن الفرح. كان ميشال سماحة على شرفة النائب الذي كان "يحميه" فجرحته رصاصة طائشة أصابت ذراعه. أما الشارع المؤدي إلى المبنى الذي يسكن فيه بشير فكان مفروشاً بالأرز والرصاص الفارغ. وفي أسفل المبنى، الذي كان محمياً بجدران من أكياس الرمل وكتل من الإسمنت، كان عناصر الحرس يضحكون. ودام الاحتفال طوال الليل.

وبالمقابل، كان الجزء الغربي من المدينة ساكناً تماماً، وكانت السيارات نادرة. كان في الجو خوف أصم يكاد يلمس باليد. وبعد مغيب الشمس، في الظلمة الدامسة بسبب قطع الكهرباء، دمرت قذائف آر بي جي[2] وأحرقت منازل خمس نواب حضروا إلى الفياضية. وكان منزل كامل الأسعد بينها[3].

وبتاريخ 26 أغسطس - آب صباحاً غادر رجال لواء حطين البالغ عددهم 1350 عنصراً متوجهين إلى دمشق في موكب من الشاحنات الفاقعة الألوان، تحمل صور ياسر عرفات وحافظ الأسد، على طريق كثيرة الغبار، وتحت حراسة جنود إسرائيليين. وكان المرفأ يستقبل "البرساليبري" الإيطاليين التابعين لفيلق سان ماركو والذين سرعان ما لقبهم البيروتيون بـ "الطيور" بسبب الريش المغروس في قبعاتهم! كما نزل أيضاً فصيل ثان من

(1) انتخب رئيساً للجمهورية في 15 نوفمبر - تشرين الثاني 1991 واغتيل بعد 17 يوماً.
(2) سلاح صاروخي مضاد للدروع من صنع سوفياتي.
(3) دمرت منازل 17 نائباً خلال 48 ساعة في بيروت الغربية وطرابلس وأميون وكوسبا. وأوقف 51 شخصاً وأحيلوا إلى القضاء ولم يحاكموا. وحفظت الملفات بتاريخ 10 فبراير - شباط 1992 عملاً بقانون العفو العام الذي أقر بتاريخ 26 أغسطس - آب 1991.

القوة الفرنسية. وفي اليوم التالي، نزلت ثلاث سرايا تضم 255 رجلاً تابعين لمشاة البحرية. ويوم 30 أغسطس - آب قد رحل 14928 فلسطينياً.

وغادر ياسر عرفات ما كان مركز قيادته طوال إحدى عشرة سنة وسط مراسم تليق برئيس دولة. وقام بجولة وداعية، يصحبه شفيق الوزان، على منازل الزعماء اللبنانيين الذي كانوا قد ساندوه. كان أبو عمار يحيّي الحشود الكثيفة التي تتدافع في طريقه راسماً بأصابعه علامة النصر "V". وعلى طول المسار كان المقاتلون يفرغون رصاص رشاشاتهم في الهواء، وقد أصيب نحو عشرين شخصاً كانوا على الشرفات برصاصات طائشة. كانت تواكب سيارة شفيق الوزان الرسمية السوداء مجموعة من الجنود الشيعة التابعين للجيش اللبناني. قبل أن يصل رئيس منظمة التحرير الفلسطينية إلى الميناء، ترجل من السيارة ليحيّي الراية ذات الألوان الأخضر والأحمر والأبيض والأسود التي قدمتها كوكبة من جيش التحرير الفلسطيني.

كان يجهل أنه في تلك اللحظة دخل خطة التسديد لثلاثة قناصة إسرائيليين من لواء غولاني كانوا مختبئين في خراب المباني المحاذية لمنطقة المرفأ كان إلى جانب كل من هؤلاء جهاز لاسلكي، وعلى رأسه خوذة، وكان على اتصال دائم بمقر القيادة في مون لاسال، ينتظر إشارة إطلاق النار. وكان مقر القيادة هذا بدوره على اتصال هاتفي مفتوح مع مكتب رئيس الوزراء في القدس حيث إن شارون وعد ضباط يحاولون أن ينتزعوا من بيغن الإذن باغتنام الفرصة لقتل رئيس منظمة التحرير الفسلطينية.

كان بيغن قد وضع فيتو، لدى تسلم رئاسة الوزراء، على الأمر الدائم المعطى حتى حينه للأجهزة السرية والقاضي بقتل كل زعيم فلسطيني مسؤول عن اعتداءات إرهابية، أياً كانت مكانته. وبالرغم من حقده على رجال كياسر عرفات الذي كان يصفه بـ "حيوان ذي قدمين"، كان بيغن يرفض أن يغطي أصغر عملية يمكن أن تماثل اغتيالاً سياسياً. ومع ذلك، وبناء على طلب شارون، كان قد علق رفضه هذا إبان حصار بيروت. غير أنه، منذ أن وافق على الانسحاب الفلسطيني من بيروت عاد عن موافقته ورفض الخضوع لضغوط شارون.

بعد أن ظل رأس ياسر عرفات ربع ساعة مرسوماً في عدسة ثلاثة مناظير للرماية صعد على متن المركب الأبيض أطلنتيس الذي يرفع العلم اليوناني. أبحر المركب عند الساعة الحادية عشرة والدقيقة الخامسة والأربعين متوجهاً إلى البيريه، وكانت تواكبه الخافرتان الفرنسيتان "دوبلكس" و"جورج ليغ". وهكذا طويت صفحة وجود المنظمة الفلسطينية في لبنان بصورة نهائية.

كان موريس درابر، مساعد فيليب حبيب، على سطح مبنى كهرباء لبنان الذي يشرف

على المرفأ، يتابع صعود رئيس منظمة التحرير الفلسطينية على متن المركب والمنظار أمام عينه. فسمع صرير عجلات سيارة على الأوتوستراد الذي يمر أمام المبنى، فأحنى رأسه، وكان إلى جانبه ضابط إسرائيلي أومأ بيده إلى سيارة من طراز BMW رمادية اللون تسير بسرعة.

-إنه بشير الجميّل؛ إنه يقود سيارته بنفسه. الاهتداء إليه سهل ومن السهل اقتفاء أثره.

صعق درابر بما اعتبره طيشاً كلياً وأمر المسؤولين لديه عن الأمن بأن يتخذوا التدابير اللازمة لتأمين حماية الرئيس الثالث عشر المنتخب في تاريخ لبنان.

وبعد ذلك بيومين زار بشير لآخر مرة المكان الذي سيمسي مقر قيادته السابق في الكرنتينا. كان كل المقربين إليه ينتظرونه وكأس الشمبانيا في يد كل منهم. هنأه كل واحد منهم بدوره. وبعد أن عانقه سليم الجاهل طويلاً لامه على كونه انتخب من قبل برلمان "ولى زمانه".

- لقد دخلت في ماكنة طالما حاربناها. والآن سيصعب عليك أن تخرج منها.

- يا قليل الإيمان - قال له بشير - هل تغيرتُ منذ ستة أشهر؟

- لم يحر سليم الجاهل جواباً.

- لن نتسلم الحكم لأجل الحكم بل لكي نستجيب للعشرات من شهدائنا - قال لهم - يوجد بينكم من سيدعون لممارسة مسؤوليات. ليس وارداً أن يكون هناك أجهزة هاتف في السيارات ولا مجموعات من الحرس الشخصي. سنعيش أبسط عيشة ممكنة. وسيكون كل شيء شفافاً.

22

معاهدة الصلح

في الدقائق التي تلت إعلان نتيجة انتخاب الرئيس، ركب بشير الجميل سيارته الهوندا الرمادية اللون وانطلق مسرعاً إلى المدرسة الحربية حيث كان النواب ينتظرونه بفارغ الصبر. دخل القاعة وهو يطفح بالفرح دخول الظافرين. كان الجميع يريدون تقبيله، ولمسه، والتحدث إليه. وصل إلى المنبر بصعوبة. وبعد أن عانق والده وكميل شمعون الجالس في الصف الأمامي، قعد إلى جانب كامل الأسعد. توقف التصفيق والصياح حين أخذ المذياع وقربه من فمه. شكر المجلس "على الثقة التي منحه إياها" وذكّر بما ينوي أن يفعل.

– لقد قمنا برهان وكسبناه! يجب الآن أن ننكب على العمل. البلد بحاجة ملحة إلى عملية نهوض. سوف أفي بجميع الوعود التي قطعتها! أتعهد بتحقيقها وخصوصاً بتأمين الحرية والأمن لجميع اللبنانيين في الـ 10452 كيلومتراً مربعاً. ستواجهنا صعوبات، وسنذللها!

أعيد التيار الكهربائي في اليوم التالي إلى بيروت الغربية. وعادت فجأة إلى الظهور الخضار والفواكه واللحوم إلى "الجيب" بكميات جعلت الأسعار تتدنى بسرعة هائلة. واستعاد الهاتف حرارته. وحصلت زحمات سير خانقة قطعت معبر المتحف التي أمسى سالكاً أمام أعين الجنود الفرنسيين الساهرة. لم تعد الحرب موجودة وإن كان السلام لم يأت بعد، ولكن المدينة استعادت الحياة تماماً.

ففي الأيام التي تلت كان الرئيس المنتخب الذي يرتدي بذلة سماوية اللون، وأمين الذي يرتدي بذلة فاتحة اللون، والشيخ بيار الذي يرتدي بذلة كحلية اللون لصيقة بجسمه، يتقبلون التهاني التقليدية في بكفيا. في الباحة الصغيرة للبيت القديم ذي الحجر الأصفر، وفي ظل أشجار الأرز، وتحت النباتات الكثيفة الورق المتدلية من نوافذ ذات أعمدة صغيرة دقيقة، كان الثلاثة واقفين جنباً إلى جنب أمام عدد من الكراسي التي رتبت بشكل نصف دائرة، يستقبلون أفراد الميليشيا، ورجال الأعمال، والتجار، ورجال الدين الذين جاؤوا يشجعونهم ويشكرونهم، أو يباركونهم. ثم كان المهنئون يقعدون حول الفناء الداخلي وهم يتكلمون

بصوت خافت وكأنهم في مكان مقدس. وكان الأنسباء والأصدقاء الأقربون، ورجال الحرس الشخصي، مكتوفي الأيدي، يتفرسون في وجوه الحضور.

عندما هبط الليل، انسحب بشير وذهب مسرعاً إلى الدارة الحجرية التي يبنيها في مكان غير بعيد عن بيت والده. كان فريقه يعقد اجتماعاً في الطبقة السفلية، الوحيدة التي كانت صالحة للاستعمال، لكي يضع تفاصيل برنامج حكومته المقبلة، ويناقش الأولويات أو يحدد أسس خطاب التنصيب. كانت علاقات الرئيس مع حزب الكتائب تشكل غالباً محور المناقشات. وأجمع الفريق بسرعة على ضرورة الفصل بين الكتائب والدولة بغية ضمان حرية العمل لبشير. وفي إحدى تلك المحادثات، باح جوزيف أبو خليل للرئيس المنتخب بأن الشيخ بيار عرض قبيل الانتخاب بالضبط فكرة استقالته من الحزب لصالح أمين إذا تم انتخاب بشير. فانتفض بشير وقال غاضباً:

– في هذه الحالة، أستقيل أنا من الرئاسة وأستلم حزب الكتائب.

– كانت الكراهية بين الأخوين قد وصلت إلى مستوى لم تعرفه قط من قبل. كان بشير يرفض أن يذهب أمين إبان الحصار إلى بيروت الغربية ليقابل فلسطينيين. لم يكن يثق بتاتاً بأخيه الأكبر ويتهمه بأنه يريد الوقوف في وجهه سياسياً، كان فادي أفرام قد أعد بمساعدة من زاهي البستاني، في الأيام الأخيرة من شهر آب، عشاء في بيته في برمانا مع الشقيقين وزوجتيهما، في محاولة لإزالة التوتر من علاقاتهما، ولكن دون جدوى. وغداة التصويت، أراد جوزيف أبو خليل أن يغتنم فرصة الفرحة بالنصر، فحاول أن يزيل الجفاء بينهما مقترحاً على بشير أن يكلف أمين بمهمة لدى البلدان العربية. فرد عليه الرئيس المنتخب بصوت جليدي قائلاً:

– لن يحصل مني على شيء. وخصوصاً في العلاقات مع العرب. لن يكون له حتى مركز سفير.

كان تأليف الحكومة يشغل بال المحيطين ببشير. فالجذرية التي اعتمدتها المعارضة بقيادة وليد جنبلاط وصائب سلام ونبيه بري، كانت تعيق الاتصالات إلى حد ما. وكان المسلمون قد عقلنوا أعمالهم، وراحوا يحاولون الجمع بين بيروت الغربية ولبنان الشمالي، المسيحي بقيادة سليمان فرنجية، والسني بقيادة رشيد كرامي. وكان هذان الأخيران قد أعلنا عدم اعترافهما بالنظام الجديد ودعيا إلى مقاطعة الدولة والسلطة التنفيذية.

ونددت حتى إذاعة دمشق بانتخاب "الرئيس الذي فرضته حراب العدو، في ظل الاحتلال وتحت حمايته".

وقام بعض الوزراء المسيحيين مثل ميشال المر وميشال إده باتصالات سرية، محاولين

تهدئة الخواطر في مرحلة أولى. ووضعت الولايات المتحدة كل ثقلها لدعم بشير، الذي انتخب "ديمقراطياً"، الأمر الذي سهل على وزارة الخارجية أن تدعمه رسمياً. وسمحت واشنطن لفيليب حبيب بأن يلعب دور الداعي إلى المصالحة. فاتصل هاتفياً بصائب سلام ودعاه إلى مباشرة حوار مع بشير الجميّل:

– إنه يمثل "الشرعية"، قال الأميركي. فهو رئيس منتخب وهو على استعداد لمناقشة كل شيء: هذه كلها أسباب، تدعوكم إلى التحدث معه.

وأعلنت واشنطن في هذا السياق عن تقديم مساعدة مدنية وعسكرية للبنان، موضحة حتى أن الثانية يمكن أن تتخذ شكل إرسال مستشارين عسكريين إلى لبنان لأجل تدريب الجيش. وطلبت الولايات المتحدة سراً من العربية السعودية أن تتدخل هي أيضاً. فحضر علي الشاعر إلى بيروت رسمياً لكي "يصالح باسم الملك فهد" المعارضة السنية مع بشير الجميّل.

مرّ السفير السعودي بدمشق في طريقه إلى بيروت تحاشياً لاستعمال مطار بيروت الدولي الذي كان الإسرائيليون قد أعادوا فتحه عشية ذلك اليوم. كانوا قد نظفوا المدارج، وأزالوا الألغام من الأرض الملاصقة لها، وأقاموا منشآتهم الخاصة للمراقبة ولمساعدة الملاحة الجوية.

استقبلت نتائج الانتخابات بارتياح في إسرائيل، وسارع مناحيم بيغن إلى تهنئة الرئيس الجديد برسالة محررة بالإنكليزية يقول فيها:

"نحن مسرورون من أعماق قلبنا بانتخابكم. فليأخذ اللّه بيدكم، أيها الصديق العزيز، في رسالتكم التاريخية العظيمة لأجل نيل حرية لبنان واستقلاله – صديقكم مناحيم بيغن".

بيد أن هذا الارتياح كان مشوباً بحذر كبير من جانب المعلقين. وكانت أوساط رئيس الوزراء تقول إنها "تعمل بوحي الحرص على عدم فعل أو قول أي شيء يمكن أن يربك بشير الجميّل في مهمته الشاقة للمصالحة الوطنية".

لكن وصول ابن الجميّل الثاني إلى رئاسة الدولة كان قد ترك طعماً مرّاً في فم ضباط جهاز أمان الذين كانوا مكلفين، لدى القيادة الشمالية، بتأمين الاتصالات اليومية اللبنانية. لم يطلق "الكتائبيون" رصاصة واحدة، ولكنهم فازوا. وانفجرت نقاشات علنية لأول مرة داخل المعسكر الإسرائيلي. ووجه عدة ضباط انتقادات علنية إلى حكومتهم، وخصوصاً إلى وزير الدفاع، بسبب عدم المراهنة إلا على حصان واحد هو القوات اللبنانية. ودعا بعضهم إلى ضرورة الإسراع في إجراء اتصالات عسكرية بمسيحيين آخرين مثل داني شمعون. وعزز أمان اتصالاته بشيعة الجنوب وبالدروز.

وخلال شهري يوليو – تموز و أغسطس آب، كانت الصحافة الإسرائيلية تتحدث كثيراً عن المضايقات التي يقوم بها "الكتائبيون" ضد الدروز.

وتحدثت بعض المقالات بالتفصيل عن تدخل ضباط إسرائيليين لمنع المسيحيين من الاعتداء على الدروز. وأعربت افتتاحيات هذه الصحف، بعد الانتخاب، عن شكوكها في قدرات الرئيس الجديد على إجراء مصالحة بين مختلف الطوائف الموجودة في لبنان.

وكشفت صحيفة يديعوت أحرونوت أن القوات اللبنانية تلقت منذ سنة 1976 عوناً عسكرياً هاماً من إسرائيل وأنه ينبغي أن لا ينسى الرئيس الجديد ذلك".

وشنت المعارضة العمالية الإسرائيلية حملة على مناحيم بيغن. وطلب شيمون بيريز، في برنامج تلفزيوني، تأليف لجنة تحقيق للنظر في كيفية اتخاذ الحكومة المصغرة قراراتها إبان الحرب في لبنان. "يجب أن نعرف لماذا تحولت العملية التي بوشرت يوم 6 يونيو – حزيران الأخير، والتي وصفت بأنها عملية محدودة لأجل الدفاع عن النفس، إلى حرب"، قال هذا وأضاف: "إن رحيل قوات منظمة التحرير الفلسطينية عن بيروت هو فوز كبير تشارك فيه إسرائيل الولايات المتحدة بفضل المفاوضات التي أجراها فيليب حبيب. والمسألة الآن هي أن نعرف ما إذا كان بلوغ هذا الهدف يستلزم شن حرب وقصف بيروت على مرأى من كاميرات العالم أجمع [...]. لو عاد الأمر إلي شخصياً لامتنعت عن توجيه برقية تهاني إلى بشير الجميّل".

أثار هذا التصريح ردة فعل شديدة في أوساط رئيس الوزراء كما عند الليكود. فهو كان يشكك في أهداف الحرب، وفي سلوك شارون – بيغن، وكان خصوصاً يقلل إلى حد كبير من دور تل أبيب في ترحيل الفلسطينيين وينوه بدور الأميركيين. أدرك مناحيم بيغن على الفور، وهو السياسي المحنك القديم، أن هذا الهجوم العمالي سيحظى سريعاً بدعم التيارات الشعبية التي كانت تناضل ضد الحرب. فكان عليه بالتالي أن يحقق انتصاراً سريعاً لا مراء فيه لكي يهدئ الخواطر. وهذا الانتصار لم يكن في نظره إلا عقد معاهدة صلح مع لبنان كان بشير قد وعده بها. فهو الآن في الحكم ويمكن أن يفعل ذلك. وطلب رئيس الوزراء من الموساد أن يرتب له اجتماعاً مع بشير في أقرب وقت ممكن.

كان شارون وهيئة أركان الجيش الإسرائيلي منهمكين خصوصاً في "تنظيف" بيروت الغربية. واجتمع الجنرالات رفائيل إيتان وموشيه ليفي وأفنير آزولاي ببشير الجميّل سراً في منزل جوني عبدو كما هي العادة، يوم 27 أغسطس ـ آب، بعد الظهر. بعد أن هنأ رفول الرئيس المنتخب بكلمة موجزة، دخل مباشرة إلى صلب الموضوع:

– علينا أن نباشر تنظيف بيروت الغربية منذ الأسبوع القادم، فور رحيل آخر الفلسطينيين والسوريين. يجب أن نتأكد من أنه لم يبق أحد.

– سيتكفل الجيش اللبناني بذلك . فهو لم يعد كما كان قبل الانتخاب ، أكد بشير . أستطيع أن أعطيه الأمر بالدخول والتفتيش . أريد أن أستفيد إلى الحد الأقصى من الوضع الجديد . قد تعترضنا مشاكل مع " المرابطون " أو غيرهم . لكنني آمل فقط بأنكم لن تقولوا لنا حينذاك إن هذه المشاكل بين لبنانيين . علينا أن ننظف المنطقة ، وأن ننظفها جيداً وليس كما جرى مع الدروز ، أي أن تدخلوا منطقة ولا تنزعوا سلاحها .

كان قد جرى منذ صباح ذلك اليوم انتشار خجول للواء الثامن بقيادة العقيد ميشال عون في وسط المدينة دون حصول صدام . كان الضباط يتشاورون مع أفراد الميليشيات قبل أن يقدم الجنود اللبنانيون على التمركز في مبنىً ما ، تحاشياً لأية مجابهة ، وكان المسلحون ينسحبون محتفظين بأسلحتهم .

– حسب معلوماتنا ، إن " المرابطون " سيرحلون لأنهم خائفون – قال رئيس أركان الجيش الإسرائيلي – وقد قلت لفيليب حبيب إننا لن نمنعهم من الرحيل .

– سنتقدم رافعين العلم اللبناني . وإذا شاء أحد أن يساعدنا فلن يكون في وسعي أن أمنعه ، قال الرئيس المنتخب مبتسماً .

– نحن من جانبنا ، لن نفرق بعد حصول الانتخاب بين الجيش اللبناني والقوات اللبنانية . يجب أن يجتمع فادي أفرام مع دروري وضباط من الجيش لوضع ترتيبات هذه العملية . نحن نعدّ منذ الآن انتشارنا في البقاع عند قدوم الشتاء . ظروف العيش صعبة هناك ، وربما احتجنا إلى أبنية عامة . سنعطيكم لائحة بذلك . وإذا قلتم لا ، فإننا سنعود إلى بلادنا ، قال إيتان هذا وانفجر ضاحكاً .

– قضية بيروت هي مشكلة تكتيكية وتقنية ، ولم تعد مشكلة سياسية الآن . والأمر مختلف في البقاع . فهل يمكن لنا أن ندرس القيام بعمل على مراحل للحصول على انسحابات متزامنة؟ اقترح بشير .

– نستطيع البقاء في مواجهة السوريين طيلة الشتاء ، أكد رفول ورسم حركة كبيرة بيده . المفاوضات معهم ستكون شاقة جداً . لهذا السبب نستعد نحن لتمضية الشتاء هناك . وإذا اعتدى علينا السوريون أو الإرهابيون ، فسنتخذ التدابير اللازمة رغم البرد .

– إذا أخذنا في الاعتبار هزيمة الفلسطينيين وهبوط معنويات السوريين ، يمكن لنا أن نفكر بإقامة حصار حول البقاع ، وبأن نقوم بعمل عسكري في مرحلة لاحقة . سيمضي فيليب حبيب في إجازة ، ثم يعود ليحضر حفل تنصيبي . طلبت منه أن يتصل بالسوريين ليكتشف ما عندهم من مشاريع في البقاع وفي الشمال ، بعد أن انتهت مشكلة بيروت . واقترحت عليه أيضاً أن يسألهم عما هي شروطهم كي يخرجوا .

– نحن موافقون من حيث المبدأ – قال إيتان – لكن حصار البقاع سيلحق ضرراً بالمدنيين أكثر من العسكريين .

– سيضغط المدنيون على العسكريين حتى يرحلوا .

– حسناً ، يمكن لنا أن نرتب هذا معاً ، قال إيتان .

– ممتاز . لنتكلم الآن عن الجنوب . أنا رئيس الجمهورية اللبنانية وأود أن أزور المناطق التي أستطيع التجوال فيها بحرية . أود الاستماع إلى الناس . ربما يمكن لنا أن نبدأ بصيدا وصور والنبطية ومعي كل المسؤولين المسلمين كي أفهمهم أنني لست عميلاً لأحد . فيما خص سعد حداد ، أدرس الآن كيفية إعادته إلى كنف الجيش . لقد تحدثت في الأمر مع النائب العام العسكري أسعد جرمانوس . نستطيع أن نطلب منه تمضية نصف ساعة عند جرمانوس وبعد ذلك سيعلن هذا أن سعد حداد بطل وأنه لم يفعل شيئاً يؤاخذ عليه . سأبر بكل التعهدات التي قطعتها على نفسي .

– أطلب منك بإلحاح أن لا يمسه أحد بسوء ، قال إيتان .

– هذا غير وارد . سيعامل هذا الرجل كما يليق ببطل في لبنان . وإذا كنا لم نفعل ذلك حتى الآن ، فلأننا كنا حريصين على تأمين النصاب للانتخاب .

كان رفول يرحب بهذا الكلام بحركة من رأسه . ثم تطرق إلى المسألة الدرزية قائلاً :

– أظن أنهم بعد انتخابك سينضوون تحت رايتك . لقد زارني اثنان من زعمائهم وأكدا لي أنهم جاهزون للتعاون .

– لن تكون هناك مشكلة مع الدروز – أكد بشير – والصعوبات الوحيدة القائمة تتأتى من بضعة عناصر في كل طائفة وهي عناصر تختبئ وراءهم . الأمير مجيد أرسلان يلعب اليوم دور المرشد الدرزي وسنساعده . لقد أخذ الدروز يلتفون حوله . وليد جنبلاط يحاول التشبث بزعامته : وسنفهمه أن عليه أن يمر بأرسلان إذا أراد الحصول على أي شيء .

– هل يمكن أن يساعدك دروز إسرائيل؟

– أجل بالتأكيد! فليتصلوا بالأمير مجيد!

– هل ستقتص من أعدائك؟ سأل رفول .

– نريد أن تأتي كل الأمة إلينا ، أكد الرئيس المنتخب . لقد دعوت داني شمعون إلى العودة . سنجد وسيلة لجمع شمل الجميع : دروز وسنة وشيعة . وإذا شاء أحد الذين حاربوني أن يأتي الآن فعليه أن يأتي عن طريق الذين ساندوني .

انتشر الجيش اللبناني في بيروت الغربية في جو من الهدوء . كان بشير قد طلب ونال أن يكلف العقيد ميشال عون بهذه العملية . كان آمر اللواء الثامن ، قبل اجتياز خط التماس ، قد

أوفد مبعوثين إلى مسؤولي المرابطين ليشرحوا لهم تصميمه و «تمنّيه» أن يتمكن من العمل دون حوادث. وكانت الميليشيات السنية الناصرية قد قبلت أن تنسحب وأن تترك للجيش حرية العمل. كانت هذه أول مرة منذ اثنتي عشرة سنة يسيطر فيها الجنود اللبنانيون، الذين استقبلهم السكان بحرارة، على قلب المدينة وصولاً إلى المطار الدولي. واطمأن السكان إلى هذه السيطرة دون إطلاق رصاصة واحدة، على الخرائب والشوارع التي تقطع أوصالها السواتر الترابية التي يكسوها العشب. فعادت مئات العائلات إلى المنطقة الغربية التي كانت قد غادرتها في أول الصيف. وسرعان ما غص معبر المتحف ومعبر المرفأ بالعائدين. وأخذت المتاجر تفتح أبوابها والحياة تستعيد مجراها الطبيعي. وفي 30 أغسطس - آب ابتدأت عملية نزع الألغام من مناطق القتال.

في أواخر شهر أغسطس - آب ذهب مناحيم بيغن ليمضي عطلة تدوم أسبوعاً في نهاريا، المحطة المائية الواقعة في شمال إسرائيل، على بعد نحو عشرة كيلومترات من الحدود اللبنانية. كانت هذه البلدة قد تعرضت السنة الفائتة لقصف فلسطيني بصواريخ كاتيوشا. وكان رئيس الوزراء قد أمضى فيها أسبوعاً في فندق كارلتون لكي يعبر عن تضامنه مع السكان. فأعجبه المنتجع وقرر أن يعود إليه.

كان بيغن لا يزال يشكو من ألم في وركه، فكان يمضي أوقاته في المطالعة وفي سماع الموسيقى الكلاسيكية في الجناح الرئاسي المطل على البحر، الكائن في أعلى طبقات الفندق. رتب الموساد لقاء بيغن - بشير في مصنع للعتاد شبه العسكري ليس بعيداً عن نهاريا، يوم أول سبتمبر - أيلول عند الساعة العاشرة ليلاً.

وفي هذا اليوم، اتصل سفير الولايات المتحدة لدى إسرائيل صموئيل لويس، قبل الظهر، بمناحيم بيغن هاتفياً وأخبره بقدوم وزير الدفاع كسبار واينبرغر إلى إسرائيل بعد الظهر. كان هذا ينقل رسالة من الرئيس ريغن. فاقترح بيغن عليه أن يأتي بصحبة واينبرغر إلى نهاريا.

كان جورج شولتس قد أعد بشكل سري جداً، منذ وصوله إلى وزارة الخارجية، دراسة عن خطة للسلام في الشرق الأوسط. كان يقترح في هذه الخطة، بالترتيب، تجميد الاستيطان اليهودي في الأراضي المحتلة، ومباشرة مفاوضات بين إسرائيل والفلسطينيين المقيمين في الضفة الغربية وغزة. كان يجب أن تهدف هذه المفاوضات إلى أن تقدم في هذه الأراضي إدارة ذاتية تنضم إلى الأردن تحت شكل فيدرالي بعد فترة خمس سنوات. وكان النص يلوح بإعادة الجولان إلى سورية.

كان هذا الاقتراح يتيح للولايات المتحدة أن تحسن صورتها عند البلدان العربية بعد أن

ساءت هذه الصورة من جراء الدعم الذي قدمته واشنطن لتل أبيب. وفوق ذلك، بما أن إسرائيل كانت في ذروة سلطانها، فلن يكون في وسع أحد أن يتهم الولايات المتحدة بتعريض الدولة العبرية للخطر. وعلى عكس أساليب ألكسندر هيغ، كان شولتس قد رضي بأن يترك للرئيس الأميركي أبوة الخطة. واقترح اغتنام فرصة غياب موشيه آرانز ذي النشاط الفياض عن واشنطن، لنقل الخطة مباشرة إلى الإسرائيليين، عشية إعلانها، كي يقطع الطريق على الجميع. هذا ما كان كسبار واينبرغر قد جاء من أجله.

كان وزير الدفاع يعلم تماماً أن هذا المشروع حافل بطلبات لا تقبل بها إسرائيل. صحيح أن الأميركيين يرفضون ضمناً إنشاء دولة فلسطينية، لكن إنشاء حكومة تتمتع بالحكم الذاتي وبالمشاركة مع الأردن كان يؤدي إلى الشيء ذاته مبدئياً. وكانت حبة الكرز الموضوعة على قالب الحلوى في هذا النص هي بالنسبة إلى الأميركيين إعادة النظر في وضع القدس القانوني «الذي يجب أن يتقرر بعد إجراء مفاوضات».

«كان هذا أشبه بمطرقة ضخمة نزلت على صدر بيغن»، قال هذا فيما بعد[1] أحد المقربين إليه وهو يروي ما دار في الحديث بين رئيس الوزراء الإسرائيلي ووزير الدفاع الأميركي - وأضاف:

«احمرّ وجه بيغن غيظاً، ورفض الخطة جملة وتفصيلاً. ليس فقط بسبب مضمونها الذي ألقى عليه نظرة بالكاد، بل ولأنه أحس بأنه أهين وغُدر به حين رأى مشروعاً يتعلق بمستقبل إسرائيل يوضع بصيغته النهائية في واشنطن دون استشارة تل أبيب».

وفيما كان مناحيم بيغن يستأذن ضيوفه ببرودة للخروج، كان بشير الجميل ينتظره منذ أكثر من ثلاثة أرباع الساعة في إحدى قاعات الاجتماع العارية الجدران في معمل أسلحة نهاريا. كانت هذه أول مرة في العلاقات بين القوات اللبنانية والإسرائيليين يعقد فيها اجتماع في مثل هذا المكان. لكن بشير كان ألح كثيراً على الموساد كي يحاط هذا اللقاء بالسرية التامة. ذلك أن وجود رئيس لبنان العتيد على الأرض الإسرائيلية بعد أقل من أسبوع على انتخابه كان من شأنه أن يزرع الخلاف نهائياً بينه وبين العالم العربي. كان مثال أنور السادات قد راود مخيلة بشير عدة مرات.

قبل ذلك ببضع ساعات، عند هبوط الليل، كانت مروحية إسرائيلية من طراز CH-53 ياسور تابعة لسرب المروحيات الأول في سلاح الجو الإسرائيلي قد جاءت سراً لنقل بشير الجميل وستة من معاونيه من محطة كهرباء الزوق. وقد أنزلتهم بعد نصف ساعة في مطار المروحيات العسكري في نهاريا. ونقلتهم من هناك مجموعة سيارات عادية يقودها رجال

(1) لألان مينارغ سنة 1992.

من الموساد إلى المصنع حيث كان ينتظرهم آرييل شارون، وإسحق شامير، ودافيد كمحي، وأبراهام تامير، وساغي، وإسحق حوفي، وناحوم عدموني، ومناحيم نافوت.

كان في وسط قاعة الاجتماعات طاولة كبيرة بيضوية الشكل ومجوفة في وسطها، وقد وضعت عليها كؤوس الشمبانيا وصحون البسكويت. هنأ الإسرائيليون بشير على انتخابه. وتوزعوا مجموعات صغيرة وراحوا يتحدثون في جو ودي جداً، منتظرين وصول رئيس الوزراء. وصل بيغن حوالى الساعة الحادية عشرة مساءً مقطب الجبين، يعرج وهو يتوكأ على عصاه. كان الرئيس المنتخب اللبناني يرتدي قميصاً نصفي الكم حسب عادته فتعانق الرجلان طويلاً وتبادلا الشكر. جلس الوفدان حول الطاولة وجهاً لوجه.

وفجأة بات الجو شكلياً أكثر ورسمياً أكثر، الأمر الذي لم يحصل قط في زيارات اللبنانيين سابقاً لإسرائيل.

- كيف الوضع في بيروت؟ - سأل بيغن بشير بينما كان مسؤولو الموساد يملؤون كؤوس الشمبانيا.

- إنه يتحسن. بعد بضعة أيام سنسيطر على المدينة. وسيتيح لنا هذا أن ننتقل إلى المرحلة الثانية مباشرة. يجب أن نتحدث عن هذه على أي حال.

بعد أن امتلأت الكؤوس، وقف رئيس الوزراء بصعوبة ورفع رأسه باتجاه بشير، وخاطبه بالإنكليزية وبلهجة رسمية جداً:

- أود أن أرحب بكم يا سيدي الرئيس. يوم كنت تأتي إليَّ فيما مضى، كنت أناديك "ابني"، والآن صرت رئيس بلادك. عليَّ أن أعبر عن الامتنان لسلفي إسحق رابين ولحكومته. فقد كان التعاون بين إسرائيل والمقاومة اللبنانية نشيداً حقيقياً وتواطؤاً سرياً. كانت منظمة التحرير الفلسطينية قد جلبت إلى لبنان كوارث وقيوداً على السلطة وفقداناً للاستقلال. كان هذا ينذر بالقضاء على المسيحيين في الجنوب وغير الجنوب. وعانى السكان معاناة هائلة من القصف. لقد جئت هذه الليلة لأقول لك إنه لن يهددكم أحد بعد الآن. فالجيش الإسرائيلي سحق منظمة التحرير الفلسطينية، وجردها من السلاح، وطردها خارج لبنان. وانهزم الجيش السوري. لقد دمرنا لهم 405 دبابات، و112 طائرة، ولأول مرة أسقطت طائرة من طراز ميغ 25. وقضينا على 21 بطارية لصواريخ سام 6 وسام 8، كما محقنا وحدات سورية كبيرة. سورية لن تحارب إسرائيل بعد الآن. وحافظ الأسد يعلم أنه إذا نشبت حرب فجيشه سيسحق. سورية لا تعترف بلبنان وليس لها تمثيل دبلوماسي عنده. فيجب أن يغادر كل السوريين لبنان. ثم تأتي المرحلتان الثانية والثالثة. المرحلة الثانية ستكون طرد كل الإرهابيين من الشمال والبقاع. وسنباشرها غداً. والمرحلة الثالثة ستشهد

خروج كل القوات الأجنبية. وأقول بوصفي رئيس وزراء إسرائيل إن القوات الإسرائيلية هي قوات أجنبية أيضاً. لقد أصابت عملية "سلامة الجليل" نجاحاً عظيماً. نحن الآن في نهاريا دون أن نخشى أقل تهديد. في المرحلة الثالثة يجب أن يغادر الجيش السوري لبنان. ونحن سنغادره في الوقت ذاته، ولأجل ذلك أمامنا خيار بين حلين. إما ألاّ نغادر لبنان قبل أن يغادره السوريون، وإما أن ننسحب وإياهم في الوقت ذاته. لقد اخترنا الحل الثاني لأنه يبدو لنا أكثر إيجابية. سيستغرق الجلاء أسبوعين. كل يوم تغادر أرضكم وحدة إسرائيلية ووحدة سورية. نريد أن نعيش في سلام معكم، وعند انتهاء المرحلة الثالثة سيكون هناك لبنان جديد أو لبنان مجدَّد. وسيكون هناك أمل جديد بالمستقبل بعد الآلام الطويلة.

تأثر اللبنانيون كثيراً باحتفالية الخطاب وبموقف الشخصية التوراتية الوقور جداً الذي وقفه مناحيم بيغن بينما كان يتكلم.

- سيكون هناك لبنان سيد، حر، ديمقراطي، مستقل، أردف بيغن. يجب أن يكون لديه جيش قوي مزود بأكثر الأسلحة تعقيداً وأحدثها. وأنصحكم كصديق بأن تعملوا على نحو لا يجعله يتفكك.

يجب أن يكون الضباط مخلصين للرئيس الذي هو قائدهم الأعلى. إن مبدأ وضع الجيش تحت إشراف مدنيين هو البناء الديمقراطي. ويجب أن يكون للبنان أجهزة أمن داخلي مناسبة كي لا يأخذه أحد على حين غرة. نحن على استعداد لمساعدتكم في إيجاد كل هذا. سيدي الرئيس، بلدانا في حالة حرب من سنة 1948 حتى هذه الليلة. نحن أصدقاء ودولتانا وحكومتانا لا تزالان في حالة حرب. فيجب أن نضع حداً لهذه المفارقة. سيدي الرئيس، إن إسرائيل تستحق أكثر من أميركا وفرنسا وباقي العالم. التي لم تساعدكم. أما نحن فقد ساعدناكم، ولا ننتظر شيئاً غير عرفان الجميل. لقد قمنا بما هو واجب علينا. لم نتردد في وعدنا لكم بمساعدتكم أو بإنقاذكم وأعدنا لكم حريتكم. وقد وعدناكم بذلك من أعماق قلبنا. أعلن الرئيس شمعون أن لبنان لن يوقع على معاهدة صلح مع إسرائيل؛ وقد فوجئت كثيراً بهذا الكلام. وكان هذا بمثابة دواء مرّ يجب أن أبتلعه حين قال إن لبنان فقير ويحتاج إلى المساندة العربية. مصر فقيرة وتحتاج إلى العالم العربي أكثر من لبنان. ولكنها مع ذلك وقعت على معاهدة صلح. هل إن المال هو الذي يقرر نوع العلاقة التي يجب أن تقوم بيننا؟ ويجب أن تكون علاقاتنا مبنية على الكرامة والشرف. يجب الانتهاء من الحرب، يجب إلغاؤها إلى الأبد. لهذا يجب علينا أن نوقع معاهدة صلح. نحن رجال أحرار وأمتان حرتان. لا حرب بعد الآن! ولا سفك دماء! والسلام للجميع! أريد أن أقول لكم إن من واجبنا، وباختياركم الحر وإرادتكم، أن نوقع على معاهدة صلح باللغتين العبرية والعربية.

سنوقع على النسخة العبرية في القدس وعلى النسخة العربية في بيروت. لقد صرنا أصدقاء إبان هذه الحرب. قلت لك من قبل إنني أعتبرك مثل ابني. والآن صرت رئيساً ولم يعد في وسعي أن أدعوك هكذا. دع صداقتنا تنعكس على أمتينا. لقد بنينا هذه العلاقة، فلنبن علاقات في حقول الاقتصاد والصناعة... يمكن أن نقيم وحدة اقتصادية بين بلدينا. ويمكَن لنا أيضاً أن نعمل معاً في الحقل الدولي. يمكن أن تقوم بيننا صداقة في الشؤون الدولية، بصرف النظر عن معاهدة الصلح. هذا ما أتوقعه هذه الليلة. نأمل أن نحصل على السلام في الشرق الأوسط. سورية لن تجرؤ على مهاجمة إسرائيل أو لبنان. والأردن لن يهاجمنا، أتوقع مرحلة جديدة من السلام في الشرق الأوسط، على مدى عشرين سنة أو أربعين سنة أو أكثر. لا يقدر أن يتنبأ أحد بذلك. لديكم مشاكل. أنا مدرك للانتقام الذي يمكن أن يتبع. لكن أموراً عظيمة قد أنجزت. لقد سحق أعداؤنا. فلنشكر اللّه العلي القدير على ما تحقق. لقد خسرنا 340 رجلاً من خيرة رجالنا، من مغاويرنا، الذين شعارهم "اتبعوني" لا "إلى الأمام سر". وجرح عدة مئات من جنودنا أو أمسوا معاقين. لقد خسرنا كثيراً من الدم في جيل واحد من الإسرائيليين! إنها مذبحة! إلا أن هذه مهمة يجب أن يؤديها الإنسان رغم الألم. نحن سعداء لكونك أنت، بشير الجميل، قد انتخبت بصورة ديمقراطية رئيساً للبنان. ويمكن لنا أن نقول إن لك صديقاً في القدس وأن لي صديقاً في بيروت. إن بلدينا العريقين والمتمدنين، قد تألما دوماً لأجل الحرية والاستقلال. فلنتبادل الوعد بالسلام والحرية.

وقعد مناحيم بيغن وسط صمت مدهش الوقار. ثم وقف الرئيس المنتخب اللبناني بدوره وقال:

– لقد ساعدتمونا مرحلة بعد مرحلة حتى بلغنا المستوى الذي نحن عليه الآن. وقلتم لنا إنكم لن تتخلوا عنا، وحصلنا على عونكم. كنا محظوظين إذ نلنا دعمكم غير المشروط. اليوم صار صديقكم رئيس الجمهورية اللبنانية، سنقوم خطوة خطوة بإخراج الـ 500000 فلسطيني الموجودين في لبنان. لن يبقى إرهابيون على أرضنا أبداً. في المرحلة الثانية سيخرج السوريون من لبنان، لكننا لن نرضى بأن يكون الانسحاب السوري والانسحاب الإسرائيلي على مستوى واحد. أما المرحلتان الثالثة والرابعة، فستخصصان للتطبيع بين بلدينا. لسنا بحاجة إلى تطبيع بين شعبينا. وسأعمل ما بوسعي، كرئيس للدولة، حتى تتحقق أحلامنا، وحتى نطبق سيرورة سياسية تفضي إلى رفاهية شعبينا. لقد انتخبت دون أن أتورط مع أحد. وأحاول أن أحقق الوعود التي قطعتها لشعبي. لقد خسرت ابنتي، و5000 رجل، و100000 مدني. علينا أن نضطلع بعملية السلام. علينا أن نفعل ذلك بأنفسنا. سنتفاوض

على ذلك وسنذلل كل الصعوبات التي تواجهنا كي نصل إلى حيث نريد الوصول. لقد انتصرنا في الحرب بفضل مساعدتكم ودعمكم. وقد أدى الجمع بين كل هذا إلى نتائج جيدة. "لقد كنت "سيداً كبيراً"" [1]. ختم بشير كلامه بهذه العبارة وهو ينظر إلى رئيس الوزراء. كان بيغن يحدق ببشير بينما كان هذا يتكلم، ولم تبدر منه أية ردة فعل. فطلب الاختلاء بالرئيس المنتخب وهو مقطب الجبين. فأشار بشير إلى جورج فريحة، الذي كان يسجل ملاحظات، وإلى جوزيف سعادة بأن يرافقاه. وصحب مناحيم بيغن كل من آريل شارون وإسحق شامير، وإسحق حوفي، ويهوشع ساغي، ودخل الجميع قاعة للاجتماعات أصغر من الأولى وعارية مثلها. قعد الإسرائيليون واللبنانيون وجهاً لوجه حول الطاولة.

– أود كثيراً أن أوقع معاهدة صلح معكم، بادر بيغن إلى القول وهو ينظر إلى بشير. يجب درس هذه المسألة. الناس عندنا يسخرون منا، ويسألون: "أين بشير؟ لماذا لم ينطق بكلمة واحدة؟". يجب أن يأتي السلام بصورة طبيعية. نحن نعمل معاً في الخفاء منذ سبع سنوات. لقد تسلمت مهامي ووعدت بمساعدتكم. وظهرت على التلفزيون بعد انتخابك ولم تقل كلمة واحدة في صالح إسرائيل. قل شيئاً، بين حين وآخر. قل لأصدقائك أن يقولوا شيئاً. قولوا إنه يجب أن لا يعود هناك حرب بين الإسرائيليين واللبنانيين.

– بدأنا نهيئ الجو – قال بشير وكان يبدو متضعضعاً تماماً – سنقوم بتنظيم تظاهرة...

– في هذه التظاهرة، سنعبر عن مشاعرنا بصورة غير مباشرة، قال جورج فريحة متدخلاً لمساعدة بشير.

– لا أظن أن السوريين في وضع يسمح لهم بمهاجمتكم – أردف رئيس الوزراء، متعمداً تجاهل ما قاله الاثنان – سنخرج السوريين. إن حضورهم "كابوس" [2]. ويجب أن ندخل عهد صداقة بيننا. إذا كان هذا يعرقل حرية حركتكم، قولوا لنا. وفي مثل هذه الحال، سيكون من الواجب أن يمر وقت طويل حتى تتحسن علاقاتنا. هل تعلمون أن دمشق أعلنت أن السوريين سينسحبون من لبنان؟ لقد هددنا السوفيات مرتين بواسطة السفارة الفنلندية في إسرائيل. لم أردّ عليهم لأن البرقيات كانت بلا عنوان ولا تاريخ.

– عليَّ أن أواجه صعوبة ما – قال بشير محاولاً أن يفسر – عندنا مليون ونصف مليون من المسيحيين ما برحوا تحت السيطرة السورية والفلسطينية، فإذا صدر عني تصريح سياسي فإنه سيسبب لهم مشاكل، قال هذا بلهجة متزنة.

– ليس في وسع السوريين أن يشنوا حملة هامة – أجاب بيغن – إن الناس عندنا، كما

(1) قيلت بالفرنسية.
(2) قيلت بالفرنسية.

جنودنا، يسألوننا دوماً "لماذا نحن هنا؟". أنتم أشدتم على شاشة التلفزيون بالجنود الأميركيين والإيطاليين والفرنسيين فلماذا لم تقولوا كلمة واحدة عنا؟ السوريون سيغادرون لبنان تحت الضغط. أما نحن فسنغادر بملء إرادتنا ولم نسمع كلمة شكر واحدة أو كلمة تقول إننا أنقذناكم إن صمتكم قد يؤثر على علاقاتنا المستقبلية. لم أطلب منكم شيئاً قبل الانتخابات. أما الآن، فأنت الرئيس، وهذا وضع آخر. قال شمعون إنه لا يمكن عقد معاهدة صلح بين لبنان وإسرائيل. وقال والدك إن لبنان جزء غير منفصل من العالم العربي. إذا كنت لا تريد معاهدة صلح، فقلها! نحن عشنا ثلاثة آلاف وسبعمائة سنة بدون سلام، وفي وسعنا أن نستمر.

- هل صحيح أن المسلمين اللبنانيين يشترطون عدم عقد معاهدة صلح كي يتعاونوا معك؟ سأل شارون ظاناً أنه يساعد بذلك بشير.

- هذا صحيح!

- إذاً أنت تذعن لابتزاز وتهمل الصداقة! صاح بيغن.

- البلد سيتفكك إن أنا أدليت بتصريح كهذا.

- لا أبغي تفكيك بلدكم - رد بيغن بلهجة ساخرة لاذعة - فليبارككم اللّه. فلننه هذا الاجتماع!

بدأ رئيس الوزراء ينهض عن كرسيه، فبادر آرييل شارون إلى الكلام كي يستأنف النقاش تحاشياً لحصول قطيعة لا عودة عنها.

- رضينا بأن لا نتدخل في الانتخابات، وها أنت الآن قد تم انتخابك. فإذا لم نعقد معاهدة صلح فإن وحدة لبنان ستتعرض للخطر في الجنوب.

- كان الاستشهاد بالدور المعطى لسعد حداد من قِبَل الدولة العبرية نقطة هامة في نظر بيغن. فعاد وقعد على كرسيه.

- أنا أريد ما تريدون - قال بشير بلهجة مصالحة وكان وجهه شاحباً - يوجد بيننا سوء فهم حول الأسلوب والطريقة، إذ إننا في الحقيقة، نسعى إلى هدف واحد. أقترح عليكم تأليف لجنة مشتركة تضم اثنين منا واثنين منكم، وتكون مهمتها صياغة نصوص السلام وتحديد الروزنامة الواجب التقيد بها.

- لكن لماذا لا تعبر عن رأيك حول ضرورة معاهدة صلح بين إسرائيل ولبنان؟ - عاد يقول بيغن بصوت هادئ - قلت إن على الحكومة اللبنانية أن تفصل في هذا الأمر. حسناً! لكن، عبّر عن رأيك الشخصي، وبعد ذلك، ذكّر بأن لبنان بلد ديمقراطي وأن القرار النهائي هو للحكومة. إن عدم سماعك تقول هذا علناً هو خيبة أمل كبيرة لي. لقد فعلنا كل ما يمكن

أن تفعله أمة لأجل أمة أخرى. لماذا لا تقول فقط إن الصلح يجب أن يحصل؟ لماذا تتهرب من هذا الموضوع؟ لقد بعثت إليك برسالة لم أنشرها كيلا أصدمك.

- الروزنامة لها أهمية كأهمية الموضوع بالذات، أكد الرئيس المنتخب.

- هل تريد معاهدة صلح أم لا؟ سأل بيغن بشير بلهجة خشنة؟

- بلى! لكن يجب أن نحدد الأساليب.

- سأوجز كيفية رؤيتي للأمور - قال رئيس الحكومة الإسرائيلية - يجب أولاً أن يصدر عنك تصريح يؤكد ضرورة معاهدة صلح. ثم تدور مباحثات لأجل الوصول إلى ذلك. أطرح هذين الاقتراحين على بساط البحث.

- سندرسهما، قال بشير دون أن يلتزم بأكثر من ذلك.

- سأعين إسحق شامير وآرييل شارون عن الجانب الإسرائيلي. وعليك أن تعين اثنين من جانبك.

- جيد جداً. سندرس قيام تحالف شامل.

- هذا ليس المشكلة! صاح بيغن وبدرت منه حركة توتر عصبي - لا تتهرّب من المسألة! أريد معاهدة صلح! فلنحدد الآن تاريخ أول اجتماع للجنة: 15 سبتمبر - أيلول، في بيروت. وأعود فأسأل: متى ستدلي بالتصريح؟ ومتى ستنجز المعاهدة؟

- أود أن أقول لك إننا نفذنا كل ما وعدنا به - أكد الرئيس المنتخب، وكان شحوبه ينم عن غيظه المكظوم - التقارير التي قدمت إليك كانت مغلوطة...

- صحيح أن كل ما طلبناه من بشير قد نفذ: في سوق الغرب و عاليه وكلية العلوم...

- قال شارون متوسطاً - وطلبت منه أن يقبل بدخول بيروت فوافق. هذا مع أنني شخصياً كنت أظن أن علينا نحن أن ندخلها لوحدنا. لقد نفذ بشير كل ما طلبنا منه.

- يسعدني أن أسمع هذا، قال بيغن.

- التقرير الذي قدم إليك عن تصريحات الرئيس شمعون لم يكن دقيقاً، أضاف بشير.

- لقد سمعته شخصياً! - ردّ رئيس الوزراء نافياً - وتكدرت كثيراً لسماعي هذا الكلام من رجل كنا قد وعدناه بأن نساعد لبنان. ووفينا بوعدنا! لقد تعهدت بذلك رغم جميع المخاطر المحيطة به ومن بينها دخول الحرب ضد سوريا. تصريح شمعون يحمل ضرراً كبيراً. لنبحث الآن مسألة سعد حداد. قال لي فيليب إنه سيحال الى التقاعد ويعفى عنه لأنه ليس مجرماً. سعد حداد لبناني مخلص!

– أشاطرك تماماً الاعتبار الذي تكنه لسعد حداد – أكد بشير وقد ارتاح إلى تبديل الموضوع – فإنه فعل في الجنوب ما كنا نفعل نحن في جونيه. كنت دائماً أقدر وأحترم ما يفعل في الجنوب. يوجد سياسياً، مذكرة توقيف بحق سعد حداد وأحمد الخطيب وغيرهما. فأتمنى أن يمثل أمام النائب العام العسكري للإجابة عن بعض الأسئلة وبعدها سيكون حراً وسيكون في مقدوره أن يقرر ما يريد أن يفعل فيما بعد داخل الجيش أو خارجه. يمكن تعيينه ملحقاً عسكرياً في عاصمة كبيرة إذا أراد. سأساند خياره. غير أنه عليه أن يمثل أمام النائب العام حسب الطريقة الشرعية لأن هناك طلباً بهذا المعنى من الحكومة السابقة وعليّ أن أحترم استمرارية النظام.

– حداد قاتل من أجل لبنان، وبدلاً من أن يحظى بترفيع، يتوجب عليه أن يمثل أمام النائب العام! قال رئيس الوزراء بلهجة عصبية. لن أسمح بذلك! هذا عار! الرجل ليس خائناً! إنه صديقي وهو وطني لبناني صالح. لقد عانى الكثير في مواجهة العدو. فلماذا عليه أن يمثل أمام النائب العام؟ وعليك أنت، بوصفك رئيساً، أن ترقيه وتجعله يشارك في عملية المصالحة. ويجب حتى أن يكون عضواً في الحكومة. وعليك أن تفكر أيضاً بقواته! يجب أن يكون مع قواته جزءاً من الجيش الجديد. لقد خاطر بحياته! أنت لم تقابله منذ سنوات، وهو الذي دافع ببسالة عن جنوب لبنان. كان في خطكم! نحن لم نتخلّ يوماً عن أصدقائنا. ولم نتخلّ عنكم.

– نحن نعرف جيداً ما هو جيش لبنان الجنوبي. سعد حداد ضابط جيد، وأفضل من كثيرين غيره من الضباط اللبنانيين – أضاف شارون – كان يسيطر على منطقة يسكنها 150000 شخص. لقد خاطر بحياته وفقد عدداً من رجاله. وهو الآن على رأس لواء يضم 2000 رجل.

– سأستقبل الرائد حداد قريباً – قال بيغن – أطلب منك أن تسجل أننا لن نتخلى عنه. لن يمثل أمام أي نائب عام! لن أسمح بأن توجه إليه أية تهمة. أنت تفكر بتعيينه ملحقاً عسكرياً! سأفكر في الأمر، لكنني لا أظن أن هذا يليق بصديق. أعتقد أنه سيؤثر أن يعيش في إسرائيل إذا لاحقتموه، وأنه سيطلب اللجوء السياسي وسأعطيه إياه. أقترح أن تبحث اللجنة الرباعية هذه المسألة. على أي حال، إذا لم يكن هناك معاهدة صلح فسيكون الوضع القانوني في جنوب لبنان مختلفاً. سنحتفظ في هذه الحال بشريط عمقه أربعون أو خمسون كيلومتراً في لبنان ولن يستطيع أي ضغط أميركي أن يزحزحنا متراً واحداً. معاهدة الصلح ليست هامة لنا فقط بل هي كذلك لكم أيضاً. إنها ستعفينا من احتلال أربعين كيلومتراً من أرضكم، ونحن لا نحتاج إلى هذا إلا لأجل أمننا. أقول لكم كصديق إن علاقاتنا هي الآن في منعطف حاسم.

نحن نحيا هنا منذ ثلاثة آلاف وسبعمائة سنة، لن نطرد من هنا. نحن لا نستعطي السلام، لكننا نتعرض لضغط داخلي قوي جداً.

كان جورج فريجة أول الخارجين من قاعة الاجتماع. ولاحظ اللبنانيون الذين ظلوا في القاعة أن وجهه كان شاحباً ومتشنجاً. وكذلك كان وجه كل من بشير وجوزيف سعادة. وخرج بشير من المبنى صامتاً ودون أن يودع أحداً. وخرج وفده وراءه. نقلتهم السيارات إلى المروحية، وكانت الساعة هي الثالثة صباحاً.

بعد رحيل اللبنانيين، انتقد بيغن مناحيم نافوت "على فشله في تسليم البضاعة الكتائبية" (1).

بعد أن رأى آمان أن تحليله يزداد قوة، راح يضاعف جهوده كي تنفتح السلطة التنفيذية على جهات مسيحية أخرى. وصدرت دعوة في هذا الاتجاه أيضاً عن الجنرال أمير دروري وعن ضباط كبار آخرين في القيادة الشمالية. لكن آرييل شارون ورفائيل إيتان والموساد ظلوا مستمرين، في تفضيل الـ "فالانغو".

كانت بيروت قد استعادت حركتها "السابقة". كانت المدينة تسعى جاهدة وبعناد إلى نسيان الساعات السوداء التي مرت بها في الأشهر الثلاثة الأخيرة. وأخذت واجهات المتاجر تجني أرباحاً طائلة. كانت الأسواق ملأى بالخضار والفواكه، الآتية في الغالب من إسرائيل. كما كانت المسابح تغص بالرواد. وبحسب تقارير الشرطة، فإن الحرب قد أسفرت منذ 4 يونيو – حزيران 1982 عن 30103 جرحى و17825 قتيلاً. ولا يدخل في هذا الرقم الأخير الضحايا الذين لم يعثر على جثثهم أو الذين دفنوا في قبور جماعية. كان الجيش اللبناني قد أنهى انتشاره بهدوء في بيروت الغربية واستقر في أزقة الضاحية الجنوبية وفي المخيم الفلسطيني في برج البراجنة. لم تحصل إلا حادثة واحدة مع عناصر من جبهة التحرير العربية التي تدين بالولاء للعراق. حيث جرح شخص واحد. كانت ردة فعل الجنود حازمة ولم تترك أي ذيول.

كان مخيم برج البراجنة أكبر مخيم فلسطيني في بيروت ويضم 30000 شخص. كانت هذه أول مرّة تدخل فيها السلطة التنفيذية اللبنانية إليه منذ سنة 1969، ودون قتال.

بعد أن أمضى بشير يوم 2 سبتمبر – أيلول وهو يستقبل المهنئين في بيت والده في بكفيا، استدعى فريقه بكامله للاجتماع عند المساء في دارته التي كانت قيد الإنشاء. وعند وصوله كان قد تجمع في الصالون، حيث كانت رائحة الطلاء لا تزال منتشرة، "السياسيون": جوزيف سعاده، جان ناضر (جينو)، جورج سعاده، جوزيف أبو خليل، سليم الجاهل،

(1) Ian Black et Benny Morris, *Israel's Secret Wars, op cit.*, p. 382.

جورج فريحة، كريم بقردوني، أنطوان نجم، ألفرد ماضي، زاهي البستاني، جوني عبدو؛ و"العسكريون" بلباسهم العسكري: فادي أفرام، أنطوان بريدي (توتو)، أسعد سعيد (هابي)، فؤاد، بطرس الخوند، إيلي وزان (عباس)، إيلي الزايك؛ و"الاستخبارات": سامي الشدياق، إيلي حبيقة (HK)، أسعد شفتري (آسو)؛ و"اللوجستيون": ريمون حرب، وليد فارس (وودي).

كان نجم قد نسق دراسة أجراها أخصائيون بارزون - كان كثير منهم أساتذة جامعة - حول أولويات برنامج العمل في المئة يوم الأولى للحكومة المقبلة. اعتبر الفريق أن المشروع المقدم يفتقر إلى الجذرية. وأجمعوا على القول: "السكان ينتظرون انقلاباً جذرياً في الأساليب السياسية، وقطيعة كاملة مع الماضي".

- ليس لنا أي ثقة بمؤسسات الدولة - قال جوني عبدو - العمل ونتائجه هي التي توحي بالثقة وبالتفاف الناس وليس العكس. على أي حال، إن بشير الجميل ما بعد 23 أغسطس - آب ليس بشير الجميل ما قبل 23، وهذا طبيعي! لن تستطيع الأمة المسيحية أن تنهض إلا من خلال ثورة عسكرية لا عن طريق البرلمان أو القانون.

- ما أريد إنجازه لا يتوقف عند السنوات الست من ولايتي - أعلن الرئيس المنتخب - مهمتنا هي أن نرسي قواعد الأدوات الأمنية اللازمة للمجتمع المسيحي، حتى بعد انتهاء ولايتي. والسؤال هو: كيف؟

- يوجد بينكم من يشبِّه تنصيب 23 سبتمبر -أيلول القادم بعملية ألتالينا التي جرت في 7 يوليو - تموز 1981، وهذا ضلال! - أكد جوزيف أبو خليل. بعد 7 يوليو - تموز أمسى أمام الشيخ بشير شعب متجانس. كان الجميع مسيحيين. وبعد 23 سبتمبر - أيلول سيجد بشير أمامه شعبين: المسيحيين والمسلمين. الدستور لا يشكل أية ضمانة. يمكن أن يُقتل الشيخ بشير. على المسيحيين أن يكون لهم وجود اقتصادي، واجتماعي، في أمان تام.

- لقد وفرت للمسيحيين الأمن والنمو في المنطقة الحرة التي نسيطر عليها قبل العملية الإسرائيلية - أعاد بشير التذكير - وعلينا أن نكون قادرين أن نفعل الشيء ذاته في البلاد بكاملها، مستندين إلى الشيعة والدروز. سنستمر في العمل معاً لأننا أثبتنا أننا نعرف أن نفوز! لقد انتصرنا في المعركة، فماذا نفعل الآن؟ هنا يجب أن نفكر أولاً.

وأخرج من جيبه ورقة وقرأ بصوت عال برقية آتية من ملك المغرب الحسن الثاني يدعوه إلى فاس حيث تنعقد قمة لرؤساء الدول العربية. كان جدول أعمال هذه القمة يتضمن بنداً يتعلق بطلب لبناني موجه من إلياس سركيس "بإنهاء مهمة قوات الردع العربية" التي كانت

ذريعة لدخول الجيش السوري إلى لبنان[1]. كانت مهمة هذه القوات قد انتهت في 21 يوليو - تموز 1982. لكن وزراء الخارجية العرب الذين اجتمعوا قبل ذلك ببضعة أسابيع في جدة لم يتخذوا قراراً بهذا الشأن.

كان بشير يحاول منذ انتخابه أن يقيم حواراً مع القادة العرب. فأرسل بول جريديني اللبناني - الأميركي والمستشار في البنتاغون إلى الأردن ليقيم اتصالاً مع الملك حسين. وذهب مقربون آخرون منه إلى الرياض والقاهرة والكويت. وكان بشير يريد فتح حوار خصوصاً مع حافظ الأسد، فسأل زاهي البستاني وجوني عبدو: "ما تراه سيفعل إذا ما هبطت، أنا الرئيس اللبناني، بمروحية في دمشق وطلبت أن أقابله؟"

كانت سورية قد أعلمت الجامعة العربية بأنها ستقترح في فاس إدخال تعديل على الطلب اللبناني يشترط "إجراء مفاوضات مع بيروت حول انسحابها" بعد الانسحاب الإسرائيلي من لبنان. وما كان في وسع القمة إلا أن تقبل بهذا التعديل تحت طائلة تفضيل "الاحتلال الإسرائيلي" على حساب "الحضور السوري".

- من غير المقبول أن يمضي بشير الجميل إلى المؤتمر ليناقش وثيقة فلسطينية أو وثيقة سورية دون أن يتمكن من مناقشة المسألة اللبنانية، قال زاهي البستاني.

- لحضوركم في فاس أهمية سياسية بمعزل عن جدول الأعمال - قال أبو خليل بوقار وقد أخذ يخاطب بشير بصيغة الجمع بعد انتخابه - هذه أول مناسبة يتاح فيها للبنان أن يكون حاضراً من خلال فخامتكم. أعتقد أنه لا يجب الاستعجال في رفض مبدأ ذهاب فخامتكم إلى مؤتمر فاس.

- بلغتني معلومات عن أنكم ستصطدمون بالسوريين والفلسطينيين في فاس - قال كريم بقردوني، الذي أخذ يكلم الرئيس المنتخب الآن بصيغة الجمع على غرار أبو خليل. يجب أن يتدخل السعوديون والمغاربة لكي يصالحوكما. أعتقد أن على العرب أن يفهموا أنكم مصممون على إغلاق الملف اللبناني. ستعودون من هناك ومعكم اعتراف عربي. اطلبوا من الأميركيين أن يساعدوكم بتدخلهم مع الرياض والرباط. ومن جهة أخرى، سيكون لمشاركتكم في هذه القمة انعكاس كبير على الوضع الداخلي. ولن يعود في وسع

(1) تدخل الجيش السوري في لبنان بطلب قدمه بيار الجميل أثناء زيارة قام بها إلى دمشق على رأس وفد من حزب الكتائب، يوم 6 ديسمبر - كانون الأول 1975، وليس بطلب من حكومة لبنانية أو/ من رئيس الجمهورية اللبنانية، كما هو وارد في بعض النصوص. ثم اكتسب الحضور السوري "شرعيته": بعد بضعة أشهر من قرارات القمتين العربيتين في الرياض والقاهرة (أكتوبر - تشرين الأول 1976) تحت شكل "قوة ردع عربية" تشمل قوات سودانية وسعودية وإماراتية. وضعت هذه القوات تحت "تصرف" رئيس الدولة إلياس سركيس، وبقيادة اللواء اللبناني سامي الخطيب.

معارضيكم إلا أن ينضموا إليكم . سألني السوريون عن طريق بعض الوسطاء عن المواضيع التي سيعرضها وفدنا لكي يدخلوها في حسابهم . فسمحت لنفسي بأن أجيب بأن الوفد اللبناني سيطرح مسائل دون أن يطلب أجوبة مباشرة عنها وأنه بالتالي ليس من الضروري أن يعلموا بها مسبقاً . أظن أن السوريين يريدون الاجتماع بكم ، لكنهم لا يريدون أن تأتي المبادرة منهم . وقد يكون إطار المؤتمر ذريعة لذلك ؛ ولهذا أقترح عليكم أن تذهبوا إلى فاس .

– لكن هناك مشكلة أمنية – قال إيلي حبيقة – لقد أكد مسؤول هام في هذا الحقل أن من غير الممكن أن يضمنوا أمنكم بنسبة تزيد عن 40%. الأخطار المحيقة بهذه الرحلة ذهاباً وإياباً أكثر من المنافع السياسية . الصيني[1] من هذا الرأي .

– سندرس مسألة أمني فيما بعد – قال بشير الجميّل – أكد لي فيليب حبيب أن الأميركيين سيحمونني .

– إذا كان أمنكم مضموناً، فأعتقد أنه من الواجب حضور المؤتمر ، شدد جوزيف أبو خليل .

– سيحرجونك بأسئلة عن موقفك من الصلح مع إسرائيل ، قال زاهي البستاني معترضاً .

– نحن محامون جيدون وقضيتنا محقة ، قال بقردوني . لدينا موقف جيد جداً في مواجهة العرب . نحن في ذروة قدرتنا . فلا يجوز أن ندع هذه الفرصة تفوتنا .

– هذا المؤتمر ينعقد لأجل تقوية عرفات – قال سعاده – لديك سبب لعدم حضور هذه القمة : لم يهنئك أي رئيس دولة عربية .

– هل نريد أن نبقى في الدائرة العربية؟ – سأل سليم الجاهل – أنا كلبناني ، وعاطفياً ، أتوق إلى الخروج من هذه الدوامة .

– يجب أن يعتاد العرب على سماع وجهة نظر لبنان . اقتراحي سليم وكامل . سأذهب إلى المؤتمر كي أتحدث إليهم وأضع حداً للصعوبات التي تواجه البلاد ، قال بشير حاسماً الموقف .

ورن جرس الهاتف فتوقف النقاش . ودخل بشير ليتلقى الاتصال في مكتبه ، ثم عاد بعد عشر دقائق وقال للحاضرين :

(1) جاك أوجينو ممثل وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية المقيم في بيروت ، وهو من أصل آسيوي (كوري)، ومن هنا جاء لقبه هذا.

– كانت على الخط السيدة علياء الصلح[1] . أرادت أن تخبرني أن السفير علي الشاعر والملك الحسن الثاني اتصلا بها . علي الشاعر ليس متأكداً من أن المؤتمر سينعقد . وقال لها إن السعودية لم تجرؤ على تهنئتي مباشرة بعد الانتخاب ، وأنه الآن قد فات الأوان سيفعلون ذلك عند التنصيب . وأكد لها السفير أن العرب مقتنعون بأنني رجل الساعة ، ولكن بعضهم منزعجون من تصريح أدلى به روبير عبدو غانم لصالح إسرائيل . وقال الملك الحسن الثاني لعلياء الصلح إنه يعتبر سلامتي مسؤوليته الشخصية . اتصل يا إيلي حبيقة ويا ألفرد ماضي بالسفير ديلون لوضعه في الجو . هذا المؤتمر مناسبة لي كي أقول للعرب ما يجب أن يسمعوه .

"الرئيس اللبناني بشير الجميل التقى مناحيم بيغن رئيس الوزراء الإسرائيلي في نهاريا ليل الأول من سبتمبر – أيلول" . هذا النبأ الذي أوردته وكالة رويترز البريطانية يوم 3 سبتمبر – أيلول 1982 ، نقلاً عن موظف كبير تمنى عدم ذكر اسمه ، دوى كقذيفة مدفع في أرجاء الشرق الأوسط كله . ونقلت الإذاعة الإسرائيلية النبأ موضحة أن شارون وشامير كانا بصحبة بيغن . ونقلت عن "مصادر إسرائيلية" تأكيدها "أن الرجلين بحثا مستقبل العلاقات اللبنانية – الإسرائيلية وإمكان عقد معاهدة صلح مع الدولة العبرية كتلك المعقودة بين مصر وإسرائيل" . وكشفت يديعوت أحرونوت أن "الرئيس اللبناني لم يكن في نيته التنكر لإسرائيل التي حررت لبنان من الوجود الفلسطيني" .

انتابت بشير سورة من الغضب الأسود، وأمر بأن يُنشر تكذيب قطعي على الفور :

– لا أريد أن أرى إسرائيلياً واحداً بعد الآن! صاح وهو يأمر بأن لا تنقل إليه بعد الآن أية رسائل من إسرائيل .

وفي المساء كذّب وزير خارجية إسرائيل إسحق شامير النبأ الذي نشرته رويترز بصورة قاطعة . لكن كان قد فات الأوان ، وحصل المكروه الذي سيسمم العلاقات بين اللبنانيين والإسرائيليين إلى أمد طويل .

وتناوب "سياسيو" فريقه على العمل لتهدئة غضبه . كان بين هؤلاء روبير باسيل الملقب ببوب ، وهو رجل أعمال لبناني – أميركي مقرب جداً من وزارة الخارجية وعضو ناشط في الرابطة الأميركية – اللبنانية كان قد رتب رحلة بشير إلى واشنطن في صيف 1981 . بعد أن اقتنع بشير جزئياً ، خول هذا الرجل أن يذهب إلى القدس ويجتمع بإسحق شامير . وأعطي هذا توصية إلزامية : أن يشرح لوزير الخارجية الإسرائيلية أن "لبنان يريد أن يغدو بلداً مستقلاً تماماً" .

(1) ابنة رئيس الوزراء الأسبق رياض الصلح .

بعد حديث طويل رضي شامير بأن يفكر أن بشير "قد لا يكون مخطئاً كلياً". وناقش الرجلان مسألة وضع روزنامة "يمكن أن تؤدي إلى الصلح"، وطرحا مبدأ قيام شارون بزيارة إلى بيروت. رفض بشير رفضاً قاطعاً أن يرى وزير الدفاع الإسرائيلي.

أما وحدات الجيش الإسرائيلي، التي لم تتأثر بالتوترات السياسية، فقد قامت بقفزة إلى الأمام من المطار الدولي نحو بئر حسن والجناح، على طول الخط المتاخم للبحر في جنوب بيروت. وتمركزت فصيلة من الجنود الإسرائيليين على طول تصوينة السفارة الكويتية بحجة نزع الألغام. وأثار هذا الخرق لاتفاقية فيليب حبيب موجة من الذعر في مخيمي صبرا وشاتيلا اللذين لا يبعد مدخلهما مئتي متر عن السفارة الكويتية. وأقام الجنرال عاموس يارون، قائد عملية "سلامة الجليل"، مقر قيادته في أعلى مبنى من ست طبقات هشمت جدرانه الشظايا. كان سطح هذا المبنى الذي يؤوي مساكن رتباء الجيش اللبناني يشرف على مخيمي صبرا وشاتيلا اللذين لا يفصله عنهما سوى عرض الشارع وقطعة أرض خالية. احتجت المعارضة اللبنانية بشدة، فتظاهر جنود عاموس يارون بالتراجع أمام كاميرات التلفزيون دون أن ينسحبوا إلى المواقع التي انطلقوا منها.

بالرغم من الأوامر القطعية التي كان بشير قد أصدرها، فإنه سارع إلى القبول باستقبال جوليوس، اسحق حوفي مدير الموساد الذي كان قد طلب الحضور ودياً قبل أن يتقاعد. نهض بشير لاستقباله بابتسامة عريضة في مكتبه يوم 7 سبتمبر - أيلول، ومعه زوجته، وكان هذا أول صبرا [1] يقود جهاز الاستخبارات الإسرائيلية. كان بشير يكن اعتباراً كبيراً لهذا الرجل. فكان يثق به دائماً، رغم حصول تباينات حول بعض الملفات. أخبره حاكا - كما يسميه أصدقاؤه - بأن بعد 12 سبتمبر - أيلول سيخلفه في منصبه على رأس الجهاز معاونه ناحوم عدموني (بيتر) وأن مناحيم نافوت (مندي) سيكون الرجل الثاني بعده. وتذكرا اجتماع نهاريا وإفشاءه من قبل الصحافة. وأعرب له قائد القوات اللبنانية عن الحذر الذي بات يتوخاه الآن حيال كل ما يتعلق بكتمان السر في إسرائيل. فشرح له حوفي، دون أن يتخذ موقفاً من مصدر التسريب، الظروف المحيطة، وزيارة واينبرغر. وألح عليه أن يقبل بلقاء شارون الذي كان قد طلب هذا اللقاء مرتين. فنزل بشير عند رغبة حوفي "إكراماً للصداقة" وللجهاز الذي كان يديره. وقبل أن يودع الرئيس المنتخب أشار عليه مدير الموساد، ك "اقتراح أخير"، بأن من الضروري جداً أن يعزز أمنه الشخصي. فاجابه بشير ضاحكاً بأن لديه من الحرس الشخصي ما يكفي.

كان المحيطون بالزعيم الشاب يعيشون منذ سنين هاجس الاعتداء عليه. وكلما كان هذا

(1) هو اليهودي المولود في إسرائيل.

الملف يطرح على بساط البحث، كان بشير يستبعده بحركة من يده. كان شيء من القدرية يحمله على الاعتقاد بأنه يحوز "البركة". فقد تعرض لعدة اعتداءات ونجا منها دائماً. كان آخر هذه المحاولات تلك التي جرت سنة 1980 وفقد فيها ابنته مايا. كان لا يمكن ذكر هذا الموضوع في حضوره. وفي 9 أيلول أخذ زاهي البستاني على عاتقه أن يفتح موضوع "أمن الرئيس" في منزل فادي أفرام، بمناسبة اجتماع للفريق الذي كان مخصصاً لدرس مستقبل القوات اللبنانية. وعلى أثر سفرة حوفي إلى بيروت، عرضت تل أبيب خدماتها واقترحت إرسال فريق متخصص. فقبل البستاني. ولما عرف بشير بالأمر بعد ذلك بساعات، رفضه رفضاً قاطعاً: "ليس من المقبول أن يكون رئيس دولة عربية في حماية إسرائيليين، حتى بصورة سرية"، قال هذا لزاهي البستاني. لكن هذا الأخير، الذي كانت وظيفته الرسمية مديراً للأمن العام، أصر بقوة وأبدى استياءه. وفي آخر الأمر أذعن الرئيس المنتخب ووافق على إيفاد عدد من حرسه الشخصي إلى إسرائيل كي ينالوا تدريباً سريعاً، وعدد آخر إلى الولايات المتحدة للغرض ذاته. وكلف عباس (إيلي وزّان) بمهمة السهر على أمن الرئيس.

في خلال الاجتماع 9 سبتمبر - أيلول، وزع فادي أفرام وثيقة عمل حول مستقبل القوات اللبنانية. كان المقصود، في إطار هيمنة مسيحية، تعيين العدو وتحديد المؤسسات العسكرية التي تسمح للمسيحيين بالاحتفاظ بسلطة القرار السياسي مهما حصل.

- نحن أقلية في منطقة معادية دينياً وسياسياً وثقافياً - قال كريم بقردوني معلقاً - والهدف الرئيسي لعملنا هو أن نبقى فيها وننمي وجوداً مسيحياً بجميع أبعاده. ولكي نضمن هذا الوجود على مدى مرحلة طويلة جداً، يجب علينا أن نفرض ذهنية جديدة وبنية تحتية جديدة. يجب أن تكون القوات احتياطياً إستراتيجياً. ويجب أن يكون دورها الأول حماية النظام تحت شكل قوة تدخل وقوة حماية للرئيس.

- ويجب عليها أن تبقى مجموعة متجانسة، أكد فادي أفرام. هناك عدة صيغ ممكنة: الأمن الداخلي، أمن الدولة، أو قوات تدخل على غرار الـ CRS في فرنسا. في أي حال، يجب أن ينص قانون الأمن الوطني العتيد على إنشاء هذه الأجهزة الثلاثة ووضعها تحت إمرة الرئاسة مباشرة. وبعد ذلك، يجب أن تبقى القوات اللبنانية كما هي راهناً حتى آخر 1982. إن تمويلها مؤمن.

افتتحت قمة رؤساء الدول العربية في 9 سبتمبر - أيلول دون حضور بشير الجميل، الذي اعتذر عن عدم الحضور في آخر لحظة. وكان إلياس سركيس قد طلب في 30 أغسطس - آب تأجيل القمة متذرعاً بأنه إذا كانت ولايته تسمح له بالاحتفاظ بكل سلطات منصبه، فإن الرئيس المنتخب وحده يستطيع أن يأخذ على عاتقه التزامات طويلة الأمد. وبما أن طلبه لم

يقبل، فقد امتنع عن الذهاب إلى فاس. وبرر بشير الجميل موقفه بالطريقة ذاتها، قائلاً إنه لا يستطيع المشاركة استناداً إلى ولاية لم يتسلمها بعد.

وغاب عن القمة ثلاثة آخرون: حافظ الأسد، الذي كان مضطراً رسمياً أن يبقى في دمشق بسبب الوضع في لبنان، والذي كان مستاء كذلك لكون الحسن الثاني نجح في الإتيان إلى المؤتمر بعدوه اللدود صدام حسين؛ والعقيد الليبي معمر القذافي، الذي لم يكن هناك أسف على غيابه، والذي برر عدم حضوره - عملاً بتواضعه المألوف - بأنه لا يريد الاشتراك في "قمة الهيمنة وهدم ما تبقى من معنويات الجماهير العربية"، ولم يُدع الرئيس المصري حسني مبارك، خليفة السادات، إلى القمة بسبب عقد معاهدة الصلح مع إسرائيل.

اتسم اليوم الأول من المؤتمر بتوأمة فاس والقدس تضامناً مع الشعب الفلسطيني. وانتهى بالموافقة على نصين. كان أولهما خطة عربية للسلام، نالت موافقة منظمة التحرير الفلسطينية، وتطالب بـ "إنشاء دولة فلسطينية عاصمتها القدس". وكان النص الثاني كناية عن تعديل سوري يربط انسحاب قوات دمشق من لبنان بانسحاب قوات تل أبيب.

تابعت بيروت مناقشات القمة من بعيد جداً. فإنه بعد خروج آخر دفعة من القوات الفلسطينية، كان اللبنانيون منهمكين ومستعجلين ومنصرفين كلياً إلى إعادة بناء عاصمتهم. فكان شارع الحمراء غارقاً في نداءات الباعة المتجولين ومنبهات السيارات الأميركية الكبيرة التي تظهر عليها غالباً آثار شظايا الرشاشات. كان كل شيء يجري لأجل نسيان ثلاثة أشهر من القصف الحربي. وكانت السواتر الترابية على خطوط التماس تزال تباعاً وسط تصفيق المارة. وأخذت أكوام النفايات تختفي، وقد أفرغت مستودعات أسلحة منظمة التحرير - بعضها على الأقل - بلا صعوبة من جانب الجيش اللبناني. وكانت وسائل الإعلام تنشط في تغطية حركة عوامات تنقل وترمي في البحر أطناناً من الأسلحة والذخائر التي عثر عليها. وكانت المصارف قد فتحت أبوابها؛ وعاد الموظفون إلى مكاتبهم. والأكثر مدعاة للدهشة كان مسارعة المعارضة، التي اجتمعت في دار صائب سلام الكبيرة، إلى إعلان تأييدها، بلا حماسة، للنظام الذي كان يوشك أن يقف على قدميه. وكان وليد جنبلاط وحده قد غادر البلاد بمساعدة فيليب حبيب واستقر في دمشق.

وفي 10 سبتمبر - أيلول 1982، أي قبل عشرة أيام من انتهاء مهمة القوات الدولية، أمر رونالد ريغن بسحب جنوده من بيروت، وأبحرت الكتيبة رقم 32 من مشاة البحرية على الفور. ومنذ الساعة السادسة صباحاً كانت المروحيات تهبط كل دقيقتين في حرم الميناء لتنقل الرجال والعتاد إلى حاملة الطائرات "غوام" الراسية قبالة المرفأ. وأعقبت الانسحاب الأميركي طلعات استكشافية للطيران الإسرائيلي على علو شاهق. وكانت السرية غولف، وقوامها 220 رجلاً،

آخر دفعة ركبت الباخرة "مانيتوك" التي كانت تحمل أعلاماً أميركية ولبنانية. وكانت قد وضعت على سلّم المركب لافتة كتب عليها: "المهمة أنجزت. الوداع". وحذا الإيطاليون حذو الأميركيين في اليوم التالي. ولم يكن في وسع الفرنسيين إلا أن يجاروهم. وظلت السفينتان "لاديف" و"لوراج" تستقبل المظليين الفرنسيين وحقائبهم طيلة يوم 12 سبتمبر - أيلول فيما كان عدد من المروحيات "فرولون" ينقل الضباط إلى حاملة الطائرات "فوش" التي كانت راسية في عرض البحر. وفيما كانت آخر سرية من القوات الفرنسية تغادر اليابسة أطلقت عليها النار من قبل أنصار الثورة ومن قبل الحزب القومي السوري دون وقوع إصابات. غير أن سيارة جيب وشاحنة تنقل ذخائر أصيبتا إصابة مباشرة بصواريخ آر بي جي وانفجرتا.

وفي 11 سبتمبر - أيلول التقى بشير وصائب سلام في قصر بعبدا، وكان هذا اللقاء بداية تفتت المعارضة.

وفي 12 سبتمبر - أيلول، عند هبوط الليل، نزل آرييل شارون وبصحبته حوفي، ضابط ارتباط الموساد، الكثير الشبه ببوباي، ودون حرس شخصي من مروحية في باحة محطة الكهرباء في الزوق. ونقلته سيارة عادية تابعة للقوات إلى منزل بشير الجميّل الجديد في بكفيا حيث كان ينتظره رب البيت وزوجته وجورج فريحة. بعد العشاء، اختلى الرجال الأربعة في صالون صغير مفروش على الطريقة اللبنانية. وبعد أن استقر وزير الدفاع الإسرائيلي بارتياح في أحد المقاعد قال لبشير بابتسامة:

- لا يعلم أحد أين أنا، وبالتالي لن يكون هناك من تسريب. كيف حالك؟

- أفضل. كل شيء هادئ.

- شكراً على استقبالك لي. أنا أصغر الوزراء سناً في الحكومة المصغرة وما كان يمكن لي في نهاريا أن أفعل أكثر مما فعلت. إني آسف جداً على التوتر الذي حصل هناك.

- وأنا آسف أيضاً! عليك أن تتصور كيف كان مزاجي لدى عودتي. لم أكن مهيئاً البتة لما جرى. سبق أن حصلت حالات سوء فهم بيننا في الماضي لكننا كنا نحلها. يوم كنا غارقين في المأزق، ساعدتمونا بدافع من الغيرية وليس لأسباب سياسية.

- كنا نناقش بحرية حول تنفيذ بعض الأمور ولكن ليس لفرض تنفيذها. في تلك الليلة لم نكن نتكلم لغة واحدة. وحين أعلمتك بأنني لا أريد أن أستقبل أحداً بعد الآن كان ذلك لكي أتحاشى أن أجد نفسي في وضع مماثل. لقد خاطبني السيد بيغن كما لو أنني كنت سورياً أو فلسطينياً وليس كصديق. هل يمكنك الآن أن تعطيني تفسيراً لذلك؟ ليس من حقنا أن نهدر كل ما حققناه عسكرياً وسياسياً لمجرد أن السيد بيغن كان مستاء من اجتماعه مع واينبرغر. نحن الاثنان صديقان وأنا أرحب بك في بيتي.

– أشكرك على هذا، أجاب شارون وهو يحرك رأسه. لقد عدت إلى بيتي في تلك الليلة والألم ينهشني. أود أن أعتذر. فالمكان، أولاً، كان لا يليق باستقبال رئيس لبنان، لكنه كان قريباً من نهاريا.

– هذا ليس مشكلتي.

– كان رئيس الوزراء مستاءً لعدم سماعه كلمة لصالح إسرائيل. يوجد عندنا أناس كثيرون لا يفهمون الوضع اللبناني، وهذا أمر متبادل على أي حال. لقد انتصرنا في هذه الحرب وعلينا أن نواجه وضعاً سياسياً داخلياً عسيراً جداً. نحن نتعرض لانتقادات قاسية. لقد أجريت خلال ثلاثة أشهر 54 اجتماعاً معك ومع جوني عبدو، ومع فيليب وغيرهما. وحلت بنا خسائر جسيمة: 360 قتيل، و2200 جريح بعضهم في حالة خطرة. أعتقد أنني أعرف الوضع جيداً لأنني كنت معكم ومع قواتي كنا نتوقع أن تدلي بتصريحات لصالحنا. أقول بصراحة كبيرة إن المهم جداً أن يقال شيء في هذا المعنى. لقد ساعدناكم لأنكم أمة صغيرة ونحن أمة صغيرة. حين هاجم العراق الأكرد ساعدناهم، فأرسلنا إليهم أطباء، وضباطاً وجنوداً ظلوا سنوات في تلك الجبال يقاتلون إلى جانبهم. لم نطلب شيئاً بالمقابل، بل ساعدناهم لأنهم كانوا يقاتلون من أجل حريتهم. وكانوا على وشك أن يفوزوا بها، لكن كيسنجر أهدر كل شيء. منذ أن تسلمت مهامي كوزير للدفاع، أخذت أشرح لزملائي أن من واجبنا أن ندمر منظمة التحرير الفلسطينية وبناها التحتية. وعندما كنت أتحدث عنك مع الأميركيين والإسرائيليين كان هؤلاء يسخرون مني.

– أتحدث عن دور إسرائيل في حديث أدليت به لتوي إلى مجلة ماغازين ويجب أن تنقله أيضاً تايم ماغازين. سندلي بأحاديث أخرى، وإذا أردتم المزيد، أخبرونا بذلك.

– بيغن يحبك كثيراً – أردف الوزير – إنه متألم كثيراً. لقد أحس بكثير من الإهانة لعدم صدور ردة فعل علنية عنكم. لقد هاجمنا صواريخ سام – 6 وسنعاود ذلك غداً. لقد رضينا بأن نهرق دمنا. إن تصريح الرئيس شمعون وصمتك سببا له حرجاً عميقاً.

– إن كان هذا كل ما في الأمر، فإنه سيسوّى سريعاً.

– أنا متأكد من أن هذا التوتر يمكن أن يمحى بعبارة واحدة، ببضع كلمات وتذكر بتضحياتنا أو بعلاقاتنا المستقبلية.

لقد غادرتنا تلك الليلة وأنت تشعر بالخيبة والحنق، ولما عدت إلى بيتي لم أستطع أن أنام. كان رئيس الوزراء يبدو كشاب هجرته صاحبته من أجل شاب آخر. لا لزوم للكلام مجدداً عن ذلك. هناك بضع مشاكل عاجلة يجب أن نبتّها. لن نتخذ أي قرار قبل أن نحدثكم بشأنه. لقد غادر بيروت 15000 فلسطيني وسوري. إلا أنه لا تزال هناك مراكز قيادة صالحة

للعمل. شفيق الحوت يتلقى فيها أوامر من عرفات. وأحمد جبريل ترك حوالي 2000 مقاتل في المدينة.

– معلوماتنا تقول إن عدد هؤلاء هو 1500، صحّح بشير.

– الأمر سيان. نحن ننوي أن نتولى أمرهم. يجب أن تكون بيروت مدينة آمنة. سألني درابر عما أعنيه بقولي هذا، فأجبته بأنني إذا شئت الذهاب إلى بيروت فيجب أن أتمكن من النزول في فندق كومودور[1]! هذا ما أعنيه "بالمدينة الآمنة"! أود أن أدخل بيروت وأعتقل أو أقتل الإرهابيين الذين لا يزالون فيها. قل لي اليوم إن كان هذا ممكناً. لقد وصل جنودنا إلى بئر حسن وإلى السفارة الكويتية. أتمنى الحصول على إذنكم لكي أدخل المدينة. لم ندخلها قبل الآن بسبب حضور القوة المتعددة الجنسيات؟ ولو أننا فعلنا ذلك لما كانت رحلت. لقد بذلنا جهداً كبيراً لإقناع الجيش اللبناني بالتقدم. القوات الأميركية والإيطالية رحلت اليوم، وسيرحل آخر الجنود الفرنسيين غداً.

– لن تستطيعوا دخول بيروت ما لم تقرر الحكومة اللبنانية الآلية اللازمة لذلك، وهذا ليس وارداً الآن.

– كيف تتصور تنظيف بيروت؟

– بعد تنصيبي، يوم 23 سبتمبر – أيلول، سيصبح بإمكاني أن أصدر أوامر – أكد الرئيس المنتخب – لا يسعني أن أفعل هذا قبل ذلك. لقد التقيت مغاوير الجيش. وأعطيتهم الحوافز اللازمة. الجيش بدأ يتغير. الوحدات التي دخلت برج البراجنة قامت بعمل جيد. سنباشر بسط سيطرتنا تدريجياً على بيروت الغربية. سألنا أمير درووري ما يمكن أن يفعل إذا واجهت جيشنا صعوبات مع الإرهابيين، فأجاب بأنه سيغتنم الفرصة للقيام بالتنظيف.

– وما رأيك في ذلك شخصياً؟

– سنستعمل جيشنا – أكد بشير – سيتقدم على مهل. إذا ارتأيتم أن تدخلوا المخيمات فالجيش سيترككم في العمل، ولكن بصورة غير رسمية. علينا أن ننظف المخيمات التي تقاومنا.

– متى وأينما أتيح لقواتنا أن تعمل بحرية، سأتمنى أن تعمل بصورة شرعية مع قواتكم لأجل اعتقال أو قتل الإرهابيين. فهل تريد أن تشارك في هذا؟ نحن لا نريد إحراجكم، أم أنكم تفضلون أن تبقى قواتنا حيث هي؟

(1) اشتهر هذا الفندق بكونه المقر العام للصحافة الدولية وخصوصاً الأنكلوساكسونية، على مدى النزاع اللبناني. وهو يقع في حي الحمراء في قلب بيروت الغربية.

- لا تدخلوا الآن - أوصاه الرئيس المنتخب - ليس الآن خصوصاً! لكن ابقوا حيث أنتم! فالضغط الناجم عن حضوركم يتيح للجيش اللبناني أن يعمل بمزيد من السهولة.
- إذا دخل جيشكم إلى صبرا وشاتيلا، أتريدون أن تتقدم قواتنا على مهل وراءكم؟ سأل شارون.
- أجيبك عن هذا السؤال غداً.
- هل يمكن أن تدخل قواتنا وراء قواتكم لأجل تنظيف المدينة الرياضية؟ ألح وزير الدفاع.

نعم! ستقولون إن الجيش اللبناني دخل إلى هناك، ويمكنكم التأكيد أنكم تتقدمون وراءه للتأكد من أن كل شيء كما يجب. لكن يجب أن لا تبدو مناورتكم كأنها تجري بالارتباط مع الجيش اللبناني. يجب أن ينسق كل شيء بين هورس (فادي أفرام) وميشال عون وأمير دروري.

- إذاً ليس من الضروري القيام بذلك غداً. ويمكن أن يجري بصورة تدريجية - قال آرييل شارون - فيما خص الميناء، نحن نسيطر على جزء صغير منه. وإذا رغبتم، فيمكن لنا أن ننسحب منه.
- فعلاً، نحن قادرون على تولي أمره.
- كيف ستتطور أجهزة استخباراتكم؟ هل سيمكن لها أن تعمل بصورة شرعية في بيروت الغربية؟ سأل الوزير.
- سيقوم إيلي حبيقة بالتنسيق معكم على مستوى رفيع في هذا الموضوع.
- ما زال الفلسطينيون يريدون خلق مشاكل. ومن مصلحة الجميع أن نتدبر هذا الأمر ونتصرف بسرعة.
- نحن جاهزون لذلك. سيتولى هذا الأمر إيلي حبيقة، أكد بشير.
- ما هو الوقت اللازم ليتمكن الجيش اللبناني من السيطرة على المدينة؟

لن يكون هذا قبل منتصف أكتوبر - تشرين الأول. فعديد الجيش ليس كافياً، وهو يحتاج إلى تجهيزات وحوافز. على أن هذه العملية قد بدأت. وبإمكان الجيش أن يعمل بالارتباط معكم منذ الآن. والتنسيق بين فادي أفرام وأمير دروري هو ذو أهمية مماثلة للتنسيق الذي يجب أن يقوم بين إيلي حبيقة وأجهزتكم.

- إذا حصلنا على معلومات حول وجود مراكز قيادية إرهابية وقمنا بعملية مفاجئة ضدها، فماذا سيكون موقفكم؟
- إذا كانت لديكم الوسائل اللازمة لذلك، قوموا بهذه العملية، نصح بشير.

- سنتصرف بالارتباط معكم. متى سيرحل الفرنسيون نهائياً؟
- المرجح أن يكون هذا غداً. لقد قالوا إنهم يستطيعون البقاء إذا طلبت الحكومة اللبنانية ذلك. إلا أنها لن تطلبه، أكد الرئيس المنتخب.
- عندما تقدمت قواتنا صوب بئر حسن، اتصل واينبرغر هاتفياً بواشنطن، فاتصلت هذه بدورها بتل أبيب وطلبت منا أن ننسحب. ربما نحن نفضل ألاّ نتصرف قبل 23 سبتمبر - أيلول. وأنتم لن تطلبوا منا بعد هذا التاريخ أن نرحل - قال الوزير الإسرائيلي - وبعد ذلك، بعد التنظيف، سنرحل عندما تطلبون منا هذا.
- بالضبط!
- يسرني أن يقرر الأميركيون مساعدتكم - قال شارون - لكن كونوا حذرين! يسرّ لنا الأميركيون غالباً بأن الحكومة اللبنانية تريد كذا أو كذا. فأجيبهم بأن عليها أن تخاطبنا مباشرة. نحن لا نتمنى أن تمر مناقشاتنا عبر الأميركيين. فما رأيك؟
- تألمنا كثيراً يوم كان الأميركيون لا يفهموننا - ذكّر الجميّل - وقد بذلتم جهوداً كثيرة لكي يتقبلونا، وها هم الآن يعتبروننا عنصراً هاماً. هذا الموضوع يحتاج إلى نقاش طويل. فيجب أن نجتمع نحن الثلاثة لتوضيح الأمور.
- كنا قد أعلمناهم بأننا سندمر المفاعل النووي العراقي، فلم يصدقونا. ولما قلنا لهم إننا سندخل لبنان، لم يصدقونا. والآن لن نتفاوض معهم على علاقاتنا مع الرئيس بشير الجميّل وحكومته. ولن نتباحث في الخفاء معكم من الآن وصاعداً كما كنا نفعل حتى الآن. نقل إلينا الأميركيون طلباً من شفيق الوزان يتعلق بانسحاب قواتنا من بيروت، فأجبتهم بأنه إذا كان الوزان يريدنا أن ننسحب فعليه أن يطلب هذا منا. لا نريد أن يكون الأميركيون وسطاء.
- أوافقك الرأي حول هذه النقطة، قال بشير.
- إذا تصرفنا ضد السوريين، هل سيكون في ذلك ما يسيء إليكم؟ سأل شارون.
- على العكس! سنغتبط لذلك. وفي هذه الحال سيساعدكم الجيش اللبناني ضمن حدود إمكاناته، وعد الرئيس المنتخب.
- سيهاجم طيراننا المواقع السورية في جبل صنين، فعلى قواتكم أن تتقدم وتحتلها. يجب أن ننسق هذه العملية بيننا، اقترح الوزير الإسرائيلي.
- حسناً جداً! أنتم ستهاجمون من الجو ونحن سنهاجم على الأرض. أود أن أعود إلى نقطة تتعلق بمطار بيروت. تريد أجهزتكم أن تفتش المسافرين. إن المسؤولين عن أمن المطار سيكونون زاهي البستاني وإيلي حبيقة، وهؤلاء يحوزون الكفاءة التامة بالإضافة إلى حوافزهم.

– ليس هذا هو المقصود! إنما نحن نريد فقط شخصاً يتكلم العبرية في برج المراقبة. عندنا طائرات ومروحيات كثيرة في محيط المطار ويجب تنظيم طيرانها لأجل تأمين سلامتها. نحن لا نريد أن ندير المطار! لكننا بحاجة إلى أمرين: أن نتمكن من الهبوط ما دمنا في بيروت، وأن يكون هناك خبير لأجل حركة الطيران.

– حسناً، أيمكن أن يكون هذا طلباً لبنانياً لا إسرائيلياً؟ سأل بشير.

– أجل! تماماً. أطلبوه منا.

– اعتبر الأمر حاصلاً. سنرى كيف يمكن أن يكون للأمر طابعاً رسمياً.

– أود العودة إلى موضوع الصلح – اقترح شارون – هذا موضوع مهم جداً في نظرنا. ما هي الصعوبات التي تلاقونها؟ لماذا تعتقدون أنه يستحيل على لبنان أن يوقع على معاهدة صلح مع إسرائيل؟

– لكننا لم نقل قط أنه يستحيل توقيع معاهدة صلح! – اعترض الرئيس المنتخب – في أي حال، لقد آن أوان الشروع في العملية للوصول إلى ذلك. على أنه، قبل ذلك، يجب حل مشكلتين: أولاً، السوريون ما برحوا هنا. ومن الخطأ الظن بأنهم لن يهاجمونا. عندنا مليون ونصف مليون من المسيحيين في المناطق التي يسيطرون عليها! فإذا أسرعنا في التوقيع على معاهدة صلح وأنجزناها قبل 23 سبتمبر – أيلول، ستكون هناك ردود انتقامية. يستطيع السوريون أن يدخلوا إلى لبنان من عدة نقاط. وبيننا وبينهم حدود طولها 160 كيلومتراً وهي مكشوفة تماماً. الدولة اللبنانية لم تنشئ قط حماية على طول الحدود منذ سنة 1943 إن القاع وزحلة وغيرهما من البلدات المسيحية ستكون في خطر إذا وقعنا على المعاهدة قبل رحيلهم.

– أنتم تنتظرون منهم أن ينسحبوا؟ سأله شارون مقاطعاً.

– لا أظن. قالوا في قمة فاس إنهم لن ينسحبوا إلا بعد رحيلكم. المشكلة الثانية، وأرجوك أن تحاول أن تفهمني. أنا لا أقول إنني أريد أن أبقى في العالم العربي من أجل الحصول على مالهم. ولا أعبأ بالمصالح العربية في لبنان! إلا أنني يجب أن آخذ في الاعتبار الـ 60% من الدخل اللبناني التي ينتجها الـ 300000 لبناني العائشين في العالم العربي ومعظمهم مسيحيون. إن قطع علاقتنا مع العالم العربي لا يطرح أية مشكلة سياسية بالنسبة لنا! إلا أنها مشكلة اقتصادية داخلية، ولو فعلنا لأصبنا بالعجز!

– يوجد مليونان من المصريين في العالم العربي ولم يتعرضوا لشيء بعد أن وقع السادات، قال شارون.

– لقد أسهم الأميركيون كثيراً في ذلك. وحينها سيطرح سؤال: هل يجب أن يشارك الأميركيون في العملية؟ ومن جهة أخرى، إن المصريين مسلمون لا مسيحيين!

– لن يكف السوريون أبداً عن المطالبة بلبنان – أكد الوزير الإسرائيلي – فعليكم أن تدافعوا عن حدودكم. نحن لنا حدود طولها مئة كيلومتر معهم وقد أقمنا عليها نظاماً فعالاً لحمايتها. نستطيع أن نساعدكم في هذا الحقل. إذا تعرضت زحلة للتهديد سنتدخل. وإذا هاجم السوريون سنرد على الفور. كنا على مسافة 120 كيلومتراً عن زحلة سنة 1981، وتدخلنا. أما الآن ونحن على مسافة 15 كيلومتراً، فلن يكون هذا بمشكلة. إقتصادياً؟ أنظر ما يجري بيننا وبين الأردن: يجتاز نهر الأردن مليون ونصف شخص سنوياً في الإتجاهين. وتنقل منتجات إسرائيلية إلى الكويت عن هذا الطريق. هذه المسألة حيوية في نظرنا. إن علاقاتنا كانت دائماً جيدة، كانت أفضل صداقة وأفضل تعاون في الخفاء طيلة السنين. لكننا بشر. علاقاتنا مع لبنان جيدة بفضلك وبفضلي. المروحية التي كنت على متنها إبان الحرب اضطرت أن تهبط اضطرارياً. وخرجت منها سالماً. ويسعدني كثيراً أن تكون أنت أيضاً سالماً. لكن من يستطيع أن يعرف ما قد يحدث غداً؟ الاتفاقية التي سنوقعها ستؤمن ديمومة العلاقات بين بلدينا وإن لم نعد أنت وأنا موجودين أو لم نعد في منصبينا، لا يجوز أن تتوقف العلاقات بين البلدين على أشخاص.

– ما سيكون محتوى الاتفاقية؟ سأل بشير.

– فلنبادر إلى بحث هذا الموضوع بسرعة.

– المشكلة معكم هي أنكم لا تستطيعون أن تفعلوا الأشياء بتكتم، قال الرئيس المنتخب ملمحاً إلى نهاريا.

– أنا آسف – قال شارون وهو يهز كتفيه – لكن هذا التسريب لم يخرج من مكتبي! اليوم لا أحد يعرف أنني هنا. سيكون هذا سراً. علينا أن نباشر عملية المفاوضات التي ستقودنا إلى معاهدة الصلح. يجب أن يكون بيننا ضمانات متبادلة. لعلكم في المستقبل ستغدون أقوياء. سنساعدكم لكي تصبحوا أقوياء. يمكن أن يكون جزء من الاتفاقية معلناً وأن يكون جزء آخر سرياً. فلنطلب من ممثلينا أن يعدوا لنا مسودة مشروع.

– منتجاتكم تباع عندنا بأسعار أرخص، لأنه لا يوجد رسم جمركي. . . .

– افرضوا رسوماً! – أجاب وزير الدفاع – الاتفاقية ستشمل كل الصعد – الاقتصادي والسياسي، والعسكري. لا يجب انتقاد رئيس الوزراء على تلك الليلة. فقد خاطبك كوالد مجروح يخاطب ابنه.

– ماذا كان جرى لو أننا تحدثنا بهدوء كما نتحدث اليوم؟ سأل بشير الجميّل.

– كان الرجل يتألم بسبب ساقه وبسببك. كان يحلم لأن يراك منتخباً. بصراحة، كنا لا

نعرف ذلك. والآن صار هذا واقعاً وقد رأينا كيف أن الناس معجبون بك، وصحيح أيضاً أننا نتعرض لضغوط رهيبة من جانب المعارضة عندنا. إنها ما زالت تطالبنا باستقدام قوات متعددة الجنسيات وبالانسحاب من بيروت إلى خط الأربعين كيلومتراً.

إن عقد الاتفاقية سيقيم سلاماً حقيقياً بين بلدينا. الأمن مصلحة متبادلة. المعارضة لا تكف عن مطالبتنا علناً: "لكن ماذا جرى لبشير؟ لم يقل كلمة واحدة؟". يجب أن تفهم أن هذا يطرح أمامنا مشكلة خطيرة بالنظر إلى الانتخابات، إذ إنه عندنا أيضاً ستجري انتخابات. وهي تطلب أن نحد من حربنا في لبنان، وألاّ نمس سورية. وتريد أن تعرف كيف سنحافظ على مكتسبات الحرب. قلت لها إنه ستقوم حكومة قوية في لبنان وتطلب انسحاب كل القوات الأجنبية. أتعلم أن بيغن متأثر جداً، ويشعر بأنه تعرض لخيانة. إنه لا يطلب سوى كلمة... أو لا حرب بعد الآن! سيكون الاستمرار صعباً جداً إذا غضب. أعتقد أن من المهم تأليف تلك اللجنة لأجل المناقشات.

- ماذا تقترح؟

- رئيس الوزراء سمى شامير وسماني بقيادتي من جانبنا - أعاد شارون التذكير - كل شيء سيمر بواسطتي. وسيقوم الجنرال تامير بإعداد العمل مع ممثليكم.

- من جهتنا سيعمل زاهي البستاني وجوزيف أبو خليل مع الجنرال تامير، كشف الرئيس المنتخب.

- أنت وشامير وأنا سنعمل على مستوى أعلى. أضيف دايف (كمحي) على مستوى تامير، أكمل شارون.

- هل يمكن أن نبقي كل هذا طي الكتمان؟ على أن أؤلف حكومة وأن اقنعها بتبني هذا المشروع.

- أجل! ألا يمكن لنا أن نعقد اجتماعاً صغيراً سرياً لافتتاح المفاوضات: أنت وشامير وأنا، لنقل مساء الأربعاء في 15 سبتمبر - أيلول؟

- أوكيه، أجاب بشير موافقاً.

- وأن يكون اجتماعاً بسيطاً.

- بعد الظهر، عند الساعة التي تريدها.

- هكذا ستفتتح المفاوضات ويخف التوتر.

- أتريد أن تحل مشكلة سعد حداد الآن أو فيما بعد؟ سأل الجميّل.

- سنحلها معاً فيما بعد - كأصدقاء - اقترح الوزير الإسرائيلي - لبنان الجنوبي ذو شأن أساسي بالنسبة إلى أمننا. وإذا لم يكن لدينا معاهدة صلح فإننا سنبقى فيه. فلكي يبقى كل هذا

طي الكتمان أنصحك بأن لا تبحثه إلا مع أقرب معاونيك. سيكون من الضروري ربما أن يعقد لقاء قمة مع رئيس وزرائنا في حال ظهور صعوبة، أو حول النقاط الهامة. طلب منا الأميركيون أن نبيع الجيش اللبناني 12 دبابة. فأجبناهم بأن هذا يمكن أن يحصل إذا طلبها الجيش اللبناني مباشرة. مرة أخرى أقول إننا لا نريد أن نمر عبر الولايات المتحدة. أنا لا أكتم عنك شيئاً كما ترى - أضاف شارون بابتسامة عريضة - وهناك أمر آخر! لدينا ألوف الأطنان من الذخائر التي أخذناها من الإرهابيين. وهي متجانسة مع أسلحتكم السوفياتية الصنع. فيمكن لنا أن نعطيكم إياها مقابل بضعة أسلحة تحوزونها ولن تعودوا تحتاجونها في المستقبل.

- بالتأكيد. سيهتم عباس (إيلي وزّان) بهذا الأمر -قرر بشير. نحن مدينون لكم بأشياء كثيرة في هذا الحقل. هل يمكن لي أن أعلم فادي (أفرام) بشأن المطار وجبل صنين؟

- نعم! يجب أن نضرب السوريين خلال 48 ساعة.

أصر بشير الجميّل على أن يرافق شخصياً آريل شارون في سيارته حتى المروحية التي كانت تنتظره في الزوق. قعد الرئيس المنتخب وراء مقود سيارته الـ BMW 730 وقعد الوزير الإسرائيلي إلى جانبه. كانت الساعة هي الثالثة صباحاً. وكانت أولى ومضات يوم 13 سبتمبر - أيلول 1982 أخذت تبدد ظلمة الليل.

بعد مرور بضع ساعات، بدأ الطيران الإسرائيلي بقصف قوات دمشق. وخلال ثماني ساعات قام بخمس عشرة غارة على المواقع السورية والفلسطينية في المتن الأعلى وفي البقاع. وعملاً بتوجيهات شارون والجميل. اجتمع فادي أفرام والجنرال دروري قبيل الظهر في مقر القيادة الإسرائيلية في الدارة المصادرة التي تخص أميراً سعودياً والتي تقع فوق تلة غير بعيدة عن مدرسة الجمهور. رسم الرجلان الخطوط العريضة للعملية ضد السوريين. كان يجب أن ينزل اللواء المدرع الذي يقوده العقيد مائير داغان في جبيل وأن ينطلق بسرعة، عبر قرية اللقلوق، نحو قمم جبل لبنان، ثم يهبط إلى البقاع على مستوى بعلبك وأن يطوق القوات السورية بنسبة ثلاثة أرباع من خلفها، بينما تهاجم القوات اللبنانية عن طريق جبل صنين وتنزل إلى زحلة مروراً بضهور الشوير. تواعد الرجلان على الالتقاء بعد ظهر يوم غد للبت بآخر التفاصيل.

وفي يوم 13 سبتمبر - أيلول إياه، اجتمع مجلس قيادة القوات اللبنانية[1]، عند الساعة الخامسة عصراً في الكرنتينا لكي ينتخب خلفاً لبشير في منصب القائد الأعلى. كان بشير غائباً عن الاجتماع، إلا أنه كان يوصي بإصرار، في لقاءاته مع أعضاء المجلس، منذ أسبوع

(1) المؤلف من قادة (أو ممثلي) الكتائب وحزب الوطنيين الأحرار، والتنظيم وحراس الأرز.

تقريباً، بأن يقع الاختيار على فادي أفرام. وكان المرشح الآخر جان ناضر. ودونما إلقاء خطب أو إعلان نوايا، انتقل المجلس سريعاً إلى الاقتراع السري. فانتخب فادي أفرام بالإجماع. وهكذا أُخذ بـ "توصيات" بشير. ووصل بشير عند نهاية الاجتماع، وتوجه إلى فادي أفرام، وناداه، وابتسم ابتسامة عريضة ومد له يده:

– تهانيّ أيها الرئيس، قال هذا مكرراً العبارة التي كان فادي يستعملها في مخاطبته.

كلف الجميل خلفه بمهمة محددة جداً: تهيئة دمج وشرعنة القوات اللبنانية في مؤسسات الدولة. وبعد بلوغ هذا الهدف، كان سيغدو أفرام مستشاراً عسكرياً لرئيس الجمهورية. وكان بشير قد أصرّ على أن يكون القائد الأعلى للقوات أيضاً رئيس مجلس أمن الكتائب، كما كان هو، بغية الحفاظ على وحدة القيادة بين القوات اللبنانية والجهاز العسكري للحزب[1]. لكن فادي أفرام، الذي لم يكن الحزب يجتذبه بنوع خاص، كان قد رفض ذلك واقترح أن يعهد برئاسة مجلس أمن حزب الكتائب إلى بطرس خوند. وهكذا كان. واكتشف أفرام فيما بعد أن هذا القرار كان غلطة سياسية كبيرة.

وجرياً على عادته كل يوم ثلاثاء إبان السنوات السبع من الحرب، إلا بعد انتخابه وذلك بسبب ضيق الوقت، ذهب الرئيس المنتخب في اليوم التالي أي يوم 14 سبتمبر – أيلول 1982، عند الساعة الرابعة عصراً، إلى مركز الأشرفية كي يتحدث إلى سكان الحي. كان متمسكاً بالسلام عليهم لآخر مرة كما كان يريد تكريم جان ناضر الذي كان "رئيس" المركز. في صباح اليوم ذاته كان بشير قد وبخ زاهي البستاني الذي كان يلح عليه كي يبدل توقيت الزيارة كتدبير أمني احتياطي.

– لقد ضقت ذرعاً! – صاح بشير – أنت ورائي طوال الوقت! هل ستدخلون معي إلى قصر بعبدا أيضاً وترافقونني كيفما توجهت؟

في اللحظة ذاتها، كان بول جريديني يدخل تحت، قباب القصر الملكي في عمان بالأردن. كان بشير قد طلب منه أن يقنع الملك بـ"حسن نواياه". حصل جريديني بسهولة على موعد لمقابلة الملك الذي كان يعرفه جيداً. ولما دخل اللبناني إلى الصالون فوجئ مسروراً برؤية ولي العهد، شقيق الملك هناك وبكونه سيحضر اللقاء.

كان هذا إشارة واضحة على اهتمام العاهل الأردني حسين بالوضع اللبناني. منذ البداية قال الملك، بصراحته المعهودة، إنه على استعداد لمساعدة بشير الجميل شرط أن يعين داني شمعون وزيراً للدفاع[2]. كان داني والحسين يعرفان بعضهما جيداً. كانا يتشاطران هواية

(1) كان هذا الجهاز مكلفاً بمهام الشرطة داخل الحزب، وحماية مقراته، وحماية الشخصيات الكتائبية.

(2) قال هذا بول جريديني لآلان مينارغ في مايو – أيار 1995 في واشنطن.

الرياضات الميكانيكية وقد اشترك كلاهما في سباقات رالي في البقاع قبل الحرب. على أن طلب الملك لم يكن وليد الصداقة فقط، بل كان أكثر.

فقد كان الحسين يخشى قبل كل شيء أن تبعد الحكومة اللبنانية الجديدة الفلسطينيين إلى الأردن، ولا يمكن لعملية بهذا الحجم أن تجري دون استعانة بالجيش، فإذا كان داني وزيراً للدفاع فإنه سيمنعها.

بعيد ظهر ذلك اليوم، نزل من الطائرة في مطار بيروت الدولي مدربون إسرائيليون، فأوقفهم الجهاز الذي يديره إيلي حبيقة. كانوا في الطائرة مع مناحيم نافوت (مندي)، وشرحوا له خلال الرحلة أنهم قد دربوا أفراد الحرس الشخصي لبشير الجميل وأنهم آتون إلى بيروت، عملاً ببرنامج التدريب، كي يتحققوا من تطبيق ما علموه. فتدخل مندي لصالحهم شارحاً أن في الأمر خطأ. لكن ضابط الأمن لم يستجب لوساطته، وكان يشهر برقية أمر موجهة إليهم تقول: "لا تبقوا في لبنان. ارجعوا بالطائرة نفسها". "كان هذا سخيفاً ولكنهم كانوا لا يستطيعون أن يمروا بالقوة لكي لا يخدشوا الحساسيات التي كانت لا تزال محتدمة بسبب قضية نهاريا"، قال هذا نافوت[1] فيما بعد. كان مندي، الذي جاء وودي (وليد فارس) لاستقباله قد طلب نقله فوراً إلى مبنى الأمن في الكرنتينا.

كان الرجل الثاني في الموساد يحتج لدى رئيس أمن القوات عندما سمع عند الساعة الرابعة والدقيقة العاشرة من بعد الظهر دوي انفجار قوي جداً هز المدينة. بعد بضع دقائق، رن جرس هاتف إيلي، وأخبره أحدهم أن انفجاراً وقع للتو في مركز الأشرفية. فتطلع وودي ونافوت وحبيقة إلى ساعاتهم، دون أن يتشاوروا. كانوا يعرفون مواقيت عمل بشير، ويعرفون أنه يجب أن يكون هناك. ودست السكرتيرة رأسها من خلف الباب وقالت:

– بشير بخير.

ورن جرس الهاتف في اللحظة ذاتها:

– تحدث بشير مع المنقذين – قال الصوت – إنه تحت الأنقاض ولكنه حي.

وثب HK من خلف مكتبه وركب سيارته وانطلق مسرعاً. وتبعه وودي ونافوت في سيارة أخرى.

لم يبق من المركز سوى كومة من الركام تحيط بها أجزاء من جدران عمودية. كانت الصيحات والنداءات والأوامر تتشابك تحت زعيق سيارات الإسعاف في خليط لا يوصف. وكانت تطلق هنا وهناك عيارات نارية في الهواء بغية إبعاد المدنيين الذين صدموا وأصابتهم الهستيريا وهم يتجمعون حول الركام. عندما وصل مناحيم نافوت، كانت رافعة متحركة قد

(1) قال هذا لآلان مينارغ في أغسطس – آب 1992.

بدأت العمل. كان عشرات المنقذين يعملون في الغبار. فناداه رجل وسأله وفي عينيه أمل مجنون:

– صحيح أن بشير قد نقل في مروحية إسرائيلية؟

– لم يكلف نافوت نفسه عناء الإجابة. فقد كان هو كما وودي مذهولين تحت تأثير المشهد والقلق. وراحا ينقبان بصورة آلية في الركام كالآخرين والألم يعصر قلبيهما.

وبدرت من نافوت حركة خاطئة، فسقط في حفرة وانشقت يده. فنقله وودي بسرعة إلى مستشفى القوات اللبنانية في الكرنتينا.

وصل ألفرد ماضي وزاهي البستاني وفادي أفرام إلى المكان بينما كان يجري تركيب مصابيح لأجل تبديد عتمة الليل التي بدأت تنتشر. كان فادي أفرام قد حضر قبل الآن مع أنطوان بريدي فور وقوع الانفجار. ولما شاهد كومة الخراب اقتنع بأن بشير قضى نحبه مسحوقاً تحت الركام. لكن أشخاصاً حاضرين كانوا قد، أكدوا له أنهم شاهدوا بشير حياً. وكان لوسيان جورج، مراسل لوموند، من جملة هؤلاء. كان حتى يصف الرئيس المنتخب يلفه الغبار وينقل إلى سيارة إسعاف من قبل منقذين. ولما كان فادي أفرام يعرف جدية أولئك الأشخاص وصفاء ذهنهم، فقد غمره أمل مجنون كان عقله يحاول أن يبعده. فبات بعد ذلك رغم الشك الذي ينهشه، يتشبث يائساً بكل التفاصيل وكل الكلمات التي تدعم أمله. كان قد عاد إلى الكرنتينا، لكنه كان لا يستطيع أن يبقى بعيداً عن أعمال البحث، فعاد إلى المكان بصحبة ألفرد ماضي وزاهي البستاني. اقترب الثلاثة من المكان الذي يفترض منطقياً أن يكون الرئيس المنتخب موجوداً فيه حين يترأس اجتماعاً. كان هناك منقذون يرفعون كتلاً من الإسمنت وقطعاً حديدية. فصاح أحدهم إنه عثر على جسد آخر. أحس أفرام بأن قلبه يتوقف عن الخفقان حين تعرف رغم الغبار على لون البذلة الأزرق السماوي. كان هناك جرح مفتوح في الفخذ. وكان الوجه المسحوق يستحيل التعرف عليه. ولاحظ أفرام الخاتم الثماني الأضلاع الذي كان في إصبع الضحية. كان خاتم بشير. أخرجه المنقذون من تحت الركام ووضعوه على حمالة دون أن يعرفوا هويته. خرج الرجال الثلاثة إلى الشارع صامتين. وكتموا اكتشافهم، دون أن يتشاوروا، تحاشياً لتحول التوتر المحيط بالمكان إلى هستيريا جماعية. ورأى فادي أفرام الذهول في عيون ماضي والبستاني، فاقترب منهما وتمتم بصوت مخنوق:

– وجدناه، فيما كان يشير بذقنه إلى الحمالة التي كانت توضع في سيارة الإسعاف.

– أريد أن أراه! كاد أن يصيح زاهي.

ركبوا السيارة وساروا وراء مركبة الصليب الأحمر. كان الليل قد هبط كلياً.

طلبوا من أطباء مستشفى أوتيل ديو أن يضعوا بشير في قاعة على حدة. وظلوا حوله، مشلولين، عاجزين عن النطق بكلمة واحدة، وعن القيام بأية حركة، طيلة عدة دقائق. طلب فادي أفرام من الأطباء الصمت التام وأن ينظف الجسد. ثم عادوا إلى الكرنتينا ودخلوا مكتب بشير حيث كانوا يعلمون أن عائلة بشير بكاملها كانت مجتمعة. كانت صولانج جامدة، قاعدة على كرسي زوجها وراء مكتبه. تقدم زاهي نحوها مكفهر الوجه وعانقها، وفهم الجميع. كان على المكتب رسالة من مناحيم بيغن إلى بشير يصدق فيها على الاتفاق الذي كان عقد بينه وبين آريل شارون في بكفيا قبل يومين.

نزل فادي أفرام إلى قاعة الاجتماع الكبيرة الكائنة في الطبقة الأرضية حيث كان تجمع أعضاء مجلس قيادة القوات اللبنانية بصورة عفوية. أكد لهم وفاة بشير وأخبرهم أنه أمر بحجز كل الوحدات في ثكناتها تحسباً لأية خطوة سلبية. ثم ذهب إلى قاعة الاجتماعات في المبنى الجديد، وهو كناية عن موقع حصين من الإسمنت أنشئ إلى الجهة الغربية من باحة المجلس. نقل الخبر إلى الحاضرين، إيلي حبيقة. توتو (أنطوان بريدي)، فؤاد أبو ناضر، إيلي الزايك، بوسي (مسعود الأشقر)، آسو (أسعد شفتري) ونازو (نزار نجاريان). وساد صمت طويل قطعه إيلي حبيقة بالقول:

– من سيكمل المسيرة؟

– أمين! أجاب فؤاد والزايك بصوت واحد.

– لا يوجد غير أمين لإكمال المسيرة، أضاف الثاني.

– أمين! أبداً! – قال نازو رافضاً، عليه أولاً أن يأتي ويعيش معنا.

عندما عرف نافوت، ووودي، وإيلي مشعلاني أحد أفراد الحرس الشخصي للرئيس المنتخب، بوفاة بشير، مضوا على عجل إلى مستشفى أوتيل ديو. اجتازوا الممرات المقفرة، ثم صادفوا ممرضاً أشار إلى باب دون أن يجيب عن سؤالهم. قرع وودي الباب بلطف، فأطل منه طبيب وقال لهم:

– لا يوجد أحد هنا!

فتح مشعلاني الباب بصدمة من كتفه. كان بشير ممدداً على طاولة وفوقه غطاء. كشف مشعلاني الغطاء عن الوجه وأجهش بالبكاء. كان الوجه مربوطاً بأشرطة من قماش ملتفة حول الرأس ويصعب التعرف عليه. انتقل نافوت مسرعاً إلى طبرجا ينقل الخبر إلى تل أبيب. كانت الإذاعات اللبنانية تبث قطعاً من الموسيقى الكلاسيكية تتخللها أخبار متناقضة. فكان يقول بعض منها إنه عثر على بشير حياً يرزق، وتقول أخرى إنه حي ولكنه جريح. وبين خبر عاجل وآخر، كانت كلها تكرر بث البلاغ إياه: "بأمر من القائد الأعلى، يمنع على

مقاتلي القوات اللبنانية منعاً باتاً أن يتجولوا بأسلحتهم دون أمر مهمة. ويمنع التجوال بالسيارة في الأشرفية غداً ابتداءً من الساعة السادسة صباحاً. وعند منتصف الليل أعلن شفيق الوزان رسمياً وفاة بشير الجميل. كان بشير سيبلغ الخامسة والثلاثين من العمر في 10 نوفمبر - تشرين الثاني 1982.

بعد انقضاء يومين، في 16 سبتمبر - أيلول، عند الساعة الخامسة والنصف عصراً أوقف حبيب طانيوس الشرتوني البالغ من العمر 26 سنة في منزله، من قبل أحد أبناء عمه إلياس الشرتوني الذي كان أحد قادة جهاز الأمن الذي يرأسه إيلي حبيقة. فقد وشت بحبيب عن غير قصد أخته التي كانت في حالة هستيرية تصيح قائلة إنها مدينة ببقائها حية لأخيها. الأمر الذي لفت انتباه المحققين.

كان حبيب قد وضع، ليلة 12 سبتمبر - أيلول، 35 كيلو غرام من مادة TNT ضمن حقيبتين في الطبقة الثانية من المبنى، في شقة والديه حيث تسكن أخته. وكان بشير يعقد اجتماعاته في الطبقة الأولى. ويوم 14 سبتمبر - أيلول كان الشرتوني قد انتظر في الشارع على نحو ما فعل في الأيام السابقة. هذه المرة حضر الرئيس. فاتصل الشرتوني هاتفياً بأخته التي كانت في البيت وطلب منها موافاته إلى المستشفى بحجة أنه تعرض لحادث. كان مختبئاً وراء سيارات متوقفة في الشارع، وانتظر حتى خرجت أخته وابتعدت فضغط على منبه جهاز التحكم عن بعد لسيارة يابانية الصنع.

سلم الشرتوني من قبل القوات اللبنانية إلى أمين الجميّل دون أن يستجوبه أحد فوضعه هذا في عهدة أحد قادة الميليشيا المدعو "طانسا" والمسؤول عن منطقة الدوار في المتن الأعلى. وضع حبيب مقيداً في الطبقة السفلية لدارة مهجورة. وبعد ذلك ببضع ساعات، تمكن هذا من فك قيده الحديدي الذي كان سيئ الإغلاق، وفر هارباً من كوة مفتوحة واختفى تحت جنح الظلام. لكنه اعتقل عند الفجر من قبل رجال HK الذين كانوا على آخر حاجز للقوات اللبنانية، فيما كان يعبر نحو المنطقة التي يسيطر عليها السوريون. وأعيد الشرتوني فوراً إلى مبنى الأمن، حيث وضع أمام كاميرا فيديو وبدأ استجوابه.

قال برصانة وهدوء إنه عضو في الحزب السوري القومي الاجتماعي:

- منذ ثلاث سنوات، في سنة 1979، اتصل بي من الجناح اللبناني في الحاضرة الجامعية بباريس، نبيل العلم، رئيس جهاز الاستخبارات في الحزب السوري القومي الاجتماعي، وطلب مني الانضمام إلى جهازه لأنني مسيحي من الأشرفية.

لم تكن عائلة الشرتوني مجهولة تماماً عند الحزب الموالي لسوريا. فإن شقيق حبيب طانيوس الشرتوني، جورج، كان يدير من قِبَل خلية للحزب السوري القومي الاجتماعي في

إيطاليا. وكان والدهما[1] يملك مختبراً للتحاليل الطبية في بيروت الغربية، في شارع كليمانصو، وفي مكان غير بعيد عن السفارة الفرنسية.

- وتم فصلي سريعاً للالتحاق بهواري، أكد حبيب.

كان هواري[2] أبو الهول الفلسطيني، عضواً في جهاز استخبارات فتح. وكان خصوصاً رئيس خلية أمان المندوبين،[3] حيث كان يعاونه المدعو "النقيب سعدي". كان قد أعدّ بنية ودور هذه الخلية طالب حقوق يدعى فؤاد الشمالي[4]. كان مبدأ عمل هذه الخلية بسيطاً: تعهد العمل الإرهابي. فكان على كل حزب، أو إسلامي، أو تقدمي، تبعاً لإمكانيته، أن يقدم لمنظمة أمان المندوبين معلومات، ووسائل تقنية، وعتاداً، ورجالاً. وكان ينبغي لهؤلاء الرجال الآتين من آفاق مختلفة، أن يتمكنوا من "العمل" في محيطهم الأصلي. وهكذا كان الموارنة منهم "يعالجون" أهدافاً في المناطق المسيحية، ويقوم السنة منهم بالعمل ذاته في مناطقهم. وهلمجرا. كانت هذه الطريقة تسمح باختراقات أكثر أمناً، وبـ"تضليل التحقيقات". وقد أتاح التحقيق حول نشاط هذه المنظمة توقيف اثنين من المسيحيين هما جوزيف كازاريان، ونزيه شعيا، اللذان كانا وضعا سيارة ملغومة بالقرب من قصر بسترس[5] لأجل اغتيال بشير الجميّل في فبراير - شباط 1980. وحطم الانفجار سيارة بشير المرسيدس 280 الخضراء اللون التي كان في داخلها ابنته مايا والاثنان من حرسه الشخصي. كان هذان الرجلان، في فترة ما، ينتميان إلى مجموعة إلياس الشرتوني[6] الذي كان يرأس فريقاً ينتمي إلى جهاز استخبارات القوات اللبنانية الذي يرأسه إيلي حبيقة. كانت منظمة أمان المندوبين تعمل لحساب كل من "مزوديها"، وكذلك بناء على طلب كل من يدفع بدل أتعابها (غالياً جداً). وكان حبيب الشرتوني قد "أعطي" في هذا الإطار إلى "المنظمة" من جانب الحزب السوري القومي الاجتماعي، هذا الذي استغرب اتهامه بالتورط مباشرة في اغتيال بشير الجميّل. وقد أكد زعيمه إنعام رعد في بلاغ صدر عنه أن واضع المتفجرات ليس عضواً في منظمته.

(1) اغتيل سنة 1983.

(2) يقال إن هواري عاد إلى الظهور على ساحة الإرهاب الدولي باسم العقيد هواري. وقد اشتبه بتورطه في مختلف "الهجمات بالحقيبة سميتيكس" ضد الطائرات.

(3) المبعوثون الأمنيون.

(4) يجب التمييز بينه وبين فؤاد الشمالي نقيب الأطباء السابق ومؤسس التنظيم. أما فؤاد الشمالي المقصود هنا فهو يساري متطرف يحمل اسم وشهرة الطبيب الذي هو ابن عم.

(5) وزارة الخارجية

(6) الذي كان قد تميز "بتجاوزات" ضد الدروز. انظر الفصل 18: "المناطق المحررة". اغتيل سنة 1984.

وفي 28 أبريل – نيسان 1983، سُلِّم حبيب طانيوس الشرتوني، الذي كان محتجزاً في سجون القوات اللبنانية، إلى الجيش اللبناني بأمر من فادي أفرام، كي يحاكم على قتل بشير. فنقله العقيد صلاح منصور إلى إحدى زنازين الشعبة الثانية، الكائنة في المبنى الثاني لوزارة الدفاع في اليرزة. ومثل في اليوم ذاته أمام النائب العام العسكري أسعد جرمانوس الذي فتح تحقيقاً قضائياً بحقه. اعترف الشرتوني بالوقائع، وكرر حرفياً تقريباً ما كان قد قاله أمام كاميرات القوات اللبنانية. ووجهت إليه تهمة قتل رئيس الدولة. وقام أمين الجميّل، الذي كان في هذه الأثناء، قد انتخب رئيساً للجمهورية، بحمل مجلس الوزراء على نقل الملف من القضاء العسكري إلى المحكمة العليا المنصوص عنها في الدستور ولكنها كانت غير موجودة[1].

وغادر قاتل بشير الجميّل زنزانته في وزارة الدفاع سنة 1983 ونقل إلى سجن مجاور لثكنة مغاوير الجيش في روميه. وأطلق سراحه يوم 13 أكتوبر – تشرين الأول 1990 عندما دخلت القوات السورية المتن الذي كان يدافع عنه الجنرال ميشال عون. وقدم حبيب الشرتوني كبطل، وأجرى ندوات صحفية. واشترك في عدة برامج تلفزيونية.

(1) لم تنشأ المحكمة العليا في عهد أمين الجميّل، وهي لم تزل غير موجودة حتى شهر مايو – أيار 1994.

23

عملية "الدماغ الحديدي"

عشية رأس السنة اليهودية، يوم 14 سبتمبر – أيلول 1982، غادر آرييل شارون بعيد الظهر مكتبه المكيف في وزارة الدفاع متوجهاً بالسيارة إلى مزرعته في النقب. كان ذاهباً لتمضية هذا العيد، كما في كل سنة، مع عائلته وزوجته ليلي. وعند الساعة الرابعة والنصف من بعد الظهر، رن جرس الهاتف في سيارته. طلب منه ضابط الدوام أن يستعمل خطاً محمياً كي يتصل فوراً بناحوم عدموني، مدير الموساد. فطلب من سائقه أن يتوقف في أول نقطة عسكرية حيث اتصل بتل أبيب.

– اغتيل بشير الجميّل، أخبره عدموني بصوت متجلد.

عاد آرييل شارون أدراجه. واتصل من سيارته التي كانت تسير بسرعتها القصوى مستدعياً كلاً من رفول، ويهوشع ساغي، وناحوم عدموني، وأفراهام شالوم رئيس جهاز شين بيت. كانوا كلهم حاضرين لدى وصوله. وابتدأ حينئذ مجلس حربي حقيقي.

كان أفراهام شالوم، الملقب بأفروم من قبل أصحابه، رجلاً متوسط القامة، مستدير الوجه، يلبس نظارات معدنية الإطار، وكان رجلاً بارداً. كان دائماً يخيل للرائي أنه غاضب. اسمه الحقيقي باندور، وهو من مواليد 1929، مولع برياضة الملاحة الشراعية ويملك يختاً صغيراً، وقد عين على رأس شين بيت قبل ذلك بسنة وأثلج هذا التعيين صدر شارون. كان الاثنان يتشاطران رؤية واحدة إلى مكافحة "الإرهابيين" الفلسطينيين: التصفية بعمليات سرية[1]. كان مديراً سابقاً لدائرة "أكسيون" (وحدة العمليات) في شين بيت، واشترك يوم 11 مايو – أيار في بوينس آيرس باختطاف كليمانت، الاسم الرمزي الذي أعطي لأدولف آيخمان.

الطبقة الثانية في الوزارة، حيث يوجد مكتب شارون، أخذت تدندن كقفير نحل. فقد

(1) اضطر أن يستقيل سنة 1986 على أثر تقرير لجنة لاندو الذي أثبت أنه أصدر الأمر إلى شين بيت باغتيال فلسطينيين اثنين أوقفا بعد أن كانا قد اختطفا ركاب حافلة على الخط 300 بين تل أبيب وعسقلان يوم 13 أبريل – نيسان 1984.

دُعي كل الموظفين للحضور. كانت الأخبار الآتية من لبنان متناقضة، بعضها يؤكد أن بشير حي، وبعضها يقول العكس، وما كان لأي منها أن يفضي إلى يقين مطلق. اقتنع شارون بسرعة بأنه في أي حال إذا كان بشير قد مات، فيجب اغتنام الفرصة لـ"تطهير" بيروت الغربية كما كان قد تقرر قبل ليلتين في بكفيا مع الرئيس. لم يعد ضرورياً انتظار "تغطية" لبنانية لإطلاق هذه العملية، فاغتيال بشير يمكن أن يكون "شرارة" ممتازة لذلك. إلا أنه كان يجب اللعب على عنصر المفاجأة والعمل بسرعة كبيرة، قبل أية ردة فعل أميركية. واتصل وزير الدفاع بمناحيم بيغن ليطلعه على مشروعه.

أكد مناحيم نافوت من فيلا مقصود في طبرجا عند الساعة العاشرة والنصف مساءً أن بشير كان بين ضحايا الانفجار الاثنين والعشرين. وعاود شارون الاتصال ببيغن ليعلمه بالأمر. وافق رئيس الوزراء على مشروع شارون وطلب منه أن يعلم إسحق شامير بالأمر. وذكره بيغن أيضاً بالقرار الذي اتخذه مجلس الوزراء المصغر: "غير وارد أن يدخل رجالنا مخيمات صبرا وشاتيلا والفاكهاني".

فأمر شارون رئيس الأركان بأن يدخل بيروت ويسيطر على النقاط الحساسة في المدينة. وطلب إعداد طائرة لنقله إلى بيروت منذ الصباح، وذهب لينام.

في الدقيقة العشرين بعد منتصف الليل وقّع رفائيل إيتان الأمر رقم (1) بإطلاق العملية وذهب إلى المطار حيث كانت تنتظره طائرة لتقله إلى مسرح العمليات.

عند الساعة الثالثة والنصف فجراً، لم يكن أحد ينتظر رفّول ومرافقيه في مركز قيادة القوات اللبنانية في الكرنتينا[1]. شعر الحرس بشيء من الحيرة لدى وصولهم. وحضر فادي أفرام، وزاهي البستاني، وأنطوان بريدي وجوزيف سعادة وكانت لا تزال الصدمة بادية على وجوههم لرحيل بشير وعيونهم حمراء من التعب والدموع، وانضموا إلى الإسرائيليين في قاعة الاجتماع الكبيرة. سلّم عليهم رئيس أركان الجيش الإسرائيلي على عجل، وبسط خريطة بيروت على الطاولة. كان يشار إلى المخيمات الفلسطينية على الخريطة بحبر أحمر. وقال إيتان دون مراعاة المجاملات، متطرقاً بصورة مباشرة إلى الموضوع:

سندخل بيروت الغربية على ثلاثة محاور: من الميناء صوب قطاع النورماندي، ومن السفارة الكويتية صوب الوسط بمحاذاة المدينة الرياضية، وعلى طول الطريق الساحلية صوب الرملة البيضاء. نطلب منكم أن لا تتحركوا وأن تراقبوا مناطقكم. نطلب من الجيش اللبناني أن لا يعترض تقدمنا. وبعد ذلك سنكون ربما بحاجة إليكم لأجل تنظيف

(1) الجنرالات أمير دروري وموشيه ليفي وأوري ساغي رئيس العمليات في الجيش الإسرائيلي، وكذلك مندي (مناحيم نافوت) الشخص الثالث في الموساد.

المخيمات. سأرسل لكم ضابط ارتباط يقيم في مركز قيادتكم. وسيبقى هناك طالما اقتضى الأمر بقاءه. وبالانتظار، أعدّوا وحدات صغيرة للانضمام إلينا إذا دعت الحاجة. سنتحرك عند الساعة الخامسة. اسم العملية الرمزي هو "الدماغ الحديدي".

كان هدف العملية "البحث عن إرهابيين ووثائق ومخابئ أسلحة". لم يفاجأ أفرام بذلك. فقد كان هذا مقرراً ومدروساً منذ أسابيع في نطاق عملية "الشرارة". قَبِل الأمر دون تردد، أولاً لأن بشير كان قد حدثّه عنه عشيّة الانفجار، وثانياً لأنه كان دائماً يؤيّد قيام التزام عسكري أكثر وضوحاً من قبل القوات اللبنانية إلى جانب الإسرائيليين. وكان يتحمل يومياً، منذ بدء عملية "سلامة الجليل" خيبة الضباط الإسرائيليين وانتقاداتهم اللاذعة أحياناً إزاء عدم التزام القوات اللبنانية بالعمل إلى جانبهم. وكان أفرام على يقين من أنه، إذا شارك ولو بقدر متواضع في هذه العملية، سيتوصل إلى سد الثغرات التي ظهرت في العلاقات بين القوات اللبنانية وإسرائيل في لحظة قد يكون فيها محتاجاً إليها.

كان الإسرائيليون، في الواقع، لا يحتاجون البتة - لا تقنياً ولا عسكرياً - إلى القوات اللبنانية لتنفيذ عمليتهم. وما كان لحضور الميليشيا في هذه العملية أن يكون على الأكثر سوى ضرورة إعلامية أو سياسية.

طلب فادي أفرام مهلة 48 ساعة قبل أن يضع رجاله تحت تصرف رفائيل إيتان، نظراً إلى مأتم بشير الجميّل وسائر ضحايا الانفجار. واعتبر القائد الأعلى للعملية أمير دروري أنه "قد يحتاج" إلى عناصر الميليشيا قبل ذلك واقترح استبدالهم بالجيش اللبناني. واقترح أفرام عليه أن يعود لاحقاً للبحث مباشرة مع العقيد ميشال عون، قائد اللواء الثامن المنتشر على خطوط التماس. بعد خروج الإسرائيليين اتصل أفرام هاتفياً بميشال عون طالباً منه الحضور. حين وصل الضابط، كان أفرام يذرع المكان لوحده ذهاباً وإياباً، قبيل الفجر. توجه الرجلان بصورة آلية نحو مقر القيادة الذي يطل على البحر وعلى مرفأ بيروت. أطلعه أفرام على قرب العملية الإسرائيلية وتمنيات دروري.

- هل مات بشير حقاً؟ سأل الضابط.

- أجل، ورأيت جسده بنفسي.

تحدث الرجلان بضع دقائق عن عواقب رحيل الرئيس المنتخب وعادا إلى قاعة الاجتماع حيث كان أمير دروري ينتظرهما. سأل دروري الضابط اللبناني عن إمكان تدخل لوائه في المخيمات الفلسطينية، فأجابه عون قائلاً: "لن يكون هذا ممكناً دون أمر من حكومتي!"

عند الخامسة من صباح يوم 15 سبتمبر - أيلول 1982، تقدمت أول ناقلة جند من طراز

M 113، وهي تحمل قماشة برتقالية اللون للتعرف عليها، نحو بيروت الغربية في غيمة من الغبار. وفي الوقت ذاته أخذت طائرات مطاردة – قاذفة تحمل نجمة داود تحلق فوق المدينة على ارتفاع منخفض في عرض للعضلات يصم الآذان. كانت المفاجأة كبيرة. كان سكان مدينة بيروت الغربية لا يزالون يعانون من الصدمة، ويتساءلون عمّا إذا كان بشير قد مات حقاً[1]. وما كانوا ليتوقعوا وصول الإسرائيليين مطلقاً. وما كانوا يظنون فقط أنّ "خطة فيليب حبيب ستحميهم"، بل وفوق ذلك وبحسب التقليد اللبناني، يدفن الموتى أولاً قبل القيام بردة الفعل.

أوغلت الوحدات الإسرائيلية في القطاع ذي الأكثرية المسلمة من العاصمة "كما في قطعة من الزبدة الفاترة"[2]. وعند الساعة السابعة والنصف فقط، أي بعد مرور ساعتين ونصف على اجتياز خطوط وقف إطلاق النار، سُمعت أولى الطلقات النارية وانفجار في قطاع المدينة الرياضية. صحيح أن انتخاب بشير الجميّل أعقبه "تطبيع" فعلي. كان مقاتلو بعض المجموعات السياسية قد ألقوا سلاحهم. لم يعودوا مسلحين وإن كانوا قد أخذوا أسلحتهم أو دفنوها في التراب. السواتر الترابية، التي تكسوها الأعشاب وأحياناً شجيرات فيما خص الأقدم بينها، كانت قد أزيلت من معظم مناطق القتال. وكانت الألغام قد نزعت من الشوارع والأزقة، وأعاد الجيش اللبناني "السلام" إلى خطوط التماس.

انتشر خبر دخول الإسرائيليين بيروت الغربية بسرعة وأثار موجة من الذعر عند الفلسطينيين. كانت قد حصلت موجة هامة أولى من النزوح نحو الأحياء السكنية في بيروت الغربية يوم 3 سبتمبر – أيلول، حين تقدمت وحدة من الجيش الإسرائيلي من المطار إلى السفارة الكويتية[3]. وهذه المرة غادرت موجة بشرية حقيقية على عجل مخيمي صبرا وشاتيلا ولجأت إلى قلب المدينة السنّية. وانتقل المسؤولون السياسيون اللبنانيون المقربون من منظمة التحرير الفلسطينية إلى الحياة السرية. وطلب إبراهيم قليلات، "زعيم المرابطون" اللجوء إلى السفارة الفرنسية. ولجأ شفيق الحوت، ممثل منظمة التحرير الفلسطينية في بيروت إلى السفارة السوفياتية. وحدها مجموعة صغيرة تضم نحو خمسة عشر شاباً فلسطينياً مسلحين برشاشات كلاشنيكوف وببنادق صيد، اعتصمت وسط الصراخ وحركات الأيدي في مخيم صبرا، في مكان يدعى الدقي "كي تقاوم".

أكد ناطق عسكري في تل أبيب عملية "الدماغ الحديدي" رسمياً، وأوضح أن إسرائيل

---

(1) ظلت شائعات حول هذا الموضوع منتشرة طيلة أشهر.

(2) قال هذا ضابط إسرائيلي لألان مينارغ.

(3) انظر الفصل السابق: "معاهدة الصلح".

"تتخذ إجراءات عسكرية لتحاشي سفك الدماء بين الطوائف اللبنانية على أثر اغتيال بشير الجميّل".

بعد الساعة السابعة والنصف صباحاً ببضع ثوان، هبطت طائرة ذات أربعة محركات تحمل نجمة داود، من طراز هرقليس، على المدرج رقم 36 في مطار بيروت الدولي. خرج من بابها الخلفي آرييل شارون مرتدياً قميصاً نصفي الكم، ومستشاره أني دوداعي، ورئيس جهاز آمان يهوشع ساغي، ومعاون رئيس الأركان موشيه ليفي، واختصاصيان في الضربات القاسية هما أفراهام شالوم رئيس شين بيت الذي كانت صلاحياته لا تشمل بيروت مطلقاً، والجنرال أمنون لبكينز.

كان هذا الأخير قد جاء إلى بيروت ليلة 9 – 10 أبريل – نيسان 1973 لتنفيذ عملية "أفيف نيحوريم"[1]. كان آنذاك عضواً في كوماندو سايريت ماتكال[2] الذي كان بإمرة الملازم يهودا باراك، الذي نزل من البحر في مكان غير بعيد عن صخور برج الحمام، وشاركوا في قتل مقدّمين في حركة فتح هما محمد النجار (أبو يوسف) وكمال عدوان، والناطق باسم منظمة التحرير الفلسطينية آنذاك كمال ناصر، وذلك في قلب بيروت الغربية.

كان أمنون لبكينز مثقفاً طويل القامة، وقد ولد في حيفا سنة 1944. كان قد دخل وهو في الرابعة عشرة من العمر الأكاديمية العسكرية في هذه المدينة، وكان دائماً منذ ذلك الحين عضواً في الوحدات الخاصة للجيش الإسرائيلي[3]. والآن يتولى قيادة لواء مدرع منتشر في الشوف.

كان نشاط محموم يسود مطار بيروت الدولي الذي تحوّل إلى رأس جسر جوي حيث كانت طائرات من طراز تلك التي أقلت شارون تفرغ رجالاً وعتاداً. كان المظليون ينزلون من الطائرات ويتوجهون فوراً إلى بيروت. كان في استقبال وزير الدفاع مناحيم نافوت الذي كانت يده مضمدة بسبب سقوطه البارحة في أنقاض المركز، والعقيد أرنوف إلكانا رئيس جهاز مخابرات الجنرال أمير دروري، ووليد فارس (وودي) ضابط الارتباط بين القوات اللبنانية والإسرائيليين. طلب أريك الانتقال إلى المركز الأمامي لعاموس يارون حيث كان

---

(1) "ينبوع الشباب".

(2) وحدة استطلاع تابعة مباشرة لرئاسة أركان الجيش. هي في الحقيقة وحدة كوماندو معدة لمواجهة كل الأمور غير المتوقعة العسكرية والمقاومة للإرهاب، ولمصلحة "أكسيون" إسرائيل.

(3) اتخذ اسم أمنون ليبكنز بعد تعيينه قائداً لوحدة الكوماندو السرية تماماً سايريت ماتكال (1983)، ثم ترأس آمان (1986). وكان معاون رئيس الأركان يهودا باراك بين 1991 و1995، ومكلفاً بالعمليات الخاصة، ثم بات بدوره رئيساً لأركان الجيش في أبريل – نيسان 1995. وكان أحد المفاوضين الإسرائيليين في مناقشات طابا مع الفلسطينيين.

ينتظره رفّول. سلك الموكب – المؤلف من سيارتين مدنيتين ترافقهما سيارتا جيب إسرائيليتان – الطريق الساحلية واجتازا الأوزاعي، المعقل الشيعي. وتفقّد دون أن يتوقف نقاط المراقبة التي كانت قد أقامتها منذ الفجر ميليشيات جيش لبنان الجنوبي الشيعية التابعة لنصف سرية "صعدت" إلى بيروت بصحبة الجيش الإسرائيلي في شهر يونيو – حزيران.

وحول فنجان من القهوة، على سطح مبنى يشرف بشكل عمودي تقريباً على مخيمي صبرا وشاتيلا، وأمام خرائط وصور جوية لهما، قدّمَ رئيس الأركان الإسرائيلي إلى وزير الدفاع تقريراً عن تقدم الوحدات وانعدام المقاومة. وقدم له موجزاً للمناقشات التي دارت بينه وبين فادي أفرام. واتصل شارون بواسطة الهاتف العسكري مرتين بمناحيم بيغن ليطلعه على آخر أنباء الوضع، هذه التي ربما احتاج إليها خلال اللقاء الذي كان رئيس الوزراء يعزم عقده مع موريس درابر وصموئيل لويس سفير الولايات المتحدة في إسرائيل.

في الطرف الآخر لبيروت الغربية، ومن فوق مبنى الأهراء الأبيض الفخم الذي يشرف على المرفأ، كان فادي أفرام والجنرال أفيغدور بن غال يتابعان بالمنظار تقدم الجيش الإسرائيلي في الجهة الأخرى للمنشآت المرفئية.

عاد الوزير الإسرائيلي ومرافقوه إلى سياراتهم في اللحظة ذاتها. سلك الموكب الذي كان يرشده العقيد أرنون إيلكانا طريق الكرنتينا ملتفّاً حول المطار من الجهة الجنوبية. وبعد بعبدا، ورغم تحذيرات القوات اللبنانية[1] التي كانت ترافقه، سلك إيلكانا طريق غاليري سمعان التي تقود مباشرة إلى حيي الشياح وبئر العبد الشيعيين في الجهة الغربية. ولما رأى دركي لبناني كان هناك أن سيارتي الجيب الإسرائيليتين تهمّان بدخول "الجيب"، اندفع بسرعة إلى أمام الموكب وهو يقوم بحركات كبيرة بيديه لكي يوقفه. فتوقفت المركبات بين سواتر ترابية على مستوى كنيسة مار مخايل. كان لم يبق أمامهم سوى بضعة أمتار حتى يدخلوا منطقة كانت تسيطر عليها ميليشيات يسارية لبنانية. لولا ذلك الدركي، لكانت وزارة الدفاع الإسرائيلية والجيش الإسرائيلي وكل أجهزة مخابرات الدولة العبرية قد خسرت رؤوسها لأن ضابط استخبارات عسكرية قد ضلّ الطريق.

نهض مناحيم بيغن عن مقعده لدى دخول درابر ولويس اللذين جاءا لأجل البدء بمباحثات حول انسحاب القوات الأجنبية من لبنان، أي البند الثاني من اتفاقيات "فيليب حبيب". أخبرهم رئيس الوزراء، حتى قبل أن يسلّم عليهما، قائلاً: "أتشرّف بأن أخبركم أن قواتنا تتقدم، منذ الخامسة من هذا الصباح، وتتمركز داخل بيروت الغربية. هدفنا هو

(1) هذا ما قاله وليد فارس لألان مينارغ.

الحفاظ على الهدوء في المدينة. بالنظر إلى الوضع الناشئ عقب اغتيال بشير الجميّل، فإنه قد تحدث فيها مذابح"[1].

فوجئ الأميركيان بذلك فلاذا بالصمت. بعد أن دعاهما رئيس الوزراء إلى الجلوس، شرح لهما بأن الغاية من هذه العملية هي "تفادي حمام دم" وأن لا علاقة لها بتطور الوضع السياسي داخل لبنان. وبعد أن حُشر بالأسئلة، أكّد بيغن لمخاطبيه أن هذه العملية محدودة في الزمان والمكان. بعد أن اطمأن الأميركيان، راحا يصغيان إليه وهو يعرض خطة انسحاب القوات الأجنبية من لبنان كما كان قد بحثها مع بشير في نهاريا. شرح بيغن لهما الروزنامة التي تقضي أولاً بأن ينسحب مقاتلو منظمة التحرير الفلسطينية من شمال لبنان ومن البقاع، ثم انسحاب متزامن وعلى مراحل للقوات السورية والإسرائيلية، على أن تنتهي المرحلة الأخيرة "بعد بضعة أسابيع، ستة أو سبعة أسابيع على الأكثر". كانت هذه أول مرة منذ 6 يونيو – حزيران يتكلم فيها بمثل هذا الموضوع مع الأميركيين. وكان لهذا الموقف ولهذه "الرصانة" الإسرائيلية الظاهرة في "تزامن" الانسحابات ثمارها. فلم ينتقد الأميركيان إلا باعتدال كبير دخول الجيش الإسرائيلي إلى بيروت الغربية، سواء أمام المذياع أو الكاميرات عند خروجهما من مكتبه.

وصل شارون إلى الكرنتينا عند العاشرة صباحاً. كان إيلي حبيقة ومعاونه أسعد شفتري وحنا صفتلي، قد انضموا إلى الذين كانوا قد التقوا رفّول خلال الليل.

– نحن في وضع مأساوي – أكّد لهم وزير الدفاع – أنا أعرف ما يقول دستوركم في مثل هذا الظرف. لكنكم وحدكم قادرون على الاضطلاع بهذه الأمور. يجب أن تختاروا واحداً منكم، الشيخ بيار أو شخصاً آخر، إذا كان يراد تعيين رئيس للوزراء. يجب أن تعملوا بسرعة لأن الأميركيين سيتحركون. أنا لا أذكر الشيخ بشير، ليس لأننا لا نشعر بالأسى، بل لأن الساعات التي نعيشها ساعات حرجة. يجب أن تتخذوا قرارات منذ الآن! اعلموا، وأكرّر لكم هذا، أننا معكم! سنقدم لكم كل المساعدة التي قد تحتاجون إليها. سنواصل معاً ما بدأناه قبل سبع سنوات. لم تكن توجد أسرار بين بشير وبيننا. من المهم جداً أن نواصل التعاون بالطريقة ذاتها. لا نعلم كيف ستكون ردة فعل الأميركيين. لا بد أنهم سيتساءلون عما يمكن أن يكون الحل الأفضل. أمّا أنا، فإنني أسألكم أنتم عن ذلك! ماذا يجب أن تفعلوا؟ نحن لن نؤثر عليكم. أما من جهتي، فإنني لا أرى سوى خيار واحد: عليكم أن تسيطروا على البلاد. يبقى أنه يجب معرفة كيف ستتمكنون من الاستيلاء على الحكم؟

طمأنه زاهي البستاني. ستواصل القوات اللبنانية العمل لبلوغ الأهداف التي حدّدها

(1) معاريف بتاريخ 16 سبتمبر – أيلول 1982.

بشير. وشرح للوزير أن ما في الأمر ليس مسألة سياسية وإنّما قاعدة حياة. "غير أننا بحاجة إلى بعض الوقت لبحث الأمر شكلياً مع الشيخ بيار – ختم كلامه – فلا تحشروننا بالدعوة إلى المبالغة في السرعة".

كان هناك ثلاث إمكانيات، سياسياً. إمّا تشكيل حكومة برئاسة ماروني لتصريف الأعمال خلال الفترة الانتقالية. أو دعوة البرلمان إلى انتخاب رئيس جديد. أو تمديد ولاية إلياس سركيس، إن لم ينتخب رئيس قبل 23 سبتمبر – أيلول. كان خيار القوات اللبنانية لا يزال السعي، قدر الإمكان، إلى استلام الحكم دستورياً. أضاف البستاني متوجهاً إلى شارون:

– إن لم ننجح في ذلك، سنتصرف بوصفنا قوات لبنانية وكتائب. فهل هذا يكفيكم كتغطية؟

– هذه ستكون مسألة أخرى! – تدخل يهوشع ساغي قائلاً بلهجة جافة. سيكون هناك الحكومة الشرعية من جهة وأنتم من جهة أخرى. سنتعرض نحن لضغوط وسنضطر حتى إلى مغادرة بيروت. هذا رأيي الشخصي في الموضوع.

نسف شارون بحركة من يده ملاحظة رئيس آمان. كان ساغي قد دعاه في الطائرة التي أقلّتهم إلى بيروت، إلى قطع كل اتصال مع الكتائبيين. واقترح بإلحاح قطع العلاقات مع مساعدي بشير الجميّل لأن هذا قد رحل. فأنّبه شارون.

– سأكون صريحاً معكم – قال أريك لفادي أفرام – اسعوا جهدكم لاستلام الحكم دستورياً. فإذ لم توفّقوا، فإننا سنساعدكم وسندعمكم. لكن احذروا، فالوقت قصير! الأميركيون حائرون بين التمديد لسركيس والوزان وبين ترشيح كميل شمعون للرئاسة. إنهم حتى مرتبكون قليلاً، لكن هذا لن يدوم. احذروهم ولا تكونوا ساذجين. لقد أمضينا شهوراً طويلة لإقناعهم بأن بشير كان اختياراً جيداً وبأن الموارنة عامل استقرار في لبنان. الجميع يفكرون الآن ويخططون، وهذا ما يدعو إلى العجلة. تصرفوا بالوسائل الشرعية.

ثم انتقل شارون مباشرة إلى الوضع العسكري:

– يجب أن تدخل قواتكم بيروت الغربية وراء قواتنا. سنصل إلى المزرعة بعد قليل. سنتقدم الليلة من المرفأ نحو رأس بيروت، لكننا سنترك قوات في المرفأ تحسباً لعودة قوة متعددة الجنسيات.

كان تابوت بشير مسجّى في كنيسة مار عبدا الصغيرة في بكفيا. وكان مئات الألوف من اللبنانيين الذين جاؤوا لوداعه ينتظرون في صفوف طويلة خارج الكنيسة. تحت القباب الحجرية، كانت تمتمات الصلوات تختلط بالزفرات وبصيحات الغضب التي يطلقها أفراد

حرس بشير الشخصي، الذين كانوا متمددين بصورة هستيرية فوق النعش. أثار هذا غضب أمين الجميّل فصاح بهم:

– اخرسوا أنا هنا، وسأواصل ما فعل بشير.

كانت وفاة أخيه تتشاطر أولى صفحات الجرائد العالمية مع وفاة غرايس أميرة موناكو مساء أمس في حادث سير. أما العنوان الثالث فكان بلا شك لقاء ياسر عرفات والبابا يوحنا بولس الثاني في إطار مقابلات الأربعاء العلنية في الفاتيكان. وكان هذا اللقاء قد أثار غضب مناحيم بيغن فقال: "إن استقبال ياسر عرفات من قبل الحبر الأعظم مثير للغيظ. [. . .] فيما أن الفاتيكان لم يحرك ساكناً حيال محرقة اليهود إبّان الحرب العالمية الثانية". قال هذا عشية الاستقبال. وردت روما – هذا أمرٌ نادرٌ للغاية – ببلاغ قاسٍ واصفة كلام بيغن بأنه "لا يصدق" وبأنه "إهانة للحقيقة".

كان شارون يرتدي قميصاً قصير الكم، حسب عادته، عندما ترجّل ومعه مرافقوه من السيارة أمام منزل بيار الجميّل في بكفيا. أدخل الجميع إلى صالون مقبب السقف وقليل الإضاءة في الطبقة الأرضية، وحيث كانوا في منأى عن الغرفة التي كان رجال أسرة الجميّل يتقبّلون فيها التعازي. وأبلغ الرئيس وأمينٌ بوصولهم. فنزلا على الفور ورحبّا بالرجال العشرة المحيطين بشارون. أعرب الوزير الإسرائيلي عن ألمه بلهجة متأثرة جداً وباللغة الإنكليزية. تولى مناحيم نافوت الترجمة إلى الفرنسية من أجل الشيخ بيار. فردّ هذا مذكراً بحتمية وقساوة الكفاح السياسي. وقدم فنجان من القهوة إلى كل منهم. وقدم وودي أمين إلى الإسرائيليين فأكّد شقيق الراحل لشارون:

– كان بشير يطلعني على كل ما يفعل وعلى علاقاته الوثيقة بكم. سأحمل الشعلة . . .

– أنا هنا لتقديم التعازي، ولا أريد التحدث في أمر آخر، قاطعه الوزير بلهجة جافة[1].

تحدث أريك بعد ذلك بضع دقائق مع بيار الجميّل، بواسطة نافوت كترجمان، ثم رحل. وتحدث الوزير مرة أخيرة مع رفائيل إيتان وموشيه ليفي في مطار بيروت. وأقلعت طائرته متوجهة إلى تل أبيب عند الساعة الثانية ظهراً. بعد ذلك بقليل دخلت دبابات مركافا الإسرائيلية حي الفاكهاني حيث استقبلها الأهالي على مضض. وفي حي الغبيري، شرقي الأوتوستراد الذي يقود إلى المطار تصدّت لها عناصر من ميليشيا حركة أمل الشيعية وعناصر من الفلسطينيين بضع دقائق، ودمّرت دبابة إسرائيلية. وبات مخيما صبرا وشاتيلا مطوقين.

في تل أبيب، كان مختلف الناطقين الرسميين يتناوبون على القول بأنه ليس في الأمر سوى "عملية محددة من حيث أهدافها ومدتها". غير أنه مع مرور الساعات، بدأت وسائل

(1) قال هذا وليد فارس لألان مينارغ.

الإعلام الدولية الحاضرة في بيروت تكشف النقاب عن ضخامة هذا التدخل. وفي واشنطن استدعى جورج شولتس السفير الإسرائيلي موشيه آرانز وسأله عن الأهداف الحقيقية التي يسعى إليها الجيش الإسرائيلي.

في منتصف ما قبل ظهر يوم الأربعاء 15 سبتمبر – أيلول 1982، كان مخيما صبرا وشاتيلا غير مقطوعين تماماً بعد عن باقي المدينة، "دخلت قوات إسرائيلية إلى المخيمين الفلسطينيين[1] رغم التأكيدات التي أعطاها آرييل شارون لبيغن ولحكومته. وبعد أن قصفت الدبابات المتمركزة في جنوب شاتيلا بالمدفعية المخيمين "بغية خفض الرؤوس".

راحت عدة مجموعات تضم كل واحدة منها عشرة رجال، يرتدون لباس القتال ولا يحملون أية علامة مميزة ظاهرة، وتابعين لوحدة المغاوير المسماة وحدة "الاستكشاف" سايريت ميتكال، تتغلغل سراً في متاهة الأزقة المقفرة. كان الرجال يتحركون بسرعة، وصمت، حسب مسارات كان يبدو أنهم يعرفونها تماماً، متوجهين نحو مساكن محددة. وبدون تردد، خلعوا أبواب هذه المساكن، وأخذوا يذكرون أسماء أمام ساكنيها المذعورين بواسطة ترجمان يتكلم العربية ولكن بلهجة غير لبنانية. وكلما كان شخص من المنادى عليهم يفصح عن هويته، كان يطلب منه الخروج ثم يقتل ببرودة برصاصة في عنقه[2]. ظلت تسمع طوال النهار طلقات نار متقطعة في داخل المخيمين[3]. وأكّدت عائلتان استطاعتا الهرب من مخيم شاتيلا أن الجنود كانوا إسرائيليين وأمكن لهم أن يتعرفوا عليهم من الكيبا[4] التي كان بعضهم يعتمرها.

وفي يوم 15 أيلول إياه، ومنذ وصوله إلى مطار بيروت عند الساعة الثالثة والنصف من بعد الظهر، توجه الرقيب بيني حاييم مع وحدته من سايريت متكال نحو الشمال. في شاحنة أولاً ثم على الأقدام إلى مكان "غير بعيد عن مخيم شاتيلا". وعند الساعة الخامسة والنصف عصراً، جرح بيني حاييم في ساقه وفي ساعده الأيسر. فبادر ممرض المجموعة إليه وقصّ رباطات حمالة أمشاطه "خوفاً من أن تنفجر الرمانات التي كانت في جيوبه، ورماها إلى مكان بعيد"[5]. وكان في إحداها أوراق هوية الرقيب. عثر على الحمالة فيما بعد في أحد أزقة شاتيلا. قام أولئك الجنود، الذين كان بعضهم أشقر الشعر وأزرق العينين، بقتل 63

(1) شهادة أوردتها جريدة لوريان – لوجور بتاريخ 16 و17 سبتمبر – أيلول 1982.
(2) شهادات العائلتين أمام لجنة جرمانوس.
(3) شهادة ممرضة نروجية وأطباء أجانب في مستشفى عكا.
(4) شهادات سجلتها مراسلة الإذاعة والتلفزيون الأسوجيين في بيروت أفليتا رامبرغ.
(5) إفادة بيني حاييم أمام لجنة كاهان في 23 نوفمبر – تشرين الثاني 1982.

مثقفاً فلسطينياً[1] من رجال ونساء، كان واضحاً جداً أنه كان لدى الجنود لائحة بأسمائهم. كان جميع هؤلاء محامين وأطباء ومعلمين وحتى ممرضات، وكانوا قد قالوا لمن حولهم إنهم باقون في مراكزهم لأنهم على يقين من أن كونهم غير مقاتلين يجعلهم في منأى عن القتال. وانتهت المرحلة الأولى من تصفية المدنيين الفلسطينيين في صبرا وشاتيلا مع نهاية النهار، وغادرت قوات سايريت متكال المخيمين سراً كما دخلتهما[2]. كانت المذبحة قد ابتدأت، وكان يجب أن تكملها مجموعتان أخريان من القتلة.

"كان لا يمكن أن نتصور، حسب منطق جهاز الاستخبارات الإسرائيلية في مكافحة ما يسميه الإرهاب، ألاّ تغتنم الاستخبارات العسكرية المتخصصة الظرف لاجتثاث أولئك الذين تعتبرهم أخطر أعدائها" – اعتبر فيما بعد مسؤول عن مكتب إقليمي لجهاز استخبارات غربية كان يعمل في الشرق الأوسط[3] وأضاف: "باسم ماذا كان على تلك الأجهزة أن تدخل إلى "قلب الإرهاب" المتمثل بصبرا وشاتيلا، كي تستأصل "الشر" بعد أن حصلت على معلومات دقيقة جمعتها منذ 6 يونيو – حزيران؟ كان آمان وشين بيت قد عُبِئا لأجل القيام بمعالجة بواسطة الحاسوب لكل المعلومات المستقاة من مختلف المعاقل الفلسطينية إبّان "الصعود" إلى بيروت. إنهم كانوا يعرفون المخيمين معرفة جيدة".

عند الساعة الرابعة من بعد الظهر، كان لبنان يدفن في بكفيا رئيساً انتخب قبل 21 يوماً. وفي جو من الحداد والصمت المثقل بالغم، أدّى التحية 250 تلميذاً في المدرسة الحربية لدى خروج تابوت بشير الجميّل من الكنيسة ملفوفاً بالعلم اللبناني ومحمولاً على أكتاف ثمانية رجال من الحرس الرئاسي، لكي يوضع على عربة مدفع. وكان يحيط به في صفوف متراصة أفراد أسرته. ورفاقه في السلاح، ومئات من عناصر الميليشيا وجميع النواب – بمن فيهم أولئك الذين قاطعوا انتخابه – والحكومة بكامل أعضائها، والسلك الدبلوماسي، وآلاف الناس العاديين. كانت بيروت الشرقية قد أفرغت من سكانها وانضم أهلها إلى أهل المتن. وجاء كثيرون من أعداء الأمس. وخصوصاً بين السنّة، من بيروت الغربية. كما أن وليد جنبلاط الذي كان في الأردن كلّف أحدهم بوضع إكليل كبير من الزهر. وأرسل الحزب الشيوعي اللبناني، ومنظمة العمل الشيوعي بقيادة محسن ابراهيم، برقيات تعزية. كان كل لبنان حاضراً باستثناء أسرة فرنجية وحلفائها في الشمال. تحركت العربة حاملة النعش على

(1) تحقيق لجنة جرمانوس.
(2) قال هذا أسعد جرمانوس لألان مينارغ.
(3) من حديث مع ألان مينارغ.

وقع ضربات طبل متوجهة على مهل نحو الساحة الكبيرة في بكفيا، وسار وراءها موجة بشرية طويلة تتقدمها أسرة الجميّل وقادة القوات اللبنانية، وصائب سلام، وشفيق الوزان وإلياس سركيس. ومرّ موكب الجنازة الذي كانت تهزه الزفرات قرب لافتات زرقاء كانت قد ثبتت في مواقعها قبل 48 ساعة تشير إلى وجهة "مقر الرئيس". وكان في الموكب ناشطون كتائبيون، فتيان وفتيات، باللباس الأخضر الغامق، ينشدون ويدورون على ذواتهم رافعين فوق رؤوسهم زهوراً وأكاليل، وكانت صيحاتهم تكاد تخفي الموسيقى العسكرية التي ترسم إيقاع موكب الجنازة. وعند وصول النعش إلى ساحة بكفيا الكبيرة قامت طائرتان من طراز ف 16 إسرائيليتان بحركات بهلوانية قصيرة وشديدة الضجيج فوق البلدة تعبيراً عن الوداع. كان على متن إحداهما الجنرال دافيد إيفري الذي كان قد اصطحب بشير في تحليق فوق لبنان قبل سنة. ترأس الجناز النائب البطريركي الماروني المطران نصر الله صفير، وكان يعاونه رؤساء كنائس 13 طائفة مسيحية في لبنان. كان الجمهور يرتل صلوات الموتى مع رجال الدين. أمّا الرئيس إلياس سركيس، فلم يتمكن من النطق إلا ببضع كلمات وبصوت كسير لفرط الألم، فوضع على النعش وسام الاستحقاق اللبناني من رتبة الوشاح الأكبر. وتكلم أمين باسم أسرة الجميّل وعبر عن الأمل بأن لبنان "سيعود مجدداً بلد جميع اللبنانيين، واللبنانيين وحدهم" ثم أقسم اليمين على "رفع المشعل من جديد".

كان لهذه العبارة الأخيرة رنّة إعلان ترشح في غير محلها نوعاً ما. كان الجمهور غير مبال بالعروض السياسية، وكان قد تحلى بضبط المشاعر حتى تلك اللحظة، ثم استولى عليه الانفعال وتحول إلى موجة بشرية عارمة تأخذ في طريقها كل شيء وتمتد حتى تغمر المقبرة الصغيرة.

لم يحضر إيلي حبيقة الجنازة. وبعد انتهاء مراسم الدفن، مرّ فادي على مكتبه وطلب منه أن يضع رجاله في حالة تأهب شارحاً له باختصار أن الإسرائيليين يريدون غربلة مخيمي صبرا وشاتيلا. وانتقل الحديث سريعاً إلى موضوع خلافة بشير وإلى العبارة التي أطلقها شقيقه. باح أفرام لحبيقة بأنه يعارض ترشيح أمين وبأنه يخشى أن تتفكك مؤسسة القوات اللبنانية وأن يقف البشيريون ضد حزب الكتائب. أمّا حبيقة، الذي كان يشاطره عداء قادة القوات اللبنانية لشقيق بشير، فأجابه بأنه ليس هناك من حلّ سوى تأييد أمين. حتى ذلك الحين كانت العلاقات - الصعبة غالباً - بين القوات والحزب من اختصاص بشير وحده، وكان انتخابه رئيساً قد همش الكتائب إلى حد ما. كان لابد للمنافسات السابقة من العودة إلى الظهور بعد رحيل بشير الذي كان قد صنعٌ، أو فرض الوحدة بين الاثنين. وإذا تفاقمت الخلافات سيريد الحزب دون شك أن يضع يده على القوات. كان فادي أفرام مرهقاً بعد 48 ساعة من السهر والصدمة العاطفية، فمضى لينام.

في ليلة 15 سبتمبر - أيلول، وصل مظليو ياموس آرون إلى محل حلويات لاغوندول في بولفار المزرعة. كانت طريقة تقدمهم واحدة على جميع المحاور: دبابة مركافا تصوب مدفعها في محور شارع وتطلق نيرانها لأجل تغطية تقدم المشاة على طول الواجهات. كانوا يتحاشون دخول الأزقة الجانبية. والقسم الوحيد الذي كان لا يزال خارج سيطرتهم في المدينة كان مثلثاً قاعدته بولفار المزرعة بين الغوندول ومستشفى البربير، وقمته الشمالية البسطة. أغرقت بيروت الغربية في الظلام بسبب قطع التيار الكهربائي. وحوالي الساعة الحادية عشرة ليلاً، أضاء السماء فوق صبرا وشاتيلا نور أصفر صادر عن مطر لا يتوقف من القنابل المضيئة. وحينها قطعت الصمت الذي كان يسود المخيمين طلقات نارية متقطعة دامت حتى الصباح. كانت الموجة الثانية من القتلة تقوم بعملها في المخيمين: عناصر جيش لبنان الجنوبي.

مساء ذلك اليوم، عند مفترق خلدة، وبحضور ضباط إسرائيليين كبار، كان رفائيل إيتان شخصياً يعطي توجيهاته إلى النقيب كميل صلاح الذي كان على رأس هؤلاء العناصر: "النتيجة التي يجب أن تحصلوا عليها هي فرار السكان من المخيمين" - أوضح رئيس أركان الجيش الإسرائيلي، دون أن يوضح كيفية الوصول إلى ذلك[1]. كان جميع عناصر هذه الميليشيا تقريباً من الشيعة. كان كثيرون من هؤلاء قد التحقوا بجيش لبنان الجنوبي كردة فعل على مضايقات الفلسطينيين للسكان في الجنوب، هذا ما قاله أحد الرتباء الذي حققت معه لجنة جرمانوس فيما بعد، والذي شاهد زوجته وبناته يتعرضن للاغتصاب أمام عينيه[2].

كانت وحدات جيش لبنان الجنوبي قد "صعدت" إلى بيروت في الساعات الأولى من عملية "سلامة الجليل" في أثر الفرق الإسرائيلية "لأجل التقاط الصورة". لكنها عادت كلها بسرعة إلى الجنوب ما عدا واحدة منها كانت تتألف من 150 رجلاً ويقودها كميل صلاح، وقد تمركزت هذه الوحدة بطلب من الإسرائيليين بين الشويفات ومفترق خلدة، جنوبي المطار. وكان مركز قيادتها في مصنع مهجور يقع بين تلاقي طريق صيدا القديمة وطريق عرمون، على بعد نحو 500 متر من خلدة. كانت هذه الوحدة من جيش لبنان الجنوبي المندمجة في إطار الجيش الإسرائيلي، تابعة (أوامر، ذخائر، لوجستية) لجهاز آمان وحده. وكانت هذه "السرية" مزودة بسيارات جيب وثلاث ناقلات جند من طراز "زاهدال"[3] العائدة إلى الحرب العالمية الثانية، مطلية باللون الأخضر، ومقدمة من إسرائيل. وكان رجالها مسلحين بكلاشينكوف.

(1) شهادة ضابط إسرائيلي يريد عدم ذكر اسمه، كان حاضراً في المكان.

(2) - قال هذا أسعد جرمانوس لألان مينارغ.

(3) "المؤخرة الضخمة" بالعبرية: لقب أطلقه الجنود الإسرائيليون على هذه الناقلة.

اشترك نصف هؤلاء تقريباً في احتلال بيروت الغربية إلى جانب الإسرائيليين، بصفة مترجمين أو حتى كمقاتلين. واحتلوا مكاتب «صحيفة «الهدف» التي كانت تصدرها الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بقيادة جورج حبش، ومقر «المرابطون» ومقر الحزب التقدمي الاشتراكي، ثم سلموها إلى الإسرائيليين.

أما النصف الآخر من الوحدة، الذي كان بقيادة كميل صلاح، فقد انقسم إلى مجموعات صغيرة، واندسّ بين المواقع «على اتصال»[1]. كانت هذه المواقع تحت سيطرة اللواء المدرع الذي كان يقوده العقيد غيفا حتى 6 أغسطس - آب. كان عناصر هذه المجموعات قد دخلوا مخيم شاتيلا على مستوى الأرض الواقعة قبالة السفارة الكويتية وإلى مخيم صبرا من جهة المدينة الرياضية[2] وكانت هاتان النقطتان واقعتين عند أقدام المبنى الذي كان يؤوي مركز قيادة عاموس يارون.

كان رجال سعد حداد مكلفين من قبل رفائيل إيتان ب «تفتيش» و«إفراغ مكاتب منظمة التحرير من محتوياتها»[3]. فاستعانوا على ذلك بأبسط الطرق: إطلاق النار على كل من كان يظهر أمامهم، فيما كان قناصة اللواء غولاني المتمركزين حول المخيمين يمشطون بمناظير بنادقهم الخاصة، كغطاء لأولئك، الأزقة الخالية التي تتشابك تحت أقدامهم. وهكذا محقت عائلات بكاملها فوجئت وهي في الخارج تحاول الفرار وظلت «الطلقات تسمع طوال جزء من النهار، على مقربة من مستشفى غزّة»[4]، حيث كان قد لجأ عدد كبير من الجرحى الذين نقل بعضهم إلى مستشفى المقاصد الذي يبعد 500 متر. انسحب عناصر الميليشيا الجنوبية يوم 16 أكتوبر - تشرين الأول بعيد الظهر وانضموا إلى بقية وحدتهم التي كانت تتقدم مع وحدات الجيش الإسرائيلي في بيروت الغربية. وكان بينهم ثلاثة غادروا المخيم من مكان غير ملحوظ بعد أن ضلّوا طريقهم في متاهات الأزقة. فسقطوا برصاص المظليين الإسرائيليين الذين ظنوا أنهم فلسطينيون يحاولون الفرار. مات واحد منهم وأصيب الآخران بجراح خطيرة. كان يبدو أن هؤلاء «شاركوا في المذابح» - اضطر آريل أن يعترف بذلك فيما بعد[5].

في فجر يوم 16 سبتمبر - أيلول 1982، يوم رأس السنة 5743 حسب التقويم العبري، أيقظ هدير المحركات النفاثة التي كانت تطير فوق السطوح رفائيل إيتان - الذي كان قد

(1) عبارة عسكرية تعني «على اتصال مع العدو»، وتعني هنا الخط الأول أمام المخيمين.
(2) شهادات ضباط من اللواء المدرع أرادوا عدم ذكر أسمائهم.
(3) جريدة لوريان - لوجور بتاريخ 17 سبتمبر - أيلول 1982.
(4) إفادة الدكتورة سو شاي - أنغ، الجراحة البريطانية الصينية الأصل، وحاملة شهادة مستشفى سان توماس الملكي في لندن، أمام لجنة كاهان في أول نوفمبر - تشرين الثاني 1982.
(5) إفادة شارون أمام لجنة كاهان في 25 أكتوبر - تشرين الأول 1982.

أمضى الليل في مركز القيادة الأمامي لعاموس يارون. وغادر رئيس أركان الجيش الإسرائيلي بيروت بعد ذلك بقليل إلى تل أبيب بالطائرة.

كانت الاحتفالات بالعيد في أوجها في إسرائيل. وكان الناس يتدافعون في الأسواق. وكانت حركة المرور كثيفة إلى حدٍّ جعلت شرطة السير تطلق نداءات تحذيرية. «عام سعيد» كانت جريدة حزب العمال دافار تتمنى لقرائها على صفحتها الأولى فوق صورة يظهر فيها مشاة ودبابات إسرائيلية تقاتل في بيروت الغربية. وفي صفحة داخلية كانت المعارضة تطالب بانسحاب الجيش الإسرائيلي من العاصمة اللبنانية، لكنها دون أن تطلب دعوة الكنيست للاجتماع. كان العماليون قد فقدوا المبادرة. وكان المقربون من مناحيم بيغن يتناوبون على نشرات الأخبار في الإذاعة منذ الصباح لكي يشرحوا أن «الفلسطينيين قد خدعوا إسرائيل فأبقوا قوات لهم في بيروت رغم الاتفاقيات». وكان يوضح هؤلاء أن الوحدات الإسرائيلية ستبقى في بيروت حتى «يصبح الجيش اللبناني قادراً على السيطرة على المدينة». وهكذا كان رئيس الوزراء يرد بالرفض بصورة غير مباشرة على واشنطن التي كانت قد طلبت بعد 24 ساعة من التردد، من تل أبيب أن تنسحب من بيروت الغربية.

عند العاشرة صباحاً، قام آريل شارون، ورفائيل إيتان، ويهوشع ساغي، وآفي دوداعي، في وزارة الدفاع، بعرض آخر المستجدات في بيروت. كانت الوحدتان الإسرائيليتان اللتان انطلقتا من الأوزاعي ومن المرفأ قد حققتا للتو الاتصال بينهما قبالة السفارة الأميركية على كورنيش العاصمة الشمالي. وتم الاستيلاء على المدينة خلال ثلاثين ساعة، وبذلك تكون الدولة العبرية قد دخلت عاصمة عربية لأول مرّة في تاريخها. «أمست المدينة بكاملها تحت سيطرتنا الآن. المخيمات الفلسطينية مطوقة. وبات في وسع رجال الكتائب أن يدخلوها» - قال شارون بارتياح.

كتب رفائيل إيتان على الفور الأمر رقم 6 الذي يقضي فيما يقضي «بمنع (الجيش الإسرائيلي) من دخول المخيمات، وبأن البحث عن آخر المقاومين وعن التنظيف سيكونان على عاتق الكتائبيين و/ أو الجيش اللبناني. للجيش اللبناني الحق بأن يدخل أي مكان في بيروت «بناء على طلبه». ولم يلمح الوزير ولا رئيس أركانه طبعاً إلى فريقي القتلة الأولين اللذين كانا قد دخلا المخيمين. واتصل آريل شارون ببيغن وأبلغه:

-توقف القتال. توقفنا عن إطلاق النار. ليس لدينا ضحايا أخرى[1]. كل شيء هادىء والمخيمات مطوقة. رفول قاعد قبالتي وقد عاد لتوه من هناك وأكد لي أن كل شيء قد انتهى. سأحضر وإياه اجتماع الحكومة المصغرة هذه الليلة.

(1) كان بلاغ للجيش تحدث عن سقوط ثمانية قتلى ونحو خمسين جريحاً في عملية اجتياح بيروت.

بينما كان شارون ينطق بهذه الكلمات كان رجال جيش لبنان الجنوبي لا يزالون في صبرا وشاتيلا.

وتلقى أمير دروري الأمر رقم 6 عند الساعة الحادية عشرة من يوم الخميس الواقع في 16 سبتمبر - أيلول. وكما كانت حال قائد الجبهة الشمالية يوم صعدت القوات اللبنانية إلى الشوف، كان هذه المرة أيضاً "متشككاً في قدرة الكتائبيين على تأدية هذه العملية"[1]. ومع ذلك، طلب فوراً من فادي أفرام أن يوافيه إلى مقر قيادته في الجمهور.

عندما استقرّ الرجلان في مقعديهما بعد بضع دقائق وأمامهما خرائط رئاسة الأركان وصور جوية، اقترح الجنرال الإسرائيلي على قائد القوات اللبنانية أن ينشر وحداته في مختلف أحياء بيروت الغربية لأجل مراقبة الشوارع وجمع الأسلحة. فقبل فادي أفرام الاقتراح. وقرر الرجلان أن يتولى تنسيق حركات عناصر الميليشيا المسيحية عاموس يارون، على أن يتمركز ضابط ارتباط من القوات اللبنانية بصورة دائمة في مقر قيادته مع ضابط إسرائيلي في غرفة العمليات في الكرنتينا. وشرح له دروري كذلك أنه نظراً إلى الأمر الذي صدر إلى الجيش الإسرائيلي بعدم دخول المخيمات الفلسطينية، وإلى رفض الجيش اللبناني أن يدخلها، فإنه على القوات اللبنانية أن "تنظف" أي أن تدقق في الهويات بحثاً عن "الإرهابيين" الباقين هناك، وعن مخابئ الأسلحة والذخائر وأن تفتش المكاتب السابقة لمنظمة التحرير الفلسطينية. واعتبر الرجال أن هذا العمل لا يتطلب سوى 120 رجلاً يتقدمون على محورين في الوقت ذاته.

عندما عاد فادي أفرام إلى الكرنتينا طلب من فؤاد أبو ناصر أن يعدّ خيرة وحداته للتمركز في المطار وأن ينتظر هناك أن يعطيها دروري الأمر بدخول أحياء بيروت الغربية. وأوضح له أن لهذه العملية من الأهمية ما كان للصعود إلى الشوف في شهر يوليو - تموز. إن مشاركتها في عملية "الدماغ الحديدي" يجب أن تكون كاملة الإتقان. وكرّر أفرام التوجيهات المتعلقة بالسكان المدنيين التي كان بشير قد أصدرها قبل الصعود إلى بيت الدين.

ثم استدعى قائد القوات اللبنانية إيلي حبيقة وطلب منه تنظيف المخيمات لأن هذه مهمة تدخل في اختصاص جهاز الاستخبارات وليست عملية عسكرية بالمعنى الصحيح. كان هذا الفصل الثاني من التدخل يبدو له ثانوياً تماماً بالمقارنة مع المهمة المطلوب تنفيذها في بيروت الغربية. فمن الممكن أن تكون عناصر مسلحة من المرابطين أو الدروز أو الشيوعيين، قد اختبأت في المدينة بعد رحيل المقاتلين الفلسطينيين في شهر أغسطس - آب.

(1) إفادة أمير دروري أمام لجنة كاهان في 31 أكتوبر - تشرين الأول 1982.

اجتمع فادي أفرام بعد ذلك مع فريق بشير[1] الذي كان قد استدعاه إلى غرفة الاجتماعات الكبيرة في المجلس الحربي. كانت العملية الإسرائيلية ثانوية تماماً في نظر الجميع. وكان همهم الوحيد في الواقع هو خلافة الرئيس المنتخب. كانت العبارة الصغيرة التي نطق بها شقيقه فوق نعشه قد لاقت صدىً سيئاً جداً عند عدد كبير منهم. كان معظم رفاق "الباش" القدماء يشاطرون رفضه لشقيقه الأكبر. وكانوا جميعاً قد اشتركوا في النضال الذي خاضه بشير في البداية للانعتاق من قيود حزب الكتائب، ثم ضد أمين. كانوا منقسمين. فكان هناك "الموالون لأمين" وهؤلاء هم بصورة رئيسية قريبون جداً من حزب الكتائب، و"المناوئون" وهم بصورة رئيسية من الذين انخرطوا مباشرة في القوات اللبنانية وانتسبوا إلى حزب الكتائب بطلب صريح من بشير. واقترح بعضهم ترشيح فادي أفرام للرئاسة، فقابل المعني هذا الاقتراح بتكشيرة. كان فادي أفرام قد انتخب قائداً أعلى للقوات اللبنانية قبل ثلاثة أيام ولم يكن مهيئاً سياسياً ولا نفسياً للاضطلاع بهذا النوع من المسؤولية. وكان يعلم فوق ذلك أنه يستحيل عليه أن يواجه بيار الجميّل في الصراع السياسي الذي لا بد أن ينشب إذا قبل بهذا الترشيح. ولا بد لهذا أن يؤول بعد حين إلى انفجار القوات. وبعد نقاش دام ساعتين توصل الحاضرون بصعوبة إلى توافق يقضي بدعم ترشيح أمين إذا تعهد بمواصلة السير على الخط السياسي الذي اعتمده شقيقه. "لكنه إذا ابتعد عن هذا الخط سنضطر إلى خلق كيان منفصل، أو سنعلن استقلالنا عن الحزب. المهم، في هذه المرحلة التي نجتازها الآن، أن نبقى متحدين" - قال فادي أفرام في خلاصة النقاش. كان أمين قد دعاه ودعا فؤاد أبو ناصر وإيلي الزايك وإيلي حبيقة إلى تناول العشاء مساء ذلك اليوم بالذات. وتعهد هؤلاء بوضع الصفقة بين يديه.

في أصيل يوم 16 أيلول، أقيم جناز للضحايا السبعة عشر من سكان الأشرفية، الذين لاقوا حتفهم في الانفجار الذي ذهب ضحيته بشير، وذلك في ملعب كرة القدم في كرم الزيتون. كانت الشوارع المؤدية إلى مكان الجناز مزدانة بالشريط الأبيض على شكل قوس نصر. كان يخيم على المكان صمت ثقيل وكان سكان الهضبة[2] المتكدسون على شرفاتهم وعلى السطوح يشاطرون عائلات الضحايا ألمها. وأمام التوابيت المصفوفة والملفوفة بالعلم الكتائبي والمغطاة بالزهور والأكاليل، أقام النائب البطريركي[3] نصر الله صفير قدّاساً حضره

(1) كان حاضراً: فادي أفرام - جوزيف أبو خليل - سامي شدياق (غير كتائبي) - ج. بسمرجي - ر. عرب (غير كتائبي) - كريم بقردوني - أنطوان نجم (مستقيل من الكتائب) - هاني صفتلي (غير كتائبي) - ألفرد ماضي - نزار نجاريان (غير كتائبي) - أنطوان بريدي - أسعد سعيد - فؤاد أبو ناصر - سمير جعجع - إيلي وزّان - فؤاد روكز - إيلي حبيقة - مسعود الأشقر (بوسي).

(2) يقوم حي الأشرفية على هضبة.

(3) صار فيما بعد بطريركاً مارونياً سنة 1986.

عدة آلاف من الأشخاص كان بينهم عدد كبير من عناصر وقادة القوات اللبنانية، وأمين الجميّل وأعضاء المكتب السياسي للحزب.

أمّا الجزء الغربي من العاصمة فكان غارقاً في غمٍّ كبير. كانت هناك واجهات مبان فارغة، وأرصفة ملأى بالحفر، وسيارات محروقة أو مسحوقة تحت دبابات مركافا، وأعمدةُ مصابيح مطروحة على الأرض، وأغصان شجر ورصاصات فارغة وزجاج محطم يفترش الأرض. وآثار رصاص وشظايا على الجدران. وكان الجنود الإسرائيليون يقومون في وسط الشارع باستجواب شبان يشتبهون بانتمائهم إلى ميليشيات. كان في حوزتهم غالباً لوائح بأسماء وعناوين أو كان يرشدهم إلى المخابئ ضباط في جهاز الاستخبارات الإسرائيلي. كان هؤلاء يتكلمون العربية جيداً وكانوا قد اندمجوا مع السكان وعاشوا بعض الأحيان عدة سنوات في بيروت الغربية منتحلين صفات مختلفة كبائعي بوظة أو متسولين أو تجار[1].

حوالي الساعة السادسة مساءً قرّر أمنون أن يرحل وكان هذا الممثل المقيم للموساد الذي كان يؤمن من غرفة عمليات القوات اللبنانية في الكرنتينا الاتصال بعاموس يارون، ظل في هذه الغرفة طوال النهار. ثم أخذ جهاز الإرسال العسكري RPC العائد له وقال:

– إذا احتجتم إليَّ، تستطيعون الاتصال بي في دارة طبرجا.

في تلك اللحظة دخل رجال جهاز الأمن التابعون لحبيقة مخيم شاتيلا من جنوبه، ووصل جيسي، أي جورج سكر، مسؤول الاستخبارات العسكرية في الجهاز، إلى مقر قيادة عاموس يارون بناء على طلب HK لأجل تأمين الاتصال.

كان هؤلاء الشباب يلقبون بـ "الهنود" أو "الأباش" من قبل الوحدات النظامية للقوات اللبنانية، ولم تكن لهم أية بنية عسكرية محددة. كانوا موزعين على ثلاثة مجموعات ولا يعترفون إلا بسلطة قادتهم المباشرين: جورج ملكو الذي كان مقر قيادته في حي السريان غير البعيد عن مستشفى أوتيل ديو، وميشال زوين الذي كان مقر قيادته على مرتفع يشرف على محطة سكة الحديد السابقة، ومارون مشعلاني الذي كان مقر قيادته في مدرسة قديمة في الكرنتينا على بعد 100 متر من مقر قيادة القوات اللبنانية العام. كان هذا الأخير أكثرهم "عسكرية" وكان يعتبر مجموعته فرق كوماندو ويستطيع القيام بكل "العمليات الخاصة" التي يطلبها HK.

كان معظم هؤلاء من رعاع الحرب الذين اشتركوا منذ سن المراهقة في اشتباكات 1975 و1976. كما كان معظمهم ينتمي إلى فئات اجتماعية فقيرة، ولم يتمكنوا من التقيد بانضباط عسكري فرضه بشير اعتباراً من سنة 1980، فتولى حبيقة حمايتهم قائلاً إن هؤلاء المقاتلين

(1) كان عددهم حسب مصدر عسكري إسرائيلي أحد عشر شخصاً في بيروت الغربية.

الذين كان كثيرون منهم يتحلون بالجرأة والشجاعة لا يجوز نبذهم لمجرد كونهم لا يتحملون أنظمة حياة الثكنات. كانوا قد قاتلوا جيداً في وسط المدينة. وحتى لو كانوا أغلب الأحيان في تلك الحقبة وراء السرقات وأعمال النهب وغير ذلك من الحوادث، فإنه يجب إعطاؤهم فرصة. وضعهم حبيقة تحت إمرته وجعل منهم وحدة للتدخل تابعة له. فبات هؤلاء الشبان منذ ذلك الحين يعتبرون أن لهم كياناً خاصاً وحافظوا على ذهنية عناصر ميليشيات بداية الحرب التي كان كل شيء في نظرها مباحاً باسم القضية. وكان يشار إليهم بأنهم "جماعة ميشال زوين"[1] و "جماعة مارون مشعلاني"، و "جماعة ملكو".

نزل هؤلاء من الشاحنات، دون أن يعلموا أنهم ثالث مجموعة تدخل المخيمات الفلسطينية، أمام المداخل الجنوبية لمخيمي صبرا وشاتيلا قبل الساعة السادسة مساءً بقليل، يوم الخميس 16 سبتمبر – أيلول. "كان الضباط الإسرائيليون يستطيعون مراقبتهم من فوق سطح المبنى (الذي جعل منه عاموس يارون مقراً لقيادته). وكان هؤلاء الضباط مزودين بمناظير تسمح بالرؤية ليلاً. ولكنهم في الحقيقة لم يكونوا بحاجة إليها"[2].

بعد مضي أقل من ساعة وصل إيلي حبيقة إلى مقر القيادة هذا ليتابع تقدم رجاله. طرح رئيس جهاز الأمن بضعة أسئلة على جيسي الذي اتصل بقادة المجموعات لاسلكياً. فسأله أحدهم بالعربية عما يجب أن يفعل بنحو خمسين امرأة وطفلاً كان قد أوقفهم.

– هذه آخر مرّة تطرح فيها عليّ مثل هذا السؤال – أجابه HK بلهجة جافة. أنت تعرف جيداً ما يجب أن تفعل بهم[3].

وتحدث بعد ذلك على مدى بضع دقائق بالانكليزية مع عاموس يارون، ثم غادر مقر القيادة حوالي الساعة السابعة مساءً ومضى لتناول طعام العشاء عند أمين الجميّل. في تلك اللحظة، اغتنم 82 جريحاً بطلقات نارية أو بشظايا قذائف حلول الظلام وتسللوا إلى مستشفى غزة الواقع قبالة المخيمين. وساعد الظلام أيضاً في نصب بعض شبان فلسطينيين كميناً لرجال الجهاز – فأصيب أحدهم في ساقه وآخر في يده. فتدبر جيسي أمر نقلهما وطلب مساندة بالقنابل المضيئة من جانب الإسرائيليين. فصدر الأمر إلى بطارية الهواوين من عيار 81 ملم المنتشرة في منطقة بئر حسن بإطلاق قذيفتين مضيئتين فوق المخيمين. وطلب الجنرال يارون تدخل الطيران أيضاً. فقامت عدة طائرات على التوالي بإلقاء قنابل مضيئة بالماغنيزيوم فوق مخيمي صبرا وشاتيلا. لكن تحركات هذه الطائرات، التي كانت تقلع

(1) قتل في 26 سبتمبر – أيلول 1986 عند نهاية العملية التي قام بها إيلي حبيقة على الأشرفية ضد سمير جعجع.
(2) – أمنون كابليوك، تحقيق حول مجزرة، باريس، سوي، 1982.
(3) تقرير لجنة كاهان.

عمودياً تقريباً من المدرج 18، أربكت إقلاع الطائرات الصحية التي كانت تنقل الجرحى الإسرائيليين إلى تل أبيب. فألغي الدعم الجوي، وظل الدعم من جانب الهواوين متواصلاً طوال الليل.

كان النهار قد أخذ ينحسر مموّهاً باللون الوردي أسوار مدينة القدس القديمة حول بوابة يافا عندما افتتحت الجلسة الاستثنائية للحكومة المصغرة حوالى الساعة الخامسة والنصف. كان على جدول الأعمال بند واحد: عملية "الدماغ الحديدي". كان جميع الحاضرين قد عرفوا بالتدخل العسكري في بيروت عن طريق الإذاعة وكان التوتر شديداً. كان في صحبة شارون رفائيل إيتان، وساغي رئيس جهاز آمان، وناحوم عدموني مدير الموساد.

برر رفول أمام الحكومة العجلة في اتخاذ القرار عقب موت بشير قائلاً أن منظمة التحرير الفلسطينية كانت قد تركت وراءها، حين غادرت بيروت، مجموعة يقدر عدد رجالها بألفي رجل و"سلاحاً كثيراً معداً بلا شك لإحداث خللٍ بالأمن عند أول فرصة". ثم حدّد بالتفصيل، على خرائط ومسطحات مبسوطة أمامه، المواقع التي سيطر عليها وتمركز فيها الجيش الإسرائيلي. وأشار بواسطة قضيب إلى موقعي صبرا وشاتيلا، وقال "باقتضاب"[1] إن قوات كتائبية دخلتهما، "لكي تنظف بوسائلها الخاصة أوكار الإرهابيين"[2]. وأضاف رفول بكل بساطة "أن الاتصال مع الكتائبيين كان متواصلاً وأن أعمالهم كانت منسقة تماماً مع أعمال الجيش الإسرائيلي".

بعد العرض الذي قدمه رئيس الأركان، بدأ الوزراء هجومهم. فكان بعضهم يؤنب شارون على كونه اغتنم الفرصة كي يفعل ما كانت ترفضه الحكومة. وذكر آخرون مناحيم بيغن بعنف بأنه تعهد بأخذ موافقة الحكومة على أي قرار بدخول بيروت الغربية. ووجه الجميع انتقاداً عنيفاً إلى الطريقة التي لجأ إليها الثلاثي بيغن – شارون – شامير مجدداً لاتخاذ قرارات خطيرة دون استشارتهم. على أن الحكومة أجمعت، في البلاغ الصادر عنها، على أن "إسرائيل لن تنسحب من بيروت الغربية إلا متى أمسى الجيش اللبناني قادراً أن يسيطر على العاصمة". كان هذا هو الجواب الرسمي على الطلب الأميركي الذي بات ملحاً بانسحاب الجيش الإسرائيلي على الفور. كانت الإدارة الأميركية تتهم إسرائيل بخرق اتفاقيات حبيب. وراح المحيطون ببيغن يسعون جهدهم، بعد اجتماع مجلس الوزراء، كي يشرحوا للصحفيين أن اغتيال بشير ووجود 2000 إرهابي في بيروت الغربية لم يلحظا في هذه الاتفاقيات.

(1) أمنون كابليوك، تحقيق حول مجزرة، المرجع المذكور آنفاً.
(2) شهادة رفائيل إيتان أمام لجنة كاهان.

بعد ذلك بقليل، كرّر رفائيل إيتان ومساعده موشيه ليفي أمام اللجنة الوزارية المشتركة لشؤون الدفاع، أقوالها مستعينين بالحجج إياها، ونسيا أن رئيس أركان الجيش الإسرائيلي أكّد أمام اللجنة إياها قبل 48 ساعة، أي يوم 14 سبتمبر – أيلول بعيد الظهر: "لم يبق في بيروت الغربية سوى بضعة إرهابيين ومكتب صغير لمنظمة التحرير الفلسطينية"[1]. وعندما سأله النائب الأول لرئيس الحكومة دافيد ليفي عمّا إذا كان يعتبر أن هناك احتمالات لحدوث مجازر، أجاب رفائيل إيتان قائلاً إن دخول الكتائب عمل إيجابي ويعتبر بداية للتعاون أخيراً بين هذه القوات وبين الجيش الإسرائيلي، هذا التعاون الذي كان مطلوباً منذ 6 يونيو – حزيران.

حوالى الساعة السابعة والنصف، مرّ فادي أفرام على مكتب إيلي حبيقة ليصحبه إلى العشاء عند أمين الجميّل في بكفيا. روى حبيقة وهما في السيارة ظروف اعتقال حبيب طانيوس الشرتوني القاتل المحتمل لبشير قبل ذلك بساعتين، وأن من اعتقله هو ابن عمه إلياس، أحد قادة مجموعة جهاز الأمن، الذي لم يكن معروفاً عنه أنه تحرّ لامع، بل على العكس. فظهرت على وجه أفرام إمارات الشك، وطلب من HK أن يتأكد من نتائج التحقيق. واتفق الرجلان على عدم الإعلان عن توقيف الشرتوني وأن يغتنما فرصة العشاء ليقترحا على أمين تسليمه إياه.

ووصل في أثرهما إلياس الزايك وفؤاد أبو ناضر إلى منزل المرشح للرئاسة، وانتظروا مضيفهم حوالى الساعة كانوا في خلالها يتحدثون مع جويس، زوجته. سعت هذه جهدها كي تؤكد لهم أن زوجها ينوي "السير على خطى أخيه". وصل أمين عند الساعة التاسعة مساءً، مبتسماً، بشوشاً، بادي السعادة. كان عائداً لتوه من لقاء مع صائب سلام الذي وعده بأن يدعمه شخصياً وأكد له أنه سيتوصل إلى إقناع حلفائه المسلمين.

على مائدة العشاء أعاد أمين التأكيد لمدعويه على إرادته "مواصلة عمل" أخيه وقراره بأن "يتعاون معهم". فاقترح عليه قائد القوات اللبنانية أن يجتمع في أقرب وقت ممكن مع شارون وشامير. حاول أمين أن يتهرب، معرباً عن شكوكه بقدرة الإسرائيليين على التكتم ووعد بأن يفعل ذلك بعد انتخابه. ونزولاً عند إلحاح فادي أفرام، وافق على أن يجتمع مع مناحيم نافوت. وتركز قسم كبير من الحديث بعد ذلك على توقيف الشرتوني. وتم الاتفاق على أن يستجوبه الجهاز ثم يسلم إلى رجال أمين.

كان اختصاصيو الـ"سيجنت" في جهاز آمان الموجودون في مركز قيادة الجبهة الشمالية

(1) أمنون كابليوك، تحقيق حول مجزرة، باريس، سوي، 1982.

في عاليه، يتابعون الرسائل المتبادلة لاسلكياً بين أفراد الميلشيا اللبنانية في المخيمات وبين جيسي. وعند منتصف الليل قدّموا إلى مسؤوليهم المباشرين تقارير تنصت تشير إلى إمكانية حصول أعمال تنكيل في المخيمات وتستند إلى عنصر في مكالمة بين أحد رؤساء المجموعة التي دخلت إلى شاتيلا وبين جيسي حوالي الساعة الحادية عشرة ليلاً: "قُتل حتى الآن 300 مدني وإرهابي[1]. جرى على الفور إبلاغ هذا التقرير إلى رئاسة الأركان. وكان قد حصل أكثر من عشرين ضابطاً على نسخة عنه قبل أن يصل، عند الساعة الخامسة والنصف من صباح يوم 17 سبتمبر – أيلول، إلى موشيه حبروني أحد ضباط الدوام في مركز آمان بوزارة الدفاع في تل أبيب. قرّر حبروني أن لا يوقظ يهوشع ساغي ليطلعه على الأمر[2].

لم يصل التقرير إلى هذا الأخير طيلة النهار، أو أنه على الأقل لم يتحدث عنه. وعند الساعة الثامنة صباحاً، تلقى المراسل العسكري لجريدة هاآرتس، زئيف شيف، الصحافي الأكثر اطلاعاً على الأمور في حقل الشؤون العسكرية، اتصالاً هاتفياً من أحد مصادره في رئاسة الأركان يؤكد حصول مجازر في مخيمي صبرا وشاتيلا. واستعمل مخاطبه حتى اللفظة العربية "ذبح". فحاول التثبت من ذلك لدى الموساد، دون جدوى. وأجرى اتصالاً مع آمان فلم يستطع هذا أن يؤكد الخبر. غير أنه أسرّ له بأن "هناك شيء". زار زئيف شيف عند الساعة الحادية عشرة وزير الاتصالات مردخاي تسيبوري. أكد الصحافي لمخاطبه أن لديه معلومات عن مجزرة حصلت في المخيمات الفلسطينية في بيروت. وبعد مضي ربع ساعة، اتصل مردخاي تسيبوري هاتفياً بإسحق شامير ليسأله عمّا إذا كان يعرف شيئاً. كان تسيبوري يعرف شامير جيداً. فقد كان الاثنان أسيرين معاً عند الإنكليز في معسكر سنبل في أريتريا، الذي هربا منه في وقت واحد. إذا كان شامير يعرف شيئاً فلا بد أن يعلمه به. كان وزير الخارجية في عجلة من أمره، لأنه كان على موعد مع موريس داربر بشأن بيروت. لكن شامير اتصل مع ذلك بمصدرين في الجيش. فنفيا الأمر نفياً قاطعاً وأكّدا أن هذه "شائعات لا أساس لها"[3]. فأبلغ شامير تسيبوري هذا الجواب، ومضى ليجتمع بالأميركيين ثم عاد إلى بيته حوالى الساعة الثالثة من بعد الظهر.

أشرقت الشمس يوم الجمعة في 17 سبتمبر – أيلول، في بيروت الغربية. على شوارع شبه خالية بسبب منع التجوال الذي فرضه الإسرائيليون. السيارات الوحيدة التي تتجول

(1) أمنون كابليوك، تحقيق حول مجزرة، المرجع المذكور آنفاً.
(2) يان بلايك وبيني موريس، أسرار حروب إسرائيل. المصدر المشار إليه آنفاً ص 386.
(3) شالوم كوهين في صحيفة لو ماتان بتاريخ 20 سبتمبر – أيلول 1982.

كانت سيارات الإسعاف والإطفاء وسيارات الصحافيين والمركبات العسكرية. وبالرغم من منع التجوال ظهرت عند الساعة الثامنة والنصف صباحاً مجموعة صغيرة من النساء الفلسطينيات المنكوشات الشعر، والباكيات، في شوارع ضيقة قرب بولفار المزرعة، وأخذن يصرخن:

– الكتائب في المخيمات ويقتلون رجالنا.

حاول صحافيون أجانب الذهاب إلى المخيمات لكن الحواجز الإسرائيلية منعتهم. وكان في المدينة عدة قطاعات محظورة على الصحافيين: الكورنيش، حيث جرى تجميع نحو ألف شخص أوقفهم مظليو عاموس يارون تمهيداً لاستجوابهم، والبسطة التي كان يخشى الإسرائيليون أن يكون قناصة قد اختبؤوا فيها، وجوار جامع عبد الناصر حيث كان مقرّ المرابطون. لم يصرّ الصحافيون. وكان العسكريون الإسرائيليون يطلقون بمكبرات الصوت نداءات تطلب من الرجال أن يخرجوا من بيوتهم ويتجمعوا في الشارع لأجل التثبّت من هوياتهم. فكان المشتبه بهم ينقلون في شاحنات إلى الكورنيش وإلى الرملة البيضاء. وقبل الظهر، اتصل الملازم الأول آفي غرابوسكي، الذي كان على رأس وحدة دبابات عند مدخل مخيم شاتيلا برؤسائه المباشرين، بواسطة اللاسلكي، وأبلغهم عن أعمال تنكيل بالمدنيين تجري في المخيم وأنه يراها شخصياً من المكان الموجود فيه.

– نحن على علم بذلك. ونهتم بالأمر – أجابوه[1].

وبعيد الساعة 11، وعلى أثر عدة شهادات من هذا النوع، اتصل أمير درووري هاتفياً برفول ليقول له إن القوات قد "تكون أسرفت في الذهاب بعيداً". فلم يطرح رئيس الأركان أي سؤال وأعلن أنه آت إلى بيروت بعد الظهر.

وقبيل الظهر من يوم 17 سبتمبر – أيلول أيضاً، وعملاً بالأوامر الآتية من فادي أفرام إلى فؤاد أبو ناضر. انتقلت القوات الموجودة في مختلف الثكنات، وعلى رأسها المجموعة الخاصة الممكننة في ثكنة أدونيس والتي يقودها أنور، بعد أن مرّت بالشويفات، الواحدة تلو الأخرى، إلى مطار بيروت الدولي. وتمركزت على جانبي المدرج الشمالي حيث خيّمت. كان هذا أكبر تجمع عملاني للقوات اللبنانية منذ نشأتها. كانوا حوالي ألف رجل، والأفضل تنشئة وكوادر، وقد جاؤوا من كل ثكنات الأشرفية وكسروان. حتى الشرطة العسكرية بقيادة جيلبير غسطين كانت هناك. وقد توزعت جماعات تضم كل منها خمسة عشر رجلاً مندمجين في مختلف الوحدات، وكانت مهمتها الاعتناء بالمدنيين والأسرى. فيما عدا الكوادر، كان معظم هؤلاء الرجال من الشباب الذين لم يشاركوا في القتال سنة 1975

(1) شهادة آفي غرابوسكي أمام لجنة كاهان بتاريخ 31 أكتوبر – تشرين الأول 1982.

و1976. وكانوا لا يعرفون تلك المرحلة إلا من خلال حكايات الأكبر منهم سناً الذين كانوا يستفيضون ويستمتعون بوصف قتالهم ضد الفلسطينيين. كانت أكثريتهم الكبرى لم ترَ فلسطينياً واحداً قط، إذ إن غرب بيروت كان محظوراً عليهم وأن القوات اللبنانية لم تعد تقاتل الفلسطينيين مباشرة بعد 1976.

بينما كان أمين يستقبل بجانب والده الشخصيات التي جاءت لتقديم التعازي، أبلغته السفارة الأميركية سريعاً بوصول القوات اللبنانية إلى المطار، فاتصل فوراً بفادي أفرام:

– ماذا يجري في المطار؟

– تمركزت قواتنا هناك تمهيداً للانتشار في بيروت الغربية.

صدرت عن أمين همهمة غضب:

– أوقف هذه العملية العسكرية – طلب منه بلهجة جافة – وجودكم في بيروت الغربية يمكن أن يطيح بكل شيء! يجب سحبها فوراً! هذا ما يريده الأميركيون وأنا بحاجة إليهم.

– سأرى إن كان هذا ممكناً، أجاب قائد القوات اللبنانية، دون أن يلتزم بأكثر من ذلك.

الطلب الأميركي لم يكن مفاجئاً. فإن حضور اللبنانيين "إلى جانب" المظليين الإسرائيليين كان من شأنه أن يبرر عمل هؤلاء المظليين ويسمح لتل أبيب بأن تصمد بمزيد من السهولة أمام مطالب واشنطن المتكررة بشأن الانسحاب. لم يكن فادي أفرام يرغب في البدء بتسميم العلاقات الصعبة أصلاً مع الحزب، فقرر إيقاف العملية وسحب رجاله من بيروت الغربية. إلا أنه كان يجب أن يفاتح الإسرائيليين بالأمر قبل الإقدام عليه.

هبطت الطائرة التي كانت تقل رافائيل إيتان، وموشيه ليفي. وأوري ساغي، رئيس عمليات الجيش الإسرائيلي، وأمنون لبكينز، على المدرج رقم 2 في مطار بيروت الدولي عند الساعة الثالثة والنصف من بعد الظهر. رأى رفّول من كوة الطائرة بارتياح اصطفاف دبابات شرمان M 48 وT 55، وعتاداً وكذلك لباس الرجال. وفي أثناء الانتقال بالسيارة إلى الكرنتينا، حدّث دروري إيتان عن أخبار متفرقة وصلت إليه حول أعمال تنكيل تقوم بها الوحدة الكتائبية ضد المدنيين في المخيمات الفلسطينية. فلم يصدر عن رئيس أركان الجيش الإسرائيلي أي تعليق.

استقبل فادي أفرام، وتوتو (أنطوان بريدي) وفؤاد أبو ناضر، ووودي (وليد فارس) الإسرائيليين في قاعة الاجتماعات في المبنى الجديد. بعد عرض سريع للمستجدات على الأرض. لم يلمح رفّول بكلمة إلى الشائعات ونصح:

– عليكم أن تجمعوا كل ما تجدونه في المخيمات من أسلحة وذخائر. يجب أن يكون وجودكم هناك كثيفاً. أهنئكم على العمل النظيف والفعّال الذي قمتم به حتى الآن. فيجب

أن تستمروا. يجب أن يفهم الفلسطينيون أن عليهم أن يسلّموا أسلحتهم وأننا سندرس أمورهم بعد الانتخابات. وإذا رفضوا وقرّروا مواصلة القتال، فإننا سنتدبر أمرهم.

– لكن المخيمات فارغة. لا توجد عناصر مسلحة إلا في حي الفاكهاني – قال أبو ناضر.

– سنتدبر أمرهم بعد يومين أو ثلاثة – أكّد إيتان.

– الأميركيون يمارسون علينا ضغوطاً شديدة عبر أمين الجميّل – قال فادي أفرام – ويطلبون أن ننسحب. سنفعل ذلك هذه الليلة كي لا نعكّر جو الانتخابات.

– لكن ليس عليكم أن تقاتلوا في المخيمات، بل أن تنظفوها – قال رفّول – إذا كنتم تعانون مثل هذه الضغوط فسنترك لكم أن تقرّروا ما ينبغي لكم أن تفعلوا. لا تقلقوا، سنجد معاً فيما بعد وسيلة لتنظيف هذه المنطقة. لقد رأينا قواتكم المحتشدة في المطار، فسررنا كثيراً برؤيتها على هذا الشكل. نحن فخورون بها!

– من المدهش أن نرى كيف استعدتم رباطة جأشكم بعد موت بشير – أضاف مندي ملمحاً إلى الصدمة واليأس اللذين عاينهما عند المقاتلين المسيحيين مساء 14 سبتمبر – أيلول – لقد عدتم تماماً إلى الحياة حسبما شاهدنا في المطار.

– إذا توصلتم إلى اعتقال القادة الفلسطينيين فلن يبقى علينا ما يجب فعله، قال فادي أفرام.

– ستنسقون كل شيء مع دروري – قال رفّول بلهجة حاسمة – وإذا احتجنا إليكم في مكان ما سترسلون وحداتكم وتتكفلون بالأمر.

– لن يكون هذا ممكناً إلا بعد بضعة أيام. وليس الآن – قال أفرام متأسفاً – فهناك الانتخابات!

– لسنا على عجلة من أمرنا – قال إيتان – سنعمل بتؤدة؛ لدينا ما يكفي من الوقت! لكن، لا عليكم. فإننا سننظف كل شيء! هذا قرار نهائي. أطلبوا من عاموس يارون كل الدعم اللوجستي الذي تحتاجون إليه: ذخائر، بطاريات، أغذية...

– كان الشيخ بشير يقول دائماً إنه يريد أن يسحق مخيمي صبرا وشاتيلا ويقيم مكانهما حديقة حيوانات. فهل يمكن لنا أن نستعين بجرافاتكم لكي نحقق رغبته؟ سأل فؤاد أبو ناضر.

– لم يفاجأ الإسرائيليون بالعزم على تدمير المخيمين بواسطة الجرافات. لأنهم مارسوا هم أيضاً هذه الطريقة عدّة مرات منذ بدء عملية "سلامة الجليل" لكي يهجّروا السكان.

فالمخيمات الموجودة في جنوب لبنان كانت قد قُصفت ثم دمّرت بالديناميت والجرافات[1]. كان يطلق على هذه العملية في إسرائيل اسم "تدمير البنية التحتية للإرهابيين"، وكانت تهدف إلى منع الفلسطينيين من تنظيم أنفسهم كجماعة. لذا كان من الضروري عدم الاكتفاء بتدمير المساكن بل أن يشمل التدمير مختلف المؤسسات الفلسطينية (المدارس، المستشفيات، المراكز الاجتماعية . . .) و"إفراغ" السكان من ذكورهم. وفي أوائل أيام الحرب، كان ضباط الجيش الإسرائيلي، الذين كان يفترض بهم أن يقدموا عوناً اجتماعياً لأهالي لبنان، قد تلقوا توجيهاً سرياً من الوزير ياكوف مريدور المكلّف بشؤون اللاجئين في لبنان، يقول: "ادفعوهم نحو الشرق، نحو سوريا. دعوهم يرحلون، لكن لا تسمحوا لهم أبداً بالعودة." وقد شطب اسم العقيد دوف يرمياه من لائحة ضباط الاحتياط لأنه تكلّم عن هذا الأمر علانية[2].

– سنعطيكم كل ما تريدون، أجاب إتيان ملتفتاً نحو دروري الذي وافق بحركة من رأسه.

– هذا يعود إليكم وأنتم أحرار في أن تفعلوا به ما تريدون – أضاف رفّول – على أنه يجب عليكم أن تبقوا في المخيمات منعاً لعودة الإرهابيين إليها.

– هناك ضغوط أميركية تطلب منّا أن ننسحب، قال أفرام مذكراً بذلك من جديد.

– لن يكون عليكم أن تمكثوا طويلاً هناك، قال رفّول.

– نحن نحتاج إلى الأميركيين لأجل الانتخابات – أصرّ أفرام – سنبقى في المخيمات حتى الخامسة صباحاً فقط. وبعد ذلك سنرسل شرطتنا العسكرية للحلول محل الوحدة الموجودة هناك. وقبل أن نغادر، سنستعمل جرافاتكم كي نمحق المنطقة كيلا يعود إليها الفلسطينيون.

– أين أنتم من الانتخابات؟ سأل رفّول.

– باشر رئيس البرلمان كامل الأسعد إعداد الترتيبات.

– أرجوك أن تبلغ السيدة صولانج الجميّل تعازيّ، قال إيتان مختتماً الحديث.

أنزلته طائرة عسكرية بعد ساعة ونصف في مطار رامة – دافيد العسكري قرب تل أبيب وانتقل من هناك إلى داره في قرية تل – أداشيم.

وصلت شائعة "أعمال التنكيل" في المخيمات إلى سمع فادي أفرام بعد رحيل الإسرائيليين بقليل. فأمر إيلي حبيقة عند الساعة الخامسة عصراً بأن يسحب رجاله من المخيمين وأمر جيليبير غوسطين، قائد الشرطة العسكرية، بأن يرسل رجاله إلى هناك لكي

(1) طريقة يعتمدها الجيش الإسرائيلي بصورة منهجية في الضفة الغربية وفي غزة منذ سنة 2000.

(2) أمنون كابليوك، تحقيق حول مجزرة، المرجع المذكور آنفاً.

يمنعوا الدخول إليهما. ولما دخلت الشرطة العسكرية للقوات اللبنانية إلى صبر وشاتيلا، حوالى الساعة السادسة عصراً، كان المشهد والروائح الكريهة تعصى على التحمل. كان هناك جثث منتفخة وسوداء منتشرة في الأزقة وداخل بعض المساكن. قام مسؤولو الوحدة المنسحبة بتسليم التوجيهات إلى غوسطين بكل برودة كما لو أن ما في الأمر كان نقلاً للأمرة على مسرح عملية عسكرية.

– وصلنا إلى هنا، إلى هذا الزقاق، ثم انتقلنا إلى هنا، فوصلنا إلى بيت توجد تحته دكان سمانة . . .

كان في صوتهم نبرة عدم تأثر، وغياب للمشاعر الإنسانية، يتناقضان تماماً مع ما كان أمام عيني غوسطين. أحسّ بعض من رجاله بغثيان. فاضطر أن ينتقي من بينهم من كانوا أكثر تحملاً لكي يتابع مهمته. وجاء الليل فأوقف الجرافات التي كانت قد باشرت عملها.

كانت قد أعدّت في جميع المعسكرات الإسرائيلية وجبة طعام خاصة بعيد رأس السنة اليهودية. دُعي رون بن ييشاعي، المراسل العسكري للتلفزيون الإسرائيلي، إلى العشاء مع ضباط كبار في مركز القيادة في بعبدا. تناول الحديث منذ البداية ما كان قد شاهده قادة وحدات "الاتصال" من مواقعهم في مخيمي صبرا وشاتيلا. وروى أحدهم بالتفصيل ما شاهده بأم العين من أعمال القتل. وعند الساعة الحادية عشرة والنصف ليلاً سألهم الصحافي:

– إن كنتم واثقين مما تحكون، سأتصل بوزير الدفاع في بيته.

وأجرى هذا الاتصال.

– يجب فعل شيء على الفور لإيقاف ما يجري في المخيمين – اقترح رون بن ييشاعي على أرييل شارون. ضباطنا يعلمون ما يجري. وبعد بضع ساعات ستعلم به الصحافة العالمية وسيكون ذلك ورطة لنا.

طلب منه شارون إيضاحات إضافية. فكرر الصحافي ما سمع. فشكره الوزير وتمنى له "عاماً سعيداً" وأغلق الخط "لدي انطباع بأنه على علم بما كان يجري"[1] – قال صحافي آخر فيما بعد.

واكتنف المخيمين صمت ثقيل طوال ليلة الجمعة 17 والسبت 18 سبتمبر – أيلول. كان بضعة رجال من الشرطة العسكرية للقوات اللبنانية قد تمركزوا عند مختلف المداخل والمفترقات الأكثر أهمية في مخيمي صبرا وشاتيلا. وعند الفجر، منذ أن بدأ ينقشع ظلام الليل، سمع هدير محركات في جنوب مخيم شاتيلا. كان هناك ثلاث حفارات خضراء

(1) أمنون كابليوك. تحقيق حول مجزرة. المرجع المذكور آنفاً.

اللون، تحمل على جانبها حرفاً من اللغة العبرية، ومصابيح كبيرة موجهة الضوء على سطحها، وكان يقودها عناصر من الميليشيات المسيحية، فراحت تعمل في غيمة من الغبار على هدم المساكن على جانبي الشارع الذي يخرج من المخيم. وحمل سكون الليل والهدير "المدني" امرأة على الخروج في حالة ذهول، ثم خرج رجل عجوز مذعور رافعاً يديه في الهواء. وسرعان ما خرج عشرات من الأشخاص على هذا النحو أمام أفراد الشرطة العسكرية، فقادهم هؤلاء إلى خارج المخيم. عند السادسة صباحاً، وصل عاموس يارون إلى مدخل مخيم شاتيلا مصحوباً ببعض الضباط الإسرائيليين. انتابته سورة من الغضب الشديد عندما رأى مجموعة المدنيين يحيط بها رجال مسلحون، ووجه توبيخاً عنيفاً إلى جيلبير غوسطين وإلى فؤاد أبو ناضر الذي كان قد وصل لتوه.

وأمرهما بتوجيه جميع الفلسطينيين إلى المدينة الرياضية، وأصدر أمره لاسلكياً بأن تعود وحدات القوات اللبنانية الموجودة في المطار فوراً إلى ثكناتها. فانسحب الألف مقاتل مسيحي، الذين أمضوا الليل يدفعون عنهم موجات البعوض، منتظرين وهم يلعبون بالورق أو يتفقدون طائرات نادي الطيران، دون أن يفهموا أسباب هذا الأمر الحتمي. كانوا يجهلون ما كان يجري في المخيمات على بعد 4 كيلومترات من موقعهم في المطار.

توجهت صفوف المدنيين الفلسطينيين الخائفين بمواكبة الشرطة العسكرية سيراً على القدمين نحو المدينة الرياضية، وفجأة سقط أحدهم بانفجار لغم أرضي. فأوقفهم الجنرال عاموس يارون، وراح يؤنبهم مذكراً بصفوف اليهود الذين كانوا يتحركون في معسكرات الموت إبان الحرب العالمية الثانية، وأمر بإحضار شاحنات لنقلهم.

لم يتمكن جيلبير غوسطين، حسب ما كان قد تلقى تعليمات صريحة، من أن يرفض زيارة صحافيين إسرائيليين يواكبهما ضباط من الجيش الإسرائيلي. فأمر بالانسحاب. وعندما وصل الطبيب - العقيد في الجيش اللبناني مارسيل برانس إلى مدخل مخيم شاتيلا حوالى الساعة الثامنة والنصف صباحاً لم يكن هناك أي عنصر من الميليشيا المسيحية.

كان مارسيل برانس رئيس قسم الجراحة في المستشفى العسكري المركزي في بيروت، وهو أخصائي مشهور دولياً بالجراحة الحربية[1] والطب الشرعي، وخبير في هذا الحقل لدى المحاكم المدنية والعسكرية، وكان قد مارس اختصاصه في الأردن - والولايات المتحدة، والعربية السعودية، ودخل الجيش اللبناني سنة 1964. كان الطبيب العقيد قد تلقى يوم السبت 18 سبتمبر - أيلول 1982، بينما كان يتأهب لتمضية عطلة الأسبوع مع ابنيه وزوجته في الجبل، اتصالاً هاتفياً عند الساعة السادسة صباحاً من قائد الجيش الجنرال فكتور خوري.

---

(1) له كتاب يعتبر مرجعاً في مبادئ الجراحة الحربية (1975).

- يجب أن تنتقل فوراً يا مارسيل، بلباسك العسكري وبدون سلاح، وعلى ساعدك شارة الصليب الأحمر، إلى مخيمي صبرا وشاتيلا، حيث حصل أمر ما. اتّخذ الإجراءات التي تراها مناسبة.

كان برانس يجهل تماماً ما سيكتشف، فمرّ على المستشفى العسكري وأخذ حقيبة الإسعاف العاجل وأخذ سيارة إسعاف مع سائقها وعرّج على ثكنة سلاح الهندسة غير البعيدة على المستشفى ليصحب خبيراً بالمتفجرات. وتوجه إلى المخيمات. عبرت سيارتهم الحواجز الإسرائيلية بلا صعوبة وتوقفت أمام أوائل بيوت مخيم شاتيلا، فيما كانت تصل سيارة للصليب الأحمر يصحبها السكرتير الأول في سفارة الولايات المتحدة ريان كروكر. اجتاز مارسيل على القدمين الشارع المؤدي إلى مستشفى غزة. وبعد أن تجاوز بضعة بيوت دمرتها الجرافات، شاهد أكواماً من الجثث التي كان الموت قد فاجأ أصحابها وهم يخرجون من بيوتهم. كان عدد هذه الجثث كبيراً في مخيم شاتيلا، وكان يبدو أن مخيم صبرا، الواقع في شمالي مخيم شاتيلا، لم يُصب بما أصاب هذا الأخير. وكان هنا وهناك مدنيون استولى عليهم الرعب يطلّون بحذر من ملاجئهم وينظرون إلى مارسيل ومرافقيه بارتياب. حاول الجرّاح أن يطمئنهم مردّداً القول: "لا تخافوا، نحن من الجيش اللبناني". كان سائق سيارة الإسعاف لا يبتعد قيد أنملة عن الطبيب، وكانت يده تمسك بمسدس في جيبه. في مكان غير بعيد عن مستشفى غزة الذي كان مارسيل يعرفه جيّداً، لأنه كان يعطي دروساً في مركز البحوث، اكتشفوا كمية هامة من الأسلحة الفردية الملقاة على الأرض أو تحت السيارات المتوقفة، كما لو أن أصحابها شاؤوا أن يتخلصوا منها. فاستدعى الضابط مسؤولي الدفاع المدني والصليب الأحمر اللبناني الذين كانوا قد وصلوا في تلك الأثناء إلى المكان وطلب منهم أن يسجلوا بالضبط مواقع الجثث، ثم تجميعها في "منطقة فرز" أقيمت في أرض خالية عند المدخل الجنوبي لمخيم شاتيلا، لأجل التعرّف على هوياتها، سواء من قبل عائلاتها أو جيرانها. وطلب منهم أيضاً أن يجمعوا أوراق هوية الضحايا.

وضع مارسيل برانس قفازات الجراحة في يديه، بينما كان سائقه يسجل ملاحظات يمليها هو عليه، وانحنى فوق أولى جثة وكانت جثة رجل. كان هذا قد قتل بالرصاص وكان جاثماً على بطنه. عثر برانس في إحدى جيوبه على بطاقة هوية تحمل اسم محمود حرب، المولود سنة 1944، المقيم في شاتيلا، وهو لبناني الجنسية.

عند الساعة الحادية عشرة والنصف تمكن كل من فرانسوا لويزيه، كاتب الريبورتاج الكبير في صحيفة فرانس - سوار، وسورغ شالاندون من صحيفة ليبراسيون، وسامي كيتز من وكالة الصحافة الفرنسية. ومراسل وكالة فرانس - أنتير في الشرق الأوسط، من التسلل

إلى مخيم صبرا عبر مستشفى غزة. كانت تضاف إلى المشهد الذي يستحيل تحمله شهادات تقطّعها الفظاعة والرعب. وكانت تضاف إلى رائحة الموت صرخات وولولات. كانت كلمة "كيف؟" وخصوصاً كلمة "من؟" تتصدر كل الأسئلة. "كانوا يعتمرون خوذات ويحملون أكياساً على ظهورهم". "كانوا يرتدون بزات عسكرية ذات لون أخضر غامق" - "كان بعضهم لا يحمل علامات مميزة"، "كان على صدورهم شعار القوات اللبنانية"، "كان على أكمامهم حرفا MP"، "كانوا يحملون شارة جيش لبنان الجنوبي". بعد ذلك بقليل، سجّلت أفليتا رامبرغ، مراسلة التلفزيون الأسوجي في بيروت، شهادة أخرى:

- كانوا جنوداً إسرائيليين مسلحين.
- كيف عرفتم ذلك؟
- كانوا يعتمرون القلنسوة المخرمة.

كان اختلاط الشهادات يمحو فكرة المدة والزمن. قوات لبنانية، إسرائيليون، ميليشيا سعد حداد، كان مرتكبو المجزرة يشار إليهم بضمير "هم" في غالب الأحيان من قبل الناجين، هؤلاء الذين كانوا يرغبون في وصف تفاصيل الفظائع التي عاشوها أكثر من رغبتهم في وصف السفاحين الذين لم يتمكنوا في الغالب إلا من لمحهم. الأمر الأكيد الوحيد كان عشرات، بل مئات الجثث المنتشرة في كل مكان. حتى عدد القتلى كان يتراوح بين عدد وثلاثة أمثاله. عند ظهر ذلك اليوم، كان نبأ مجزرة صبرا وشاتيلا يجوب العالم بأسره. كانت أولى محطات الإذاعة التي تحدثت عنه إسرائيلية. وعند الساعة الرابعة من بعد الظهر أكّدت وكالة فرانس برس: "يقول شهود إن المجازر هي من صنع ميليشيات الرائد سعد حداد". وبعد قليل، طلب ضابط إسرائيلي من الصحافيين الذين اجتمع بهم أن يكتبوا أن المسؤولين هم الكتائبيون. لم تبدر عن القوات اللبنانية أية ردة فعل، لأنها كانت لا تدرك مدى ضخامة هذه القضية. وكانت مجازر أخرى قد رافقت سنوات الحرب الثماني، في كل من الدامور، والكرنتينا، وتل الزعتر، والقاع، وأماكن أخرى، دون أن تثير مثل هذه الضجة. كانت القوات اللبنانية لا تفهم أسباب هياج الصحافيين ولا الضجيج الذي أثير حول هذه المسألة.

ظلّت الشهادات الجزئية حول هذه الأحداث تتوالى، فتختلط أحياناً، وتتناقض أو تتكامل أحياناً أخرى. كانت كلها تجهل مدى دوام الحدث في الزمان. وكانت تؤكد مسؤولية هذا الفريق أو ذاك، دون أن تفكر بأنهم يمكنهم جميعاً أن يتوالوا أو يتناوبوا على العمل في المخيمين. ومن هؤلاء مثلاً أن أربعة ضباط من الجيش اللبناني وضابطاً من الدرك أكّدوا أنهم شاهدوا عناصر من جيش لبنان الجنوبي يصلون بطائرة إسرائيلية إلى مطار

بيروت. وأسرّ أحد مراقبي الأمم المتحدة بأنه شاهد رجالاً يحملون شارات جيش لبنان الجنوبي في سيارة جيب في المكان إياه. واستغل فادي أفرام هذه المعلومات التي بثّتها محطات إذاعة محلية، بعد أن كان منشغلاً حتى حينه بالمشاكل السياسية وبعد أن خامره شعور بأن "قصة المجازر" هذه تتفاعل على نحو لا يمكن التحكم به، فأيقن بأن رجال جهاز الأمن التابعين لإيلي حبيقة هم الذين ارتكبوا هذه "التجاوزات" بعد أن أثارت المعارك حميتهم وأثار مقتل بشير غضبهم. كما أن الشهادات القائلة بوجود رجال ميليشيا سعد حداد في المطار وحتى حول وداخل المخيمين، نزل عليه هدية من السماء كي يصرف الأنظار عن القوات اللبنانية، فأقدم بارتياح على استغلال هذا الأمر لتبرئتها.

واستُغل وجود رجال سعد حداد هذا من قبل زعماء مسلمين لبنانيين أيضاً. فإنهم كانوا قلقين جداً من العواقب السياسية لتوجيه تهمة قاطعة إلى القوات اللبنانية - وبالتالي إلى الكتائب - بالنسبة إلى الانتخابات الرئاسية، فسارعوا إلى تبرئتها: "سكان بيروت الغربية لا يلقون المسؤولية على الكتائبيين"، هذا ما جاء في جريدة السفير يوم الأحد 19 سبتمبر - أيلول. بل إن صائب سلام كان أشدّ جزماً إذ قال: "ليس للكتائبيين صلة بهذا الأمر". وردّ على ناج من المجزرة كان يؤكّد:

- كانوا هم! قرأت اسمهم، القوات اللبنانية، على بزاتهم!
- منذ متى أنت تحسن القراءة؟ قالها الزعيم السنّي بلهجة جافة[1].

استقوى فادي أفرام بهذا الدعم غير المباشر وغير المأمول، فلجأ إلى "تضخيم" وجود رجال سعد حداد وبالتالي تضخيم مسؤوليتهم. فردّ الإسرائيليون سريعاً وبقوة، مكذبين ليس فقط مشاركة هؤلاء في المجزرة بل وحتى وجود وحدات لجيش لبنان الجنوبي في بيروت.

"نحن لم ننقل قط قوات من جيش لبنان الجنوبي، مع العلم بأنها غير مرخص لها بتجاوز نهر الأولي - أكّد الناطق باسم الجيش الإسرائيلي في تل أبيب - إن كل الأخبار المتعلقة بوجود رجال سعد حداد في المخيمات لا أساس لها".

كانت صور المجزرة تتصدّر كل نشرات الأخبار المتلفزة ليلة 18 سبتمبر - أيلول. وبعد ذلك بدقائق، قال فرانسوا ميتران من باريس إنه "يستفظع الأمر"، واجتمع مجلس الأمن بصورة طارئة في نيويورك؛ صدر عن رونالد ريغن بلاغ ذو قساوة لا سابق لها في تاريخ العلاقات بين الولايات المتحدة والدولة العبرية، واستدعى السفير الإسرائيلي موشيه آرانز و"أنذر" إسرائيل بأن "تسحب قواتها من بيروت الغربية فوراً". ومما زاد في قساوة ردة فعل

(1) أندريه بوتار، الإكسبرس، أول أكتوبر - تشرين الأول 1982.

الرئيس الأميركي أنه كان منزعجاً جداً، وأدرك أنه بإعطائه الأمر قبل أوانه بسحب قواته من بيروت، قبل أسبوع من انتهاء مهمتها، كان قد حمل وحدات القوة المتعددة الجنسيات الأخرى على اقتفاء أثر قواته، بينما أن حماية المدنيين الفلسطينيين كانت واحدة من مهمات هذه القوات. وفوق ذلك، فإن ريغن كان قد صرّح في أثناء جولة له في ولاية نيوجرسي يوم الخميس 15 أكتوبر – تشرين الأول، بعد التطمينات التي صدرت عن القدس، بأن الإسرائيليين اجتازوا الخط الأخضر "رداً على نيران رجال ميليشيا معزولين". وهذه ذريعة لم يجرؤ الإسرائيليون أنفسهم على اللجوء إليها.

خاتمة

كان اغتيال بشير الجميّل زلزالاً حقيقياً بالنسبة إلى القوات اللبنانية. فقد خسرت الميليشيا فجأة الزعيم المنادى به من قبل الجميع، والصديق الأمين لكل واحد من أفرادها، والجامع لكل النزعات، والسور في وجه الحزب، وراسم السياسة، وصاحب القرار الذي لا غنى عنه، وبعد انتخابه، الرئيس الذي كان يزمع أن يدفع بها جماعياً وإفرادياً نحو المستقبل. وقد ترك غيابه أعضاء فريقه ليس ضائعين ومذهولين عاطفياً وحسب، بل تركهم عراة حقاً. وكردة فعل، بات ما تحقق أو قيل أو تقرر في حياته، مرجعاً، ومؤسسات القوات اللبنانية بالدرجة الأولى. فتشبّث الجميع بها كخشبة خلاص.

كان وزن حزب الكتائب في قرارات القوات اللبنانية كناية عن موافقة بسيطة يعطيها بيار الجميّل ويتصرف بها بشير بمفرده. وكان الرئيس قد تراجع حتى عن الواجهة كي يترك مزيداً من حرية المناورة لابنه الأصغر. كانت أولى نتائج موت الرئيس المنتخب دفع حزب الكتائب إلى مقدمة المسرح. فبات بيار الجميّل لا يستغنى عنه. غير أنه لم يعد كفوءاً للقيام بدور القائد، لأنه كان قد تقدم في السن، من جهة، ولأنه كان يجد صعوبة في محاورة الأجيال الجديدة التي تحمل قيماً مختلفة، من جهة أخرى. ومن ناحية ثانية، وبطريقة واعية أو لا، كانت صورة بشير تتطابق مع كل طامح إلى زعامة العالم المسيحي.

وكان أمين الجميّل قد أوغل على الفور في الفراغ الذي تركه رحيل أخيه. لكن القوات اللبنانية كانت ضده. كانت هذه القوات، التي تبلغ نفقاتها الشهرية أربعين مليون ليرة لبنانية [1]، والتي تضم أكثر من 20.000 رجل، وتتمتع بدعم الدولة العبرية، إنّما تمثل وزناً سياسياً وعسكرياً. كان أمين يعرف الطبيعة البشرية وكان يعرف أنه "متى صار الرجل حاكم ولاية تستفيد حتى بطانته من ذلك"، كما يقول مثل صيني. لا يوجد في اللغة العربية ما يعادل هذا المثل، ولكن هذا جداً شامل. فتعهد أمين بالسير "على خطى أخيه".

(1) 12 مليون دولار سنة 1982.

أما الأميركيون، فقد فوجئوا باغتيال بشير، ولم يكن لهم أية سياسة بديلة. وأمّا الإسرائيليون، فكانوا حذرين، وكانوا يطلبون ضمانات.

فأرسل إليه مناحيم بيغن وفداً يضمّ أهم وزيرين في حكومته: عندما بدأ الليل يرخي بظلاله يوم 20 سبتمبر – أيلول، هبطت مروحية إسرائيلية من طراز CH 53 وراء محطة الكهرباء في الزوق. وطئت قدما إسحق شامير لأول وآخر مرّة في حياته أرض لبنان. ونزل من بعده من المروحية آرييل شارون، ودافيد كمحي، وبيتر ناحوم عدموني، ومندي، من الموساد. ركب هؤلاء أربع سيارات عادية تخص القوات اللبنانية متوجهين إلى "بيت المستقبل" في ضبيه. استقبل الإسرائيليين في قاعة كبيرة في الطبقة الأرضية أمين الجميّل الذي كان يرتدي بذلة غامقة اللون، وكان يغشى خدّيه بعض الحمرة.

– أهلاً بكم – قال أمين – يسعدني أن أستقبلكم في بيت المستقبل هذا. لكن يؤسفني أن تكونوا قد وصلتم ليلاً لأنه لا يمكن لنا أن نتفقده في هذا الوقت. لن نستطيع أن نصف لكم الكارثة التي حلّت بعائلتي وبالحزب وبالوطن. فإن بشير كان قبل كل شيء أخي. وهو قد قام بعمل عظيم لأجل البلاد ولأجل شعب لبنان. علينا أن نكمل ما تركه لنا وأن نحاول السير في الاتجاه ذاته. لقد قرأت بسرعة بعض الوثائق ومحاضر الاجتماعات التي عقدها بشير معكم. نحن على علاقة معكم منذ سنة 1958. ومن الممكن أن نطور هذه العلاقات حتى نقيم سلاماً حقيقياً بيننا. يمكن أن يكون لبنان أول مرحلة في سلام سيشمل المنطقة كلها. لكن علينا أن نأخذ بعين الاعتبار وضع لبنان، وجغرافيته، وديموغرافيته، وعوامل كثيرة أخرى. لست جاهزاً بعد لمفاوضات كاملة. ولم أطّلع بعد على كل الملفات. لست أدري إلى أين وصلتم بالضبط في هذا المضمار. لا بد أنكم تعلمون أنني غارق تماماً فيما جرى وفي الحملة الانتخابية. غداً سنفوز في الانتخابات. لدي قناعة عميقة بضرورة الوصول إلى نتائج طيبة وإلى تفاهم بيننا وبأننا سنعمل لأجل بلوغ ذلك. وأود أن أقول لكم أيضاً أننا لن ننسى أبداً ما فعلتموه لأجلنا إبّان الحرب. ولست أدري ما إذا كنا قد نجونا لو لاكم [...] أود أن يستمر هذا معي، قال أمين الجميل.

حصل الإسرائيليون من المرشح على كل الضمانات الشفوية التي كانوا يتمنونها، "شرط أخذ عامل الوقت في الاعتبار. فلا يمكن فعل كل شيء في يوم واحد."

– لم أفهم لماذا سارعت الحكومة اللبنانية إلى استدعاء القوى المتعددة الجنسيات – سأله آرييل شارون.

– لأننا كنا نريد سياحاً في بيروت – أجاب أمين بلهجة ساخرة.

– سيختبئ آلاف الإرهابيين وراء أولئك السياح – رد شارون بلهجة جافة – أين تريدون

أن تعسكر قواتنا؟ من أية مواقع تريدونها أن تنسحب؟ نحن ننوي الخروج من المدينة بعد أن ننجز عملنا التنظيفي. لكننا سنبقى في لبنان ما دام فيه قوات أجنبية. سنحتل طريق بيروت – دمشق، لأننا إذا انسحبنا منها فالسوريون سيعودون. ما رأيكم؟

– أنا موافق، أكّد أمين.

حوالى الساعة الحادية عشرة ليلاً، وحتى قبل مغادرة الوفد الإسرائيلي الزوق، أعلن فرانسوا ميتران بواسطة التلفزيون: "لقد قرّرت، بناء على طلب الحكومة اللبنانية، وتلبية للنداءات الآتية من كل مكان بما فيه من العالم العربي، أن تشارك فرنسا في تشكيل قوة جديدة متعددة الجنسيات تكون مهمتها الإسهام في إعادة الأمن واحترام القانون العام".

وفي اليوم التالي، يوم 21 سبتمبر – أيلول 1982، انتخب أمين الجميّل الرئيس الرابع عشر للجمهورية اللبنانية. كان على الأرض اللبنانية يومذاك أحد عشر جيشاً أجنبياً – بما فيها تلك المشاركة في قوات الفصل التابعة للأمم المتحدة – فضلاً على الميليشيات الخاصة أو العامة، والعصاة أو المقاتلين من كل صنف، الذين كانوا "يسيطرون" على قطع صغيرة من لبنان.

وابتدأت حرب نفوذ صامتة وبلا رحمة بين القوات اللبنانية والرئيس. فهو لم ينفذ شيئاً من كل ما وعد به في اجتماع بيت المستقبل. ودخل أمين الجميّل يوم أول نوفمبر – تشرين الثاني 1982 في مفاوضات سرية مع الإسرائيليين أسفرت يوم 17 مايو – أيار 1983 عن عقد معاهدة صلح. وأقرّت الحكومة الإسرائيلية هذه الاتفاقية كما صوّت لصالحها نواب البرلمان اللبناني باستثناء بضعة نواب. لكن أمين الجميّل امتنع عن نشرها. ولم تنفذ قط. فسحبت إسرائيل فجأة قواتها من جبال الشوف متعمدةً ترك الميليشيات المسيحية والدرزية وجهاً لوجه. وكانت المجزرة. وبعد أن أرهقت المعارك القوات اللبنانية وتآكلت من الداخل بفعل التحاق جزء منها بأمين الجميّل، فراحت تفقد نفوذها شيئاً فشيئاً. وفي 24 فبراير – شباط 1984، تخلّى أمين الجميّل نهائياً عن الخيار الإسرائيلي وقام بزيارة مثيرة لحافظ الأسد في دمشق، في شهر تشرين الأول سنة 1984. ثم أقصى فادي أفرام بحركة انقلابية عن قيادة القوات اللبنانية.

الملاحق

ملحق رقم 1

الوثيقة الأصلية التي أعدها ميشال عون وأنطوان نجم لأجل اجتماع فريق بشير الجميل في 27 سبتمبر - أيلول 1980.

دراسة حول وصول بشير إلى الحكم

الموضوع: دراسة إستراتيجية للمرحلة المقبلة

1. **الهــدف**: الوصول إلى الحكم.
2. **الوضع السياسي - العسكري الاقتصادي:**
   - وجود شرعية ممثلة بالحكومة الحالية.
   - استمرار الاحتلال السوري - الفلسطيني.
   - الدعم الإسلامي (السنّي خصوصاً) للفلسطينيين.
   - اعتبار الدروز والشيعة أخصاماً أكثر منهم محايدين.
   - سيطرة العدو على المصرف المركزي.
3. **تحديد ساعة الصفر:**
   تنفيذ الهدف عند شغور منصب الرئاسة الأولى (انتهاء الولاية، استقالة، قرار أو أي احتمال آخر نهائي).
4. **سبب اختيار هذه المناسبة:**
   سيجري انتخاب الرئيس المقبل تحت الضغوط السورية - الفلسطينية - الدولية. هذه المناسبة تسمح بتهيئة النفوس وتعبئتها ضد كل هذه الضغوط وضد تزوير الإرادة الشعبية.

ساعة الصفر ستكون شهراً أو شهرين قبل انتهاء ولاية الرئيس أو خلال الأيام العشرة التي تسبق انتخاب رئيس جديد. إذا حصل فراغ فجائي في الحكم، ستكون مراكز القرارات السياسة والعسكرية شبه مشلولة و عاجزة عن العمل ضد القوات اللبنانية.

5. هل استلام الحكم يعقّد الأزمة أو يساعد في حلّها:

51 – في حال الوصول إلى الحكم بصورة شرعية:

511 – **خارجياً**: الاعتراف بالشرعية يساعد كثيراً في تبرير كل عمل عسكري لأجل تحرير الأراضي المحتلة.

512 – **داخلياً**: احتمال رفض إسلامي – فلسطيني – سوري يفضي إلى ثورة ونزاع مسلّح.

513– **تقدير**: المحاسن تتفوق على المساوئ نظراً إلى التغطية الدولية التي ستفيد الشرعية في كل المبادرات التي ستتخذها.

52 – في حال الوصول إلى الحكم بصورة غير دستورية، سيكون هذا قفزة في المجهول. ما لم نحصل مسبقاً على تأكيد باعتراف دولي بعد الاستيلاء على الحكم مباشرة. وذلك من جانب دولة كبيرة تتمتع بحق النقض في مجلس الأمن أو من جانب إسرائيل (انظر الفقرة 66).

53 – في حال كون الوضع عند ساعة الصفر لا يسمح باستلام الحكم دستورياً أو لا.

اقتراح:

يجب العمل على إيصال "صديق" إلى الرئاسة شرط أن يضمن لنا تنفيذ أهدافنا في وثيقة خطية موقعة ومبرمجة.

6. الموقف الواجب اتخاذه حتى ساعة صفر، في الظروف الراهنة:

61 – **حيال الشرعية:**

– عدم السعي إلى إسقاط الشرعية القائمة (إلا في حالة الخيانة الصريحة) لأن هذا سيكون في نظر الرأي العام المسيحي مجرّد سعي إلى الاستيلاء على الحكم.

– مع ذلك، على القوات اللبنانية أن تظل متيقّظة كي تواجه كل المحاولات والخطط الرامية إلى عرقلة أهدافها.

– تسجيل "نقاط" تجاه الدولة عن طريق ممارسة ضغط على المسؤولين لردعهم عن التسبب بمشاكل لنا.

62 – **حيال الشعب:**

– الخدمات الاجتماعية.

– تحسين الوضع في المناطق الحرّة بجميع الوسائل. أهمية خاصة "لكسب" الشعب في المناطق التي يسيطر عليها الجيش.

63 – **حيال الجيش:**

– "كسب" الجنود إفرادياً للقضية اللبنانية.

– كسب مواقع رئيسية في جميع القطاعات.

– منع المسؤولين العسكريين من إثارة مشاكل وذلك بتهديدهم مباشرة عند الاقتضاء.

– شلّ الجيش بواسطة عناصر تؤيدنا، بغية إعطاء قوى الأمن الداخلي حرية الحركة في المرحلة السابقة للانتخابات.

64 – **النهج العام حيال الشعب والجنود:**

– تشجيع الروح الثورية ضدّ الاستعمار العربي – الفلسطيني. وضد كل الذين يحاولون المساومة على مصير المسيحيين لأجل مصالح شخصية.

65 – **إرغام الدولة على تبني "خطة أمنية" لا تعيق إستراتيجيتنا بل تترك لنا إمكانية ضرب استقرار الوضع في اللحظة المناسبة (انظر الملحق).**

66 – **نهج العمل ضد قوى الاحتلال السورية – الفلسطينية:**

الاكتفاء بالدفاع وبتعزيز الجبهات قبل وإبان وبعد تنفيذ مشروعنا. لأن القوات العدوة أقدر من قواتنا. وفي حال ضرورة أخذ الحكم بطريقة غير دستورية، يجب أن نتوصّل مسبقاً إلى اتفاق مع إسرائيل على اعتراف متبادل وتوقيع ميثاق دفاع مشترك.

661 – لا بد من أن يقضي هذا الميثاق إلى إنشاء دولة مسيحية مطوقة إسلامياً، ما لم تتفكك الكيانات السياسية في الشرق الأوسط ويعاد تشكيلها على أسس إثنية وطائفية.

7. نهج العمل الواجب اتباعه حتى ساعة الصفر، في حال تبدل الوضع الراهن:

71 – **سقوط النظام السوري أو تفكك الدولة السورية:**

– سيكون هذا السقوط بطيئاً نسبياً، ما يتيح لنا ما يكفي من الوقت كي نستعد ونتخذ التدابير الضرورية.

– الإعداد الأهم سيكون تأجيج النزاع بين الفلسطينيين من جهة والدروز والشيعة من جهة أخرى. سيتوجب إقناع هاتين الطائفتين بحسنات الفدرالية، وهذا سيسهم في تحفيزهما ضد الفلسطينيين. يجب ألاّ ننسى أنّ نزاعنا هو مع الفلسطينيين (وغطائهم السنّي) وأنه لا مناص منه في كل الأحوال.

– هذا يقتضي وضع خطط عسكرية للتحرير.

72 - فراغ أمني يعقب انسحاباً سورياً فجائياً (طوعاً أو نتيجة ضربة عسكرية إسرائيلية).

721 - ملء أي فراغ أينما حصل. على كل حال، لا ينصح بدخول قضاء زغرتا بغية إفساح المجال أمام الزغرتاويين المناوئين لآل فرنجية كي يساعدونا عسكرياً. احتلال قرى في هذا القضاء قد يجرح كبرياء الزغرتاويين ويقوي موقع الرئيس فرنجية، فيما أن مراعاة هذه الكبرياء ستكون لصالحنا داخلياً ودولياً، بما في ذلك الفاتيكان والمغتربين.

722 - مباشرة التفاوض فوراً مع الدروز والشيعة كي يتعهدوا حفظ الأمن في مناطقهم. ويقطعوا بذلك الطريق أمام توسع فلسطيني. إنه الغطاء الوطني الضروري لانتزاع اعتراف دولي.

723 - تحييد الشرعية اللبنانية: مما لا بد منه في الحالتين شل نشاطات رئيس الجمهورية إذا رفض التعاون معنا ولكي لا يقف ضد خطتنا. كيف؟ من خلال ضغوط مسيحية شديدة إلى جانب منع العسكريين المسلمين من الوصول إلى وزارة الدفاع. سيخلّف هذا فراغاً في مراكز القيادة ويجبر قائد الجيش على ملء هذه المراكز بضباط مسيحيين.

ملاحظة هامة:

لا يمكن أن يطلب من العسكريين أن يتواجهوا بالسلاح. بل يجب ممارسة ضغوط تجرّد كل المعارضات من سلاحها.

724 - إحداث نزاع عسكري بين الجيش اللبناني والفلسطينيين من شأنه أن يحيّد الدروز والشيعة ويدعم الجيش. وبعد ذلك إقحام الجيش بإيلائه دعمنا الكامل وبانضمامنا إليه في المعارك لكي نهيمن عليه ونجعله ينفجر من الداخل.

8. المصرف المركزي:

من الحيوي جداً في كل الأحوال أن نضع يدنا على المصرف المركزي. وهذا غير ممكن إلا عن طريق عملية عسكرية ليلية على الأرجح.

9. استلام الحكم بالتعاون والتحالف مع الرئيس إلياس سركيس:

91 - نقاط التلاقي مع الرئيس سركيس:

911 - مقاومة توطين الفلسطينيين.

912 - قناعته بعدم فاعلية العرب وعدم جديّتهم في حلّ المشكلة اللبنانية.

913 - اعتماده على الدعم الدولي.

914 - يأسه من المسلمين السنّة.

92 - نقاط التباعد مع الرئيس سركيس:

عديدة: خلاف كلّي بين الرئيس سركيس والقوات اللبنانية حول الميثاق الوطني والصيغة اللبنانية.

93 - إمكان إيجاد نقاط تلاق جديدة:

931 - اتفاق حول الخطّة الأمنية (انظر الملحق).

932 - وضع ضباط مخلصين للقضية في المراكز الأساسية في الجيش.

933 - تنظيم القوات اللبنانية من قبل ضباط في الجيش بموافقة الرئيس سركيس.

934 - تشجيع تنفيذ مشاريع في مناطقنا.

935 - الاتفاق على خطوط معلوماتية كاملة وسرية.

936 - الاتفاق سراً على كل المواقف السياسية.

937 - تقدير: لا ينكر أحد المنافع الكبيرة التي يمكن أن تجنيها القضية والمقاومة اللبنانيتان من التعاون مع الشرعية والوصول إلى الحكم بدعم منها. رسالته الأخيرة تعكس وعياً متزايداً لضرورة الاعتماد على الذات. فعلى الرئيس أن يدرك أن هذه "الذات" لا يمكن أن تكون إلا "المجتمع المسيحي" الممثل تماماً بالجبهة اللبنانية والمقاومة اللبنانية. وإذا نجحت هذه الجهود فيكون من الممكن رسم "استراتيجية مشتركة". مع العلم بأن الثقة تبقى أساس هذا التعاون.

10. في كل جهد تبذله المقاومة اللبنانية للوصول إلى الحكم، يبقى السوري هو العقبة الكبرى. إنه القوة التي تهدد بشلّ القوات اللبنانية وبالحؤول دون أي تحرير. هذا لا يعني أن الفلسطينيين ليسوا عقبة، بل إنهم فقط أقل خطراً. مكمن الصعوبة هو في مجابهة كل هذه العقبات في آن واحد. فيكون من الضروري إذاً تحييدها الواحدة بعد الأخرى.

ملحق

خطة أمنية يمكن قبولها ووجوب العمل لأجلها:

1. يتكفل الجيش اللبناني بمرفأ بيروت، والأسواق والمطار والطرق المؤدية إليه.

2. رفض تسليم هذه المناطق إلى قوى الأمن الداخلي. حضور هذه القوات يعني رفض الحكم المسيحي.

3. انتشار الجيش في بيروت الغربية على عمق انتشاره عينه في بيروت الشرقية. المرفأ يعادل المطار.

4. استلام وزارة الدفاع من قبل شخص قريب من بشير الجميّل. على الوزير أن يتمكّن من إجراء تعيينات تتفق مع خططنا.

5. **الأسبـــاب:**

51 – من شأن موافقتنا على مثل هذه الخطة الأمنية أن تُحسّن صورتنا عند السلطة والشعب. وأن تحرج أعداءنا. قد يعمد هؤلاء حينذاك إلى تفجير الوضع فيوفرون علينا فعل ذلك بأنفسنا وعواقبه المادية والمعنوية.

52 – تحسين صورة القوات اللبنانية في المناطق التي تشملها الخطة الأمنية.

53 – استئناف الاتصالات بالمسيحيين القاطنين في هذه المناطق، ما يتيح لنا أن نجرّهم إلى صفوفنا.

54 – استعادة النشاط الاقتصادي.

55 – إقصاء السوريين والفلسطينيين عن حدود مناطقنا.

56 – سهولة العمل على تفجير الوضع بين الجيش والفلسطينيين.

***

ملحق رقم 2

الوثيقة الأصلية التي أعدها كريم بقردوني وجوزيف أبو خليل في ديسمبر - كانون الأول سنة 1980

مشروع تعاون ناجح بين الشرعية والمقاومة المسيحية

1. الاتفاق حول مفهوم واحد للأزمة اللبنانية هو شرط أساسي لخلق علاقة تكاملية بين الشرعية اللبنانية والمقاومة المسيحية. للأزمة اللبنانية جذورها العميقة في الاختلاف بين الأطراف اللبنانية المختلفة في رؤيتها للبنان: الدستور، والوجود، والدور، والمستقبل.

على أن الوجود الفلسطيني في لبنان الذي كسر التوازن اللبناني يشكل السبب المباشر الظاهر لهذه الأزمة و أداة تفجيرها. فالأزمة اللبنانية مرتبطة عملياً بأزمة

الشرق الأوسط من جرّاء العمل العسكري والسياسي والإعلامي الفلسطيني، وذلك إلى حد حمل العديد من المراقبين على الاعتقاد بأنه لا يمكن إيجاد حلّ للأزمة اللبنانية قبل حلّ أزمة الشرق الأوسط. ومن الواضح، من جهة أخرى، في فكر الفلسطينيين والمدافعين عن قضيتهم، أنه لا يمكن إيجاد حلّ لمشكلتهم دون خلق دولة فلسطينية.

تبدو هذه الدولة الفلسطينية في نظر عدد من المراقبين مستحيلة وفي نظر الجميع بعيدة، في المدى القصير على الأقل. لهذا، يكون مستحيلاً أن تقبل إسرائيل بملء رضاها إنشاء دولة فلسطينية كنتيجة لاتفاقات كمب دافيد، أو بمفاوضات حول حكومة خاصة بالفلسطينيين، أو في إطار أية مفاوضات أخرى ممكنة: جنيف...

لهذا، فإن من غير المحتمل أن تفرض الأمم النافذة وخصوصاً الولايات المتحدة دولة فلسطينية على إسرائيل حتى تحت التهديد بالنفط والحرب. ولهذا من الواضح أن الفلسطينيين: الشعب والمنظمات المسلحة سيبقون في لبنان. وقد رسموا منذ قليل كل البنية التحتية لدولة فلسطينية وغير معلنة بعد.

2. يمثل الوجود الفلسطيني وسيمثل قطباً جاذباً لجميع التدخلات الأجنبية الإقليمية والدولية. فالوجود الفلسطيني هو ذريعة لعمليات عسكرية إسرائيلية وهو سبب الدخول السوري إلى لبنان بكل ما يمثل.

إسرائيل تتدخل لتحمي نفسها من العمل العسكري الفلسطيني. وسورية تبقي على حضورها بغية الإمساك بالورقة الفلسطينية التي هي ورقة جوهرية في الأزمة الإقليمية وبالورقة اللبنانية التي أمست مهمة جداً أيضاً بالإضافة إلى المطامع السورية التقليدية في لبنان، وإسرائيل لن توقف عملياتها إلا بعد أن تُشلّ القدرة العسكرية الفلسطينية تماماً. ولن تنسحب سورية من لبنان إلا مرغمة عسكرياً أو سياساً.

3. الحضور الفلسطيني الذي سهّل الحضور السوري وسبب التدخل الإسرائيلي شلّ الشرعية اللبنانية: الدور والمؤسسات، وجعل من لبنان أمة مفككة وبلداً محتلاً.

وتمكنت القوات الفلسطينية من احتلال قسم كبير من لبنان عسكرياً. وبسبب فشلهم في احتلال القسم الباقي، فإنهم يسعون إلى احتلاله سياسياً عن طريق إدخال حلفائهم المحليين في الحركة الوطنية والتجمع الإسلامي في الحكومة وفي السلطة. ومع أن الفلسطينيين يرفضون كل حضور شرعي فعلي في المناطق التي يحتلونا، فإنهم يحاولون عن طريق هذه الشرعية إياها الدخول إلى المناطق الحرة بانتظار احتلالها لاحقاً.

لولا المقاومة البطولية من جانب المقاومة اللبنانية، لكان لبنان تحت الاحتلال ولكان هذا هو الحل لمشكلة الشرق الأوسط.

4. نجحت المقاومة اللبنانية رغم أخطائها في خلق جيل جاهز لحمل البندقية في سبيل قضية. كما أنها نجحت في صيانة الحرية، وإن لم يكن ذلك إلا في جزء صغير من لبنان. هكذا صارت القضية اللبنانية مرتبطة عضوياً بالمقاومة اللبنانية. غير أن المقاومة اللبنانية لا تريد، في ظل الوضع الداخلي الإقليمي والدولي الراهن، أن تسرع في تحرير لبنان بمفردها، وذلك تحاشياً لاستغلال الأعداء هذه الحرب التحريرية من أجل التقسيم والتوطين. وإذا نُزع عن هذه المقاومة طابعها "المسيحي" بدخول عناصر غير مسيحية إليها أو بقيام تحالف عميق مع هذه العناصر، لبات بالإمكان تحرير البلاد بكاملها واستعادة سيادتها ووحدتها.

هنا يظهر بوضوح تام دور الشرعية اللبنانية التاريخي. فهي تستطيع أن تتبنى المقاومة المسيحية وتحويلها إلى مقاومة لبنانية.

5. مهمة تحويل المقاومة المسيحية إلى مقاومة لبنانية هي أخطر وأصعب قرار يمكن أن تتخذه الشرعية. إنها تتخذ كفرضية أساسية إرادة الشرعية لإجراء تغيير ذاتي حتى تتمكن من تغيير المقاومة. إنه لأمر جوهري إدخال روح "ثورية" إلى الشرعية كي تتمكن من التعاون مع المقاومة بكل حميتها الثورية وكي تتمكن من مواجهة الفلسطينيين بما لديهم من أساليب إرهابية. على الشرعية أن تجري انقلاباً كاملاً في ذهنيتها وأساليبها وأشخاصها.

إن الشرعية بوجهها الثوري المدعوم بشرعية شعبية ممثلة بالمقاومة من جهة، والمقاومة بطابعها اللبناني والمدعومة من قبل الشرعية من جهة أخرى، تمثلان القوة الضرورية لإخراج لبنان من أزمته.

هكذا تكون الشرعية والمقاومة متكاملتين.

6. يسوقنا هذا إلى اقتراح إستراتيجية واحدة للشرعية وللمقاومة، ترمي إلى تبديل التوازن الحالي وتحوير بعض المعادلات. الغاية من ذلك هي:

1 - إيجاد صيغة جديدة للبنان تكون الفدرالية وتحلُّ محل دستور 1926.

2 - تحرير لبنان من الاحتلال السوري.

3 - تقييد المنظمات الفلسطينية كمرحلة أولى، وتصفيتها كمرحلة ثانية، واستئصال الحضور الفلسطيني كمرحلة ثالثة.

يمكن أن تطبق هذه الإستراتيجية بمبادرة من الشرعية مدعومة من المقاومة أو على العكس.

7. إذا أتت المبادرة من الشرعية مدعومة من المقاومة سيكون لها وزن سياسي أكبر. وفي هذا الإطار، نقترح:

1 - لبننة المقاومة المسيحية بضمّ أطراف غير مسيحية إليها أو بإقامة تحالف مع هذه الأطراف على قاعدة الصيغة اللبنانية الجديدة.

يقام هذا التحالف حسب سلم أولويات تبدأ بالدروز (وليد جنبلاط) مروراً بالشيعة (أمل) وتنتهي بالقوى السنّية (المرابطون). تعطى الأفضلية للتحالف مع الدروز لأجل تحرير جبل لبنان أولاً.

2 - العمل على تفكيك الحركة الوطنية وإنقاذ المسلمين من السيطرة الفلسطينية. سيكون من الخطأ تشكيل حكومة ائتلافية تضم أعضاء في الحركة الوطنية متحالفين مع المنظمات الفلسطينية. وسيكون من الخطأ أيضاً انتظار انتفاضة إسلامية تلقائية لأن الوقت يعمل لصالح خضوع إسلامي كامل للفلسطينيين. ستحصل الانتفاضة الإسلامية على الفلسطينيين إذا أخذت الشرعية المبادرة وستنتصر المقاومة اللبنانية.

3 - تصحيح صورة المقاومة في الخارج وتبرئتها من التهم التي أسهم النظام القائم في صنعها خصوصاً في أوروبا وفي الولايات المتحدة، كما أن على الدبلوماسية اللبنانية أن توضّح الروابط بين الشرعية والمقاومة المسيحية التي صارت لبنانية.

4 - إنجاز روزنامة تنفيذية مشتركة لتأمين قبول الصيغة الفدرالية ولو سراً من جانب البلدان العربية وخصوصاً سورية.

8. الشق الثاني للإستراتيجية، أي أخذ المقاومة للمبادرة ودعمها من قبل الشرعية، يمكن أن يكون بديلاً للشق الأول وتكون له نتيجة عسكرية. يمكن أن يكون هدف هذا البديل القيام بانقلاب عسكري يشارك فيه الجيش لأجل إعلان الصيغة الفدرالية وتنفيذ النقاط المدرجة في هذا القسم.

9. لكي ينجح الانقلاب يجب أن تكون الشرعية قد أمّنت النقاط التالية:

1 - إعداد فريق من الضباط المسلمين مستعدين للتعاون مع المقاومة.

2 - تعيين قائد جديد للجيش مؤيد لهذه الخطة، وتعيين ضباط مؤيدين للخطة في مراكز رئيسية.

3 - تنسيق عميق لوضع خطة تفصيلية للانقلاب.

4 - إعطاء التوجيهات اللازمة لبعض الإدارة لأجل تمويل المشاريع الملحة.

5 – تأمين غطاء أميركي و عربي للانقلاب .

من الضروري الانتهاء من تنفيذ هذ، الإستراتيجية في أقرب وقت ممكن ، وقبل الانتخابات الرئاسية في جميع الأحوال .

10 . إذا امتنعت الشرعية لأي سبب كان عن التعاون في إطار هذه الإستراتيجية لإخراج لبنان من أزمته ، ستضطر المقاومة أن تكمل الطريق بمفردها ، معتمدة إستراتيجيتها هي أياً كانت العواقب . وعلى الشرعية أن تتحمل مسؤولية ما سينجم عن ذلك .

المقاومة المسيحية لن تدع الوقت يمر دون فعل شيء . لن تقبل بأن يطرد المسيحيون من أراضيهم . أو أن يتقاسموها مع الغريب ، أو أن يعيشوا فيها كمواطنين من الدرجة الثانية .

المقاومة ستؤمن الحرية والأنفة والأمن وستنتصر دون شك .

***

ملحق رقم 3

الوثيقة الأصلية التي أعدها أنطوان نجم وجوزيف أبو خليل

يوم الجمعة 26 ديسمبر - كانون الأول 1980

خطة تمهيدية ترمي إلى استعادة السيادة

1 . **الهدف:**

تحرير الأمة من الغرباء . استعادة السيادة . تغيير العقلية السياسية في البلاد .

2 . **الوسائل:**

بمبادرة من الشرعية وتعاون و مساندة كاملين من بشير الجميل ووليد جنبلاط .

3 . **المرحلة الإعدادية:**

1 – محادثات بين الرئيسين سركيس والأسد للاتفاق على انسحابات سورية من بعض المناطق التي يحددها العسكريون . ولكي تكون القوات السورية في لبنان فعلاً تحت إمرة الرئيس سركيس .

2 – إعادة " الجسور " بين بشير والسوريين من جهة ، ووليد والسوريين من جهة أخرى .

3 – إقناع السوريين بالتوقف عن دعمهم للحزب السوري القومي والحزب الشيوعي .

4 – إجراء اتصالات دبلوماسية مع الولايات المتحدة .

5– تهيئة الجيش كي يكون مستعداً لدعم الحكم .

6 – السعي إلى وضع شخصية شيعية مناسبة على رأس حركة أمل .

7 – إبراز الأخبار المتعلقة بالشركاء في التحالف إعلامياً .

8 – مزيد من الانفتاح على الشيعة والسنّة .

4 . **العمليـــة:**

1 – قبول استقالة الحكومة أو حتى إقالتها .

2 – تأليف حكومة جديدة يكون بشير ووليد ركنيها الأساسيين .

3 – حل البرلمان ، وإعلان حالة الطوارئ، وتعليق الدستور .

4 – جعل الحكومة تجتمع في القصر الرئاسي .

5 – إجراء مناقلات وتعيينات إدارية في الفئة الأولى لتسهيل عمل الحكومة الجديدة . ومنح هؤلاء المديرين العامين صلاحيات واسعة .

6 – يوجه رئيس الجمهورية في اليوم ذاته نداءً إلى اللبنانيين وإلى الرأي العام الدولي يشرح فيه خطته . تكون هذه الخطة خطة إنقاذ .

7 – يستدعي الرئيس رؤساء البعثات الدبلوماسية ويطلعهم على ما يجري .

8 – تعطى الميلشيات صفة الشرعية ، وتحدد مهمتها .

9 – تأمين حماية المصرف المركزي ، والإدارات العامة ومراكز الخدمة العامة .

10 – تأليف بعثات تزور العواصم العربية والأوروبية والأميركية لشرح أهداف هذا العمل .

5 . **احتياطات يجب اتخاذها:**

1 – الحدّ من ردود الفعل السلبية من جانب السوريين والفلسطينيين المتضررين من هذه العملية .

2 –يطلب من السوريين رسمياً وعلناً البقاء على الحياد وعدم التدخل في أي شأن لبناني .

3 –اجتذاب أكثر ما يمكن من الزعماء السنّة .

***

ملحق رقم 4

الوثيقة الأصلية التي أعدها سمير فرنجية ورياض تقي الدين

خطة اتفاق وطني

1. **الهدف:**

1 –بسط سلطة الدولة على كامل الأراضي اللبنانية من أجل إفساح المجال أمامها للاضطلاع بمسؤولياتها.

2 – إرساء أسس جديدة للصيغة اللبنانية سياسياً واجتماعياً، مع أخذ العوامل التالية في الاعتبار:

– شعور الخوف عند المسيحيين.
– شعور الغبن عند المسلمين.
– تأمين العدالة الاجتماعية، وإزالة الفوارق بين المناطق.
– تجديد دور لبنان الثقافي (الثقافة، الإعلام، التربية).
– تأمين مشاركة ديمقراطية أفضل في قيادة الحزب: سياسياً، اجتماعياً، إدارياً (تصحيح التمثيل الشعبي، وتطبيق اللامركزية الإدارية).
– العمل ضمن إطار خطة تدريجية على إلغاء الطائفية.
– ترسيخ الحريات الأساسية، وتشجيعها وحمايتها.
– تأمين حقل نمو طبيعي للصيغة التي سيتفق عليها.
– تنمية قواعد جديدة لعلاقة لبنان بمحيطه العربي وبالعالم الخارجي. وذلك في إطار استقلال لبنان واحترام سيادته، وانطلاقاً من المبادئ التالية:
– منع استعمال لبنان منطلقاً لأعمال عدوانية ضد البلدان العربية. وعدم السماح بأن يصبح ساحة نزاعات عربية أو دولية.
– تأمين علاقة سليمة مع سورية، مبنية على ضرورة حماية مصالح البلدين المشتركة. سيكون هذا قاعدة وطيدة لدور لبنان في محيطه.
– المشاركة بنشاط في الجهود الرامية إلى إيجاد حل عادل للقضية الفلسطينية من

أجل تخفيض العبء الذي يحمله لبنان ومنع أي مشروع للتوطين.

– تحاشي الدخول في نزاعات ومحاور دولية، مع الحفاظ على انفتاح لبنان التاريخي في خدمة دوره الخاص في الشرق الأوسط.

2. **الوسائل:**

مبادرة من الشرعية بالتعاون الوثيق مع وليد جنبلاط وبشير الجميّل. يجب أن تكون الشرعية العنصر الأساسي لا مجرد شاهد.

3. **المرحلة الإعدادية:**

1 –تأمين عقد اجتماع بين سركيس والأسد لأجل تطوير العلاقات اللبنانية السورية، وذلك من أجل تنفيذ خطة الإنقاذ الوطني.

2 –إعادة الاتصال بين بشير والسوريين وتنمية العلاقة بين وليد والسوريين (جعل وليد تدريجياً صلة الوصل بين الرئيسين سركيس والأسد). الغاية من ذلك خلق الثقة بين السوريين واللبنانيين وإقناع السوريين بالتركيز على التحالف الثلاثي في علاقتهم بلبنان.

3 –يطلب إلى وليد جنبلاط فتح ملف العلاقات اللبنانية – الفلسطينية مع قادة المقاومة الفلسطينية تمهيداً لتكوين موقف لبناني عملي من الوجود الفلسطيني.

4 –تهيئة الجيش كي يكون جاهزاً لتنفيذ المهمة في تدعيم الحكم الشرعي (انتشار على الأرض، قانون الدفاع).

5 –تهيئة الجو داخل حركة أمل (انتخابات) من أجل إبراز الشخصية الشيعية المناسبة.

6 –العمل المشترك لتحديد هوية محاور سنّي صالح، وذلك عن طريق تنمية الاتصالات الإيجابية والعلاقات البناءة (اتصالات بين التجمع الإسلامي والجبهة اللبنانية).

7 –العمل المشترك لإنهاء النزاع بين زغرتا والكتائب، وذلك بالتزامن مع عودة الاتصالات بين بشير والسوريين بغية تلافي قيام جبهة اعتراضية لخطة الإنقاذ حول الرئيس فرنجية.

8 –وضع خطة إعلامية تخدم خطة الإنقاذ الوطني:

– إبراز تصريحات أعضاء التحالف.
– إعداد برنامج مناقشات متلفزة.
– العمل على تنوير الرأي العام الدولي (زيارات صحافيين أجانب).

9 – اتصالات دبلوماسية من جانب أعضاء التحالف الثلاثي مع :

– الولايات المتحدة .

– فرنسا .

– الاتحاد السوفياتي (نظراً لاهتمامه بحماية سورية) .

10 – توزيع المهمات والأدوار لأجل تنفيذ المرحلة الإعدادية وتأليف لجنة دائمة لمتابعة التطورات .

4. **العمليـــــة:**

1 – قبول استقالة الحكومة أو حتى إقالتها .

2 – تأليف حكومة جديدة يكون بشير ووليد ركنيها الأساسيين .

3 –حل البرلمان وإعلان حالة الطوارئ وتعليق الدستور .

4 – إجراء مناقلات وتعيينات جديدة في مراكز الفئة الأولى في الإدارات لتسهيل مهمة الحكومة الجديدة وكمؤشر على التوجهات الإصلاحية الجديدة . مع إعطاء صلاحيات واسعة لأجل تعجيل عملية الإدارات .

5 – إدلاء الرئيس بتصريح يشرح فيه خطة الإنقاذ الوطني .

6 – إعلام البعثات الدبلوماسية .

7 – إضفاء الشرعية على الميليشيات ، ووضعها تحت سلطة الدولة ، وتحديد مهمتها في إطار خطة أمنية .

8 – حماية المصرف المركزي والمؤسسات العامة ودوائر الخدمة العامة .

9 – مراقبة التلفزيون ومحطة الإذاعة .

10 – إيفاد بعثات إلى العواصم العربية والعالمية لشرح أهداف العملية .

5. **تحييد ردود الفعل الداخلية والعربية.**

الثلاثاء في 30/ 12/ 1980

سمير فرنجية   رياض تقي الدين

***

ملحق رقم 5

الوثيقة التي سلمها السفير الأميركي جون غونتر دين إلى بشير الجميل في 13 مارس - آذار 1981

سرّي

توجيهات بشأن لبنان

الولايات المتحدة تدعم استقلال لبنان وسيادته وسلامة أراضيه ووحدته الوطنية . الولايات المتحدة باقية ضد التقسيم .

تساند الولايات المتحدة حكومة لبنان المركزية الشرعية والدستورية ومؤسساتها الوطنية . من المهم أن تصان الشرعية . تعترف الولايات المتحدة أن هناك أنصاراً لإعادة تنظيم البنية الحكومية والدستورية . ليس للولايات المتحدة وجهة نظر محدّدة إزاء تغييرات معينة . ويعود إلى اللبنانيين أن يقرروا ذلك . لكن يجب أن يتحقق كل تغيير ، حسب رأينا، عن طريق عمليات سياسية سلمية .

وهكذا فإن الولايات المتحدة سترحب كثيراً بتنمية توافق سياسي وطني حقيقي حول شكل لبنان الجديد . يجب أن يعكس هذا التوافق وجهات نظر كل الطوائف اللبنانية . الولايات المتحدة قلقة جداً على أمن ورفاه الطوائف اللبنانية ، بما فيها المسيحية . نعترف بأن هذه الطوائف تشعر بقلق مشروع . نريد للوضع في لبنان أن يتحسن وأن تتمكن هذه الطوائف حقاً من الشعور بالأمن وأن تفيد من مجالات طيبة ، سياسية واقتصادية واجتماعية .

ستواصل الولايات المتحدة دعم وتقوية الجيش اللبناني بجميع الوسائل المناسبة بما في ذلك برامج التسليف والتدريب (FMS) . نحن ندعو لقيام جيش وطني تدعمه جميع الطوائف اللبنانية بوصفه عنصراً أساسياً قادراً على تأمين سلامة هذه الطوائف وإقامة قاعدة من الاستقرار في هذا البلد .

نحن ندعم قوات الطوارئ الدولية (FINUL) العاملة في جنوب لبنان ضمن ظروف خطرة بوصفها العنصر الوحيد القادر على لجم العنف والإسهام في نشر الاستقرار في المنطقة . نعترف بأن المجموعة الفلسطينية الهامة في لبنان تمثل مشكلة للبنانيين . ونعتقد بأنه

ينبغي معالجة المشكلة الفلسطينية، حتى في بعدها اللبناني، عن طريق إقامة سلام إسرائيلي – عربي شامل. حن نتقدم نحو هذا السلام عبر عملية كمب دافيد. تعتقد الولايات المتحدة بأن كل حل شامل للمشكلة الفلسطينية لا يجوز له أن يمس بمصالح لبنان الوطنية.

الولايات المتحدة تأسف لوجود العنف في لبنان، أينما حصل. وهي تقف بحزم ضد الإرهاب. الولايات المتحدة تعارض بحزم شن هجمات على إسرائيل انطلاقاً من الأراضي اللبنانية. إن هذا يخلق دورة من العنف لا تنتهي وتزيد من آلام الأبرياء في إسرائيل كما في لبنان.

الولايات المتحدة تدعم انسحاباً على مراحل للقوات السورية من لبنان يؤول إلى إنهاء كل وجود سوري في لبنان، ويتحقق بفضل انتشار متواصل لسيطرة الجيش وشرطة الحكومة اللبنانية على المناطق التي يسيطر عليها السوريون حتى الآن. ولا يمكن أن يؤخر هذه العملية إلا اضطرابات أو غياب توافق سياسي واسع.

على أنه لا يجوز أن يؤدي تنفيذ هذا الانسحاب إلى استئناف الحرب الأهلية أو إعادة تأجيج الصراعات بين مختلف الميليشيات والفدائيين الفلسطينيين.

نأمل أن تتحلى الكتائب بالصبر وضبط النفس، حتى إزاء حصول استفزازات سورية وفلسطينية. سنشجع الجهود الرامية إلى قيام حوار بين الزعماء المسيحيين والطوائف الإسلامية والدرزية. ونعتقد بأن الكتائب وسائر المنظمات المسيحية يمكنها أن تؤثر في المجرى المقبل لتاريخ لبنان. ونأمل بأن تستعين الكتائب بأساليب سياسية سلمية لأجل بلوغ أهدافها وأن تتعاون مع الحكومة المركزية والجيش الوطني.

9 مارس – آذار 1981

***

ملحق رقم 6

كتبه أنطوان نجم حول روزنامة بشير الجميّل وتلاه بشير أمام محمد الخولي يوم الاثنين 4 مايو - أيار 1981

برنامج تعاون بين سورية والمسيحيين اللبنانيين
لأجل تجدّد لبنان وسيادته الكاملة
مبادئ أساسية للمفاوضات بين القوات اللبنانية والسوريين

1. يجب أن يسبق كل حل للمشكلة اللبنانية بين البلدين إزالة مشاعر الخوف والارتياب الناتجة عن الحرب. بدون هذه التهيئة سيكون كل اتفاق عرضة للفشل. ذلك أنه لا يمكن لأي نص أن يحل محل الثقة المتبادلة. وتوخيّاً للوصول إلى ذلك، يتعهد الطرفان باتخاذ كل التدابير الضرورية لتجنّب المجابهات، وممّا لا غنى عنه، في هذا الإطار:

1 – القيام فوراً بإحلال الجيش اللبناني محل جميع القوى المسلّحة المنتشرة على الأرض وخصوصاً في المناطق التالية:

– زحلة وتلالها، والمداخل والطرق المؤدية إليها (رفع الحصار).
– قمم جبل صنين والجرود (الجبال العالية) في كسروان وجبيل.
– أعالي المتن الشمالي بما فيه عينطورة، والمتين، وترشيش، والطريق المؤدية إلى زحلة.
– أقضية البترون والكورة وبشري وزغرتا.
– خطوط التماس في العاصمة من البحر حتى الحدث.
– الطرق المؤدية إلى مطار بيروت الدولي.

2 – إيقاف الحملات الإعلامية وإعطاء توجيهات إلى الصحف عند الطرفين كي تدعو إلى الهدوء والتفاهم والوئام.

3 – تجسد سورية هذا الواقع الجديد بقبولها الصفة التمثيلية للجبهة اللبنانية وقواتها المسلحة، وخيارات المسيحيين السياسية، وطموحات (غير المعلنة لأسباب واضحة) أكثرية اللبنانيين بوجه عام.

4 - تعارض سورية تأثير أي طرف غير لبناني في البلاد.

2. بانتظار أن يصبح الجيش اللبناني مجدداً أداة أمن توحي بالثقة لجميع اللبنانيين، يجب تأليف لجنة خاصة مكلّفة بتحديد البنى والصيغ والترتيبات التي تضمن الأمن والسلام للمسيحيين. ستكون القوات اللبنانية، في هذا الإطار، أداة أمنية، وتمتنع سورية عن معارضة ذلك.

3. من أجل استعادة الوحدة والسيادة على كامل الأراضي اللبنانية، تتعهد سورية بما يلي:

1 - تسهيل التدابير السياسية والأمنية اللازمة لبسط السيادة والشرعية تدريجياً على كامل الأراضي اللبنانية وكذلك لتأمين التوازن السياسي الذي هو في أساس لبنان (. . .)

2 -تسهيل قيام تفاهم بين الأقطاب السياسيين الرئيسيين في البلاد وإيلاء قيادة عسكرية شرعية لبنانية مهمة نشر الشرعية في كامل البلاد.

4. الوجود المسلح الفلسطيني هو عائق كبير في طريق تأهيل الدولة ومؤسساتها كما في طريق إعادة سيادتها وسلطتها. ولا بد، من جهة أخرى، من معاينة عجز لبنان والبلدان العربية عن محاربة إسرائيل من جهة، وأن الحرب المفتوحة التي يخوضها الفلسطينيون ضد إسرائيل انطلاقاً من لبنان تضع على كاهله كل عبء النزاع العربي - الإسرائيلي من جهة ثانية. فمن الضروري أن يفصل بين الأزمتين عن طريق تطبيق سريع للإجراءات التالية (على سبيل المثل لا الحصر):

1 - إعفاء لبنان من كل المسؤوليات العسكرية تجاه القضية الفلسطينية.

2 - منع كل حضور عسكري فلسطيني في العاصمة وجوارها، وفي المدن والأماكن المأهولة. حصر هذا الحضور العسكري في إطار جغرافي محدد جيداً، لا يمس بحقوق لبنان وسيادته. ويجب بحث هذا الموضوع بالتفصيل فيما بعد.

5. لا بد من اتخاذ جميع التدابير الضرورية للحؤول دون أن تمسي الأراضي اللبنانية مصدر خطر على سورية. وفي هذا الإطار، سيكون قيام تمثيل دبلوماسي متبادل مصدر صفاء ووسيلة فعالة لتجسيد العلاقات المتبادلة بين البلدين.

***

ملحق رقم 7

نقل إلى الرياض بواسطة سفير العربية السعودية في لبنان السيد علي الشاعر بتاريخ 30 مايو - أيار 1981

رسالة من بشير الجميّل إلى وزير الخارجية السعودي الأمير سعود الفيصل

سمو الأمير سعود الفيصل، وزير الخارجية

أنقل إليكم تحياتي ويشرفني أن أسأل عن أحوالكم.

أوجز لسموكم محادثاتنا مع الأخ السفير علي الشاعر.

تبيّن لنا من خلال هذه المحادثات أن همومنا وطموحاتنا متقاربة ومتكاملة، رغم عدم حصول اتصالات بيننا منذ فترة غير قصيرة. هذا ليس أمراً جديداً. فقد تكون لدى الشيخ بيار انطباع مماثل لدى لقائه الأخير معكم في قصر بعبدا، في أكتوبر - تشرين الأول 1978. وهذا يبين أن عدداً من الثوابت والروابط يجمعنا تلقائياً وبصورة آلية.

كما أنه تبيّن لنا أن مجرى الأزمة التي تطورت من حادثة منعزلة سنة 1975 إلى حرب شاملة في لبنان سنة 1976 قد تجاوز الإطار اللبناني وحدوده عبر النزاع السوري - الإسرائيلي القائم حالياً. هذا يثبت أن الأزمة اللبنانية تؤثر في أزمة الشرق الأوسط وتشكل خطراً لا يهدد لبنان وحده بل العالم العربي بكامله.

إن خطر استمرار الأزمة اللبنانية يكمن في تفاعلها، نوعياً، وجغرافياً، وفي دخول عوامل إقليمية ودولية إلى الساحة اللبنانية. وهكذا فإن جزءاً كبيراً من الأراضي اللبنانية حيث يوجد الفلسطينيون والسوريون قد أمسى بؤرة انطلاق للإرهاب الدولي وتوسع للنفوذ السوفياتي. إن المثلث الإستراتيجي المؤلف من الاتحاد السوفياتي وسورية ومنظمة التحرير الفلسطينية قد أحدث تغييراً جذرياً في بنية لبنان وحوله إلى قاعدة سياسية - عسكرية على غرار عدن.

لقد قاومنا ونقاوم أحياناً بمفردنا انتشار الإرهاب والتوسع السوفياتي. ولذلك أصبحنا هدفاً لحرب عسكرية وسياسية تشن علينا، بجميع الوسائل.

نحن نؤمن، بكل ضمير ومسؤولية، بضرورة اتخاذ قرار موحد لأجل إنشاء مثلث إستراتيجي يتألف منكم ومن الولايات المتحدة ومنّا لمجابهة المثلث الإستراتيجي الآخر الذي يهدد لبنان والمنطقة: وجوداً، وأنظمة، وقيماً.

نحن نرى من عمق تجربتنا ومأساتنا أن الضرورة تقضي بإنشاء إطار دائم لأجل وضع تنسيق وتعاون وتوزيع للمهمات، والأدوار، والمسؤوليات بين أطراف هذا المثلث. وذلك بمشاركة من جانب الشرعية اللبنانية والعناصر القومية اللبنانية، تحاشياً لكل تقصير أو سوء تقدير.

هذا ما بحثناه بصورة أساسية خلال لقائنا. كما أنني شدّدت على ضرورة تجديد دور المملكة العربية - السعودية في لبنان بوصفه عامل تقارب وتوازن وتفاهم. إن غياب المملكة المؤقت قد خلق فراغاً وشعوراً بالإهمال في الصفوف الإسلامية استغلّتهما الحركات الفوضوية واليسارية، والمتطرفة، المتمثلة بالمنظمات الفلسطينية، والشيوعيين، والبعثيين، والليبيين، والعراقيين . . .

أنا واثق من أن عودة المملكة العربية السعودية إلى أداء دورها الطبيعي والتاريخي في لبنان ستخدم القضايا العربية بقدر كبير، وتحل الأزمة اللبنانية، وتساعد مبادرات التفاهم والسلام.

أستطيع أن أؤكد لكم أنني على استعداد لبذل كل الجهود والتضحيات لكي ينجح هذا المثلث الإستراتيجي وخصوصاً الدور السعودي في لبنان. وفي كل هذا المثلث وهذا الدور نشعر نحن اللبنانيين بمزيد من الثقة بمصيرنا وحريتنا، ونعتبر الوعد السعودي ضمانةً أكيدة.

هذا المثلث الإستراتيجي هو قوة كفيلة بقلب كل المعطيات رأساً على عقب وبخلق دينامية قادرة أن توصل إلى تفاهم لبناني وتعاون عربي. هذا التعاون المبني على ميثاق الجامعة العربية والذي يؤكد سيادة لبنان الكاملة واستقلاله ووحدة أراضيه وحرية مواطنيه: أفراداً وجماعات؛ ويؤمن العدالة للجميع والمساواة بينهم.

إن هذا الهم وهذه الطموحات المشتركة تحتاج إلى مزيد من العمل وخصوصاً إلى كثير من طول الأناة والجهود المتواصلة.

أغتنم هذه المناسبة كي أقترح على سموكم القيام بمساعٍ تسهم، ولو بمقدار، في وضع الأزمة على سكة الحل:

1 - إيجاد حل كامل لأزمة زحلة وتلالها وفتح المعابر بين شطري بيروت.
2 - انسحاباً تدريجياً للقوات السورية من لبنان واستبدالها بالقوات المسلحة اللبنانية، وذلك لتأمين المناخ الضروري لإجراء انتخابات رئيس الجمهورية اللبنانية.
3 - إنشاء إطار لمفاوضات بيننا وبين السوريين تحت رعاية ووساطة العربية السعودية.
4 - حل مشكلة الوجود الفلسطيني في لبنان ضمن إطار مبادرة سعودية وبالتعاون مع جميع الفرقاء اللبنانيين.

5 - إطلاق العمل لأجل التفاهم الوطني عبر لقاءات في العربية السعودية بيننا وبين الزعماء المسلمين والدروز.
6 - إرساء قواعد حل جذري للأزمة اللبنانية على رؤية بنيوية لحكومة مناسبة تضمن حرية وأمن كل الفئات اللبنانية، وذهنية سياسية صالحة تعزز روابط لبنان العربية.

أمل أن تكون الرؤية واضحة وأنكم ستفعلون ما تجدونه ملائماً.

تمنياتي الخالصة لسموكم ولسائر قادة المملكة.

أخوكم
بشير الجميّل

***

ملحق رقم 8

مكتوب بيد العقيد ميشال عون في يونيو - حزيران 1981

لائحة مقارنة بين محاسن ومساوئ إعلان القوات اللبنانية أمام الملأ أنها تقطع كل علاقاتها مع إسرائيل

في حال الاعلان أمام الملأ

المحاسن:

1 - توضيح النوايا السورية والعربية والأميركية.
2 - إنهاء المراوغات على الصعيد الداخلي.
3 - إزالة العوائق من أمام الاتصالات العربية والفلسطينية.
4 - إزالة العوائق من أمام المفاوضات مع المسلمين.
5 - هدنة عسكرية ولو لفترة قصيرة.

المساوئ:

1 - إمكانية قطع التموين الإسرائيلي مع كل ما يستتبع من انعكاسات وخيمة على القوات المسلحة.
2 - إمكانية الانسياق إلى تنازلات أكبر.

3 - الدخول في عملية سياسية يمكن أن تعيدنا إلى نظام ما قبل 1975 .
4 - تحمل التبعات وتبرئة السوري من كل فعل إقرار بأخطاء .

في حال عدم الإعلان

المحاسن:

1 - انسجامنا مع أنفسنا برفض ما هو مفروض .
2 - الحفاظ على التموين الإسرائيلي .

المساوئ:

1 - إمكان اجتياح سوري .
2 - إغلاق الباب في وجه المبادرات العربية وبالمقابل الحصول على تغطية عربية لإنهاء لبنان .
3 - تحميل القوات اللبنانية المسؤولية عن العمل السوري .

***

ملحق رقم 9

الخطة العسكرية للقوات اللبنانية الواجب تطبيقها في حال حصول عملية عسكرية إسرائيلية. أعدها فادي افرام وأنطوان بريدي بقلم الرصاص على دفتر أحمر ذي لولب ونسخة واحدة. عرضت يوم 5 مارس - آذار 1982 على الإسرائيليين. الاسم الرمزي الذي أطلق على هذه الخطة (M)- م - اختير تكريماً لذكرى ابنة بشير "مايا" التي لاقت حتفها في انفجار 21 فبراير - شباط 1980

الخطة العسكرية - م -

أ- نوايا القيادة العامة وهيئة الأركان

- الإفادة من عملية عسكرية إسرائيلية واسعة النطاق تصل إلى مناطقنا انطلاقاً من الجنوب .
- تحرير أقصى ما يمكن من الأراضي .
- التعاون عسكرياً مع الجيش اللبناني أو مع قسم منه، هذا يتوقف على الوضع السياسي الذي سينتج عن العملية الإسرائيلية .

- إحكام السيطرة على المناطق المحرّرة .

ب - ثوابت وفرضيات أساسية

ب1 - الثوابت

عملية عسكرية إسرائيلية واسعة النطاق أهدافها :
1 - تدمير طاقات الفلسطينيين (منظمة التحرير الفلسطينية) العسكرية والسياسية .
2 - جلاء الجيش السوري .
3 - إقامة حكم قوي في لبنان، يكون صديقاً لإسرائيل، وذلك برئاسة بشير الجميّل .

قوام العملية العسكرية :
1 - محور الخط الساحلي ← خلدة
2 - المحور الأوسط ← جزين، الشوف، المديرج
3 - محور البقاع ← بحيرة القرعون

ملاحظة: إمكانية تقدم نحو شمال المحور (3) غير مستبعدة .

نشوب نزاع إسرائيلي - سوري يتوقف على ردة الفعل السورية على الهجوم الإسرائيلي .

ب2 - الأهداف

استناداً إلى هذه الثوابت، سيكون الهدف الذي سنتوقعه هو السيطرة على رقعة من الأرض محددة كما يلي :

في الجنوب : حدود مع إسرائيل على طول الحدود الدولية .
في الشرق : الجانب الشرقي (الشوف) لسلسلة جبال لبنان (انظر البديل) .
في الشمال2 : الشق الطبيعي لنهر أبو موسى وجبل تربل (شمال - شرق طرابلس) (انظر البديل) .
البديل رقم 1 : مدى السيطرة على البقاع يتوقف مباشرة على مدى الاندفاع الإسرائيلي في البقاع .
البديل رقم 2 : شن هجوم باتجاه عكار يتوقف على وضع القوات السورية :
- نزاع إسرائيل ← هزيمة
- الوضع الداخلي السوري ← انسحاب

ج - الأهداف العسكرية للقوات اللبنانية

(القوات اللبنانية + الجيش اللبناني + المقاومة الداخلية)

ج1 - المرحلة 1:

1 - خلدة:

- في حال عدم قيام الجيش الإسرائيلي بهذه العملية.
- الهدف: قطع طريق الجنوب ← منعاً لانكفاء الفلسطينيين نحو بيروت.

2 - بيروت: عملية يفضل أن يقوم بها الجيش اللبناني.

3 - منطقة البقاع: الجمهور والكحالة. من قبل الجيش اللبناني.

4 - هضبة رأس المتن، دير الحرف، حمانا، المديرج.

5 - طريق ترشيش - زحلة:

- جبل صنين ← زحلة (طريق الجرد)
- الزعرور ← زحلة (عبر ترشيش)
- ظهور الشوير ← زحلة (عبر ترشيش)

6 - جرد كسروان: طريق كسروان - البقاع - حدث بعلبك.

7 - جرد جبيل:

- أمهز ← المنحدر الشرقي لجبل لبنان.
- أفقا ← المنحدر الشرقي لجبل لبنان.
- اللقلوق ← المنحدر الشرقي لجبل لبنان.

ج2 - المرحلة 2

8 - الشمال: يمكن التفكير بها في المرحلة الثانية من العملية العامة، على دفعتين:

-تحرير المناطق التي احتلت بعد تشرين الأول 1976 (بشري، زغرتا، الكورة)

-الوصول إلى حدود: نهر أبو موسى، جبل تربل.

بديـل: سيكون التقدم نحو عكار إذا شمل النزاع السوريين أو إذا ساء وضع القوات السورية بسبب الحالة الداخلية في سورية. وإلا سيكون من الصعب القيام بذلك نظراً إلى القوات السورية (القوات الخاصة) المتمركزة هناك وإلى سرعة الدعم انطلاقاً من سورية.

9 - بديـل في البقاع: العملية الواجب توقعها تتوقف مباشرة على العملية الإسرائيلية في هذه المنطقة. وهي تقوم على بسط سيطرتنا انطلاقاً من المناطق ذات الأكثرية المسيحية: غرب البقاع الجنوبي، عيناتا، دير الأحمر.

د - المرحلة الأولى

1 - خلدة:

التوقيـت: في أقرب وقت بعد تجاوز الجيش الإسرائيلي صيدا.

العمليـة: التقدم من الشرق نحو الغرب انطلاقاً من كفرشيما، وصولاً إلى الطرف الجنوبي لمدرج مطار بيروت الدولي.

- من المهم السيطرة على مفترق الطرق: X = 12700 و Y = 20700
- إقامة جهاز دفاعي موجه نحو الشمال ونحو الجنوب حتى وصول الجيش الإسرائيلي إلى خلدة.

القـوات: جيش لبناني وقوات لبنانية.

بدائـل: إذا نزل الجيش الإسرائيلي في مناطقنا من البحر، ستكون هذه العملية على عاتقه. في كل الأحوال، يجب أن تكون الطريق الساحلية تحت القصف المتواصل كي يكون الانكفاء نحو بيروت صعباً جداً.

2 - بيروت:

التوقيت: بعد وصول الجيش الإسرائيلي إلى خلدة.

العملية: انتشار القوات بموازاة الجيش الإسرائيلي في جنوب بيروت، ثم تحرك نحو بيروت انطلاقاً من الجنوب.

- اختراقات على طول الجبهات التقليدية، خصوصاً على المحاور الكبيرة.

القوات: الجيش اللبناني والمقاومة الداخلية في الشق الأول.

- القوات اللبنانية والجيش اللبناني في الشق الثاني.

3 - المتن الجنوبي (الجمهور، خلدة):

التوقيت: بالتزامن مع عملية بيروت. يمكن القيام بهذه العملية منذ بداية العملية للجيش اللبناني، في نطاق الدفاع عن وزارة الدفاع.

العملية:

- الاستيلاء أولاً على تلة نوتردام.
- الاستيلاء على الكحالة.

هذه العملية مهمة جداً لأنها تحمي "مركز القرار السياسي" من أي تهديد سوري.

القوات: الجيش اللبناني، القوات اللبنانية، المقاومة الداخلية.

بدائل: في حال عدم تقدم الجيش الإسرائيلي نحو عاليه، يجب أن تتحرك قواتنا نحو عاليه لأجل الإبقاء على الضغط على مؤخرة القوى المعادية ولمساعدة محور المتن الشمالي.

4 - المتن الشمالي - 1 - (صليما، تلال رأس المتن، دير الحرف، حمانا، المديرج):

التوقيت: عند وصول محور "مرجعيون - الشوف" للجيش الإسرائيلي إلى عين دارة.

العملية:

- المنصورية - رأس المتن - دير الحرف - فالوغا - المديرج.
- بعبدا - صليما - قرنايل - فالوغا - المديرج.

الهدف: الالتقاء مع الجيش الإسرائيلي في المديرج.

القوات: الجيش اللبناني - القوات اللبنانية. المقاومة الداخلية (سند كبير).

بدائل: إذا بدرت من العدو علامات تراجع، يمكن تأخير العملية للحفاظ على فرصة التمكن من بلوغ الهدف دون قتل (تراجع العدو).

5 - المتن الشمالي - 2 - ← 4 محاور:

51 - ظهور الشوير - ترشيش - زحلة.

52 - بسكنتا - الزعرور - زحلة.

53 - المزار - ملجأ الفرنسيين - أوامي - الشير - أحمر - مطيوحان.

54 - بسكنتا - بتغرين - بولونيا.

التوقيت: في أقرب وقت بعد بلوغ الجيش الإسرائيلي الدامور على المحور الساحلي.

العملية:

- المحور (53) يجب التحرك عليه أولاً. ثم على المحاور (51) و(52) و(54) في آن واحد.
- بعد وصول هذه المحاور الثلاثة إلى أهدافها، يندمج المحوران (51) و(52) معاً ويؤمنان الدفاع عن مواقعهما.
- بعد ترشيش تتقدم قوة نحو زحلة. وفي الوقت ذاته تنزل قوة من (53) نحو زحلة من الشمال (جرد زحلة - عرنتا - جبل الشعرة)

ملاحظة: يجب تعزيز الدفاع عن زحلة منذ بدء العملية. يمكن لحظ مشاركة من القوات اللبنانية داخل زحلة للاستيلاء على التلال الملاصقة لشمال زحلة (ظهر

قسيسي - حرقه - تمثال العذراء - ظهر السيدة).

القوات:

(51) ← قوات لبنانية + جيش لبناني + مقاومة داخلية.

(52) ← قوات لبنانية + جيش لبناني.

(53) ← قوات لبنانية + جيش لبناني.

(54) ← قوات لبنانية + جيش لبناني + مقاومة داخلية.

بدائل:

- لا يمكن توقع تحرير البقاع إلا انطلاقاً من محور (جنوب - شمال) للجيش الإسرائيلي في البقاع وفي سلسلة جبال لبنان الشرقية.
- عديد الجيش اللبناني الذي يمكن أن يشارك في العملية هو العديد الملحوظ في المحاور 51، 52، 53، 54. يمكن أن يطلب تعزيزه منذ الآن.
- في حال سقوط الثلوج على القمم يمكن تغيير طبيعة القوات المشاركة.

6 - جرد كسروان (طريق عيون السيمان - البقاع)

التوقيت: بالتزامن مع محور (53) المتن الشمالي - 2 -

العملية: التقدم على الطريق انطلاقاً من نحايل باتجاه الشرق حتى النقطة المشرفة على البقاع (عين الذبان X = 17000 وY = 22650).

القوات: الجيش اللبناني + القوات اللبنانية.

بدائل:

- في حال وجود محور لتقدم الجيش الإسرائيلي في البقاع وصولاً إلى رياق وأبلح، سيؤدي المحور المذكور إلى حدث بعلبك في البقاع.
- في حال سقوط الثلوج على القمم، ستتغير طبيعة القوات، ويجب لحظ وسائل لوجستية مناسبة.

7 - جرد جبيل

التوقيت: بالتزامن مع جرد كسروان.

العملية:

71 - أمهز - تلة عين شكر - عريض الكريمات (X = 17340؛ Y = 23490 :1874 م).

72 - أفقا - الكركول - الرام :1940)(X = 17300؛ Y = 23800 م).

73 - العاقورة - قرنة المغر (1987 م) - ظهر القضيب (X = 17400؛ Y = 24100،

1940 م).

74 – اللقلوق – شير الدب 17700 = X؛ 24500 = Y ، 2040 م)

سيكون هناك تقدم على المحاور الأربعة مع انتشار جانبي. مواقع دفاعية مشرفة على البقاع.

القوات: قوات لبنانية + جيش لبناني.

بدائل:

- في حال حصول عملية للجيش الإسرائيلي في البقاع، يجب أن يفضي المحور المذكور أعلاه إلى اليمونة.
- في حال سقوط الثلوج على القمم ستتغير طبيعة القوات.

د - المرحلة الثانية

الشمال - 1 -: تحرير الأراضي المحتلة بعد أكتوبر - تشرين الأول 1976:

الشمال - 1 - (أ): الجرد

الشمال - 2 - (ب): الوسط

الشمال - 3 - (ج): الساحل

الشمال - -2: الوصول إلى نهر أبو موسى وجبل تربل.

الشمال - 3 -: تحرير عكار

8 - **الشمال - 1 - (أ):**

التوقيت: هذه العملية جزء من العملية الشاملة في الشمال، وتنفذ بالتزامن مع المحورين الآخرين في الشمال.

العملية:

81 - تنورين الفوقا - حدث الجبة.

82 - تنورين الفوقا - جرد تنورين - جوار التركمان.

(18000 = X؛ 25300 = Y؛ 2400 م)، وذلك لأجل قطع طريق عيناتا - الأرز.

83 - مواصلة العملية (82) وصولاً إلى الأرز.

9 - **الشمال - 1 - (ب):**

التوقيت: بعد الشمال - 1 - (أ) أو معه.

العملية:

91 - حدث الجبة - بشري - زغرتا - مجدليا.

92 - دير بلاّ - قنات - كوسبا - الكورة.

يجب أن تتقدم المحاور بالإضافة إلى تقدم على فروع المحاور الرئيسية، بحيث تؤمن انتشاراً في الكورة للسيطرة عليها.

القوات: القوات اللبنانية + المقاومة الداخلية.

10 - **الشمال - 1 - (ج) الساحل:**

التوقيت: مع الشمال - 1 - (ب)

العملية:

101 - الساحل: المدفون - البترون - شكا - القلمون.

102 - عبدلي - البترون (القرى).

103 - حلتا - البترون (القرى).

تقدم على المحاور وصولاً إلى برصا فيما خص المحور (101) والكورة فيما خص المحور (102) والمحور (103).

القوات: القوات اللبنانية + الجيش اللبناني + المقاومة الداخلية.

11- **الشمال - 2 - (نهر أبو موسى، جبل تربل):**

التوقيت: بعد الشمال - 1 - (ب وج).

العملية:

111 - مجدليا - جبل تربل

112 - مجدليا - سير الضنية

تأمين تطويق طرابلس والدفاع عن الأراضي المحررة.

القوات: الجيش اللبناني + القوات اللبنانية.

12 - **الشمال - 3 - (تحرير عكار).**

***

ملحـــق رقـــم 10

من تصميم زاهي البستاني وأنطوان نجم وسليم الجاهل. كتب بالفرنسية على أوراق كبيرة ذات مربعات وبشكل لوحات، ما عدا الصفحتين الأولى والثانية التمهيديتين. قدّم إلى الموساد بتاريخ 5 مارس - آذار 1982

الخطة السياسية - م -

عرض الوقائع

1 - بتاريخ 12 - 1 - 82 جاء وزير الدفاع الإسرائيلي إلى المنطقة الحرّة في لبنان، على رأس وفد يضم مسؤولين عسكريين وسياسيين رفيعي المستوى. وأطلع القائد الأعلى للقوات اللبنانية، والرئيس كميل شمعون، والشيخ بيار الجميّل على تصميم إسرائيل على القيام بعملية واسعة النطاق في الأراضي اللبنانية لأجل تدمير الجهاز العسكري والسياسي الفلسطيني، واقترح أن تشارك القوات اللبنانية في هذه العملية. وقوبل الاقتراح بموافقة مبدئية، وتمّ الاتفاق على تحديد إطار وآليات تنفيذها خلال اجتماعات لاحقة.

2 - على أثر هذا المسعى، قام وفد سياسي - عسكري يرأسه السيد جوزيف أبو خليل ممثلاً القائد الأعلى للقوات اللبنانية بزيارة إلى إسرائيل في 23 - 1 - 82 حيث تحدث مع وزير الدفاع الإسرائيلي، ورئيس هيئة أركان الجيش ومسؤولين إسرائيليين آخرين، لأجل الحصول على إيضاحات حول هدف العملية، وأماكن حصولها، ومداها، وإمكانيات التعاون بين الطرفين.

3 - بتاريخ 16 - 1 - 82 حضر رئيس هيئة أركان الجيش الإسرائيلي مجدداً إلى المنطقة الحرّة على رأس وفد يضم مسؤولين عسكريين وسياسيين رفيعي المستوى. وقام بأعمال رصد على الأرض وأجرى محادثات جديدة مع الجانب اللبناني، أبدى الطرفان خلالها مقترحات تمهيدية تتعلق بإمكانيات التعاون.

مقدمة عامة

1 - أهداف الخطة:

تحرير الأرض اللبنانية الواقعة تحت الاحتلال السوري والفلسطيني.

إبدال نظام الحكم الحالي بدولة تستطيع:

- أن تمارس سيادتها
- أن تؤمن النظام والأمن في كل البلاد وأن تدافع عن حدودها.
- أن تدير سياستها الخارجية بحرية.
- أن تعقد معاهدة صلح مع إسرائيل.

لأجل تنفيذ هذا البرنامج، من الضروري أن تستلم القوات اللبنانية الحكم وأن تمارسه في إطار حكم جديد مختلف عن سابقه الذي أثبت أداؤه أنه يتنافى مع سياسة سيادية.

2 - الأفكار التوجيهية للخطة:

أ - تحرير أوسع شطر ممكن من الأراضي الواقعة تحت الاحتلال السوري والفلسطيني.

ب - تأمين أفضل ظروف النجاح للخطة من الناحيتين العسكرية والسياسية.

ج - الإفادة القصوى من بعض العناصر المسيحية الموجودة في الحكم الآن لاعتبارات تتصل بالسياسة الداخلية والدولية، واستخدام الغطاء الذي يمثلونه لأجل استعمال الأدوات العسكرية للشرعية.

د - الوصول إلى الحكم بأساليب شرعية ومقبولة (احترام القواعد الدستورية والتمثيل الطائفي) والعمل تحت غطاء الأدوات العسكرية للشرعية، فيما يتعلق بالانتشار على الأرض.

هـ - العمل بطريقة تدرجية على إقامة حكم جديد، مع تحاشي اتخاذ العملية مظهر قلب النظام السابق.

و - تهيئة أفضل الفرص لإظهار قيادة القوات اللبنانية بمظهر منقذ الأمة.

3 - تقسم الخطة:

الجزء الأول: العوامل العسكرية والسياسية لنجاح الخطة.

الجزء الثاني: مراحل التنفيذ.

الجزء الثالث: ملاحظات تكميلية.

الجزء الأول

عوامل النجاح العسكرية والسياسية

تدابير تنفيذية تحت المسؤولية الإسرائيلية:

1 - توزيع العملية الإسرائيلية، من اختراقات وتقدمات وانتشارات على المحاور الثلاثة التالية:

- على الساحل انطلاقاً من منطقة قوات الطوارئ الدولية حتى خلدة.

- في الجبل من مرجعيون حتى المديرج .
- في البقاع من الخيام حتى رياق .

إن سير العمليات حسب الطريقة المشار إليها سيسمح بتحرير شطر واسع من الأراضي على نحو يجعل من الأسهل الدفاع عنه في المستقبل، ناهيك عن أهمية السيطرة على البقاع من الناحية الزراعية وخصوصاً لجهة ينابيع النهرين اللذين يجتازانه .

إن كل واحد من المحاور المذكورة يستجيب لتوجه محدد جيداً: المحور الساحلي مهم للعمليات العسكرية ضد الفلسطينيين، ومحور البقاع يستهدف نظام الدفاع السوري القائم في هذه المنطقة، وأخيراً محور الجبل الذي تعلق عليه أهمية كبرى على صعيد السياسة الداخلية اللبنانية .

إن سير العملية على ثلاثة محاور سيسهل أكثر الارتباط بين مختلف نقاط الوصول إلى الجيش السوري على طريق بيروت – دمشق .

بديل: عند الاقتضاء، إطالة محور التقدّم عن طريق الساحل حتى حلبا (عكار) والهرمل (البقاع) .

إذا بقيت مناطق بعلبك والهرمل وعكار خارج مسرح العمليات . فقد يغري ذلك السوريين بالبقاء فيها ويغري الفلسطينيين باستخدامها لإقامة قواعد جديدة .

من المستحيل عملياً على القوات اللبنانية وعلى عناصر من الجيش اللبناني أن تقوم هي نفسها بتحرير هذه الأراضي، ما دامت شواغلها الكبرى موجهة، في خلال المرحلة الأولى من العملية، إلى العاصمة ومرتفعات المتنين ومنطقتي الشمال والبقاع . وإذا تركت هذه المناطق خارج السيطرة اللبنانية والإسرائيلية، فإنها قد تستخدم لإنشاء دولة لبنانية أخرى تابعة لسورية أو للفلسطينيين، وقد يلحق هذا الأمر ضرراً كبيراً بإقامة نظام لبناني جديد .

2 – يجب أن تسير العمليات والاختراقات والانتشارات بسرعة، خلال فترة لا تتعدى 72 ساعة .

للإسراع في تنفيذ العملية أهمية حيوية بالنسبة إلى وصول القوات اللبنانية إلى الحكم، إن لجهة السياسة الداخلية أو السياسة الدولية . فهو يسمح إلى حدٍّ كبير بحصر ردود الفعل عند بعض نقاط الدخول الصعبة (صيدا مثلاً) .

3 – شن هجوم منذ الساعات الأولى للعملية على مصادر نار العدو السوري والفلسطيني الموجودة على الأرض اللبنانية (المدفعية الثقيلة، بطاريات الصواريخ، أراغن ستالين) باستعمال وسائل تدمير مثيرة للرعب . وذلك تلافياً للقصف المدفعي الذي سيعيق تقدم القوات الإسرائيلية وحرية الحركة العسكرية في المنطقة الحرّة وصوناً لمعنويات السكان المدنيين في المناطق المحرّرة .

4 – إبقاء الحضور العسكري الإسرائيلي على محاور الاختراق والانتشار المشار إليها أعلاه ستة أسابيع على الأقل، مع تلافي إعطاء هذا الحضور تغطية سياسية صريحة من الجانب اللبناني .

الحضور المطلوب يشكل مهلة دنيا لنجاح الخطة السياسية الملحوظة والتي تم توزيعها على عدة مراحل . ويفضّل عدم إعطاء الحضور الإسرائيلي تغطية سياسية صريحة، من أجل تسهيل اشتراك جميع الطوائف في الحكم الجديد، وبالتالي قبولها من جانب الدول الغربية .

إن كشف التعاون العسكري بين القوات اللبنانية والجيش الإسرائيلي قبل الأوان يحد كثيراً أيضاً من الدور الذي تبغي قيادة القوات اللبنانية ممارسته في الحقل السياسي، بما في ذلك قلب المراحل الأولى للعملية، وهو أن تبدو بمظهر منقذ الأمة .

إن سرور الجيش الإسرائيلي عبر مناطق وجود الجيش اللبناني (الحدث وكفرشيما خصوصاً) يحد من إمكانية استخدام الجيش فيما بعد كأداة للشرعية من أجل السيطرة على مدينة بيروت خصوصاً . هذه المهمة يجب أن تكون على عاتق القوات الإسرائيلية، كما أنها ستحدّ من إمكانية استخدام القوات اللبنانية لغطاء الجيش الشرعي خلال العمليات التي تنوي القيام بها .

وفي نطاق هذه الفرضية، ولاعتبارات سياسية، داخلية ودولية قد تتعرض لخطر كبير المصلحة المتمثلة بالإفادة من المظلة التي يمكن أن تشكلها العناصر المسيحية الموجودة في الحكم الآن . وقد يشطر الوضع الناشئ عن ذلك السلطة الشرعية إلى شطرين ينادي كل منهما بأنه وحده السلطة الشرعية، على غرار ما حصل سنة 1976 .

إن هذا يؤثر بشكل مباشر على إمكانية تأليف حكومة يراد لها أن تحافظ على التمثيل الطائفي وتكون فيها للقوات اللبنانية الأولوية في اتخاذ القرار .

بديل: في حال الضرورة الكبرى، يمكن أن تكون المناطق الحرّة نقاط انطلاق للعمليات الإسرائيلية دون أن يؤثر ذلك على استعمال هذه المناطق كمركز تموين وتجمّع للسكان المدنيين، إذا دعت الحاجة (من يانوح إلى خلدة مثلاً) .

إن مراحل العملية السياسية ستكون محدودة بقدر محسوس ويمكن تجاوز تلك المعتبرة مراحل إعدادية، إذا كان يمكن أن تصل القوات اللبنانية إلى الحكم فوراً .

سيكون تحرك القوات اللبنانية نحو مرتفعات المتنين والمناطق المسيحية في الشمال والبقاع أسرع وستجري على الأرجح – بعيداً عن كل تغطية من جانب الجيش الشرعي – إجراءات تنفيذية تحت مسؤولية إسرائيلية ولبنانية .

5 - في أثناء عمليات الاختراق على المحاور المذكورة سيقتصر دور القوات اللبنانية على الدفاع عن المناطق الحرّة وقد تعمل تحت لافتة الشرعية خلال انتشارها في المرحلة التالية.

هنا مجال للخوف من أن يقوم العدو بعمليات عسكرية في المناطق الحرّة، إن في الجبل أو في الشمال، خلال نجاح القوات اللبنانية في مرتفعات المتنين وفي المناطق المسيحية في الشمال والبقاع.

6 - يجب أن تبدو العملية كأنها عملية إسرائيلية تهدف إلى بلوغ أهداف محض إسرائيلية، ويستحسن قدر الإمكان منع ظهور التعاون القائم بين الجانبين الإسرائيلي واللبناني في الحقلين العسكري والسياسي.

هذا يعني بالتالي تأمين التوافق بين الإجراءات المقترحة والأفكار التوجيهية للخطة (ج)، (د)، (هـ) الملحوظة في المقدمة العامة.

يجب تلافي حصول ردود فعل سلبية يمكن أن تسيء إلى سير العملية السياسية.

7 - يجب أن يمنع الرائد سعد حداد وفريقه من الإدلاء بأي تصريح ومن القيام بأصغر دور سياسي ممكن. إن الاتصالات العسكرية والسياسية مع أي طرف لبناني أو إقليمي أو غيرهما، قبل العملية وخلالها وبعدها، ستكون من اختصاص قائد القوات اللبنانية حصراً.

وجوب صون وحدة القرار على الصعيد اللبناني. وقطع الطريق على كل المناورات السياسية من جانب أطراف لبنانية أخرى قد تقدم على التوجه مباشرة إلى السلطات الإسرائيلية.

8 - ستجري العملية بعد قبول رئيس الجمهورية استقالة الحكومة وتكليفها بتصريف الأعمال وإحالة مشروع إلى مجلس النواب يقضي بتعديل الدستور لأجل تقريب موعد انتخاب رئيس الجمهورية أربعة أشهر.

يجب تحاشي كل الصعوبات ذات الطابع السياسي التي يمكن أن تعيق استقالة الحكومة وتأليف حكومة جديدة.

يجب تسهيل انتخاب رئيس جديد للجمهورية تتطابق آراؤه مع التوجهات السياسية الجديدة المنشودة.

يجب تسهيل التفاهم بين اللبنانيين لجهة العمل السياسي المرتقب.

9 - إن استعمال عبارات من نوع "انسحاب القوات الأجنبية من الأراضي اللبنانية" و "لجنة الهدنة" وما شابه، من جانب السلطة اللبنانية الجديدة، يمكن أن يخدم

خطتها في عدم ظهور التفاهم القائم بينها وبين إسرائيل، في الفترة الأولى، وبهذا المعنى يجب أن تفهم إسرائيل استعمال هذه التعابير.

يجب تأمين الأصداء الأكثر مؤاتاة في الأوساط الغربية لهذه السياسة.

الجـزء الثـاني: مـراحل التنفيـذ

1. المرحلة الأولى: الطور الإعدادي:

بين الصفر والثماني والأربعين ساعة: مرحلة تغطي أولى ردود الفعل على الصدمة والمباشرة السريعة باستغلالها.

القوات الإسرائيلية:

مواصلة التقدم حتى شمال صيدا (على الساحل) وحتى باتر (في الجبل) وحتى عيتا الفخار (في البقاع).

في السياسة:

يمنع كل اتصال بالخارج وكل إمكانية عمل في الحقل السياسي كما في الحقل الإعلامي على:

- جميع الأطراف المعادية.
- المسؤولين الرسميين غير الموثوقين.

مرحلة تباحث مع رئيس الجمهورية لأجل تشكيل حكومة جديدة.

في الشأن العسكري:

تقطع كل طرق الاتصال مع بيروت، وتجمّد الحركة الجوية في مطار بيروت الدولي، وتغلق المداخل البحرية.

تدمّر محطات إرسال الإذاعة اللبنانية، وتلفزيون لبنان، وصوت لبنان العربي، وصوت فلسطين بواسطة القصف، وكذلك مباني الصحف: السفير، الشرق، اللواء و النداء.

تتخذ تدابير دفاعية في المناطق الحرة ويجري تنسيق مع بعض وحدات الجيش للقيام بعمليات عسكرية ممكنة.

في الإعلام:

تبدأ حملة إعلامية كثيفة لإلحاق الضرر بأدنى ميل إلى المقاومة عند العدو ويلوّح في وجه قدوم القوات الإسرائيلية إلى العاصمة.

2. المرحلة الثانية: الاضطلاع بالسلطة التنفيذية:

بين الصفر والاثنين والسبعين ساعة. إستلام السلطة التنفيذية بالتعاون مع رئيس الجمهورية عن طريق تشكيل حكومة جديدة تؤمن استمرار المظهر الشرعي، وتحافظ على التمثيل الطائفي، وتولّي القوات اللبنانية مسؤولية الوزارات الرئيسية والسلطوية في اتخاذ القرار.

القوات الإسرائيلية:

تقدم الوحدات الإسرائيلية حتى الدامور (على الساحل) ومعاصر بيت الدين (في الجبل) وبر الياس (في البقاع).

في السياسة:

يصدر عن رئيس الدولة نداء مأساوي إلى جميع القادة اللبنانيين كي يجتمعوا في قصر بعبدا.

تؤلف حكومة جديدة حسب إحدى الصيغ التالية:

- حكومة مدنية من اثني عشر عضواً مع ردفائهم تؤلف برئاسة سنّي.
- حكومة مدنية من اثني عشر عضواً مع ردفائهم تضم عسكريين برئاسة مدني أو عسكري سنّي.
- حكومة برئاسة ماروني مع المحافظة على التمثيل الطائفي، في حال تخلّف السنّي عن تحمل أعباء رئاسة الحكومة، أو في حال خشية اتخاذ مجلس النواب موقف معادٍ من التوجه الجديد للحكم.

تُحفظ وزارات الدفاع والشؤون الخارجية والمالية والإعلام لعناصر تنتمي إلى القوات اللبنانية.

تجعل الحكومة مقرّها في القصر الجمهوري.

في الشأن العسكري:

بدء العمليات الملحوظة من جانب القوات اللبنانية باتجاه مرتفعات المتنين بالتعاون مع بعض وحدات الجيش والعمل قدر الإمكان تحت رايته.

فيما خصّ المناطق المسيحية في الجنوب، سيتقرر الأمر في ضوء تقدير الوضع على الأرض.

في الإعلام:

يتخذ عمل وسائل الإعلام طابعاً تغلب عليه الاعتبارات الإنسانية باتجاه اللبنانيين.

3. المرحلة الثالثة: تحرك السلطة التنفيذية:

مرحلة تنجم عن تأليف حكومة جديدة وتدوم أربعة أسابيع على الأقل. يمارس الحكم وفقاً للتوجهات السياسية والعسكرية الملحوظة في الخطة وبأساليب تسمح بتنفيذ مرحلتها الرابعة.

القوات الإسرائيلية:

تتوقف القوات الإسرائيلية عن التقدم وتبدأ الانتشار حول محاور الاختراق.

في السياسة:

تتجنب الحكومة حلّ مجلس النواب إذا أبدى هذا استعدادات طيبة للتعاون معها ومنحها صلاحيات واسعة للتشريع.

تملأ المراكز الرئيسية المختلفة في الدولة: تعيين قائد جديد للجيش، ومدير عام لقوى الأمن، وحاكم جديد للمصرف المركزي، وخمسة محافظين.

يوسّع نطاق حالة الطوارئ حتى يشمل كل مناطق البلاد.

تتخذ تدابير عسكرية تتناول النقاط التالية:

- انتشار الجيش في جميع المناطق التي لم يدخلها الجيش الإسرائيلي.
- إنشاء محاكم ميدانية مكلفة بالنظر في قضايا الأمن.
- جمع الأسلحة الموجودة في حوزة اللبنانيين أو العناصر الغريبة.
- منح القوات اللبنانية حصانة خاصة.

ويتخذ قرار سياسي يتناول:

- انسحاب جميع القوات الأجنبية من الأراضي اللبنانية.
- الشروع في مفاوضات مباشرة مع هذه القوات ليتم انسحابها.
- التوجه إلى الولايات المتحدة للحصول على مساعدة مباشرة من أجل استعادة السيادة.

يطبق على الفلسطينيين نظام جديد يتناول:

- إحصاء الفلسطينيين الذين دخلوا لبنان سنة 1948 لأجل التفريق بينهم وبين الذين دخلوا لاحقاً.
- جمع الأسلحة التي قد تكون باقية بين أيدي المنظمات الفلسطينية ومنع هذه المنظمات من القيام بأي تظاهر عسكري أو شبه عسكري.
- تحديد مهلة يتوجب عند انتهائها أن يكون جميع الفلسطينيين الذين دخلوا بعد 1948 قد غادروا البلاد.

- اتخاذ إجراءات تضييقية تتناول الوسائل التي تسمح للفلسطينيين بتأمين عيشهم على الأراضي اللبنانية.
- إلغاء كل الاتفاقيات المعقودة مع الفلسطينيين.

في الشأن العسكري:

كما تجرى عمليات من جانب الجيش والقوات اللبنانية من أجل استرجاع المناطق المكشوفة، بيروت الغربية خصوصاً، والمناطق المسيحية في الشمال، وبقية البلاد تدريجياً. وتجرى عمليات أخرى بغية زعزعة أمن الفلسطينيين الباقين في البلاد.

يعيّن ضباط ارتباط لتأمين الاتصال مع القوات الإسرائيلية في مناطق وجودها.

4. المرحلة الرابعة: الوصول إلى الحكم:

تمتد هذه المرحلة على الأسبوعين الخامس والسادس بعد تألف الحكومة. وصول رئيس جديد للجمهورية إلى الحكم. تأمين أفضل الظروف لتحقيق أهداف مشتركة بين الطرفين على الصعيدين العسكري والسياسي.

القوات الإسرائيلية:

بداية انسحاب جزئي ومحدود للقوات الإسرائيلية (يحدد فيما بعد).

في السياسة:

مواصلة المفاوضات مع السلطات الإسرائيلية لأجل تطبيع نهائي للعلاقات بين البلدين.

يدعى مجلس النواب للانعقاد من أجل انتخاب رئيس جديد للجمهورية.

انتخاب رئيس جديد للجمهورية يجسّد في شخصه طموحات ومنجزات المقاومة اللبنانية.

تأليف حكومة جديدة. منح الحكومة الجديدة سلطة التشريع.

حل مجلس النواب، ما لم يكن قد سبق حلّه.

بداية علاقات جديدة مع دولة إسرائيل في أعقاب انسحاب قواتها بصورة كاملة.

في الشأن العسكري:

الانتشار العسكري اللبناني في المناطق التي تخليها القوات الإسرائيلية من أجل بسط سلطة الشرعية على كامل الأراضي.

تطبيق نظام أمني معزّز.

ملاحظات تكميلية:

1 - فرضية تأليف حكومة برئاسة ماروني:

أ - يمكن أن تظهر هذه الفرضية خلال المرحلة الأولى في حال تخلّف سنّي عن تولي رئاسة الحكومة، أو إذا رفض رئيس الجمهورية البقاء في الحكم، وفي المراحل اللاحقة، إذا تقرر حلّ مجلس النواب من جرّاء ظهور مواقف معادية لتوجهات الحكم الجديد.

ب - سيعقب تأليف حكومة كهذه انتخاب رئيس للجمهورية، وفي حال غياب هذا الرئيس تتولى الحكومة مهام الحكم وفقاً للقواعد الدستورية واستناداً إلى السوابق.

2 - الإبقاء مؤقتاً على مجلس النواب أو حلّه:

أ - سيكون مجلس النواب مفيداً إذا أبقي عليه لأجل التصديق، بصورة رئيسية على التدابير المتخذة من جانب الحكومة الجديدة ولأجل انتخاب رئيس جديد للجمهورية.

ب - في حال حلّ المجلس، ستضطر الحكومة إلى الاستقالة وفقاً لفكرة "الظروف الاستثنائية" في حال عدم انتخاب مجلس جديد خلال مهلة الأشهر الثلاثة المنصوص عنها في الدستور.

3 - الوضع القانوني للقوات اللبنانية:

أ - سيتيح مثل هذا الوضع القانوني للقوات اللبنانية أن تتحرك على نطاق أوسع وعلى نحو أكمل.

ب - يمكن إيجاد هذا الوضع بقرار يصدر عن الحكومة يقضي بإنشاء حرس وطني أو وحدات خاصة، تكون ملحقة بالجيش اللبناني.

4 - المفاوضات المباشرة:

أ - القرار القاضي بالشروع في مفاوضات مباشرة هو الأسلوب المثالي للوصول، في المرحلة الأخيرة، إلى علاقات طبيعية مع دولة إسرائيل.

ب - لهذه الغاية، يفضل إحياء لجنة الهدنة أو تأليف لجنة سياسية عسكرية خاصة.

5 - العمل ذو الطابع الاقتصادي وعلى صعيد الإعلام:

ستوضع خطة لهذه المواضيع لاحقاً.

***

ملحق رقم 11

سُلّم من قبل القائم بالأعمال أبو بكر رفيع

رسالة سفير العربية السعودية علي الشاعر
إلى بشير في 29 يونيو - حزيران 1982

إلى الأخ أبو بكر رفيع
آمل أن تنقلوا فوراً إلى الشيخ بشير الجميل الرسالة الآتيه، .... بداية - ....
عرفنا للتو عن إخواننا الفلسطينيين أنهم يسعون، مع السلطات اللبنانية والزعماء المسلمين اللبنانيين، إلى أيجاد حلّ مشرف لإنقاذ الوضع من خلال خطة تضمن الحفاظ على كرامة المقاومة الفلسطينية وعلى سيادة لبنان على كل شبر من الأرض اللبنانية، الأمر الذي يحول دون احتلال القوات الإسرائيلية لما تبقّى من بيروت الغربية - .... لقد لاحظنا أهليتهم الكاملة للتعاون إلى أقصى الحدود في هذا الاتجاه وذلك ضمن إطار الاقتراح الجديد المقدّم إلى السلطات من قبل فيليب حبيب والذي لا يزال تحت الدرس مع ترجيح أنه سيكون مقبولاً - ... - واستناداً إلى ما نعرفه عنكم من إرادة عميقة وفعلية للحؤول دون سفك الدم وتجنيب الشعب اللبناني والأخوة الفلسطينيين المزيد من الضحايا والدمار، فإن أملي كبير بأنكم لن تضنوا ببذل جهودكم الشخصية لأجل دعم هذا التوجه وبلوغ هذا الهدف الذي تأمله الأمة العربية جمعاء، إذ إن استمرار التمسك بمواقف متصلبة سيرتد دون شك على الجميع بعواقب رهيبة لا يمكن التكهن بمداها - ... - وسيكون من المفيد أن يقوم بينكم وبين الأخ هاني الحسن تنسيق عاجل ومشترك من أجل الوصول إلى صيغة مقبولة من الجميع. .. بانتظار تعاونكم المأمول، سدد اللّه خطاكم لما فيه مصلحة لبنان الشقيق. مع أفضل تحياتي - ... علي الشاعر - ... - ختام الرسالة ...

***

ملحق رقم 12

رسالة من السفير السعودي علي الشاعر إلى بشير
للترحيب بقدومه إلى السعودية
30 يونيو - حزيران 1982

40/40 وزارة الخارجية
10/ 9/ 1402 هـ. الساعة 12.15 ظهراً عاشور
الرقم 97/ 16/ 17391/ 1
نجدية بيروت
سعادة الأخ أبو بكر رفيع

عطفاً على برقيتكم 1/ 12/ 4012 تاريخ 9/ 9-1402 هـ التي تعلموننا فيها بموافقة الشيخ بشير على الحضور إلى المملكة... تفضلوا بنقل الرسالة التالية إليه على الفور.

الأخ العزيز بشير

عطفاً على ما نقل إلينا حول موافقتكم على المجيء إلى الطائف للبحث في مقترحات وفي توصيات لكي نناقش معكم أفضل الحلول التي تسمح بتسوية الوضع الراهن، فإن صاحب السمو الملكي الأمير سعود الفيصل، وزير الخارجية، يرحب بكم باسم اللجنة الوزارية المجتمعة حالياً في الطائف... نرسل إليكم طائرة خاصة لكي تقلكم من قبرص إلى الطائف ظهر اليوم، آملين أن تصلوا عند الساعة السادسة مساءً. سننسق بشأن التوقيت مع سعادة السفير الأميركي في جدة... ختام الرسالة ...
تفضلوا بإعلامنا منذ تسليمكم هذه الرسالة إليه....

- السفير علي الشاعر -

***

الفهرس



آلان مينارغ

أسرار حرب لبنان

من انقلاب بشير الجميل إلى حرب المخيمات الفلسطينية

لم يحصل من قبل أن تمكن أحد، بمثل هذا الكم من الوثائق والتفاصيل، أن قدّم رواية عن الفترة الممتدة منذ عزم بشير الجميل الاستيلاء على السلطة حتى الاجتياح الإسرائيلي للبنان. ثم مقتل الرئيس الشاب وما تلا ذلك من مجازر في صبرا وشاتيلا، هذه الأيام ال722 السوداء.

بعد أن صفى خصومه بالدم، ترأس بشير الجميل، النجل الأصغر لإحدى العائلات اللبنانية المارونية الكبرى، الميليشيا المسيحية وفرض نفسه بواسطة الخوف على الأحزاب المسيحية المحافظة.

وبفضل مساعدة إسرائيل السياسية، وما قام به الموساد والجيش الإسرائيلي، اللذان دربا رجاله، متّن قوته العسكرية، وفتح باب أمل للسلام مع الدولة العبرية ولتوقيع اتفاقيات معها.

وبعد اعتراف واشنطن به طرفاً محاوراً، باشر محادثات مع الدول العربية وأقام تحالفاً سياسياً وعسكرياً مع أرييل شارون ورفائيل إيتان لطرد الفلسطينيين من لبنان.

انتخب رئيساً للجمهورية اللبنانية، ثم اغتيل بعد ثلاثة أسابيع.

يروي **آلان مينارغ**، مراسل الحرب الكبير لإذاعة فرنسا في العالم العربي والذي كان مقيماً في لبنان لفترة تناهز خمسة عشر عاماً.

في هذا الكتاب ما بقي خفياً في المشهد معتمداً فرصة استثنائية توفرت له في الحصول على وثائق غير منشورة كانت بحيازة الفرقاء على الساحة.



شارع كليمنصو- سنتر الجفينور(بلوك د)
هاتف:٠١/٧٤٣٢٨٥/٦-٠١/٧٥١٩١٠
٠٣/٧٤٠٠٢٠ -فاكس:٠٠٩٦١-١-٧٥١٩١١
ص.ب:١١-٨٠١٨ بيروت - لبنان
E-mail:Libinter@cyberia.net.lb

ISBN 9953-00-571-0

